

كتاب الغيرة وحسن الميثاق والخير

في أيام العرب النعم والبزبر ومن حاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

تأليف

عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن خلدون

الكتاب الأول، الميثاق والخير

الجزء الثاني

قرأه وعارضة بأصول المؤلف، وأعيدت طبعه وفهارة

إبراهيم بن محمد

تقريباً
2007

كتاب العبر ودين المبتدئين والخبر

كتاب العبرة وبيان المبتدئين والخبر

فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ الْعَظِيمِ وَالْبَزْبِ وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الْأَكْبَرِ

تأليف

وَاللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ

الْكِتَابُ الْأَوَّلُ : الْمُفْتَاتِحُ

البرق

قَرَأَهُ وَعَارَضَهُ بِأُصُولِ الْمُؤَلَّفِ ، وَأَعَدَّ مَعَايِجَهُ وَفَهَارِيسَهُ

ابن ابي شیبہ

نشرة تكميلية، أعدت بمناسبة احتفالات تونس ٢٠٠٧، بالموية السادسة لئابقها

عبء الرءمن بن مءمر بن ءلءوز

مشروع إءفاء ءراث ابن ءلءوز

أعدأ أصوله الءطبة وأشرف عله

ابن إهم شبع

نشر: القبرواء النشر

ص. ب. 115 - المناسر الثاني - تونس 2092 الءمهورفة التونسية

الرقفم الدولف: 5-02-896-9973-978 ISBN

ءمفع الءقوق مءفوظة لءامر القبرواء النشر

الطبعة الأولى

٢٠٠٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

هذا هو الجزء الثاني من كتاب العبر، وبه يكتمل الكتاب الأول [المقدمة]، وقد بذلنا غاية الجهد ليخرج النّص واضحاً وصحيحاً كما وثّقته مجموعة النّسخ التي كانت بين يدي المؤلّف، وتدخل فيها بصور مُتفاوتة، حسبما شرحناه في مقدمتنا للكتاب التي فصلت القول في تحليل ووصف الأصول الخطيّة.

وقد اعتمدنا في هذا الجزء على أربع مخطوطات، سبق لنا تقديمها، وقلنا إنّ نسخة حاث أفندي "ل" ذات التقسيم الموازي للظاهريّ - وكانت في أربعة عشر جزءاً - قد توقّفت بنهاية النصف الأوّل.

هذا، وتصدّر - بمشيئة الله - بقية أجزاء العبر، بكتائيه الثاني والثالث، مُتتالية وفي آجال محدّدة، ليخرج الكتاب تاماً ومعتمداً على أصول عليها جميعها أثر مؤلّفها ابن خلدون، وهي المرّة الأولى التي يخرج فيها كتاب العبر مُستنداً على أوثق الأصول الخطيّة التي خلفها المؤلّف، وكتبته بإشرافه وتدخله أواخر أيّامه.

وفي هذا الجزء فصلان مهمّان في تاريخنا الثقافيّ، يُثيران تساؤلات وإشكالات شتى، وقد وقفنا أمامهما بكثير من العناية الخاصّة والحذر لصعوبة مادّتهما، وللحيطة التي تُطلّب عند التدقيق.

الأولُ منها: هو الفصل 29 من الفصل السادس من الكتاب الأول، في علم أسرار الحروف، وما يتصل به من شؤون علم السيمياء، ويمتد على صفحات 337-390، فقد تخلّله مجموعات من الأرقام الدالة بطريقة "رشم الزمام" التي كانت مُستعملة في دواوين الدول المغاربية زمن ابن خلدون؛ وهي معروفة ومحدّدة، إلى جانب طريقة "رشم الغبار". وظهرت عن الطريقتين دراسات جيّدة، وقَدّم Franz Rosenthal في حاشية من ترجمته الإنكليزية توضيح دالة هذه الأرقام، وترك لموقعها في نص الترجمة بياضاً (3: 197، الحاشية 882).

ولأمانة الأداء، قننا بإعادة تركيب تلك الأرقام وتزليلها في مواقعها بعد تنضيد النص وإعداده النهائي، وقد وردت جميعها في الأصول متشابهة في كتابتها ورسومها، عدا نسخة "ي" التي اختفت منها الزايرة بدائرتها وجدولها.

فانتقينا أكثر الرسوم وضوحاً وهي التي أوردتها نسخة عاطف أفندي "ع"، ونزّلناها في مكانها، على أن نعرّف بها في معجم المقدمة. وقد اضطررنا إخراج الكتاب أن نقسم جدول الزايرة الموحد إلى قسمين متقابلين واضحين، حتّى لا يتعرّض جزء منه للاختجاب بين الصّفحتين.

والثاني: هو الفصل الستون من الفصل السادس للكتاب الأول، في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد (الصفحات 549-566)، وتكمن صُعبته في إقامة إيقاعه وفهم معانيه والتّقيّد المُطلق بالحركات التي استعملتها الأصول المخطوطة بدون تدخّل جديد، حتّى في التعابير الواضحة التي يمكن أن تُضبط

حركاتها استناداً لما نَعْلَم. وقد التزمنا ذلك حتّى لا نُزيك أصحاب الأبحاث الفيلولوجيّة والصّوتية بالخلط عليهم فيما هو وثيقة عَصْر. وبهذا الالتزام الذي توخّيناهُ يمكن اعتبار الشّكل الذي خرجت به هذه الأشعار هو ما اعتمدته ابنُ خلدون نفسه⁽¹⁾.

والتزمنا أن نُلحِق بكلّ جزء بياناً بمحتواه التام، بلغة المؤلف التي فهِرسَ بها أجزاء الكتاب، إلّا ما أضفناه للإيضاح محصوراً بمحاصرتين، على أن يصدر الفهرسُ التفصيليّ الشامل لكلّ أجزاء الكتاب بعد اكتمالِ صدوره.

أمّا معاجِمُ المقدّمة، التي نعتبرها تدخّلاً خارجيّاً لم نردّ إقحامه على النصّ، تميّزاً في عملنا بين التحقيق والشرح، فنُفردُها مستقلةً في جزء خاصّ، تيسيراً وتعريفاً بأكثر ما يمكن أن نُلِمَّ به ممّا ذكر فيها من لغة وأعلام ومُصطلح وأسماء كتب، إضاءةً وتقريباً لفهم مادّة الكتاب، وتقدّماً لما يحتاجه من بيانات مُضافة.

ومن الله نستمدُّ العون.

إبراهيم شربوع

(1) كُتبتْ قَدِّمْتُ صورةً من أصول نماذج هذه الأشعار كما وردتْ في نُسخِ المقدّمة المعتمدة، لصديقي الباحث د. محمد بن شريفة، فأخرجها في كتابه "تاريخ الأمثال والأشعار في الأندلس والمغرب" (5: 112 - وغيرها) واجتهد في ضبطها بالحركات ضبطاً تامّاً، اعتماداً على علمه الواسع بلهجتها المغربية، وعلى دراسته لمثون الأمثال الأندلسيّة المختلفة.

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر

الكتاب الأول : المبتدأ

الجزء الثاني

/ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

^(أ) وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

الفصلُ الرَّابِعُ * من الكتابِ الأوَّلِ * ^(ب)

(أ) ع، ج: وما توفيقني إلا بالله، عليه توكلت. ي: ربنا آتانا من لئلك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً (ب) سقط من ي .

فِي الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ * وَالْمَدُنِ وَسَائِرِ الْعُمَرَانِ الْحَضَرِيِّ *^(أ) وَمَا يَعْرِضُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَحْوَالِ؛ وَفِيهِ سَوَابِقُ وَلَوْ أَحَقُّ

1 * فَصْلٌ، فِي أَنَّ الدُّوْلَ أَقْدَمُ مِنَ [الْمَدْنِ] ^(ب) وَالْأَمْصَارِ، وَأَنَّهَا إِنَّمَا تَوْجَدُ ثَانِيَةً
عَنِ الْمَلِكِ

وبيانه: أَنَّ الْبِنَاءَ وَاخْتِطَاطَ الْمَنَازِلِ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ مَنَازِعِ الْحَضَارَةِ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا
الزُّرْفُ وَالِدَّعَةُ، كَمَا قَدَّمَاهُ، وَذَلِكَ مُتَأَخِّرٌ عَنِ الْبَدَاوَةِ وَمَنَازِعِهَا. وَأَيْضاً فَالْمَدْنُ
وَالْأَمْصَارُ ذَاتُ هَيَاكِلٍ وَأَجْرَامٍ عَظِيمَةٍ وَبِنَاءٍ كَبِيرٍ، إِذْ هِيَ مَوْضُوعَةٌ لِلْعُمُومِ، لَا
لِلْخُصُوصِ؛ فَتَحْتَاجُ إِلَى اجْتِمَاعِ الْأَيْدِي وَكَثْرَةِ التَّعَاوُنِ، وَلَيْسَتْ مِنَ الْأُمُورِ
الضَّرُورِيَّةِ لِلنَّاسِ الَّتِي تَعْمُ بِهَا الْبَلَاوَةُ حَتَّى يَكُونَ نُزُوعُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقِيّاً وَاضْطَرَّارِيّاً،
بَلْ لَا بَدَّ مِنْ إِكْرَاهِهِمْ [عَلَى ذَلِكَ] ^(ج) وَسَوْقِهِمْ ^(د) إِلَيْهِ مُضْطَهَّدِينَ بَعْضُ الْمَلِكِ، أَوْ
10 مُرْغَبِينَ فِي الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ الَّذِي لَا يَبْقَى بِهِ لِكَثْرَتِهِ إِلَّا الْمَلِكُ وَالِدَّوْلَةُ. فَلَا بُدَّ [فِي] ^(هـ)
تَقْصِيرِ الْأَمْصَارِ وَاخْتِطَاطِ الْمَدْنِ مِنَ الدَّوْلَةِ وَالْمَلِكِ.

ثُمَّ إِذَا بُنِيَتِ الْمَدِينَةُ، وَكُلُّ تَشْيِيدِهَا - بِحَسَبِ نَظَرٍ مِنْ شَيْدِهَا، وَمَا اقْتَضَتْهُ
الْأَحْوَالُ السَّمَاوِيَّةُ وَالْأَرْضِيَّةُ فِيهَا - فَعُمِّرَ الدَّوْلَةُ، حِينَئِذٍ، عُمِّرَ لَهَا. فَإِنْ كَانَ أَمْدُ

(أ) سَقَطَ مِنْ ج (ب) مِنْ ع، ج، ي، وَفِي ظ: الدُّوْلُ (ج) مِنْ ع، ي، ج، وَسَقَطَتْ مِنْ ظ (د) فِي ظ: وَشَوْقَهُمْ
(هـ) مِنْ ع، ج، وَفِي ي، ظ، مِنْ .

الدولة قصيراً، وَقَفَ الحالُ فيها عندَ انتهاءِ الدولة، وتراجَعَ عُمُرانُها، وخربت. وإن كان أمدُ الدولة طويلاً ومُدَّتْها مُنْقَسِحَةٌ، فلا تزالُ المصانعُ فيها تُشاد، والمنازلُ الرَّحِيَّةُ⁽¹⁾ تكثُرُ وتُتَعَدَّدُ، ونطاقُ الأسوارِ يَتَبَاعَدُ وَيَنْفَسِخُ، إلى أن تَتَسَّعَ الخِطَّةُ، وتَبْعُدَ المسافةُ، وَيُعْيِي ذُرْعُ المساحةِ، كما وَقَعَ بِبَغْدَادَ وَأُمثالِها.

5 ذكر الخطيبُ في تاريخه⁽¹⁾: أَنَّ الحَمَامَاتِ بَلَغَ عَدْدُهَا بِبَغْدَادَ - لَعَهْدِ المَأْمُونِ - خَمْسَةَ وَسِتِّينَ أَلْفَ حَمَامٍ؛ وكانت مُشْتَمِلَةً على مُدُنٍ وَأَمْصَارٍ مُتَلَصِّقَةٍ وَمُتَقَارِبَةٍ تُجَاوِزُ الأَرْبَعِينَ؛ ولم تَكُنْ مَدِينَةً وَاحِدَةً يَجْمَعُهَا سِوَرٌ وَاحِدٌ، لإِفْرَاطِ العُمرانِ. وكذا حالُ القَيروانِ، وقُرْطُبةَ، والمَهْدِيَّةِ في المِلَّةِ الإسلاميَّةِ، وحالُ / مَصْرَ والقاهرةِ بَعْدَها فيما يَبْلُغُنا لهذا العَهْدِ.

[1 239]

10 وأما بعد انقراض الدولة المشيِّدة للمدينة: فإِذَا أن يكونَ لَصُواحِي تلك المدينة وما قاربها من الجبالِ والبَسَائِطِ باديةً تَمُدُّها العُمرانُ دائماً، فيكون ذلك حافظاً لوجودها، وَيَسْتَمِرُّ عُمُرُها بَعْدَ الدولة، كما نَراه بِفَاسَ وبِجَايَةِ من المَغْرِبِ، وبِعِراقِ العَجَمِ من المَشْرِقِ، الموجودِ لها عُمُرانُ الجبالِ. لأنَّ أَهلَ البَدْوِ إِذَا انْتَهت أحوالُهم إلى غايَتِها^(ب) من الرِّفَّةِ والكَسْبِ، نَزَعُوا إلى الدَّعَةِ والسَّكُونِ الَّذِي في طَبِيعَةِ البَشَرِ، فَيَنْزِلُونَ المَدَنَ والأَمْصَارَ، وَيَتَأَهَّلُونَ فيها.

15

(1) في ج: الرحبة (ب) ع ج ي: غلباتها .

(1) تاريخ مدينة السلام 1: 439 والخبر عن محمد بن يحيى النديم، أَنَّ عدد الحمامات كانت في ذلك الوقت ستين ألف حمام. وأخبار النديم منقولة عن كتاب بغداد لأحمد بن أبي طاهر؛ وفيها تفصيل عن عدد مُزَنادِها ومقادير الصابون المستعملة في ليلة العيد وما إلى ذلك.

وإما أن لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تُفيدها العُمران بترادف السَّكان من بدوها، فيكون انقراض الدولة خرقاً لسياجها، فيزول حِفْظُها، ويتناقص عُمرانها شيئاً فشيئاً، إلى أن يندعِر ساكنها وتُخرب، كما وقع في بَغداد ومِصر والكوفة بالْمَشْرِقِ، والقِيروان والمهْدِيَّة وقلعة ابن حَمَّاد بالْمَغْرِب، وأمثالها؛ فتفهِّمه.

- وربما ينزل المدينة - بعد انقراض مُحْتَطِّبِها الأولين - مَلِكٌ آخَرُ، ودولة ثانية، 5 تتَّخذها قراراً وكُرْسِيّاً، وتُسْتغني بها عن اختطاط المدينة لئُلْها. فتحفظ تلك الدولة سِياجَها، وتزِيد مبانيها ومصانِعَها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترْفِها. وتُسْتَجِدُّ بعُمرها عُمراً آخر؛ كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد. فاعتبر ذلك، وافهم سرَّ الله في خَلِيقَتِهِ.

2* فَصْلٌ، فِي أَنَّ الْمُلْكَ يَدْعُو إِلَى [نَزُولِ] ⁽¹⁾ الْأَمْصَارِ

- وذلك أَنَّ الْقَبَائِلَ وَالْعَصَائِبَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْمُلْكُ، اضْطَرُّوا لِلانْسِيْلَاءِ عَلَى 10 الْأَمْصَارِ، لِأَمْرَيْنِ، أَحْدهما: ما يدْعُو إِلَيْهِ الْمُلْكُ مِنَ الدَّعَةِ، وَالرَّاحَةِ، وَحَطَّ الْأَثْقَالِ، وَاسْتِكْمَالِ مَا كَانَ نَاقِصاً مِنْ أُمُورِ الْعُمَرَاءِ فِي [الْبَدْوِ] ^(ب). والثَّانِي: دَفْعُ مَا يُتَوَقَّعُ عَلَى الْمُلْكِ مِنْ أَمْرِ الْمُتَارِعِينَ وَالْمُشَاغِبِينَ، لِأَنَّ الْمِصْرَ الَّذِي يَكُونُ فِي نَوَاحِيهِمْ رَبِّمَا يَكُونُ مَلْجَأً لِمَنْ يَرُومُ مُنَازَعَتَهُمْ وَالْخُرُوجَ عَلَيْهِمْ، وَانْتِرَاعَ ذَلِكَ الْمُلْكِ الَّذِي سَمَوْا إِلَيْهِ مِنْ 15 أَيْدِيهِمْ، فَيَغْتَصِمُ بِذَلِكَ الْمِصْرِ وَيُعَالِيهِمْ. وَمُغَالَبَةُ الْمِصْرِ عَلَى نَهَائِهِ / مِنَ الصُّعُوبَةِ [239ب]

(1) هذا الفصل أضافه المؤلف بخطه في أصله ع ضمن بطاقة ملصقة، وحدد موضعه. وضمنته نسخ ط، ج، ي في منها (ب) من ع، ي، ج، وفي ط: البلد.

والمشقة. والمِصْرُ يقوم مقام العساكر المتعددة، بما فيه من الامتناع ونيكية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة إلى كبير عدد ولا عظيم شوكة، لأن الشوكة والعصاة إنما احتيج إليهما⁽¹⁾ في الحرب، للثبات بما يقع من نغرة القوم بغضهم على بعض عند الجولة، وثبات هؤلاء بالجدران، فلا يضطرون إلى كبير عصاة ولا عدد، فيكون حال هذا المِصر ومن يعتصم^(ب) به من المنازعين مما يفت في عضد الأمة التي تسروم الاستيلاء، ويخضع شوكة استيلائها. فإذا كانت بين أحيائهم أمصار انتظموها في استيلائهم للأمن من مثل هذا الانحرام؛ وإن لم يكن هنالك مصر استخذه ضرورة لتكميل عمرانهم أولاً وخط أقاليمهم، وليكون ثانياً شجاً في خلق من يروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائهم.

10 فقد تبين لك^(ج) أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار والاستيلاء عليها .
﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ [سورة يوسف، من الآية 21] .

3 • فصل، في أن المدن العظيمة والهياكل المرتفعة إنما يسيدها الملك الكبير

وقد قدّمنا ذلك في آثار التّولى من المباني وغيرها، وأنها تكون على نسبتها. وذلك أن تشييد المدن إنما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم. فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك، حشِر الفعلة من أقطارها، وجمعت أيديهم على عملها. وربما

(1) من ج، وفي ظ، ع، ي: إليها (ب) ج: اعتصم (ج) سقط من ع، ي، ج .

استُعين في ذلك أكثر الأمر بالهندام الذي يُضاعف القُوى والقُدْر في حَمْل * أثقال البناء، لعَجْر [القُدْر] ^(أ) البشرية عن ذلك * ^(ب) ، كالمِيخال وغيره. وربّما يتَوَهَّم كثير من النَّاس إذا نَظَرَ على آثار الأقدمين ومصانعهم العظيمة، مثل إيوان كسرى، وأهرام مصر، وحنايا المعلقة، وشرشال بالمغرب، * أنها كانت بقُدْرهم متفرّقين أو مجتمعين * ^(ج)، فيتخيّل لهم أجساماً تُناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في أطوالها 5 وعروضها وأقطارها، ليناسب بينها وبين القُدْر التي صَدَرَتْ تلك المباني عنها. ويُفْعَلُ عن شأن الهندام والمِيخال، وما اقتَضَتْه في ذلك الصَّنَاعَة الهندسية. وكثير / من المتقلّبين في البلاد يُعايِنُ من شأن البناء واستعمال الحِيتل في نَقْل الأجرام عند أهل الدول المغنِّيِّين بذلك من العَجَم ما يشهد له بما قُلْتاه عياناً.

وأكثر آثار الأقدمين، لهذا العهد، تُسمّى العامة عاديّة، نسبةً إلى قَوْم عاد، 10 لتوهمهم أَنَّ مَبَانِي عادٍ ومصانعهم إِنَّمَا عَظُمَتْ ⁽¹⁾ لِعِظَم أجسامهم وتَضَاعُف قُدْرهم. وليس كذلك؛ فقد نَجَدُ آثاراً كثيرةً من آثار الَّذِينَ تُعَرَفُ مَقَادِيرُ أجسامهم من الأمم، وهي في مثل ذلك العِظَم وأَعْظَم، كإيوان كسرى، ومباني العُبَيْدِيِّين من الشيعة بإفريقيّة، والصّنهاجيين، وأثرهم بادٍ إلى اليوم في صُومعة قلعة ابن حَمّاد؛ وكذلك بناء الأغالبة في جامع القيروان، وبناء الموحّدين في رِبَاط الفتح، وبناء السُلطان أبي 15 الحَسَن لعهد أربعين سنةً في المنصورة بإزاء تِلْفسان، وكذلك الحنايا التي جَلَبَ أهل

(أ) من ع، وفي ظ: القدرة (ب) في ي: أقالها لبناء تتجر القُدْر البشرية عن ذلك (ج) من ظ، ع .

(1) النعمان بن محمد : المجالس والمسائرات 333 .

[قَرطاجنة⁽¹⁾] إليها الماء في القناة الزاكية عليها ماثلة أيضاً لهذا العهد؛ وغير ذلك من المباني والهياكل التي نقلت إلينا أخبار أهلها قريباً وبعيداً. وثيقناً أنهم لم يكونوا بإفراط في مقادير أجسامهم. وإنما هذا رأي ولع به القصاص عن قوم عاد وثمود والعمالة. ونحن نجد بيوت ثمود في الحجر منحوتة إلى هذا العهد. وقد ثبت في الحديث الصحيح⁽¹⁾ أنها يوتهم، يثر بها الركب الحجازي أكثر السنين ويُشاهدونها، لا تزيد في جوها وساحتها وسنكها على [المُتعاهد]^(ب). وإنهم ليبالغون فيما يعتقدون من ذلك، حتى إنهم ليزعمون أن عوج بن عناق، من جيل العمالة^(ج)، كان يتناول السمك من البحر طرياً فيشويه في الشمس؛ يزعمون بذلك أن الشمس حارة فيما قرب منها، ولا يعلمون أن الحر فيما لدينا هو الضوء، لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح الأرض والهواء. وأما الشمس في نفسها فغير حارة ولا باردة، وإنما هي كوكب مضى¹⁰ لا مزاج له. وقد تقدّم شيء من هذا في الفصل الثاني، حيث ذكرنا أن الدول على نسبة قوتها في أصلها و﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية 47].

4* فصل، في أن الهياكل العظيمة جداً لا تستقل / بنائها الدولة الواحدة

[240ب]

والسبب في ذلك ما ذكرناه، من حاجة البناء إلى التعاون ومضاعفة القدر البشرية. وقد تكون المباني في عظيمها أكثر من القدر مفردة أو مضاعفة، بالهتداه كما¹⁵

(1) في ظ: قرطاجنة (ب) من ع، ج، ي، وفي ظ: المعاهد (ج) فوقها في ع بخطه: كعان .

(1) مسند أحمد 2: 117، وابن حبان (6203).

قُلْنَاهُ، فَتَحْتَاجُ إِلَى مُعَاوَدَةِ قُدْرٍ أُخْرَى مِثْلَهَا فِي أَزْمَنَةٍ مُتَعاقِبَةٍ، إِلَى أَنْ تَيْمَّ؛ فَيَبْتَدِئُ
الْأَوَّلُ مِنْهُمْ بِالْبِنَاءِ، وَيَعْقِبُهُ الثَّانِي، وَالثَّالِثُ؛ وَكُلُّ [وَاحِدٍ]^(أ) مِنْهُمْ قَدْ اسْتَكْمَلَ
[شَأْنَهُ]^(ب) فِي حَشْرِ الْقَعْلَةِ وَجَمْعِ الْأَيْدِي، حَتَّى يَتِمَّ الْقَصْدُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَقُومَ مَائِلًا
لِلْعِيَانِ، يَظُنُّهُ مَنْ يَرَاهُ مِنَ الْآخِرِينَ أَنَّهُ بِنَاءُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ.

5 وَاظْطَرَّ فِي ذَلِكَ مَا نَقَلَهُ الْمُؤَرِّخُونَ فِي بِنَاءِ سَدِّ مَآرِبٍ، وَأَنَّ الَّذِي بَنَاهُ سَبَأُ بْنُ
يَشْجُبَ، وَسَاقَ إِلَيْهِ سَبْعِينَ وَاثِنًا، وَعَاقَهُ الْمَوْتُ عَنْ إِنْجَامِهِ، فَأَتَتْهُ مَلُوكُ حِمْيَرَ مِنْ
بَعْدِهِ.

وَمِثْلُ هَذَا يُقَالُ فِي بِنَاءِ قَرْطَاجَتِهِ وَقَنَايَا الزَّاكِبَةِ عَلَى الْحَنَائِي الْعَادِيَّةِ. وَأَكْثَرُ
الْمَبَانِي الْعَظِيمَةِ فِي الْغَالِبِ هَذَا شَأْنُهَا؛ وَيَشْهَدُ لَذَلِكَ أَنَّ الْمَبَانِي الْعَظِيمَةَ لِعَهْدِنَا، نَجَدُ
10 الْمَلِكِ الْوَاحِدَ يَشْرَعُ فِي تَأْسِيسِهَا وَاخْتِطَاطِهَا، فَإِذَا لَمْ يَتَّبِعْ أَثَرَهُ مَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْمُلُوكِ
فِي إِنْجَامِهَا، بَقِيََتْ بِجَالِهَا، وَلَمْ يَكْمُلِ الْقَصْدُ فِيهَا.

وَيَشْهَدُ لَذَلِكَ أَيْضًا أَنَّا نَجَدُ آثَارًا كَثِيرَةً مِنَ الْمَبَانِي الْعَظِيمَةِ تَعْجِزُ الدُّولُ^(ج) عَنْ
هَدمِهَا وَتَخْرِيبِهَا، مَعَ أَنَّ الْهَدمَ أَسْهَلُ مِنَ الْبِنَاءِ بِكَثِيرٍ؛ لِأَنَّ الْهَدمَ رَجُوعٌ إِلَى الْأَصْلِ
الَّذِي هُوَ الْعَدَمُ، وَالْبِنَاءُ عَلَى خِلَافِ الْأَصْلِ. فَإِذَا وَجَدْنَا بِنَاءً تَضَعُفُ قُدْرُنَا الْبَشَرِيَّةُ
15 عَنْ هَدمِهِ مَعَ سُهولة الْهَدمِ، عَلِمْنَا أَنَّ الْقُدْرَةَ الَّتِي أَسَّسَتْهُ مَفْرُطَةُ الْقُوَّةِ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ
أَثَرًا لِلدَّوْلَةِ وَاحِدَةٍ.

(أ) من: ع ج ي، وسقط من ظ (ب) كذا في: ع ج ي، وفي ظ: بِنَائِهِ (ج) ي: الدَّوْلَةُ .

وهذا مثل ما وقع للغرب في إيوان كسرى، لما اعتزَم الرُّشيدُ⁽¹⁾ على هَدمِهِ،
 وبعث إلى يَحْيَى بن خالد، وهو في مَحْبَسِهِ، يَسْتَشِيرُهُ في ذلك، فقال: يا أَمِيرَ
 الْمُؤْمِنِينَ، لا تَفْعَلْ، وإثْرَكَ ماثلاً يُسْتَدَلُّ بِهِ على عِظَمِ مُلْكِ آبَائِكَ الَّذِينَ سَلَبُوا
 الْمُلْكَ لِأَهْلِ ذَلِكَ الْهَيْكَلِ. فَاتَّهَمَهُ فِي النَّصِيحَةِ، وقال: أَخَذْتَهُ الثُّغْرَةَ لِلْعَجَمِ؛ وَاللَّهِ
 5 لِأَضْرَعَتِهِ. وَشَرَعَ فِي هَدمِهِ، وَجَمَعَ الْأَيْدِيَّ عَلَيْهِ، وَأَتَّخَذَ لَهُ الْفُؤُوسَ، وَ[أَحْمَاهُ]⁽¹⁾
 بِالنَّارِ، وَصَبَّ عَلَيْهِ الْخَلَّ، حَتَّى / إِذَا أَذْرَكَ الْعَجَزُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلَّهُ وَخَافَ الْفَضِيحَةَ،
 بَعَثَ إِلَى يَحْيَى يَسْتَشِيرُهُ ثَانِيًا فِي التَّجَافِي عَنِ الْهَدمِ، فقال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَا
 تَفْعَلْ، وَ^(ب) اسْتَمَرَّ عَلَى شَأْنِكَ لِيَلَّا يُقَالَ عَجَزَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَلِكُ الْعَرَبِ عَنِ هَدمِ
 مَصْنَعٍ مِنْ مَصَانِعِ الْعَجَمِ، فَعَرَفَهَا الرُّشِيدُ، وَأَقْصَرَ عَنِ هَدمِهِ.

[241 أ]

10 وَكَذَلِكَ اتَّفَقَ لِلْعَامُونَ فِي هَدمِ الْأَهْرَامِ⁽²⁾ الَّتِي بِمِصْرَ، وَجَمَعَ الْقَعْلَةَ لَهُدْمِهَا، فَلَمْ
 يَحُلْ بِطَائِلٍ؛ وَ[شَرَعُوا]^(ج) فِي ثَبْعِهِ، فَانْتَهَوْا إِلَى جَوْ يَنْنِ الْحَائِطِ الظَّاهِرِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ
 الْحِيطَانِ، وَهَنَّاكَ كَانَ مُنْتَهَى هَدمِهِمْ؛ وَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ فِيهَا يُقَالُ، مَنفَذٌ ظَاهِرٌ. وَيَزْعُمُ
 زَاعِمُونَ أَنَّهُ وُجِدَ هَنَّاكَ رِكَازٌ بَيْنَ تِلْكَ الْحِيطَانِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(أ) فِي النسخ: حماه، والقُصُوبُ مَا أَتَيْتَاهُ (ب) سَقَطَ حَرْفُ الْعَطْفِ مِنْ ظ (ج) مِنْ: ع ي ج، وَفِي ظ: سَقُوا.

(1) التَّنَوُّخِي: الْمُسْتَجَاد 249، وَقَبْلَهُ هَمَّ جَدُّهُ أَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ بِنَقْضِ الْإِيوَانِ، فَهَاهُ عَنْهُ خَالِدُ بْنُ بَرْمَكٍ.
 انْظُرْ: يَاقُوت: مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ 1: 294، الْعَسْكَرِيُّ: الْأَوَائِلُ 250، النُّوَيْرِيُّ: نَهَايَةُ الْأَرْبَابِ 1: 380، الْحَمِيرِيُّ:
 الرُّوضُ الْمِعْطَارُ: 69.

(2) انْظُرِ النُّوَيْرِيُّ: نَهَايَةُ الْأَرْبَابِ 15: 27، يَاقُوت: مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ 5: 402، الْمُقْرِيزِيُّ: الْمَوَاعِظُ وَالْإِعْتِبَارُ 1: 306
 (نَقْلًا عَنْ الْمُسْعُودِيِّ فِي أَخْبَارِ الزَّمَانِ) الْحَمِيرِيُّ: الرُّوضُ الْمِعْطَارُ 16.

وكذلك حنايا المعلقة [بقرطاجنة]^(١) إلى هذا العهد؛ يحتاج أهل مدينة تونس إلى انتخاب الحجارة لينائم، ويستجيد الصنائع حجارة تلك الحنايا، فيحاولون على هذمها الأيام العديدة، ولا يسقط الصغير من جذرائها إلا بعد عصب الرقيق، ويجمع له المحافل المشهودة^(ب). شهدت منها في أيام صباي كثيراً. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية 284].

5

55 فصل، فيما تجب مراعاته في أوضاع المدن، وما يحدث إذا أغفل عن المراجعة

المدن قراراً تتخذها الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، فتؤثر الدعة والسكون، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار. [ولما كان ذلك للقرار]^(ج) والمأوى، وجب أن يراعى فيه، دفع المضار بالحماية من طوارقها، وجلب المنافع، وتسهيل المرافق لها.

فأما الحماية من المضار، فيراعى لها أن يُدار على منازلها معاً سياج الأسوار، وأن يكون وضع ذلك في [متمتع]^(د) من الأمكنة، إما على هضبة متوعدة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها، حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيضعب [منالها]^(هـ) على العدو، ويتضاعف امتناعها وحضنها.

15

(١) مخرج من حاشية ع بخطه، لم نقله ط، ج، ي (ب) في ع ي: المشهورة (ج) من: ع ج ي وسقط من ط (د) من: ع ج ي، وفي ط: تمتع (هـ) في ط: مثالها.

ومما يَراعى في ذلك، للحِماية من الآفات السَّماويَّة، طيبُ الهواء للسلامة من الأمراض؛ فإنَّ الهواء إذا كان راكداً خَبِيثاً، أو مُجاوراً لمياهٍ فاسدةٍ ومَنَاقِعَ مُتَعَفِّنةٍ، أو مُروجٍ خَبِيثَةٍ، أُسْرِعَ إليه العَفَنُ / من مُجاوَرَتِها، فأُسْرِعَ المَرَضُ للحَيَوانِ الكائِنِ [241 ب] فيه لا مَحالة. وهذا مُشاهد.

5 والمُدُنُ الَّتِي لم يَراعَ فيها طيبُ الهواء، كثيرةُ الأمراض في الغاية؛ وقد اشتهر بذلك في قُطُرِ المَغْرِبِ بِلَدٍ قايِسٍ من بلادِ الجَرِيدِ⁽¹⁾ بِإِفْرِيقِيَّةٍ. فلا يَكادُ ساكِئُها أو طارِقُها يَخْلُصُ من حُمى العَفَنِ بوجهِه. ولقد يُقال: إنَّ ذلك حادَثٌ فيها، ولم تكن كذلك من قَبْلُ. ونقل البَكْرِيُّ⁽¹⁾ في سَبَبِ حَدوثِهِ أَنَّهُ وَقَعَ فيها حَفَرٌ ظَهَرَ فيه على إِنْاءٍ من نُحَاسٍ مَخْتومٍ بِالرِّصَاصِ؛ فَلَمَّا قُضِيَ خِتائُهُ، صَعِدَ مِنْهُ دُخانٌ إلى الجَوِّ وانْقَطَعَ؛ وكان ذلك بَدْءَ أَمراضِ الحُمَيَّاتِ فيه. وأراد بذلك، أنَّ الإِنْاءَ كان مُشْتَمِلاً على بَعْضِ أَعْمالِ الطَّلَسْمَاتِ لَوَبائِهِ، وأنَّه ذهب سِرُّهُ بِذَهابِهِ، فَرجَعَ إلى العَفَنِ والوَباءِ. وهذه الحِكايةُ من مَذاهِبِ العامَّةِ ومناحيِمِ الرِّكيكةِ. والبَكْرِيُّ لم يَكُنْ من مَتانَةِ العِلْمِ واستنارةِ البَصيرةِ بَحَيْثُ يَدْفَعُ مِثْلَ هذا أو يَتَبَيَّنُ خَرَفَهُ، فنَقَلَهُ كما سَمِعَهُ.

والَّذِي يَكشِفُ الحَقَّ في ذلك ، أنَّ هَذِهِ الأَهْويَةَ العَفِنَةَ ، أَكثَرُ ما يُهَيِّئُها 15 لَتَغْفِنَ الأَجسامَ وأمراضِ الحُمَيَّاتِ رُكودُها. فإذا تَخَلَّلَها الرِّيحُ ونَفِثَتْ، وَذهبَ بِها يَمِيناً وشَمالاً، حَقَّ شَأْنُ العَفَنِ والمَرَضِ المتأدِّي منها لِلحَيَواناتِ. والبلَدُ إذا كان كَثِيرَ

(1) ي: المغرب

(1) المسالك والممالك 2: 667 باختلاف في العبارة .

السَّائِكُنَ ، وَكَثُرَتْ حَرَكَاتُ أَهْلِهِ ، فَيَتَمَوَّجُ الْهَوَاءُ ضَرُورَةً ، وَيَحْدُثُ الرِّيحُ الْمُتَخَلِّلُ لِلْهَوَاءِ الرَّائِدِ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مُعِينًا لَهُ عَلَى الْحَرَكَةِ وَالتَّمَوُّجِ . وَإِذَا خَفَّ السَّائِكُنَ ، لَمْ يَجِدِ الْهَوَاءُ مُعِينًا عَلَى حَرَكَتِهِ وَتَمَوُّجِهِ ، فَيَبْقَى رَاكِدًا ، وَعَظُمَ عَقْفُهُ وَكَثُرَ ضَرَرُهُ . وَبَلَدَ قَابِسَ هَذِهِ كَانَتْ - عِنْدَمَا كَانَتْ إِفْرِيقِيَّةً مُسْتَبْجِرَةً الْعُمُرَانَ - كَثِيرَةً السَّائِكِينَ ، تَمَوَّجُ بِأَهْلِهَا مَوَّجًا . فَكَانَ ذَلِكَ مُعِينًا عَلَى تَمَوُّجِ الْهَوَاءِ وَاضْطِرَابِهِ وَتَخْفِيفِ الْأَذَى مِنْهُ ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا كَبِيرُ 5 عَقْفٍ وَلَا مَرَضٍ . وَعِنْدَمَا خَفَّ سَائِكُهَا زَكَّدَ هَوَاؤُهَا الْمُتَعَقِّنُ بِفَسَادِ مِيَاهِهَا ، فَكَثُرَ الْعَقْفُ وَالْمَرَضُ . هَذَا وَنَجْمُهُ ، لَا غَيْرَ ذَلِكَ .

وقد رأينا عكس ذلك في بلادٍ وُضِعَتْ وَلَمْ يُرَاعَ فِيهَا طَيْبُ الْهَوَاءِ ، وَكَانَتْ 10 أَوَّلًا قَلِيلَةَ السَّائِكِينَ ، فَكَانَتْ أَمْرَاضُهَا كَثِيرَةً ، فَلَمَّا كَثُرَ سَائِكُهَا انْتَقَلَ حَالُهَا عَنْ ^(أ) ذَلِكَ .

[242] / * وَهَذَا مِثْلُ دَارِ الْمَلِكِ بِفَاسَ لِهَذَا الْعَهْدِ ، الْمُسَمَّى بِالْبَلَدِ الْجَدِيدِ ، وَكَثِيرٌ مِنْ 10 ذَلِكَ * ^(ب) فِي الْعَالَمِ ، فَتَفَقَّهُمْ تَجَدُّ مَا قُلْتُهُ لَكَ .

أَوْقَدْ ذَهَبَ لِهَذَا الْعَهْدِ الْقَرِيبِ فَسَادُ الْهَوَاءِ مِنْ قَابِسَ ، وَزَالَ عَقْفُهَا لَمَّا 15 حَاصَرَهَا سُلْطَانُ تُونِسَ ، وَقَطَعَ الْغَابَةَ مِنَ التُّخْلِ الَّتِي كَانَتْ مُحِيطَةً بِهَا ، فَانْفَرَجَ جَانِبٌ مِنْهَا ، وَتَمَوَّجَ الْهَوَاءُ الْمَحِيطُ بِهَا وَتَخَلَّلَتْهُ الرِّيَّاحُ ، فَذَهَبَ مِنْهُ الْعَقْفُ . وَاللَّهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ ^(ج) .

وَأَمَّا جَلْبُ الْمَنَافِعِ وَالْمَرَافِقِ لِلْبَلَدِ ، فَيُرَاعَى فِيهِ أُمُورٌ ، مِنْهَا : الْمَاءُ ، وَأَنْ يَكُونَ الْبَلَدُ عَلَى نَهْرٍ ، أَوْ بِأَزَائِمِهَا عُيُونٌ غَذْبَةٌ ثَرَّةٌ ؛ فَإِنَّ وَجُودَ الْمَاءِ قَرِيبًا مِنْ

(أ) ي : على (ب) سقط ما بين النجمين من ج (ج) حاشية من ع بخطه سقطت من ط ج ي .

البلد مُسهِّل على السَّكَن حاجة الماء ، وهي ضرورةٌ ، فيكون لهم في وجوده مَرْفَقَةٌ عامَّة.

ومما يُراعَى [من] ^(١) المرافق في المُدُن طيبُ المراعي لسائِقَتِهِمْ؛ إذ صاحب كلِّ قرارٍ لابدَّ له من دَواجِنِ الحيوانِ للنتَّاج والضَّرْع والرُّكوب، ولا بدَّ لها من المَرْعَى، فإذا كان قريباً طَيِّباً، كان ذلك أَرْفَقَ لهم ممَّا يُعانون من المَشَقَّة في بُعْدِهِ. 5

ومما يُراعَى أيضاً المزارعُ، فإنَّ الزَّرْع هو القُوْث. فإذا كانت مَزارِعُ البلد بالقربِ منها، كان ذلك أسهلَّ في اتِّخاذِهِ، وأقربَ في تحصيلِهِ.

ومن ذلك الشَّعْرَاءُ لِلحَطَبِ والبناء، فإنَّ الحَطَبَ ممَّا تَعْمُ البُلُوى في اتِّخاذِهِ لوقودِ التِّيرانِ للاضْطِلاءِ؛ والخشبُ أيضاً ضروريٌّ لسُقْفَتِهِمْ وكثيرٌ ممَّا يُستَعْمَلُ فيه الخشبُ [من] ^(ب) ضروراتِهِمْ. 10

وقد يُراعَى فيها أيضاً قُرْبُها من البَحْرِ، لتسهيلِ الحاجاتِ القَصِيَّةِ من البلادِ النَّائية، إلَّا أنَّ ذلك ليس بمُثابَةِ الأوَّلِ.

وهذه كُلُّها مُتفاوتَةٌ بتفاوتِ الحاجةِ وما تَدْعُو إليه ضَرورةُ السَّكَن. وقد يكونُ الواضِعُ غافِلاً عن حُسْنِ الاختيارِ الطَّبِيعِيِّ ، وإنَّما يُراعِي ما هو أهمُّ على نَفْسِهِ أو قَوْمِهِ، ولا يَذْكُرُ حاجةَ غَيْرِهِمْ، كما فَعَلَهُ العَرَبُ - لأوَّلِ الإسلامِ - في المُدُنِ الَّتِي اختطَّوْها بالعِراقِ والحِجازِ وإفريقيَّةَ؛ فإنَّهُمْ لم يُراعُوا فيها إلَّا المُوَهِّمَ عِنْدَهُمْ، من مَراعي 15

(١) في ط: في (ب) ط: لضروراتِهِمْ .

الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء الملح. ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعي السائمة من ذوات الظلف، ولا غير ذلك، كالقيروان، والكوفة، والبصرة، وسجلاسة، وأماليها. ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لما لم شرع فيها الأمور الطبيعية.

1. فصل :

5

ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر، أن تكون في جبل، أو تكون بين⁽¹⁾ أمة من الأمم موفرة العدد، تكون صريحاً للمدينة متى طرقتها/ طارق [242 ب] من العدو. والسبب في ذلك، أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر، ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبية، ولا هو وضعها في متوعر من الجبال، كانت في غرة للبيات، وسهل طروقها في الأساطيل البحرية على عدوها، وتحيفه 10 لها، لما يأمن من وجود الصريح لها، وأن الحضر المتعودين للدعة قد صاروا عيالاً، وخرجوا عن حكم المقاتلة. وهذا كالإسكندرية من المشرق، وطرابلس من المغرب، وبونة وسلا. ومتى كانت القبائل والعصبة موطنين بقربها، بحيث يبلغهم الصريح والتفكير، وكانت متوعرة المسالك على من يرومها، باخطاطها في هضاب الجبال وعلى أسنمتها، كان لها بذلك منعة من العدو، ويتأسون من طروقها، لما يكودهم 15 من وعرها، وما يتوقعونه من إجابة صريحها، كما في سبتة وبجاية وبلد القل على صغرها.

(1) ع: من .

فأفهم ذلك واعتبره في اختصاص الإسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية، مع أن الدعوة كانت من وراءها ببرقة وإفريقية؛ وإنما اعتبر في ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر، بسهولة وضعها. ولذلك، والله أعلم، كان طروق العدو للإسكندرية وطرابلس في الملة مراتٍ متعددة.

5 6 فصل، في المساجد والبيوت المعظمة في العالم

اعلم، أن الله سبحانه وتعالى، فضل من الأرض بقاعاً اختصها بتشريفه، وجعلها مواطن إعبادته، يضاعف فيها الثواب وتتمو⁽¹⁾ بها الأجور، وأخبرنا بذلك [على السنة]^(ب) رُسله وأنبيائه، لطفاً بعباده وتسهيلاً لطرق السعادة لهم.

وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع الأرض فيما علمناه، حسناً ثبت في 10 الصحيحين⁽¹⁾، وهي: مكة، والمدينة، وبيت المقدس.

فمكة بيت إبراهيم، صلوات الله عليه، أمره الله ببنائه، وأن يؤذن في الناس بالحج إليه؛ فبناه هو وابنه إسماعيل، كما قصه القرآن. وقام بما أمره الله فيه، وسكن إسماعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جُزهم، إلى أن قبضها الله، ودُفنا بالحجر منها.

(أ) ظ: غو (ب) من: ع ج ي ، وسقط من ظ .

(1) البخاري 2: 76 حديث (1188)، 2: 77 حديث (1197)، 3: 25 حديث (1864)، 3: 56 حديث (1995)، ومسلم (827) وتام تخرجه في التعليق على الترمذي (326) .

وَبَيْتُ الْمَقْدَسِ هُوَ بَيْتُ دَاوُدَ / وَسَلَيَّمَانِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ . أَمْرُهُمَا اللَّهُ بِنَاءَ
مَسْجِدِهِ وَنُصِبَ هَيَاكِلُهُ . وَدُفِنَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ وَلَدِ إِسْحَاقَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -
[فيه و] ⁽¹⁾ حَوَالِيهِ.

وَالْمَدِينَةُ مُهَاجِرٌ نَبِيُّنَا - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - أَمْرُهُ اللَّهُ بِالْهَجْرَةِ إِلَيْهَا ، وَإِقَامَةُ
دِينِ الْإِسْلَامِ بِهَا وَمِنْهَا ، فَبُنِيَ مَسْجِدُهُ الْحَرَامُ بِهَا ، وَكَانَ مَلْعَدُهُ الشَّرِيفُ فِي تَرْكِهَا . 5

فَهَذِهِ الْمَسَاجِدُ الثَّلَاثَةُ قُرَّةُ عَيْنِ الْمُسْلِمِينَ وَمَهْوَى أَفْئِدَتِهِمْ وَعِصْمَةُ دِينِهِمْ . وَفِي
الْآثَارِ مِنْ فَضْلِهَا وَمُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ فِي مَجَاوَرَتِهَا وَالصَّلَاةِ فِيهَا كَثِيرٌ مَعْرُوفٌ . فَلْنُشِرْ
إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْخَبَرِ عَنْ أَوَّلِيَةِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ ، وَكَيْفَ تَدَرَّجَتْ أَحْوَالُهَا إِلَى أَنْ
كَمُلَ ظَهْوُهَا فِي الْعَالَمِ .

فَأَمَّا مَكَّةُ ، فَأَوَّلِيَّتُهَا - فِيمَا يُقَالُ - أَنَّ آدَمَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - بَنَاهَا 10
قُبَالَةَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ، ثُمَّ هَدَمَهَا الطُّوفَانُ بَعْدَ ذَلِكَ ؛ وَلَيْسَ فِيهِ خَبَرٌ صَحِيحٌ يَقُولُ
عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا افْتَبَسَوْهُ مِنْ مُحْتَمَلِ الْآيَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ
الْبَيْتِ ﴾ [سورة البقرة، الآية 127] . ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ ، وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ وَشَأْنِ
زَوْجَتِهِ سَارَةَ وَغَيْرَتِهَا [مِنْ هَاجِرَ] مَا هُوَ مَعْرُوفٌ . وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ [أَنْ يَفَارِقَ
هَاجِرَ وَيُغَرِّبَهَا مَعَ ابْنَتِهَا إِسْمَاعِيلَ إِلَى فَارَانَ ، وَهِيَ جِبَالُ مَكَّةَ مِمَّا وَرَاءَ الشَّامِ وَبَلَدَ 15
أَيْلَةَ ، فَأَخْرَجَهَا إِلَى هُنَاكَ ، وَلَحِقَتْ بِمَكَانِ الْبَيْتِ ، وَأَدْرَكَهَا الْعَطَشُ] ^(ب) ، وَكَيْفَ

(1) من: ج (ب) قلتُ نُسخَتَا: ي ج من الأصل ع النسخ الأول الملقى ، والمعوض في الحاشية بخطه بما أثبتناه . وفي هذا النسخ
المشطوب: ... أن يترك ابنه إسماعيل وأُمُّهُ هَاجِرَ بِالْفَلَاةِ ، فَوَضَعَهَا فِي مَكَانِ الْبَيْتِ وَسَارَ عَنْهَا .

اللَّهُ لهما من اللُّطف في تَبَعِ ماءٍ من زَمْزَمَ، ومُرور الرِّفْقَةِ من جُزْهُمَ بهما حتى
 احْتَمَلُوهُما وسَكَنُوا إِلَيْهما، ونَزَلُوا مَعَهما حِوَالِي زَمْزَمَ، كما عُرِفَ في مَوْضِعِهِ. فَاتَّخَذَ
 إِسْمَاعِيلُ بِمَوْضِعِ الكَعْبَةِ بَيْتاً يَأْوِي إِلَيْهِ، وأدار عليه سِجَاجاً من الدَّوْمِ، وَجَعَلَهُ زَرْباً
 لِعَنْتِهِ. وجاء إبراهيمُ - صلواتُ الله عليه - مراراً لزيارته من الشَّامِ، أُمِرَ في آخرها ببناءِ
 5 الكَعْبَةِ مكانَ ذلك الزَّرْبِ ، فَبَنَاهُ ، واستعان فيه بابنُه إِسْمَاعِيلُ ، ودَعَا النَّاسَ إلى
 حَجِّهِ؛ وبَقِيَ إِسْمَاعِيلُ ساكِناً به. ولما قُبِضَتْ أُمُّهُ هاجَرَ دَفَنُها فيه. ولم يَزَلْ قائماً
 بِخِدْمَتِهِ إلى أن قَبِضَهُ اللهُ تعالى، ودُفِنَ مع أُمِّهِ هاجِر. وقام بَنُوهُ بَعْدَهُ بأَمْرِ البَيْتِ
 مع أَخْوانِهِم من جُزْهُمَ، ثُمَّ العَمالِقَةُ من بَعْدِهِم. واستَمَرَّ الحالُ على ذلك، والنَّاسُ
 يَهْجُونَ إِلَيْها من كُلِّ أَفْقٍ من جَمِيعِ أَهْلِ الحَلِيقَةِ، لا من بني إِسْمَاعِيلَ ولا من غَيْرِهِم
 10 من دَنَا أو نَأَى.

/ فقد نُقِلَ أَنَّ التَّابِيعَةَ كانت تَحْجُجُ البَيْتَ وتُعْظِّمُهُ، وَأَنَّ تَبْعاً [الَّذِي يَسْمَى
 243 ب] تَيْبَانَ أَسْعَدَ أبا كَرْبٍ^(١) كَسَاهَا المُلَاءَ^(ج)، والوَصائِلَ ، وأَمَرَ بِتَطْهِيرِها ، وجَعَلَ لَها
 مِفْتَاحاً. ونُقِلَ أيضاً أَنَّ الفُرْسَ كانت تَحْجُجُهُ وتَقَرَّبُ إِلَيْهِ، وَأَنَّ غَزائِي الذَّهَبِ اللَّذِينَ
 وَجَدَهُما عَبْدُ الْمُطَلِّبِ حينَ اخْتَفَرَ زَمْزَمَ كانَ من قَرابِينِهِم. ولم تَزَلْ لُجُزْهُمَ الوِلايَةُ عَلَيْهِ
 15 بَعْدَ بَنِي إِسْمَاعِيلَ وَمَنْ قَبْلَ حُؤُولَتِهِم ، حَتَّى أَخْرَجَتْهُم خُزَاعَةُ ، وأقاموا بِها بَعْدَهُم ما
 شاءَ اللهُ. ثُمَّ كَثُرَ وَلَدُ إِسْمَاعِيلَ وانْتَشَرُوا، وَتَشَعَّبُوا إلى كِنانَةَ، ثُمَّ كِنانَةَ إلى قُرَيْشٍ
 وَغَيْرِهِم. وساءَتْ وِلايَةُ خُزَاعَةَ، فَغَلَبَتْهُم قُرَيْشٌ على أَمْرِهِ، وَأَخْرَجُوهُم مِنَ البَيْتِ

(١) من حاشية ع بخطه، وسقطت من ظ (ب) في ي: الملا .

وَمَلَكُوهَا، وَعَلَيْهِمْ^(١) يَوْمَئِذٍ قُصِيُّ بْنُ كَلَابٍ. فَبَنَى الْبَيْتَ، وَسَقَفَهَا بِخَشَبِ الدُّومِ
وَجَرِيدِ النَّخْلِ، قَالَ الْأَعَشَى^(٢): [مَنْ الطَّوِيلُ]

حَلَفْتُ بِثَوْبِي رَاهِبٍ [الْحَجِّ] وَالَّتِي بَنَاهَا قُصِيُّ وَخَدَهُ وَابْنُ جُرْهُمٍ

- ثُمَّ أَصَابَ الْبَيْتَ سَيْلٌ فِي وَلَايَتِهِمْ، وَيُقَالُ: حَرِيقٌ، وَتَهْدَمُ. فَأَعَادُوا بِنَاءَهُ،
وَجَمَعُوا التَّقَّةَ لَذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ. وَانْكَسَرَتْ سَفِينُهُ بِسَاحِلِ جُدَّةَ، فَاشْتَرَوْا خَشَبَهَا 5
لِلسَّقْفِ. وَكَانَتْ جُدْرَانُهُ فَوْقَ الْقَامَةِ، فَجَعَلُوهَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا. وَكَانَ الْبَابُ لَاصِقًا
بِالْأَرْضِ، فَجَعَلُوهُ فَوْقَ الْقَامَةِ لئَلَّا تَدْخُلَهُ السَّيُولُ. وَقَصُرَتْ بِهِمُ التَّقَّةُ عَنْ إِثَامِهِ،
فَقَصَّروا عَنْ قَوَاعِدِهِ وَتَرَكُوا مِنْهُ سِتَّةَ أَذْرُعٍ وَشِبْرًا أَدَارُوهَا بِمِجْدَارٍ قَصِيرٍ يُطَافُ مِنْ
وَرَائِهِ، وَهُوَ الْحِجْرُ. وَبَقِيَ الْبَيْتُ عَلَى هَذَا الْبِنَاءِ إِلَى أَنْ تَحَصَّنَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ حِينَ
دَعَا لِنَفْسِهِ، وَزَحَفَتْ إِلَيْهِ جِيوشُ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ مَعَ الْحَصِينِ بْنِ نُفَيْرٍ السَّكُونِيِّ، 10
سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ، فَأَصَابَهُ حَرِيقٌ، يُقَالُ: مِنْ التَّقَطْرِ الَّذِي رَمَوْا بِهِ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ،
فَتَصَدَّعَتْ حِيطَانُهُ؛ فَهَدَمَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ وَأَعَادَ بِنَاءَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَ، بَعْدَ أَنْ اخْتَلَفَ
عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ فِي بِنَائِهِ. وَاحْتِجَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٢) لِعَائِشَةَ [رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهَا]^(ب): لَوْلَا قَوْمُكَ حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ لَزِدْتُ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، وَلَجَعَلْتُ
لَهُ بَابَيْنِ، شَرْقِيًّا وَغَرْبِيًّا. فَهَدَمَهُ، وَكَشَفَ عَنْ أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَمَعَ 15

(أ) فِي: عَلَيْهِمْ (ب) مَنْ: ي.

(١) التَّكْمَلَةُ مِنَ الدِّيَوَانِ 125، وَرَوَايَتُهُ لِلْعَجَزِ: بَنَاهَا قُصِيُّ وَالْمُضَاضُ بْنُ جُرْهُمٍ. وَالْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةِ هِجَا بِهَا
الْأَعَشَى عُثَيْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُنْذَرِ. انْظُرِ الْجَوَالِيْقِي: شَرْحُ أَدَبِ الْكَاتِبِ 137.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْحَجِّ 1: 180 حَدِيثٌ (1585)، وَمُسْلِمٌ (1333).

[1244] الوجوة والأكابر حتى عاينوه ، وأشار عليه ابن عباس / بالتحري في حفظ القبلة على الناس؛ فأدار على الأساس الخشب، ونصب من فوقها السُّورَ حفظاً للقبلة. وبعث إلى صنعاء في القصّة والكلس ، فجلبها، وسأل عن مَقْطَعِ الحِجارة الأول، فجمع منها ما احتاج إليه. ثم شرع في البناء على أساس إبراهيم عليه السلام، ورفع 5 جذرائها سبعةً وعشرين ذراعاً ، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض كما روي في حديثه. وجعل فَرْشَهَا وأزْرَهَا بالترخام، وصاغَ لها المفاتيحَ وصفائحَ الأبواب من الذهب.

ثم جاء الحجاج لحصاره أيامَ عبد الملك، ورمى على المسجد بالمنجنيقات إلى أن تصدّعت حيطائه. ثم لما ظفر بآبن الزبير، شاورَ عبد الملك فيما بناه وزاده 10 في البيت، فأمره بهدمه، وردّ البيتَ على قواعد قُرَيْش كما هي اليوم. ويقال: إنه ندم على ذلك حين علم صحّة رواية ابن الزبير، لحديث عائشة، وقال⁽¹⁾: ودّدت أني كنتُ حملتُ أبا حبيب من أمر البيت وبنائه ما تحمّل. فهدم الحجاج منها سِتَّةً أذرع وشبراً مكان الحجر، وبنّاها على أساس قُرَيْش، وسدّ البابَ الغربيّ وما تحّت عتبة بابها اليوم من الباب الشرقي. وترك سائرَها لم يُغيّر منه شيئاً. فكلّ بناءٍ فيها اليوم 15 بناء ابن الزبير. * وبين بناءه⁽¹⁾ وبناء الحجاج في الحائط صِلَةٌ ظاهرة للعيان، لُحْمَةٌ بين البناءين، والبناء مُتَبَرِّ^(ب) عن البناء بمقدار إصبع شبه الصّدع، وقد لُحِمَ.

(1) سقط من ي (ب) ج: منبر.

(1) البلاذري: فتوح البلدان 59.

وَيَعْرُضُ هُنَا إِشْكَالٌ قَوِيٌّ لِمُنَافَاتِهِ لَمَّا يَقُولُهُ الْفُقَهَاءُ فِي أَمْرِ الطَّوَافِ، وَتَحْرُزُ
الطَّائِفُ أَنْ يَمِيلَ عَلَى الشَّاذِرِوَانِ الدَّائِرِ بِأَسَاسِ الْجُدْرِ مِنْ أَسْفَلِهَا، فَيَقَعُ طَوَافُهُ
دَاخِلَ الْبَيْتِ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْجِدَارَ إِنَّمَا قَامَ عَلَى بَعْضِ الْأَسَاسِ وَتَرَكَ بَعْضَهُ، وَهُوَ
مَكَانُ الشَّاذِرِوَانِ. وَكَذَا قَالُوا فِي تَقْيِيلِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، لَا بُدَّ مِنْ رَجُوعِ الطَّائِفِ مِنَ
التَّقْيِيلِ حَتَّى يَسْتَوِيَ قَائِلًا، لِئَلَّا يَقَعَ بَعْضُ طَوَافِهِ دَاخِلَ الْبَيْتِ.

5

وَإِذَا كَانَتْ الْجُدْرَانُ كُلُّهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، وَهُوَ إِنَّمَا بُنِيَ عَلَى أَسَاسِ
إِبْرَاهِيمَ، فَكَيْفَ يَقَعُ هَذَا الَّذِي قَالُوهُ؟ وَلَا مَخْلَصَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِأَحَدٍ / أَمْرَيْنِ: [244 ب]

إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْحِجَاجُ هَدَمَهُ جَمِيعَهُ وَأَعَادَهُ، وَقَدْ نَقَلَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ، إِلَّا أَنْ
الْعِيَانِ فِي شَوَاهِدِ الْبِنَاءِ بِالْتِحَامِ مَا يَبَيِّنُ الْبِنَاءَيْنِ وَتَمَيِّيزُ أَحَدَ الشَّقَيْنِ مِنْ أَعْلَاهُ عَنْ
الْآخَرِ فِي الصَّنَاعَةِ يَرُدُّ ذَلِكَ.

10

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ابْنُ الزُّبَيْرِ لَمْ يَرُدَّ الْبَيْتَ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ،
وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ فِي الْحِجْرِ فَقَطْ لِيَدْخُلَهُ، فَهِيَ الْآنَ - مَعَ كَوْنِهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ -
لَيْسَتْ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، وَهَذَا بَعِيدٌ؛ وَلَا مَحِيصَ عَنْ هَذَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ إِنَّ سَاحَةَ الْبَيْتِ، وَهُوَ الْمَسْجِدَ، كَانَ فِضَاءً لِلطَّائِفِينَ. وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ
جِدَارٌ أَيَّامَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَبِي بَكْرٍ مِنْ بَعْدِهِ. ثُمَّ كَثُرَ النَّاسُ، فَاشْتَرَى عُمَرُ [رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ] ⁽¹⁾ دُورًا هَدَمَهَا وَزَادَهَا فِي الْمَسْجِدِ، وَأَدَارَ عَلَيْهِ جِدَارًا دُونَ الْقَامَةِ، وَفَعَلَ مِثْلَ
ذَلِكَ عُثْمَانُ، ثُمَّ ابْنُ الزُّبَيْرِ، ثُمَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَبَنَاهُ بَعْمَدُ الرَّخَامِ، ثُمَّ زَادَ

15

(1) مِنْ: ي .

فيه المنصور ، وابنه المهدي من بعده . ووقفت الزيادة ، واستقر على ذلك لعهدنا .

وتشريف الله لهذا البيت وعنايته أعظم من أن يحاط به . وكفى من ذلك أن جعله مهبطاً للوحي والملائكة ، ومكاناً للعبادة ، وفرض فيه شعائر الحج ومناسكه ، وأوجب حرمة من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق ما لم يوجب لغيره؛ فمنع كل من خالف دين الإسلام من دخول ذلك الحرم، وأوجب على داخله أن يتجرد من المخيط إلا إزاراً يسره، وحى العائذ به والرائع في مساره من مواقع الآفات. فلا يراغ فيه خائف، ولا يصاد له وحش، ولا يحتطب له شجر.

وحد الحرم الذي يختص بهذه الحزمة من طريق المدينة ثلاثة أميال إلى التميم ، ومن طريق العراق سبعة أميال إلى ثنية جبل المنقطع⁽¹⁾، ومن طريق الجعرانة تسعة أميال إلى الشعب،* ومن طريق الطائف سبعة أميال إلى بطن نمر⁽²⁾، ومن طريق جدة عشرة أميال إلى منقطع العشائر.

هذا شأن مكة وخبرها، وتسمى أم القرى، وتسمى الكعبة لعلوها، من اسم الكعب. ويقال لها أيضاً: بكّة. قال الأصمعي⁽²⁾: لأنّ الناس يبكّ بعضهم بعضاً إليها، [245]

(1) من: طع .

(1) ذكر في تحديد الحرم من طريق العراق، أن حده على ثنية جبل بالمنقطع على سبعة أميال، (الأحكام السلطانية 435، النووي: تهذيب الأسماء واللغات 2/1: 82) وسماه الأزرقى جبل المقطع لأنهم قطعوا منه أحجار الكعبة في زمن ابن الزبير (أخبار مكة 2: 228).

(2) الماوردي: الأحكام السلطانية 413 .

أي: يَدْفَعُ. وقال مُجَاهِدٌ⁽¹⁾: إِنَّمَا هِيَ بَاءٌ بَكَّةٌ أُبْدِلُوهَا مِيمًا، كَمَا قَالُوا: لَا زِمَ وَلَا زِبَ، لَقُرْبِ الْمَخْرَجَيْنِ. وقال النَّخْعِيُّ⁽²⁾: بَلْ بِالْبَاءِ لِلْبَيْتِ، وَبِالْمِيمِ لِلْبَلَدِ. وقال الزُّهْرِيُّ⁽³⁾: بِالْبَاءِ لِلْمَسْجِدِ كُلِّهِ، وَبِالْمِيمِ لِلْحَرَمِ.

وقد كانت الأُمَمُ - مُنْذُ عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ - تُعْظِمُهُ، وَالْمُلُوكُ تَبْعَثُ إِلَيْهِ بِالْأَمْوَالِ وَالذَّخَائِرِ، كَسَرَى وَغَيْرِهِ.

5

وَقَصَّةُ الْأَشْيَافِ وَغَزَالِي الذَّهَبِ الَّتِي وَجَدَهَا عَبْدُ الْمَطْلَبِ حِينَ اخْتَفَرَ زَمْزَمَ مَعْرُوفَةً. وقد وجد رسول الله ﷺ حين افْتَتَحَ مَكَّةَ فِي الْجُبِّ الَّذِي كَانَ فِيهَا سَبْعِينَ أَلْفَ أَوْقِيَّةٍ مِنَ الذَّهَبِ، مِمَّا كَانَ الْمُلُوكُ تُهْدِي إِلَى الْبَيْتِ، قِيمَتُهَا أَلْفَا أَلْفِ دِينَارٍ، اثْنَانِ مَكْرَرَةٍ مَرَّتَيْنِ، بِمَاتِي قِنْطَارٍ وَزْنًا. وقال لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ اسْتَعْنَتْ بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَزْبِكَ، فَلَمْ يَفْعَلْ. ثُمَّ ذَكَرَ لِأَبِي بَكْرٍ، فَلَمْ يُحَرِّكْهُ. هَكَذَا قَالَ الْأَرْزُقِيُّ⁽⁴⁾. وَفِي الْبُخَارِيِّ⁽⁵⁾ بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي وَائِلٍ⁽⁶⁾، قَالَ: جَلَسْتُ إِلَى شَيْبَةَ بْنِ عُثْمَانَ، وَقَالَ: جَلَسَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: هَمَمْتُ أَنْ لَا أَدْعَ⁽¹⁾ فِيهَا صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ. قُلْتُ: مَا أَنْتَ بِفَاعِلٍ، قَالَ:

10

(1) فِي ج: أَضَعُ

(1) الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ 413، شِفَاءُ الْغَرَامِ 95 .

(2) الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ 413 .

(3) الْمَصْدَرُ وَالصَّفْحَةُ، تَهْذِيبُ الْأَسْمَاءِ وَاللُّغَاتِ 2: 39 .

(4) أَخْبَارُ مَكَّةَ 1: 246 .

(5) فِي الْحَجِّ مِنْ صَحِيحِهِ 2: 183، حَدِيثُ (1594) .

(6) هُوَ شَقِيقُ ابْنِ سَلَمَةَ .

فلم؟ قلت: لم يفعل صاحبك، قال: هما المرآن يقتدى بهما. وخرجه أبو داود وابن ماجه⁽¹⁾.

وأقام ذلك المال إلى أن كانت فئنة الأفطس⁽²⁾، وهو الحسين بن الحسن ابن علي [بن الحسين]⁽³⁾ بن علي، زين العابدين، سنة تسع وتسعين ومائة، حين غلب على مكة عمدة إلى الكعبة، فأخذ ما في خزائنها، وقال: ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعاً فيها لا يفتفع به؟ نحن أحق به، نستعين به على خزينا؛ وأخرجه، وتصرف فيه. وبطلت الذخيرة من الكعبة من يومئذ.

وأما بيت المقدس، وهو المسجد الأقصى، فكان أول أمره أيام الصابئة موضعاً لهيكل الزهرة. وكانوا يقربون إليه الزيت فيما يقربونه، ويصبونه على الصخرة التي هنالك. ثم دثر ذلك الهيكل، واتخذها بنو إسرائيل حين ملكوها قبلة لصلواتهم. وذلك أن موسى، صلوات الله عليه، لما خرج ببني إسرائيل من مصر ليملكهم بيت المقدس / كما وعد الله أباهم إسرائيل وآبائه إسحاق ويعقوب من قبله، وأقاموا بأرض السيه، أمره الله بالتخاذ قبلة من خشب السنت، عين بالوحي مقدارها ووصفها وهيكلها وتبائيلها، وأن يكون فيها تابوت ومائدة بصحافها، ومنارة بقناديلها، وأن يصنع مذبحاً للقربان. ووصف ذلك كله في التوراة⁽⁴⁾ أكمل وصف. فصنع القبة،

(1) سنن أبي داود (2031) وسنن ابن ماجه (3116).

(2) ولاء على مكة أبو السرايا السري بن منصور القائم بأمر ابن طباطبا، انظر أخباره في الكامل 6: 302، 305.

(3) من الكامل 6: 305.

(4) سفر الخروج 30، 33.

ووضع فيها تابوت العهد، وهو التابوت الذي فيه الألواح المصنوعة عوضاً من الألواح
 المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت، ووضع المذبح عندها، وعهد الله إلى موسى
 بأن يكون هارون صاحب القربان. ونصبوا تلك القبة بين خيامهم في التيه، يصلون
 إليها ويقربون في المذبح أمامها، و[يتوجهون]^(أ) للوحي عندها. ولما ملكوا أرض
 الشام، أنزلوها بكلال، من بلاد الأرض المقدسة، ما بين قسم بني يامين وبني
 أفرام. وبقيت هنالك أربع عشرة سنة، سبعا مدة الحزب، وسبعا بعد الفتح، أيام
 القسمة^(ب) للبلاد. ولما توفي يوشع - عليه السلام - نقلوها إلى بلد شيلو، [قريباً من
 كلكال، وأداروا عليها الحيطان]^(ج). وأقامت على ذلك ثلاثمائة سنة، حتى ملكها بنو
 فلسطين من أيديهم كما مر، وتغلبوا عليهم. ثم [ردوا عليهم القبة]^(د) ونقلوها بعد وفاة
 عالي الكوهن إلى نوف. ثم نقلت أيام طالوت إلى كنعون في بلاد بني يامين. ولما
 [ملك]^(هـ) داود - عليه السلام - نقل القبة والتابوت إلى بيت المقدس، وجعل
 [عليها]^(و) خباء خاصاً ووضعها على الصخرة^(ز). وبقيت تلك القبة قبلتهم.

وأراد داود - عليه السلام - بناء مسجد^(ح) على الصخرة مكانها، فلم يتم له
 ذلك، وعهد به إلى ابنه سليمان، فبناه لأربع سنين من ملكه، وحفّس مائة سنة من
 وفاة موسى عليه السلام. واتخذ عمده من الصفر، وجعل به صرخ الزجاج، وعشى
 15

(أ) في الأصل ع: يتعرضون؛ ثم شطبت وكُتب فوقها: يتوجهون، وثالث ظ ج ي عن الأصل قبل الإصلاح (ب) ج ع: القسمة
 (ج) في ظ ج: "بقرها واتخذوا لها الحوائط". وكان هذا النص في الأصل ع، ثم شُطِبَ وغُوض بما أثبتناه (د) كانت في أصل
 ع ردها، وثالثها ظ ج، ثم استبدلت (هـ) من ع مستدركة ونحتها: ولي، وعنها نقلت ظ (و) كذا في ع، وفي ظ ج: لها
 (ز) ما بين النجمين من حاشية ع بخطه، وفي ي جاء النص مرتباً (ح) في ي: مسجده.

أبوابه وحيطانه بالذهب، وصاغَ هياكله وتآثيله وأوعيته ومناوِره ومفاتيحه من الذهب، وجعل ظهره مقبواً ليودع فيه تابوت العهد. وجاء به من صهيون، بلد أبيه داود، [نقله إليها أيامَ عِمارة المسجد، فجيء به^(١)] تحملهُ الأَسباط والكهَنوتية، / حتى [٢٤٦أ] وُضِعَ في القَبْرِ، ووُضِعَت القُبَّة والأوعية والمذبح، كلُّ حَيْثُ أُعِدَّ له من المسجد. وأقام كذلك ما شاء الله. 5

ثم خربه بُخْتَنَصْرُ بعد ثمانمائة سنة من بنائه. وأُحرق التَّوراة والعَصَا^(ب)، و[سَبَكَ^(ج)] الهياكل، ونثر الأحجار. ثم لما أعادهم ملوكُ الفُرس، بناه عُزْرَئِيلُ نَبِيُّ بني إسرائيلَ لعَهده، بإعانة بَهْمَن، مَلِكِ الفُرس الذي كانت الولادةُ لبني إسرائيل عليه [من سبي]^(د) بُخْتَنَصْر. وحدَّ لهم في بنائه حُدوداً دون بناء سليمان - عليه السلام - فلم يتجاوزوها. 10

[وأما الأَواوين^(١) التي تحت المسجد، يَزَكِبُ بعضها بعضاً؛ عمودُ الأعلى منها على قَوْسِ الأَسفل في طَبَقَتَيْنِ. ويتَوَهَّمُ كثيرٌ من النَّاس أنها إَضْطَبَلَاتٌ لسليمان - عليه السلام - وليس كذلك. وإِنَّمَا بناها تَتْرِيهاً للْبَيْتِ المُقَدَّسِ عَمَّا يتَوَهَّم من التَّجاسات، لأنَّ التَّجاسة في شَريعَتهم، وإن كانت في باطنِ الأرض، وكان ما يَبْنِيها ويَبْنِي ظاهِر الأرض مَحْشَوْاً بالثَّراب، بحيث يَصِلُ ما يَبْنِيها وبين الظَّاهِر خَطٌّ 15

(١) من حاشية ع بخطه، وسقط من ظ (ب) في الأصول كلها: العصا، وهي لغة في العصا ذكرها الأزهري، وكرها بعضهم (اللسان: مادة عصا) (ج) من: ج ي، وفي ظ: وصاغ، كانت في أصل ع ثم استبدلت (د) سقط من ظ.

(١) هي صهرج لتجميع أمطار الشتاء، كما يدلُّ عليه طراز عمارته والمزاريب الثقيلة للماء من سطح الحرم إليه، ومواد الملاط على حجارتها الكبيرة، المكوَّنة من الكلس وكسارة الفخار المعروفة في أسلوب العزل المائي.

مُسْتَقِيم، ينجس ذلك الظاهر بالتَّوْهُم. والمتوهُم عندهم كالمُحَقَّق. فبنوا هذه الأواوين على هذه الصُّورَة بعمود الأواوين السُّفْلِيَّة، تَنْتَهِي إلى أَقْوَاسِهَا وَيَنْقَطِعُ حَطُّهُ، فَلَا تَتَّصِلُ التَّجَاسُّةُ بِالْأَعْلَى عَلَى خَطِّ مُسْتَقِيم، وَتَنْزَعُ الْبَيْتُ عَنْ هَذِهِ التَّجَاسُّةِ الْمُتَوَهُمَةِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَتْلَعَ فِي الطَّهَارَةِ وَالتَّقْدِيسِ لِلْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ^(أ).

5 ثُمَّ تَدَاوَلَتْهُمْ مَلُوكُ يُونَانَ وَالْفُرْسِ وَالرُّومِ . وَاسْتَفْحَلَ الْمَلِكُ لَبْنِي إِسْرَائِيلَ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ لَبْنِي حَشْمَتَائِي، مِنْ [كَهَنُوتَيْهِمْ]^(ب)، ثُمَّ لَصَّهَرَهُمْ هِيرَدُوسُ وَلَبْنِيهِ مِنْ بَعْدِهِمْ. وَبَنَى هِيرَدُوسُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ عَلَى حُدُودِ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَام - وَتَأْتَقُ فِيهِ حَتَّى أَكْمَلَهُ فِي سِتِّ سِنِينَ. فَلَمَّا جَاءَ طِيَطُشُ، مِنْ مُلُوكِ الرُّومِ، وَغَلِبَهُمْ وَمَلَكَ أَمْرَهُمْ، خَرَّبَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ وَمَسْجِدَهَا، وَأَمَرَ أَنْ يُزْرَعَ مَكَانُهُ.

10 ثُمَّ أَخَذَ الرُّومُ بِدِينِ الْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَام - وَدَانُوا بِتَعْظِيمِهِ. ثُمَّ أَخْلَفَ حَالُ مُلُوكِ الرُّومِ فِي الْأَخْذِ بِدِينِ النَّصْرَانِيَّةِ تَارَةً وَتَرَكَهُ أُخْرَى، إِلَى أَنْ جَاءَ قُسْطَنْطِينُ، وَتَنَصَّرَتْ أُمُّهُ هِلَانَةُ، وَارْتَحَلَتْ إِلَى الْقُدْسِ فِي طَلَبِ الْحَشَبَةِ الَّتِي صُلبَ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ بِرُغْمِهِمْ. فَأَخْبَرُوهَا^(ج) الْقَهَامِسَةُ بِأَنَّهُ رُمِيَ بِخَشَبَتِهِ عَلَى الْأَرْضِ، وَأُلْقِيَ عَلَيْهِ الْقَهَامَاتُ وَالْقَادُورَاتُ . فَاسْتَخْرَجَتْ الْحَشَبَةَ ، وَبَنَتْ مَكَانَ تِلْكَ الْقَهَامَاتِ كَنِيسَةً الْقَهَامَةِ، كَانَتْهَا عَلَى قَبْرِهِ بِرُغْمِهِمْ. وَخَرَّبَتْ مَا وَجَدَتْ مِنْ عِمَارَةِ الْبَيْتِ، وَأَمَرَتْ بِطَرْحِ الزَّيْلِ وَالْقَهَامَاتِ عَلَى الصَّخْرَةِ حَتَّى غَطَّاهَا وَخَفِيَ مَكَانُهَا، جِزَاءً - بِرُغْمِهَا - لِمَا فَعَلُوهُ

(أ) إضافة في حاشية ع بخطه، وسقطت من ط ج ي (ب) في ج ي ط وأصل ع: كهنتهم، واستبدلت في حاشية ع إلى ما أثبتناه (ج) كنا في ع ط ج ي .

في قَبْرِ الْمَسِيحِ. ثُمَّ بَنَوْا إِزَاءَ الْقُمَامَةِ بَيْتَ لَحْمٍ، وَهُوَ الْبَيْتُ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ عِيسَى،
صلوات الله عليه.

وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالْفَتْحُ، وَخَضَرَ عُمَرُ لِفَتْحِ بَيْتِ
الْمَقْدَسِ، وَسَأَلَ عَنِ الصَّخْرَةِ، فَأَرَى مَكَانَهَا وَقَدْ علاها الرِّبْلُ وَالتَّرَابُ، فَكَشَفَ عَنْهَا
وَبَنَى عَلَيْهَا مَسْجِدًا عَلَى طَرِيقِ الْبِدَاوَةِ، وَعَظَّمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا أَذِنَ اللَّهُ فِي تَعْظِيمِهِ،
/ وما سَبَقَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ مِنْ فَضْلِهِ، حَسْبًا تَبَّتْ.

[246ب]

ثُمَّ اخْتَفَلَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي تَشْيِيدِ مَسْجِدِهِ عَلَى سَنَنِ مَسَاجِدِ
الْإِسْلَامِ بِمَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْاِخْتِفَالِ، كَمَا فَعَلَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَفِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ
ﷺ بِالْمَدِينَةِ، وَفِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَسْمِيهِ بِبِلَاطِ الْوَلِيدِ. وَأَلْزَمَ مَلِكُ
الرُّومِ أَنْ يَبْنِيَ الْقَعْلَةَ وَالْمَالَ لِبِنَاءِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ، وَأَنْ يُتَمَقَّوْهَا بِالْفُسَيْفِساءِ، فَأَطَاعَ
لِذَلِكَ؛ وَتَمَّ بِنَاؤُهَا عَلَى مَا اقْتَرَحَهُ.

ثُمَّ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ أَعْوَامَ الْخَمْسِمِائَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَفِي آخِرِهَا،
وَكَانَتْ فِي مَلَكَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ، خُلَفَاءُ الْقَاهِرَةِ مِنَ الشَّيْعَةِ، وَاخْتَلَّ أَمْرُهُمْ، زَحَفَ
الْفَرَنْجَةُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ، فَمَلَكُوهُ، وَمَلَكُوا مَعَهُ عَامَّةَ نُغُورِ الشَّامِ. وَبَنَوْا عَلَى
الصَّخْرَةِ الْمَقْدَسَةِ مِنْهُ كَنِيسَةً كَانُوا يُعَظِّمُونَهَا وَيَفْتَخِرُونَ بِبِنَائِهَا⁽¹⁾. حَتَّى إِذَا اسْتَقَلَّ

(1) لَمْ يَنْ الصَّلِيبِيُّونَ كَنِيسَةً عَلَى الصَّخْرَةِ، وَإِنَّمَا احْتَفَظُوا بِالْبِنَاءِ الْفَخْمِ الَّذِي أَقَامَهُ الْخَلِيفَةُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ
مُرْوَانَ سَنَةَ 72هـ / 691م لِأَنَّهُ بَنَى عَلَى طَرَاظِ "الرُّوتَنْدَا" الْمَسِيحِيَّةِ. وَهُوَ مِنَ الْمَعَالِمِ الْإِسْلَامِيَّةِ التَّادِرَةِ الَّتِي
أَبْقَوْا عَلَيْهَا دَاخِلَ مَدِينَةِ الْقُدْسِ.

صلاح الدين بن أيوب الكردي⁽¹⁾ بملك مضر والشام، ومحا أثر العبيدين وبدعهم، زحف إلى الشام، وجاهد من كان به من الفرنجة، حتى غلبهم على البيت المقدس وعلى ما كانوا ملكوه من ثغور الشام. وذلك لنحو ثمانين وخمسمائة من الهجرة. وهدم تلك الكنيسة، وأظهر الصخرة، وبني المسجد⁽²⁾ على النحو الذي هو عليه لهذا العهد.

5

⁽¹⁾ [ولا يعرض^(ب) لك الإشكال المعروف في الحديث الصحيح⁽³⁾، أن النبي ﷺ سئل عن أول بيت وضع، فقال: "مكة". قيل: ثم أي؟ قال: "بيت المقدس". قيل: فكم بينهما؟ قال: "أربعون سنة". فإن المدة بين بناء مكة وبناء بيت المقدس بمقدار ما بين إبراهيم وسليمان. لأن سليمان بانيها، وهو يُنْفَى على الألف بكثير. واعلم أن المراد بالوضع في الحديث ليس / البناء، وإنما المراد أول بيت عيّن

10

[247]

(1) حاشية من ع يحطه، سقطت من ظ، وأثبتها ي ج (ب) في ج: عرض.

(1) الخلاف بين المؤرخين في نسب الأيوبيين قديم، والراجح فيه ما كتبه الملك الأحمَد الحسن بن الناصر داود بن المعظم عيسى بن الملك العادل محمد بن أيوب، يقول: "المشهور عند بيتنا أن جدنا نزل على الأكراد وتزوج منهم، فصارت بيننا وبينهم خوولة لا غير، كما بيننا وبين الأتراك، فإن أمهات جماعة من أسلافنا تركيات". ودلّل الملك الأحمَد على ذلك بأدلة مقبولة. انظر، الملك الناصر داود بن عيسى الأيوبي؛ الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية 57 (مقداد 1992).

(2) كان الصليبيون قد جدّدوا تغطية "الروتندا" بسقف لا تعرف شيئاً عن هيئته، فأسقطه صلاح الدين الأيوبي وجدّد التغطية بالقبة الخشبية المزخرفة الباقية إلى اليوم، واتخذ لها غطاء خارجياً من أطباق الرصاص لحمايتها.

(3) أخرجه البخاري (3366) و (3425) ومسلم (520) من حديث أبي ذر.

لِلْعِبَادَةِ. وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ عَيْنَ لِلْعِبَادَةِ قَبْلَ سُلَيْمَانَ بِمَثَلِ هَذِهِ الْمُدَّةِ،
 وَقَدْ يُقَالُ^(أ): إِنَّ الصَّابِئَةَ بَنَوْا عَلَى الصَّخْرَةِ هَيْكَلَ الزُّهْرَةِ، فَلَعَلَّ ذَلِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ
 مَكَانًا لِلْعِبَادَةِ، كَمَا كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَضَعُ الْأَصْنَامَ وَالتَّمَاثِيلَ حَوْلِي الْكَعْبَةِ وَفِي جَوْفِهَا.
 وَالصَّابِئَةُ الَّذِينَ بَنَوْا هَيْكَلَ الزُّهْرَةِ كَانُوا عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَام - فَلَا^(ب)
 5 تَبْعُدُ مُدَّةَ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً بَيْنَ وَضْعِ مَكَّةَ لِلْعِبَادَةِ وَوَضْعِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ
 هُنَاكَ بِنَاءٌ، كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ، وَإِنْ أَوَّلَ مَنْ بَنَى بَيْتَ الْمُقَدَّسِ سُلَيْمَانُ - عَلَيْهِ السَّلَام -
 فَتَفَهَّمْهُ، وَفِيهِ حَلُّ هَذَا الْإِشْكَالِ^(ج).

وَأَمَّا الْمَدِينَةُ، وَهِيَ [الْمُسَمَّاءُ]^(د) يَثْرِبُ، فَهِيَ مِنْ بِنَاءِ يَثْرِبَ بْنِ مَهْلَايِلَ، مِنْ
 الْعَمَالِقَةِ، وَبِهِ سُمِّيَتْ. وَمَلِكُهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ أَيْدِيهِمْ فِيمَا مَلَكَوهُ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ.
 10 ثُمَّ جَاوَزَهُمْ أَبْنَاءُ قَبِيلَةِ مِنْ عَسَّانَ، وَعَلَبُوهُمْ عَلَيْهَا وَعَلَى حُصُونِهَا.

ثُمَّ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْهَجْرَةِ إِلَيْهَا لَمَّا سَبَقَ مِنْ عِنَايَةِ اللَّهِ لَهَا. فَهَاجَرَ إِلَيْهَا وَمَعَهُ
 أَبُو بَكْرٍ، وَتَبِعَهُ أَصْحَابُهُ^(هـ). وَنَزَلَ بِهَا، وَبَنَى مَسْجِدَهُ وَبُيُوتَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي^(و) قَدْ
 كَانَ اللَّهُ أَعَدَّهُ^(ز) لَذَلِكَ، وَشَرَّفَهُ فِي سَابِقِ أَرْلِهِ. وَأَوَاهُ أَبْنَاءُ قَبِيلَةٍ وَنَصْرُوهُ، وَبِذَلِكَ
 سُمُّوا الْأَنْصَارُ. وَتَمَّتْ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْمَدِينَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى الْكَلِمَاتِ، وَغَلَبَ
 15 عَلَى قَوْمِهِ، وَفَتَحَ مَكَّةَ وَمَلِكُهَا. وَظَنَّ الْأَنْصَارُ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ عَنْهُمْ إِلَى بَلَدِهِ^(ح)، فَأَهْمَتَهُمْ

(أ) مِنْ ط ج، وَفِي ع: يَاقُ، وَأَسْقَطَ اللَّامَ، وَفِي ي: قُلْ (ب) فِي ع: وَلَا (ج) نَهَايَةُ حَاشِيَةٍ مِنْ ع يَخْطُهَا، سَقَطَتْ مِنْ ط،
 وَأَبْتَهِيَ ج (د) فِي ط: الْمَسْمَى (هـ) وَضَعُ نَاسِخِ النُّسخَةِ ط (الظَّاهِرِيُّ) الْفَقْرَةُ الْمُتَقَدِّمَةُ الْمَحْصُورَةُ بَيْنَ حَاصِرَيْنِ، وَالْحَاضَةُ بِأَوَّلِ
 بَيْتِ وَضْعِ الْعِبَادَةِ، فِي هَذَا الْمَكَانِ خَطَأً. إِذْ لَمْ يُضْبَطْ مَوْقِعُهَا عِنْدَ شُكْلِهَا مِنْ حَاشِيَةِ النُّسخَةِ ع، رَغْمَ وَجُودِ عَلَامَةِ الْمُخْرَجِ لَهَا
 قَبْلَ الْحَدِيثِ مُبَاشَرَةً عَنِ الْمَدِينَةِ (و) فِي: ع ج ي: كَانَ اللَّهُ قَدْ أَعَدَّهُ (ز) فِي ج: الْبَلَدُ.

ذلك، فخطبهم ﷺ وأخبرهم أنه غير مُتَحَوِّل. حَتَّى إِذَا قُبِضَ ﷺ كَانَ مَلَحْدُهُ الشَّرِيفُ بها.

وجاء في فضلها من الأحاديث الصحيحة ما لا خفاء به. ووقع الخلاف بين العلماء في تفضيلها على مَكَّةَ ، وقال به مالك - رحمه الله - لما ثَبَتَ عنده في ذلك من النص الصريح عن رافع بن خديج⁽¹⁾ ، أن النبي ﷺ قال: "المدينة خير من مَكَّة". 5 نقل ذلك عبد الوهاب في المعونة⁽²⁾ ، إلى أحاديث أخرى تدل بظاهرها على ذلك. وخالف أبو حنيفة والشافعي.

وأصبحت على كلِّ حالٍ ثانية المسجد الحرام. وجنح إليها الأمم / بأفئدتهم [247 ب] من كلِّ أوب.

فانظر كيف تدرجت الفضيلة في هذه المساجد المعظمة لما سبق من عناية 10 الله لها . وتفهّم سرَّ الله في الكون وتدرّجه على ترتيبٍ مُحْكَمٍ في أمور الدين والدنيا.

وأما غير هذه المساجد الثلاثة، فلا نعلمه في الأرض، إلا ما يقال من شأن 15 مسجد آدم - عليه السلام - بسرّنديب، من جزائر الهند. لكنّه لم يثبت فيه شيءٌ يُعَوَّلُ عليه.

(1) حديث ضعيف أخرجه الطبراني في الكبير (4450) والبخاري في التاريخ الكبير 1: 160 وابن عدي في الكامل 6: 190 من حديث رافع بن خديج .

(2) المعونة 2: 605 (باب في فضل المدينة والصلاة بها).

وقد كانت للأمم في القديم مساجد يعظمونها على جهة الديانة بزعمهم، منها: بيوت النار للفرس، وهياكل يونان، وبيوت العرب بالحجاز، التي أمر النبي ﷺ بهدمها في غزواته. وقد ذكر المسعودي⁽¹⁾ منها يبيوتاً لسنّا من ذكرها في شيء، إذ هي غير مشروعة، ولا هي على طريق ديني. فلا يلتفت إليها ولا إلى الخبر عنها؛ ويكفي في ذلك ما وقع في التواريخ؛ فمن أراد معرفة الأخبار فعليه بها. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. [سورة البقرة، الآية 213].

7* فصل، في أن الأمصار والمدن بأفريقية والمغرب قليلة

والسبب في ذلك، أن هذه الأقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الإسلام، وكان عمرانها كله بدويّاً، ولم تستمرّ فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها. والدول التي ملكتهم من الإفرنجية والعرب لم يطل أمده ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها، فلم تزل عوائد البداوة وشؤونها، فكانوا لها أقرب، فلم تكثر مبانيم.

وأيضاً، فالصنائع بعيدة عن البربر لأنهم أعرق في البدو. والصنائع من توابع الحضارة، وإثماً تتم المباني بها، فلا بدّ من الجذوق في تعلّمها. ولما لم يكن للبربر اتّصال لها، لم يكن لهم تشوّف إلى المباني فضلاً عن المدن.

(1) مروج الذهب، (الأبواب 63-69) خصّ بها البيوت المعظمة والهياكل والنيران والأصنام عند اليونانيين وأوائل الروم والصقالبة والصابئة وغيرهم.

وأيضاً فهم أهل عَصِيَّاتٍ وَأَنْسَابٍ، لا يَخْلُو عن ذلك جَمْعُ مِنْهُمْ. وَالْأَنْسَابُ
وَالْعَصِيَّةُ أَجْنَحُ إِلَى الْبَدْوِ، وَإِنَّمَا يَدْعُو إِلَى الْمَدْنِ الدَّعَةُ وَالسَّكُونُ، وَيَصِيرُ سَاكِنُهَا
عِيَالاً عَلَى حَامِيَّتِهَا. فَتَجِدُ أَهْلَ الْبَدْوِ لَذَلِكَ يَسْتَنْكِفُونَ مِنْ سُكْنَى الْمَدِينَةِ أَوْ الْمُقَامَةِ
بِهَا، وَلَا يَدْعُوهُمْ لَذَلِكَ إِلَّا التَّرْفُ وَالْغِنَى، وَقَلِيلٌ / مَا هُوَ فِي النَّاسِ. [248]

- 5 فلذلك كان عُمُرَانُ إِفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ كُلَّهُ أَوْ أَكْثَرَهُ بَدَوِيًّا، أَهْلَ خِيَامٍ وَظَوَاعِنَ
وَقِيَاطِنَ وَكُنَّ⁽¹⁾ فِي الْجِبَالِ. وَكَانَ عُمُرَانُ بِلَادِ الْعَجَمِ كُلَّهُ أَوْ أَكْثَرَهُ قُرَى وَأَمْصَاراً
وَرَسَاتِيقَ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَعِرَاقَ الْعَجَمِ وَأَمْثَالِهَا؛ لِأَنَّ الْعَجَمَ فِي
الْغَالِبِ، لَيْسُوا بِأَهْلِ أَنْسَابٍ يُحَافِظُونَ عَلَيْهَا وَيَتَنَاعَوْنَ فِي صُرَاحَتِهَا وَالتَّحَامِهَا إِلَّا فِي
الْأَقْلِ. وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ سُكْنَى الْبَدْوِ لِأَهْلِ الْأَنْسَابِ؛ لِأَنَّ لُحْمَةَ النَّسَبِ أَقْرَبُ
10 وَأَشَدُّ، فَتَكُونُ عَصِيَّتُهُ كَذَلِكَ، وَتَنْزَعُ بِصَاحِبِهَا إِلَى سُكْنَى الْبَدْوِ وَالتَّجَافِي عَنْ الْمِصْرِ
الَّذِي يَذْهَبُ بِالْبَسَالَةِ، وَيُصَيِّرُهُ عِيَالاً عَلَى غَيْرِهِ. فَافْهَمْهُ، وَقَسْ عَلَيْهِ.

8 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الْمَبَانِيَّ وَالْمَصَانِعَ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَلِيلَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى
قُدْرَتِهَا وَمَنْ كَانَ قَبْلَهَا مِنَ الدُّوَلِ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، مَا ذَكَرْنَا مِثْلَهُ فِي الْبَزْرِ بَعَيْنُهُ، إِذِ الْعَرَبُ أَيْضاً أَغْرُقُ

فِي الْبَدْوِ وَأَبْقَدُ عَنِ الصَّنَاعِ.

(1) فِي ي: كُنَّ.

وأيضاً، فكانوا أجانب من الممالك التي استولوا عليها قبل الإسلام. [ولمّا]^(١)
تَلَكُّوها لم يَنْفَسِحِ الأمرُ حتَّى تُسْتَوْفَى رُسُومُ الحضارة، مع أنَّهم استغْنَوْا بما وَجَدُوا
من مَباني غيرهم.

وأيضاً، فكان الدِّينُ أولُ الأمرِ مانِعاً من المغالاة في البُنيان والإسراف فيه في
5 غير القَصْدِ، كما عَهِدَ لهم عُمَرُ حين استأْذَنوه في بِناء الكوفة بالحجارة، وقد وَقَعَ
الحريقُ في القَصْبِ الَّذِي كانوا بَنَوْا به من قَبْل. فقال^(١): افْعَلُوا، ولا يَزِيدَنَّ أَحَدٌ على
ثَلَاثَةِ أَيْبَاتٍ، ولا تَطَاوَلُوا^(ب) في البُنيان، والزموا السُّنَّةَ تَلَزُّمُكُمْ الدَّوْلَةَ. وعَهِدَ إلى
الوَفْدِ، وتَقَدَّمَ إلى النَّاسِ ألاَّ يَزْفَعُوا بُنياناً فوق القَدْرِ. قالوا: وما القَدْرُ؟ قال: ما لا
يُقَرِّبُكم من السَّرَفِ، ولا يُخْرِجُكم عن القَصْدِ.

10 فَلَمَّا بَعْدَ العَهْدِ بالدِّينِ والتَّحَرُّجِ في أمثال هذه المقاصِدِ، وغلبتُ طَبِيعَةُ المُلْكِ
والتَّرفِ، واستُخْدِمَ العَرَبُ أُمَّةُ الفُرْسِ، وأَخَذُوا عنهم الصَّنَاعَ والمَباني، ودَعَتْهم إليها
أحوالُ الدَّعةِ والتَّرفِ؛ وَحِينَئِذٍ شَيَّدُوا المَباني والمصانع. وكان عَهْدُ ذلك قَرِيباً باقْتِرَاضِ
الدَّوْلَةِ، ولم يَنْفَسِحِ الأَمَدُ لكثرةِ البِناءِ واختِطاطِ المَدُنِ والأَمْصارِ إِلَّا قَلِيلاً؛ / وَلَيْسَ
كذلكَ غَيْرُهُم من الأَمَمِ، فالْفُرْسُ^(ج) طَالَتْ مُدَّتُهُمْ آلافاً من السنين، وكذلك القَيْطُ
15 والنَّبِطُ والرُّومُ، وكذلك العَرَبُ [الأولى]^(د) من عادٍ وثَمُودَ والعَمَالِقَةَ والتَّبَاعَةَ، طَالَتْ
أَمادُهُمْ وَرَسَخَتِ الصَّنَاعُ فِيهِمْ. فَكَانَتْ مَبَانِيهِمْ وهياكلُهُمْ أَكْثَرَ عَدداً وَأَبْقَى على الأَيَّامِ أثراً.

(١) ظ: وإنا (ب) في ج: تطاولوا (ج) ي: والفُرس (د) ع ي، وفي ط ج: الأول.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك 4: 44.

واستبصر في هذا، تجذّه كما قلْتُ لك. والله وارث الأرض ومن عليها.

9 فصل، في أن المباني التي تخطّها العرب يسرع إليها الخراب، إلا في الأقلّ

والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع، كما قدّمناه، فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها. وله، والله أعلم، في تشييدها⁽¹⁾ وجه آخر، وهو أمس به، وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدين، كما قلناه، من المكان 5 وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي. فإن بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصير أو رداءته من حيث العمران الطبيعي. والعرب بمغزل عن هذا؛ وإنما يراعون مراعي إيلهم خاصّة، لا يبالون بالماء، طاب أم خبث، ولا قلّ أم كثر، ولا يسألون عن زكيّ المزارع والمنابت والأهوية، لانتقالهم في الأرض ونقلهم الحبوب من البلد البعيد.

10

وأما الرياح، فالفقر مختلّف للمهابّ كلّها، والظعن كليل لهم بطبيعتها. لأنّ الرياح إنما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات.

وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان، كيف لم يراعوا في اختطاطها إلا مراعي إيلهم، وما يقرب من الفقر ومسالك الظعن؛ فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدين، ولم تكن لها مادة تمّد عمرانها من بعدهم، كما قدّمنا أنّه يحتاج إليه 15 في حفظ العمران. فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار، ولم تكن في وسط الأمم

(1) من ظ، وسقطت من: ع ج ي.

فَيَغْمُرُهَا النَّاسُ . فَلَأَوَّلُ وَهْلَةٍ مِنْ اِنْخِلَالِ أَمْرِهِمْ وَذَهَابِ عَصِيَّتِهِمُ الَّتِي كَانَتْ سِيَّاجاً لَهَا أَتَى عَلَيْهَا الْخَرَابُ وَالْاِنْخِلَالُ، كَأَنْ لَمْ تَكُنْ. ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [سورة الرعد، من الآية 41].

10 ﴿فَصَلِّ، فِي مَبَادِيِ الْخَرَابِ فِي الْأَمْصَارِ﴾

5 / اعْلَمْ أَنَّ الْأَمْصَارَ إِذَا اخْتَطَّتْ أَوَّلًا تَكُونُ قَلِيلَةً الْمَسَاكِنُ ، وَقَلِيلَةً آلَاتِ الْبِنَاءِ مِنَ الْحَجَرِ وَالْكِلْسِ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا يُعَالَى عَلَى الْحِيطَانِ عِنْدَ التَّائِقِ، كَالزَّلَّيجِ وَالرُّخَامِ وَالْفُسَيْفَسَاءِ وَالسَّبَجِ وَالصَّدَفِ وَالزُّجَاجِ. فَيَكُونُ بِنَاؤُهَا، يَوْمَئِذٍ، بَدْوِيًّا وَآلَاتُهَا فَاسِدَةً.

فَإِذَا عَظُمَ عُمْرَانُ الْمَدِينَةِ وَكَثُرَ سَاكِنُهَا، كَثُرَتْ آلَاتُهَا بِكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ، حِينَئِذٍ،

10 وَكَثُرَةُ الصُّنَاعِ، إِلَى أَنْ تَبْلُغَ غَايَتَهَا مِنْ ذَلِكَ، كَمَا سَبَقَ فِي شَأْنِهَا. فَإِذَا تَرَاجَعَ عُمْرَانُهَا وَقَلَّ سَاكِنُهَا، قَلَّتْ الصُّنَائِعُ لِأَجْلِ ذَلِكَ، فَفَقِدَتْ الْإِجَادَةَ فِي الْبِنَاءِ وَالْإِحْكَامِ وَالْمُعَالَاةِ

عَلَيْهِ بِالتَّنْمِيقِ. ثُمَّ تَقِلُّ الْأَعْمَالُ لِعَدَمِ السَّاكِنِ، فَيَقِلُّ جَلْبُ الْآلَاتِ مِنَ الْحَجَرِ وَالرُّخَامِ وَغَيْرِهِمَا، فَتُفْقَدُ. وَيَصِيرُ بِنَاؤُهُمْ وَتَشْيِيدُهُمْ مِنَ الْآلَاتِ الَّتِي فِي مَبَانِيهِمْ،

يَنْقُلُونَهَا مِنْ مَصْنَعٍ إِلَى مَصْنَعٍ، لِأَجْلِ خَلَاءِ أَكْثَرِ الْمَصَانِعِ وَالْقُصُورِ وَالْمَنَازِلِ، لِقِلَّةِ

15 الْعُمْرَانِ وَقُصُورِهِ عَمَّا كَانَ أَوَّلًا. ثُمَّ لَا تَزَالُ تُنْقَلُ مِنْ قَصْرِ إِلَى قَصْرِ، وَمِنْ دَارٍ إِلَى

دَارٍ، إِلَى أَنْ يُفْقَدَ الْكَثِيرُ مِنْهَا جُمْلَةً؛ فَيَعُودُونَ إِلَى الْبِدَاوَةِ فِي الْبِنَاءِ، وَاتِّخَاذِ الطُّوبِ

عَوَضًا مِنَ الْحِجَارَةِ، وَالْقُصُورِ عَنِ التَّنْمِيقِ بِالْكَلِّيَّةِ. فَيَعُودُ بِنَاءُ الْمَدِينَةِ مِثْلَ بِنَاءِ

القرى والمدائشِر، ويَظْهَرُ عليها [مَيْسَمٌ] ^(١) البداة. ثم تَمُرُّ في التَّنَاقُصِ إلى غايَتها في الحَرَابِ إن قَدَّرَ لها به، سُنَّةُ اللَّهِ في خَلْقِهِ.

11 • فَضْلٌ، في أَنَّ تَفَاضُلَ الْأَمْصَارِ والمدُنِ في كَثْرَةِ الرَّقْعِ ^(ب) وَنَفَاقِ الْأَسْوَاقِ، إِنَّمَا هُوَ بِتَفَاضُلِ عُمَرَانِهَا في الكثرة والقلة

- 5 والسَّبَبُ في ذلك، أَنَّهُ قد عُرِفَ وَثَبَتْ أَنَّ الواحدَ من البَشَرِ غَيْرُ مُسْتَقِيلٍ بِتَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ في مَعاشِهِ، وَأَنَّهُم مُتَعَاوِنُونَ جَمِيعاً في عُمَرَانِهِم على ذلك. والحَاجَةُ الَّتِي تَحْصُلُ بِتَعَاوُنِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تُسَدُّ ضَرُورَةَ الْأَكْثَرِ مِنْ عَدَدِهِمْ أَضْعَافاً. فَالْقُوَّةُ مِنَ الْحِنِطَةِ مِثْلاً لَا يَسْتَقِيلُ الْوَاحِدُ بِتَحْصِيلِ حِصَّتِهِ مِنْهُ. وَإِذَا انْتَدَبَ لِتَحْصِيلِهِ السَّنَةُ أَوِ الْعَشْرَةَ، مِنْ حَدَادٍ، وَتِجَارٍ لِلآلَاتِ، وَقَائِمٍ عَلَى الْبَقَرِ وَإِثَارَةِ الْأَرْضِ، وَخَصَادِ السُّبُلِ وَسَائِرِ مَوْنِ الْقَلْحِ، وَتَوَزَّعُوا عَلَى تِلْكَ الْأَعْمَالِ، وَاجْتَمَعُوا، / وَخَصَلَ بِعَمَلِهِمْ [249ب]
- 10 ذلك مِقدَارٌ مِنَ الْقُوَّةِ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ قُوَّةٌ لِأَضْعَافِهِمْ مَرَّاتٍ. فَالْأَعْمَالُ بَعْدَ الْاجْتِمَاعِ زَائِدَةٌ عَلَى حَاجَاتِ الْعَامِلِينَ وَضُرُورَاتِهِمْ. وَأَهْلُ مَدِينَةٍ أَوْ مِصْرٍ، إِذَا وُزِّعَتْ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا عَلَى مِقدَارِ ضُرُورَاتِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ، اكْتَفَى فِيهَا بِالْأَقَلِّ مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ، وَبَقِيَتِ الْأَعْمَالُ كُلُّهَا زَائِدَةً عَلَى الضَّرُورَاتِ، فَتُصَرَفُ فِي حَالَاتِ التَّرَفِّ وَعَوَائِدِهِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ، وَيَسْتَجْلِبُونَهُ مِنْهُمْ بِأَعْوَاضِهِ وَقِيَمَتِهِ، فَيَكُونُ لَهُمْ بِذَلِكَ 15 حَظٌّ مِنَ الْغِنَى.

(١) في ع: سيماء، وفوقها بخطه: ميسم. وفي ج ي: ميسم سيماء (كذا)، وفي ط: سيماء (ب) ط ج ي، وفي ع: الرزق.

وقد يَتَبَيَّنُ لك في الفصل الخامس في باب الكسبِ والرِّزْقِ، أَنَّ المكاسبَ
 إِنَّمَا هي قِيَمُ الأَعْمَالِ. فإذا كَثُرَتِ الأَعْمَالُ كَثُرَتِ قِيَمُهَا بَيْنَهُمْ، فكَثُرَتْ مَكاسبُهُمْ ضرورةً.
 ودَعَتْهُمْ أحوالُ الرِّفَةِ والغِنَى إلى التَّرفِ وحاجاته من الثَّائِقِ في المساكنِ والملابسِ،
 واستِجادةِ الآنيةِ والماعونِ، واتِّخاذِ الخَدَمِ والمراكِبِ. وهذه كُلُّها أَعْمَالٌ تُسْتَدْعَى بِقِيَمِهَا
 5 وَيُجْتَنَرُ المَهَرَةُ في صِناعتِها والقيامِ عليها. فَتَنَفَّقُ أسواقُ الأَعْمَالِ والصَّنَائِعِ، وَيَكْثُرُ دَخْلُ
 المِصْرِ وخَرْجُهُ، وَيَحْصُلُ اليَسَارُ لِمُنْتَحِلِي ذَلِكَ من قِبَلِ أَعْمَالِهِمْ. وَمَتَى زَادَ العُمَرَانُ
 زَادَتِ الأَعْمَالُ ثَانِيَةً. ثُمَّ زَادَ التَّرَفُ تَابِعاً لِلْكَسْبِ وزادَتْ عَوَائِدُهُ وَكَسْبُهُ^(أ) وحاجاته،
 واستَنْبَطَتِ الصَّنَائِعُ لَتَحْصِيلِهَا؛ فزادَتْ قِيَمُهَا، وتضاعَفَ الكسبُ في المَدِينَةِ لذلك
 ثَانِيَةً، وَتَفَقَّ سَوْقُ الأَعْمَالِ بِهَا أَكْثَرَ من الأولِ. وكذا في الزِّيَادَةِ الثَّانِيَةِ والثَّالِثَةِ؛ لِأَنَّ
 10 الأَعْمَالِ الزَّائِدَةَ كُلَّهَا تُخْتَصُّ بالتَّرفِ والغِنَى، بِخِلَافِ الأَعْمَالِ الأَصْلِيَّةِ الَّتِي تُخْتَصُّ
 بِالْمَعاشِ. فَالمِصْرُ إذا فَضَلَ المِصْرَ بَعْمَرَانِ^(ب) واحدٍ، فَضْلُهُ بِزِيَادَةِ كَسْبِ وَرَفِهِ،
 وَبِعَوَائِدَ من التَّرفِ لا تَوْجَدُ في الآخِرِ. فَمَا كانَ عُمَرَانُهُ من الأَمْصَارِ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ، كانَ
 حَالُ أَهْلِهِ في التَّرفِ أَبْلَغَ من حَالِ المِصْرِ الَّذِي دُونَهُ على وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ في الأَصْنَافِ:
 القَاضِي مع القَاضِي، والتَّاجِرُ مع التَّاجِرِ، والصَّانِعُ مع الصَّانِعِ، والسُّوقِيُّ مع السُّوقِيِّ،
 15 وَالْأَمِيرُ مع الْأَمِيرِ، وَالشَّرْطِيُّ / مع الشَّرْطِيِّ.

[250 أ]

واعتبر ذلك في المغرب مثلاً بحالِ فاس مع غَيْرِهَا من أَمْصَارِهِ الأُخْرَى،
 مثل بَجَايَةِ، وتِلْغَسَانِ، وَسَبْتَةِ، تَجْدُ بَيْنَهُمَا بَوْناً كَبِيراً على الجُمْلَةِ، ثُمَّ على

(أ) من ظ، وسقطت من ع (ب) ي: لعمران .

الخصوصيات. فحال القاضي بفاس أوسع من حال القاضي بتلمسان، وكذا كل صنف مع أهل صنفه. وكذا أيضاً حال تلمسان مع وهران أو الجزائر، وحال وهران والجزائر مع ما دونها، إلى أن تنتهي على [المداشر]^(أ) الذين اغتالهم في ضرورات معاشهم فقط، أو يقضرون عنها، وما ذلك إلا لتفاوت الأعمال فيها، فكأنها كلها أسواق للأعمال، و[الخروج]^(ب) في كل سوق على نسبته، فالقاضي بفاس دخله كفاء 5 خزيجه، وكذا القاضي بتلمسان. وحيث الدخل والخروج أكثر، تكون الأحوال أعظم وأوسع. وهما بفاس أكثر لتفاق سوق الأعمال بما يدعو إليه الترف، فالأحوال أضخم. ثم هكذا حال وهران وقسنطينة والجزائر وبسكرة، حتى ينتهي كما قلناه إلى الأمصار التي لا تقي أعمالها بضرورتها، ولا تعد في الأمصار، إذ هي من قبيل القرى و[المداشر]^(ج). فلذلك ما نجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال، 10 متقاربين في الفقر والخصاصة، لما أن أعمالهم لا تقي بضرورتهم ولا يفضل لهم عنها ما يتأثّلونه كسباً، فلا تنمو مكاسبهم. فهم لذلك مساكين محتاج، إلا في الأقل النادر.

واعتبر ذلك حتى^(د) في أحوال الفقراء والسؤال، فإن السائل بفاس أحسن حالاً من السائل بتلمسان أو وهران. ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم، ورأيتهم يسألون كثيراً من أحوال الترف واقتراح المأكّل^(هـ)، 15 مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون، كالغزبال والآنية. ولو سأل السائل مثل هذا بتلمسان أو وهران، لاسئتك وعُنف وزجر.

(أ) في ع: المجاشر، واستبدلت فوقها بالمداشر، ونقلها ي ج، وبقيت ط على كلمة المجاشر (ب) كذا في ع ج ي، وفي ظ: الخروج (ج) ح، وفي ظ ع ي: المجاشر. (د) سقط من ي (ه) ي: المأكّل.

وَيَبْلُغُنَا^(١) لهذا الْعَهْدِ عَنْ أحوال أَهْلِ الْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ مِنَ التَّرَفِ وَالْفَنَى فِي عَوَائِدِهِمْ مَا يَقْضِي مِنْهُ الْعَجَبُ ، حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفُقَرَاءِ بِالْمَغْرِبِ يَنْزِعُونَ إِلَى الثُّقَلَةِ إِلَى مِصْرَ لَذَلِكَ ، / وَلَمَّا يَبْلُغُهُمْ مِنْ أَنَّ شَأْنَ الرِّفَةِ بِمِصْرَ أَعْظَمُ مِنْ غَيْرِهَا . [250ب]

وَتَعْتَقِدُ الْعَامَّةُ مِنَ النَّاسِ أَنَّ ذَلِكَ لَطُمُو الْأَمْوَالِ فِي تِلْكَ الْأَفَاقِ ، وَأَنَّ الْأَمْوَالَ مُحْتَزَنَةٌ لَدَيْهِمْ ، وَأَنَّهُمْ أَكْثَرُ صَدَقَةٍ وَإِثَارًا مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ وَإِنَّمَا هُوَ لَمَّا تَعْرِفُهُ مِنْ أَنَّ عُمُرَانَ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ أَكْثَرُ مِنْ عُمُرَانِ هَذِهِ الْأَمْصَارِ الَّتِي لَدَيْكَ ، فَعَظُمَتْ لَذَلِكَ أحوالُهُمْ . وَأَمَّا حَالُ الدَّخْلِ وَالخَرْجِ فَتُكَافَى فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ . وَمَتَى عَظُمَ الدَّخْلُ عَظُمَ الخَرْجُ ، وَبِالْعَكْسِ . وَمَتَى عَظُمَ الدَّخْلُ وَالخَرْجُ ، اتَّسَعَتْ أحوالُ السَّاكِنِ ، وَوَسِعَ الْمِصْرُ كُلَّ شَيْءٍ يَبْلُغُكَ مِنْ هَذَا ، فَلَا تُتَكَبَّرُهُ ، وَاعْتَبِرْهُ بِكَثْرَةِ الْغُمُرَانِ وَمَا يَكُونُ عَنْهُ مِنْ كَثْرَةِ الْمَكَاسِبِ الَّتِي يَسْهُلُ بِسَبَبِهَا الْبَدَلُ وَالْإِثَارُ عَلَى مُبْتَغِيهِ .

وَمَثَلُهُ بِشَأْنِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ مَعَ بُيُوتِ الْمَدِينَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَكَيْفَ تَخْتَلِفُ أحوالُهَا فِي هِجْرَانِهَا أَوْ غَشْيَانِهَا . فَإِنَّ بُيُوتَ أَهْلِ النِّعَمِ وَالثَّرَةِ وَالْمَوَائِدِ الْخَصِيصَةِ مِنْهَا يَكْثُرُ بِسَاحَاتِهَا وَأَفْنِيَّتِهَا نَشِيرُ الْحُبُوبِ وَسَوَاقِطُ الْفُتَاتِ ، فَتَزْدَحِمُ عَلَيْهَا غَوَاشِي التَّحْلِ وَالْحَشَّاشِ ، * وَتَحْلِقُ فَوْقَهَا عَصَائِبُ الطُّيُورِ حَتَّى تَرُوحَ بِطَانًا وَتَقْتُلِي شَيْعًا وَرَبًّا ، وَتَكْثُرُ فِي أُسْرَابِهَا الْجُزْدَانُ ، وَتَأْوِي إِلَيْهَا السَّنَانِيرُ* (ب) .

(١) ع: وبلغنا (ب) حاشية من ع بخطه سقطت من ظ .

وبيوت أهل الخصاصة والفقر الكاسدة أزراقهم، لا يسري بساحتها ديب،
ولا يخلق بجوهم طائر، ولا تأوي إلى [أشراب]⁽¹⁾ بيوتهم فأرة ولا هرة^(ب). كما قال:
[من الخفيف]

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يُلْتَقَطُ الْحَبُّ بَ وَتُعْشَى مَنَازِلُ الْكُرْمَاءِ⁽¹⁾

- 5 فتأمل سر الله في ذلك، واعتبر غاشية الأناسي بغاشية العجم من
الحيوانات، وفئات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يتدللها،
لاستغنائهم عنها في الأكثر بوجود أمثالها لديهم. واعلم أن اتساع الأحوال وكثرة النعم
في العمران تابع لكثرته. والله ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية 97].

12* فصل، في أسعار المدن

- 15 اعلم أن الأسواق كلها تشتمل على حاجات الناس. فيها الضروري: وهو
الأقوات من الحنطة والشعير^(ج) وما في معناها، كالباقلاء والحمص والجلبان وسائر
حبوب الأقوات، ومصلحاتها^(د) كالبصل والثوم وأشباهه. / ومنها الحاجي والكمالي:
[251] من الأدم، والفواكه، والملابس، والماعون، والمزايك، وسائر الصنائع والمباني. فإذا

(1) في ط ج ي: زوايا، وكانت كذلك في الأصل ع، وغيّرت فوقها بأشراب (ب) كذا في ط ج ي وفي ع: هرة (ج) سقطت
من ط ج ي (د) سقطت من ي ج ط، وجاءت بحاشية ع بخطه.

(1) لابن نباتة المصري، ديوانه 48 (مطبعة النمدن - القاهرة 1323هـ)، ورواه ياقوت لغير قائل. (معجم الأدباء
2: 564).

اسْتَبْخَرَ الْمِصْرُ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ، رَخِصَتْ أَشْعَارُ الصَّرُورِيِّ مِنَ الْقُوْتِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ،
وَعَلَّتْ أَشْعَارُ الْكِمَالِيِّ مِنَ الْأُذْمِ وَالْفَوَاكِهِ وَمَا يَتَّبِعُهَا. وَإِذَا قَلَّ سَاكِنُ الْمِصْرِ وَضَعُفَ
عُمُرَانَهُ، كَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ.

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، أَنَّ الْحُبُوبَ مِنْ صُرُورَاتِ الْقُوْتِ، فَتَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى
5 اتِّخَاذِهَا، إِذْ كُلُّ أَحَدٍ لَا يَهْمِلُ قُوْتَ نَفْسِهِ وَلَا قُوْتَ مَنْزِلِهِ لَشَهْرِهِ أَوْ سَلْتِهِ. فَيَعْتَمِدُ
اتِّخَاذُهَا أَهْلَ الْمِصْرِ أَجْمَعٌ، أَوِ الْأَكْثَرُ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْمِصْرِ، أَوْ فِيمَا قَرَبَ مِنْهُ، لِابْتِدَاءِ
ذَلِكَ. وَكُلُّ مُتَخَذٍ لِقُوْتِهِ فَتَفْضُلُ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَضْلَةٌ كَبِيرَةٌ تُسَدُّ خَلَّةَ كَثِيرِينَ
مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ، فَتَفْضُلُ الْأَقْوَاتُ عَنْ أَهْلِ الْمِصْرِ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ. فَتَرْتَخِصُ أَشْعَارُهَا
فِي الْغَالِبِ، إِلَّا مَا يُصِيبُهَا فِي بَعْضِ السَّنِينَ مِنَ الْآفَاتِ السَّمَاوِيَّةِ، وَلَوْ لَا اخْتِكَارُ
10 النَّاسِ لَهَا لَمَا يُتَوَقَّعُ مِنْ تِلْكَ الْآفَاتِ لُبْدِلَتْ دُونَ ثَمَنِ وَلَا عَوَاضٍ، لَكَثَرَتِهَا بِكَثْرَةِ
الْعُمُرَانِ.

وَأَمَّا سَائِرُ الْمُرَافِقِ مِنَ الْأُذْمِ وَالْفَوَاكِهِ وَمَا إِلَيْهَا، فَإِنَّهَا لَا تَعْتَمِدُ بِهَا الْبُلُوعُ، وَلَا
يَسْتَعْرِقُ اتِّخَاذُهَا أَعْمَالُ أَهْلِ الْمِصْرِ أَجْمَعِينَ، وَلَا الْكَثِيرُ مِنْهُمْ. ثُمَّ إِنَّ الْمِصْرَ إِذَا كَانَ
مُسْتَبْجَرًا، مَوْفُورَ الْعُمُرَانِ، كَثِيرَ حَاجَاتِ التَّرَفِّ، تَوَفَّرَتْ حِينَئِذٍ الدَّوَاعِي عَلَى طَلَبِ
15 تِلْكَ الْمُرَافِقِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا، كُلٌّ بِحَسَبِ حَالِهِ. فَيَقْصُرُ الْمَوْجُودُ مِنْهَا عَنِ الْحَاجَاتِ
قُصُورًا بِالْغَا، وَيَكْثُرُ الْمُسْتَامُونَ لَهَا، وَهِيَ قَلِيلَةٌ فِي نَفْسِهَا، فَتَزْدَحُمُ الْأَعْرَاضُ، وَيَبْدُلُ
أَهْلُ الرِّفَةِ وَالتَّرَفِ أَثْمَانَهَا بِإِسْرَافٍ فِي الْغَلَاءِ، لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَيَقْعُ فِيهَا
الْغَلَاءُ كَمَا تَرَاهُ.

وأما الصنائع والأعمال أيضاً في الأمصار الموفورة العُمران، فسبَّب الغلاء فيها أمور ثلاثة:

الأول؛ كثرة الحاجة، لِمكان الترف في المِصر بكثرة عُمرانه.

والثاني؛ اغتزاز أهل الأعمال بخِدْمَتهم، وامْتِهان أنفسهم لسهولة المعاش في المدينة بكثرة أَقْواتها.

5

والثالث؛ كثرة المُتَرَفِّين وكثرة حاجاتهم إلى امتِهان / غيرهم ، وإلى استِعمال الصِّتاع في مِهمهم. فيَبْذُلُونَ في ذلك لأهل الأعمال أَكْثَرَ من قِيَمَةِ أَعمالهم، مُزاحمة ومُنَافَسة في الاستِثْثار بها. فيَعْتَزُّ الفَعْلَةُ والصِّتاعُ وأهل الحِرَف، وتَغْلُو أَعمالهم، وتكثُر نَفَقَاتُ أَهل المِصر في ذلك.

[251ب]

وأما الأمصار الصَّغيرة والقليلة السَّاكِن، فأقْواتهم قليلة لِقَلَّةِ العَمَلِ فيها، وما يَتَوَقَّعُونَهُ لِصِغَرِ مِصرهم من عَدَمِ القُوَّة. فَيَتَمَسَّكُونَ بما يَحْضُلُ مِنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَيَحْتَكِرُونَهُ، فيَعِزُّ وجودُهُ لَدَيْهِمْ، وَيَغْلُو ثَمَنُهُ على مُستأَميه. وأما مَرافِقُهُمْ، فلا تَدْعُو إليها أيضاً حاجة لِقَلَّةِ السَّاكِنِ وَضَعْفِ الأَحْوال. فلا يَنْفُقُ لَدَيْهِمْ سُوْقُهُ، فيَخْتَصُّ بِالرُّخْصِ في سِعره.

15 (1) [وقد يَدْخُلُ في قِيَمَةِ الأَقْواتِ ، ما يُفَرَضُ عليها من المَكُوسِ والمَغَارِمِ لِلسُّلْطانِ في الأسواقِ وأَبْوابِ المِصرِ، ولِلْجُبَاةِ في مَنَافِعِ يَفْرَضُونَهَا على البِيعاتِ لَأَنْفُسِهِمْ. ولذلك كانت الأَسْعارُ في الأمْصارِ أَعْلَى من أَسْعارِ البادية، إذ المَكُوسُ

(1) من حاشية ع بخطه ونقلها ج. وسقطت من ط ي .

والمغارم والفرائض قليلةٌ لديهم أو مغدومةٌ، والأمنصار بالعكس، سيما في أواخر
الدول.

وقد يدخل أيضاً في قيمة الأقوات قيمةٌ علاجها في الفلح، ويحافظ على ذلك
في أسعارها، كما وقع بالأندلس لهذا العهد. وذلك أنهم لما ألجأهم التصارى إلى سيف
5 البحر وبلادهِ المتوعرة الحبيثة الزراعة، التكدت التّبات، وملكوا عليهم الأرض الرّائكة
والبلد الطيب، فاحتاجوا إلى علاج المزارع والفدن لإصلاح نباتها وقلحها؛ وكان
ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزّبل وغيره لها مؤونةٌ، وصارت في قلحهم
نفقات لها خطرٌ، فاعتبروها في سغيرهم.

واختصّ قُطرُ الأندلس بالغلاء منذ اضطرّهم التّصارى إلى هذا المغمور
10 بالإسلام مع سواجِلها لأجل ذلك . ويحسب الناس إذا سمعوا بغلاء الأسعار في
قُطرهم أنها لِقلةُ الأقوات والحبوب بأرضهم، وليس كذلك، فهم أكثرُ أهل المغمور
قلحاً فيما عِلْمناه وأقومهم عليه، وقلّ أن يخلو منهم سلطانٌ أو سوقةٌ عن فدانٍ أو
مزرعةٍ أو قلح، إلّا قليلاً من أهل الصّناعات والمهن أو الطّراء على الوطن من
الغزاة المجاهدين. ولهذا يختصهم السُّلطانُ في عطايتهم بالقولة، وهي أقواتهم وعلوفتهم
15 من الزّرع، وإنا السّببُ في غلاء السّعرِ عندهم في الحبوب ما ذكرناه.

ولما كانت بلادُ البربر بالعكس من ذلك في زكاء منابيتهم وطيب أرضهم،
ارتفعت عنهم المؤن / جملةً في الفلح، مع كثرتهم وعمومه، فصار ذلك سبباً لرخص
الأقوات ببلادهم. والله مُقدّر الليل والنهار.

13 ﴿ فَضْلٌ ، فِي قُصُورِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ عَنْ سُكْنَى الْمِصْرِ الْكَثِيرِ الْعُمَرَانِ

والسَّبَبُ في ذلك؛ أَنَّ الْمِصْرَ الْكَثِيرَ ^(أ) الْعُمَرَانِ يَكْثُرُ تَرْفُهُ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ،
وَتَكْثُرُ حَاجَاتُ سَاكِنِهِ مِنْ أَجْلِ التَّرْفِ. وَتُعْتَادُ تِلْكَ الْحَاجَاتُ لَمَّا تَدْعُو إِلَيْهَا فَتَنْقَلِبُ
ضَرُورَاتٍ ، وَتَصِيرُ الْأَعْمَالُ فِيهِ كُلُّهَا - مَعَ ذَلِكَ - عَزِيزَةً وَالْمَرَافِقُ غَالِيَةً بَازِدَحَامِ
[الْأَعْرَاضِ] ^(ب) عَلَيْهَا مِنْ أَجْلِ التَّرْفِ ، وَبِالْمَعَارِمِ السُّلْطَانِيَّةِ الَّتِي تَوْضَعُ عَلَى الْأَسْوَاقِ 5
وَالْبِيَعَاتِ، وَتُعْتَبَرُ فِي قِيَمِ الْمَبِيعَاتِ، وَيُعْظَمُ فِيهَا الْغَلَاءُ فِي الْمَرَافِقِ وَالْأَقْوَاتِ وَالْأَعْمَالِ،
فَتَكْثُرُ لِنَظَرِ تِلْكَ نَفَقَاتِ سَاكِنِيهِ كَثَرَةً بَالِغَةً عَلَى نِسْبَةِ عُمَرَانِهِ. وَيُعْظَمُ خَرْجُهُ، فَيَحْتَاجُ،
حِينَئِذٍ، إِلَى الْمَالِ الْكَثِيرِ لِلتَّقَقُّعِ عَلَى نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ فِي ضَرُورَاتِ عَيْشِهِمْ وَسَائِرِ مُؤَنِّهِمْ.

وَالْبَدْوِيُّ لَمْ يَكُنْ دَخْلُهُ كَثِيرًا ، إِذْ كَانَ سَاكِنًا بِمَكَانٍ كَاسِدٍ الْأَسْوَاقِ فِي
10 الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ الْكَسْبِ، فَلَمْ يَتَأَثَّلْ كَسْبًا وَلَا مَالًا، فَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ
ذَلِكَ سُكْنَى الْمِصْرِ الْكَبِيرِ، لِأَجْلِ مَرَافِقِهِ وَعِزَّةِ حَاجَاتِهِ. وَهُوَ فِي بَدْوِهِ يَسُدُّ خَلَّتَهُ
بِأَقْلٍ الْأَعْمَالِ، لِأَنَّهُ قَلِيلُ عَوَائِدِ التَّرْفِ فِي مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مُؤَنِّهِ، فَلَا يَضْطَرُّ إِلَى الْمَالِ.
وَكُلُّ مَنْ يَلْتَشَوُّ إِلَى الْمِصْرِ وَسُكْنَاهُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَسَرِيعًا مَا يَظْهَرُ عَجْزُهُ
وَيَفْتَضِّحُ ، إِلَّا مَنْ يَقْدَمُ مِنْهُمْ تَأْثِيلَ الْمَالِ وَيَحْضِلُ لَهُ مِنْهُ فَوْقَ الْحَاجَةِ ، وَيَجْرِي إِلَى
15 الْغَايَةِ الطَّبِيعِيَّةِ لِأَهْلِ الْعُمَرَانِ مِنَ الدَّعَةِ وَالتَّرْفِ . فحينئذٍ يَنْتَقِلُ إِلَى الْمِصْرِ ، وَيَنْتَظِمُ
حَالَهُ مَعَ أَحْوَالِ أَهْلِهِ فِي عَوَائِدِهِمْ وَتَرْفِهِمْ. وَهَكَذَا شَأْنُ بَدَايَةِ [عُمَرَانِ] ^(ج) الْأَمْصَارِ.
وَاللَّهُ ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ [سورة فصلت، من الآية 54] .

(أ) ج : الكبير (ب) من ي، وفي ظ ع ج: الأعراض (ج) من ع ج ي . وسقطت من ظ .

14 • فصل، في أن الأقطار في اختلاف أحوالها بالرّفه والفقر مثل الأمصار

اعلم أنّ ما توفّر عُمرانه من الأقطار، وتعدّدت الأمم في جهاته، وكثر ساكنه، اتّسعت أحوال أهله، وكثرت أموالهم وأمنصارهم، وعظمت [دولهم] ⁽¹⁾ / وممالكهم. [252ب]

والسبب في ذلك كلّ ما ذكرناه من كثرة الأعمال، وما سيأتي ذكره من أنها سبب للثروة، بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات في حاجات السّان من الفصّلة الظاهرة ^(ب) البالغة على مقدار العُمران وكثرته. فيعود على الناس كسباً يتأثّلونه، حسبما نذكر ذلك في فصل المعاش وبيان الرّزق والكسب. فيتزيّد الرّفه لذلك، وتتسع الأحوال، ويحيى الترف والغنى، وتكثر الجباية للدولة بنفاق الأشواق؛ فيكثر مالها، ويشمخ سلطانها، وتتفنن في اتخاذ المعاقل والحصون واختطاط المدن وتشيد الأمصار. 10

واعتبر ذلك بأقطار المشرق، مثل مصر، والشّام، وعراق العجم، والهند، والصّين، وناحية الشّمال كلّها وأقطارها وراء البحر الرومي، لما كثر عُمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولهم، وتعدّدت مدنها وحواسنهم، وعظمت متاجرهم وأحوالهم. فالذي نشاهده لهذا العهد من أحوال تجار الأمم التّصرائيّة، الواردين على المسلمين بالمغرب، في رفهم واتساع أحوالهم، أكثر من أن يحيط به الوصف. وكذا 15 تجار أهل المشرق وما يبلّغنا عن أحوالهم؛ وأبلغ منها أحوال أهل المشرق الأقصى،

(1) من ي، وفي بقية النسخ: دولتهم (ب) من ط وحدها.

من عِراق العَجَم، والهنْد، والصِّين، فَإِنَّهُ يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ فِي بَابِ الْغِنَى وَالرَّفَةِ أَحْوَالٌ
 غَرَائِبُ تَسِيرُ [الرَّكَاب] ^(أ) بِحَدِيثِهَا. وَرُبَّمَا تَتَلَقَّى بِالْإِنْكَارِ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ، وَيَحْسَبُ
 مَنْ يَسْمَعُهَا مِنَ الْعَامَّةِ أَنَّ ذَلِكَ لَزِيَادَةٌ فِي أَمْوَالِهِمْ، أَوْ لِأَنَّ الْمَعَادِنَ الذَّهَبِيَّةَ وَالْفِضِّيَّةَ
 أَكْثَرَ بِأَرْضِهِمْ، أَوْ لِأَنَّ ذَهَبَ الْأَقْدَمِينَ مِنَ الْأَمَمِ اسْتَأْثَرُوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ. *وَلَيْسَ
 كَذَلِكَ * ^(ب)؛ فَمَعْدِنُ الذَّهَبِ الَّذِي نَعْرِفُهُ فِي هَذِهِ الْأَقْطَارِ إِنَّهَا هِيَ بِلَادُ السُّودَانِ، ⁵
 وَهِيَ إِلَى الْمَغْرِبِ أَقْرَبُ. وَجَمِيعُ مَا فِي أَرْضِهِمْ مِنَ الْبِضَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَجْلِبُونَهُ إِلَى غَيْرِ
 بِلَادِهِمْ لِلتَّجَارَةِ. فَلَوْ كَانَ الْمَالُ عَتِيداً مُوفوراً لَدَيْهِمْ لَمَا جَلَبُوا بِضَائِعَهُمْ إِلَى سِوَاهُمْ
 يَنْتَفِعُونَ بِهَا الْأَمْوَالِ، / وَلَا اسْتَعْنَوْا عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْجُمْلَةِ. [1253]

وَلَقَدْ ذَهَبَ الْمُتَجَمُّونَ لَمَّا رَأَوْا مِثْلَ ذَلِكَ، وَاسْتَعْرَبُوا مَا فِي الْمَشْرِقِ مِنْ كَثْرَةِ
 الْأَحْوَالِ وَاتَّسَاعِهَا، وَوُفُورِ أَمْوَالِهَا، فَقَالُوا: إِنَّ عَطَايَا الْكَوَاكِبِ وَالسَّهَامِ فِي مَوَالِيدِ ¹⁰
 أَهْلِ الْمَشْرِقِ أَكْثَرُ مِنْهَا حِصْصاً فِي مَوَالِيدِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ. وَذَلِكَ صَحِيحٌ مِنْ جِهَةِ
 الْمُطَابَقَةِ بَيْنَ الْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ الْأَرْضِيَّةِ، كَمَا قُلْنَا. وَهُمْ إِنَّمَا أَعْطَوْا فِي ذَلِكَ
 السَّبَبِ النُّجُومِيَّ، وَبَقِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُعْطُوا السَّبَبَ الْأَرْضِيَّ، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ
 الْعُمُرَانِ وَاحْتِصَاصِهِ بِأَرْضِ الْمَشْرِقِ وَأَقْطَارِهِ. وَكَثْرَةُ الْعُمُرَانِ تُقِيدُ كَثْرَةَ الْكَسْبِ بِكَثْرَةِ
 الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ سَبَبُهُ؛ فَلِذَلِكَ اخْتُِصَّ الْمَشْرِقُ بِالرَّفَةِ مِنْ بَيْنِ الْآفَاقِ، لَا أَنَّ ذَلِكَ ¹⁵
 لِمَجْرَدِ الْأَثَرِ النُّجُومِيِّ. فَقَدْ فَهِمْتَ مِمَّا أَشَرْنَا لَكَ أَوَّلاً أَنَّهُ لَا يَسْتَقِيلُ بِذَلِكَ، وَأَنَّ
 الْمُطَابَقَةَ بَيْنَ حُكْمِهِ وَعُمُرَانِ الْأَرْضِ وَطَبِيعَتِهَا أَمْرٌ لَا يَبْدُ مِنْهُ.

(أ) من ع ج ي وسقط من ظ (ب) سقط من ي .

واعْتَبِرَ حَالَ هَذَا الرَّفْهِ مِنَ الْعُمَرَانِ فِي قَطْرِ إِفْرِيقِيَّةَ وَبَرْقَةَ، لَمَّا خَفَّ سَاكِنُهَا وَتَنَاقَصَ عُمَرَانُهَا، كَيْفَ تَلَاشَتْ أَحْوَالُ أَهْلِهَا وَانْتَهَوَا إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ، وَضَعُفَتْ جَبَايَاُهَا، فَقَلَّتْ أَمْوَالُ دَوْلِهَا، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ دَوْلُ الشَّيْعَةِ وَصْنَهَاجَةَ بِهَا عَلَى مَا بَلَغَكَ، مِنَ الرَّفْهِ وَكَثْرَةِ الْجَبَايَا وَاتِّسَاعِ الْأَحْوَالِ فِي تَقَاتِمِهِمْ وَأَعْطِيَايِهِمْ . حَتَّى لَقَدْ كَانَتْ الْأَمْوَالُ تُرْفَعُ مِنَ الْقَيْرَوَانِ إِلَى صَاحِبِ مِصْرَ فِي غَالِبِ الْأَوْقَاتِ لِحَاجَاتِهِ وَمُهِمَّاتِهِ. وَكَانَتْ أَمْوَالُ الدَّوْلَةِ بَحِيثُ حَمَلِ جَوْهَرِ الْكَاتِبِ فِي سَفَرِهِ إِلَى فَتْحِ مِصْرَ أَلْفَ جَمَلٍ مِنَ الْمَالِ، يَسْتَعِدُّهَا^(١) لِأَرْزَاقِ الْجُنُودِ وَأَعْطِيَايِهِمْ وَتَقَاتِ الْغَزَاةِ.

وَقَطَرَ الْمَغْرِبَ، وَإِنْ كَانَ فِي الْقَدِيمِ دُونَ إِفْرِيقِيَّةَ، فَلَمْ يَكُنْ بِالْقَلِيلِ فِي ذَلِكَ، وَكَانَتْ أَحْوَالُهُ فِي دَوْلِ الْمُوَحِّدِينَ مُتَّسِعَةً وَجَبَايَاُهَا مَوْفُورَةً. وَهُوَ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ أَقْصَرَ عَنْ ذَلِكَ لِقُصُورِ الْعُمَرَانِ فِيهِ ، وَتَنَاقُصِهِ ؛ فَقَدْ ذَهَبَ مِنْ عُمَرَانِ الْبَرِّ فِيهِ أَكْثَرُهُ، وَنَقَصَ عَنْ مَعْهُودِهِ نَقْصاً ظَاهِراً مَحْسُوساً، / وَكَأَنَّ أَنْ يُلْحَقَ فِي أَحْوَالِهِ بِمَثَلِ أَحْوَالِ إِفْرِيقِيَّةَ بَعْدَ أَنْ كَانَ عُمَرَانُهُ مُتَّصِلاً مِنَ الْبَحْرِ الرَّيْوِيِّ إِلَى بِلَادِ الشُّوْدَانِ، فِي طَوْلِ مَا بَيْنَ السُّوَيْسِ الْأَقْصَى وَبَرْقَةَ. وَهِيَ الْيَوْمَ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا قِفَارٌ وَخِلَاءٌ وَصَحَارَى، إِلَّا مَا هُوَ مِنْهَا بِسَيْفِ الْبَحْرِ ، أَوْ مَا يَقَارِبُهُ مِنَ الثَّلُولِ . وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا، [وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ]^(ب).

(١) كَذَا فِي: ط ج ي ، وَفِي ع: يَسْتَعِدُّ بِهَا (ب) مِنْ: ع ج ي وَسَقَطَ مِنْ ظ .

15 • فصل، في تأثّل العقار والضّياح في الأمصار، وحال فوائدها ومُستغلاتها

اعلم أنّ تأثّل العقار والضّياح الكثيرة لأهل المدين والأمصار، لا يكون دفعه ولا في عصر واحد. إذ ليس يكون لأحد منهم من الثروة ما يملك به الأملاك التي يخرج فيها عن الحدّ، ولو بلغت أحوالهم في الرّفه ما عسى أن تبلغ. وإنّا يكون ملكهم لها وتأثّلهم تدريجاً، إمّا بالوراثة من آباؤه وذوي رحمه، حتّى تتأدّى أملاك الكثيرين منهم إلى الواحد وأكثر لذلك. أو يكون بحوالة الأسواق، فإنّ العقار⁽¹⁾ في أواخر الدولة وأول الأخرى، عند فناء الحامية وخرق السّياج وتداعي المصر إلى الحراب، تقلّ الغبطة به لِقلة المنفعة فيها بتلاشي الأحوال، فتُرخص قيمها وتُملك بالأثمان اليسيرة، وتخطى بالميراث إلى ملك الآخر، وقد استجدّ المصر شبابته باستيفحال الدولة الثانية، وانتظمت له أحوال حسنة تحصل معها الغبطة في العقار 10 والضّياح لكثرة منافعها حينئذٍ، فتعظم قيمها ويكون لها خطر لم يكن في الأول. وهذا معنى الحوالة فيها. ويصبح مالکها من أغنى أهل المصر. وليس ذلك بسعيه واكتسابه، إذ قدرته تعجز عن مثل ذلك.

وأما فوائده العقار والضّياح، فهي غير كافية لمالکها في حاجات معاشه، إذ هي لا تفي بعوائد التّرف وأسبابه، وإنّما هي في الغالب لسدّ الخلّة وضرورة المعاش. 15 والذي سيمعناه من مشيخة البلدان، أنّ القصد باقتناء الملك من العقار والضّياح، إنّما هو الحشية على من يترك خلفه من الثروة الضّعاف، ليكون مزباهم به ورزقهم فيه،

(1) ي: العتاد .

وَنُشَوُّهُمْ / بِفَائِدَتِهِ مَا دَامُوا عَاجِزِينَ عَنِ الْاِكْتِسَابِ ؛ فَإِذَا اقْتَدَرُوا عَلَى تَحْصِيلِ [254أ]
 الْمَكَايِيبِ سَعَوْا فِيهَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَرَبَّمَا يَكُونُ مِنَ الْوَلَدِ مَنْ يَعْجِزُ عَنِ التَّكْسِبِ لُضْعَفِ
 فِي بَدَنِهِ أَوْ آفَةٍ فِي عَقْلِهِ الْمَعَاشِيِّ، فَيَكُونُ ذَلِكَ الْعَقَارُ قِوَامًا لِحَالِهِ. هَذَا قَضُ الْمُتَرْفِينَ
 فِي أَفْتِنَائِهِ. وَأَمَّا التَّمَوُّلُ مِنْهُ وَإِجْرَاءُ أَحْوَالِ الْمُتَرْفِينَ فَلَا. وَقَدْ يَحْصُلُ ذَلِكَ مِنْهُ لِلْقَلِيلِ
 5 أَوْ النَّادِرِ بِجَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ، وَحُصُولِ الْكَثْرَةِ الْبَالِغَةِ مِنْهُ وَالْعَالِي⁽¹⁾ فِي جِنْسِهِ وَقِيمَتِهِ فِي
 الْمِضْرِ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ قَرِيبًا امْتَدَّتْ إِلَيْهِ أَعْيُنُ الْأَمْراءِ وَالْوَلَاةِ وَاعْتَصَبُوهُ فِي
 الْغَالِبِ، أَوْ أَرَادُوهُ عَلَى بَيْعِهِ مِنْهُمْ، وَنَالَتْ أَصْحَابُهُ مِنْهُ مِضَارٌّ وَمَعَاطِبٌ. ﴿وَاللَّهُ
 عَلِيمٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [سورة يوسف، من الآية 21] .

16* فَضْلٌ، فِي حَاجَةِ الْمُتَمَوِّلِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ إِلَى الْجَاهِ وَالْمَدَافِعِ

وَذَلِكَ أَنَّ الْحَضْرِيَّ إِذَا عَظُمَ تَمَوُّلُهُ، وَكَثُرَ [لِلْعَقَارِ]^(ب) وَالضِّيَاعِ تَأْتَلُّهُ، وَأَصْبَحَ
 10 أَعْنَى أَهْلِ الْمِضْرِ، وَرَمَقَتْهُ الْعَيُونُ بِذَلِكَ، وَانْفَسَحَتْ أَحْوَالُهُ فِي التَّرَفِ وَالْعَوَائِدِ،
 زَاخَمَ^(ج) عَلَيْهَا الْأَمْراءُ وَالْمُلُوكُ وَغَضُّوا بِهِ. وَلَمَّا فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مِنَ الْعُدْوَانِ، تَمْتَدُّ
 أَعْيُنُهُمْ إِلَى تَمَلُّكِ مَا بِيَدِهِ وَيُنَافِسُونَهُ فِيهِ، وَيَتَحَيَّلُونَ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ مُمْكِنٍ، حَتَّى
 بِحُصُولِهِ فِي رَيْقِهِ بِحُكْمِ سُلْطَانِيٍّ وَسَبَبٍ مِنَ الْمُوَاخَذَةِ ظَاهِرٍ يُنْتَزَعُ بِهِ مَالُهُ. وَأَكْثَرُ
 15 الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ جَائِزَةٌ فِي الْغَالِبِ، إِذِ الْعَدْلُ الْمَحْضُ إِنَّمَا هُوَ فِي الْخِلَافَةِ الشَّرْعِيَّةِ،

(1) ج: التغالي (ب) من ج، وفي ي: للعتاد، وفي ظ: العقار (ج) ع: تراخم .

وهي قليلة اللَّبَث. قال عليه السلام⁽¹⁾: "الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يَعُودُ مُلْكًا عَضُوضًا".

فَلَا بُدَّ حِينَئِذٍ لِصَاحِبِ الْمَالِ وَالثَّرْوَةِ الشَّهِيرَةِ فِي الْعُمَرَانِ مِنْ حَامِيَةِ تَدَوُّدٍ عَنْهُ، وَجَاهٍ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِ مِنْ ذِي قَرَابَةٍ لِلْمَلِكِ، أَوْ خَالِصَةٍ لَهُ، أَوْ عَصَبِيَّةٍ يَتَحَامَاهَا السُّلْطَانُ⁽²⁾، فَيَسْتَظِلُّ هُوَ بِظِلِّهَا، وَيَرْتَعُ فِي أَمْنِهَا مِنْ طَوَارِقِ التَّعَدِّي. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ 5 لَهُ ذَلِكَ، أَصْبَحَ نَهْبًا بُوْجُوهَ التَّحِيَّلَاتِ وَأَسْبَابِ الْحُكَامِ. ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [سورة الرعد، من الآية 41].

17 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الْحَضَارَةَ فِي الْأُمُصَارِ مِنْ قَبْلِ الدَّوَلِ، وَأَنَّهَا تَرُسَخُ بِاتِّصَالِ 10 الدَّوَلَةِ وَمَرُسُوحِهَا [254ب]

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، أَنَّ الْحَضَارَةَ هِيَ أَحْوَالٌ عَادِيَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورِيِّ مِنْ 10 أَحْوَالِ الْعُمَرَانِ زِيَادَةً تَتَفَاوَتْ بِتَفَاوُتِ الرِّفَةِ، وَتَقَاوَتْ [الْأُمَمُ]^(ب) فِي الْقِلَّةِ وَالكَثَرَةِ تَقَاوُتًا غَيْرَ مُنَحَصِرٍ. وَيَقَعُ فِيهَا عِنْدَ كَثَرَةِ النَّفْسِ فِي أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا، فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الصَّنَائِعِ، وَيَحْتَاجُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا إِلَى الْقَوْمَةِ عَلَيْهِ الْمَهَرَّةُ فِيهِ. وَبِقَدْرِ مَا يَتَمَيَّزُ مِنْ

(1) ي ج : للسُّلْطَانِ (ب) ط : الْأَمْرُ .

(1) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ 5: 220، وَفِي فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ لَهُ (789) وَ (1027)، وَابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (1181)، وَأَبُو دَاوُدَ (4647)، وَالنَّسَائِيُّ فِي سَنَنِ الْكَبِيرِ (8155) وَابْنُ حُبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ (6943)، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ 3: 71، وَغَيْرُهُمْ.

أَصْنافُهَا يَتَزَيَّدُ أَهْلُ صِنَاعَتِهَا، وَيَتَلَوَّنُ ذَلِكَ الْجِيلُ بِهَا. وَمَتَى انْتَصَلَّتِ الْأَيَّامُ وَتَعَاقَبَتِ
تِلْكَ الصَّبْغَاتُ، حَذَقَ أُولَئِكَ الصُّنَاعَ فِي صِنَاعَتِهِمْ وَمَهَرُوا فِي مَعْرِفَتِهَا. وَالْأَغْصَارُ
بَطُولُهَا وَانْتِسَاحُ أَمْدِهَا وَتَكَرُّرُ أَمْثَالِهَا تَزِيدُهَا اسْتِحْكَامًا وَرُسُوخًا.

وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَمْصَارِ، لِاسْتِنْحَارِ الْعُمَرَانِ وَكَثْرَةِ الرِّفْهِ فِي أَهْلِهَا.
5 وَذَلِكَ كُلُّهُ إِنَّمَا يَجِيءُ مِنْ قَبْلِ الدَّوْلَةِ^(أ)، لِأَنَّ الدَّوْلَةَ تَجْمَعُ أَمْوَالَ الرِّعْيَةِ وَتُنْفِقُهَا فِي
بَطَانَتِهَا وَرَجَالِهَا، وَتَتَسَّعُ أَحْوَالُهُمْ بِالْجَاهِ أَكْثَرَ مِنْ اتِّسَاعِهَا بِالْمَالِ، فَيَكُونُ دَخْلُ
[تِلْكَ]^(ب) الْأَمْوَالِ مِنَ الرِّعَايَا وَخَرْجُهَا فِي أَهْلِ الدَّوْلَةِ، ثُمَّ فِيمَنْ تَعَلَّقَ بِهِمْ فِي أَهْلِ
الْمِصْرِ، وَهُمْ الْأَكْثَرُ، فَتَغْطُمُ لِنَدَى ثَرَوَتِهِمْ وَيَكْثُرُ غِنَاهُمْ، وَتَزَيَّدُ عَوَائِدُ التَّرَفِ وَمَذَاهِبُهُ
وَتَسْتَحْكَمُ لِنَيْهِمُ الصَّنَائِعُ فِي سَائِرِ فُنُونِهِ. وَهَذِهِ هِيَ الْحَضَارَةُ.

ولهذا [نجد]^(ج) الْأَمْصَارَ الَّتِي فِي الْقَاصِيَةِ، وَلَوْ كَانَتْ مَوْفُورَةَ الْعُمَرَانِ، فَتَغْلِبُ
10 عَلَيْهَا أَحْوَالُ الْبَدَاوَةِ، وَتَبْعُدُ عَنِ الْحَضَارَةِ فِي جَمِيعِ مَذَاهِبِهَا، بِخِلَافِ الْمُدُنِ الْمُتَوَسِّطَةِ
فِي الْأَفْطَارِ الَّتِي هِيَ مَرْكَزُ الدَّوْلَةِ وَمَقَرُّهَا. وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمُجَاوَرَةِ السُّلْطَانِ لَهُمْ وَفَيْضِ
أَمْوَالِهِ فِيهِمْ، كَلِمَاءُ يَخْضَرُ مَا قَرَّبَ مِنْهُ، فَمَا قَرَّبَ مِنَ الْأَرْضِ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى
الْجُفُوفِ عَلَى الْبُعْدِ. وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ السُّلْطَانَ وَالدَّوْلَةَ سَوَقٌ لِلْعَالَمِ، فَالْبَضَائِعُ كُلُّهَا
15 مَوْجُودَةٌ فِي السُّوقِ وَمَا قَرَّبَ مِنْهُ، وَإِذَا بُعِدَتْ عَنِ السُّوقِ افْتَقِدَتْ الْبَضَائِعُ جُمْلَةً.
ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا انْتَصَلَّتْ تِلْكَ الدَّوْلَةُ وَتَعَاقَبَ مَلُوكُهَا فِي ذَلِكَ الْمِصْرِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ،
اسْتَحْكَمَتِ الْحَضَارَةُ فِيهِمْ وَزَادَتْ رُسُوخًا.

(أ) ع: الدَّوْلَةُ (ب) ظ: ذَلِكَ (ج) ظ: نجد.

واعتُبر ذلك في اليهود/ لما طال ملكهم بالشَّام نحواً من ألف وأربعمائة سنة، رَسَخَتْ حضارتُهم وَحَذَقُوا في أحوال المعاش وعوائده والتَّقَنُّ في صِنَاعاته من المَطَاعِم والملابس وسائر أحوال المنزل، حتَّى أَنَّهُا لَتُوْخِذُ عنهم في الغالبِ إلى اليوم. وَرَسَخَتْ الحضارةُ أيضاً وعوائدها في الشَّام منهم ومن دُول الرُّوم بَعْدَهم سِتْمِائَةَ سنة ، فكانوا في غاية الحضارة.

5

وكذلك أيضاً القِبْطُ، دام مُلْكُهم في الخليفة ثلاثة آلاف من السنين، فَرَسَخَتْ عوائد الحضارة في بِلَادِهِمْ مِصْرَ، وأَعْقَبَهُمْ بِهَا مُلْكُ اليونانيين والرُّوم، ثمَّ مُلْكُ الإسلام النَّاسِخُ لِلْكَلِّ، فلم تَزَلْ عوائد الحضارة بِهَا مُتَّصِلَةً.

وكذلك أيضاً رَسَخَتْ عوائد الحضارة باليمن ، لاتَّصال دَوْلَةِ العرب بِهَا مُنْذُ عَهْدِ الغَالِقَةِ والتَّبَاطِغَةِ آلافاً من السنين، وأَعْقَبَهُمْ مُلْكُ مِصْرَ.

10

وكذا الحضارة بالعراق، لاتَّصال دَوْلَةِ النَّبِطِ والفُرس بِهَا من لَدُنَّ الكَلْدَانِيَّينَ والكِنِيزِيَّةِ والكِسْرَوِيَّةِ والعَرَبِ بَعْدَهم آلافاً من السنين. فلم يَكُنْ على وَجْهِ الأَرْضِ لِهَذَا الْعَهْدِ أَحْضَرٌ من أَهْلِ الشَّامِ والعِرَاقِ وَمِصْرَ.

وكذلك أيضاً رَسَخَتْ عوائد الحضارة بالأَنْدَلِيسِ ، لاتَّصال الدَّوْلَةِ الْعَظِيمَةِ فيها للقوط، ثمَّ مَا أَعْقَبَهَا من مُلْكِ بَنِي أُمَيَّةِ آلافاً من السنين . وَكَلَّا⁽¹⁾ الدَّوْلَتَيْنِ عَظِيمَ، فَاتَّصَلَتْ فِيهَا عَوَائِدُ الْحَضَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ.

15

(1) كذا في الأصول، ولعلَّ الأصوب: وكلتا الدَّوْلَتَيْنِ عَظِيمَةً .

وأما إفريقية والمغرب، فلم يكن فيها قبل الإسلام ملك ضخم، إنما قطع
 [الروم]^(أ) والإفرنجة إلى إفريقية البحر وملكوا الساحل. وكانت طاعة البربر أهل
 الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة، فكانوا على قلعة وأوفاز. وأهل المغرب لم
 تجاوزهم دولة، وإنما كانوا يتبعون بطاعتهم إلى [القوط]^(ب) من وراء البحر. ولما جاء
 5 الله بالإسلام وملك العرب إفريقية والمغرب، لم يلبث^(ج) فيهم ملك العرب إلا قليلاً
 أول الإسلام، وكانوا لذلك العهد في طور البداوة، ومن استقر منهم بإفريقية
 والمغرب لم يجد بها من الحضارة ما يُقلد فيه من سلفه، إذ كانوا برابر مُنغمسين في
 البداوة. ثم انتفض برايرة المغرب الأقصى لأقرب العهود على يد ميسرة / المطغري^(د) [255ب]
 أيام هشام بن عبد الملك ولم يرجعوا أمر العرب بعد، واستقلوا بأمر أنفسهم، وإن
 10 بايعوا لإدريس، فلا تعدد دولته فيهم عريضة، لأن البرابرة هم الذين تولوها، ولم يكن من
 العرب فيها كبير عدد.

وبقيت إفريقية للأغلبية ومن إنهم من العرب، فكان لهم من الحضارة بعض
 الشيء بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه وكثرة عمران القيروان. وورث ذلك
 عنهم كتامة، ثم صنهاجة من بعدهم. وذلك كله قليل، لم يبلغ أربعمئة سنة؛
 15 وانصرمت دولتهم، واستحالت صبغة الحضارة بما كانت غير مستحكمة. وتغلب بدو
 العرب الهلاليين عليها وخربوها. وبقي أثر خفي من حضارة العُمران فيها، وإلى هذا
 العهد يؤنس فيمن سلف له بالقلعة أو القيروان أو المهدية سلف، فتجد له من

(أ) من حاشية ع وحدها (ب) كانت في ع "القبط" وعنها قلت ط ج، واستبدلت بالقوط في ع ي (ج) في ج: ثبت، غير
 معجمة (د) زُمت في الأصول بطاء منقوطة في جوفها، لتقرأ بين الدال والطاء.

أحوال^(١) الحضارة في شؤون منزله وعوائد أحواله آثاراً مُلتبسةً بغيرها، يُميزها الحضريُّ البصيرُ بها. وكذا في أكثر أمصار إفريقية، وليس ذلك في المغرب وأمصاره، لرسوخ الدولة بإفريقية أكثر أمداً منذ عهد الأغالبة والشيعة وصنهاجة.

وأما المغرب، فانتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس حظٌ [كبير]^(ب)

- 5 من الحضارة ، واستحكمت به عوائدها بما كان لتولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس، وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعاً وكرهاً، وكانت من اتساع النطاق ما علمت، فكان فيها حظٌ صالحٌ من الحضارة واشتخكاهما، ومُعظمها من أهل الأندلس. ثم انتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى إفريقية؛ فأبقوا بها وبأمصارها من الحضارة آثاراً، ومُعظمها بتونس، امتزجت بحضارة مصر وما يتقله
- 10 المسافرين من عوائدها. [فكان]^(ج) بذلك للمغرب وإفريقية حظٌ من الحضارة صالحٌ عفى عليه الخلاء ورجع على أعقابهِ. وعاد البربر بالمغرب إلى أديانهم من البداوة والحشونة. وعلى كل حال، فأثر الحضارة بإفريقية أكثر منها بالمغرب وأمصاره، لما تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب ، ولقرب عوائدهم من عوائد أهل
- [256] مصر بكثرة المترددين بينهم. فتفظن / لهذا السر، فإنه خفي عن الناس.

- 15 واعلم أنها أمورٌ مُتناسبة ، وهي حال الدولة في القوة والضعف ، وكثرة الأمة أو الجليل، وعظم المدينة أو المضر، وكثرة النعمة واليسار. وذلك أن الدولة والمملك صورة الخليفة والعمران. وكلها مادة له، من الرعايا والأمصار وسائر الأحوال.

(١) سقط من ي (ب) سقط من ظ (ج) في الأصول : فكانت .

وأموال الجباية عائدة عليهم، ويسارهم في الغالب من أسواقهم ومتاجرهم. وإذا أفاض السلطان عطاءه وأمواله في أهلها انبثت فيهم ورجعت إليه، ثم إليهم منه. فهي ذاهبة عنهم في الجباية والخراج، عائدة عليهم في العطاء. فعلى نسبة مال الدولة يكون يسار الرعايا، وعلى نسبة يسار الرعايا أيضاً وكثرتهم يكون مال الدولة. وأصله كله العمران وكثرته. 5

فاعتبره وتأمله في الدول تجده. والله يحكم، لا معقب لحكمه.

18* فصل، في أن الحضارة غاية للعمران ونهاية لعمره، وأنها مؤذنة بفساده

قد بينا لك فيما سلف، أن الملك والدول⁽¹⁾ غاية للعصبية، وأن الحضارة غاية للبداءة، وأن العمران كله من بداءة وحضارة وملك وسوق له عمر محسوس، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكنونات عمراً محسوساً. وتبين في المقول والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية في ترايد قواه ونموها، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو بزهة، ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط. فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضاً كذلك، لأنه غاية لا مزيد وراءها. 10

وذلك أن الترف والنعمة إذا حصل لأهل العمران، دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها. والحضارة، كما علمت، هي التفتن في الترف 15

(1) ج: الدولة.

واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تُؤنق^(١) من أصنافه وسائر فنونه، كالصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية، وكسائر أحوال المنزل. وللتأثق في كل واحد من هذه صنائع كثيرة، لا يحتاج إليها عند البداوة وعدم التأثق فيها. وإذا بلغ التأثق / في هذه الأحوال المنزلية الغاية، تبعه طاعة الشهوات، فتتلون [256ب] النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دُنياها. أما 5 دينها، فلاستحكام صبغة العوائد التي يغسر نزعها. وأما دُنياها، فليكثر الحاجات والمؤونات التي تطالب بها العوائد، ويعجز الكسب عن الوفاء بها.

• (ب) وبَيَّاهُ أَنَّ الْمِصْرَ بِالتَّفَنُّ فِي الْحَضَارَةِ تَعْظُمُ نَفَقَاتُ أَهْلِهَا. وَالْحَضَارَةُ تَتَفَاوَتْ بِتَفَاوَتِ الْعُمُرَانِ. فَتَمَّتْ كَانَ الْعُمُرَانِ أَكْثَرَ، كَانَتِ الْحَضَارَةُ أَكْمَلَ. وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الْمِصْرَ الْكَثِيرَ الْعُمُرَانِ، يَخْتَصُّ بِالْغَلَاءِ فِي أَسْوَاقِهِ وَأَسْعَارِ حَاجَاتِهِ، ثُمَّ 10 تَزِيدُهَا الْمَكُوسُ غَلَاءً، لِأَنَّ كِمَالَ الْحَضَارَةِ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ نِهَايَةِ الدُّوَلَةِ فِي اسْتِفْهَالِهَا، وَهُوَ زَمَنُ وَضْعِ الْمَكُوسِ فِي الدُّوَلِ لَكثْرَةِ خَرْجِهَا حِينَئِذٍ، كَمَا تَقْدَمُ. وَالْمَكُوسُ تَعُودُ عَلَى الْبَيَاعَاتِ بِالْغَلَاءِ، لِأَنَّ السُّوقَةَ وَالتَّجَارَ كُلَّهُمْ يَحْتَسِبُونَ عَلَى سِلْعِهِمْ وَبَضَائِعِهِمْ بِجَمِيعِ مَا يُنْفِقُونَهُ، حَتَّى [فِي] (ج) مُؤُونَةِ أَنْفُسِهِمْ. فَيَكُونُ الْمَكْسُ لَذَلِكَ دَاخِلًا فِي قِيَمِ الْمَبِيعَاتِ وَأَثْمَانِهَا، فَتَعْظُمُ نَفَقَاتُ أَهْلِ الْحَاضِرَةِ وَتَخْرُجُ عَنِ الْقَصْدِ إِلَى الْإِسْرَافِ. وَلَا 15 يَجِدُونَ وَلِيجَةً عَنِ ذَلِكَ لَمَّا مَلَكَهُمْ مِنْ أَسْرِ الْعَوَائِدِ وَطَاعَتِهَا، وَتَذْهَبُ مَكَاسِبُهُمْ كُلُّهَا فِي التَّفَقَاتِ، وَيَتَتَابَعُونَ فِي الْإِمْلَاقِ وَالْخِصَاصَةِ، وَيَغْلُبُ عَلَيْهِمُ الْفَقْرُ، وَيَقِلُّ

(١) ي: التي هي تونق (ب) بداية ما هو مكتوب في ع بخطه على طيارة، وقلته ظ ي ج (ج) سقطت من ظ وحدها .

المُستامون للبضائع، فتكسُد الأسواق وتفسد حال المدينة. وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والتّرف، وهذه مفسدتها في المدينة على العموم في الأسواق والغمران.

وأما فساد أهلها في ذواتهم واحداً واحداً على الخصوص، فمن الكدّ والتعب في حاجات العوائد، والتلوث باللوان الشرّ في تحصيلها^(أ)، وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بمُصول لَوْنٍ آخر من ألوانها. فلذلك يكثر منهم الفسق

والشرّ والسفسفة والتّحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه. وتتنصرف النفس إلى الفكر في ذلك والغوص عليه، واستتباع الحيلة له. فتجدّهم أجرياء على الكذب والمقامرة والغشّ والخلافة والسّرقة / والفجور في الأيمان والزّبا في البياعات. [1 257]

تمّ تجدّهم لكثرة الشهوات [والملاذ]^(ج) الناشئة عن التّرف، أبصر^(ب) بطرق

الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه، وأطراح الحشمة في الخوض فيه، حتّى بين

الأقارب وذوي المحارم الذين تشنّضي البداوة الحياء منهم في الإفداع بذلك. وتجدّهم

أيضاً أبصر بالمكر والخديعة، يدفعون بذلك ما عساه ينالهم من القهر وما يتوقّعونّه

من العقاب على تلك القبائح، حتّى يصير ذلك عادةً وخلقاً لأكثرهم إلّا من عصمه

الله. ويموج بحر المدينة بالسّفلة من أهل الخلق الذّميّة، ويجارهم فيها كثير من

ناشئة الدّولة ولداينهم ممّن أهمل عن التّأديب، وأهمّلتها الدّولة من عيادها^(د)

وغلب عليه خلق الجوار والصّحابة^(هـ)، وإن كانوا أهل أنساب وأبّوات. وذلك أنّ

النّاس بشرّ مُتماثلون، وإنّا تفاضلوا وتميّزوا^(و) بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب

(أ) نهاية ما هو مكتوب في ع بخطه على طيارة، وقتلته ظ ي ج (ب) سقط ما بين النجمين من ي (ج) من ع، وسقط من

ظ (د) سقط ما بين النجمين من ي (هـ) ج: والصحاب، وسقط من ي (و) ع: وتمايزوا.

الرذائل، فمِن اسْتَحْكَمَتْ فِيهِ صِبْغَةُ الرَّذِيلَةِ بَأَيِّ وَجْهِ كَانَ، [و^(ا)] فَسَدَتْ خُلُقُ
 الحَيْرِ فِيهِ، لَمْ يَنْفَعِهِ زَكَاءُ نَسَبِهِ وَلَا طَيْبُ مَنْبَتِهِ. وَلِهَذَا تَجَدُّ كَثِيرًا مِنْ أَعْقَابِ الْبُيُوتِ
 وَذَوِي الْأَخْسَابِ وَالْأَصَالَةِ وَأَهْلِ الدَّوْلِ، مَطْرَحِينَ فِي الْغَمَارِ، مُنْتَجِلِينَ لِلْحِرَفِ الدِّيَّةِ
 فِي مَعَاشِهِمْ بِمَا فَسَدَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَمَا تَلَوَّنُوا بِهِ مِنْ صِبْغَةِ الشَّرِّ وَالسُّفْسُفَةِ. وَإِذَا كَثُرَ
 ذَلِكَ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ الْأُمَّةِ، تَأَذَّنَ اللَّهُ بِخَرَابِهَا وَانْقِرَاضِهَا. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ^(ب): 5
 ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا
 تَدْمِيرًا﴾ [سورة الإسراء، الآية 16]. وَوَجْهُهُ أَنَّ مَكَاسِيَهُمْ حِينَئِذٍ لَا تَقِي بِحَاجَاتِهِمْ لَكَثْرَةِ
 الْعَوَائِدِ وَمُطَالَبَةِ النَّفْسِ بِهَا، فَلَا تَسْتَقِيمُ أَحْوَالُهُمْ. وَإِذَا فَسَدَتْ أَحْوَالُ الْأَشْخَاصِ
 وَاحِدًا وَاحِدًا اخْتَلَّتْ نِظَامُ الْمَدِينَةِ وَخَرِبَتْ. وَهَذَا مَعْنَى مَا يَقُولُهُ بَعْضُ أَهْلِ الْخَوَاصِ:
 10 إِنَّ الْمَدِينَةَ إِذَا كَثُرَ فِيهَا غَرْسُ النَّارِنَجِ تَأَذَّنَتْ بِالْخَرَابِ، حَتَّى أَنْ كَثِيرًا مِنَ الْعَامَّةِ
 يَتَحَامَى ^(ج) غَرْسُ النَّارِنَجِ بِالْثَوْرِ، [تَطْيِيرًا بِهِ^(د)]. وَلَيْسَ الْمُرَادُ ذَلِكَ، وَلَا أَنَّهُ طَيْرَةٌ ^(هـ)
 فِي النَّارِنَجِ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْبَسَاتِينَ وَإِجْرَاءَ الْمِيَاهِ هُوَ مِنْ تَوَابِعِ الْحَضَارَةِ. ثُمَّ إِنَّ النَّارِنَجِ
 / وَاللَّيْمَ وَالسَّرَوَ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ تَمَّا لَا طَعْمَ فِيهِ وَلَا مَنَفْعَةَ، هُوَ مِنْ غَايَاتِ الْحَضَارَةِ، إِذْ 257ب
 لَا يَقْصِدُ بِهَا فِي الْبَسَاتِينَ إِلَّا أَشْكَالَهَا فَقَطْ، وَلَا تُغْرَسُ إِلَّا بَعْدَ التَّفَقُّنِ فِي مَذَاهِبِ
 التَّرَفِّ. وَهَذَا هُوَ الطَّوْرُ الَّذِي يُخْشَى مَعَهُ هَلَاكُ الْمِصْرِ وَخَرَابُهُ، كَمَا قُلْنَا. وَلَقَدْ قِيلَ 15
 مِثْلُ ذَلِكَ فِي الدُّفْلَى، وَهُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ، إِذِ الدُّفْلَى لَا يَقْصِدُ بِهَا إِلَّا تَلَوُّنُ الْبَسَاتِينَ
 بِتَوْرِهَا، مَا يَبْنِي أَحْمَرَ وَأَبْيَضَ، وَهُوَ مِنْ مَذَاهِبِ التَّرَفِّ.

(ا) سقط العطف من ظ (ب) سقط من ج (ج) ي ج: يتجافى (د) من حاشية ع، وسقط من ظ ي ج (هـ) من ع
 بعد شطب كلمة: خاصة، التي نقلها ط.

ومن مَفسادِ الحضارة أيضاً: الانبهاك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف. فيقع التفتن في شهوات البطن من المأكَل وملاذَّها، * والمشارب وطيبها⁽¹⁾. ويتبع ذلك التفتن في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط. فيفضي ذلك إلى فساد النوع، إما بواسطة اختلاط الأنساب، كما في الزنا، فيجهل كلُّ أحد ابنه 5 إذ هو لغير رشدة، ولأنَّ المياهَ مُختلطة في الأرحام. فتفقد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم، فيهلكون، ويؤدي ذلك إلى انقطاع النوع. أو يكون فساد النوع بغير واسطة، كما في اللواط المؤدي إلى عدم النسل رأساً، وهو أشدُّ في فساد النوع، إذ هو يؤدي إلى أن لا يوجد النوع، والزنا يؤدي إلى عدم ما يوجد منه. ولذلك كان مذهب مالك، رحمه الله، في اللواط أظهر من مذهب غيره، ودلَّ 10 على أنه أبصر بمقاصد الشريعة واعتبارها للمصالح.

فافهم ذلك واعتبر به أن غاية الغمران هي الحضارة والترف، وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد، وأخذ في الهزم، كالأعمار الطبيعية للحيوانات. بل نقول: إنَّ الخلقَ الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد، لأنَّ الإنسانَ إنَّما هو إنسانٌ باقتداره على جلب منافعِهِ ودفع مضارِّهِ واستقامة خُلُقهِ للسَّعي في ذلك. والخطري 15 لا يقدر على مباشرة حاجاته، إمَّا مجزأً بما حصل له من الدعة، أو ترقعاً لما حصل من المزي في النعيم والترف، وكلا الأمرين دميم. وكذلك لا يقدر على دفع المضارِّ بما فقد من خلق البأس بالترف والمزي في قهر التأديب والتعليم، فهو / لذلك عيالٌ [258]

(1) سقط ما بين النجمين من ي ج .

على الحامية التي تُدافع عنه. ثم هو فاسدٌ أيضاً في دينه غالباً بما أفسدت منه العوائد وطاعتها، وما تَلَوَّت به النفس من مَلَكاتها، كما قرَّناه، إلّا في الأقلِّ النَّارِ. وإذا فَسَدَ الإنسانُ في قُدْرته ثمَّ في أخلاقه ودينه، فقد فَسَدَتِ إنسانيَّته، وصارَ مَسْخاً على الحقيقة . وبهذا الاعتبار ، كان الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ من جُنْدِ السُّلْطَانِ إلى البدَاوة والحَشْوَةِ أَنْفَع من الَّذِينَ يُرَبُّونَ على الحَضَارَةِ وحُلُقِهَا. وهذا مَوْجُودٌ في كُلِّ دَوْلَةٍ. فقد 5 تَبَيَّنَ أَنَّ الحَضَارَةَ سِنُّ الوُقُوفِ لِعُمْرِ الْعَالَمِ من العُمُرَانِ والدُّولِ. ﴿وَاللَّهُ الْوَّاحِدُ الْفَهَّارُ﴾ [سورة الزمر، من الآية 4، وسورة يوسف، من الآية 39، وسورة ص، من الآية 65].

19 ﴿فَضْلٌ﴾⁽¹⁾، فِي أَنَّ الْأَمْصَارَ الَّتِي تَكُونُ كِرَاسِيَّ لِلْمُلْكِ تَخْرُبُ بِخَرَابِ الدَّوْلَةِ وَانْتِقَاضِهَا

10 قد اسْتَقَرَّرْنَا فِي الْعُمُرَانِ أَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا انْتَقَضَتْ وَاحْتَلَّتْ، فَإِنَّ الْمِصْرَ الَّذِي يَكُونُ كُرْسِيّاً لِسُلْطَانِهَا يَنْتَقِضُ عُمُرَانَهُ. وَرُبَّمَا يَنْتَهِي فِي انْتِقَاضِهِ إِلَى الْخَرَابِ، وَلَا يَكَادُ ذَلِكَ يَتَخَلَّفُ.

وَالسَّبَبُ فِيهِ أُمُورٌ:

الأول: أَنَّ الدَّوْلَةَ لَا بُدَّ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبَدَاوَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلتَّجَافِي عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ وَالبُعْدِ عَنِ التَّحَدُّقِ. وَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى تَخْفِيفِ الْجَبَايَةِ وَالْمَغَارِمِ الَّتِي مِنْهَا مَادَّةُ 15

(1) أضاف المؤلف هنا الفصل كله بخطه في مسودته ع، وقلَّبه عنها بقيَّة الأصول .

الدولة، فتَقِلَّ التَّفَقَاتُ، وَيَقْصُرُ التَّرَفُ. فإذا صار المِصْرُ الَّذِي كَانَ كُرْسِيّاً لِلْمُلْكِ فِي مَلَكَةِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ وَنُصِّتَ أَحْوَالُ التَّرَفِ فِيهَا، نَقُصَ التَّرَفُ فِيمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهَا مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ، لِأَنَّ الرِّعَايَا تَبَعُ لِلدَّوْلَةِ. فِيرْجِعُونَ إِلَى خُلُقِ الدَّوْلَةِ إِمَّا طَوْعاً بَمَا فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مِنْ تَقْلِيدِ مَثْبُوعِهِمْ، أَوْ كَرْهاً بِمَا تَدْعُو إِلَيْهِ خُلُقُ الدَّوْلَةِ مِنْ 5 الاتِّبَاضِ عَنِ التَّرَفِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَقِلَّةِ الْفَوَائِدِ الَّتِي هِيَ مَادَّةُ الْعَوَائِدِ، فَتَقْصُرُ لَدَلِكِ حَضَارَةُ الْمِصْرِ، وَيَذْهَبُ مِنْهُ كَثِيرٌ مِنْ عَوَائِدِ التَّرَفِ. وَهُوَ مَعْنَى مَا نَقُولُهُ مِنْ خَرَابِ الْمِصْرِ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ الدَّوْلَةَ إِنَّمَا يَحْصُلُ لَهَا الْمُلْكُ وَالِاسْتِيْلَاءُ بِالْغَلَبِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ الْعِدَاوَةِ وَالْحُرُوبِ. وَالْعِدَاوَةُ تَقْتَضِي مُنَافَاةَ بَيْنِ أَهْلِ الدَّوْلَتَيْنِ، وَنَكِيرَ 10 إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى / فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ. وَغَلَبُ أَحَدِ الْمُنَافِيَيْنِ يَذْهَبُ بِالْمُنَافِي [258ب] الْآخَرِ. فَتَكُونُ أَحْوَالُ الدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ مُنْكَرَةً عِنْدَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْجَدِيدَةِ وَمُسْتَشْنَعَةً وَقَبِيحَةً، وَخُصُوصاً أَحْوَالُ التَّرَفِ. فَتُقَفَّدُ فِي عَزْفِهِمْ بِنَكِيرِ الدَّوْلَةِ لَهَا حَتَّى تَنْشَأَ لَهُمْ بِالتَّدْرِجِ عَوَائِدُ أُخْرَى مِنَ التَّرَفِ تَكُونُ عَنْهَا حَضَارَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ، وَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ قُصُورُ الْحَضَارَةِ الْأُولَى وَنَقْصُهَا، وَهُوَ مَعْنَى اخْتِلَالِ الْعُمُرَانِ فِي الْمِصْرِ.

الْأَمْرُ الثَّلَاثُ: أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ وَطَنٍ هُوَ مَنْشُؤُهُمْ وَمِنْهُ أَوَّلِيَّةُ مُلْكِهِمْ. 15 وَإِذَا مَلَكَوا وَطَنًا آخَرَ صَارَ تَبَعاً لِلأَوَّلِ، وَأَمْصَارُهُ تَابِعَةٌ لِأَمْصَارِ الْأَوَّلِ، وَاتَّسَعَ نِطَاقُ الْمُلْكِ عَلَيْهِمْ. وَلَا بُدَّ مِنْ تَوْسُطِ الْكُرْسِيِّ بَيْنَ نَحْوِ الْمَمَالِكِ الَّتِي لِلدَّوْلَةِ، لِأَنَّهُ شِبْهُ الْمَرْكَزِ لِلنَّطَاقِ. فَيَبْعُدُ مَكَانُهُ عَنِ مَكَانِ الْكُرْسِيِّ الْأَوَّلِ، وَتَهْوِي أَفْئِدَةُ النَّاسِ

إليه من أجل الدولة والسلطان. فَيَنْتَقِلُ إليه العُمران وَيَخْفُ من مِصر الكُرسيّ الأول. والحِصَارَةُ إِنَّمَا هي بُوفور العُمران، كما قَدَّمْنَاهُ، فَتَنْقُصُ حِصَارَتُهُ وَتَمُدُّهُ، وهو مَعْنَى اخْتِلَالِهِ. وهذا كما وَقَعَ لِلسُّلْجُوقِيَّةِ في عُدُولِهِمْ بِكُرْسِيِّهِمْ عن بَغْدَاد إلى أَصْبَهَانَ، وَلِلْعَرَبِ قَبْلَهُمْ في العُدُولِ عن المَدَائِنِ إلى الكُوفَةِ والبَصْرَةِ، ولِبَنِي العَبَّاسِ في العُدُولِ عن^(أ) دِمَشْقَ إلى بَغْدَادَ، ولِبَنِي مَرَيْنَ بِالْمَغْرِبِ في العُدُولِ عن مَرَاكُشَ 5 إلى فَاسَ . وَبِالْجُمْلَةِ ، فَاتَّخَذَ الدَّوْلَةُ الْكُرْسِيَّ في مِصرَ يُخْلَ بِعُمرانِ الْكُرْسِيِّ الْأَوَّلِ.

الأمر الرابع: أَنَّ الدَّوْلَةَ الْمُتَجَدِّدَةَ إِذَا غَلَبَتْ عَلَى الدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ، لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ تَتَبُعِ أَهْلَ الدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ وَأَشْيَاعِهَا بِتَخْوِيلِهِمْ إِلَى قُطْرٍ آخَرَ يُؤْمَنُ فِيهِ غَايَلَتُهُمْ عَلَى الدَّوْلَةِ. وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْمِصْرِ الْكُرْسِيَّ أَشْيَاعٌ لِلدَّوْلَةِ، إِمَّا مِنْ الْحَامِيَةِ الَّذِينَ نَزَلُوا بِهِ أَوَّلَ الدَّوْلَةِ، أَوْ مِنْ أَغْيَانِ الْمِصْرِ، لِأَنَّ لَهُمْ فِي الْغَالِبِ مُخَالَطَةً لِلدَّوْلَةِ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ وَتَنَوُّعِ 10 أَصْنَافِهِمْ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ نَاشِئٌ فِي الدَّوْلَةِ. فَهَمَّ شِيعَةٌ لَهَا، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا بِالشُّوْكَهَ وَالْعَصَبِيَّةِ، فَهَمَّ بِالْمَيْلِ وَالْحَبَّةِ وَالْعَقِيدَةِ . وَطَبِيعَةُ الدَّوْلَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ مَحْوُ آثَارِ الدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ، فَتَنْقُلُهُمْ / مِنْ مِصرَ الْكُرْسِيِّ إِلَى وَطَنِهَا الْمُسْتَمْكِنِ^(ب) فِي مَلِكْتِهَا . فَبَغْضَهُمْ [1 259] عَلَى نَوْعِ التَّغْرِيبِ وَالْجَبَسِ، وَبَغْضٍ عَلَى نَوْعِ الْكَرَامَةِ وَالتَّلَطُّفِ، بِحَيْثُ لَا يُؤَدِّي إِلَى التَّفَرَّةِ حَتَّى لَا يَبْقَى فِي مِصرَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا الْبَاعَةُ وَالْهَمَلُ مِنْ أَهْلِ الْفُلْحِ، وَالْعِيَارَةُ 15 وَسَوَادُ الْعَامَةِ. وَتَنْزِلُ مَكَانَهُمْ مِنْ حَامِيَتِهَا وَأَشْيَاعِهَا مِنْ تَسُدُّ بِهِ الْمِصْرَ. وَإِذَا ذَهَبَ مِنَ الْمِصْرِ أَغْيَانُهُ^(ج) عَلَى طَبَقَاتِهِمْ نَقَصَ سَاكِنُهُ، وَهُوَ مَعْنَى اخْتِلَالِ عُمرَانِهِ. ثُمَّ لَا بُدَّ لَهُ

(أ) ي: من (ب) في طاع، وفي ج ي: الممكن (ج) ي: أعيانهم .

أَنْ يَسْتَجِدَّ عُمرَانَا آخَرَ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ الْجَدِيدَةِ، وَتَحْصُلُ فِيهِ حَضَارَةٌ أُخْرَى عَلَى قَدْرِ الدَّوْلَةِ. وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَثَابَةِ مَنْ يَمْلِكُ بَيْتًا دَاخِلَهُ الْبِلَى، وَالكَثِيرُ مِنْ أَوْضَاعِهِ فِي بُيُوتِهِ وَمَرَافِقِهِ لَا تُوَافِقُ مُقْتَرَحَهُ، وَلَهُ قُدْرَةٌ عَلَى تَغْيِيرِ تِلْكَ الْأَوْضَاعِ وَإِعَادَةِ بِنَائِهَا عَلَى مَا يَخْتَارُهُ وَيُقْتَرَحُهُ، فَيَخْرُبُ ذَلِكَ الْبَيْتَ، ثُمَّ يُعِيدُ بِنَاءَهُ ثَانِيًا. وَقَدْ وَقَعَ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ فِي الْأُمُصَارِ الَّتِي هِيَ كِرَاسِيٌّ لِلْمُلْكِ، وَشَاهِدُنَا وَعِلْمُنَا. وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ 5 وَالنَّهَارِ.

وَالسَّبَبُ الطَّبِيعِيُّ الْأَوَّلُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْجُمْلَةِ، أَنَّ الدَّوْلَةَ وَالْمُلْكَ لِلْعُمَرَانِ بِمَثَابَةِ الصُّورَةِ لِلْمَادَّةِ، وَهُوَ الشَّكْلُ الْحَافِظُ بِنَوْعِهِ لَوُجُودِهَا، وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي غُلُومِ الْحِكْمَةِ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ انْفِكَاكَ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ. فَالدَّوْلَةُ دُونَ الْعُمَرَانِ لَا يَتَصَوَّرُ، وَالْعُمَرَانِ 10 دُونَ الدَّوْلَةِ وَالْمُلْكِ مُتَعَدِّرٌ، بِمَا فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مِنَ التَّعَاوُنِ الدَّاعِي إِلَى الْوَازِعِ. فَتَتَعَيَّنُ السِّيَاسَةُ لِذَلِكَ، إِمَّا الشَّرْعِيَّةُ أَوِ الْمَلَكِيَّةُ، وَهُوَ مَعْنَى الدَّوْلَةِ. وَإِذَا كَانَا لَا يَتَفَكَّانِ، فَاخْتِلَالُ أَحَدِهِمَا مُؤَثِّرٌ فِي اخْتِلَالِ الْآخَرِ، كَمَا كَانَ عَدَمُهُ مُؤَثِّرًا فِي عَدَمِهِ. وَالْحَلُّ الْعَظِيمُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ خَلَلِ الدَّوْلَةِ الْكُلِّيَّةِ، مِثْلَ دَوْلَةِ الْفَرَسِ، أَوِ الرُّومِ، أَوِ الْعَرَبِ عَلَى الْعُمُومِ، أَوْ بَنِي أُمَيَّةٍ أَوْ بَنِي الْعَبَّاسِ كَذَلِكَ. وَأَمَّا الدُّوَلُ الشَّخْصِيَّةُ، مِثْلَ دَوْلَةِ 15 أُنُوشِرْوَانَ أَوْ هِرَقْلَ أَوْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَوِ الرَّشِيدِ، فَأَشْخَاصُهَا مُتَعَاقِبَةٌ عَلَى الْعُمَرَانِ، حَافِظَةٌ لَوُجُودِهِ وَبَقَائِهِ، وَقَرِيبَةٌ الشَّبَهِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، فَلَا تُؤَثِّرُ كَبِيرُ اخْتِلَالٍ؛ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ بِالْحَقِيقَةِ / الْفَاعِلَةَ فِي مَادَّةِ الْعُمَرَانِ، إِنَّمَا هِيَ لِلْعَصِيَّةِ وَالشُّوْكَةِ، [259ب] وَهِيَ مُسْتَمِرَّةٌ مَعَ أَشْخَاصِ الدُّوَلِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ تِلْكَ الْعَصِيَّةُ وَدَفَعَتْهَا عَصِيَّةٌ أُخْرَى مُؤَثِّرَةٌ فِي الْعُمَرَانِ فَأَذْهَبَتْ أَهْلَ الشُّوْكَةِ بِأَجْمَعِهِمْ، عَظُمَ الْخَلَلُ كَمَا قَرَّرْنَاهُ أَوَّلًا.

وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ ﴿٢٠﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢١﴾ [سورة إبراهيم، الآيتان 19، 20].

20 * فصل، في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض

وذلك أنه من البين أن أعمال أهل المضر يستدعي بعضها بعضاً لما في طبيعة العمران من التعاون . وما يستدعي من الأعمال يختص ببعض أهل المضر ،
5 فيقومون عليه، ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته، ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه، لعموم البلوى به في المضر والحاجة إليه. وما لا يستدعي في المضر يكون غفلاً، إذ لا فائدة لمتخلله في الاختراف به. وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مضر، كالحياط والحداد والنجار وأمثالها. وما يستدعي لعوائد الترف وأحواله، فإنما يوجد في المدن المستبشرة في العمارة، الآخذة في عوائد الترف
10 والحضارة، مثل: الزجاج، والصانع، والدهان، والطباخ، والصفار، والسفاج، والهراس، والديباج، وأمثال هذه. وهي متفاوتة. وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع، فيوجد لذلك المضر دون غيره. ومن هذا الباب الحمامات ، لأنها إنما توجد في الأمصار المستحضرة المستبشرة العمران ، لما
15 يدعو إليه الترف والغنى من التثعم. ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة، وإن نزع بعض الملوك والرؤساء إليه فيختطها ويجري أحوالها. إلا أنها إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس، فسرعان ما تهجر وتخرب، ويقر عنها القومة لقلّة فائدتهم ومعاشهم منها. ﴿وَاللَّهُ يَقِضُّ وَيَبْصُطُ﴾ [سورة البقرة، من الآية 245].

21 • / فصل ، في وجود العَصِيَّة في الأمصار وتغلب بعضهم على بعض

من البين أنَّ الالتحام والاتصال موجود في طباع البشر، وإن لم يكونوا أهل نسب واحد . إلا أنه، كما قدمناه ، أضعف مما يكون بالنسب، وأنه تحصل به العَصِيَّة بغضاً مما تحصل بالنسب. وأهل الأمصار كثير منهم ملتجئون بالصهر، يجذب بعضهم بعضاً إلى أن يكونوا لحمًا لحماً وقرابة قرابة. وتجذب بينهم من الصداقة 5 والعداوة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله، فيفترقون شيعاً وعصائب. فإذا نزل الهرم بالدولة وتقلص الملك عن القاصية، احتاج أهل أمصارها إلى القيام على أمرهم والنظر في حماية بلادهم، وزجعوا إلى الشورى وتميز العلية عن السفلة. والنفوس بطباعها متطاولَةٌ إلى الغلب والرياسة، فتطمح المشيخة - لخلاء الجو من السلطان 10 والدولة القاهرة - إلى الاستبداد، وينارع كل صاحبه. ويستوصلون بالأنباع من الموالي والشيع والأخلاف، ويتذلون ما في أيديهم للأوغاد والأوشاب، فيعضو صِيب كل بصاحبه، ويتعين الغلب لبغضهم، فيعطف على أكفائه لينغص من أعينهم، ويتتبعهم بالقتل أو التعريب، حتى يخضع منهم الشوكات الثافذة، ويقلم الأظفار الحادشة، ويستبدد بمصره أجمع ، ويرى أنه قد استحدث ملكاً يورثه عقبه . فيحدث في ذلك 15 الملك الأصغر ما يحدث في الملك الأعظم⁽¹⁾ من عوارض الجدة والهرم. وربما يسمو بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأعظم، أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزخرف والحروب والأقطار والممالك؛ فينتحلون من الجلوس على السرير، واتخاذ

(1) ج: الأكبر .

الآلة، وإعداد المواكب للسَّير في أقطار البلد، والتَّحتم، والتَّحِيَّة والخطاب بالتهويل، ما يَسْخَرُ منه من يشاهد أحوالهم، لما انتحلوه من شارات الملوك التي لَيسوا لها بأهل. إِنَّمَا دَفَعَهُمْ إِلَى ذَلِكَ تَقْلُصُ الدَّوْلَةِ، وَالتَّحَامُ بَغْضِ الْقَرَابَاتِ حَتَّى صَارَتْ عَصَبِيَّةً. وَقَدْ يَتَنَزَّهُ بَعْضُهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيَجْرِي عَلَى مَذَاهِبِ السَّدَاجَةِ فِرَاراً مِنَ التَّغْرِيزِ / بِنَفْسِهِ [لِلسُّخْرِيَّةِ] ^(١) وَالْعَبَثُ.

5

[260ب]

وَقَعَ هَذَا بِإِفْرِيقِيَّةٍ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ الْحَفْصِيَّةِ لِأَهْلِ بِلَادِ الْجَرِيدِ، مِنْ طَرَابُلُسَ وَقَابِسَ وَتَوَزَّرَ وَنُقْطَه وَقَفْصَه وَبَسْكَرَةَ وَالزَّابَ وَمَا إِلَى ذَلِكَ، سَمَّوْا إِلَى مِثْلِهَا عِنْدَ تَقْلُصِ ظِلِّ الدَّوْلَةِ عَنْهُمْ مُنْذُ عُقُودِ مِنَ السَّنِينَ. فَاسْتَغْلَبُوا عَلَى أَمْصَارِهِمْ، وَاسْتَبَدُّوا بِأَمْرِهَا عَلَى الدَّوْلَةِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْجَبَايَةِ، وَأَعْطَوْا طَاعَةً مَعْرُوفَةً وَصَفْقَةً [مُفْرِضَةً] ^(ب)، وَأَقْطَعُوهَا جَانِباً مِنَ الْمَلَايِنَةِ وَالْمَلَاظِفَةِ وَالْإِثْقَادِ، وَهُمْ بِمَغْزِلِ عَنْهُ . وَأُورِثُوا ذَلِكَ أَغْقَابَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ. وَحَدَّثَ فِي خَلْفِهِمْ مِنَ الْغِلْظَةِ وَالتَّجَبُّرِ مَا يَحْدُثُ لِأَغْقَابِ الْمُلُوكِ وَخَلْفِهِمْ، وَتَظْمُوا أَنْفُسَهُمْ فِي عِدَادِ السُّلَاطِينِ، عَلَى قُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالسُّوقَةِ.

10

وَقَدْ كَانَ مِثْلُ ذَلِكَ وَقَعَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ الصَّنَهَاجِيَّةِ، وَاسْتَقَلَّ بِأَمْصَارِ الْجَرِيدِ أَهْلُهَا، وَاسْتَبَدُّوا عَلَى الدَّوْلَةِ، حَتَّى انْتَرَعَ ذَلِكَ مِنْهُمْ شَيْخُ الْمُوَحِّدِينَ وَمَلِكُهُمْ، عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَنَقَلَهُمْ كُلَّهُمْ مِنْ إِمَارَتِهِمْ بِهَا * إِلَى الْمَغْرِبِ * ^(ج)، وَمِنْهَا مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ آثَارُهُمْ، كَمَا تَذَكَّرُ فِي أَخْبَارِهِ.

15

(١) فِي ع ج ي ظ السُّخْرِيَّاءِ، وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ (ب) فِي ظ: مَرْوُضَةٌ (ج) سَقَطَ مَا بَيْنَ النَجْمَيْنِ مِنْ ي .

وكذلك وقع بسببته لآخر دولة بني عبد المؤمن.

وهذا التغلب يكون غالباً في أهل السروات والبيوتات المرشحين للمشيحة والرياسة في المضر. وقد يحدث التغلب لبعض السفلة من الدهماء والغوغاء إذا حصلت له العصبية والالتحام بالأوغاد لأسباب يجزها له المقدار ، فيغلب على المشيخة والعلية إذا كانوا فاقدين للعصاة. ﴿ وَاللَّهُ عَالِمُ أَمْرِهِ ﴾ [سورة يوسف، 5 من الآية 21].

22 * فصل ، في لغات أهل الأمصار

اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة [أو] ^(أ) الجيل الغالين عليها أو ^(ب) المختطين لها. ولذلك ^(ج) كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عريته ، وإن كان اللسان العربي المضرى قد فسدت ملكته ، وتغير إعرابه.

والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغلب على الأمم . والدين والملة صورة للوجود والملك ، وكلها مواد له. والصورة مقدمة / على المادة ، والدين إنما يستفاد من الشريعة ، وهي بلسان العرب ؛ لما أن النبي ﷺ عربي . فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها . واعتبر ذلك في نهى

[261 أ]

15

(أ) في ظ: والجيل (ب) في ظ: و (ج) في ي: وكذلك.

عُمَر - رضي الله عنه - عن رَطَانَةِ الْأَعَاجِمِ، وَقَالَ: إِنَّهَا خِبٌّ. يَعْنِي: مَكْرَزٌ وَخَدِيعَةٌ⁽¹⁾. فَلَمَّا هَجَرَ الدِّينُ اللِّغَاتِ الْأَعْجَمِيَّةَ، وَكَانَ لِسَانُ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ غَرَبِيًّا، هُجِرَتْ كُلُّهَا فِي جَمِيعِ مَمَالِكِهَا، لِأَنَّ النَّاسَ تَبَعَ لِلسُّلْطَانِ وَعَلَى دِينِهِ؛ فَصَارَ اسْتِعْمَالُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ مِنْ شُعَائِرِ الْإِسْلَامِ وَطَاعَةِ الْعَرَبِ، وَهَجَرَ الْأُمَمُ لُغَاتِهِمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ وَالْمَمَالِكِ، وَصَارَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ لِسَانَهُمْ حَتَّى رَسَخَ ذَلِكَ 5 لُغَةً فِي جَمِيعِ أَمْصَارِهِمْ وَمُدُنِهِمْ، وَصَارَتْ الْأَلْسُنُ [الْأَعْجَمِيَّةُ]⁽¹⁾ دَخِيلَةً فِيهَا وَغَرِيبَةً. ثُمَّ فَسَدَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ بِمَخَالَطَتِهَا فِي بَعْضِ أَحْكَامِهِ وَتَغْيِيرِ أَوَاخِرِهِ، وَإِنْ كَانَ بَقِيَ فِي الدَّلَالَاتِ عَلَى أَصْلِهِ. وَسُمِّيَ لِسَانًا حَضَرِيًّا فِي جَمِيعِ أَمْصَارِ الْإِسْلَامِ.

وَأَيْضًا، فَأَكْثَرَ الْأَمْصَارُ فِي الْمِلَّةِ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَغْقَابِ الْعَرَبِ، الْمَالِكِينَ لَهَا، الْهَالِكِينَ فِي تَرْفِهَا، بِمَا كَثُرُوا الْعَجَمَ الَّذِينَ كَانُوا بِهَا، وَوَرِثُوا أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ. 10 وَاللُّغَاتُ مُتَوَارِثَةٌ، فَبَقِيَتْ لُغَةُ الْأَغْقَابِ عَلَى حِيَالِ لُغَةِ الْأَبَاءِ، وَإِنْ فَسَدَتْ أَحْكَامُهَا بِمَخَالَطَةِ الْأَعْجَامِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَسُمِّيَتْ لُغَتُهُمْ حَضَرِيَّةً، مَنْسُوبَةً إِلَى أَهْلِ الْحَوَاضِرِ وَالْأَمْصَارِ، بِخِلَافِ لُغَةِ الْبَدْوِ مِنَ الْعَرَبِ، فَإِنَّهَا كَانَتْ أُعْرِقَ فِي الْغُرُوبِ.

وَلَمَّا تَمَلَّكَ الْعَجَمُ مِنَ الدِّينِ وَالسَّلْجُوقِيَّةِ بَعْدَهُمْ بِالْمَشْرِقِ، وَرَنَاتُهُ وَالْبَرْبَرُ 15 بِالْمَغْرِبِ، وَصَارَ لَهُمُ الْمُلْكُ وَالْإِسْتِيلَاءُ عَلَى جَمِيعِ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَسَدَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ لَذَلِكَ، وَكَادَ يَذْهَبُ، لَوْلَا مَا حَفِظَهُ مِنْ عِنَايَةِ الْمُسْلِمِينَ بِالْكِتَابِ وَالشُّنَّةِ

(1) مِنْ ع ج ي، وَفِي ط: الْعَجْمِيَّةُ.

(1) الْمَدُونَةُ 1: 63، الْمُصَنَّفُ لِعَبْدِ الرَّزَاقِ، حَدِيثٌ رَقْمُ (1609) وَابْتِهَاجِي فِي السَّنَنِ الْكُبْرَى 9: 234.

اللَّذِينَ بِهِمَا حُفِظَ الدِّينُ. وصَارَ ذَلِكَ مُرَجَّحاً لِبَقَاءِ اللُّغَةِ الحَضَرِيَّةِ بِالْأَمْصَارِ عَرَبِيَّةً. فَلَمَّا مَلَكَ الطَّطَرُ والمُغَلُّ^(١) بِالْمَشْرِقِ، وَلَمْ يَكُونُوا عَلَى دِينِ الإِسْلَامِ، ذَهَبَ ذَلِكَ المُرْجُحُ، وَفَسَدَتِ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ عَلَى الإِطْلَاقِ، وَلَمْ يَبْقَ لَهَا رَسْمٌ فِي المَمَالِكِ الإِسْلَامِيَّةِ، بِالعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَرْضِ الهِنْدِ / والسُّنْدِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَ^(ب) بِلَادِ [261ب]

5 الشَّامِ وَبِلَادِ الرُّومِ. وَذَهَبَتْ أَسَالِيبُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مِنَ الشَّعْرِ والكَلَامِ، إِلَّا قَلِيلاً يَقَعُ^(ج) تَعْلِيمُهُ صِنَاعِيّاً بِالقَوَانِينِ المُتَدَارِسَةِ مِنْ عُلُومِ العَرَبِ وَحِفْظُ كَلَامِهِمْ لِمَنْ يَسَّرُهُ اللهُ لِدَلِّكَ. وَرَبَّمَا بَقِيَتِ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ الحَضَرِيَّةُ بِمِصْرَ والشَّامِ والأَنْدَلُسِ والمَغْرِبِ لِبَقَاءِ الدِّينِ طَالِبِاً لَهَا، فَانْحَفَظَتْ بَعْضُ^(د) الشَّيْءِ. وَأَمَّا فِي مَمَالِكِ العِرَاقِ وَمَا وَرَاءَهُ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ وَلَا عَيْنٌ، حَتَّى أَنْ كُتِبَ العُلُومُ صَارَتْ تُكْتَبُ بِاللِّسَانِ العَجَمِيِّ، وَكَذَا

10 تَدْرِيسُهُ فِي المَجَالِسِ. وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ والنَّهَارِ.

(١) في ع: المغول (ب) في ط: من (ج) ي: مع (د) ي: بعض .

/ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

^(١) وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت

الفصل الخامس * من الكتاب الأول * (ب)

(١) في ع ج: صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، وفي ي: ربنا آتينا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشداً
(ب) من ع، وسقط من ظ ي ج.

فِي الْمَعَاشِ وَوُجُوهِهِ مِنَ الْكَسْبِ وَالصَّنَائِعِ، وَمَا يُعْرِضُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ
الْأَحْوَالِ. وَفِيهِ مَسَائِلُ

1 ﴿ فَضَّلْ ، فِي حَقِيقَةِ الرِّزْقِ وَالْكَسْبِ، وَشَرَحَهُمَا . وَأَنَّ الْكَسْبَ هُوَ قِيَمَةُ
الْأَعْمَالِ الْبَشَرِيَّةِ

- 5 اَعْلَمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُفْتَقِرٌ بِالطَّبْعِ إِلَى مَا يَقُوْتُهُ وَيَمُوْتُهُ فِي حَالَاتِهِ وَأَطْوَارِهِ، مِنْ
لَدُنْ نُشُوْتِهِ إِلَى أَشَدِّهِ إِلَى ^(أ) كِبَرِهِ. ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ [سورة محمد، مِنْ
الآيَةِ 38]. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ جَمِيعَ مَا فِي الْعَالَمِ لِلْإِنْسَانِ وَأَمَّنَّ بِهِ [عَلَيْهِ] ^(ب) فِي غَيْرِ مَا
آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ، فَقَالَ: ﴿ وَسَخَّرَ ^(ج) لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [سورة
الْحَاجِيَةِ، مِنْ الْآيَةِ 13]، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ [سورة إِبْرَاهِيمَ، مِنْ الْآيَةِ 33]،
و ﴿ سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ ﴾ [سورة الْحَاجِيَةِ، مِنْ الْآيَةِ 12]، وَ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ ﴾ [سورة
10 إِبْرَاهِيمَ، مِنْ الْآيَةِ 32]، وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ ⁽¹⁾، وَكَثِيرٌ مِنْ شَوَاهِدِهِ. وَيَدُ الْإِنْسَانِ
مَبْسُوطَةٌ عَلَى الْعَالَمِ وَمَا فِيهِ، بِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْإِسْتِخْلَافِ؛ وَأَيْدِي الْبَشَرِ
مُنْتَشِرَةٌ، فَهِيَ مُشْتَرَكَةٌ فِي ذَلِكَ، وَمَا حَصَلَ عَلَيْهِ يَدُ هَذَا، اِمْتَنَعَ عَنِ الْآخَرِ إِلَّا بِعَوَظٍ.

(1) فِي: ظ ع (ب) مِنْ ع، وَسَقَطَتْ مِنْ ظ ج ي (ج) فِي الْأَصُولِ كُلُّهَا بَدَأَ الْآيَةَ خَطَأً بِقَوْلِهِ: خَلَقَ.

(1) يُشِيرُ وَيَضْمَنُ مَعْنَى مَا سَخَّرَهُ اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْأَنْعَامِ، ﴿ وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ ﴾، [الْأَنْعَامِ،
مِنْ الْآيَةِ 142]، ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [الزَّخْرَفِ، مِنْ الْآيَةِ 12].

فَالْإِنْسَانُ مَتَى افْتَدَرَ عَلَى نَفْسِهِ وَتَجَاوَزَ طَوْرَ الضُّعْفِ، سَعَى فِي اقْتِنَاءِ الْمَكَايِبِ لِيُنْفِقَ مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْهَا فِي تَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ وَضَرُورَاتِهِ بِدَفْعِ الْأَعْوَاضِ عَنْهَا. قَالَ اللَّهُ ⁽¹⁾ تَعَالَى : ﴿ قَابِضُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ [سورة العنكبوت ، من الآية 17].

5 وقد يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ بِغَيْرِ سَعْيٍ، كَالْمَظَرِ الْمُضْلِحِ لِلزَّرَاعَةِ وَأَمْثَالِهِ. إِلَّا أَنَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ مُعِينَةً، وَلَا بُدَّ مِنْ سَعْيِهِ مَعَهَا كَمَا يَأْتِي. فَتَكُونُ لَهُ تِلْكَ الْمَكَايِبُ مَعَاشاً إِنْ كَانَتْ بِمَقْدَارِ الضَّرُورَةِ وَالْحَاجَةِ، وَرِيَاشاً وَمُتَمَوِّلاً إِنْ زَادَتْ عَلَى ذَلِكَ. ثُمَّ إِنْ ذَلِكَ الْحَاصِلَ أَوْ الْمُقْتَنَى، إِنْ عَادَتْ مَنَفَعَتُهُ عَلَى الْعَبْدِ، وَحَصِلَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ مِنْ إِشْفَاقِهِ فِي مَصَالِحِهِ وَحَاجَاتِهِ، سُمِّيَ رِزْقاً. قَالَ ﷺ ⁽¹⁾ : "إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ". وَإِنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِهِ 10 وَلَا حَاجَاتِهِ فَلَا يُسَمَّى رِزْقاً. وَالْمُتَمَلِّكُ مِنْهُ حِينَئِذٍ بِسَعْيِ الْعَبْدِ وَقُدْرَتِهِ يُسَمَّى كَسْباً. وَهَذَا مِثْلُ التَّرَاثِ، فَإِنَّهُ يُسَمَّى بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْهَالِكِ كَسْباً وَلَا يُسَمَّى رِزْقاً، إِذْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ بِهِ مُنْتَفَعٌ. وَبِالنَّسْبَةِ إِلَى الْوَارِثِينَ مَتَى انْتَفَعُوا بِهِ يُسَمَّى رِزْقاً.

هذا حقيقة مُسَمَّى الرِّزْقِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ. / وقد اشترط الْمُغْتَرِلَةُ فِي تَسْمِيَتِهِ [263] 15 رِزْقاً أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ يَصِحُّ تَمْلُكُهُ. وَمَا لَا يُمْلَكُ عِنْدَهُمْ فَلَا ^(ب) يُسَمَّى رِزْقاً. وَأَخْرَجُوا الْعُصُوبَاتِ وَالْحَرَامَ كُلَّهُ عَنْ أَنْ يُسَمَّى شَيْءٌ مِنْهَا رِزْقاً. وَاللَّهُ تَعَالَى يَرْزُقُ

(1) فِي ظ وَحَدَّثَهَا (ب) ي: ٧ .

(1) قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ السَّعْدِيِّ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمَفْرُودِ رَقْمَ (953) .

الغاصب والظالم، والمؤمن والكافر، ويختص برحمته وهدايته من يشاء. ولهم في ذلك حُجَج ليس هذا موضع بسطها.

ثم اعلم أن الكسب إنما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد إلى التخصيل. فلا بُدَّ في الرزق من سعي وعمل، ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه. قال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [سورة العنكبوت، من الآية 17]. والسعي إليه إنما يكون 5 بأقدار الله تعالى وإلهامه، فالكُلُّ من عند الله. فلا بُدَّ من الأعمال الإنسانية في كلِّ مكسوب ومتموّل. لأنّه إن كان عملاً بنفسه مثل الصنائع، فظاهر، وإن كان مُقتنى من الحيوان أو النبات أو المعدن، فلا بُدَّ فيه من العمل الإنساني، كما تراه، وإلّا لم يحصل ولم يقع به انتفاع.

ثم إن الله سبحانه خلق الحجرين المعدّين^(أ) من الذهب والفضة قيمة لكلّ 10 متموّل، وهي الذخيرة والقنية لأهل العالم في الغالب. وإن اقتني سواهما في بغض الأخيان، فإنما هو لقصد تحصيلهما بما يقع في غيرهما من حوالة الأسواق التي هما عنها بمغزل، فهما أصل المكاسب والقنية والذخيرة.

وإذا تقرّر هذا كله، فاعلم أنّما يفيد الإنسان ويقتنيه من المتمولات، إن كان 15 من الصنائع، فالمفاد المُقتنى منه [هو]^(ب) قيمة عمله، وهو القصد بالقنية، إذ ليس هناك إلا العمل، وليس بمقصود^(ج) بنفسه للقنية. وقد يكون مع الصنائع في بعضها غيرها، مثل التجارة والحياكة معها الخشب والغزل، إلّا أنّ العمل فيها أكثر، فقيمتها

(أ) في ع ي: المعدّين (ب) من ع وحدها (ج) ي: في نفسه.

أَكْثَرُ. وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ الصَّنَاعِ، فَلَا بُدَّ فِي قِيَمَةِ ذَلِكَ الْمُنَادِ وَالْقِيَمَةِ مِنْ دُخُولِ قِيَمَةِ الْعَمَلِ الَّذِي حَصَلَتْ [بِهِ] ^(أ)، إِذْ لَوْ لَا الْعَمَلُ لَمْ تَحْصُلْ قِيَمَتُهَا. وَقَدْ تَكُونُ مِلَاحَظَةُ الْعَمَلِ ظَاهِرَةً فِي الْكَثِيرِ مِنْهَا، فَتَجْعَلُ لَهُ حِصَّةً مِنَ الْقِيَمَةِ، عَظُمَتْ أَوْ صَغُرَتْ. وَقَدْ تَخْفَى مِلَاحَظَةُ الْعَمَلِ، كَمَا فِي أَسْعَارِ الْأَقْوَاتِ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَإِنَّ اعْتِبَارَ الْأَعْمَالِ وَالتَّفَقُّاتِ فِيهَا مِلَاحَظَةٌ ^(ب) فِي أَسْعَارِ الْحُبُوبِ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ، لَكِنَّهُ خَفِيَ فِي الْأَقْطَارِ الَّتِي عِلَاجُ الْفُلْحِ / فِيهَا وَمَوْثِقَتُهُ يَسِيرَةٌ، فَلَا يَشْعُرُ بِهِ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْ أَهْلِ الْفُلْحِ.

[263ب]

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْمُنَادَاتِ وَالْمُكْتَسَبَاتِ كُلَّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا إِنَّمَا هِيَ قِيَمُ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَتَبَيَّنَ مُسَمَّى الرِّزْقِ، وَأَنَّهُ الْمُتَنَفِّعُ بِهِ. فَقَدْ بَانَ مَعْنَى الْكَسْبِ وَالرِّزْقِ وَشَرَحُ مُسَمَّاهُمَا.

10

وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا فُقِدَتِ الْأَعْمَالُ أَوْ قَلَّتْ بِانْتِقَاصِ ^(ج) الْعُمُرَانِ، تَأَذَّنَ اللَّهُ بِرَفْعِ الْكَسْبِ. أَلَا تَرَى إِلَى الْأَمْصَارِ الْقَلِيلَةِ السَّاكِنِ كَيْفَ يَقِلُّ الرِّزْقُ وَالْكَسْبُ فِيهَا، أَوْ يُفْقَدُ، لِقَلَّةِ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ. وَكَذَلِكَ الْأَمْصَارُ الَّتِي تَكُونُ أَعْمَالُهَا أَكْثَرُ، يَكُونُ أَهْلُهَا أَوْسَعَ أَحْوَالاً وَأَشَدَّ رِفَاحِيَّةً، كَمَا قَدَّمْنَاهُ قَبْلَ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ تَقُولُ الْعَامَّةُ فِي الْبِلَادِ ^(د) إِذَا تَنَاقَصَ عُمُرَانُهَا: قَدْ ذَهَبَ رِزْقُهَا. حَتَّى أَنَّ الْعُيُونَ وَالْأَنْهَارَ يَنْقَطِعُ جَرِيْمَا فِي الْفَقْرِ، لَمَّا أَنَّ قَوْرَ الْعُيُونَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْإِنْبَاطِ وَالْإِمْتِرَاءِ الَّذِي هُوَ الْعَمَلُ الْإِنْسَانِي، كَالْحَالِ فِي ضُرُوعِ الْأَنْعَامِ، فَمَا لَمْ يَكُنْ إِمْتِرَاءٌ وَلَا إِنْبَاطٌ نَضَبَتْ وَغَارَتْ

15

(أ) سقط من ط (ب) ع: بملاحظة (ج) ي: بانتقاض (د) في ع: البلدان .

بالجملة، كما يحِفُّ الضرعُ إذا ترك امْتِراؤه. وانظره في البلاد التي تُعْهَدُ فيها العيونُ
لأَيامِ عُمرانها ثم يأتي عليها الخرابُ، كيف تُغورُ مياهها جملةً كأنَّ لم تكن. والله مُقدِّرُ
الليل والنهار.

2 • فصلٌ، في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه

اعلم أنَّ المعاش هو عبارةٌ عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله. وهو مَفْعَلٌ 5
من الغيش، [كأنَّه لما كان الغيش^(١)] الذي هو الحياة لا يحصل إلا بهذه، جعلت
مَوْضِعاً له على طريق المبالغة.

ثم إنَّ تحصيلَ الرزق وكسبه، إمَّا أن يكونَ بأخذه من يدِ الغيرِ واْتِزاعه
بالاقتدار عليه على قانونٍ مُتعارفٍ، ويُسمَّى مَغْرَماً وجبايةً. وإمَّا أن يكونَ من
الحيوانِ الوحشيِّ باقتِراسه وأخذه برميهِ من البرِّ أو البحرِ، ويُسمَّى اضْطِياراً. وإمَّا 10
أن يكونَ من الحيوانِ الداجنِ باستِخراجِ فضوله المتصرِّفة بين^(ب) النَّاسِ في
مَنافعهم، كاللِّبَنِ من الأنعام، والحريِّ من دودِهِ، والغسَلِ من نخْلِهِ. أو يكونَ من
التَّباتِ في الزَّرعِ والشَّجَرِ بالقيامِ عَلَيْهِ وإِعداده لاستِخراجِ ثَمَرَتِهِ، [و] ^(ج) يُسمَّى
هذا كُلُّهُ قَلْحاً. وإمَّا أن يكونَ الكسبُ من الأعمالِ الإنسانيَّةِ، إمَّا / في مَوادِّ [264]
بَعِيْنها، وتُسمَّى الصَّنَائِعِ، من كتابَةٍ، ونِجارةٍ، وخِياطةٍ، وحِياكَةٍ، وفُروسيَّةٍ، وأمثالِ 15
ذلك، أو في مَوادِّ غيرِ معيَّنة، وهي جميعُ الامْتِهاناتِ والتَّصرُّفاتِ. وإمَّا أن يكونَ

(١) من ع، وسقط من ظ (ب) ع: من (ج) من ج ي .

الكسب من البضائع وإعدادها للأغراض، إمّا بالتَّكَلُّبِ بها في البلاد، أو اختِكاريها
وارْتِقَابِ حَوَالَةِ الأسواقِ فيها، ويُسمَّى هذا تجارةً.

فهذه ^(١) وجوهُ المعاشِ وأصنافه. وهي مَعْنَى ما ذَكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ من أَهْلِ
الْأَدَبِ وَالْحِكْمَةِ، كَالْحَرِيرِيِّ ^(٢) وَغَيْرِهِ. قالوا: المعاشُ: إمارةٌ، وَتِجَارَةٌ، وَفِلَاحَةٌ،
وَصِنَاعَةٌ. فَأَمَّا الإِمَارَةُ فَلَيْسَتْ بِمَذْهَبٍ طَبِيعِيِّ لِلْمَعَاشِ. فلا حاجةَ بنا إلى ذِكْرِهَا. 5
وقد تَقَدَّمَ شَيْءٌ من أَحْوالِ الْحَبَايَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَأَهْلِهَا فِي الْفَصْلِ الثَّانِي.

وَأَمَّا الْفِلَاحَةُ وَالصَّنَاعَةُ وَالتَّجَارَةُ، فَهِيَ وَجُوهٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْمَعَاشِ. أَمَّا الْفِلَاحَةُ
فَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ عَلَيْهَا كُلِّهَا بِالذَّاتِ، إِذْ هِيَ بَسِيطَةٌ وَطَبِيعِيَّةٌ [وَفُطْرِيَّةٌ] ^(ب) لَا تَحْتَاجُ إِلَى
نَظَرٍ وَلَا إِلَى عِلْمٍ. وَلِهَذَا ^(ج) تُنْسَبُ فِي الْخَلِيقَةِ إِلَى آدَمَ، أَبِي الْبَشَرِ، وَأَنَّهُ مُعَلِّمُهَا
وَالْقَائِمُ عَلَيْهَا، إِشَارَةً إِلَى أَنَّهَا أَقْدَمُ وَجُوهُ الْمَعَاشِ وَأَنْسَبُهَا إِلَى الطَّبِيعَةِ. 10

وَأَمَّا الصَّنَاعَةُ، فَهِيَ ثَانِيَتُهَا وَمَتَأَخِّرَةٌ عَنْهَا، لِأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ وَعِلْمِيَّةٌ تُصَرَّفُ فِيهَا
الْأَفْكَارُ وَالْأَنْظَارُ. وَلِهَذَا لَا تَوْجَدُ غَالِبًا إِلَّا فِي أَهْلِ الْحَضَرِ الَّذِي هُوَ مُتَأَخِّرٌ عَنِ
الْبَدْوِ وَثَانٍ عَنْهُ. وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى نُسِبَتْ إِلَى إِدْرِيسَ، الْأَبِ الثَّانِي لِلْخَلِيقَةِ، فَإِنَّهُ
مُسْتَنْبِطُهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْبَشَرِ بِالْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

(١) ج: هذه (ب) من ع وسقطت من ظ ج ي (ج) ي: وإلى هذا (د) جاءت في الأصول الأربعة: أبو .

(١) ذكر ذلك في المقامة السَّاسَانِيَّة (رقم 49) قال: جَرَّبْتُ حَقَائِقَ الْأُمُورِ، وَتَلَوْتُ تَصَارِيفَ الدَّهْرِ، فَرَأَيْتُ الْمَرْءَ
بِنَفْسِهِ، لَا بِنَفْسِهِ، وَالْفَخْصَ عَنْ مَكْسَبِهِ، لَا عَنْ حَسَبِهِ، وَكَثُرَ سَمْعُ أَنْ الْمَعَايِشِ: إِمَارَةٌ، وَتِجَارَةٌ،
وَزَرَاعَةٌ، وَصِنَاعَةٌ. (المقامات 405 صادر - بيروت 1987)، شرح المقامات للشريشي 5: 326 (تحقيق أبو
الفضل إبراهيم. القاهرة 1976) .

وأما التجارة، وإن كانت طبيعية في الكسب، فالأكثر من طرقها ومذاهبها إنما هي تحيلات في الحصول على ما بين القيمتين في الشراء والبيع، لتحصل فائدة الكسب من تلك الفضلة. ولذلك أباح الشرع فيه المكايسة لما أتته من باب المقامرة، إلا أنه ليس أخذاً للمال من الغير مجاناً. فلهذا اختص بالمشروعية. والله أعلم.

5

3 * فصل، في أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعي

أما السلطان، فلا بد له من اتخاذ الخدمة في سائر أبواب الإمارة والملك الذي هو بسيله، من الجندي والشرطي والكاظم. ويستكفي في كل باب / بمن يعلم غناه فيه، ويتكفل بأرزاقهم من بيت ماله. وهذا كله مُندرج في الإمارة ومعايشها، إذ كلهم يتسحب عليهم حكم الإمارة، والملك الأعظم هو ينبوع جداولهم.

[264ب]

10

وأما ما دون ذلك من الخدمة، فسببها أن أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته، أو يكون عاجزاً عنها لما ربي عليه من خلق التثعم والترف، فيتخذ من يتولى ذلك له، ويقطعه عليه أجراً من ماله. وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولة الطبيعية للإنسان؛ إذ الثقة بكل أحد عجز، ولأنها تزيد في الوظائف والخرج، وتدل على العجز والخنث الذي ينبغي في مذاهب الرجولة التثرة عنهما. إلا أن العوائد [تقلب] ⁽¹⁾ طبائع الإنسان إلى مألوفها. فهو ابن عوائده لا ابن نسيه.

15

(1) من ع، وفي ط ج ي: تقلب.

ومع ذلك، فالخديم الذي يُستكفى به ويوثق بغنائه كالمفقود. إذ الخديم القائم بذلك لا يَعدو أربع حالات: إما مُضطلعٌ بأمره موثوق فيما يَحصل بيده، وإما بالعكس فيها، وهو أن يكون غير مُضطلعٍ بأمره ولا موثوقٍ فيما يَحصل بيده، وإما بالعكس في إحداهما فقط، مثل أن يكون مُضطلعاً غير موثوق، أو موثقاً غير مُضطلع. فأما الأول، وهو المضطلع الموثوق، فلا يمكن أحداً استعماله بوجه، إذ 5 هو باضطلاعاً وثقتُه غنيٌّ عن أهل الرتب الدنيا، ومُختَصَرٌ لِمَنال الأجر من الخدمة لاقتداره على أكثر من ذلك. فلا يَسْتَعْمِلُهُ إلاّ الأمراء أهل الجاه العريض، لعموم الحاجة إلى الجاه. وأما الصنف الثاني، وهو مَنْ ليس بمُضطلع ولا موثوق، فلا ينبغي لعقل استعماله، لأنه مُجْحَفٌ بمخدومه في الأمرين معاً. فيُضَيِّعُ عليه بعدم الاضطلاع 10 تارة، ويذهب ماله بالخيانة أخرى، فهو كَلٌّ على مولاه. فهذان الصنفان لا يَطْمَعُ أحدٌ في استعمالهما. ولم يَتَّقِ إلاّ استعمال الصنفين الآخرين: موثوق غير مُضطلع، ومُضطلع غير موثوق. وللتناس في الترجيح بينهما مذهبان، ولكلٌّ من الترجيحين وجه. إلاّ أن المضطلع ولو كان غير موثوق / أَرْجَحُ، لأنه يُؤْمَنُ من تَضْيِيعه ويُحَاوَلُ على التَّحَرُّزِ من خيانتِه بِجُهْدِ الاستِطاعة. وأما المُضَيِّع ولو كان مأموناً، فضرره بالتضييع 15 أَكْثَرُ من نفعه. فاعلم ذلك واتَّخِذْه قانُوناً في الاستِكَفاء بالخدمة. والله قادرٌ على ما يَشَاء.

4 • فَصْلٌ، فِي أَنْ ابْتِغَاءِ الْأَمْوَالِ مِنَ الدَّفَائِنِ وَالْكُنُوفِ لَيْسَ بِمَعَاشٍ طَبِيعِيٍّ

اعْلَمْ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ ضُعْفَاءِ الْعُقُولِ فِي الْأَمْصَارِ يَحْرِصُونَ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ
مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ، يَبْتَغُونَ الْكَسْبَ مِنْ ذَلِكَ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَمْوَالَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ
مُخْتَبِئَةٌ كُلُّهَا تَحْتِ الْأَرْضِ، مَخْتُومٌ عَلَيْهَا بِطَلَاسِمٍ سِحْرِيَّةٍ لَا يَقْضِي خَتَامُهَا ذَلِكَ إِلَّا
مِنْ عَثَرٍ عَلَى عِلْمِهِ ⁽¹⁾، وَاسْتَحْضَرَ مَا يَحُلُّهُ مِنَ الْبُخُورِ وَالْذَّعَاءِ وَالْقُرْبَانِ.

فَأَهْلُ الْأَمْصَارِ بِإِفْرِيقِيَّةٍ، يَرُونَ أَنَّ الْإِفْرِنجَةَ الَّذِينَ كَانُوا بِهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ دَفَنُوا
أَمْوَالَهُمْ كَذَلِكَ، وَأَوْدَعُوهَا فِي الصُّخُفِ بِالْكِتَابِ إِلَى أَنْ يَجِدُوا السَّبِيلَ إِلَى
اسْتِخْرَاجِهَا. وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ بِالْمَشْرِقِ يَرُونَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي أُمَمِ الْقَيْطِ وَالرُّومِ
وَالْفَرَسِ، وَيَتَنَاقِلُونَ ذَلِكَ فِي أَحَادِيثَ تُشَبِّهُ حَدِيثَ خُرَافَةٍ، مِنْ انْتِهَاءِ بَعْضِ
الطَّالِبِينَ لَذَلِكَ إِلَى حَفْرِ مَوْضِعِ الْمَالِ مِمَّنْ لَمْ يُعْرِفْ طَلْسُمُهُ وَلَا خَبْرُهُ، فَيَجِدُونَهُ
خَلُوءًا أَوْ مَعْمُورًا بِالْأَيْدِيَانِ، أَوْ يُشَارِفُ الْأَمْوَالَ وَالْجَوَاهِرَ مَوْضُوعَةً وَالْحَرَسَ دُونَهَا
مُنْتَصِفِينَ سُيُوفَهُمْ، أَوْ تَمِيدُ بِهِ الْأَرْضُ حَتَّى يَظُنَّهَ حَسَفًا، أَوْ مِثْلَ ذَلِكَ مِنَ الْهَذَرِ.

وَتَجِدُ كَثِيرًا مِنْ طَلَبَةِ الْبَرِّ بِالْمَغْرِبِ، الْعَاجِزِينَ عَنِ الْمَعَاشِ الطَّبِيعِيِّ وَأَسْبَابِهِ،
يَتَقَرَّبُونَ إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا بِالْأَوْرَاقِ الْمُتَخَرِّمَةِ الْحَوَاشِي، إِمَّا بِخُطُوطِ أَعْجَمِيَّةٍ، أَوْ بِمَا
تُرْجِمُهُ بَرْعُهُمْ مِنْهَا مِنْ خُطُوطِ أَهْلِ الدَّفَائِنِ، بِإِعْطَاءِ الْأَمَارَاتِ عَلَيْهَا فِي أَمَاكِنِهَا،
يَبْتَغُونَ بِذَلِكَ الرِّزْقَ مِنْهُمْ، بِمَا يَبْتَغُونَهُمْ عَلَى الْحَفْرِ وَالطَّلَبِ، وَيُؤْمَوِّهُونَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ إِنَّمَا
حَمَلَهُمْ عَلَى الِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ طَلَبُ الْجَاهِ فِي مِثْلِ هَذَا مِنْ مَنَالِ الْحُكَّامِ وَالْعُقُوبَاتِ.

(1) ج: عمله .

وَرُبَّمَا تَكُونُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ نَادِرَةً أَوْ غَيْبَةً مِنَ الْأَعْمَالِ السُّخْرِيَّةِ يُؤَمُّوهُ بِهَا عَلَى تَصْدِيقِ مَا بَقِيَ / مِنْ دَعْوَاهُ ، وَهُوَ بِمَغْزِلٍ عَنِ السَّخْرِ وَطُرُقِهِ ؛ فَيُولَعُ الْكَثِيرُ مِنْ ضُعْفَاءِ الْعُقُولِ بِجَمْعِ الْأَيْدِي عَلَى الْإِخْتِفَارِ ، وَالنَّسْتَرِ فِيهِ بَطْلَمَاتٍ اللَّيْلِ مَخَافَةَ الرُّقْبَاءِ وَغَيُونَ أَهْلِ الدَّوْلِ ^(١) . فَإِذَا لَمْ يَغْتَرُوا عَلَى شَيْءٍ رَدُّوا ذَلِكَ إِلَى الْجَهْلِ بِالطَّلَسْمِ الَّذِي خُتِمَ بِهِ عَلَى ذَلِكَ الْمَالِ ، يُخَادِعُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ عَنْ إِخْفَاقِ مَطَامِعِهِمْ . 5

وَالَّذِي يَحْمِلُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْغَالِبِ ، زِيَادَةُ عَلَى ضَعْفِ الْعَقْلِ ، إِنَّمَا هُوَ الْعَجْزُ عَنْ طَلَبِ الْمَعَاشِ بِالْوُجُوهِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْكَسْبِ مِنَ التَّجَارَةِ ، وَالْفَلْحِ ، وَالصَّنَاعَةِ . فَيُظَلِّبُونَهُ بِالْوُجُوهِ الْمُتَحَرِّفَةِ ، وَعَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الطَّبِيعِيِّ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ ، عَجْزاً عَنْ السَّغْيِ فِي الْمَكَاسِبِ ، وَرُكُوناً إِلَى تَنَاوُلِ الرِّزْقِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ فِي تَحْصِيلِهِ وَاكْتِسَابِهِ . 10 وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يُوقِعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِثْنَاءِ ذَلِكَ ، مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ ، فِي نَصَبٍ وَمَتَاعِبٍ وَجُحْدٍ شَدِيدٍ أَشَدَّ مِنَ الْأَوَّلِ ، وَيُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ - مَعَ ذَلِكَ - لِمَنَالِ الْعُقُوبَاتِ .

وَرُبَّمَا يَحْمِلُ - فِي الْأَكْثَرِ - عَلَى ذَلِكَ ، زِيَادَةُ التَّرَفِ وَعَوَائِدُهُ ، وَخُرُوجُهَا عَنْ حَدِّ النَّهَايَةِ حَتَّى تَقْصُرَ عَنْهَا وَجْوهُ الْكَسْبِ وَمَذَاهِبُهُ ، وَلَا تَقِي بِمَطَالِبِهَا . فَإِذَا عَجَزَ لَهُ الْكَسْبُ بِالْمَجْرَى الطَّبِيعِيِّ ، لَمْ يَجِدْ وَلِيَجَّةً فِي نَفْسِهِ إِلَّا التَّمَنِّيَ لَوْجُودِ الْمَالِ الْعَظِيمِ 15 دَفْعَةً مِنْ غَيْرِ كُلْفَةٍ ، لِيَفِي لَهُ ذَلِكَ بِالْعَوَائِدِ الَّتِي حَصَلَ فِي أَسْرَهَا ، فَيَخْرُصُ عَلَى ابْتِغَاءِ ذَلِكَ وَيَسْعَى فِيهِ جُهْدَهُ . وَلِهَذَا ، أَكْثَرُ مَنْ تَرَاهُمْ يَخْرُصُونَ عَلَى ذَلِكَ هُمْ

(١) ج: الدَّوْلَةُ .

الْمُتْرَفُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّوَلِ، وَمِنْ سُكَّانِ الْأَمْصَارِ الْكَثِيرَةِ التَّرَفِ، الْمَتَّسِعَةِ الْأَحْوَالِ،
مِثْلَ مِصْرَ وَمَا فِي مَغْنَاهَا، تَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ مُغْرَمِينَ بِابْتِغَاءِ ذَلِكَ وَتَحْصِيلِهِ، وَمُسَاءَلَةِ
الرُّكْبَانِ عَنْ شَوَادِهِ، كَمَا يَخْرِصُونَ عَلَى الْكِيَاءِ.

هكذا يتلغنا عن أهل مصر في مفاوِضة من يلقونه من طلبية المغاربة، لعلهم
يعثرون منه على دفين أو كنز. ويزيدون على^(١) ذلك البحث عن تغوير المياه،
لما يرون أن غالب هذه الأموال الدفينة كلها في مجاري النيل، وأنه أعظم ما يستتر
دفيناً أو مختزناً في تلك الآفاق. / ويؤمّوه عليهم أصحاب تلك الدفائر المستفحلة في
الاغتدار عن الوصول إليها بجزية النيل، تستراً بذلك من^(ب) الكذب، حتى يحصل
على معاشه. فيخرض سامع ذلك منهم على نضوب الماء بالأعمال السحرية لتحصيل
ما ابتغاه من بعده، كلفاً بشأن السحر متوازناً في ذلك القطر عن أوليهم. فعلوهم
السحرية وآثارها باقية بأرضهم في البرابي وغيرها، وقصة سحرة فرعون شاهدة
باختصاصهم بذلك.

وقد يتناقل أهل المغرب قصيدة ينسبونها إلى حكماء المشرق، يُعطى فيها
كيفية العمل في التغوير^(ج) بصناعة سحرية حسناً تراه فيها، وهي: [من الكامل]

يا طالباً للسر في التغوير استمع كلام الصدق من خبير^(د)
دع عنك ما قد صنفوا في كتبهم من قول بهتان ولفظ غرور
واستمع لصديق مقالتي ونصيحتي إن كنت ممن لا يرى بالزور

(١) ع ي ج: إل (ب) سقط من ي (ج) ي: بالتغوير (د) ورد هذا التجز هكذا على بحر الرجز .

فَإِذَا أَرَدْتَ تَعَوُّرَ الْبَيْرِ الَّتِي حَارَتْ لَهَا الْأَفْهَامُ فِي التَّدْبِيرِ
 صَوَّرَ كَصُورَتِكَ الَّتِي أَوْقَفَتْهَا وَالرَّأْسُ رَأْسُ الشُّبْلِ فِي التَّقْوِيرِ
 وَيَدَاهُ مَاسِكَتَانِ لِلْحَبْلِ الَّذِي فِي الدَّلْوِ يُنْشَلُ مِنْ قَرَارِ الْبِيرِ
 وَبَصْدَرُهُ هَاءٌ كَمَا عَايَنْتَهَا عَدَدَ الطَّلَاقِ اخْذَرْ مِنَ التَّكْثِيرِ
 وَيَطَا عَلَى الطَّائَاتِ غَيْرَ مُلَامِسٍ مَشْيِ اللَّيْبِ الْكَيْسِ النَّحْرِ
 وَيَكُونُ حَوْلَ الْكُلِّ خَطٌّ دَائِرٌ تَزْيِيعُهُ أَوَّلَى مِنَ التَّكْوِيرِ
 وَادْبَحْ عَلَيْهِ الطَّيْرَ وَالطَّخْهُ بِهِ وَاقْصِدْ عُقَيْبَ الذَّبْحِ بِالتَّبْخِيرِ
 بِالسُّنْدَرُوسِ وَبِاللَّبَانِ وَمَايَعُهُ وَالْقُسْطِ وَالْبِسْهُ بِثَوْبٍ حَرِيرِ
 مِنْ أَحْمَرٍ أَوْ أَصْفَرٍ لَا أَرْقِي لَا أَخْضِرَ فِيهِ وَلَا تَكْذِيرِ
 وَيَشُدُّهُ خَيْطَانُ صَوْفٍ أَيْضُ أَوْ أَحْمَرٍ مِنْ خَالِصِ التَّخْمِيرِ
 وَالطَّلَعُ الْأَسَدُ الَّذِي قَدْ يَنْنَوَا وَيَكُونُ بَذْرُ الشَّهْرِ غَيْرَ مُنِيرِ
 وَالْبَذْرُ مُتَّصِلٌ بِسَعْدِ غُطَارِدٍ فِي يَوْمِ سَبْتِ سَاعَةِ التَّدْبِيرِ

5

10

/ يَغْنِي تَكُونُ الطَّائَاتُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ كَأَنَّهُ يَمْشِي عَلَيْهَا.

[266ب]

وَعِنْدِي ، أَنَّ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ مِنْ تَقْوِيَّاتِ الْمُخْرَقِينَ ، فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ أَحْوَالٌ
 غَرِيبَةٌ وَاصْطِلَاحَاتٌ عَجِيبَةٌ. وَتَنْتَهِي الْمُخْرَقَةُ وَالْكَذِبُ بِهِمْ إِلَى أَنْ يَسْكُنُوا الْمَنَازِلَ
 الْمَشْهُورَةَ وَالْدُّورَ الْمَعْرُوفَةَ بِمِثْلِ هَذَا ، وَيَحْتَفِرُونَ بِهَا الْحَفَرَ ، وَيَضَعُونَ فِيهَا الْمَطَابِقَ
 وَالشَّوَاهِدَ الَّتِي يَكْتُبُونَهَا فِي صَحَائِفٍ كَذِبِهِمْ ، ثُمَّ يَقْصِدُونَ ضُعْفَاءَ الْعُقُولِ بِأَمْثَالِ هَذِهِ
 الصُّحَائِفِ ، وَيَبْعَثُونَهُ عَلَى أَكْثَرِ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ وَسُكْنَاهُ ، وَيُوهَمُونَهُ أَنَّ بِهِ دَفِينًا مِنَ الْمَالِ
 لَا يُغْبَرُ عَنْ كَثْرَتِهِ ، وَيُطَالِبُونَهُ بِالْمَالِ لِاشْتِرَاءِ الْعَقَاقِيرِ وَالْبُخُورَاتِ لِحُلِّ الطَّلَاسِمِ ،

15

وَيَعِدُونَهُ بِظُهُورِ الشَّوَاهِدِ الَّتِي قَدْ أَعَدُّوْهَا هُنَاكَ بِأَنْفُسِهِمْ وَمِنْ فِعْلِهِمْ. فَيَنْبَغُ بِمَا يَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ قَدْ خُدِعَ وَلَبَّسَ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ. وَبَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ اضْطِلَاحٌ فِي كَلَامِهِمْ يَلْبَسُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ، لَتَخْفَى عَنْهُمْ مُحَاوَرَتُهُمْ فِيمَا يَتَنَاوَلُونَهُ مِنْ حَفَرٍ، وَبُخُورٍ، وَذَبْحِ حَيَوَانٍ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ - عَلَى الْحَقِيقَةِ - فَلَا أَضَلَّ لَهُ فِي عِلْمٍ وَلَا خَبَرٍ.

5

وَاعْلَمْ أَنَّ الْكُنُوزَ وَإِنْ كَانَتْ تَوْجَدُ، لَكُنْهَا فِي حُكْمِ التَّادِيرِ وَعَلَى وَجْهِ الْإِتِّفَاقِ، لَا عَلَى وَجْهِ الْقَصْدِ إِلَيْهَا. وَلَيْسَ ذَلِكَ بِأَمْرٍ تَعْمُّ بِهِ الْبَلَاوَى حَتَّى يَذْخَرَ النَّاسُ غَالِبًا أَمْوَالَهُمْ تَحْتَ الْأَرْضِ وَيَخْتُمُوا عَلَيْهَا بِالطَّلَاسِمِ، لَا فِي الْقَدِيمِ وَلَا فِي الْحَدِيثِ. وَالزَّكَازُ الَّذِي وَرَدَ^(١) فِي الْحَدِيثِ^(١) وَفَرَضَهُ الْفُقَهَاءُ، وَهُوَ دَفْنُ الْجَاهِلِيَّةِ، إِنَّمَا يَوْجَدُ بِالْعُثُورِ وَالْإِتِّفَاقِ، لَا بِالْقَصْدِ وَالطَّلَبِ. وَأَيْضًا فَمَنْ اخْتَرَنَ مَالَهُ وَخَتَمَ عَلَيْهِ بِالْأَعْمَالِ السَّحَرِيَّةِ فَقَدْ بَالِغٌ فِي إِخْفَائِهِ، فَكَيْفَ يَنْصَبُ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ وَالْأَمَارَاتُ لِمَنْ يَنْتَغِيهِ، وَيَكْتَسِبُ ذَلِكَ فِي الصَّحَائِفِ حَتَّى يَطَّلَعَ عَلَى ذَخِيرَتِهِ أَهْلُ الْأَعْصَارِ وَالْآفَاقِ؟ هَذَا يُنَاقِضُ قَصْدَ الْإِخْفَاءِ. وَأَيْضًا، فَأَفْعَالُ الْعُقْلَاءِ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ لَغَرَضٍ مَقْصُودٍ فِي الْإِتِّفَاقِ؛ وَمَنْ اخْتَرَنَ الْمَالَ فَإِنَّمَا^(ب) يَخْتَرِنُهُ لَوْلَاهُ أَوْ قَرِيْبِهِ أَوْ مَنْ يُؤَثِّرُهُ بِهِ، وَأَمَّا أَنْ يَقْصِدَ إِخْفَاءَهُ بِالْكَلِيَّةِ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا هُوَ لِلْبَلَى / وَالْهَلَاكِ، أَوْ لِمَنْ لَا يَعْرِفُهُ بِالْكَلِيَّةِ مِّنْ سِيَّاقِي مِنَ الْأَمَمِ، فَهَذَا لَيْسَ مِنْ مَقَاصِدِ الْعُقْلَاءِ بِوَجْهِهِ.

[267]

(١) ألحق في حاشية ع وانطس جزء منها (ب) ي: فاته .

(١) يريد حديث "وفي الزَّكَازِ الْحُسُ" ، وهو حديث أخرجه مالك في الموطأ (671) و (2541) برواية الليثي والبخاري (1499) و (2355) و (6912) و (6913) ومسلم (1710) من حديث أبي هريرة .

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: أَيْنَ أَمْوَالُ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِنَا وَمَا عِلْمُ فِيهَا مِنَ الْكَثْرَةِ وَالْوُفُورِ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمْوَالَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْأَمْنَعَةِ إِنَّمَا هِيَ مَعَادِنُ وَمَكَاسِبُ، مِثْلُ الْحَدِيدِ وَالنُّحَاسِ وَالرَّصَاصِ وَسَائِرِ الْعَقَارَاتِ وَالْمَعَادِنِ، وَالْعُمُرَانِ يُظْهِرُهَا بِالْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَيَزِيدُ فِيهَا أَوْ يُنْقِصُهَا. وَمَا يَوْجَدُ مِنْهَا بِأَيْدِي النَّاسِ فَهُوَ مُتَنَاقِلٌ مُتَوَارِثٌ، وَرَبَّمَا انْتَقَلَ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ وَمِنْ دَوْلَةٍ إِلَى [دَوْلَةٍ] ^(أ) أُخْرَى بِحَسَبِ أَعْوَاضِهِ ^(ب) 5 وَالْعُمُرَانِ الَّذِي يَسْتَدْعِيهِ. فَإِنْ نَقَصَ الْمَالُ فِي الْمَغْرِبِ وَإِفْرِيقِيَّةَ، فَلَمْ يَنْقُصْ فِي بِلَادِ الصَّقَالِيَةِ وَالْإِفْرِجَةِ. وَإِنْ نَقَصَ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ، فَلَمْ يَنْقُصْ فِي الْهِنْدِ وَالصِّينِ. وَإِنَّمَا هِيَ آلَاتٌ وَمَكَاسِبُ، وَالْعُمُرَانُ يُؤَفِّرُهَا أَوْ يُنْقِصُهَا. مَعَ أَنَّ الْمَعَادِنَ يُدْرِكُهَا الْبَلَى كَمَا يُدْرِكُ سَائِرَ الْمَوْجُودَاتِ، وَيُسْرِعُ إِلَى اللَّوْلُؤِ وَالْجَوَاهِرِ أَعْظَمَ مِمَّا يُسْرِعُ إِلَى غَيْرِهِ. وَكَذَا 10 الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالنُّحَاسُ وَالْحَدِيدُ وَالرَّصَاصُ وَالْقَصْدِيرُ يَنَالُهَا مِنَ الْبَلَى وَالْفَنَاءِ مَا يَذْهَبُ بِأَعْيَانِهَا لِأَقْرَبِ وَقْتٍ.

وَأَمَّا مَا وَقَعَ فِي مِصْرَ مِنْ أَمْرِ الْمَطَالِبِ وَالْكُنُوزِ، فَسَبَبُهُ أَنَّ مِصْرَ كَانَتْ فِي مَلَكَةِ الْقَيْطِ مُنْذُ [الْفَيْنِ اثْنَيْنِ] ^(ج) أَوْ تَزِيدُ مِنَ السِّنِينَ. وَكَانَ مَوْتَاهُمْ يُدْفَنُونَ بِمَوْجُودِهِمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْجَوَاهِرِ وَاللَّالِئِ عَلَى مَذْهَبٍ مِنْ تَقَدَّمَ مِنْ أَهْلِ الدُّوَلِ. فَلَمَّا انْقَرَضَتْ دَوْلَةُ الْقَيْطِ، وَمَلَكَ الْفُرْسُ بِلَادَهُمْ، نَقَرُوا عَنْ ذَلِكَ فِي قُبُورِهِمْ 15 وَكَشَفُوا عَنْهُ. فَأَخَذُوا مِنْ قُبُورِهِمْ مَا لَا يَوْصَفُ، كَالْأَهْرَامِ مِنْ قُبُورِ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهَا. وَكَذَا فَعَلَ الْيُونَانِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَصَارَتْ قُبُورُهُمْ مَطْنَةً لَذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ، وَيُعْتَرِ

(أ) من ي (ب) من ط ج ي: وفي ع: أعراضه (ج) من ع، وفي ط ج ي: ألف .

على الدّفين فيها في كثيرٍ من الأوقات. أمّا ما يذفنونه من أمّواتهم، أو ما يكرّمون به مَوْتاهم في الدّفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضّة مُعدّة لذلك، / فصارت قبورُ القبط - منذ آلاف من السنين - مَظنّة لوجود ذلك فيها واستخراجها. حتّى أنّهم حين ضُربت المكوش على الأضناف آخِر الدّول، ضُربت على أهل المطالب، وصارت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحمقى والمهوسين. فوجد بذلك المتعاطون 5 له من أهل الأطماع الدريعة إلى الكشف عنه والزّعم باستخراجه. وما حصلوا إلّا على الخيبة في جميع مساعيهم. نعوذُ بالله من الخسران؛ فيحتاج مَنْ دُفع إلى شيء من هذا الوسواس أو ابتلي به، أن يتعوذَ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه، كما تعوّد رسولُ الله ﷺ⁽¹⁾ من ذلك، ويتصرّف عن طُرق الشيطان ووسواسه، ولا يشغل نفسه بالمحالات والكاذب من الحكايات. ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ 10 يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [سورة البقرة، من الآية 212].

5 • فصل، في أن الجاه مُفيدٌ للمال

وذلك أنّنا نجدُ صاحبَ الجاه⁽¹⁾ والخطوة في جميع أصناف المعاش أكثرَ يساراً وثروةً من فاقِد الجاه. والسببُ في ذلك أنّ صاحبَ الجاه مَخدومٌ بالأعمال، يُتقَرَّب بها إليه في سبيل التزلف والحاجة إلى جاهه. فالتّاس مُعيّنون^(ب) له بأعمالهم في جميع 15

(1) ي: المال (ب) ي ج: معيون.

(1) أخرجه البخاريّ (2823) و (4707) و (6367) و (6371) ومسلم (2706) من حديث أنس بن مالك .

حاجاته، من ضروريّ أو حاجيّ أو كماليّ، فتتَّحَصَّلُ قِيَمُ تلك الأعمال كلّها من كُنْبِهِ. وجميع ما شأنه أن تُبَدَلَ فيه الأعْوَاضُ من العَمَلِ، يَسْتَعْمَلُ فيها النَّاسُ من غَيْرِ عَوَضٍ، فتتَوَفَّرُ قِيَمُ تلك الأعمال عليه. فهو بَيْنَ قِيَمِ للأعمال يَكْتَسِبُها، وقِيَمِ أُخْرَى تَدْعُوهُ الصُّرُورَةُ إلى إخراجها فتتَوَفَّرُ عليه. والأعمالُ لصاحبِ الجاهِ كثيرةٌ، 5 فيفيدُ الغنى لأقربِ وقتٍ، ويزدادُ مع الأيامِ يساراً وثروةً. ولهذا المعنى كانت الإِمَارَةُ أحدَ أسبابِ المعاشِ، كما قَدَّمْنَاهُ.

وفاقدُ الجاهِ بالكُلِّيَّةِ - ولو كان صاحبَ مالٍ - فلا يكونُ يَسَارُهُ إلا بمقدارِ ماله وعلى نِسْبَةِ سَعْيِهِ، وهؤلاءُ هُمُ أَكْثَرُ التُّجَّارِ. ولهذا تَجِدُ أَهْلَ الجاهِ منهم يكونونَ أَيْسَرَ بكثيرٍ.

10 ومَّا يَشْهَدُ لذلك، أَنَّا نَجِدُ كَثِيراً من الفُقهاءِ وأَهْلِ الدِّينِ والعبادة، إذا اشْتَهَرَ حُسْنُ الظَّنِّ بِهِمْ، واعتقدَ الجمهورُ معاملَةَ الله في إزْفادِهِمْ، فأَخْلَصَ النَّاسُ في إعَاتِهِمْ على أحوالِ دُنْيَاهُمْ والاعتِمَالِ في مَصَالِحِهِمْ، / أَسْرَعَتْ إِلَيْهِمُ الثَّرْوَةُ، وأَضْبَحُوا مِياسِيرَ من غَيْرِ مالٍ مُقْتَنَى، إلا ما يَحْضُلُ لَهُمْ من قِيَمِ الأعمالِ التي وَقَعَتِ المَعُونَةُ بها من النَّاسِ لَهُمْ. رَأَيْنَا من ذلك أَعْدَاداً في الأَمْصارِ والمُدُنِ وفي البَدْوِ، يَسْعَى لَهُمُ 15 النَّاسُ فِي الفَلَحِ والتَّجَرِ وهو قَاعِدٌ بِمَنْزِلِهِ، لا يَبْرُحُ من مَكَانِهِ. فَيَنْمُو مَالُهُ، وَيَعْظُمُ كُنْبُهُ، وَيَتَأَثَّلُ الغنى من غَيْرِ سَعْيٍ. وَيَعْجَبُ من لا يَقْطُنُ لهذا السِّرِّ في حالِ ثَرَوَتِهِ، وَأَسْبَابِ غِنَاهُ وَيَسَارِهِ. ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة البقرة، من الآية 212].

6 • فصل، في أَنَّ السَّعَادَةَ وَالْكَسْبَ إِنَّمَا تَحْصُلُ غَالِبًا لِأَهْلِ الْخُضُوعِ
وَالْمَلَقِ^(١)، وَأَنَّ هَذَا الْخُلُقَ مِنْ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ

قد سبق لنا فيما سلف أَنَّ الْكَسْبَ الَّذِي يَسْتَفِيدُهُ الْبَشَرُ إِنَّمَا هُوَ قِيَمُ
أَعْمَالِهِمْ. وَلَوْ قُدِّرَ أَحَدٌ عَاطِلًا عَنِ الْعَمَلِ جُمْلَةً لَكَانَ فَاقِدًا لِلْكَسْبِ بِالْكَلِّيَّةِ. وَعَلَى
قَدْرِ عَمَلِهِ وَشَرْفِهِ بَيْنَ الْأَعْمَالِ وَحَاجَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ يَكُونُ قَدْرُ قِيَمَتِهِ، وَعَلَى نِسْبَةِ 5
ذَلِكَ نُمُو كَسْبِهِ أَوْ نُقْصَانُهُ. وَقَدْ بَيَّنَّا آتِفًا أَنَّ الْجَاهَ يُفِيدُ الْمَالَ بِمَا يَحْصُلُ لِصَاحِبِهِ مِنْ
تَقَرُّبِ النَّاسِ إِلَيْهِ بِأَعْمَالِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فِي دَفْعِ الْمَضَارِّ وَجَلْبِ الْمَنَافِعِ. وَكَأَنَّ مَا يَتَقَرَّبُونَ
بِهِ مِنْ عَمَلٍ أَوْ مَالٍ عَوَظٌ عَمَّا يَحْصُلُونَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ الْجَاهِ مِنْ كَثِيرٍ^(ب) الْأَعْرَاضِ
فِي صَالِحٍ أَوْ طَالِحٍ، وَتَصِيرُ تِلْكَ الْأَعْمَالُ فِي كَسْبِهِ، وَقِيَمُهَا أَمْوَالٌ وَثَرَوَةٌ لَهُ،
فَيَسْتَفِيدُ الْغِنَى وَالْيَسَارَ لِأَقْرَبِ وَقْتٍ.

10

ثُمَّ إِنَّ الْجَاهَ مُتَوَزِّعٌ فِي النَّاسِ وَمُتَرَتَّبٌ فِيهِمْ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ، يَنْتَهِي فِي الْعُلُوِّ
إِلَى الْمُلُوكِ الَّذِينَ لَيْسَ فَوْقَهُمْ يَدٌ غَالِبَةٌ، وَفِي السُّفْلِ عَلَى مَنْ لَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا
بَيْنَ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ. وَيَبْدَأُ ذَلِكَ طَبَقَاتٍ مُتَعَدِّدَةً، حِكْمَةً مِنَ اللَّهِ فِي خَلِيقَتِهِ بِمَا يَنْتَظِمُ
إِلَيْهِ^(ج) مَعَاشُهُمْ، وَتَتَبَسَّرُ مَصَالِحُهُمْ، وَيَتِمُّ بَقَاؤُهُمْ. لِأَنَّ التَّوَعُّدَ الْإِنْسَانِيَّ لَمَّا كَانَ لَا يَتِمُّ
وَجُودُهُ وَبَقَاؤُهُ إِلَّا بِتَعَاوُنِ أَبْنَائِهِ عَلَى مَصَالِحِهِمْ، لِأَنَّهُ قَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَا يَتِمُّ 15
وَجُودُهُ، وَأَنَّهُ وَإِنْ نَدَّرَ ذَلِكَ فِي صُورَةٍ مَفْرُوضَةٍ، فَلَا يَصِحُّ بَقَاؤُهُ.

ثُمَّ إِنَّ هَذَا التَّعَاوُنَ لَا [يَحْصُلُ]^(د) إِلَّا بِالْإِكْرَاهِ عَلَيْهِ، لَجَهْلِهِمْ فِي الْأَكْثَرِ بِمَصَالِحِ

(١) ي: الملق (ب) سقط من ي (ج) زيادة يقتضيا السياق (د) ظ: يصلح.

التَّوَعُّع، وَلَمَّا ^(أ) جُعِلَ لَهُمُ مِنَ الْاِخْتِيَارِ، وَأَنَّ أَفْعَالَهُمْ إِنَّمَا تَصْدُرُ / بِالْفِكْرِ وَالرَّوْبَةِ لَا
 بِالطَّنْعِ، فَقَدْ يَمْتَنِعُ مِنَ الْمَعَاوَةِ، فَيَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَيْهَا. فَلَا بُدَّ مِنْ حَامِلٍ يُكْرِهُ أَبْنَاءَ التَّوَعُّعِ
 عَلَى مَصَالِحِهِمْ لِتَمِّمِ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ فِي بَقَاءِ هَذَا التَّوَعُّعِ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ [تَعَالَى] ^(ب) :
 ﴿ وَرَفَعْنَا ^(ج) بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْطَانًا وَرَحْمَةً
 5 رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [سورة الزخرف، من الآية 32].

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْنَى الْجَاهِ هُوَ الْقُدْرَةُ الْحَاصِلَةُ ^(د) لِلْبَشَرِ عَلَى التَّصَرُّفِ فِيمَنْ
 تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ بِالْإِذْنِ وَالْمَنْعِ وَالتَّسْلُطِ فِيهِمْ بِالْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ لِيَحْمِلَهُمْ
 عَلَى دَفْعِ مَضَارِّهِمْ وَجَلْبِ مَنَافِعِهِمْ فِي الْغَدَلِ، وَبِأَحْكَامِ الشَّرَائِعِ أَوْ السِّيَاسَةِ، وَعَلَى
 أَغْرَاضِهِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ. لَكِنَّ الْأَوَّلَ مَقْصُودٌ فِي الْعِنَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ بِالذَّاتِ ، وَالثَّانِي
 10 دَاخِلٌ فِيهَا بِالْعَرَضِ كَسَائِرِ الشُّرُورِ الدَّاخِلَةِ فِي الْقَضَاءِ الْإِلَهِيِّ. لِأَنَّهُ قَدْ لَا يَمُتُّ
 وَجُودُ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ إِلَّا بِوُجُودِ شَرٍّ يَسِيرٍ مِنْ أَجْلِ الْمَوَادِّ. فَلَا يَقُوتُ الْخَيْرُ لَذَلِكَ،
 بَلْ يَقَعُ عَلَى مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ الْيَسِيرِ. وَهَذَا مَعْنَى وَقُوعِ الظُّلْمِ فِي الْخَلِيقَةِ،
 فَتَفْقَهُمْ.

ثُمَّ إِنَّ كُلَّ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَاقِ أَهْلِ الْعُمُرَانِ مِنْ مَدِينَةٍ أَوْ إِقْلِيمٍ لَهَا قُدْرَةٌ
 15 عَلَى مِنْ دُونِهَا مِنَ الطَّبَاقِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى يَسْتَمِثُّ هَذَا الْجَاهِ مِنْ
 أَهْلِ الطَّبَقَةِ الَّتِي فَوْقَهُ، وَيَزْدَادُ كَاسِبُهُ تَصَرُّفًا فِيمَنْ تَحْتَ يَدِهِ عَلَى قَدْرِ مَا يَسْتَفِيدُ
 مِنْهُ.

(أ) ج: وما (ب) من: ي (ج) جاءت في كل الأصول خطأ: وجعلنا (د) كذا في الأصول، ولعلها: الحاملة.

والجاء مع ذلك داخل على الناس في جميع أبواب المعاش، ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذي فيه صاحبه. فإن كان الجاه متسعاً، كان الكسب الناشئ عنه كذلك، وإن كان ضيقاً وقليلًا، فمثله.

وفاقد الجاه ولو كان له مال، فلا يكون يساره إلا بمقدار عمله أو ماله، وعلى نسبة سعيه ذاهباً وجائياً في تميمته كأكثر التجار وأهل الفلاحة في الغالب. 5 وأهل الصنائع كذلك، إذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنائعهم فإنهم يصيرون إلى الفقر والخصاصة في الأكثر، ولا تُسرِع إليهم ثروة، وإنما⁽¹⁾ يرمقون العيش ترميقاً، ويدفعون ضرورة الفقر مدافعةً.

وإذا تقرر ذلك، وأن الجاه متورّع، وأن السعادة والخير مقترنان بمصوله، 10 عِلِمْتُ أَنَّ بَذْلَهُ وإفادته من / أعظم النعم وأجلها، وأن باذله من أجل المنعمين. وإنما يَبْذُلُهُ لمن تَحْتَ يَدِهِ، فيكون بَذْلُهُ بيدَ عالية وعن عِزَّةٍ، فيحتاج طالبه ومُبتَغِيهِ إلى خُضُوعٍ وتَمَلُّقٍ كما يسأل أهل العزِّ والملوك، وإلا فيتعذر حصوله. فلذلك قلنا: إنَّ الخُضُوعَ والمَلَقَ من أسباب حصول هذا الجاه المُحْصَلِ للسعادة والكسب، وإنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الثَّرْوَةِ والسعادة بهذا الخلق. ولهذا نجدُ الكثيرَ مَن يَتَخَلَّقُ بالتَرَفِّعِ والشَّمَمِ لا يَحْصُلُ لَهُمُ غَرَضٌ مِنَ الْجَاهِ، فيَتَنَصَّرُونَ في التَّكْسِبِ على أعمالهم، ويَصِيرُونَ إلى 15 الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ.

(1) في ع: وإما .

واعلم أن هذا الكبير والترفع من الخلق المذمومة، إنما يحصل من توهم الكمال، وأن الناس يحتاجون إلى بضاعته من علم أو صناعة، كالعالم المتبحر في علمه، والكاظم المجيد في كتابته، والشاعر البليغ في شعره، وكلُّ مُحسن في صناعته يتوهم أن الناس يحتاجون إلى ما بيده، فيحدث له ترفع عليهم بذلك. وكذا 5 يتوهم أهل الأنساب ممن كان في آباءه ملك أو عالم مشهور أو كامل في طور، يفتخرون بما رأوه أو سمعوه من حال آبائهم في المدينة، ويتوهمون أنهم استحقوا مثل ذلك بقرابتهم إليهم ووراثتهم عنهم. فهم مُستَمسكون في الحاضر بالأمر المعلوم، إذ الكمال لا يورث. وكذلك أهل الحنكة والتجارب والبصر بالأمور، قد يتوهم بعضهم كمالاً في نفسه بذلك واحتياجاً إليه.

10 وَتَجِدُ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَافَ كُلَّهُمْ مُتَرَفِّعِينَ لَا يَخْضَعُونَ لِصَاحِبِ جَاءٍ، وَلَا يَتَمَلَّقُونَ لِمَنْ هُوَ أَعْلَى مِنْهُمْ، وَيَسْتَضِعُّونَ مَنْ سِوَاهُمْ لِاعْتِقَادِهِمُ الْفَضْلَ عَلَى النَّاسِ. فَيَسْتَنَكِفُ أَحَدُهُمْ عَنِ الْخُضُوعِ، وَلَوْ كَانَ لِلْمَلِكِ، وَيَعُدُّهُ مَذَلَّةً وَهَوَانًا وَسَفَهًا، وَيُحَاسِبُ النَّاسَ فِي مُعَامَلَتِهِمْ إِيَّاهُ بِمَقْدَارِ مَا يَتَوَهَّمُ فِي نَفْسِهِ، وَيَحْقِدُ عَلَى مَنْ قَصَرَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَتَوَهَّمُهُ مِنْ ذَلِكَ. وَرُبَّمَا يَدْخُلُ عَلَى نَفْسِهِ الْهُمُومَ وَالْأَحْزَانَ مِنْ تَقْصِيرِهِمْ فِيهِ، وَيَسْتَمِرُّ 15 فِي عَنَاءٍ عَظِيمٍ مِنْ إِجْبَابِ الْحَقِّ لِنَفْسِهِ وَإِيَايَةِ النَّاسِ لَهُ مِنْ ذَلِكَ. وَيَحْصُلُ لَهُ الْمُقْتُ فِي النَّاسِ، لَمَّا فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مِنَ التَّأَلُّهِ. وَقَلَّ أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِأَحَدٍ فِي الْكَمَالِ وَالتَّرَفُّعِ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِنَوْعٍ مِنَ الْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ وَالْإِسْطِطَالَةِ. وَهَذَا كُلُّهُ فِي ضَمَنِ الْجَاهِ.

[269ب]

فإذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه، وهو مفقود له كما تبين لك، مَقَّتَهُ النَّاسُ

بهذا الترفع، ولم يحصل له حظ من إحصائهم. ففقد الجاه لذلك من أهل الطبقة التي هي أعلى منه، لأجل المقت وما يحصل له بذلك من القعود عن تعاهدهم وغشيان منازلهم. ففسد معاشه، وبقي في خصاصة وفقر أو فوق ذلك بقليل. وأما الثروة، فلا تحصل له أصلاً. ومن هذا اشتهر بين الناس أن الكامل في المعرفة محروم من الحظ، وأنه قد حوسب بما رزق من المعرفة، واقتطع ذلك له من الحظ. وهذا 5 مغباه. ومن خلق لشيء يسر له. والله المقدر، لا رب سواه.

ولقد يقع في الدول اضطراب في المراتب من أجل هذا الخلق، ويرتفع فيها كثير من السفلة، وينزل كثير من العلية بسبب ذلك. وذلك أن الدول إذا بلغت غايتها من التغلب والاستيلاء، وانفردت منها منبث الملك بملكهم وسُلطانهم، وييس 10 سواهم من ذلك، وإنما صاروا في مراتب دون مرتبة الملك، وتحت يد السلطان وكانهم خول له، فإذا استمرت الدولة، وشمخ الملك، تساوى حينئذ في المنزلة عند السلطان كل من انتهى إلى خدمته وتقرّب إليه بنصيحته، واضطّعه السلطان لغنايه في كثير من مهمّاته. فتجد كثيراً من الشوق يسعى في التقرب من السلطان بجده ونصحه، ويتزلف إليه بوجوه خدمته، ويستعين على ذلك بعظيم من الخضوع والتملق له ولحاشيته وأهل نسيبه، حتى ترسخ قدمه معهم، ويتنظم السلطان في 15 جلته. فيحصل له بذلك حظ عظيم من السعادة، ويتنظم في عداد أهل الدولة.

وناشئة الدولة، حينئذ، من أبناء قومها الذين ذلّلوا صغارها ومهدوا أكفأها،

مُعْتَرُونَ^(١) بما كان لأبائهم في ذلك من الآثار، تَشْمُخُ به نفوسهم على السُّلْطَانِ، وَيَعْتَدُونَ بِآقَارِهِ، وَيَجْرُونَ فِي مِضَارِ الدَّالَّةِ بِسَبَبِهِ. فَيَمُقُّهُمْ السُّلْطَانُ لَذَلِكَ وَيُبَاعِدُهُمْ، وَيَمِيلُ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمُضْطَنِّينَ الَّذِينَ لَا يَعْتَدُونَ بِقَدِيمٍ وَلَا/ يَذْهَبُونَ إِلَى دَالَّةٍ وَلَا تَرْفَعُ، [١270] إِنَّمَا دَأْبُهُمُ الْخُضُوعُ لَهُ وَالتَّمَلُّقُ وَالْاِعْتِمَالُ فِي غَرَضِهِ مَتَى ذَهَبَ إِلَيْهِ. فَيَتَسَّعُ جَاهُهُمْ 5 وَتَعْلُو مَنَازِلُهُمْ، وَتَنْصَرِفُ إِلَيْهِمُ الْوُجُوهُ وَالْخَوَاصُّ بِمَا يَحْضُلُ لَهُمْ مِنْ مِثْلِ السُّلْطَانِ وَالْمَكَانَةِ عِنْدَهُ. وَيَبْقَى نَاشِئَةُ الدَّوْلَةِ فِيهَا هُمْ فِيهِ مِنَ التَّرَفُّعِ وَالْاِعْتِدَادِ بِالْقَدِيمِ، لَا يَرِيدُهُمْ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ مِنَ السُّلْطَانِ وَمَقْتًا، وَإِثَارًا لِهَؤُلَاءِ الْمُضْطَنِّينَ عَلَيْهِمْ، إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ الدَّوْلَةُ. وَهَذَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي الدُّوَلِ، وَمِنْهُ جَاءَ شَأْنُ الْمُضْطَنِّينَ فِي الْغَالِبِ. وَاللَّهُ ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [سورة البروج، من الآية 16].

10 7 ﴿فَصُلِّ، فِي أَنْ الْقَائِمِينَ بِأُمُورِ الدِّينِ مِنَ الْقَضَاءِ وَالْفُتْيَا وَالتَّدْرِيسِ وَالْإِمَامَةِ وَالْمُخَاطَبَةِ وَالْأَذَانِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، لَا تَعْظُمُ ثُرُوتُهُمْ فِي الْغَالِبِ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، أَنَّ الْكَسْبَ، كَمَا قَدَّمَ نَاهُ، قِيَمَةُ الْأَعْمَالِ، وَأَنَّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا. فَإِذَا كَانَتِ الْأَعْمَالُ ضَرُورِيَّةً فِي الْعُمَرَانِ عَامَّةً الْبُلُوى فِيهِ، كَانَتْ قِيَمَتُهَا أَعْظَمَ، وَكَانَتِ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا أَشَدَّ. وَأَهْلُ هَذِهِ الْبَضَائِعِ الدِّينِيَّةِ لَا يُضْطَرُّ 15 إِلَيْهِمْ عَامَّةُ الْخَلْقِ، وَإِنَّمَا يَجْتَاجُ إِلَى مَا عِنْدَهُمُ الْخَوَاصُّ مِمَّنْ أَقْبَلَ عَلَى دِينِهِ. وَإِنْ اخْتَبَجَ إِلَى الْفُتْيَا وَالْقَضَاءِ فِي الْخُصُومَاتِ، فَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْاضْطِرَارِ وَالْعُمُومِ، فَيَقْعُ

(١) من ي ج، وفي ع ط: وَيَجْرُونَ .

الاستِغناء عن هؤلاء في الأكثر، وإنما يَهْتَمُّ [بهم] ^(أ) وبإقامة مراسيمهم صاحب الدولة، بما له من النظر في المصالح. فيقسم لهم حظاً من الرزق على نسبة الحاجة إليهم، على النحو الذي قَرَزناه، لا يساويهم بأهل الشؤكة ولا بأهل الصنائع الضرورية، وإن كانت بضاعتهم أشرف ^(ب) من حيث الدين والمراسم الشرعية. لكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العُمران، فلا يصح في قسمتهم إلا القليل.

وهم أيضاً لشرف ^(ج) بضائعهم أعزّة على الخلق وعند نفوسهم، فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظاً يستديرون به الرزق. بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك، لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة المشتملة على الفكر والبدن ^(د)، بل، ولا يسعهم ابتدال أنفسهم لأهل الدنيا لشرف بضائعهم، / فهم بمغزل عن ذلك. [270ب]

فلذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب.

ولقد باحنت بغض الفضلاء، وتكر ذلك عليّ. فوقع بيدي أوراق مخرّمة من حُسابات الدواوين بدار المأمون، تشتمل على كثير من الدّخل والخرج يومئذ، وكان فيما طالعت فيه أرزاق القضاة والأئمة والمؤدّين، فوقفت عليه، وعلم منه صحة ما قلته، ورجع إليه. وقضينا العجب من أسرار الله في خلقته، وحكمته في عوالمه. والله الخالق المقدّر.

(أ) سقط من ط (ب) سقط من ي (ج) من ع، وفي بقية الأصول: أشرف (د) كذا في الأصول.

8 ﴿ فَضِّلْ، فِي أَنَّ الْفَلَاحَةَ مِنْ مَعَاشِ الْمُسْتَضْعِفِينَ وَأَهْلِ الْعَافِيَةِ مِنَ الْبَدْوِ ⁽¹⁾

وذلك لأنه أصل في الطبيعة وبسيط في منجاءه. ولهذا لا نجد أنه ينتحل أحد من أهل الحضرة في الغالب ولا من المترفين، ويختص منتحل بالمدلة. قال ﷺ ⁽¹⁾، وقد رأى السكة بغض دور الأنصار: "ما دخلت هذه دار قوم إلا دخله الذل". وحمله البخاري على الاستكثار منه، وترجم عليه باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع، أو تجاوز الحد الذي أمر به.

والسبب فيه، والله أعلم، ما يتبعها من المغرم المفضي إلى التحكم واليد الغالبة. فيكون الغارم ذليلاً بائساً بما تتناولهُ أيدي القهر والاستيلاء. قال ﷺ ⁽²⁾: "لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرماً"، إشارة إلى الملك الغضوض القاهر للناس، الذي معه التسلط والجور ونسيان حقوق الله تعالى في المتمولات، واعتبار الحقوق كلها مغارم للملوك والدول. والله قادر على ما يشاء.

(1) سقط من ي .

(1) أخرجه البخاري (2321) وترجم له في "باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع، أو مجاوزة الحد الذي أمر به".

(2) قطعة من حديث طويل في أشراف الساعة، أخرجه الترمذي في جامعه (2210) من حديث علي. وفي (2211) من حديث أبي هريرة، وكلاهما إسناد ضعيف .

9 • فَصْلٌ، فِي مَعْنَى التِّجَارَةِ وَمَذَاهِبِهَا وَأَصْنَافِهَا

اعْلَمْ أَنَّ مَعْنَى التِّجَارَةِ مُحَاوَلَةٌ عَلَى الْكَسْبِ بِنْتُمِيَةِ الْمَالِ فِي شِرَاءِ
السِّلَعَةِ^(١) بِالرُّخْصِ وَيَبْعُهَا بِالْغَلَاءِ، مَا كَانَتْ السِّلَعَةُ، مِنْ رَقِيقٍ، أَوْ زَرْعٍ، أَوْ
حَيَوَانٍ، أَوْ سِلَاحٍ، أَوْ قُلَاشٍ. وَذَلِكَ الْقَدْرُ النَّامِي يُسَمَّى رِبْحًا. وَالْمُحَاوَلَةُ لِذَلِكَ الرَّبْحِ
إِمَّا بِأَنْ تُخْتَزَنَ السِّلَعَةُ وَيُتَحَيَّنَ بِهَا حَوَالَةُ السُّوقِ مِنَ الرُّخْصِ إِلَى الْغَلَاءِ، فَيُعْظَمُ 5
رِبْحُهُ. وَإِمَّا بِأَنْ يَنْقَلَهُ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ تَنْفَقُ فِيهِ تِلْكَ السِّلَعَةُ أَكْثَرَ مِنْ بَلَدِهِ الَّذِي اشْتَرَاهَا
فِيهِ، فَيُعْظَمُ رِبْحُهُ. وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الشَّيُوخِ / مِنَ التَّجَّارِ لَطَالِبُ الْكَشْفِ عَنْ
حَقِيقَةِ التِّجَارَةِ: أَنَا أَعْلَمُكُمَا فِي كَلِمَتَيْنِ: اشْتَرِ الرِّخِصَ وَبِعِ الْغَالِي، وَقَدْ حَصَلَتْ
التِّجَارَةُ. إِشَارَةٌ لَهُ بِذَلِكَ إِلَى الْمَعْنَى الَّتِي قَرَرْنَاهُ. وَاللَّهُ ﴿الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾
[سورة الناريات، من الآية 58].

(١) فِي ج: السِّلَعِ .

10 • فَصْلٌ ٥٠، فِي نَقْلِ التَّاجِرِ لِلسَّلْعِ

التَّاجِرُ البَصِيرُ بِالتَّجَارَةِ لَا يَتَقَلُّ مِنَ السَّلْعِ إِلَّا مَا تَعْمُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنَ الْغَنِيِّ
وَالْفَقِيرِ وَالسُّلْطَانِ وَالسُّوقَةِ، إِذْ فِي ذَلِكَ تَفَاقُ سِلْعَتِهِ. وَإِنَّمَا إِذَا اخْتَصَّ نَقْلُهُ بِمَا
يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَعْضُ فَقَطْ، فَقَدْ يَتَعَذَّرُ نَفَادُ سِلْعَتِهِ^(١) حِينَئِذٍ بِإِعْوَاظِ الشُّرَاءِ عَلَى ذَلِكَ
5 الْبَعْضُ لِعَارِضٍ مِنَ الْعَوَارِضِ، فَتَكْسُدُ سُوقُهُ، وَتَفْسُدُ أَرْبَاحُهُ.

وَكَذَلِكَ إِذَا نَقَلَ السَّلْعَةَ الْمُحْتَاجَ إِلَيْهَا، فَإِنَّمَا يَنْقَلُ الْوَسْطُ مِنْ صِنْفِهَا. فَإِنْ
الْغَالِي مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ السَّلْعِ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِهِ أَهْلُ الثَّرْوَةِ وَحَاشِيَةُ الدَّوْلَةِ، وَهُمْ
الْأَقْلُ. وَإِنَّمَا يَكُونُ النَّاسُ أَسْوَى فِي الْحَاجَةِ إِلَى الْوَسْطِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ. فَلْيَتَحَرَّ ذَلِكَ
جُمْهُدُهُ، فَفِيهِ تَفَاقُ سِلْعَتِهِ أَوْ كِسَادُهَا.

(١) مِنْ عَوْسَقَطٍ مِنْ ظ .

• ورد قبل هذا الفصل في نسخة المؤلف ومُسَوَّدَتِهِ "ع" فصلٌ قصيرٌ من ثمانية أسطر، عنوانه: فصلٌ في أنْ خُلِقَ التَّجَارِ نازِلَةٌ عَنْ
خُلُقِ الْأَشْرَافِ وَالْمُلُوكِ. ثم شَطِبَهُ جَمَلَةً، وَاسْتَبَدَّلَهُ بِخَطِّهِ فِيمَا بَاقِي، بِالفصل رقم (14) في: أنْ خُلِقَ التَّجَارِ نازِلَةٌ عَنْ خُلُقِ الرُّؤَسَاءِ،
وَبَعِيدَةٌ عَنِ الْمَرْوَةِ. وَغَيَّرَ مَوْقِعَهُ، وَهَذَا نَصُّ الْفَصْلِ الْمُلغَى:

"وَذَلِكَ أَنَّ التَّجَارَ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ إِنَّمَا يُعَانُونَ الْبَيْعَ وَالشُّرَاءَ، وَلَا يَبْدُ فِيهِ مِنَ الْمَكَايَسَةِ ضَرُورَةٌ. فَإِنْ
اِقْتَصَرَ عَلَيْهَا اِقْتَصَرَتْ بِهِ عَلَى خُلُقِهَا. وَهِيَ، أَعْنِي خُلُقَ الْمَكَايَسَةِ، بَعِيدَةٌ عَنِ الْمَرْوَةِ الَّتِي يَتَخَلَّقُ بِهَا الْمُلُوكُ
وَالْأَشْرَافُ. وَأَمَّا إِنْ اسْتَرْذَلَ خُلُقُهُ بِمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الطَّبَقَةِ الْوَسْطَى مِنْهُمْ مِنَ الْمَخَاكَةِ وَالْغَشِّ وَالْخِلَابَةِ
وَتَعَاهُدِ الْأَيَّانِ الْكَاذِبَةِ عَلَى الْأَمَانِ رَدًّا وَقَبُولًا، فَأَجْدَزُ بِهَذَا الْخُلُقِ أَنْ يَكُونَ فِي غَايَةِ الْمَذْمَةِ، لِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ.
وَلِذَلِكَ تَجِدُ أَهْلَ الرِّيَاسَاتِ يَتَحَامُونَ الْإِحْتِرَافَ بِهَذِهِ الْحِرْفَةِ، لِأَجْلِ مَا تَكْسِبُ مِنْ هَذَا الْخُلُقِ. وَقَدْ يَوْجَدُ
مِنْهُمْ مَنْ يَسْلَمُ مِنْ هَذَا الْخُلُقِ وَيَتَحَامَاهُ بِشَرَفِ نَفْسِهِ وَكَرَمِ خِلَالِهِ، إِلَّا أَنَّهُ فِي التَّادِرِ مِنَ الْوُجُودِ. وَاللَّهُ يَهْدِي
مَنْ يَشَاءُ."

وكذلك نُقِلُ السِّلَعُ مِنَ الْبَلَدِ الْبَعِيدِ الْمَسَافَةِ أَوْ فِي شِدَّةِ الْخَطَرِ فِي الطَّرِيقَاتِ
يَكُونُ أَكْثَرُ فَائِدَةً لِلتَّجَارَةِ^(١) وَأَعْظَمُ أَرْبَاحاً وَأَكْفَلَ بِجَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ، لِأَنَّ السِّلَعُ
الْمُنْقُولَةَ حِينَئِذٍ تَكُونُ قَلِيلَةً مُغَوَّزَةً لِبُعْدِ مَكَانِهَا أَوْ شِدَّةِ الْغَرَرِ فِي طَرِيقِهَا، فَيَقِلُّ
حَامِلُوهَا وَيَعِزُّ وَجُودُهَا . وَإِذَا قَلَّتْ وَعَزَّتْ غَلَّتْ أَثْمَانُهَا . وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْبَلَدُ قَرِيبَ
الْمَسَافَةِ ، وَالطَّرِيقُ سَابِلاً بِالْأَمْنِ ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَكْثُرُ نَاقِلُوهَا ، فَتَكْثُرُ وَتَرْخُصُ 5
أَثْمَانُهَا .

ولهذا نَجِدُ التَّجَّارَ الَّذِينَ يُولَعُونَ بِالْدَّخُولِ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ، أَرْفَهُ النَّاسِ
وَأَكْثَرَهُمْ أَمْوَالاً، لِبُعْدِ طَرِيقِهِمْ وَمَشَقَّتِهِ، وَاعْتِرَاضِ الْمَفَازَةِ الصَّعْبَةِ الْمُخْطَرَةِ بِالْخَوْفِ
وَالْعَطَشِ، لَا يَوْجَدُ فِيهَا الْمَاءُ إِلَّا فِي أَمَاكِنَ مَعْلُومَةٍ يَهْتَدِي إِلَيْهَا أَدِلَاءُ الرِّكَابِ . فَلَا
يَزْتَكِبُ هَذَا الطَّرِيقُ وَبُعْدُهُ إِلَّا الْأَقْلُ مِنَ النَّاسِ؛ فَتَجِدُ سِلْعَ بِلَادِ السُّودَانِ قَلِيلَةً 10
لَدُنَّا، فَتَخْتَصُّ بِالْغَلَاءِ، وَكَذَلِكَ سِلْعُنَا لَدَيْهِمْ . فَتَعْظُمُ بَضَائِعُ التَّجَّارِ مِنْ تَنَاقُلِهَا،
وَيُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْغِنَى وَالثَّرْوَةُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ الْمَسَافِرُونَ مِنْ بِلَادِنَا إِلَى
الْمَشْرِقِ، لِبُعْدِ الشُّقَّةِ أَيْضاً . وَأَمَّا الْمُتَرَدِّدُونَ فِي الْأَفْقِ الْوَاحِدِ مَا بَيْنَ أَمْصَارِهِ
وَبُلْدَانِهِ ، / فَفَائِدَتُهُمْ قَلِيلَةٌ وَأَرْبَاحُهُمْ تَافِهَةٌ، لَكَثْرَةِ السِّلَعِ وَكَثْرَةِ نَاقِلِهَا . وَاللَّهُ ۖ الرِّزَاقُ [271ب]

ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿ [سورة الذَّارِيَاتِ، مِنْ آيَةِ 58] .

11 • فصلٌ في الاختِكار

ومَّا اشْتَهَرَ عند ذوي البَصَرِ والتَّجَرِبَةِ في الْأَمْصَارِ، أَنَّ اخْتِكَارَ الزَّرْعِ لَتَحْيَيْنَ
 أَوْقَاتِ الْغَلَاءِ بِهِ مَشْهُوْمٌ، وَأَنَّهُ يَعُودُ عَلَى فَايِدَتِهِ بِالتَّلَافِ وَالْخُسْرَانِ. وَسَبَبُهُ، وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ، أَنَّ النَّاسَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَى الْأَقْوَاتِ مُضْطَرَّوْنَ إِلَى مَا يَتَذَلُّونَ فِيهَا مِنَ الْمَالِ
 5 اضْطِرَارًّا، فَتَبْقَى النَّفُوسُ مُتَعَلِّقَةً بِهِ. وَفِي تَعَلُّقِ النَّفُوسِ بِمَا لَهَا سِرٌّ كَبِيرٌ فِي وَبَالِهِ عَلَى
 مِنْ يَأْخُذْهُ^(١). وَلَعَلَّهُ الَّذِي اعْتَبَرَهُ الشَّارِعُ فِي اخْتِذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ. وَهَذَا، وَإِنْ
 لَمْ يَكُنْ مَجَانًا، فَالْنَّفُوسُ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ، لِإِعْطَائِهِ ضَرُورَةً مِنْ غَيْرِ سَعَةٍ فِي الْعُدْرِ، فَهُوَ
 كَالْمُكْرَه. وَمَا عَدَا الْأَقْوَاتِ وَالْمَاكُولَاتِ مِنَ الْمَبِيعَاتِ لَا اضْطِرَارًّا^(ب) لِلنَّاسِ إِلَيْهَا. وَإِنَّمَا
 يَتَعَبَّوْنَ عَلَيْهَا التَّفَنُّنَ فِي الشَّهَوَاتِ، فَلَا يَتَذَلُّونَ أَمْوَالَهُمْ فِيهَا إِلَّا بِاخْتِيَارٍ وَجَرِصٍ، وَلَا
 10 يَبْقَى لَهُمْ تَعَلُّقٌ بِمَا أُعْطَوْهُ. فَلِهَذَا يَكُونُ مِنْ غُرَفِ بِالْاِخْتِكَارِ تَجْمَعُ الْقُوى النَّفْسَانِيَّةُ
 عَلَى مُتَابَعَتِهِ بِمَا يَأْخُذْهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَيَفْسُدَ رَجْهُهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَسَمِعْتُ فِيمَا يُنَاسِبُ هَذَا، حِكَايَةَ طَرِيفَةً عَنْ بَعْضِ مَشَيْخَةِ الْمَغْرِبِ. أَخْبَرَنِي
 شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْإِيلِيّ، قَالَ: حَضَرْتُ عِنْدَ الْقَاضِي بِفَاسَ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي
 سَعِيدٍ، وَهُوَ الْفَقِيهَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَلِيكِيّ، وَقَدْ غُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ بَعْضَ الْأَلْقَابِ
 15 الْمَخْزِيَّةِ لِجَرَايَتِهِ، قَالَ: فَأَطْرَقَ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: مِنْ مَكْسِ الْحُمْرِ. فَاسْتَضْحَكُ
 الْحَاضِرُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَعَجَبُوا، وَسَاءَلُوهُ عَنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِذَا كَانَتْ الْجَبَايَاثُ
 كُلُّهَا حَرَامًا، فَأَخْتَارَ مِنْهَا مَا لَا تُتَابَعُهُ نَفُوسٌ مُعْطِيهِ، وَالْحُمْرُ قَلٌّ أَنْ يَتَذَلَّ أَحَدٌ فِيهَا

(١) كَسَبَ بَعْدَهَا فِي ع: مَجَانًا، ثُمَّ شَطَبَهَا، وَلَمْ يَتَبَّهَ ظَاجِي (ب) فِي ج: أَضْرَارُ.

ماله إلا وهو طرب مسرور بوجدانه، غير آسف عليه ولا متعلق به. وهذه
ملاحظة غريبة. والله تعالى أعلم.

12 • فصل^(أ)، في أن رخص الأسعار مضر بالمخترفين بالرخص

وذلك أن الكسب والمعاش، كما قدّمناه، إنما هو بالصنائع أو التجارة .
[272] والتجارة/ هي شراء البضائع والسلع وادّخارها، تُحَيَّن بها حوالة الأسواق بالزيادة 5
في أثمانها، ويُسمَّى ربحاً. ويحصل منه الكسب والمعاش للمخترفين بالتجارة دائماً. فإذا
استُديم الرخص في سلعة أو عرض من مأكول أو ملبوس أو ممتول على الجملة،
ولم يحصل للتاجر حوالة الأسواق فيه، فسَدَ الربح و^(ب) التَّاء بطول تلك المدة،
وكسدت سوق ذلك الصنف، ولم يحصل التاجر إلا على العناء، فيقعّد التجار عن
السعي فيها، وتفسد رؤوس أموالهم. 10

واعتبر ذلك مثلاً بالزّرع إذا استُديم رخصه، كيف^(ج) تفسد أحوال
المخترفين به في سائر أطواره، من الفلح والزراعة، لقلة الربح فيه ونزارته أو فقده.
فيفقدون التَّاء في أموالهم، أو يجدونه على قلة، ويعودون بالإففاق على رؤوس
أموالهم، وتفسد أحوالهم، ويصيرون إلى الفقر والخصاصة. ويتبع ذلك فساد حال
المخترفين أيضاً بالطخن والخبز وبسائر^(د) ما يتعلق بالزّرع^(هـ) من الحرف من لدن 15

(أ) هذا الفصل والفصلان بعده زيادة حررها المؤلف بخطه في ورقة يؤخّهما وأقمها على مسودته ع، وحدّد موقعها بإشارة المخرج
آخر الفصل السابق، وبالتنصيص اللفظي (ب) سقط العطف من ي (ج) ي: فإنه (د) في ي ج: سائر (هـ) في ي: بالزراعة.

زراعته إلى مَصيره مَأْكُولًا. وكذا يَفْسُدُ حالُ الجُنْدِ إذا كانت أرزاقهم من السُّلطان عند^(أ) أهل الفلح زرعاً بالإقطاع. فإنهم يَقِلُّ جبايئهم من ذلك، وَيَجْزُونَ عن إقامة الجُنْدِية التي هم يَسْتَبِها و^(ب) يَزْتَرِقُونَ من السُّلطان عليها، فيَقْطَعُ عنهم الرِّزْقُ وتَفْسُدُ أحوالهم. وكذا إذا استُديم الرُّخْصُ في السُّكْرِ والعَسَلِ فَسَدَ جميعُ ما يَتَعَلَّقُ به، وَقَعَدَ الْمُحْتَزِفُونَ به عن التِّجَارَةِ فيه. وكذا حالُ المَلْبُوسَاتِ إذا استُديم فيها الرُّخْصُ 5 أَيْضًا^(ج).

فإِذْنُ، الرُّخْصُ الْمُفْرَطُ مُجْجَفٌ بِمَعَاشِ الْمُحْتَزِفِينَ بِذَلِكَ الصَّنْفِ الرِّخِصِ، وكذا الغَلَاءُ الْمُفْرَطُ أَيْضًا. و^(د) زُبَا يَكُونُ في التَّادِرِ سَبَبًا لِنَهَاءِ الْمَالِ، بِسَبَبِ اخْتِكَارِهِ وَعِظَمِ فَائِدَتِهِ. وَإِنَّمَا مَعَاشُ النَّاسِ وَكُسْبُهُمْ في التَّوَسُّطِ من ذلك وَسُرْعَةُ خَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ، وَمَعْرِفَةُ^(هـ) ذلك تَرْجِعُ إِلَى الْعَوَائِدِ الْمُتَقَرَّرَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْعُمَرَانِ. 10

وَإِنَّمَا يَحْمَدُ الرُّخْصُ في الزَّرْعِ من بَيْنِ الْمَبِيعَاتِ لِعُمُومِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَاضْطِرَارِ النَّاسِ إِلَى الْأَقْوَاتِ^(و) من بَيْنِ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ. / وَالْعَالَةِ من الْخَلْقِ هُمُ الْكَثَرِ في [272ب] الْعُمَرَانِ، فَيَعْمُ الرِّفْقُ بِذَلِكَ وَيُرْجَحُ جَانِبُ الْقَوْتِ عَلَى جَانِبِ التِّجَارَةِ في هَذَا الصَّنْفِ الْخَاصِّ.

15 وَاللَّهُ ﴿الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات، من الآية 58].

(أ) ي: على (ب) سقط العطف من ي (ج) سقط من ي (د) سقط حرف العطف من ي (هـ) ي: وعلم ... يرجع (و) من هنا إلى آخر الفصل لا يوجد في ي، وبدلته: فيعتاضون بعض الشيء من خواله الأسواق بتفاد السلعة التي بأيديهم، وهي الأقوات، فيتخذون لذلك معاضاً عما فاتهم .

13 • فَصْلٌ^(١)، فِي أَيِّ أَصْنَافِ النَّاسِ يَنْتَفِعُ^(ب) بِالتِّجَارَةِ، وَأَيُّهُمْ يَنْبَغِي لَهُ تَرْكُهَا

قد تقدّم لنا أنّ معنى التّجارة تَنْمِيَةُ المَالِ بِشِرَاءِ البَضَائِعِ وَمُحَاوَلَةَ بَيْعِهَا بِأَعْلَى مِنْ ثَمَنِ الشُّرَاءِ، إمّا بانتظار حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ، أو نَقْلَهَا إِلَى بَلَدٍ هِيَ فِيهِ أَنْفَقَ وَأَعْلَى، أو بَيْعِهَا بِالْغَلَاءِ عَلَى الْآجَالِ. وهذا الرِّبْحُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَضَلِّ المَالِ نَزَرَ يَسِيرٌ، إِلَّا أَنَّ 5 المَالَ إِذَا^(ج) كَانَ كَثِيراً عَظُمَ الرِّبْحُ، لِأَنَّ الْقَلِيلَ فِي الْكَثِيرِ كَثِيرٌ.

ثم لا بُدَّ فِي مُحَاوَلَةِ هَذِهِ التَّنْمِيَةِ، الَّذِي هُوَ الرِّبْحُ، مِنْ حُصُولِ هَذَا المَالِ بِأَيْدِي الْبَاعَةِ فِي شِرَاءِ البَضَائِعِ وَبَيْعِهَا [وَمُعَامَلَتِهِمْ فِي^(د) تَقَاضِي أَثْمَانِهَا، وَأَهْلُ النِّصْفَةِ مِنْهُمْ قَلِيلٌ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْغَشِّ وَالتَّطْطِيفِ الْمُجْهِفِ بِالْبَضَائِعِ، وَ[مِنْ^(هـ) الْمَظَلِّ فِي الْأَثْمَانِ الْمُجْهِفِ بِالرِّبْحِ، لِتَغْطِيلِ الْمُحَاوَلَةِ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ، وَبِهَا نَمَاؤُهُ، وَمِنْ الْجُحُودِ 10 وَالْإِنْكَارِ الْمُسْحَتِ لِرَأْسِ المَالِ إِنْ لَمْ يُقَيَّدَ بِالْكِتَابِ وَالشَّهَادَةِ. وَغَنَاءُ الْحُكَّامِ فِي ذَلِكَ قَلِيلٌ، لِأَنَّ الْحُكْمَ إِنَّمَا هُوَ عَلَى الظَّاهِرِ. فَيُعَانِي التَّاجِرُ مِنْ ذَلِكَ أَحْوَلاً صَعْبَةً، وَلَا يَكَادُ يَحْصُلُ عَلَى ذَلِكَ التَّافِهِ مِنَ الرِّبْحِ، إِلَّا بِعَظِيمِ الْعَنَاءِ وَالْمَشَقَّةِ، أَوْ لَا يَحْصُلُ، أَوْ يَتَلَاشَى رَأْسَ مَالِهِ. فَإِنْ كَانَ جَرِيئاً عَلَى الْخُصُومَةِ، بِصِغَرٍ بِالْحُسْبَانِ، شَدِيدَ الْمَاهِكَةِ، مُقَدِّماً عَلَى الْحُكَّامِ، كَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ لَهُ إِلَى النِّصْفَةِ مِنْهُمْ بِجُرْأَتِهِ وَمُهَاكَمَتِهِ؛ 15 وَإِلَّا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ جَاهٍ يَدْرِعُ بِهِ يُوقِعُ^(و) لَهُ الْهَيْبَةَ عِنْدَ الْبَاعَةِ، وَيَحْمِلُ الْحُكَّامَ عَلَى

(١) جاء هذا الفصل في حاشية (ي) بخط المؤلف من غير عنوان، وأثبت في سياق نص الكتاب في تُشْعَفِي ظ ج (ب) في ظ: يتفقون (ج) في ج: إن (د) في ي، وسقط من ج ع (هـ) من ي (و) في ج: فيوقع.

إِنْصَافِهِ مِنْ غُرْمَائِهِ^(١). فَتَحْصُلُ لَهُ بِذَلِكَ التَّصَفَّةُ وَاسْتِخْلَاصُ مَالِهِ مِنْهُمْ^(ب) طَوْعاً فِي
الْأَوَّلِ، وَكَرْهاً فِي الثَّانِي. وَأَمَّا مَنْ كَانَ فَاقِداً لِلْجُزْأَةِ وَالْإِقْدَامِ مِنْ نَفْسِهِ، وَفَاقِداً لِلْجَاهِ
مِنَ الْحُكَّامِ، فَيَتَبَغَى لَهُ أَنْ يَحْتَنِبَ التَّجَارَةَ^(ج)، لِأَنَّهُ يُعَرِّضُ بِمَالِهِ لِلذَّهَابِ وَالْمَضْيَعَةِ^(د)،
وَيُضَيِّرُهُ مَأْكَلَةً لِلْبَاعَةِ، وَلَا يَكَادُ يَنْتَصِفُ مِنْهُمْ. لِأَنَّ النَّاسَ فِي الْغَالِبِ^(هـ) مُتَطَلِّعُونَ^(و)
إِلَى مَا فِي أَيْدِي^(ز) النَّاسِ. وَلَوْلَا وَارِغُ الْأَحْكَامِ *^(ح) [مَا سَلِمَ لِأَحَدٍ شَيْءٌ مِمَّا فِي
يَدِهِ]^(ط)، وَخُصُوصاً / الْبَاعَةَ وَسَفِلَةَ النَّاسِ وَرِعَاغَهُمْ *^(ح). ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ^(ي) اللَّهِ

النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ
عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية 251].

[273]

5

14 * فَضْلٌ، فِي أَنْ خُلِقَ التُّجَّارُ نَازِلَةً عَنْ خُلُقِ الرُّؤْسَاءِ^(ك)، وَبَعِيدَةً عَنْ
الْمُرُوءَةِ

10

قد قَدَّمْنَا فِي الْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ التَّاجِرَ مَدْفُوعٌ إِلَى مُعَانَاةِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَجَلَبِ
الْفَوَائِدِ وَالْأَرْبَاحِ، وَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمُكَايَسَةِ وَالْمُحَاسَكَةِ وَالتَّحْدِيقِ وَمُمَارَسَةِ
الْخُصُومَاتِ وَاللَّجَاجِ، وَهِيَ عَوَارِضُ هَذِهِ الْحِزْفَةِ. وَهَذِهِ الْأَوْصَافُ تَقْصُصُ مِنَ الزُّكَاةِ
وَالْمُرُوءَةِ وَتَخْدُجُ فِيهَا. لِأَنَّ الْأَفْعَالَ لَا بُدَّ مِنْ عَوْدِ آثَارِهَا عَلَى النَّفْسِ. فَأَفْعَالُ الْخَيْرِ

(١) فِي ي: مُعَاطِلِهِ (ب) سَقَطَ مِنْ ي (ج) ي: الْإِحْتِرَافُ بِالتَّجَارَةِ (د) فِي ي: وَالضِّيَاعُ (هـ) فِي ي: وَخُصُوصاً الرِّعَاقِ
وَالْبَاعَةِ (و) ي: يَشْرَهُونَ (ز) فِي ي: سَوَاهِمُ مُتَوَبِّتُونَ عَلَيْهِ (ح) سَقَطَ مَا بَيْنَ النُّجُومِ مِنْ ي (ط) فِي ي: أَصْبَحَتْ أَمْوَالُ
النَّاسِ نَهْجاً (ي) وَرَدَتْ فِي النُّسخِ: دَفَاعٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ فِي 1: 245، وَالْوَجْهُ فِيهَا كَمَا يَقُولُ الطَّبْرِيُّ، الْمَصْدَرُ مِنْ قَوْلِ
الْقَائِلِ: دَافَعَ اللَّهُ عَنْ خَلْقِهِ، فَهُوَ يَدَافِعُ مُدَافِعَةً وَدِفَاعاً. جَامِعُ الْبَيَانِ 2: 755 (ك) فِي ي: الْأَشْرَافُ.

تَعُودُ بِآثَارِ الْخَيْرِ وَالزَّكَاةِ، وَأَفْعَالُ الشَّرِّ وَالسُّفْسَفَةِ تَعُودُ بِضِدِّ ذَلِكَ. فَتَتِمَّكَنُ وَتَرَسَّخُ
إِنْ سَبَقَتْ وَتَكَرَّرَتْ، وَتُنْقِصُ مِنْ خِلَالِ الْخَيْرِ إِنْ تَأَخَّرَتْ عَنْهَا بِمَا يَنْطَلِعُ مِنْ آثَارِهَا
الْمَذْمُومَةِ فِي النَّفْسِ، شَأْنَ الْمَلَكَاتِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْأَفْعَالِ.

وَتَتَفَاوَتْ هَذِهِ الْأَثَارُ بِتَفَاوُتِ أَصْنَافِ التُّجَارِ فِي أَطْوَارِهِمْ. فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ سَافِلَ
الطُّورِ، مُخَالِطاً لِشِرَارِ الْبَاعَةِ أَهْلِ الْغَشِّ وَالْخِلَابَةِ وَالْفُجُورِ فِي الْأَيْمَانِ عَلَى الْبِيعَاتِ 5
وَالْأَثْمَانِ إِقْرَاراً وَإِنْكَاراً، كَانَتْ زِدَاءَةٌ تِلْكَ الْخُلُقِ عِنْدَهُ أَشَدَّ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ السُّفْسَفَةُ،
وَيَبْذُرُ عَنِ الْمُرُوءَاتِ وَكَتِسَابِهَا بِالْجُمْلَةِ، وَإِلَّا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَأْثِيرِ الْمَكَايَسَةِ وَالْمَمَاحِكَةِ
فِي مُرُوءَتِهِ؛ وَفَقْدَانُ ذَلِكَ فِيهِمْ بِالْجُمْلَةِ قَلِيلٌ.

وَوُجُودُ الصَّنِيفِ الثَّانِي مِنْهُمْ الَّذِي قَدَّمَاهُ فِي الْفَضْلِ قَبْلَهُ، أَنَّهُمْ يَدْرِعُونَ بِالْجَاهِ
وَيَعْوِضُ لَهُمْ مِنْ مُبَاشَرَةِ ذَلِكَ، فَهُمْ نَادِرٌ وَأَقْلَى مِنْ نَادِرٍ. وَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْمَالُ قَدْ 10
تَوَفَّرَ عِنْدَهُ دَفْعَةً بِنُوعٍ غَرِيبٍ، أَوْ وَرَثَةً عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَخَصَلَتْ لَهُ ثَرْوَةٌ
تُعِينُهُ عَلَى الْإِتِّصَالِ بِأَهْلِ الدَّوْلَةِ وَتُكْسِبُهُ ظُهُوراً وَشُهْرَةً بَيْنَ أَهْلِ عَصْرِهِ، فَيَتَرَفَّعُ
عَنِ مُبَاشَرَةِ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، وَيُدْفَعُهُ إِلَى مَنْ يَقُومُ لَهُ بِهِ مِنْ وُكَلَائِهِ وَحَشَمِهِ، وَيُسَهِّلُ
لَهُمُ الْحُكَامُ النَّصْفَةَ فِي حُقُوقِهِمْ بِمَا يُؤْنِسُونَهُ مِنْ بَرٍّ وَإِتْحَافِهِ. فَيَتَّبِعُونَ عَنْ تِلْكَ الْخُلُقِ

بِالْبُعْدِ عَنْ مُعَانَاةِ الْأَفْعَالِ / الْمُفْتَضِيَةِ لَهَا، كَمَا مَرَّ. فَتَكُونُ مُرُوءَتُهُمْ أَرْسَخَ وَأَبْعَدَ عَنْ 15
[273ب] الْمُخْدِجَاتِ، إِلَّا مَا يَسْرِي مِنْ آثَارِ تِلْكَ الْأَفْعَالِ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ، فَإِنَّهُمْ
يُضْطَرُّونَ إِلَى مُشَارَفَةِ أَحْوَالِ أَوْلِيائِكَ الْوُكَلَاءِ وَوِفَاقِهِمْ أَوْ خِلَافِهِمْ فِيمَا يَأْتُونَ أَوْ
يَذَرُونَ مِنْ ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ، وَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ أَثَرُهُ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا
تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصفات، الآية 96].

15 • فصل، في أن الصنائع لا بد لها من المعلم

اعلم أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري، ويكونه عملياً هو جسماني
مخسوس. والأحوال الجسمانية المخسوسة، فنقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل، لأن
المباشرة في الأحوال الجسمانية المخسوسة أتم فائدة. والملكة صفة راسخة تحصل عن
5 استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته. وعلى نسبة
الأصل تكون الملكة. ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم. فالملكة الحاصلة
عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة على⁽¹⁾ الخبر. وعلى قدر جودة التعليم وملكة
المعلم يكون جذب المتعلم في الصناعة وحصول ملكته.

ثم إن الصنائع، منها البسيط، ومنها المركب. والبسيط هو الذي يختص
10 بالضروريات، والمركب هو الذي يكون للكليات. والمتقدم منها في التعليم هو البسيط
لبساطته أولاً، ولأنه مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله. فيكون
سابقاً في التعليم، ويكون تعليمه لذلك ناقصاً. ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها
من القوة إلى الفعل بالاستنباط شيئاً فشيئاً على التدرج حتى تكمل. ولا يحصل
ذلك دفعةً، وإنما يحصل في أزمان وأجيال، إذ خروج الأشياء من القوة إلى الفعل
15 لا يكون دفعةً، لا سيما في الأمور الصناعية. فلا بد له إذن من زمان. ولهذا نجد
الصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصة، ولا يوجد منها إلا البسيط. فإذا تزايدت حضارتها
ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع، خرجت من القوة على الفعل. والله أعلم.

(1) في ع: عن.

[274] 16 / فصل، في أن الصنائع إنما تكمل⁽¹⁾ بكمال العمران الحضري وكثرته

والسبب في ذلك، أن الناس ما لم يستوف العمران الحضري، وتمتد المدينة، إنما همهم في الضروري من المعاش، وهو تحصيل^(ب) الأقوات من الحنطة وغيرها. فإذا تمتد المدينة وتزايدت فيها الأعمال، ووفت بالضروري وزادت عليه، 5 صرف الزائد، حينئذ، إلى الكمالات من المعاش.

ثم إن الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات، والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية^(ج). فهو مقدم لضروريته على العلوم والصنائع، وهي متأخرة عن الضروري. وعلى مقدار عمران البلد تكون 10 جودة الصنائع للتأق في حينئذ، وجودة ما يطلب منها بحسب دواعي الترف والثروة.

وأما العمران البدوي أو القليل، فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط خاصة المستعمل في الضرورات، من تجار، أو حداد، أو خياط، أو جزار، أو حائك. وإذا وجدت هذه بعد، فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة، وإنما يوجد منها 15 مقدار^(د) الضرورة، إذ هي كلها وسائل إلى غيرها، وليست مقصودة لذاتها. وإذا زخر بحر العمران وطليت فيها الكمالات، كان من جملتها التأق في الصنائع واستجاداتها. فكملت بجميع متمماتها، وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو إليه عوائد

(1) ع: يكل (ب) ي: يحصل (ج) في ع: الغداية، وفي ط ج ي: العدائية محملة، ولعل الصواب ما أثبتناه (د) ع: بمقدار.

التَّرف وأحواله: من خَرَّاز، ودَبَّاح، وجَزَّار، وصَائِغ، وأمثال ذلك. وقد تَنَّتَّهِي هذه الأصناف إذا اسْتَبَّحَرَ العُمُرَان، أن يُوجَد منها كثيرٌ من الكمالات، ويُتَأَثَّق فيها في الغاية، وتكون من وجوه المعاش في المضِرِّ لِمُنْتَحِلِهَا، بل تكون فائِدَتُهَا من أعظم فَوَائِدِ الأَعْمَالِ، لما يَدْعُو إليه التَّرف في المدينة، مثل الدَّهَانِ، والصَّفَّارِ، والحَمَامِيِّ،

5 والطَّبَّاحِ، والسَّفَّاجِ، والهَرَّاسِ، ومُعَلِّمِ الغِنَاءِ والرَّقْصِ، وقَرَعَ الطُّبُولِ على التَّوْقِيعِ؛

ومثل الوَرَّاقِينَ الَّذِينَ يُعَانُونَ صِنَاعَةَ / انْتِسَاخِ الكُتُبِ وَتَجْلِيدِهَا وَتَصْحِيحِهَا، فَإِنَّ [274ب]

هذه الصَّنَاعَةُ إِنَّمَا يَدْعُو إِلَيْهَا التَّرفُ فِي الْمَدِينَةِ مِنَ الْاِسْتِغَالِ بِالأُمُورِ الْفِكْرِيَّةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. وَقَدْ تَخْرُجُ عَنِ الْحَدِّ إِذَا كَانَ الْعُمُرَانُ خَارِجاً عَنِ الْحَدِّ، كَمَا يَبْلَغُنَا عَنْ أَهْلِ

مِصْرَ، أَنَّ فِيهِمْ مَنْ يُعَلِّمُ الطُّيُورَ الْعُجَمَ وَالْحُمُرَ الْإِنْسِيَّةَ، وَيُخَيِّلُ أَشْيَاءَ مِنَ الْعَجَائِبِ

بِأَيْهَامِ قُلُوبِ الْأَعْيَانِ، وَيُعَلِّمُ الْحَدَاءَ وَالرَّقْصَ، وَالْمَشْيَ عَلَى الْخَيْوُطِ فِي الْهَوَاءِ، وَرَفَعَ 10

الْأَثْقَالِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْحِجَارَةِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الصَّنَائِعِ الَّتِي لَا تَوْجَدُ عِنْدَنَا

بِالْمَغْرِبِ، لِأَنَّ عُمُرَانَ أَمْصَارَهُ لَمْ يَبْلُغْ عُمُرَانَ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةَ. وَاللَّهُ ﴿الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ﴾

[سورة الزخرف، من الآية 84، سورة الذاريات، من الآية 30].

17 ﴿فَصَلِّ﴾ فِي أَنْ مَرُسُوحَ الصَّنَائِعِ فِي الْأَمْصَارِ بِرُسُوحِ الْحَضَارَةِ وَطُولِ

أَمَدِهَا

15

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرٌ، وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ عَوَائِدُ لِلْعُمُرَانِ وَالْوَأْنِ.

وَالْعَوَائِدُ إِنَّمَا تَرَسَّخُ بِكَثْرَةِ التَّكْرَارِ وَطُولِ الْأَمَدِ، فَتَسْتَحْكُمُ صِبْغَةُ ذَلِكَ وَتَرَسَّخُ فِي

الْأَجْيَالِ. وَإِذَا اسْتَحْكَمَتِ الصَّبْغَةُ عَسَرَ نَزْعُهَا. وَلِهَذَا فَإِنَّا نَجِدُ الْأَمْصَارَ الَّتِي كَانَتْ

استنشرت في الحضارة لما تراجع عُمرانها وتناقص، بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست في غيرها من الأمصار المستحدثة العُمران، ولو بلغت مبالغها في الوفور والكثرة. وما ذاك إلا لأن أحوال تلك القديمة العُمران مستحكمة راسخة بطول الأخقاب وتداول الأحوال وتكررها، وهذه لم تبلغ الغاية بعد.

- 5 وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد؛ فإننا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها، كالمباني، والطبخ، وأصناف الغناء واللهو، من الآلات والأوتار والرقص، وتنضيد الفرش في القصور، وحسن الترتيب والأوضاع في البناء، وصوغ الآنية من المعادن والحرف وجميع المواعين، وإقامة الولائم والأعراس، وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده.
- 10 فتجدتهم أقوم عليها وأبصر بها، وتجذ صنائعها / مستحكمة لديهم. فهم على حصة [1275] مؤفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار، وإن كان عُمرانها قد تناقص والكثير منه لا يساوي عُمران غيرها من بلاد العدو. وما ذلك إلا لما قدمناه من رُسوخ الحضارة فيهم برُسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط وما بعدها من دولة الطوائف إلى هلم. فبلغت الحضارة فيها مبلغاً لم تبلغه في قطر، إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضاً لطول آماذ الدول فيها، فاستحكمت فيها الصنائع 15 وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتثنيق، وبقيت صيغتها ثابتة في ذلك العُمران لا تفارقه إلى أن ينتفض بالكلية، حال الصنع إذا رسخ في الشوب.

وكذا أيضاً حال تونس فيما حصل فيها من الحضارة بالدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم، وما استكمل لها ذلك من الصنائع في سائر الأحوال. وإن

كان ذلك دون الأندلس، إلا أنه مُتضاعف برُسوم منها تنتقل إليها من مصر، لقُرب
المسافة بينهما وتردد المسافرين من قُطرها إلى قُطر مصر في كل سنة. وربما سَكَن
أهلها هنالك عُصوراً، فينقلون من عوائد ترفهم ومُحكَم صنائعهم ما يَبْقَ لديهم مَوْقِع
الاستِخْسان. فصارت أحوالها في ذلك مُتشابهة من أحوالِ مصر لما ذَكَرناه، ومن
أحوالِ الأندلس، لما أن أكثر ساكنيها من شَرْق الأندلس حين الجلاء لعهد المائة
السَّابعة. ورسخ فيها [من ذلك] ⁽¹⁾ أحوالٌ، وإن كان عُمرانها ليس بمناسبٍ لذلك،
لهذا العهد. إلا أن الصَّنْعة إذا استَحْكَمَتْ قليلاً ما تَحُولُ إلا بزوال مَحَلِّها.

وكذا نَحَدُ بالقيروان ومراكش وقُلعة ابن حماد أثراً باقياً من ذلك، وإن كانت
هذه كُلُّها اليومَ خراباً أو في حُكْم الخراب. ولا يَتَفَطَّنُ لها إلا البَصِيرُ من النَّاسِ،
فيجدُ من هذه الصَّنائع أثارة تدلُّه على ما كان بها، كأثر الخطِّ المَمْخُوفِ في الكِتَابِ.
والله ﴿الْخَالِقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة الحجر، من الآية، 86، وسورة يس، من الآية 81].

18 ﴿ / فَضْلٌ، فِي أَنَّ الصَّنَائِعَ إِنَّمَا تُسْتَجَادُ وَتَكْثُرُ إِذَا كَثُرَ طَالِبُهَا

[275ب]

والسَّبَبُ في ذلك أن الإنسان لا يَسْمَحُ بِعَمَلِهِ أن يَبْقَ مَجَاناً، لأنَّ كَسْبَهُ،
ومنه معاشه، إذ لا فائدة له في جميع عُمره في شيءٍ مِمَّا سِوَاهُ، فلا يَصْرِفُهُ إِلَّا فيما له
قيمةٌ في مِصْرِهِ ليعودَ عليه بالتَّعَمُّقِ. وإذا كانت الصَّناعةُ مطلوبةً وتَوَجَّهَ إليها الثَّقَافُ،
كانت حينئذٍ الصَّناعةُ بمثابة السلعة التي نَقُّ سوقُها وتُجَلَّبُ للبيع، فيجتهدُ الناسُ في

(1) من ع ج ي، وسقط من ظ.

المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم. وإذا لم تكن الصناعة مطلوبة، لم يتفق سوقها، ولا توجه قصد إلى تعلمها، فاختصت بالتترك وفقدت للإهمال. ولهذا يقال عن علي⁽¹⁾ رضي الله عنه: قيمة كل امرئ ما يحسن. بمعنى أن صناعته هي قيمته، أي قيمة عمله الذي هو معاشه.

وأيضاً فهنا سر آخر، وهو أن الصنائع وإجادتها إنما تطلبها الدولة، فهي 5 التي تنفق من سوقها وتوجه الطلبات إليها. وما لم تطلبه الدولة وإنما يطلبه غيرها من أهل المضر، فليس على نسبتها. لأن الدولة هي السوق الأعظم، وفيها تقاوى كل شيء، والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة، فما تق فيها كان أكثرياً ضرورة. والسوق، وإن طلبوا الصناعة، فليس طلبهم بعام ولا سوقهم بنافعة. والله قادر على ما يشاء.

10

19* فصل، في أن الأمصار إذا قاربت الحراب انتقصت منها الصنائع

وذلك لما يئئاه من أن الصنائع إنما تستجد إذا احتيج إليها وكثر طلبها. فإذا ضعفت أحوال المضر وأخذ في الهرم بانقصاص عمرانه وقلة ساكنيه، تناقص فيه الترف، ورجعوا إلى الاقتصار على الضروري من أحوالهم؛ فتقل الصنائع التي كانت من توابع الترف، لأن صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاش. فيفر إلى غيرها، 15

(1) أخرجه الخطيب في تاريخ مدينة السلام 6: 178 وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله 1: 99 وابن مفلح في الآداب الشرعية 1: 378.

أَوْ يَمُوتُ وَلَا يَكُونُ خَلْفٌ مِنْهُ، فَيَذْهَبُ رَسْمُ تِلْكَ الصَّنَائِعِ جُمْلَةً، كَمَا يَذْهَبُ
 التَّقَاشُونَ وَالصَّوَاغُونَ / وَالْكَتَّابُ وَالنُّسَاحُ وَأَمْثَالُهُمْ مِنَ الصَّنَاعِ لِحَاجَاتِ التَّرَفِ. وَلَا
 تَرَالُ الصَّنَاعَاتُ فِي تَنَاقُصٍ^(١) مَا دَامَ الْمَضَرُّ فِي تَنَاقُصٍ^(١) إِلَى أَنْ يَضْمَحِلَّ. وَاللَّهُ
 ﴿الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة الحجر، من الآية 86، وسورة يس، من الآية 81]

5 20 فصل، في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، أَنَّهُمْ أَعْرَقُوا فِي الْبَدْوِ، وَأَبْعَدُوا عَنِ الْعُمَرَانِ الْحَضَرِيِّ وَمَا
 يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الصَّنَائِعِ وَغَيْرِهَا. وَالْعَجَمُ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ، وَأُمَمُ الْمَشْرِقِ، وَأُمَمُ
 النَّصْرَانِيَّةِ عُدُوَّةُ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ، أَقْوَمُ النَّاسِ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُمْ أَعْرَقُوا فِي الْعُمَرَانِ الْحَضَرِيِّ
 وَأَبْعَدُوا عَنِ الْبَدْوِ وَعُمَرَانِهِ. حَتَّى أَنَّ الْإِبِلَ الَّتِي أَعَانَتْ الْعَرَبَ عَلَى التَّوَحُّشِ فِي الْفَقْرِ
 وَالْإِعْرَاقِ فِي الْبَدْوِ، مَفْقُودَةٌ لَدَيْهِمْ بِالْجُمْلَةِ، وَمَفْقُودَةٌ مَرَاعِيهَا وَالزَّمَالُ الْمُهَيَّئَةُ لِنَتَاجِهَا.
 10 وَلِهَذَا نَجَدُ أَوطَانَ الْعَرَبِ وَمَا مَلَكَوهُ فِي الْإِسْلَامِ قَلِيلَ الصَّنَائِعِ بِالْجُمْلَةِ، حَتَّى تُجْلَبَ
 إِلَيْهِ مِنْ قُطْرٍ آخَرِ.

وَانْظُرْ بِلَادَ الْعَجَمِ مِنَ الصِّينِ وَالْهِنْدِ وَأَرْضِ التُّرْكِ وَأُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ، كَيْفَ
 اسْتَكْبَرَتْ فِيهَا الصَّنَائِعُ وَاسْتَجْلَبَهَا الْأُمَمُ مِنْ عِنْدِهِمْ. وَعَجَمُ الْمَغْرِبِ مِنَ الْبَزْرِ بِمِثَابَةِ
 15 الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ، لِرُسُوخِهِمْ فِي الْبَدَاوَةِ مِنْذُ أَحْقَابِ مِنَ السِّنِينَ. وَيَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ
 قِلَّةُ الْأَمْصَارِ بِقُطْرِهِمْ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ. فَالصَّنَائِعُ بِالْمَغْرِبِ لَذَلِكَ قَلِيلَةٌ وَغَيْرُ مُسْتَحْكَمَةٍ، إِلَّا

(١) في ج: تناقض .

ما كان من صناعة الصوف في نسجه، والجلب في خزره ودبغه، فإنهم لما استخضروا بلغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها، وكون هذين أغلب السلع في قطرهم لما هم عليه من حال البداوة.

- وأما المشرق، فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك الأمم الأقدمين، من الفرس والتببط والقيط وبنو إسرائيل ويونان والروم أحقاباً متطاولة، فرسخت فيهم أحوال الحضارة، ومن جملتها الصنائع، كما قدمناه، فلم يُمخ رسماً. وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة، وإن ملكها العرب، إلا أنهم تداولوا ملكه آلافاً من السنين في أمم كثيرين منهم، واختطوا أيضاً أمصاره ومدنه، وبلغوا المبالغ من الحضارة والترف، مثل عاد وثمود والعمالقة وحِمْيَر من بعدهم والتبابعة والأذواء. فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صيغتها، وتوفرت الصنائع ورسخت، فلم تبلى ببلى الدولة كما قلناه، فبقيت مستجدة حتى الآن، واختصت بذلك الموطن، كصناعة الوشي والعصب وما يستجد من حوك الثياب والحرير فيها. والله وارث الأرض ومن عليها.
- 5
- 10

21 • فصل، في أن من حصلت له ملكة في صناعة، فقل أن يجيد بعدها ملكة في⁽¹⁾ أخرى

- ومثال ذلك الخياط، إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها، ورسخت في نفسه، فلا يجيد من بعدها ملكة التجارة أو البناء، إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ولم
- 15

(1) سقط من ي ج .

تَرَسَّخَ صِبْغَتُهَا. وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَلَكَاتِ صِفَاتٌ لِلنَّفْسِ وَالْوَانُ، فَلَا تَزْدَجِمُ دَفْعَةً. وَمَنْ كَانَ عَلَى الْفِطْرَةِ كَانَ أَسْهَلَ لِقَبُولِ الْمَلَكَاتِ وَأَحْسَنَ اسْتِعْدَاداً لِحُصُولِهَا. فَإِذَا تَلَوَّنتِ النَّفْسُ بِالْمَلَكَةِ خَرَجَتْ عَنِ الْفِطْرَةِ، وَضَعُفَ فِيهَا الاسْتِعْدَادُ بِاللَّوْنِ الْحَاصِلِ مِنْ هَذِهِ الْمَلَكَةِ، فَكَانَ قَبُولُهَا لِلْمَلَكَةِ الْأُخْرَى أَوْعَفَّ. وَهَذَا بَيِّنٌ يَشْهَدُ لَهُ 5 الْوُجُودُ. فَقُلْ أَنْ تَجِدَ صَاحِبَ صِنَاعَةٍ يُحْكِمُهَا فَيُحْكِمَ مِنْ بَعْدِهَا أُخْرَى، وَيَكُونُ فِيهَا مَعاً عَلَى رُتْبَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْإِجَادَةِ. حَتَّى أَنْ أَهْلَ الْعِلْمِ الَّذِينَ مَلَكَتْهُمْ فِكْرِيَّةٌ فَهْمُ هَذِهِ الْمَثَابَةِ، وَمَنْ حَصَلَ مِنْهُمْ عَلَى مَلَكَةِ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ وَأَجَادَهَا فِي الْغَايَةِ فَقُلْ أَنْ يُجِدَ مَلَكَةَ عِلْمٍ آخَرَ عَلَى نِسْبَتِهِ، بَلْ يَكُونُ مُقَصِّراً فِيهِ إِنْ طَلَبَتْهُ، إِلَّا فِي الْأَقْلِّ التَّادِيرِ مِنَ الْأَحْوَالِ. وَمَبْنَى سَبَبِهِ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ شَأْنِ الاسْتِعْدَادِ وَتَلَوِينِهِ بِلَوْنِ الْمَلَكَةِ الْحَاصِلَةِ فِي النَّفْسِ. / وَاللَّهُ أَعْلَمُ. 10

[277]

22* فَضْلٌ، فِي الْإِشَارَةِ إِلَى أُمِّهِاتِ الصَّنَائِعِ

اعْلَمْ أَنَّ الصَّنَائِعَ فِي النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ كَثِيرَةٌ لَكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ الْمُتَدَاوِلَةِ فِي الْعُمْرَانِ. فَهِيَ بَحِيثٌ تَشْدُّ عَنِ الْحَضَرِ وَلَا يَأْخُذُهَا الْعَدَدُ. إِلَّا أَنَّ مِنْهَا مَا هُوَ ضَرُورِيٌّ فِي الْعُمْرَانِ، أَوْ شَرِيفٌ بِالْمَوْضُوعِ، فَتَخُصُّهَا بِالذِّكْرِ وَتُتْرَكُ مَا سِوَاهُمَا.

فَأَمَّا الضَّرُورِيُّ، فَكَالْفِلَاحَةِ، وَالْبِنَاءِ، وَالْحِيَاظَةِ، وَالتَّجَارَةِ، وَالْحَيَاكَةِ. وَأَمَّا الشَّرِيفَةُ بِالْمَوْضُوعِ، فَكَالتَّوْلِيدِ، وَالكِتَابَةِ، وَالْوِرَاقَةِ، وَالْغِنَاءِ، وَالطَّبِّ. 15

فَأَمَّا التَّوْلِيدُ، فَإِنَّهَا ضَرُورِيَّةٌ فِي الْعُمْرَانِ وَعَامَّةُ الْبُلُوَى، إِذْ بِهَا تَحْصُلُ حَيَاةُ الْمَوْلُودِ وَيَتِمُّ غَالِبًا. وَمَوْضُوعُهَا مَعَ ذَلِكَ: الْمَوْلُودُونَ وَأُمَّهَاتُهُمْ.

وَأَمَّا الطَّبُّ، فَهُوَ حِفْظُ الصَّحَّةِ لِلإِنْسَانِ وَدَفْعُ الْمَرَضِ عَنْهُ، وَيَتَفَرَّغُ عَنْ عِلْمِ الطَّبِّيعَةِ. وَمَوْضُوعُهُ مَعَ ذَلِكَ بَدَنُ الْإِنْسَانِ.

وَأَمَّا الْكِتَابَةُ وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنَ الْوَرَاقَةِ، فَهِيَ حَافِظَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ حَاجَتَهُ، 5 وَمُقَيِّدَةٌ لَهَا عَنِ النَّسْيَانِ، وَمُبَلِّغَةٌ ضَائِرَ النَّفْسِ إِلَى الْبَعِيدِ الْغَائِبِ، وَمُخَلِّدَةٌ نَتَائِجِ الْأَفْكَارِ وَالْعُلُومِ فِي الصَّحُفِ، وَرَابِعَةٌ رُتَبُ الْوُجُودِ لِلْمَعَانِي.

وَأَمَّا الْغِنَاءُ، فَهُوَ نِسْبُ الْأَصْوَاتِ، وَمُظْهَرُ جَمَالِهَا لِلْأَسْمَاعِ.

وَكُلُّ هَذِهِ الصَّنَائِعِ الثَّلَاثِ دَاعٍ عَلَى مُخَالَطَةِ الْمُلُوكِ الْأَعَاضِمِ فِي خَلَوَاتِهِمْ وَمَجَالِسِ أَنْسِهِمْ، فَلَهَا بِذَلِكَ شَرَفٌ لَيْسَ لغيرِهَا. وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الصَّنَائِعِ فَتَابِعَةٌ 10 وَمُفْتَنَةٌ فِي الْغَالِبِ. وَقَدْ يَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْأَغْرَاضِ وَالدَّوَاعِي. وَاللَّهُ ﴿الْخَلِيقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة الحجر، من الآية 86، وسورة يس، من الآية 81].

23 ﴿فَصُلْ﴾ فِي صِنَاعَةِ الْفَلَاحَةِ

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ ثَمَرُهَا اتِّخَاذُ الْأَقْوَاتِ وَالْحُبُوبِ، بِالْقِيَامِ عَلَى إِشَارَةِ الْأَرْضِ لَهَا وَازْدِرَاعِهَا، وَعِلَاجُ نَبَاتِهَا، وَتَعَاهُدُهُ بِالسَّقْيِ وَالتَّنْمِيَةِ إِلَى بُلُوغِ غَايَتِهِ، ثُمَّ حَصَادِ 15 سُنْبُلِهِ وَاسْتِخْرَاجِ حَبِّهِ مِنْ غِلَافِهِ، وَإِحْكَامِ الْأَعْمَالِ لِذَلِكَ وَتَحْصِيلِ أَسْبَابِهِ وَدَوَائِعِهِ.

وهي أقدم الصنائع، لما أنها مُحَصَّلَةٌ للقوت المَكْمَل لحياة / الإنسان غالباً، إذ [277ب]
يُمْكِن وجوده من دون جَمِيع الأشياء إلا من دونِ القوتِ. ولهذا ما اخْتُصَّت هذه
الصناعةُ بالبَدْوِ، إذ قَدَّمْنَا أَنَّهُ أَقْدَمُ من الحَضَرِ وسابِقٌ عليه. فكانت هذه الصناعةُ
لذلك بدويَّةً لا يقومُ عليها الحَضَرُ ولا يَعْرِفونها، لأنَّ أحوالهم كُلَّها ثابِتَةٌ عن البدَاوَةِ.
5 فصنَائِعُهُمْ ثابِتَةٌ عن صنَائِعِهَا، وتابعةٌ لها. والله ﴿الْخَلْقُ أَعْلَمُ﴾ [سورة الحجر، من الآية
86، وسورة يس، من الآية 81]

24 * فصل، في صناعة البناء

هذه أَوَّلُ صنَائِعِ العُثْرَانِ الحَضَرِيِّ وأقدمُها. وهي مَعْرِفَةُ العَمَلِ في اتِّخَاذِ
البيوتِ والمنازلِ للسَّكَنِ⁽¹⁾ والمأْوَى.

10 * (ب) [وذلك أَنَّ الإنسانَ لِمَا جُبِلَ عليه من الفِكرِ في عَوَاقِبِ أحواله لا يَدَّ لَهُ
أَن يُفَكِّرَ في مَوَانِعِ إِذَايَةِ الحَرِّ والبَرْدِ عنه، باتِّخَاذِ البيوتِ ذَوَاتِ الحِيطَانِ والسَّقْفِ
الحائِلَةِ دون ذلك من جِهَاتِهِ. والبَشَرُ مُخْتَلِفُونَ في هذه الجِبِلَّةِ الفِكرِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَعْنَى
الإنسَانِيَّةِ. فالمُعْتَدِلُونَ فيها - ولو على التَّفَاوُتِ - يَتَّخِذُونَ ذلك باعْتِدَالٍ، كأهلِ
الإقْلِيمِ الثَّانِي والثَّالِثِ والرَّابِعِ والخَامِسِ والسادسِ. وأمَّا أَهْلُ الأَوَّلِ والسَّابِعِ فَيَتَّبِعُونَ
15 عن اتِّخَاذِ ذلك، لَانْحِرَافِهِمْ وَقُصُورِ أَفْكَارِهِمْ عن كَيْفِيَّةِ العَمَلِ في الصَّنَائِعِ الإنسَانِيَّةِ،
فَيَأْوُونَ إلى الغَيْرَانِ والكُهُوفِ، كما يَتَنَاوَلُونَ الأَغْذِيَّةَ من غَيْرِ عِلاجٍ ولا نَضِجٍ.

(1) في ع ج ي: للكِبَرِ (ب) حاشية بخطه في ع، أثبتتها نسخة ج، وسقطت من نسختي ظ ي.

ثم المعتدِلون المتخذون البيوت للمأوى، قد يتكاثرون فتكثر بيوتهم في البسيط الواحد، بحيث يتناكرون ولا يتعارفون، فيخشى من طروق بعضهم البعض [بياتاً]^(أ) فيحتاجون إلى حفظ مُجتمعهم بإدارة سياج الأسوار التي تحوطهم، وتصير جميعها مدينة ومضراً* واحداً يحوطهم فيه الحُكام بدفاع بعضهم عن بعض*^(ب). وقد يحتاجون إلى الاعتصام من العدو فيتخذون المعقل والحصون لهم 5 ولئن تحت أيديهم. وهؤلاء مثل الملوك ومن في معناتهم من الأمراء وكبار القبائل.

ثم تختلف أحوال البناء^(ج) في المدن، كل مدينة على ما يتعارفونه ويضطلحون عليه، ويناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم في الفنى والفقر. وكذا حال أهل المدينة الواحدة، فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة، المشتمة على عدة الدور والبيوت والغرف لكثرة ولده وحشمة وعياله وتابعه. 10 ويؤسس جدرانها بالحجارة، ويلحم بينها بالكلس، ويعالي عليها بالأصيعة والجص، ويبلغ في كل ذلك بالتنجيد والتنميق، إظهاراً للبسطة^(د) في العناية بشأن المأوى، ويهيئ مع ذلك الأسراب والمطامير لاختزان أقواته، والإضطبلات لزيطة مُقرباته إن كان من أهل الجنود وكثرة التابع والغاشية، كالأمراء ومن في معناتهم. ومنهم من يبني الدويرة والبويت لنفسه وسكنه وولده، لا يتنغي ما وراء ذلك، لقصور حاله عنه، 15 واقتصره على الكن الطيعي للبشر. وبين ذلك مراتب غير مُحصرة.

(أ) من ج (ب) افردت ج وحدها بما بين النجمين (ج) نهاية حاشية بخطه في ع، أثبتتها نسخة ج، وسقطت من نسختي طي

(د) ج: للبسطة .

وقد يُحتاج إلى هذه الصّناعة أيضاً عند تأسيس الملوك وأهل الدّول المدن العظيمة والهيكل المرتفعة. ويُبالغون في إتيان الأوضاع وعلو الأجرام مع الإحكام لتبلغ الصّناعة مبالغها. * وهذه الصّناعة هي التي تحصل الدّواعي لذلك كلّها. وأكثر ما تكون هذه الصّناعة في الأقاليم المعتدلة*^(أ) من الزّراع وما حوله؛ إذ الأقاليم المنحرفة لا بناء فيها ، وإنّما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطّين ، [أو يأوون إلى الكهوف والغيران]^(ب) وإنّما توجد في الأقاليم المعتدلة^(ج).

[278]

5

وأهل هذه الصّناعة القائمون عليها متفاوتون. فمنهم البصير الماهر، ومنهم القاصر.

ثم هي تتنوع أنواعاً كثيرة:

فمنها البناء بالحجارة المنجّدة ، أو [بالآجر]^(د) يُقام بها الجدران مُلصقاً بعضها إلى بعض بالطّين والكليس الذي يُعقد معها فتلتحم كأنّها جسم واحد.

10

ومنها البناء بالتُّراب خاصّة، [تقام منه الحيطان، بأن]^(هـ) يُتخذ له لوحان من الخشب مقدّران طولاً وعرضاً باختلاف العادات في التقدير، وأوسطه أربعة أذرع في ذراعين. فينصبان على أساس، وقد بُوعِدَ ما بينهما بما يراه صاحب البناء في عرض الأساس، ويوصل بينهما بأذرعات من الخشب يُربط عليها بالحبال والجُدُل، وتُسَدُّ الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء^(و) بينهما بلوحيْن آخرين صغيرين. ثم يُوضع فيه التُّراب مُختلطاً بالكليس* ويملأ بالمزّاكر المُعدّة لذلك، حتى ينعم ركّزه وتختلط

15

(أ) ما بين النجمين من: ظ ي، وسقط من ع ج (ب) حاشية من ع، وسقطت من ظ ج ي (ج) هذه الجملة من ظ، ووجدت في الأصل ع، ثم شطبها (د) من ع (هـ) حاشية بخطه من ع (و) في ج ي، وفي الأصل ع وغيّرت إلى الفضاء .

أجزأؤه بالكس [١]، ثم يزداد التراب ثانياً وثالثاً إلى أن يمتلئ ذلك الخلاء (ب) بين اللوحين، وقد تداخلت أجزاء الكس والتراب وصارت جنساً واحداً. ثم يُعاد نَصَب اللوحين على الصورة الأولى، ويركز كذلك إلى أن يتم، وتنظم الألواح كلها سَطراً من فوق سَطْر إلى أن يَنْتَظِم الحائطُ كُلُّهُ مُلتَجِماً كأنه قطعة واحدة، ويسمى الطَّائِيَّة، وصانعه الطَّوَاب.

5

ومن صنائع البناء أيضاً أن تُجَلَّل الحيطان [بالكس] (ج) بغد أن يُحَلَّ بالماء ويُخَمَّر أسبوعاً أو أسبوعين، على قدر ما يَغْتَدِل مزاجه عن إفراط النارية المفسدة للإلحام. فإذا تَمَّ له ما يرضاه من ذلك، علاه من فوق الحائط وذلكه إلى أن يَلْتَحِم. ومن صنائع البناء عَمَلُ السَّقْف، بأن تُمدَّ الحُشْبُ المحكَّمة النجارة أو الساذجة على حائطي البيت، ومن فوقها الألواح كذلك موصولة بالدسائر، ويصَّب عليها 10 التراب والكس، ويُلَطَّ بالمراكر حتى تتداخل أجزاءهما وتلتحم، ويُعالى عليه الكس كما غُولِي على الحائط.

/ ومن صناعة البناء ما يَرْجَعُ إلى التَّنْمِيق والتزيين، كما تُصنع من فوق الحيطان الأشكال المجسَّمة من الجصَّ يُعَقَّد بالماء، ثم يُزَفَّعُ مُجَسِّداً وفيه بقيَّةُ البلل، فيشكَّل على التَّنَاسُبِ تحريماً بمثاقب الحديد، إلى أن يَبْقَى له رَوْنَقٌ ورَواءٌ. وربما 15 غُولِي على الحيطان أيضاً بِقِطْعِ الرُّخَامِ أو الآجُرِّ أو الحَزَفِ أو الصَّدْفِ أو السَّبَجِ، يُفَصَّلُ أجزاء مُتجانسة أو مُختلفة، ويوضع في الكس على نِسَبٍ وأوضاع مقدرة

[278ب]

(١) من ج ع ي، وسقط من ط (ب) في ج ي، وفي الأصل ع وغُيِّرَتْ إلى الفضاء (ج) من: ع ج ي، وسقطت من ط.

عندهم، ويبدو به الحائط للعيان كأنه قطع الرياض المتقنمة، إلى غير ذلك من بناء الجباب والصهاريج لسيح الماء، بعد أن تُعدَّ في البيوت قِصاع الرُخام، القُوراء المحكمة الحزط، بالقوّهات في وسطها لتُبع الماء الجاري إلى الصهرج، يُجلب إليها من خارج القنوات المُفضية به إلى البيوت. وأمثال ذلك من أنواع البناء.

5 ويختلف الصنّاع في جميع ذلك باختلاف الحِذق والبصر. ويغظم عُمران المدينة ويتّسع، فيكثرّون.

وربّما يرجع الحُكّام إلى نظّر هؤلاء فيما هم أبصرُ به من أحوال البناء. وذلك أنّ التّاس في المُدن ليكثرّ الازدحام والعُمران، يتشاحون حتّى في الفضاء والهواء للأعلى والأسفل، وفي الاتّفاف بظاهر البناء ممّا يتوقّع معه حصول الضرر في الحيطان، فيمنع جاره من ذلك إلّا ما كان له فيه حقّ. ويختلفون أيضاً في استحقاق 10 الطّرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات المُسرّبة في القنوات. وربّما يدّعي بعضهم حقّ بعض في حائطه أو علوّه أو قنّاته لتضائق الجوار، أو يدّعي بعض على جاره اعتلال حائطه وخشية سقوطه، ويحتاج إلى الحُكم عليه بهذمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه، أو يحتاج إلى قسمة دارٍ أو عرصة بين شريكين، بحيث لا يقع 15 مَعَه فساد في الدّار ولا إهمال لمنفعتهما. وأمثال ذلك. ويخفى جميع ذلك إلّا على أهل البصر بالبناء، العارفين بأحواله، المُستدلين عليها بالمعاقد / والقُمط ومراكز الخشب، ومثيل الحيطان واعتدالها، وقسم المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها، وتُشريب⁽¹⁾

[279]

(1) ع: تشريب .

المياه في القنوات مَجْلُوبَةٌ وَمَدْفُوعَةٌ، بحيثُ لا تَضُرُّ بما مرّت عليه من البيوت والحيطان، وغير ذلك. فلهم بهذا كله البَصَرُ والخِبرَةُ الَّتِي لَيْسَتْ لغيرهم.

وهم مع ذلك يَخْتَلِفُونَ بالجودة والقصور في الأجيال باعتبار الدُولِ وقُوَّتها. فإنّا قدّمنا أنّ الصّنائع وكمالها إنّما هو بكمال الحضارة، وكثرتها بكثرة الطالب لها. فلذلك⁽¹⁾ عندما تكون الدولة بدويّة في أوّل أمرها تَقْتَصِرُ في أمر البناء إلى غير قطرها، كما وقّع للوليد بن عبد الملك حين أجمع بناء مَسْجِدِ المدينة والقدس ومسجده بالشّام. فبعث إلى ملك الروم بالقُسطنطينيّة في الفعلة المَهْرَةَ في البناء، فبعث إليه منهم بمن كَمَّلَ له غَرَضَهُ من تلك المساجد.

وقد يُصَرِّفُ^(ب) صاحبُ هذه الصّناعة أشياء من الهندسة، مثل تَسْوِيَةِ الحيطان بالوزن، وإجراء المياه بأخذ الارتفاع، وأمثال ذلك؛ فيحتاج إلى البَصَرِ بشيء من مسائله. وكذلك في جَرِّ الأثقال بالهندام، فإنّ الأجزاء العظيمة إذا شِيدَتْ بالحجارة الكبيرة تَعْجُرُ قُدْرُ الفعلة عن رفعها إلى مكانها من الحائط؛ فيُتَحَيَّلُ لذلك بِمُضَاعَفَةِ قُوَّةِ الحبل، بإدخاله في المَعَالِقِ من أنقاب^(ج) مقدّرة على نسب هندسيّة، تُصَيِّرُ الثَّقِيلَ عند مُعَانَاةِ الرِّفْعِ خَفِيفاً، [وتسمّى الآلة لذلك بالمِيخَال]^(د). فيتمّ المراد من ذلك بغير كُفّة. وهذا إنّما يتمّ بأصول هندسيّة معروفة مُتَدَاوِلَةٌ بين البشر. وبمثلها 15 كان بناء الهياكل الماثلة لهذا العهد، الّتي يحسبُ النَّاسُ أنّها من بناء الجاهليّة، وأنّ أبدانهم كانت على نِسْبَتِها في عِظَمِ الجُثْمَانِ؛ وليس كذلك. وإنّما تمّ لهم ذلك بالحيل الهندسيّة، كما ذكرناه. فتفهّم ذلك. واللّهُ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية 47].

(1) في ع ج ي، وفي ظ: فكذلك (ب) كذا في ظ ع ج ي، بمعنى يستخدم (ج) ي: أنقاب (د) من ع.

25 * فَصْلٌ، فِي صِنَاعَةِ النِّجَارَةِ

هذه الصَّنَاعَةُ من ضَرُورَاتِ العُمُرَانِ ، وَمَادَّتُهَا الخَشَبُ . وذلك أَنَّ الله

سبحانه وتعالى جعل للآدَمِيِّ / في كُلِّ مَكُونٍ من المَكُونَاتِ مَنَافِعَ يُكْمِلُ بها [279ب] ضروراته أو حاجاته، وكان منها الشَّجَرُ، فَإِنَّ له فيه من المنافع ما لا يَتَحَصَّرُ، مِمَّا هو معروف لكلِّ واحدٍ . ومن مَنَافِعِهَا اتِّخَاذُهَا خَشَباً إِذَا يَبَسَتْ ، وَأَوَّلُ مَنَافِعِ الخَشَبِ أَنْ يَكُونَ وَقوداً لِلتَّيْرَانِ فِي مَعَاشِهِمْ، وَعَصِيّاً لِلانْتِكَاءِ وَالذُّودِ، وَغَيْرَهُمَا من ضروراتهم، ودعائهم لما يُخْشَى مِثْلُهُ من أَثْقَالِهِمْ، ثُمَّ بعد ذلك مَنَافِعُ أُخْرَى لِأَهْلِ البَدْوِ والحَضَرِ.

فَأَمَّا أَهْلُ البَدْوِ، فَيَتَّخِذُونَ مِنْهَا العُمَدَ والأَوْتَادَ لَخِيَامِهِمْ، والْحُدُوجَ لظَعَانَتِهِمْ، 10 والرُّمَاحَ والقِيسِيَّ والسَّهَامَ لِسِلَاحِهِمْ^(١) . وَأَمَّا أَهْلُ الحَضَرِ فَالسُّقُفُ لِبُيُوتِهِمْ، والأَغْلَاقُ لِأَبْوَابِهِمْ، والكِرَاسِيُّ لَجُلُوسِهِمْ. وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ، فَالخَشَبُ مَادَّةٌ لَهَا، وَلَا تَصِيرُ إِلَى الصُّورَةِ الْخَاصَّةِ بِهَا إِلَّا بِالصَّنَاعَةِ. والصَّنَاعَةُ الْمُتَكَفِّلَةُ بِذَلِكَ الْمُحَصَّلَةُ لكلِّ وَاحِدٍ مِنْ صُورِهَا، هِيَ التِّجَارَةُ عَلَى اخْتِلَافِ رُتَبِهَا.

فِيحْتَاجُ صَاحِبُهَا إِلَى تَفْصِيلِ الخَشَبِ أَوَّلًا ، إِمَّا بِخَشَبٍ أَضْعَفَ مِنْهُ أَوْ 15 بِالْوَاحِ ، ثُمَّ تَرْكِيبُ تِلْكَ الْفَصَائِلِ بِحَسَبِ الصُّورَةِ الْمَطْلُوبَةِ . فَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ يَحَاوِلُ بِصُنْعَتِهِ إِعْدَادَ تِلْكَ الْفَصَائِلِ بِالانْتِظَامِ، إِلَى أَنْ تَصِيرَ أَعْضَاءُ لَذَلِكَ الشَّكْلِ الْمَخْصُوصِ. والقَائِمُ عَلَى هَذِهِ الصَّنَاعَةِ هُوَ التِّجَارُ. وَهُوَ ضَرُورِيٌّ فِي العُمُرَانِ.

(١) ي: والسلاح.

ثم إذا عَظُمَت الحضارة وجاء الترف، وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف [من] ^(١) سقف أو باب أو كرسي أو ماعون، حدث التأنق في صناعة ذلك واستجداته بغرائب من الصنعة كالمية ليست من الضروري في شيء، مثل التخطيط في الأبواب والكراسي، ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخرز يحكم بزئها وتشكيلها ثم تؤلف على نسب مقدرة، وتلحم بالدساتير فتبدو لمزأى 5 العين ملتحة وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب، يصنع هذا في كل شكل يتخذ من الخشب، فتجيء آنق ما يكون. وكذلك في جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب ^(ب) من أي نوع كانت.

وكذلك قد يحتاج إلى هذه الصناعة في إنشاء السفن البحرية ذات الألواح والدسر. وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبجه في 10 الماء بقوادمه وكليله، ليكون ذلك الشكل أعون لها في مصادمة الماء، وجعل لها عوَض الحركة الحيوانية التي للسّمك تحريك الرياح، وربما أعمت بحركة المقاذيف كما في الأساطيل.

وهذه الصناعة من أضلها محتاجة إلى جزء كبير من الهندسة في جميع أضافها. لأن إخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الإحكام محتاج إلى 15 معرفة التناسب في المقادير، إما عموماً أو خصوصاً، وتناسب المقادير لا بد من الرجوع فيه إلى المهندس. ولهذا كان أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه

(١) سقط من ظ (ب) سقط ما بين النجيين من ج .

الصَّنَاعَة. فكان أُقْلِيدِس، صاحبُ كتاب الأُصول في الهندسة، نَجَّاراً، وبها كان يُعْرَف. وكذلك أَبْلُونِيوس، صاحب كتاب المخروطات، وميلاؤش، وغيرهم.

وفيما يُقال: إِنَّ مُعَلِّمَ هذه الصَّنَاعَةِ في الخَلِيقَةِ هو نُوحٌ، عليه السَّلَام، وبها أنشأ سَفِينَةَ التَّجَارَةِ الَّتِي بِهَا كَانَتْ مُعْجِزَتُهُ عِنْد الطُّوفَان. وهذا الخَبْرُ، وَإِنْ كَانَ مُضَكِّناً، أَغْنَى كَوْنُهُ نَجَّاراً، إِلَّا أَنَّ كَوْنَهُ أَوَّلَ مَنْ عَمِلَهَا لَا دَلِيلَ يَقُومُ عَلَيْهِ، لِبُعْدِ الْأَمَادِ؛ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ الْإِشَارَةُ إِلَى قِدَمِ التَّجَارَةِ. لِأَنَّهُ لَمْ تَصِحَّ حِكَايَةُ عَنْهَا قَبْلَ خَبَرِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، فَجُعِلَ كَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ تَعَلَّمَهَا. فَتَفَهَّمُوا أَسْرَارَ الصَّنَائِعِ فِي الْخَلِيقَةِ. وَاللَّهُ ﴿الْخَالِقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة الحجر، من الآية 86، وسورة يس، من الآية 81].

26 • فَضْلٌ، فِي صِنَاعَةِ الْحَيَاكَةِ وَالْحَيَاطَةِ

10 (أ) [اعْلَمْ أَنَّ الْمُتَعَدِّلِينَ مِنَ الْبَشَرِ فِي مَعْنَى الْإِنْسَانِيَةِ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنَ الْفِكْرِ فِي [مَعْنَى] (ب) الدَّفْعِ، كَالْفِكْرِ فِي الْكَيْزِ. وَيَحْضُلُ الدَّفْعُ بِاشْتِمَالِ الْمَنَسُوجِ لِلْوَقَايَةِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ. وَلَا بُدَّ لَذَلِكَ مِنَ الْإِحَامِ الْعَزَلِ حَتَّى يَصِيرَ ثَوْباً وَاحِداً، وَهُوَ النَّسْجُ وَالْحَيَاكَةُ.

فَإِنْ كَانُوا بَادِيَةً اقْتَصَرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ مَالُوا إِلَى الْحَضَارَةِ، فَصَلُّوا تِلْكَ [الثِّيَابِ] (ج) الْمَنَسُوجَةَ قِطْعاً يُقَدَّرُونَ مِنْهَا ثَوْباً عَلَى الْبَدَنِ بِشَكْلِهِ وَتَعَدُّدِ أَعْضَائِهِ

(أ) حاشية من ع بخطه لم تقلها ظ ي (ب) من: ج (ج) من: ع ج

واختلاف نواحيها. ثم يلائمون بين تلك القطع بالوصلات، حتى يصير ثوباً واحداً مُقدّراً على البدن، ويلبسونها. والصناعة المحصلة لهذه الملاءمة، هي الخياطة^(١).

وهاتان الصناعتان ضرورتان في العمران، لما يحتاج إليه البشر من الدفء.

- 5 فالأولى للنسج الغزل من الصوف والقطن سدوا في الطول وإلحاماً في العرض، وإحكاماً لذلك النسج بالالتحام الشديد، فتتم منها قطعٌ مُقدّرة. فمنها الأكسيّة من الصوف للاشتغال، ومنها الثياب من القطن والكثان للباس.

- [280ب] والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف / الأشكال والعوائد ،
تُفصل^(ب) أولاً بالمقراض قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية ، ثم تلحم^(ج) تلك القطع
بالخياطة المحكمة وصلاتاً أو حبكاً أو تبييناً^(د) أو تقطيعاً على [حسب]^(هـ) نوع
10 الصناعة. وهذه الثانية مُختصة بالعمران الحضري، لما أن أهل البدو يستغنون عنها،
وإنما يشتملون الأثواب اشتمالاً؛ وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة
لللباس، من مذاهب الحضارة وفنونها.

- وتفهم سرّ هذا في تحريم المخطط في الحجّ، لما أن مشروعية الحجّ مُستتيلة
15 على نبذ العلائق الدنيوية كلّها، والرجوع إلى الله كما خلقنا أول مرة، حتى لا يعلّق
العبد قلبه بشيء من عوائد ترفه، لا طيباً ولا نساءً ولا مخططاً ولا حقاً، ولا
يعرض لصيدٍ ولا لشيء من عوائده التي تلوث بها نفسه وخلقه، مع أنه يفقدُها

(١) نهاية حاشية من ع بخطه، لم نقلها ظي (ب) في ع: يُفصل (ج) ج: تلحم (د) ج: تبييناً (هـ) من: ع ي.

بالموت ضرورة. وإنما يحىء كآته وارِدٌ على المخشَر، ضارِعاً بقلبه، مُخْلِصاً لربه. وكان جزاؤه - إن تم له إخلاصه في ذلك - أن يُخْرَج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

سبحانك ما أَرْفَقَكَ بعبادك وأرحمك بهم في طلبِ هدايتهم إليك.

وهاتان الصناعتان قديمتان في الخليقة، لما أن الدَّفءَ ضروريٌّ للبشر في العمران 5 المعتدل. وأما المنَحَرِف إلى الحرِّ، فلا يحتاج أهله إلى دِفءٍ، ولهذا يبلغنا عن أهل الإقليم الأول من السودان، أنهم عُرَاةٌ في الغالب. ولقدّم هذه الصنائع تنسبها العامة إلى إدريس، عليه السلام، وهو أقدمُ الأنبياء. وربّما ينسبونها إلى هُرمُس، وقد يقال: إن هُرمُس هو إدريس. والله ﴿الْخَلْقُ أَعْلَمُ﴾. [سورة الحجر، من الآية 86، وسورة يس، من الآية 81].

27 • فَصْلٌ، فِي صِنَاعَةِ التَّوْلِيدِ

10 وهي صِنَاعَةٌ يُعْرَفُ بها العملُ في استِخْراجِ المُولودِ الآدميِّ من بطنِ أمه، من الرُّفْقِ في إخراجِه من رَحِمِها وتَهْيِئَةِ أسبابِ ذلك، ثم ما يُصِلُحُه بَعْدَ الخُروجِ، على ما نَذَكُر. وهي مُخْتَصَّةٌ بالنِّساءِ في غالبِ الأمرِ، لما أَنَّهُنَّ الظَّاهِراتُ بَعْضُهُنَّ على عَوْرَاتٍ بَعْضُ. وتُسَمَّى القائمةُ على / ذلك مِنْهُنَّ القابِلَةُ، استُعيرَ فيه مَعْنَى الإِعْطاءِ [281] والقبول، كأنَّ النِّساءَ تعطيها الجنينَ، وكأنَّها تقبلُهُ.

15 وذلك أَنَّ الجنينَ إذا اسْتَكْمَلَ خَلْقَه في الرِّجَمِ وَأَطْوَارِه، وبلغَ إلى غايَتِه والمُدَّةِ الَّتِي قَدَّرَ اللهُ لِمَكْنَتِه، وهي تِسْعَةُ أَشْهُرٍ في الغالبِ، فيَطْلُبُ الخُروجَ بما جعلَ اللهُ فيه من التَّزْوِجِ لذلك، ويَضِيقُ عليه المَنَقْدُ، فيَتَعَسَّر. وربّما مَزَّقَ بَعْضُ جَوَانِبِ الفَرْجِ

بالضَّغَطِ، وربَّما انْقَلَعَ ما كان في الأغَشِيَةِ من الالتِصاقِ والالتِحامِ بالرَّجَمِ. وهذه
كلُّها آلامٌ يَشْتَدُّ لها الوَجَعُ، وهو مَعْنَى الطَّلُقِ، فتكونُ القابِلَةُ مُعِينَةً في ذلك بَعْضُ
الشَّيْءِ، بَغْزُ الظَّهْرِ والوَرَكَيْنِ، وما يُحاذِي الرَّجَمَ من الأسافلِ، تُساوِقُ بذلك فِعْلَ
الدَّافِقَةِ في إخراجِ الجنينِ، وتُسَهِّلُ ما يَصْعُبُ منه بما يُفَكِّكُها، وعلى ما تَهْتَدِي إلى
مَعْرِفَةِ عُسْرِهِ. ثمَّ إذا خَرَجَ الجنينُ بَقِيَثَ بَيْنَهُ وبين الرَّجَمِ الوُصْلَةُ الَّتِي كان يَتَغَدَّى 5
منها مُتَّصِلَةً من سُرَّتِهِ بِمِعاةٍ. وتلك الوُصْلَةُ عَضْوٌ فَضْلِيٌّ لِتَغْذِيَةِ المولودِ خَاصَّةً،
فَتَقْطَعُها القابِلَةُ من حَيْثُ لا يَتَغَدَّى مَكَانَ الفُضْلَةِ ولا يَضُرُّ بِمِعاةٍ ولا يَرْجِمُ أُمَّهُ، ثمَّ
تُدْمِلُ مَكَانَ الجِراحَةِ مِنْهُ بالكَيِّ أو بما تَراه من وُجوهِ الانْدِمَالِ.

ثمَّ إِنَّ الجنينَ عندَ خُرُوجِهِ في ذلك المَنْقَذِ الضَّيِّقِ، وهو رَطْبُ العِظامِ،
سَهْلُ الانْعِطافِ والانتِشاءِ، فَرَبَّما تَتَغَيَّرُ أَشْكالُ أَعْضائِهِ وأَوْضاعُها لِقُرْبِ التَّكْوِينِ 10
وَرُطوبَةِ المَوادِّ. فَتَتَنَاولُهُ القابِلَةُ بِالْعَمَزِ والإِصْلاحِ حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عَضْوٍ إلى شَكْلِهِ
الطَّبِيعِيِّ وَوَضِعِهِ المُقَدَّرَ لَهُ، وَيَزْدَدُ خَلْقُهُ سَوِيًّا.

ثمَّ بَعْدَ ذلك تُراجِعُ النِّفْسُاءُ وَتُحاذِيها بِالْعَمَزِ والمُلايِمَةِ لَخُرُوجِ أَغْشِيَةِ الجنينِ،
لأنَّها رُبَّما تَتَأَخَّرُ عن خُرُوجِهِ قَلِيلًا، وَيُخْشَى عِنْدَ ذلك أن تُراجِعَ الماسِكَةَ حَالِها
الطَّبِيعِيَّةَ قَبْلَ اسْتِكْمالِ خُرُوجِ الأغْشِيَةِ، وَهي فَضَلاتٌ، فَتَتَغَفَّنَ وَيَسْرِي عَفْنُها 15
إلى الرَّجَمِ، فَيَقَعُ الهَلَاكُ. فَتُحاذِرُ القابِلَةُ هَذَا، / وَتُحاولُ في إِعانةِ الدَّفْعِ إلى أن تَخْرُجَ
تلك الأغْشِيَةُ إِنْ كانت قد تَأَخَّرَتْ.

ثمَّ تَرْجِعُ إلى المُولودِ، فَتَمَرِّخُ أَعْضاءَهُ بالأَذْهانِ والذَّرُورِ القابِضَةَ لَشُدِّها،
وَتُحَقِّقُ رُطوبَاتِ الرَّجَمِ. وَتُحَنِّكُهُ لِرَفْعِ لَهائِهِ، وَتُسَعِّطُهُ لاسْتِفْراغِ بَطُونِ دِماغِهِ،

وَتُعْزِزُهُ بِاللُّعُوقِ لِدَفْعِ السَّدَدِ مِنْ مِيعَاهُ وَتَجْوِفُهَا عَنِ الْإِلْتِصَاقِ. ثُمَّ تُدَاوِي النَّفْسَاءَ
بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْوَهْنِ الَّذِي أَصَابَهَا بِالطَّلُقِ، وَمَا لَحِقَ رَجَمَها مِنْ أَلَمِ الْإِفْصَالِ، إِذِ
الْمَوْلُودُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَضْوًا طَبِيعِيًّا، فَحَالَةُ التَّكْوِينِ فِي الرَّجَمِ صَيْرَتُهُ بِالْإِلْتِصَاقِ
كَالْعَضْوِ الْمُتَّصِلِ. فَلِذَلِكَ كَانَ فِي إِفْصَالِهِ أَلَمٌ يَقْرُبُ مِنْ أَلَمِ الْقَطْعِ. وَتُدَاوِي مَعَ ذَلِكَ
5 مَا يَلْحَقُ الْفَرْجَ مِنْ جِرَاحَةِ التَّمْزِيقِ عِنْدَ الصَّغَطِ فِي الْخُرُوجِ. وَهَذِهِ كُلُّهَا أَدْوَاءُ نَجْدٍ
هَؤُلَاءِ الْقَوَائِلِ أَبْصَرَ بِدَوَائِهَا.

وَكَذَلِكَ مَا يَغْرِضُ لِلْمَوْلُودِ مُدَّةَ الرِّضَاعِ مِنْ أَدْوَاءٍ فِي بَدَنِهِ إِلَى حِينِ
الْفِصَالِ، نَجْدُهُنَّ أَبْصَرَ بِهَا مِنَ الطَّبِيبِ الْمَاهِرِ. وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ بَدَنَ الْإِنْسَانِ فِي
تِلْكَ الْحَالَةِ إِنَّمَا هُوَ بَدَنٌ إِنْسَانِيٌّ بِالْقُوَّةِ فَقَطْ. فَإِذَا جَاوَزَ الْفِصَالَ، صَارَ بَدَنًا إِنْسَانِيًّا
بِالْفِعْلِ، فَكَانَتْ حَاجَتُهُ حِينَئِذٍ إِلَى الطَّبِيبِ أَشَدَّ. 10

فَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ، كَمَا تَرَاهُ، ضَرُورِيَّةٌ فِي الْعُمُرَانِ لِلتَّنُوعِ الْإِنْسَانِيِّ، لَا يَتِمُّ كَوْنُ
أَشْخَاصِهِ فِي الْغَالِبِ دُونَهَا.

وَقَدْ يَغْرِضُ لِبَعْضِ أَشْخَاصِ التَّنُوعِ الْإِسْتِغْنَاءُ عَنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ، إِمَّا بِخَلْقِ
اللَّهِ ذَلِكَ لَهُمْ مُعْجِزَةً وَخَرَقًا لِلْعَادَةِ، كَمَا فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، أَوْ
بِالْهَامِ وَهَدَايَةِ يُلْهِمُهُمْ لَهَا الْمَوْلُودُ وَيُفْطِرُ عَلَيْهَا، فَيَتِمُّ وَجُودُهُمْ مِنْ دُونِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ. 15
فَأَمَّا شَأْنُ الْمُعْجِزَةِ مِنْ ذَلِكَ، فَقَدْ وَقَعَ كَثِيرًا. وَمِنْهُ مَا رُوِيَ⁽¹⁾ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وُلِدَ

(1) هَذَانِ حَدِيثَانِ كِلَاهُمَا ضَعِيفٌ. أَوَّلُهُمَا حَدِيثُ الْأَوْزَاعِيِّ عَنْ حَسَّانَ بْنِ عَطِيَّةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا وُلِدَ وَقَعَ
عَلَى كَفِّهِ وَرَكْبَتَيْهِ شَاخِصًا بِصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ. أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ 1: 103، وَهُوَ مُزْسَلٌ. وَثَانِيهِمَا
حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: وَلِدَ النَّبِيُّ ﷺ مَخْتُونًا مَسْرُورًا، وَهُوَ حَدِيثٌ مُنْكَرٌ، أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ

مَخْتُوناً مُسْرُوراً وَاضِعاً يَدَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ، شَاخِصاً بَبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ. وَكَذَلِكَ
شَأْنُ عِيسَى فِي الْمَهْدِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا شَأْنُ الْإِلَهَامِ، فَلَا يُنْكَرُ. وَإِذَا كَانَتْ الْحَيَوَانَاتُ الْعُجْمُ تَخْتَصُّ بِغَرَائِبِ
مِنَ الْإِلَهَامَاتِ، كَالْتَحُلِّ وَغَيْرِهَا، فَمَا ظَنُّكَ بِالْإِنْسَانِ الْمُفْضَلِ عَلَيْهَا، وَخُصُوصاً بِمَنْ
اخْتَصَّ بِكَرَامَةِ اللَّهِ. ثُمَّ الْإِلَهَامُ / الْعَامُّ لِلْمَوْلُودِينَ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى الشَّيْءِ مِنْ أَوْضَحِ 5
شَاهِدٍ عَلَى وُجُودِ الْإِلَهَامِ لَهُمْ؛ فَشَأْنُ الْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ.

وَمِنْ هُنَا، يُفْهَمُ بُطْلَانُ رَأْيِ الْفَارَابِيِّ وَحُكْمَاءِ الْأَنْدَلُسِ فِيمَا اخْتَجَّوْا بِهِ لِعَدَمِ
اِقْتِرَاضِ الْأَنْوَاعِ وَاسْتِحَالَةِ انْقِطَاعِ الْمَكُونَاتِ، وَخُصُوصاً فِي النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ. وَقَالُوا:
لَوْ انْقَطَعَتْ أَشْخَاصُهُ لَاسْتَحَالَ وُجُودُهَا بَعْدَ ذَلِكَ، لِتَوَقُّفِهِ عَلَى وُجُودِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ
الَّتِي لَا يَتِمُّ كَوْنُ الْإِنْسَانِ إِلَّا بِهَا. إِذْ لَوْ قَدْ زُنَا مَوْلُوداً دُونَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَكَفَّالَتِهَا 10
إِلَى حِينِ الْانْقِصَالِ لَمْ يَتِمَّ بَقَاؤُهُ أَصْلاً. وَوُجُودُ الصَّنَائِعِ دُونَ الْفِكْرِ مُمْتَنِعٌ، لِأَنَّهَا تُثَرِّتُهُ
وَتَابِعَةٌ لَهُ.

وَتَكَلَّفَ ابْنُ سِينَا⁽¹⁾ فِي الرَّدِّ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ، لِمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهُ وَذَهَابِهِ إِلَى
إِمْكَانِ انْقِطَاعِ الْأَنْوَاعِ وَخَرَابِ عَالَمِ التَّكْوِينِ، ثُمَّ عَوْدِهِ ثَانِيَةً لِاِفْتِضَاءَاتِ فَلَكِيَّةِ

= أَيْضاً 1: 103، فَالثَّابِتُ أَنَّ جَدَّهُ عَبْدَ الْمُطَلِّبِ حَقَّقَهُ يَوْمَ سَابِعِهِ. رَوَاهُ الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ عَنْ شُعَيْبِ بْنِ أَبِي
حُمْزَةَ عَنْ عَطَاءِ الْخِرَاسَانِيِّ عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ الذَّهَبِيُّ: هَذَا أَصَحُّ تَمَّا رَوَاهُ ابْنُ سَعْدٍ (تَارِيخُ
الْإِسْلَامِ 1: 485).

(1) لَمْ يَوْرَدْ ابْنُ سِينَا شَيْئاً مِنْ هَذَا فِي رِسَالَةِ حَيِّ بْنِ يَقْطَانَ، وَإِنَّمَا جَاءَ وَصْفُ "التَّخْلُقِ الذَّاتِيِّ" تَقْلَافاً عَنْ
زَعَمُوا ذَلِكَ، عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ ابْنِ الطَّقِيلِ فِي رِسَالَةِ حَيِّ بْنِ يَقْطَانَ 69-70، وَقَدْ تَقَدَّرَ فِيهَا مِنْ تَقْدِمِهِ مِنْ
الْفَلَّاسِفَةِ، مِثْلُ: ابْنِ الصَّنَائِعِ، وَالْفَارَابِيِّ - الَّذِي كَانَ كَثِيرَ الشُّكُوكِ - وَابْنَ سِينَا، وَالْغَزَالِيَّ.

وأوضاع غريبة تُندّر في الأخقاب برغمه، فتقتضي تخمير طينة مُناسبة لمزاجه بحرارة مُناسبة، فيتمّ كونه إنساناً. ثم يُقيّض له حيوانٌ يُخلَق فيه إلهامٌ لتربيته والحنوّ عليه إلى أن يتمّ وجوده وفصّاله. وأظنّب في بيان ذلك في الرسالة التي سَمّاها برسالة حيّ ابن يقظان. وهذا الاستدلال غير صحيح، وإن كُنّا نوافقه على انقطاع الأنواع، لكن من غير ما استدللّ به. فإنّ دليله مبنيّ على إسناد الأفعال إلى العلّة الموجبة، 5 ودليل القول بالفاعل المختار يردّ عليه. ولا واسطة على القول بالفاعل المختار بين الأفعال والقدرة القديمة، ولا حاجة إلى هذا التكلّف. ثم لو سلّمناه جدلاً، فغايته ما يُبنى عليه اطراد وجود هذا الشخص بخلق الإلهام لتربيته في الحيوان الأعجم، [وما الضرورة الدّاعية لذلك؟ وإذا كان الإلهام يُخلَق في الحيوان الأعجم] ⁽¹⁾، فما المانع من خلقه للمولود نفسه، كما قرّزناه أولاً؟ وخلق الإلهام في شخص لمصالح نفسه، أقرب 10 من خلقه فيه لمصالح غيره. فكلّا المذهبين شاهدان على أنفسهما بالبطلان في مناحيهما، لما قرّزته لك. والله ﴿الْخَلِّقُ الْعَلِيمُ﴾. [سورة الحجر، من الآية 86، وسورة يس، من الآية 81].

28 / فصل، في صناعة الطب، وأنها محتاجٌ إليها في الحواضر والأمصار [282ب]

دون البادية

15 هذه الصناعة ضرورية في المدن والأمصار لما عُرف من فائدتها. فإنّ ثمرتها حفظ الصّحة للأصحاء، ودفع المَرَض عن المَرَضَى بالمداواة، حتّى يحصل لهم البرء من أدوائهم.

(1) سقط من ظ .

واعلم أنّ أصل الأمراض كلّها إنّما هو من الأغذية، كما قال في الحديث الجامع للطّب [كما يُنقل عن أهل الصناعة، وإن طعن فيه العلماء⁽¹⁾]، وهو قوله⁽¹⁾: "المعدة يَبْتُ الداء، والحفمة رأس الدّواء". "وأصل كلّ داء البردة"⁽²⁾. فأما قوله: المعدة يَبْتُ الداء، فظاهر. وأما قوله: الحفمة رأس الدّواء، فالحفمة الجوع، وهو الاختباء من الطعام، والمعنى أنّ الجوع هو الدّواء العظيم الذي هو أصل الأدوية. وأما قوله: أصل كلّ 5 كل داء البردة، فمعنى البردة إدخال الطعام على الطعام في المعدة قبل أن يَمَّ هَضْمُ الأوّل. وشرح هذا، أنّ الله سبحانه خلق الإنسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالأكل، وتنفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية إلى أن يصير دماً مُلائماً لأجزاء البدن من اللحم والعظم. ثم تأخذه التامية، فينقلب لحماً وعظماً. ومعنى الهضم: طبخ 10 الغذاء بالحرارة الغريزية طوراً بعد طور، حتّى يصير جزءاً بالفعل من البدن.

وتفسيره أنّ الغذاء إذا حصل في الفم ولاكنه الأشداق، أثرت فيه حرارة الفم طبخاً يسيراً، وقلبت مزاجه بعض الشيء، كما تراه في اللقمة إذا تناولتها طعاماً ثم أجدها مَضناً، فترى مزاجها غير مزاج الطعام. ثم يحصل في المعدة، فتطبخه حرارة المعدة إلى أن يصير كيموساً، وهو صفو ذلك المطبوخ، وترسله إلى الكبد، وترسل ما يرسب منه في المعى ثَقُلًا ينفذ إلى المخرجين. ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك 15

(1) من حاشية ع وحدها.

(1) لا يصح من حديث النبي ﷺ، ولعله من كلام الحارث بن كدة كما في المقاصد الحسنة للسخاوي 611-612 وتخرج الأحاديث والآثار للزبيدي 1: 459.

(2) حديث أخرجه ابن جبان في المجروحين 1: 204، والذهبي في الميزان 1: 359، من حديث أنس وغيره. والبردة: التخمّة.

الكيوس إلى أن يصير دماً عبيطاً، وتطفو عليه رغوّة من الطبخ، هي الصفراء. وترسب منه أجزاء يابسة، هي السوداء. ويُقصر الحارّ الغريزيّ بعض الشيء عن طبخ الغليظ منه، فهو البلغم. / ثم يُرسلها الكبد كلها في العروق والجدول، ويأخذها [283] طبخ الحارّ الغريزيّ هنالك، فيكون عن الدم الخالص بخار حارّ رطب يمدّ الروح الحيواني. وتأخذ التامية مأخذها في الدم، فيكون لحماً، ثم غليظه عظماً. ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللّعاب والمخاط والدّمع. هذه صورة الغذاء وخروجه من القوّة إلى الفعل لحماً.

ثم إن أصل الأمراض، ومعظمها هي الحميات. وسببها أن الحارّ الغريزيّ قد يضعف عن تمام النضج في طبخه في كلّ طور من هذه، فيبقى ذلك الغذاء دون نضج. وسببه غالباً كثرة الغذاء في المعدة حتّى يكون أغلب على الحارّ الغريزيّ، أو إدخال الطعام إلى المعدة قبل أن تستوفي طبخ الأول، فيشتغل به الحارّ الغريزيّ، ويترك الأول بحاله، أو يتوزّع عليهما، فيقصر عن تمام الطبخ والنضج. وترسله المعدة كذلك إلى الكبد، فلا تقوى حرارة الكبد أيضاً على إنضاجه. وربّما بقي في الكبد من الغذاء السابق فضلة غير ناضجة، ويُرسل الكبد جميع ذلك إلى العروق غير ناضج كما هو. فإذا أخذ البدن حاجته الملائمة، أرسله مع الفضلات الأخرى من العرق والدّمع واللّعاب إن اقتدر على ذلك. وربّما يعجز عن الكثير منه، فيبقى في العروق والكبد والمعدة وتترايد مع الأيام. وكلّ ذي رطوبة من المُتَرَجات إذا لم يأخذ الطبخ والنضج تتعفن. فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج، وهو المسمّى بالخلط. وكلّ مُتَعَفّن فيه حرارة غريبة، وتلك هي المسمّاة في بدن الإنسان بالحمى. واعتبر

ذلك في الطعام إذا ترك حتى يتعفن، وفي الزئبل إذا تعفن كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها. فهذا معنى الحميات في الأبدان، وهي رأس الأمراض وأصلها، كما وقع في الحديث.

[283ب] ولهذه الحميات علاجات بقطع الغذاء عن المريض / أسايغ معلومة، ثم تناوله
5 الأغذية الملائمة حتى يتم برؤه . وكذلك في حال الصحة له علاج في التحفظ من
هذا المرض وغيره. وقد يكون ذلك التعفن في عضو مخصوص، فيتولد عنه مرض
في ذلك العضو، أو تحدث خراجات في البدن، إما في الأعضاء الرئيسية أو في
غيرها. وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له.

هذه كلها جماع الأمراض، وأصلها في الغالب من الأغذية. وهذا كله مدفوع
10 إلى الطبيب.

ووقع هذه الأمراض في أهل الحضر والأمصا أكثر، لخصب عيشهم،
وكثرة ماكلهم، وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الأغذية، وعدم توقيتهم لتناولها،
وكثرة ما يخلطون بالأغذية من التوابل والبقول والفواكه رطباً ويابساً في سبيل
العلاج بالطبخ. ولا يقتصرون في ذلك على نوع ولا أنواع. فربما عددنا في اللون
15 الواحد من ألوان الطبخ أربعين نوعاً من التبات والحيوان، فيصير للغذاء مزاج
غريب. وربما يكون بعيداً عن ملاءمة البدن وأجزائه.

ثم إن الأهوية في الأمصار تفسد بمخالطة الأبخرة العفنة من كثرة الفضلات.
والأهوية منشطة للأرواح ومقوية بنشاطها لأثر الحار الغريزي في الهضوم. ثم

[إِنَّ^(١)] الرياضة مفقودة لأهل الأُمصار، إذ هم في الغالب وادِّعون ساكنون، لا تأخذ منهم الرياضة شيئاً ولا تؤثر فيهم أثراً. فكان وقوع الأمراض كثيراً في المدن والأُمصار، وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم إلى هذه الصناعة.

فأما أهل البدو، فآكلهم قليل في الغالب، والجوع أغلب عليهم لقلّة الحبوب
5 حتى صار لهم ذلك عادة، وربما يظنُّ أنها جيلة لاستمرارها. ثم الأدم قليلةٌ لآدمهم
أو مفقودةٌ بالجملة. وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه إنما يدعو إليه ترُف الحضارة
الذي هم عنه بمغزل، فيتناولون أغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالفها، ويقترب مزارعها
من مُلاءمة / البدن. وأما أهويتهم فقليلة الغنى لقلّة الرطوبات والعفونات إن كانوا
[١284] أهليين، أو لاختلاف الأهوية إن كانوا ظواغين.

10 ثم إنَّ الرياضة موجودةٌ فيهم من كثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد
أو طلب الحاجات أو مهنة أنفسهم في حاجاتهم. فيخسَن بذلك كله^(ب) الهضم
ويجود، ويُفقَد إدخال الطعام على الطعام. فتكون أمرجتهم أصلح وأبعد عن
الأمراض، فتقل حاجتهم إلى الطب. ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية بوجه. وما
ذلك إلا للاستغناء عنه، إذ لو احتجَّ إليه لوجد، لأنه يكون له بذلك في البدو
15 معاش يدعوهُ إلى سُكناه، سنة الله في عباده. ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ بُدِيلاً﴾
[سورة الفتح، من الآية 23، وسورة الأحزاب، من الآية 62].

(١) من ج (ب) سقط من ج .

29 • فصل، في أن الخط والكتاب من عداد الصنائع الإنسانية

وهو رسوم وأشكال حَرْفِيَّةٌ تدلُّ على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس. فهو ثاني رُبَّةٍ عن الدلالة اللغوية. وهو صناعة شريفة، إذ الكتابة من خواص الإنسان التي تميّز بها عن الحيوان. وأيضاً فهي تطلّع على ما في الصّائِر، وتُؤدّي بها الأغراض إلى البلد البعيد، فتقتضي الحاجات وقد دُفِعَتْ مؤوَنَةُ المباشرة لها، ويُطلّع بها على العلوم والمعارف وصُحُف الأولين وما كتَبوه من علومهم وأخبارهم. فهي شريفة بجميع هذه الوجوه والمنافع، وخروجها في الإنسان من القوة إلى الفعل إنّما يكون بالتّعليم.

وعلى قدر الاجتماع والعُمران والتّناغي في الكمالات والطلب لذلك، تكون جودة الخط في المدينة، إذ هو من جملة الصّنائع. وقد قدّمنا أن هذا شأنها وأنها 10 تابعة للعُمران. ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يقرأون ولا يكتبون، ومن قرأ منهم أو كتب، فيكون خطّه قاصراً وقراءته غير نافذة.

ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عُمرانها عن الحدّ، أبلغ وأسهل وأحسن طريقاً لاستحكام الصّبغة فيها، كما يُحكى لنا عن مِصرَ لهذا العهد، وأنّ / بها مُعلّمين مُنتصين لتعليم الخطّ، يُلقون على المتعلّم قوانين وأحكاماً في وضع كلّ حرف، 15 ويَزيدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه، فتغتضد لديه رُبَّةُ العِلْم والحسّ في التّعليم، وتأتي ملكته على أتمّ الوجوه، وإنّما أتى هذا من كمال الصّنائع ووفورها بكثرة العُمران وانفساح الأعمال.

[284ب]

(١) [وليس الشأن في تعلّم الخطّ بالأندلس والمغرب كذلك في تعلّم كلّ حرفٍ
بأفاده على قوانين يُلقِيها المُعلِّمُ للمُتعلِّم، وإنّا تُتعلَّمُ بمحاكاة الخطّ في هاتهِ (ب) الكلمات
جُملةً وتكرَّر ذلك من المُتعلِّم، ومطالعة المُعلِّم له، إلى أن تحضَّل له الإِجادة ويتمكَّن
في هاتهِ (ج) الملكة، فيُسمَّى مُجيداً].

5 وقد كان الخطّ العربيّ بالغاً مبالغةً من الإحكام والإتقان والجودة في دولة
التبابعة لما بلغت من الحضارة والتّرف، وهو المسمّى بالخطّ الحُميريّ. وانتقل منهم
إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر، نُسبَاء التبابعة في العَصبيّة، والمُجَدِّدين
لملِك العرب بأرض العراق. ولم يكن الخطّ عندهم من الإِجادة كما كان عند التبابعة،
لقُصور ما بين الدُولتين. فكانت الحضارة وتوابُعها من الصّنائع وغيرها قاصرةً عن
10 ذلك. ومن الحيرة لَقِنَةُ أَهْلِ الطّائِف وفُريش فيما ذُكر. يقال: إنّ الذي تعلّم الكتابة من
الحيرة هو سُفْيَانُ بن أُمَيَّة، وقيل: حَزْبُ بن أُمَيَّة، وأخذها من أَشَلَم بن سُدرة.
وهو قولٌ مُمكن، وأقربُ ممّن ذهب إلى أنّهم تعلّموها من إِيَادِ أَهْلِ العراق، لقول
شاعِرهم (١): [من المنسرح]

قومٌ لهم ساحةُ العراق إذا ساروا جميعاً والخطُّ والقلمُ

(١) من ع ج، وسقط من ط ي (ب) في ج: كتابة (ج) من ع، وفي ج: بناته .

(١) هو أُمَيَّة بن أبي الصلت التّقفي، انظر ابن هشام: سيرة النّبي ﷺ 1: 48، ورواية آخر العجز عنده: والقَطُّ
والقلم. والبيت قبله:

قومي إِيَادٌ لو أنّهم أممٌ أو لو أقاموا فتهزل النعم

وهو قولٌ بعيدٌ، لأنَّ إباداً ولو نزلوا ساحةَ العراق، فلم يزالوا على شأنهم من البداوة، والخطُّ من الصَّنائع الحضريَّة. وإنَّما مَعْنَى قَوْلِ الشَّاعر أَنَّهُم أَقْرَبُ إِلَى الحِطِّ والقَلَمِ من غَيْرِهِم من العَرَبِ لِقُرْبِهِم من ساحةِ الأُمصارِ وضواحيها. فالقولُ بأنَّ أهلَ الحجازِ إِنَّمَا لَقِنُوهَا من الحِيرةِ، وَلَقِنَهَا أَهْلُ الحِيرةِ من الثَّبايعِ وَحَمِيرٍ، هُوَ^(١) الأَلْيَنُ من الأقوال.

5

(ب) [ورأيتُ في كتاب التَّكْملة^(١) لابن الأَبَّار، عند التَّعْرِيفِ بابن فَرْوخ القَيْروانيِّ الفارسيِّ الأَنْدَلُسيِّ، من أَصحابِ مالِك، واسمُهُ عبد الله بن فَرْوخ، فقال: روى ابن فَرْوخ عن عبد الرَّحْمَنِ بن زياد بن أنعم، عن أبيه، قال: قلت لعَبْدِ اللَّهِ بن عَبَّاسٍ: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، خَبِّرُونِي عن هذا الكِتَابِ العَرَبِيِّ، هل كُنْتُمْ تَكْتُبُونَهُ قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ، تَجْمَعُونَ مِنْهُ ما اجْتَمَعَ، وَتَفْرَقُونَ مِنْهُ ما افْتَرَقَ، مثل الألف واللام والميم والنون؟ قال: نعم، قلتُ: وَمِمَّنْ أَخَذْتُمُوهُ؟ قال: من حَزْبِ بن أُمَيَّةَ، قلتُ: وَمِمَّنْ أَخَذَهُ حَزْبٌ؟ قال: من عَبْدِ اللَّهِ بن جُدْعانَ، قلتُ: وَمِمَّنْ أَخَذَهُ ابْنُ جُدْعانَ؟ قال: من أَهْلِ الأَنْبَارِ، قلتُ: وَمِمَّنْ أَخَذَهُ أَهْلُ الأَنْبَارِ؟ قال: من طاريئٍ طَرَأَ عَلَيْهِم من أَهْلِ اليَمَنِ، قلتُ: وَمِمَّنْ أَخَذَهُ ذَلِكَ الطَّارِئُ؟ قال: من الحُلُجَّانِ بن القاسمِ، كاتبِ الوَحْيِ ليهودِ النَّبِيِّ، صلواتُ اللَّهِ عليه، وهو^(١) الَّذِي يَقُولُ: [من الطويل]

15

(١) من: ج ع، وفي ي: وهو (ب) حاشية من ع بخطه سقطت من ج ي ظ .

(١) التَّكْملة لكتاب الصَّلَة 2: 227 ، (تحقيق عبد السلام الهراس، دار المعرفة، الدار البيضاء، المغرب).

وَأَيُّ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ يُعَبِّرُ
وَلِلْمَوْتِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ تَسُبُّنَا

انتهى ما نقله ابن الأثير في كتاب التكملة.

وزاد آخره : حدثني بذلك أبو بكر بن أبي جمرة في كتابه ، عن أبي بحر
5 [سفيان]^(١) بن العاص ، عن أبي الوليد الوقيشي ، عن أبي عمر الطلمنكي ، عن أبي
عبد الله بن مفرح ، ومن خطه نقلته ، عن أبي سعيد بن يونس^(ب) ، عن محمد بن
موسى بن الثعلبان ، عن يحيى بن محمد بن حُشيش ، عن عثمان بن أيوب المَعافري
التوسي ، عن بهلول بن عُبَيْدة التَّجِيبي ، عن عبد الله بن فَرْوخ . انتهى [ج].

وكان لِحَمِيرِ كِتَابَةٌ تُسَمَّى الْمُسْنَدَ ، حُرُوفُهَا مُنْقَصِلَةٌ . وَكَانُوا يَمْنَعُونَ مِنْ تَعْلِيمِهَا
10 إِلَّا بِأَذْنِهِمْ . وَمِنْ حَمِيرٍ تَعَلَّمَتْ مُضَرُّ الْكِتَابَةَ الْعَرَبِيَّةَ . إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُجِيدِينَ لَهَا ،
شَأْنَ الصَّنَائِعِ إِذَا وَقَعَتْ بِالْبَدْوِ ، فَلَا تَكُونُ مُحْكَمَةً الْمَذَاهِبِ وَلَا مَائِلَةً إِلَى الْإِقْتَانِ
وَالْتَنَمِيقِ ، لِبُتُونِ مَا يَتَنُ الْبَدْوُ وَالصَّنَاعَةُ ، وَاسْتِغْنَاءِ الْبَدْوِ عَنْهَا فِي الْأَكْثَرِ . فَكَانَتْ
كِتَابَةُ الْعَرَبِ بَدْوِيَّةً مِثْلَ أَوْ قَرِيباً مِنْ كِتَابَتِهِمْ لِهَذَا الْعَهْدِ ، * أَوْ نَقُولُ : إِنَّ كِتَابَتَهُمْ لِهَذَا
الْعَهْدِ *^(د) أَحْسَنُ صِنَاعَةٍ ، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ إِلَى الْحَضَارَةِ وَمُخَالَطَةِ الْأُمُصَارِ وَالِدُّوْلِ .
15 وَأَمَّا مُضَرُّ ، فَكَانُوا أَغْرَقَ فِي الْبَدْوِ وَأَبْعَدَ عَنِ الْحَضَرِ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ وَأَهْلِ الْعِرَاقِ

(١) من التكملة (ب) إلى هنا ينتهي السند الذي ذكره ابن الأثير بعد الخبر . وما بعده هو سند آخر لأبي سعيد بن يونس ، ذكره ابن
الأثير أيضاً في أول هذا النقل ، متصلاً بعبد الله بن فَرْوخ عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن أبيه عن ابن عباس (ج) نهاية
حاشية من ع بخطه ، وسقطت من ج ي ظ (د) سقط ما بين النجمين من ي .

وأهل الشَّام ومِصرَ. فكان الخطُّ العَرَبِيُّ لأوَّل الإسلام غيرَ بالغٍ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة، ولا إلى التَّوسُّط لمكان العَرَب من البداوة والتَّوَحُّش وبُعدهم عن الصَّنائع.

وانظر ما وقع لأجل ذلك في رَسْم المُصَحَّف ، حيثُ كَتَبَهُ الصَّحَابَةُ بِخُطوطهم وكانت غيرَ مُستَحْكَمَةٍ في الإجادة، فخالَف الكثيرُ من رُسومهم ما اقتَضَتْهُ 5 [أَقْسَمَةُ] ⁽¹⁾ رُسومِ صِناعة الخطِّ عند أهلها. ثم افْتَقَى التَّابِعُونَ من السَّلَف رَسْمهم فيها، تَبَرُّكاً بما رَسَمه أَصْحَاب رَسول الله ﷺ وَخَيْرُ الخَلْق من بَعْدِهِ، الْمُتَلَقُّونَ لَوَحِيهِ من كتاب الله وكَلَامِهِ، كما يُفْتَقَى لهذا العَهْد خَطٌّ وَلِيٌّ أو عَالِمٌ تَبَرُّكاً، وَيَتَّبِعُ رَسْمه خطأً أو صواباً . وأينَ نِسْبَةُ ذلك من الصَّحَابَةِ وما كَتَبُوهُ؟ فَاتَّبَعَ ذلك وَأُثِّبَ رَسماً، وَتَبَّهَ العُلَمَاءُ بِالرَّسْمِ على مواضعه.

10

ولا تَلْتَفِتَنَّ في ذلك إلى ما يَزْعَمه بعضُ المَغْطَلِينَ، من أَنَّهُم كانوا مُحْكِمِينَ لصِناعة الخطِّ، وأنَّ ما يُتَخَيَّلُ من مُخالفة خُطوطهم لأصول الرِّسْم ليس كما يُتَخَيَّلُ، بل لَكُلِّها وَجْهٌ. ويقولونَ في مِثْل زيادة الألف في ﴿لَا أَذِبحَنَّهُ﴾ [سورة التمل، من الآية 21]: إِنَّه تَنْبِيهٌ على أَنَّ الذَّبْحَ لم يَقَعْ، وفي زيادة الياء في ﴿يَأْيُنِدِر﴾ [سورة الذاريات، من الآية 47] إِنَّه تَنْبِيهٌ على كَمال القُدْرَةِ الرِّبائِيَّةِ ، وأمثال ذلك ممَّا لا أَضِلُّ لَه إلا التَّحَكُّمُ المَحْضُ . وما حَمَلهم على ذلك إلا اعتقادُهُم أَنَّ في ذلك تَنْزِيهاً للصَّحَابَةِ عن تَوْهَم النِّقْصِ في قِلَّةِ إِجادة الخطِّ . وحَسِبُوا أَنَّ ذلك الخطُّ كَمالٌ،

15

(1) من حاشية ع ج ، وسقط من ظ ي .

فَنَزَّهَهُمْ عَنْ نَقْصِهِ، وَنَسَبُوا إِلَيْهِمُ الْكَمَالَ بِإِجَادَتِهِ، وَطَلَبُوا تَعْلِيلَ مَا خَالَفَ الْإِجَادَةَ
مِنْ رَسْمِهِ، وَذَلِكَ / لَيْسَ بِصَحِيحٍ.

[285ب]

وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَطَّ لَيْسَ بِكَمَالٍ فِي حَقِّهِمْ، إِذِ الْخَطُّ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ الْمَدِينَةِ
الْمَعَاشِيَّةِ، كَمَا رَأَيْتَهُ فِي مَا مَرَّ. وَالْكَمَالُ فِي الصَّنَائِعِ إِضَافِيٌّ وَلَيْسَ بِكَمَالٍ مُطْلَقٍ، إِذْ لَا
5 يَعُودُ نَقْصُهُ عَلَى الذَّاتِ فِي الدِّينِ وَلَا فِي الْخِلَالِ . وَإِنَّمَا يَعُودُ عَلَى أَسْبَابِ الْمَعَاشِ
وَبِحَسَبِ الْعُمُرَانِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ لِأَجْلِ دَلَالَتِهِ عَلَى مَا فِي الثَّفُوسِ. وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ
ﷺ أُمِّيًّا، وَكَانَ ذَلِكَ كَمَالًا فِي حَقِّهِ، وَبِالنَّسَبَةِ إِلَى مَقَامِهِ لَشَرَفِهِ وَتَزَيُّدِهِ عَنِ الصَّنَائِعِ
الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ الْمَعَاشِ وَالْعُمُرَانِ كُلِّهَا. وَلَيْسَتْ الْأُمِّيَّةُ كَمَالًا فِي حَقِّنَا نَحْنُ،
إِذْ هُوَ مُنْقَطِعٌ إِلَى رَبِّهِ، وَنَحْنُ مُتَعَاوِنُونَ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، شَأْنُ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا، حَتَّى
10 الْعُلُومِ الْاضْطِلَاحِيَّةِ. فَإِنَّ الْكَمَالَ فِي حَقِّهِ هُوَ تَزَيُّدُهُ عَنْهَا جُمْلَةً بِخِلَافِنَا.

ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْمَلِكُ لِلْعَرَبِ، وَفَتَحُوا الْأَمْصَارَ، وَمَلَكَوا الْمَمْلَكَ، وَتَرَلُّوا الْبَصْرَةَ
وَالْكُوفَةَ، وَاحْتَاجَتِ الدَّوْلَةُ إِلَى الْكِتَابِ، اسْتَعْمَلُوا الْخَطَّ وَطَلَبُوا صِنَاعَتَهُ وَتَعَلَّمَهُ،
وَتَدَاوَلُوهُ. فَتَرَقَّتِ الْإِجَادَةُ فِيهِ وَاسْتَحْكَمَ، وَبَلَغَ فِي الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ رُبَّةً مِنَ الْإِتْقَانِ،
إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ دُونَ الْغَايَةِ. وَالْخَطُّ الْكُوفِيُّ مَعْرُوفٌ الرَّسْمُ لِهَذَا الْعَهْدِ.

15 ثُمَّ انْتَشَرَ⁽¹⁾ الْعَرَبُ فِي الْأَقْطَارِ وَالْمَمَالِكِ، وَافْتَتَحُوا إِفْرِيقِيَّةَ وَالْأَنْدَلُسِ .
وَاخْتَطَّ بَنُو الْعَبَّاسِ بَغْدَادَ، وَتَرَقَّتِ الْخَطُوطُ فِيهَا إِلَى الْغَايَةِ لَمَّا اسْتَبْخَرَتْ فِي
الْعُمُرَانِ وَكَانَتْ دَارَ الْإِسْلَامِ وَمَرْكَزَ الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ.^(ب) [وَخَالَفَتْ أَوْضَاعُ الْخَطِّ

(1) فِي ظ: انْتَشَرَتْ (ب) حَاشِيَةٌ مِنْ ع بَخَطَهُ وَمِنْ ج، وَلَمْ تَزِدْ فِي ظ ي .

ببغداد أوضاعه بالكوفة في الميل إلى إجادة الرسوم وجمال الرُّونق وحسن الرُّواء. واستحكمت هذه المخالفة في الأعصار، إلى أن رفع رايته ببغداد [أبو] علي بن مُثلة الوزير. ثم تلاه في ذلك علي بن هلال الكاتب، الشهير بابن البوّاب، ووقف سندُ تعليمها عليه في المائة الثالثة وما بعدها. ونُعدت رسوم الخطّ البغدادي وأوضاعه عن الكوفي حتى انتهى إلى المباشرة. ثم ازدادت المخالفة بعد تلك العصور بتفنن الجهابذة 5 في إحكام رسومه وأوضاعه، حتى انتهى إلى المتأخرين، مثل ياقوت المستنصمي والولي علي العجمي^(١)، ووقف سندُ تعلم الخطّ عليهم^(ب). وانتقل ذلك^(ج) إلى مصر، وخالفت طريقة العراق بعض الشيء، ولقّنها العجم هنالك، فظهرت مخالفة^(د) لخطّ أهل مصر أو مبابنة].

10 وكان الخطّ الإفريقي المعروف رسمه القديم لهذا العهد، يقرب من أوضاع الخطّ المشرقي. وتخيّر ملك الأندلس بالأمويين، فتميّزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط، فتميّز صنف^(هـ) خطّهم الأندلسي كما هو معروف للرسم لهذا العهد.

وطما تجرّ العُمران والحضارة في الدول الإسلامية في كلّ قطر، وعظم الملك، 15 وثقّت أسواق العلوم، وانتسخت الكتب وأجيد كثبها وتجليدها، ومليت بها القصور / والخزائن الملوكة بما لا كفاء له، وتنافس أهل الأقطار في ذلك وتناغوا فيه.

[1286]

(١) سقط ما بين النجمين من ج (ب) ج: به (ج) ج: كذلك (د) قراءة تقريبية من ج (هـ) سقط من ع ج، وفي ي: ضبط.

ثم لما انحَلَّ نظامُ الدَّولة^(١) الإسلاميَّة وتناقصَتْ، تناقص ذلك أجمع،
ودرستْ معالمُ بغداد بدروس الخِلافة؛ فانتقل شأنها من الخطِّ والكتاب، بل
والعلم، إلى مِصرَ والقاهرة. فلم تزل أسواقه بها نافقةً لهذا العهد. وللخطِّ بها مُعلِّمون
يرسمون للمُتعلِّم الحروف بقوانين في وضعها، وأشكالها مُتعارفة، بينهم. فلا يلبثُ
5 المتعلِّم أو يُحكِّم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع، وقد لقيها حساً، وحَذَقَ
فَنِّها ذُرْبَةً وكتاباً، وأخذها قوانينَ عملية، فتجيء أحسن ما يكون.

وأما أهلُ الأندلس، فافترقوا في الأقطار عند تلاشي مُلك العرب بها ومن
خلفهم من البربر، وتغلَّبَتْ عليهم أُممُ التَّصِرائيَّة. فانتشروا في غُدوة المغرب وإفريقيَّة
من لَدُن الدَّولة اللَّمْتُويَّة إلى هذا العهد، وشاركوا أهلَ العُمران بما لديهم من الصَّنائع،
10 وتعلَّقوا بأذيال الدَّولة، فعَلَبَ خطُّهم على الخطِّ الإفريقي وعَقَى عليه، ونُسِيَ خَطُّ
القُيُروان والمهديَّة بنِسيان عوانديهما وصنائعهما. وصارتْ حُطوطُ أهلِ إفريقيَّة كُلِّها
على الرِّسْمِ الأندلسيِّ بتونس وما إليها، لتَوفَّرَ أهلُ الأندلس بها عند الجالية من
شَرْقِ الأندلس. وبقي منه رِسمٌ ببلاد الجريد الذين لم يُخالطوا كُتَّاب الأندلس ولا
تَمَرَّسُوا بجوارهم، إذ إنَّها كانوا يَفِدُّون على دار الملك بتونس. فصارَ خطُّ أهلِ إفريقيَّة
15 من جنس^(ب) حُطوطِ أهلِ الأندلس، حتَّى إذا تَقَلَّصَ ظلُّ الدَّولة المُوَحَّدية بَغَضَ
الشَّيء، وتراجعَ أمرُ الحضارة والتَّرفِ بتراجع العُمران، نُقصَ حينئذٍ حالُ الخطِّ،
وفسدت رسومُه، وجُمِلَ فيه وَجْهُ التَّعليم بفساد الحضارة وتناقص العُمران. وبقيت

(١) ج: التَّول (ب) في ع: أحسن .

فيه آثار الخطّ الأندلسيّ تشهد بما كان لهم من ذلك، لما قدّمناه من أنّ الصّنائع إذا رَسَخَتْ بالحضارة فيعسر مَحْوُها.

وَحَصَلَ فِي دَوْلَةِ بَنِي مَرِين بَعْدَ ذَلِكَ بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى ^(١)، لَوْنٌ مِنَ الْخَطِّ الْأَنْدَلُسِيِّ، لِقُرْبِ / جَوَارِهِمْ، وَسُقُوطِ مَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ إِلَى قَاسٍ قَرِيباً، وَاسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهُمْ سَائِرَ الدَّوَلَةِ. وَنُسِيَ عَهْدُ الْخَطِّ فِيهَا بَعْدَ مِنْ سُدَّةِ الْمُلْكِ وَدَارِهِ، كَأَنَّ لَمْ يُعْرِفْ. 5 فَصَارَتِ الْخُطُوطُ بِإِفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبَيْنِ مَائِلَةً إِلَى الرَّدَاءَةِ، بَعِيدَةً عَنِ الْجُودَةِ. وَصَارَتِ الْكُتُبُ إِنْ انْتَشِخَتْ فَلَا فَايِدَةَ تَحْصُلُ لِمُتَصَفِّحِهَا مِنْهَا إِلَّا الْعَنَاءُ وَالْمَشَقَّةُ، لِكَثْرَةِ مَا يَقَعُ فِيهَا مِنَ الْقِسَادِ وَالتَّضْخِيفِ، وَتَغْيِيرِ الْأَشْكَالِ الْخَطِّيَّةِ عَنِ الْجُودَةِ، حَتَّى لَا تَكَادُ تُقْرَأُ إِلَّا بَعْدَ عُسْرِ. وَوَقَعَ فِيهِ مَا وَقَعَ فِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ بِنَقْصِ الْحَضَارَةِ وَقِسَادِ الدَّوَلِ. ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [سورة الرعد، من الآية 41]. 10

(ب) [وللأستاذ أبي الحسن علي بن هلال الكاتب البغدادي، الشهير بابن البوّاب، قصيدة في بحر [الكامل] (ج)، على روي الرّاء، يذكّر فيها صناعة الخطّ وموادّها من أحسن ما كتبت في ذلك، رأيت إثباتها في هذا الباب لينتفع بها من يريد تعلّم هذه الصناعة. وأولّها: [من الكامل]

15 يا من يريد إجادة التّخير ويروم حسن الخطّ والتّصوير
إن كان عزّمك في الكتابة صادقاً فازغب إلى مولاك في التّيسير
أعِدْ من الأقلام كلّ مُثَقِّفٍ صلب يصوغ صناعة التّخير

(١) سقط من ع (ب) إضافة في ع بخطه تستمر إلى آخر الفصل ولم تنقل في ظ، ج، ي (ج) في الأصول كلها من بحر البسيط، فصولناه .

وإذا عَمَدْتَ لَبْرِيهَ فَتَوَخَّهْ عند القياس بأَوْسَطِ التَّهْدِيرِ
 انْظُرْ إِلَى طَرْفِيهِ فَاجْعَلْ بَرِيهَ من جَانِبِ التَّدْقِيقِ وَالتَّخْصِيرِ
 واجْعَلْ لَجَلْفَتِهِ قَوَاماً عادِلاً يَخْلُو عَنِ التَّطْوِيلِ وَالتَّخْصِيرِ
 وَالشَّقِّ وَسَطُهُ لِيَبْقَى بَرِيهَ من جَانِبَيْهِ مُشَاكِلِ التَّهْدِيرِ
 حَتَّى إِذَا أَتَيْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِثْقَانِ طَبِّ بِالْمُرَادِ خَبِيرِ
 فَاصْرَفْ لِرَأْيِ الْقَطِّ عَزَمَكَ كُلَّهُ فَالْقَطُّ فِيهِ جُمْلَةٌ التَّهْدِيرِ
 لَا تَطْمَعَنَّ فِي أَنْ أَبُوحَ بِسِرِّهِ إِنِّي أَضِنُّ بِسِرِّهِ الْمُسْتَوْرِ
 لَكِنَّ جُمْلَةً مَا أَقُولُ بَأَنَّهُ مَا يَبْنِي تَخْرِيفَ إِلَى تَنْوِيرِ
 وَأَلْقِ دَوَاتِكَ بِالْأُدْخَانِ مُدْبِراً بِالْخُلِّ أَوْ بِالْخِصْرِ الْمَغْصُورِ
 وَأَضِفْ إِلَيْهِ مُغْرَةً قَدْ صُوِّلَتْ مع أَصْفِرِ الزَّرْنَبَخِ وَالكَاغُورِ
 حَتَّى إِذَا مَا حُمِرَتْ فَأَعْمِدْ إِلَى الْـ حَوْرِي النَّقِيِّ النَّاعِمِ الْمُخْبُورِ
 فَاكْبِسْهُ بَعْدَ الْقَطْعِ بِالْمِغْصَارِ كَيْ يَتَأَيَّ عَنْ التَّشْعِيشِ وَالتَّغْيِيرِ
 ثُمَّ اجْعَلِ التَّمْثِيلَ دَأْبَكَ صَابِراً مَا أَذْرَكَ الْمَأْمُولَ مِثْلَ صَبُورِ
 أَبْدَأْ بِهِ فِي اللَّوْحِ مُنْتَضِياً لَهُ عَزْماً تُجَرِّدُهُ مِنَ التَّشْمِيرِ
 لَا تَخْجَلَنَّ مِنَ الرَّدِيِّ تَخَطُّهُ فِي أَوَّلِ التَّمْثِيلِ وَالتَّسْطِيرِ
 فَالْأَمْرُ يَضَعُبُ ثُمَّ يَرْجِعُ هَيَّئاً وَلَرَبِّ سَهْلٍ جَاءَ بَعْدَ عَسِيرِ
 حَتَّى إِذَا أَدْرَكْتَ مَا أَمَلْتَهُ أَضْحَيْتَ رَبَّ مَسْرَةٍ وَخُبُورِ
 فَاشْكُرْ إِلَهَكَ وَاتَّبِعْ رِضْوَانَهُ إِنَّ الْإِلَهَ يُجِيبُ كُلَّ شَكُورِ

5

10

15

وَارْعَبْ لَكَكَ أَنْ تَحْطَّ بِنَانُهَا خَيْرًا تُخْلِفُهُ بَدَارٍ غُرُورٍ
فَجَمِيعُ فِعْلٍ الْمَرْءُ يَلْقَاهُ غَدًا عِنْدَ التِّقَاءِ كِتَابِهِ الْمُنْشُورِ

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْخَطَّ بَيَانٌ عَنِ الْقَوْلِ وَالْكَلَامِ، كَمَا أَنَّ الْقَوْلَ وَالْكَلَامَ بَيَانٌ عَمَّا فِي
النَّفْسِ وَالضَّمِيرِ مِنَ الْمَعَانِي . فَلَا بُدَّ لِكُلِّ مِنْهُمَا أَنْ يَكُونَ وَاضِحَ الدَّلَالَةِ . قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [سورة الرحمن، الآيتان 4، 3] . وَهُوَ يَشْتَمِلُ 5
بَيَانَ الْأَدِلَّةَ كُلَّهَا . فَالْخَطُّ الْمَجُودُ كَمَا لَهُ أَنْ تَكُونَ دَلَالَتُهُ وَاضِحَةً بِإِبَانَةِ حُرُوفِهِ الْمُتَوَاضِعَةِ،
وَإِجَادَةً وَضَعَهَا وَرَسَمَهَا، وَكُلُّ وَاحِدٍ عَلَى حِدَتِهِ فَتَمَيَّزَ عَنِ الْآخَرِ، إِلَّا مَا اضْطَلَحَ عَلَيْهِ
الْكِتَابُ مِنْ إِيصَالِ حُرُوفِ الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ بَعْضُهَا بِنَقْصِ، سِوَى حُرُوفِ اضْطَلَحُوا
عَلَى قَطْعِهَا ، مِثْلَ الْأَلْفِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي الْكَلِمَةِ ، وَعَلَى الرَّاءِ وَالزَّيِّ وَالذَّالِ وَالذَّالِ
وغيرها، بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَتْ مُتَأَخِّرَةً، وَهَكَذَا إِلَى آخِرِهَا. 10

ثُمَّ إِنَّ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْكِتَابِ اضْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِ كَلِمَاتٍ بَعْضُهَا بِنَقْصِ،
وَحَذَفِ حُرُوفٍ مَعْرُوفَةٍ عِنْدَهُمْ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا أَهْلُ مُصْطَلَحِهِمْ، فَيَسْتَعْجِمُ عَلَى
غَيْرِهِمْ. وَهَؤُلَاءِ كُتَّابُ دَوَاوِينِ السُّلْطَانِ وَسِجِلَاتِ الْقُضَاةِ، كَأَنَّهُمْ اتَّفَقُوا بِهَذَا
الِاضْطِلَاحِ عَنْ غَيْرِهِمْ لَكَثْرَةِ⁽¹⁾ الْكِتَابَةِ عَلَيْهِمْ وَشُهْرَةِ كِتَابَتِهِمْ وَإِحَاطَةِ كَثِيرٍ مِنْ
دَوَاهِمِهِمْ بِمُصْطَلَحِهِمْ . فَإِنْ كَتَبُوا ذَلِكَ لِمَنْ لَا خِبْرَةَ لَهُ بِمُصْطَلَحِهِمْ فِي ذَلِكَ فَيَنْبَغِي أَنْ 15
يَعْدِلُوا عَنْ ذَلِكَ وَيَتَعَمَّدُوا الْبَيَانَ مَا اسْتَطَاعُوهُ، وَإِلَّا كَانَ بِمَثَابَةِ الْخَطِّ الْأَعْجَمِيِّ، لِأَنَّهُمَا
بِمَنْزِلَةِ وَاحِدَةٍ فِي عَدَمِ التَّوَاضُّعِ عَلَيْهِ. وَلَيْسَ يُعَذَّرُ فِي هَذَا الْقَدَرِ إِلَّا كُتَّابُ الْأَعْمَالِ

(1) بياض في ظ، ع بمقدار كلمة .

السُّلْطَانِيَّةُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْخِيُولِ، لِأَنَّهُمْ مَطْلُوبُونَ بِكَثْمَانِ ذَلِكَ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّهُ مِنْ
الْأَسْرَارِ السُّلْطَانِيَّةِ الَّتِي يَجِبُ إِخْفَاؤُهَا. فَيُبَالِغُونَ فِي رَسْمِ اصْطِلَاحٍ خَاصٍّ بِهِمْ،
وَيَصِيرُ بِمِثَابَةِ الْمَعْنَى، وَهُوَ الْإِصْطِلَاحُ عَلَى الْعِبَارَةِ عَنِ الْحُرُوفِ بِكَلِمَاتٍ مِنْ أَسْمَاءِ
الطَّيْبِ أَوْ الْفَوَاكِهِ أَوْ الطَّيُورِ أَوْ الْأَزْهَارِ، أَوْ وَضَعَ أَشْكَالًا أُخْرَى غَيْرَ أَشْكَالِ
الْحُرُوفِ الْمُتَعَارِفَةِ، يَصْطَلِحُ عَلَيْهَا الْمُتَخَاطِبُونَ لِتَأْدِيَةِ مَا فِي ضَمَائِرِهِمْ بِالْكِتَابَةِ. وَرَبَّمَا 5
وَضَعَ خُذَاقَ الْكِتَابِ لِلْعُبُورِ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَضَعُوهُ أَوَّلًا، قَوَائِينَ لِمُقَايَسِ
اسْتَخْرَجِهَا لِذَلِكَ بِمَدَارِكِهِمْ، يُسَمِّنُهَا فَكَّ الْمَعْنَى. وَلِلنَّاسِ فِيهَا دَوَائِينَ مَشْهُورَةٌ.
وَاللَّهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.]

30 • فَصْلٌ فِي صِنَاعَةِ الْوَرِاقَةِ

كَانَتِ الْعِنَايَةُ قَدِيمًا بِالدَّوَائِينَ الْعِلْمِيَّةِ وَالسَّجِلَّاتِ فِي نَسْخِهَا وَتَجْلِيدِهَا 10
وَتَصْحِيحِهَا بِالرَّوَايَةِ وَالضَّبْطِ، وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ مَا وَقَعَ مِنْ ضَخَامَةِ الدَّوَلَةِ وَتَوَاعِ
الْحَضَارَةِ. وَقَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ بِذَهَابِ الدَّوَلِ وَتَنَاقُصِ الْعُمَرَانِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ
مِنْهُ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَحْرٌ زَاخِرٌ بِالْعِرَاقِ وَالْأَنْدَلُسِ، إِذْ هُوَ كُلُّهُ مِنْ تَوَاعِ الْعُمَرَانِ
وَاتِّسَاعِ نِطَاقِ الدَّوَلِ وَتَفَاقِ أَسْوَاقِ ذَلِكَ [لَدَيْهَا] ^(١). فَكَثُرَتِ التَّوَالِيفُ الْعِلْمِيَّةُ
وَالدَّوَائِينَ، وَحَرَصَ النَّاسُ عَلَى تَنَاقُلِهَا فِي الْآفَاقِ وَالْأَعْصَارِ، فَانْتَشَرَتْ 15
وَجُلِّدَتْ. وَجَاءَتْ صِنَاعَةُ الْوَرَّاقِينَ الْمُعَانِينَ لِلانْتِسَاخِ وَالتَّصْحِيحِ وَالتَّجْلِيدِ وَسَائِرِ
أُمُورِ الْكُتُبِ وَالْدَّوَائِينَ، وَاخْتَصَّتْ بِالْأَمْصَارِ الْعَظِيمَةِ الْعُمَرَانِ.

(١) مِنْ ع، وَفِي ط ج ي: لَدَيْهَا.

وكانت السجلات أولاً لانتساح العلوم، وكُتِبَ الرسائل السلطانية والإقطاعات والصكوك [في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد، لكثرة الرّفه وقلة التّواليف صدر الملة، كما نذكره، وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك⁽¹⁾]. فاقْتَصَرُوا على الكتاب في الرُّق تّشْرِيفاً للمكتوبات وميلاً بها إلى الصّحة والإتقان.

- 5 ثم طمأ بَحْرُ التّواليف والتّدوين، وكَثُرَ ترسيلُ السّلطان وصكوكه، وضاق الرُّق عن ذلك، فأشارَ القُصَلُ بنُ يَحْيَى بصناعة الكاغذ، وصنّعه، وكتب فيه رسائل السّلطان وصكوكه. / واتّخذَه النَّاسُ من بعده صُحُفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية. [287]
- وبلّغت الإِجادَةُ في صِناعَتِهِ ما شاءَتْ.

- ثم وَقَفَتْ عِنايةُ أَهْلِ العُلومِ وَهَمُّ أَهْلِ الدّولِ على صَبْطِ الدّواوين العِلْمية وتَصْحيحِها بالرّواية المُسندَة إلى مُؤَلِّفِها وواضِعِها، لأنّه الشّأنُ الأهمُّ من التّصْحيحِ والضّبطِ. فبذلك تُسندُ الأقوالُ إلى قائلِها، والفُتيا إلى الحاكِمِ بها المُجْتَهِدِ في طريقِ استنباطِها. وما لم يَكُنْ تَصْحيحُ المَثونِ بِإِسنادِها إلى مُدَوِّنِها فلا يَصِحُّ إِسنادُ قولٍ لهم ولا فُتْيَا. وهكذا كان شَأْنُ أَهْلِ العِلْمِ وَحَمَلَتِهِ في العُصورِ والأجيالِ والآفاقِ، حتّى لَقَدْ قُصِرَتْ فائدةُ الصّناعةِ الحديثيةِ في الرّوايةِ على هذه فَقطْ، إذ ثَمَرَتُها الكُبرى من مَعْرِفَةِ صَحيحِ الأحاديثِ وحَسَنِها ومُسندِها ومُرسلِها ومَقْطوعِها ومَوْقُوفِها 15 من مَوْضوعِها، قد ذَهَبَتْ وتَخَصَّصَتْ زُبْدَةُ ذلك في الأمّهات المُتَلَقَّاةِ بِالقبولِ عندِ الأُمّةِ، وصارَ القُصْدُ إلى ذلك لَعَواً من العَمَلِ. ولم تَبَقْ ثَمَرَةُ الرّوايةِ والاشْتِغالِ بها

(1) سقط من ظ .

إلا في تصحيح تلك الأمّهات الحديثيّة وسواها من كُتُب الفقه للفتيا وغير ذلك من
الدّواوين والتّواليف العلميّة واتّصال سندها بمؤلّفيها، ليصحّ النقل عنهم والإسناد
إليهم.

وكانت هذه الرّسوم بالمشرق والأندلس مُعبّدة الطّرق واضحة المسالك.
5 ولقد نجد الدّواوين المُنتسخة لذلك العهد في أفطارهم على غايّة من الإثقان والإحكام
والصّحّة. ومنها لهذا العهد بأيدي النّاس في العالم أصولٌ عتيقة تشهدُ ببلوغ الغايّة لهم
في ذلك. وأهل الآفاق يتناقلونها إلى الآن، ويشُدّون عليها يد الضّمانة.

ولقد ذهبَتْ هذه الرّسوم لهذا العهد جملةً بالمغرب وأهله لانتقطاع صناعة
الخطّ والضّبط والزّوايّة منه، بانتقاص عُمرانه وبدّاءة أهله، وصارت الأمّهات
10 والدّواوين تُنسخُ بالخطوط البدويّة، ينسخها طلبه البرّ صحناء مُستعجِمة
برداءة الخطّ وكثرة الفساد / والتّصحيف، فتستغلّق على مُتصفّحها، ولا يحصلُ منها
[287ب] فائدة إلا في الأقلّ التّادير.

وأيضاً، فقد دخل الخللُ من ذلك في الفتيا، فإنّ غالب الأقوال المغزّوة غير
مزوية عن أئمة المذهب، وإنّا تُلقَى من تلك الدّواوين على ما هي عليه. وتبع ذلك
15 أيضاً ما يتصدّى إليه بعض أئمّتهم من التّأليف لقلّة بصرهم بصناعتِهِ وعَدَم الصّنائع
الوافية بمقاصده. ولم يبق من هذا الرّسم إلا آثارٌ بالأندلس خفيّة بالامحاء، وهي
على الاضمّحلال. فقد كاد العلم أن ينقطع بالكلّيّة من المغرب ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَى
أَمْرِهِ ﴾ [سورة يوسف، من الآية 21].

ويبلغنا لهذا العهد، أنّ صناعة الرواية قائمة بالشرق، وتصحيح الدواوين لمن يرومه بذلك سهل على مُبتغيه، لتفّاق أسواق العلوم والصنائع، كما نذكره بعد. إلا أنّ الخط⁽¹⁾ الذي بقي من الإجادة في الانتساخ هنالك إنّما هو للعجم وفي خطوطهم. وأمّا النسخ بمصر، ففسد كما فسد بالمغرب وأشدّ. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [سورة يوسف، من الآية 21].

5

31 • فصل، في صناعة الغناء

هذه الصناعة هي تلحين الأشعار الموزونة، بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة تُوقع على كلّ صوت منها توقيعاً عند قطعه، فتكون نغمة، ثمّ تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة، فيلذّ سماعها لأجل ذلك التناسب، وما يحدث عنه من الكيفيّة في تلك الأصوات.

10

وذلك أنّه تبين في علم الموسيقى أنّ الأصوات تتناسب ليكون صوت، نصف صوت، ورُبُع آخر، وخُمُس آخر، وجزء^(ب) من أحد عشر من آخر. واختلاف هذه النسب عند تأديتها إلى السَّمع يُخرجها عن البساطة إلى التركيب. وليس كلّ تركيب منها ملذوداً عند السَّمع، بل تراكيب خاصّة هي التي حصرها أهل علم الموسيقى وتكلّموا عليها، كما هو مذكور في موضعه.

15

وقد يُساق ذلك التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من

(1) من ط ج ي، وفي ع الخط (ب) في ع: وجزياً.

الجمادات، إمّا بالقرع أو التّفخ في آلاتٍ تُتخذُ لذلك ، فتزيدها لَذَّةً عند / السّمع . [288]
 فمنها لهذا العهد بالمغرب أصنافٌ، منها: المزمار، يُسمّونه الشّبّابة. وهي قَصْبَةٌ جَوْفاء
 بأبخاشٍ في جوانبها معدودة، يُنفخُ فيها فتصوّت، ويخرج الصوتُ من جوفها على
 سداة من تلك الأبخاش، ويُقطع الصوتُ بوضع الأصابع من اليدين جميعاً على تلك
 5 الأبخاش وُضعاً متعارفاً حتّى تحدث النّسب بين الأصوات فيه ، وتتصل كذلك
 مُتناسبة. فيلتذّ السّمعُ بإدراكها للتّناسب الذي ذكرناه.

ومن جنس هذه الآلة آلة الزّمر التي تُسمّى الزّلامي، وهي شكلُ القَصْبَةِ،
 منحوتة الجانبين من الخشب، جَوْفاء من غير تدوير لأجل اثتلافها من قطعتين،
 منفوذة كذلك بأبخاشٍ معدودة يُنفخُ فيها بقَصْبَةٍ صغيرة توصّل، فينفذُ التّفخُ بواسطتها
 10 إليها وتصوّت بنغمةٍ حادة، ويجري فيها من تقطيع الأصوات من تلك الأبخاش بالأصابع
 مثل ما يجري في الشّبّابة.

ومن أحسن آلات الزّمر لهذا العهد، البوق، وهو بوقٌ من النّحاس
 أجوفٌ في مقدار الذراع، يتّسع إلى أن يكون انفراج مخرجه في مقدار [دون]⁽¹⁾
 الكف، على شكل بزي القلم. ويُنفخُ فيه بقَصْبَةٍ صغيرة تؤدّي الرّيح من الفم إليه،
 15 فيخرج الصوتُ ثخيناً دويّاً . وفيه أبخاشٌ أيضاً معدودة ، وتقطع نغمته منها كذلك
 بالأصابع على التّناسب، فيكون ملذوداً.

ومنها آلات الأوتار، وهي جوفاء كلّها ، [إمّا على شكل]^(ب) قطعة من

(1) كذا في ع ج ي، وفي ظ: دور (ب) ي: شكلها .

الكُرة، كالبريط والرباب، أو على شكل مربع، كالقانون، توضع الأوتار على بساطها مشدودة في رأسها إلى دساتير جائلة ليتأني رخوها عند الحاجة إليه بإدارتها، ثم تُقرع الأوتار إما بعود آخر أو بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليها بعد أن يطلى بالشَّمع والكندير. ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في إمراره [يقطعه] ⁽¹⁾ من وتر إلى وتر، واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الأوتار تُوقع بأصابعها على 5 أطراف الأوتار فيما يُقرع / أو يُحك بالوتر، فتحدث الأصوات متناسبة ملنودة. [288ب] وقد يكون القرع في الطُسوت بالقُضبان أو في الأعواد بعضها ببعض على توقيع مُتناسب يُحدث عنه الترداد بالمسموع.

ولنبين لك السبب في اللذة الناشئة عن الغناء. وذلك أن [اللذة] ^(ب) كما تقرر في موضعه، هي إدراك الملائم؛ والمحسوس إنما تدرك منه كيفية، فإذا كانت 10 مناسبة للمدرك وملائمة، كانت ملنودة. وإذا كانت مُنافية له، منافرة، كانت مؤلمة. فالملائم من الطعوم ما ناسبته كميته حاسة الذوق في مزاجها وكذا الملائم من الملموسات، وفي الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبي البخاري، لأنه المدرك، وإليه تُؤديه الحاسة. ولهذا كانت الرياحين والأزهار العطريات أحسن رائحة وأشد 15 مُلاءمة للروح، لغلبة الحرارة فيها، التي هي مزاج الروح القلبي.

وأما المزيتات والمسموعات، فالملائم فيها تناسب الأوضاع في أشكالها وكيفياتها، فهو أنسب عند النفس وأشد ملاءمة لها. فإذا كان المزيئ مُتناسباً في

(1) في ط، ع: ويقطعه، وفي ج ي: أو ينقله (ب) ط: المدة.

أشكاله وتخطيطه التي له بحسب مادته، بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع، وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك، كان ذلك حينئذٍ مناسباً للنفس المدركة، فتلذذ بإدراك ملاءمتها. ولهذا نجد العاشقين المستهترين في المحبة، يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أزواجهم بروح المحبوب. ومعناه من وجه آخر، أن الوجود يُشرك بين الموجودات كما يقوله الحكماء، فتود أن تترج بما شهدت فيه الكمال لتتجد به.

ولما كان أنسب الأشياء إلى الإنسان وأقربها إلى أن يدرك الكمال في تناسب موضوعها هو شكله الإنساني، فكان إدراكه للجمال والحسن في تخطيطه وأصواته من المدارك التي هي أقرب إلى فطرته، فيلهج كل إنسان بالحسن من المزيّن أو المسموع بمقتضى الفطرة. والحسن في المسموع⁽¹⁾ أن تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة. وذلك / أن الأصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدّة [289] والقلّة والضّغط وغير ذلك، والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن.

فأولاً: أن لا يخرج من الصوت إلى ضده دفعة، بل بتدرّج، ثم يرجع كذلك. وكذا إلى المثل، بل لا بد من توسط المعايير بين الصوتين. وتأمل هذا من استنباح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة الخارج، فإنه من بابه.

وثانياً: تناسبها بالأجزاء، كما مرّ أول الباب. فيخرج من الصوت إلى نضيه أو ثلثه أو جزء من كذا منه، على حسب ما يكون التنقل مناسباً على ما حصره

(1) في ظ: بمقتضى الفطرة. ولعلها مكررة من التاسخ.

أهل صناعة الموسيقى. فإذا كانت الأصوات على تناسب في الكيفيات، *كما ذكره
أهل تلك الصناعة*⁽¹⁾، كانت ملائمة ملنودة.

ومن هذا التناسب ما يكون بسيطاً ويكون الكثير من الناس مطبوعين
عليه، لا يحتاجون فيه إلى تعليم ولا صناعة، كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية
وتوقيع الرقص وأمثال ذلك. وتسمى العامة هذه القابلة بالمضمار. وكثير من القراء
5 بهذه المثابة، يقرأون القرآن، فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنها المزامير، فيطربون
بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم.

ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب، وليس كل الناس يستوي في
معرفة، ولا كل الطباع توافق صاحبها في العمل به إذا علم.

وهذا هو التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى، كما نشرحه بعد عند ذكر
10 العلوم.

وقد أنكر مالك⁽¹⁾، رضي الله عنه، القراءة بالتلاحين، وأجازها الشافعي،
رضي الله عنه.

وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعي، فإنه لا ينبغي أن يختلف في خطره،
15 إذ صناعة الغناء مباينة للقرآن [بكل وجه]^(ب).

(1) سقط ما بين النجمين من ع، ومكانها إشارة مخرج غير موجود (ب) من ي .

(1) انظر ابن قدامة: المغني 1: 178، ابن مفلح: الآداب الشرعية 2: 203، د. بشار عواد معروف: البيان في
حكم التفتي بالقرآن (ضمن كتاب الإعجاز القرآني، بغداد 1989).

(١) [لأنَّ القراءةَ والأداءَ يَحْتَاجُ (ب) إلى مِقْدَارٍ من الصَّوت يَتَّعِنُ (ج) أداءُ الحَرْفِ به من حيث إشباعِ الحركاتِ في مواضعها (د) ومقدارُ المدِّ عند من يُطِيلُهُ أو يُقَصِّرُهُ، وأمثالُ ذلك. والتَّلْحِينُ أيضاً يَتَّعِنُ (هـ) له مقدارٌ من الصَّوت لا يَتِمُّ إلَّا به من أجل / التَّنَاسُبِ الَّذِي قلناه في حَقِيقَةِ التَّلْحِينِ، فاعتبارُ (و) أحدهما قد يُخِلُّ بالآخر إذا تعارضَا . وتقديرُ التَّلَاوَةِ مُتَّعِنٌ فراراً من تغييرِ الروايةِ المنقولةِ في القرآن . 5
فلا يُمكن اجتماعُ التَّلْحِينِ والأداءِ المعتبرِ في القرآن بوجهٍ (١) .

وإنَّما المراد في اختلافهم التَّلْحِينِ البسيط الَّذي يَهْتَدِي إليه صاحبُ المِضْمَارِ بطبعه، كما قدَّمناه. فَيُرَدِّدُ أصواته ترديداً على نِسْبِ يَذْكُرُهَا العالمُ بالغِناءِ وغيره. هذا هو محلُّ الخلافِ . والظَّاهرُ تَثْوِيَةُ القرآن عن هذا ، كما ذهب إليه الإمامُ ، رحمه الله ، لأنَّ القرآنَ هو محلُّ خشوعٍ بذكرِ المَوْتِ وما بَعْدَهُ ، وليس مقامُ التَّنَازُلِ 10
بإذراكِ الحَسَنِ (ز) من الأصوات. وهكذا كانت قراءةُ الصَّحابةِ كما في أخبارهم. فأما قولُهُ ﷺ (١): "لقد أُوتِيَ مِزْمَاراً من مَزَامِيرِ داودَ" (ح) ، فليس المرادُ به التَّردِيدُ والتَّلْحِينُ، وإنَّما معناه حُسْنُ الصَّوتِ وأداءُ القراءةِ والإبانةُ في مَخارجِ الحُرُوفِ والتَّنطِقِ بها .

(١) مخرج في ع بخطه، ومثله بخطه أيضاً في ي (ب) كذا بخطه، والصواب: يحتاجان (ج) ع: بتعين أداة الحرف (د) ي: موضعها (هـ) ج: معين (و) من ج ظ، وفي ع: واعتبار (ز) ع: للحسن (ح) كذا في ط ج، وفي ع ي: آل داود .

(1) قالها النَّبِيُّ ﷺ في أبي موسى الأشعري حين سمع قراءته. والحديث أخرجه الحميدي في مسنده (282) وأحمد 6: 37، وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده (1476) والدارمي في سننه (1497) والنسائي في المجتبى 2: 180- وينظر المسند الجامع، 20: 338، حديث رقم (17215).

وإذ قد ذكرنا معنى الغناء، فاعلم أنه يحدث في الغفران إذا توفّر وتجاوزوا حدّ الصّوريّ إلى الحاجيّ، ثم إلى الكماليّ وتقتنوا فيه، فتحدث⁽¹⁾ هذه الصّناعة لأنّه لا يستدعيها إلّا من فرغ من جميع حاجاته الصّوريّة والمهمّة من المعاش والمنزل وغيره. فلا يطلبها إلّا الفارغون عن سائر أحوالهم تقتنأ في مذاهب المألذوبات . وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحرّ زاخر في أمصارهم ومُدُنهم. 5 وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به ، حتّى لقد كان ملوك الفرس اهتماماً بأهل هذه الصّناعة ، ولهم مكانٌ من دولتهم . وكانوا يحضرون مشاهدتهم ومجامعهم ويغتّون فيها. وهذا شأن العجم لهذا العهد في كلّ أفي من آفاقهم ومملكتهم من ممالكهم.

وأما العربُ، فكان لهم أولاً فنُّ الشّعر، يؤلّفون فيه الكلام أجزاءً متساويةً 10 على تناسُبِ بينها في عدّة حروفها المتحرّكة والسّاكنة، ويُفصّلون الكلام في تلك الأجزاء تفصيلاً يكون كلّ جزء منها مُستقلاً / بالإفادة، لا يتنعطف على الآخر، [1290] ويُسمّونه البيت. فيلائم الطّبع بالتجزئة أولاً، ثم بتناسُب الأجزاء في المقاطع والمبادئ، ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليه. فلهجوا به، وامتاز من بين كلامهم بحظّ من الشّرف ليس لغيره ، لأجل اختصاصه بهذا التّناسب . وجعلوه 15 ديواناً لأخبارهم وجكّهم وشرفهم، ومحرّكاً لقرائهم في إصابة المعاني وإجادة الأساليب. واستمروا على ذلك.

(1) في ع: فيحدث.

وهذا التَّنَاسُب [الَّذِي] ^(١) من أَجْلِ الأجزاء والمتحرّك والسّاكن من الحروف
قَطْرَةٌ من بحرٍ تَنَاسُبِ الأصوات كما هو معروف في كتاب الموسيقى ^(١). إلا أنّهم لم
يَشْعُرُوا بما سواه، لأنّهم حينئذٍ لم يَتَحَلَّوْا عِلْماً ولا عَرَفُوا صِنَاعَةً، وكانت البداوةُ
أَغْلَبَ نَحْلِهِمْ، ثم تَغَيَّرَتِ الحداثةُ منهم في حُدَاءِ إِبْلِهِمِ والفِتْيَانِ في فضاءِ خُلُواتِهِمْ، فَرَجَعُوا
5 الأصوات وَتَرْتَمَوْا، وكانوا يُسَمَّونَ التَّرْتَمَ إِذَا كان بالشَّعْرِ غِنَاءً، وَإِذَا كان بالتَهْلِيلِ أو
نَوْعِ القِرَاءَةِ تَغْيِيرًا، بِالغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ والبَاءِ المُوَحَّدَةِ. وَعَلَّلَهَا أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ ^(٢) بِأَنَّهَا
تُذَكَّرُ بِالغَايِرِ، وهو الباقي، أي بأحوال الآخرة. وَرَبَّما نَاسَبُوا في غِنائِهِمْ بَيْنَ التَّغْيَاتِ
مُنَاسَبَةً بَسِيطَةً، كما ذَكَرَهُ ابْنُ رَشِيقٍ آخَرَ كِتَابَ العُمْدَةِ ^(٣)، وَغَيْرُهُ. وكانوا يُسَمُّونَهُ
السَّنَادَ ^(٤). وَكان أَكْثَرُ ما يَكُونُ مِنْهُمْ في الخَفِيفِ الَّذِي يُرْقِصُ عَلَيْهِ وَيُمَشِّي بِالذُّفِّ
10 وَالْمِزْمَارِ، فَيُطْرَبُ وَيَسْتَحِفُّ الحُلُومَ. وكانوا يُسَمُّونَ هَذَا الهَزَجَ ^(٥). وَهذا البَسِيطُ
كُلُّهُ مِنَ التَّلَاحِينِ هو من أَوَائِلِهَا، ولا يَبْعُدُ أَنْ تَنَفَّطْنَ لَهُ الطَّبَاعُ من غَيْرِ تَعْلِيمٍ،
شأن البَسَائِطِ كُلِّهَا مِنَ الصَّنَائِعِ.

(١) مقط من ط .

(١) الفارابي: الموسيقى الكبير ، انظر خاصة أجزاء الحروف ونظائرهما كالإيقاع، ص 1075-

(٢) اللسان (غ ب ر) وعبرة الزجاج فيه: ستموا مغبرين لتزهيدهم الناس في الفانية وهي الدنيا وترغيبهم في الآخرة الباقية .

(٣) العمدة : 2: 1130 .

(٤) المصدر نفسه: 2: 1128 .

(٥) المصدر والصفحة .

ولم يزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم. فلما جاء الإسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه، وكانوا من البداوة والغضاضة⁽¹⁾ على الحال التي عرفت لهم، مع غضايرة الدين وشدته في ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع في دين ولا معاش، فهجر ذلك شيئاً ما، ولم يكن المملوذ عندهم إلا ترجيع القراءة والترثم بالشعر الذي كان ديدنهم ومذهبهم. فلما جاءهم 5 الترف / وغلب عليهم الرفة بما حصل لهم من غنائم الأمم، صاروا إلى نضارة الغيش وريقة الحاشية واستيلاء الفراغ. وافترق المغنون من الفرس والروم، فوقعوا إلى الحجاز وصاروا موالي للعرب، وغنوا جميعاً بالعيدان والطناير والمعارف والمزامير. وسمع العرب تلحينهم الأصوات، فلحنوا عليها^(ب) أشعارهم. وظهر بالمدينة نشيط 10 الفارسي، وطويس، وسايب خاثر، مؤلى عبد الله بن جعفر، فسمعوا شجر العرب ولحنوه وأجادوا فيه، وطار لهم ذكر. ثم أخذ عنهم مغبذ وطبقته، وابن شريح وأنظاره. وما زالت صناعة الغناء تتدرج إلى أن كملت أيام بني العباس عند إبراهيم ابن المهدي، وإبراهيم الموصلي، وابنه إسحاق، وابنه حماد. وكان من ذلك في دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث به وبمجالسه لهذا العهد. وأمعنوا في اللهو واللعب، واتخذت 15 آلات الرقص في الملبس والفُضبان والأشعار التي يترثم بها عليه، وجعل صنفاً وحده. واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكُرَج، وهي تماثيل خيل مُسرَّجة من الخشب، مُعلَّقة بأطراف أقبية تلبسها النسوان، ويحاكون بها امتطاء الخيل،

(1) من ظ ع ي، وفي ج: أقرب إلى الغضاضة (ب) في ظ: فيها.

فَيَكْتُرُونَ وَيَقْتَرُونَ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ اللَّعِبِ الْمُعَدَّةِ لِلْوَلَائِمِ وَالْأَعْرَاسِ وَأَيَّامِ
الْأَعْيَادِ وَمَجَالِسِ الْفَرَاغِ وَاللَّهْوِ. وَكَثُرَ ذَلِكَ ^(١) بَبْغَدَادَ وَأَمْصَارِ الْعِرَاقِ، وَانْتَشَرَ مِنْهَا
فِيمَا سِوَاهَا.

وَكَانَ لِلْمُؤَصِّلِينَ غِلَافٌ اسْمُهُ زَرْيَابٌ، أَخَذَ عَنْهُمْ الْغِنَاءَ فَأَجَادَ، فَصَرَفُوهُ إِلَى
5 الْمَغْرِبِ، غَيْرَةً بِهِ. فَلَحِقَ بِالْحَكَمِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاحِلِ، أَمِيرِ الْأَنْدَلُسِ،
فَبَالِغَ فِي تَكْرِمَتِهِ وَرَكِبَ لِلْقَائِهِ، وَأَسْنَى لَهُ الْجَوَائِزَ وَالْإِقْطَاعَاتِ وَالْجَزَايَاتِ، وَأَحْلَاهُ
مِنْ دَوْلَتِهِ وَنَدَمَائِهِ بِمَكَانٍ. فَأَوْرَثَ بِالْأَنْدَلُسِ مِنْ صِنَاعَةِ الْغِنَاءِ مَا تَنَاقَلُوهُ إِلَى أَزْمَانِ
الطَّوَائِفِ. وَطَلَمَا مِنْهَا بِإِشْبِيلِيَّةَ بَحْرَ رَاخَرٍ، وَتَنَاقَلَ مِنْهَا بَعْدَ ذَهَابِ غَضَارَتِهَا إِلَى بِلَادِ
الْعُدُوَّةِ بِإِفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ، وَانْقَسَمَ إِلَى أَمْصَارِهَا. وَبِهَا الْآنَ [مِنْهَا] ^(ب) صُبَابَةٌ عَلَى
10 تَرَاجُعِ عُثْمَانِهَا وَتَنَاقُصِ دَوْلِهَا.

وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ آخِرُ مَا يَحْصُلُ فِي الْعُمَرَانِ مِنَ الصَّنَائِعِ، لِأَنَّهَا كِمَالِيَّةٌ فِي غَيْرِ
وُضُفَةٍ / مِنَ الْوُضَائِفِ إِلَّا وَضُفِيَّةَ الْفَرَاغِ وَالْفَرَحِ. وَهِيَ أَيْضاً أَوَّلُ مَا يَنْقَطِعُ مِنَ
[291] الْعُمَرَانِ عِنْدَ اخْتِلَافِهِ وَتَرَاجُعِهِ. وَاللَّهُ ﴿الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾. [سُورَةُ الْحَجَرِ، مِنَ الْآيَةِ 86،
وَسُورَةُ يَسَ، مِنَ الْآيَةِ 81].

(١) موقع مخرج غير موجود ساقط من ع ي (ب) سقط من ظ .

32 ﴿^(١) فِصْلٌ، فِي أَنَّ الصَّنَائِعَ تَكْسِبُ صَاحِبَهَا عَقْلاً وَخُصُوصاً الْكِتَابَ ^(ب)

وَالْحِسَابُ

قد ذكرنا في الكتاب أن النفس الناطقة للإنسان إنما توجد فيه بالقوة، وأن خروجها من القوة إلى الفعل إنما هو بتجدد العلوم والإدراكات من المحسوسات أولاً، ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية إلى أن تصير إدراكاً بالفعل وعقلاً مخضاً، 5 فتكون ذاتاً روحانية، وتستكمل حينئذ وجودها. فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والتظير يفيدها عقلاً مزيداً. والصنائع أبداً يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة. فلهذا كانت الحنكة في التجربة تفيد عقلاً، والملكات الصناعية تفيد عقلاً، والحضارة الكاملة تفيد عقلاً، لأنها مجتمعة من صنائع 10 في شأن تدبير المنزل ومعاشرة أبناء الجنس وتحصيل الآداب في مخالطتهم، ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرائطها. وهذه كلها قوانين تنظم علومها، فتحصل منها زيادة عقل.

والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك، لأنها تشمل على علوم وأنظار بخلاف الصنائع.

وبيانه: أن في الكتابة اشتقاً من صور الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية 15 في الخيال، ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في النفس. فهو ينتقل أبداً من دليل إلى دليل ما دام متلبساً بالكتابة. وتعود النفس ذلك دائماً فتحصل

(١) سجل هذا الفصل على صفحات المخطوط ع بخطه (ب) ج ي : الكتابة.

لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات، وهو معنى النظر العقلي الذي تُكتسب به العلوم المجهولة، فتُكتسب بذلك ملكة من التعقل يكون زيادة عقل، ويحصل به^(١) مزيد فطنة وكَيْس في الأمور، بما تعودوه من ذلك الانتقال. ولذلك قال كِسْرَى في كتابه لما رآهم: *بتلك الفطنة والكَيْس*^(ب): ديوانه، أي: شياطين وجنون. قالوا: وذلك أصل اشتقاق الديوان لأهل الكتابة.

ويلحق بذلك الحساب، فإن في / صناعة الحساب نوع تصريف^(ج) في [291ب] العدد^(د) بالضم [والفريق]^(هـ) يحتاج فيه إلى استدلال كبير، فيبقى متعوداً للاستدلال والنظر، وهو معنى العقل.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة النحل، الآية 78]. 10

(١) سقط من ع (ب) من ط ج، وسقط من ع ي (ج) سقط من ط (د) سقط من ي (هـ) سقط من ط .

/ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ^(أ)

الفصل السادس * من الكتاب الأول *^(ب)

(أ) من ظ ي، وفي ج ع: وصلى الله على سيدنا محمد وآله (ب) سقط من ي .

في العلوم وأصنافها، والتعليم وطرقه، [وسائر وجوهه] ⁽¹⁾ وما يعرض في ذلك كله من الأحوال. وفيه مقدمة ولواحق

(ب) [فالمقدمة في الفكر الإنساني الذي تميز به البشر عن الحيوانات، واهتدى به لتحقيق معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه، والتطير في معبوده وما جاءت به الرسل من عنده؛ فصار جميع الحيوانات في طاعته ومملكة قدرته، وقضاه به على 5 كثير من خلقه.

1 • فصل، في الفكر الإنساني

اعلم أن الله سبحانه ميز البشر عن سائر الحيوانات بالفكر، الذي جعله مبدأ كماله ونهاية فضله على الكائنات وشرفه. وذلك أن الإدراك، وهو شعور المدرك في ذاته بما هو خارج عن ذاته، وهو خاص بالحيوان فقط من بين سائر 10 الكائنات والموجودات. فالحيوانات تشعُر بما هو خارج عن ذاتها بما ركب الله فيها من الحواس الظاهرة: السمع، والبصر، والشم، والتذوق، واللمس. ويزيد الإنسان

(1) سقط من ع (ب) هذه المقدمة والفصول الستة الأولى (1-6) اشتردت بها ع، ولم ترد في الأصول الأخرى. وقد أثبتنا في مفتاح كل صفحة منها خطأ مائلاً (/) للتدليل على ما في محتوى كل صفحة، دون الإشارة إلى رقها تجنباً للتداخل مع أرقام صفحات (ط).

من بينها أنه يُدرك الخارج عن ذاته بالفكر الذي وراء حسّه. وذلك بقوى جعلت له في بطون دماغه، ينتزع بها صُورَ المحسوسات ويحولُ بذهنه فيها، فيجرّد منها صُوراً أخرى.

والفكر هو التصرف في تلك الصُور وراء الحس، وجولان الذهن فيها بالاشتراك 5 والتركيب. وهو معنى الأَفْئِدَة ، من قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ [سورة النحل، من الآية 78].

والأَفْئِدَة، جَمْعُ فَوَادٍ، وهو هنا الفكر. وهو على مراتب:

الأولى: تعقل الأمور المترتبة في الخارج ترتيباً طبيعياً أو وضعياً، ليُصَدَّ 10 إيقاعها بقدرته. وهذا الفكر أكثره تصوّرات، وهو العقل التَّمييزي الذي به يُحصَل منافعُه ومعاشه ويدفع مضارّه.

الثانية: الفكر الذي يُفيدُ الآراء والآداب في مُعاملَة أُنْباءِ جنسِه وسياسَتِهِمْ. وأكثرها تصديقاتٌ تُحصَلُ بالتَّجْربَة / شَيْئاً شَيْئاً، إلى أن تَمَّ الفائدةُ منها. وهذا هو 15 المسمّى بالعقل التجريبي.

الثالثة: الفكر الذي يُفيدُ العلمَ أو الظنَّ بمطلوبٍ وراء الحس، لا يتعلّق به 15 عملٌ. وهذا هو العقلُ النَّظْريُّ. وهو تصوّراتٌ وتَصْديقاتٌ تُنْتَظَمُ انتظاماً خاصّاً على شروطٍ خاصّة، فتُفيدُ معلوماً آخر من جنسها في التَّصوُّر أو التَّصْديق. ثم يُنْتَظَمُ مع غيره، فيُفيدُ معلوماً آخر كذلك. وغايَةُ إفادته تصوُّر الوجود على ما هو عليه

بأجناسه وفُصوله وأسبابه وعِلّله. فيكْمُلُ الفِكرُ بذلك في حَقِيقَتِهِ، ويصيرُ عَقْلاً
مَخْضاً، ونفساً مُدْرِكةً. وهو مَعْنَى الحَقِيقَةِ الإنْسَانِيَّةِ.

2* فَصْلٌ، فِي أَنَّ عَوَالِمَ الْحَوَادِثِ الْفَعْلِيَّةِ إِنَّمَا تَتِمُّ بِالْفِكْرِ

اعْلَمْ أَنَّ عَالَمَ الكَائِنَاتِ يَشْتَمِلُ عَلَى : ذَوَاتٍ مَخْضَةٍ ، كالعناصر وآثارها ،
والمكوّنات الثلاثة عنها ، التي هي : المعدِنُ ، والنَّبَاتُ ، والحيوانُ ، وهذه كُلُّها 5
متعلّقاتُ القُدْرَةِ الإلهية. وعلى أفعالٍ صادرة عن الحيوانات ، واقعةٌ بقُصُودِها ، متعلّقةٌ
بالقُدْرَةِ التي جعلَ الله لها عليها. فمنها مُنْتَظَمٌ مُتَرَتَّبٌ ، وهي الأفعال البشرية ، ومنها
غيرُ منتظمٍ ولا مُتَرَتَّبٍ ، وهي أفعالُ الحيوانات غيرِ البشر.

وذلك أَنَّ الفِكرَ يُدْرِكُ التَّرتِيبَ بين الحَوَادِثِ بالطَّبعِ أو الوَضْعِ . فإذا قَصِدَ
إِيجَادَ شيءٍ من الأشياءِ ، فَلأَجْلِ التَّرتِيبِ بين الحَوَادِثِ لا بُدَّ من التَّنْقِطِنِ بسببِهِ أو 10
عِلَّتِهِ أو شَرْطِهِ ، وهي - عَلَى الجُمْلَةِ - مبادؤه ، إذ لا يوجدُ إلّا ثانياً عنها. ولا يُمكنُ
إيقاعُ المُتَقَدِّمِ مُتَأَخِّراً ولا المُتَأَخِّرِ مُتَقَدِّماً. وذلك المَبْدَأُ قد يكونُ له مَبْدَأٌ آخَرُ من
تلك المبادئ لا يوجدُ إلّا مُتَأَخِّراً عنه. وقد يَزْنِي ذلك أو يَنْتَهِي. فإذا انْتَهَى إلى آخر
المبادئ في مَرْتَبَتَيْنِ أو ثَلَاثٍ أو أَرْبَعٍ ، وشرع في العَمَلِ الَّذِي يوجَدُ به ذلك الشَّيْءُ ،
بَدَأَ بالمَبْدَأِ الأخير الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ الفِكرُ ، فكان أَوَّلَ عَمَلِهِ. ثُمَّ تَابَعَ ما بَعْدَ إلى آخر 15
المُسَبِّباتِ التي كانت أَوَّلَ فِكْرَتِهِ.

مثلاً، لو فَكَّر في اتِّخَاذِ سَقْفٍ يُكِنُّهُ، انْتَقَلَ بِذِهْنِهِ إِلَى الْحَائِطِ الَّذِي يَدْعُمُهُ، ثُمَّ إِلَى الْأَسَاسِ الَّذِي يَقِفُ عَلَيْهِ الْحَائِطُ، فَهُوَ آخِرُ الْفِكْرَةِ. ثُمَّ يَبْدَأُ فِي الْعَمَلِ بِالْأَسَاسِ، / ثُمَّ بِالْحَائِطِ، ثُمَّ بِالسَّقْفِ، وَهُوَ آخِرُ الْعَمَلِ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ: أَوَّلُ الْعَمَلِ آخِرُ الْفِكْرَةِ، وَأَوَّلُ الْفِكْرَةِ آخِرُ الْعَمَلِ. فَلَا يَتِمُّ فِعْلُ الْإِنْسَانِ فِي الْخَارِجِ إِلَّا بِالْفِكْرِ فِي هَذِهِ الْمُرْتَبَاتِ لِتَوْقُفِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ يَسْرِعُ فِي فِعْلِهَا. وَأَوَّلُ 5 هَذَا الْفِكْرِ هُوَ الْمُسَبَّبُ الْأَخِيرُ، وَهُوَ آخِرُهَا فِي الْعَمَلِ. وَأَوَّلُهَا فِي الْعَمَلِ هُوَ السَّبَبُ الْأَوَّلُ، وَهُوَ آخِرُهَا فِي الْفِكْرِ. وَلِأَجْلِ الْعُثُورِ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ يَحْصُلُ الْإِنْتِظَامُ فِي الْأَفْعَالِ الْبَشَرِيَّةِ.

وَأَمَّا الْأَفْعَالُ الْحَيَوَانِيَّةُ لغيرِ الْبَشَرِ، فَلَيْسَ فِيهَا انْتِظَامٌ، لَعَدَمِ الْفِكْرِ الَّذِي يَغُثُّ بِهِ الْفَاعِلُ عَلَى التَّرْتِيبِ فِيمَا يَفْعَلُ، إِذِ الْحَيَوَانَاتُ إِنَّمَا تُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ، وَمُذْرَكَاتُهَا مُتَفَرِّقَةٌ خَلِيَّةٌ مِنَ الرَّبْطِ، لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْفِكْرِ. وَلَمَّا كَانَتْ الْحَوَادِثُ الْمُعْتَبَرَةُ فِي عَالَمِ الْكَائِنَاتِ هِيَ الْمُنْتَظِمَةُ، وَغَيْرِ الْمُنْتَظِمَةِ إِنَّمَا هِيَ تَبَعٌ لَهَا، انْدَرَجَتْ حِينَئِذٍ أَفْعَالُ الْحَيَوَانَاتِ فِيهَا، وَكَانَتْ مُسَخَّرَةً لِلْبَشَرِ، وَاسْتَوَلَتْ أَفْعَالُ الْبَشَرِ عَلَى عَالَمِ الْحَوَادِثِ بِمَا فِيهِ، فَكَانَ كُلُّهُ فِي طَاعَتِهِ وَتَسْخِيرِهِ. وَهَذَا مَعْنَى الْإِسْتِخْلَافِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ 15 تَعَالَى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة، من الآية 30].

فَهَذَا الْفِكْرُ هُوَ الْخَاصَّةُ الْبَشَرِيَّةُ الَّتِي تَمَيَّزُ بِهَا الْبَشَرُ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ. وَعَلَى قَدَرِ حُصُولِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ فِي الْفِكْرِ مُرْتَبَةً ⁽¹⁾ تَكُونُ إِنْسَانِيَّتُهُ. فَمَنْ

(1) ع: منزلة .

التاس من تتوالى له السببية في مرتبتين أو ثلاث، ومنهم من لا يتجاوزها، ومنهم من ينتهي إلى خمس أو ست، فتكون المرتبة أعلى.

واعْتَبِرْ⁽¹⁾ ذلك بلاعب الشطرنج، فإن في اللاعبين من يتصور ثلاث حركات والخمس التي^(ب) ترتبها وضعي، ومنهم من يقصر عن ذلك لتصور ذهنه. وإن كان هذا المثال غير مطابق، لأن لعب الشطرنج بالملكة، ومعرفة الأسباب 5 والمسببات بالطبع. لكنه مثال يحتذي به الناظر في تعقل ما يورد عليه من القواعد. والله خلق الإنسان وقضاه على كثير من خلق تفضيلاً.

3 فصل، في العقل التجريبي، وكيفية حدوثه

إنك تسمع في كتب الحكماء قولهم: الإنسان مدني بالطبع. يذكرونه في إثبات الثبوتات وغيرها. والتسبة فيه / إلى المدينة، وهي عندهم كناية عن الاجتماع البشري. 10 ومعنى هذا القول أنه لا تمكن حياة المنفرد من البشر ولا يتم وجوده إلا مع أبناء جنسه، وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحياته. فهو محتاج إلى المعاونة في جميع حاجاته أبداً بطبعه. وتلك المعاونة لابد فيها من المفاوضة أولاً، ثم المشاركة وما بعدها. وربما تقضي المعاملة عند اتحاد الأغراض إلى المنازعة والمشاجرة، فتنشأ المنافرة والموافقة، والصداقة والعداوة، وتؤول إلى الحرب والسلم بين الأمم 15 والقبائل. وليس ذلك على أي وجه اتفق، كما بين الهمل من الحيوانات، بل البشر

(1) ع: اعتبر (ب) ع: الذي.

بما جعل فيهم من انتظام الأفعال وترتيبها بالفكر كما تقدّم، جعل ذلك مُنتظماً فيهم
ويسّرهم لإيقاعه على وجوه سياسية وقوانين حكّمية يُتَكَبَّر فيها عن المفاوِد إلى
المصالح، وعن الحسن إلى القبيح، بعد أن يُمَيِّزوا القبائح والمفَسِّدَة بما يَنشأ عن فعلٍ
من ذلك عن تجربة صحيحة وعوائد معروفة بينهم . فيفارقون الهَمَلَ من الحيوان،
5 وتظهر عليهم نتيجة الفكر في انتظام الأفعال وتُعدها عن الفساد.

هذه المعاني التي يحصل بها ذلك لا تَبْعُد عن الحسّ كلّ البُعد، ولا يَتَعَمَّقُ
فيها التّأخّر، بل كلّها تُدْرِك بالتّجربة، وبها تُستفاد، لأنّها معاني جُزئية تتعلّق
بالمُحسوسات، وصدقها وكذبها يظهر قريباً في الواقع. فيستفيد طالبها حصول العلم
بها من ذلك، ويستفيد كلّ واحدٍ من البشر القَدَر الذي يُسرّ له منها، مُقتَضياً له
10 بالتّجربة بين الوقائع في مُعاملة أبناء جنسه حتّى يَتَعَيَّن له ما يَحِبُّ ويُبْغِي فعلاً
وتركاً، وتحصل بملاستِهِ الملكة في مُعاملة أبناء جنسه. ومن تَتَّبِع ذلك سائر عُمُرهِ
حصَلَ له العُثور على كلّ قضيّة قضيّة، ولا يَدُّ بما تَسَعُه التّجربة من الزّمن. وقد
يُسَهِّل الله على كثيرٍ من البشر تحصيل ذلك في أقرب من زَمَن تحصيلها بالتّجربة
إذا قلَّد فيها الآباء والمُشيخة والأكابر ولَقِنَ عنهم ووَعَى تعلِيمهم، فيستغني عن طول
15 المعاناة في تَتَبُّع الوقائع واقتِناص هذا المعنى من بينها. ومن فَقَد المُعَلِّم في ذلك والتّقليد
فيه، أو أَعْرَضَ عن حُسْن استماعه / واتّباعه، طالَ عَناءُهُ في التّأدّب بذلك.
فيُجْري في غير مألُوف، ويُدرِكها على غير نِسْبة. فتوجدُ آدابُهُ ومُعاملاتُهُ سيئةً
الأوضاع، باديةً الحَقْل، ويفسُد حالُهُ في معاشه بين أبناء جنسه. وهذا مَعْنَى القَوْل

المشهور⁽¹⁾: من لم يُؤدِّبه والداه، أدَّبه الزَّمانُ. أي، من لم يَلْقَ الآدابَ في مُعاملات البشر من والدَيْه، وفي مَعْنَاهِما المُشِيخَةُ والأَكْبَرُ، ويتعلَّمُ ذلك منهم، رَجَعَ إلى تَعَلُّمِهِ بِالطَّبْعِ من الواقعات على توالي الأيام، فيكونُ الزَّمانُ مُعَلِّمَهُ ومُؤدِّبَهُ لضرورة ذلك بضرورة المُعاوَنَةِ الَّتِي هي طَبِيعَتُهُ.

وهذا هو العَقْلُ التَّجْرِبِيُّ ، وهو يَحْصُلُ بعد العَقْلِ التَّمْيِيزِيِّ الَّذِي نَقَعَ بِهِ 5
الأفعالُ، كما قَدَّمْنَاهُ.

وبعد هذين مَرْتَبَةَ العَقْلِ التَّطَرِّيِّ الَّذِي تَكْفُلُ بِتَفْسِيرِهِ أَهْلُ الْعُلُومِ، فلا نَحْتَاجُ إلى تَفْسِيرِهِ في هذا الكتاب. وَاللَّهُ جَعَلَ ﴿لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية 78].

10

4 • فَصْلٌ، فِي عُلُومِ الْبَشَرِ وَعُلُومِ الْمَلَائِكَةِ

إِنَّا نَشْهَدُ فِي أَنْفُسِنَا بِالْوُجْدَانِ الصَّحِيحِ وجودَ ثَلَاثَةِ عَوَالِمٍ، أَوَّلُهَا عَالَمُ الْحِسِّ، وَنَعْتَبِرُهُ بِمَدَارِكِ الْحِسِّ الَّذِي شَارَكْتُنَا فِيهِ الْحَيَوَانَاتُ بِالْإِدْرَاكِ. ثُمَّ نَعْتَبِرُ الْفِكْرَ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ الْبَشَرُ، فنَعْلَمُ مِنْهُ وجودَ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ عِلْماً ضَرُورِيّاً بما بين جَنْبَيْنَا مِنْ

(1) وَضَمَّنَ الْمَعْنَى أَبُو مُحَلَّم (عُوفُ بْنُ مُحَلَّمِ الْخَزَاعِي) فِي قَوْلِهِ:

مَنْ لَمْ يُؤدِّبْهُ وَالِدَاهُ أَدَّبَهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ

انظر التذكرة الحمدونية 8: 111، الرخمشري: ربيع الأبرار 4: 395 ونسبها ابن عبد ربه: العقد الفريد 2: 441 إلى إبراهيم بن شكلة (المهدي).

مداركها العلمية التي هي فوق مدارك الحس، فنراه عالماً آخر فوق عالم الحس. ثم نستدل على عالم ثالث فوقنا بما نحس فينا من آثاره التي تُلقي في أفئدتنا، كالإرادات والوجاهات نحو الحركات الفعلية، فنعلم أنّ هناك فاعلاً يبعثنا عليها من عالم فوق عالمنا، وهو عالم الأرواح والملائكة. وفيه ذوات مُدركة لوجود آثارها فينا، مع ما بيننا وبينها من المغايرة. 5

وربما يُستدل على هذا العالم الأعلى الروحاني وذواته، بالرؤيا وما نجد في النوم ويُلقى علينا فيه من الأمور التي نحن في غفلة عنها في اليقظة، وتطابق الواقع في الصحة منها، فنعلم أنّها حق ومن عالم الحق. وأمّا أضغاث الأحلام، فصور خيالية يخزنها الإدراك في الباطن، ويجول فيها الفكر بعد الغيبة عن الحس. ولا نجد على هذا العالم الروحاني برهاناً أوضح من هذا، فتعلمه لذلك على الجملة، ولا ندرك له تفصيلاً. 10

وما يزعمه الحكماء الإلهيون / في تفصيل ذواته وترتيبها، المسماة عندهم بالعقول، فليس شيء من ذلك ييقني، لاختلال شرط البرهان النظري فيه، كما هو مُقرر في كلامهم في المنطق. لأنّ من شرطه أن تكون قضايا أولية ذاتية، وهذه الذوات الروحانية مجهولة الذاتيات. فلا سبيل للبرهان فيها، ولا يتنى لنا مدرك في تفاصيل هذه العوالم إلا ما تقتبسهُ من الشرعيات التي يوضحها الإيمان ويحكمها. 15

وأبعد هذه العوالم في مدركنا عالم البشر، لأنّه وجداني مشهود في مداركنا الجسدية والروحانية، ويشترك في عالم الحس مع الحيوانات، وفي عالم العقل

والأزواج مع الملائكة الذين ذواتهم من جنس ذواته، وهي ذوات مجردة عن
الجسمانية والمادة، وعقل صرف يتجدد فيه العقل والعقل والمفعول، وكأنه ذات
حقيقتها الإدراك والعقل. فعلومهم حاصلة دائماً مطابقة للطبع لمعلوماتها لا يقع فيها
خلل البتة. وعلم البشر هو حصول صورة المعلوم في ذواتهم بعد أن لا تكون حاصلة،
فهو كله مكتسب. والذات التي تحصل فيها صور المعلومات، وهي النفس، مادة 5
هيولانية تلبس صور الوجود بصور المعلومات الحاصلة فيها شيئاً شيئاً حتى
تستكمل، ويصح وجودها بالموت في مادتها وصورتها. فالمطلوبات فيها مترددة بين
التقي والإثبات دائماً، تطلب أحدهما بالوسط الرابط بين الطرفين. فإذا حصل
وصار معلوماً افتقر إلى بيان المطابقة. وربما أوضحها البرهان الصناعي، لكنه من وراء
الحجاب، وليس كالمعاني التي في علوم الملائكة. وقد يتكشف ذلك الحجاب، فيصير 10
إلى المطابقة بالعيان الإدراكي.

فقد تبين أن البشر جاهل بالطبع، للتردد الذي في علمه، وعالم بالكنسب
والصناعة، لتخصيله المطلوب يفكره بالشروط الصناعية. وكشف الحجاب الذي
أشرنا إليه، إنما هو بالرياضة بالأذكار التي أفضلها صلاة تهى عن الفحشاء والمنكر،
وبالتزهد عن المتناولات المهمة ورأسها الصوم، وبالوجهة إلى الله بجميع قواه. والله 15
﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق، الآية 5].

5 فصل ، في علوم الأنبياء عليهم السلام

إننا نجد هذا الصنف من البشر / تَقَرَّبَهم حالة إلهية خارجة عن منازع البشر وأحوالهم ، فتغلب الوجهة الربانية فيهم على البشرية في القوى الإدراكية والتزوعية من الشهوة والغضب وسائر الأحوال البدئية . فتجدهم متنزهين عن الأحوال البشرية ، إلا في الضرورات منها ، مُقبلين على الأحوال الربانية من العبادة والذكر لله ، بما يقتضي معرفتهم به ، مُخبرين عنه بما يُوحى إليهم في تلك الحالة من هداية الأمة على طريقة واحدة وسنن معهود منهم ، لا يتبدل فيهم كأنه جيلة فطرهم الله عليها.

وقد تقدّم لنا الكلام في الوحي أول الكتاب في فصل المذكورين للغيب . وبينّا 10 هنالك أنّ الوجود كله في عوالمه البسيطة والمركبة على ترتيب طبيعي من أعلاها وأسفلها متصلة كلها اتصالاً لا يتخرم ، وأنّ النوات التي في آخر كل أفق من العوالم مُستعدة لأن تتقلب إلى الذات التي تجاورها من الأسفل والأعلى استعداداً طبيعياً كما في العناصر الجسمانية البسيطة ، وكما هو في التخل والكرم من آخر أفق التبات مع الحلزون والصدف من أفق الحيوان ، وكما في القردة التي استجمعت فيها الكينس والإدراك مع الإنسان صاحب الفكر والرؤية . وهذا الاستعداد الذي في جانب كل 15 أفق من العوالم هو معنى الاتصال فيها.

وفوق العالم البشري عالمٌ روحاني شهدتنا لنا به الآثار التي فينا منه ، بما يُعطينا من قوى الإدراك والإرادة . فذوات ذلك العالم إدراك صرف وتعلُّل مخصّص ،

وهو عالم الملائكة. فوجب من ذلك كله أن يكون للنفس الإنسانية استعداداً
للاستِلاح من البشريّة إلى الملكيّة لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من
الأوقات وفي لمحة من اللحظات. ثم تراجع بشريّتها وقد تَلَقَّتْ في عالم الملكيّة ما
كُلِّفَتْ بتبليغِهِ إلى أبناء جنسها من البشر؛ وهذا هو معنى الوحي.

- 5 وخطاب الملائكة والأنبياء كلّهم مفطورون عليه كأنّه جِبلةٌ لهم. ويُعالجون في
ذلك الاستِلاح من الشدّة والعَطيطة ما هو معروف عنهم. وعلومهم في تلك الحالة
علم شهادة وعيان لا يَلْحَقُهُ الخطأ والزَلَلُ، ولا يَتَّعُ فيه الغلطُ والوَهْمُ، بل المطابقة
فيه ذاتيّة لزوال حجاب الغيب وحصول الشّهادة الواضحة. وعند / مفارقة هذه
الحالة إلى البشريّة لا يُفَارِقُ علمهم الوضوح، استِصحاباً له من تلك الحالة الأولى،
ولما هم عليه من الرّكاء المُقضي بهم إليها، يتردّد ذلك فيهم دائماً إلى أن تَكْمَلَ هدايتُهُ
10 الأُمّة التي بُعثوا لها، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا
إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [سورة فصلت، من الآية 6].

فافهم ذلك، وراجع ما قدّمناه لك أوّل الكتاب في أَصناف المُدركين للغيب،
يَتَضَحُّ لك شَرَحُهُ وبيانه، فقد بَسَطْنَاهُ هنالك بَسْطاً شافياً. والله الموفق.

6 * فصل، في أنّ الإنسان جاهلٌ بالذاتِ، عالمٌ بالكسبِ

قد بيّنا أوّل هذه الفصول أنّ الإنسان من جنس الحيوانات، وأنّ الله ميّزَهُ
عنها بالفكر الذي جُعِلَ له، يوقّع به أفعاله على انتظام، وهو العقل التمييزي، أو

يَقْتَضِ بِه الْعِلْمُ بِالْأَرَاءِ وَالْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ مِنْ أُنْبَاءِ جَنْسِهِ، وَهُوَ الْعَقْلُ التَّجْرِبِيُّ،
أَوْ يَحْضُلُ بِهِ عَلَى تَصَوُّرِ الْمَوْجُودَاتِ غَائِباً وَشَاهِداً عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْعَقْلُ
التَّظْرِيُّ.

وهذا الفكر إنما يحصل له بعد كمال الحيوانية فيه، ويبدأ من التمييز. فهو قبل
5 التمييز خلوّ من العلم بالجملة، معدود من الحيوانات، لاحق بمبديه في التكوين من
الطُّفَّة والعَلَقَة والمُضْغَة. وما حصل له بعد ذلك، فهو بما جعل له من مدارك الحس
والأَفْعِدَة التي هي الفكر. قال تعالى في الامتتان علينا: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعِدَةَ﴾ [سورة السجدة، من الآية 9]. فهو في الحالة الأولى قبل
التمييز هيولى فقط، لجهله بجميع المعارف. ثم يستكمل صورته بالعلم الذي يكتسبه
10 بالآله، فتكمل ذاته الإنسانية في وجودها.

وانظر إلى قوله تعالى في مبدئ الوحي على نبيه: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ
خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾
[سورة العلق، من الآية 1 - 5]. أي: أكسبه من العلم ما لم يكن حاصلاً له بعد أن كان
عَلَقَةً وَمُضْغَةً. فقد كشفت لنا طبيعته وذاته ما هو عليه من الجهل الذاتي والعلم
الكسبي، وأشارت إليه الآية الكريمة، تقرر فيه الامتتان عليه بأول مراتب
15 وجوده، وهي الإنسانية، وحالتها الفطرية والكسبية في أول التنزيل ومبدئ الوحي.
﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ ⁽¹⁾ [سورة النساء، من الآية 17].

(1) آخر الفصول الستة الأولى من الفصل السادس، التي انفردت بها ع .

7 • فصل⁽¹⁾، في أن العلم والتعليم طبعي في العمران البشري

وذلك أن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكن وغير ذلك، وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتخصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه، والاجتماع المهني لذلك التعاون، وقبول ما جاء به الأنبياء عن الله تعالى، والعمل به واتباع صلاح أخراه، فهو مفكر في ذلك كله 5 دائماً لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين، بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر. وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع. ثم لأجل هذا الفكر، وما جيل عليه الإنسان بل الحيوان من تخصيل ما تستدعيه الطبائع، فيكون الفكر راعياً في تخصيل ما ليس عنده من الإدراكات، فيرجع إلى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة أو إدراك، أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه، فيلقن ذلك عنهم 10 ويحرص على أخذه وعلمه. ثم إن فكره ونظره يتوجه إلى واحد من الحقائق، وينظر ما يعرض له لذاته واحداً بعد آخر، ويتمرن على ذلك حتى يصير إلحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له، فيكون علمه حينئذ بما يعرض لتلك الحقيقة علماً مخصوصاً، وتشوّف نفوس أهل الجيل الناشئ إلى تخصيل ذلك، فيفزعون^(ب) إلى أهل معرفته ويحيي التعليم من هذا. فقد تبين بذلك أن العلم والتعليم طبعي في 15 البشر. والله أعلم.

(1) هذا الفصل مثبت في ط ج ي، وهو فاتحة الفصل السادس فيها، ولم يرد في نسخة ع (ب) وقد قرأ: فيفزعون.

8 • فَضْلٌ، فِي أَنْ تَعْلَمَ^(أ) الْعِلْمَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ

وذلك أَنَّ الْحِذْقَ فِي الْعِلْمِ وَالْيَقِينَ^(ب) فِيهِ وَالِاسْتِيْلَاءَ عَلَيْهِ ، إِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ
مَلَكَةٍ فِي الْإِحَاطَةِ بِمَبَادِيهِ وَقَوَاعِدِهِ / وَالْوَقُوفِ عَلَى مَسَائِلِهِ وَاسْتِنْبَاطِ فُرُوعِهِ مِنْ
أَصُولِهِ . وَمَا لَمْ تَحْصُلْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لَمْ يَكُنِ الْحِذْقُ فِي ذَلِكَ الْفَنِّ حَاصِلًا .

[293]

وهذه الْمَلَكَةُ هِيَ غَيْرُ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ . لِأَنَّا نَجِدُ فَهْمَ الْمَسْأَلَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْفَنِّ
الوَاحِدِ مُشْتَرَكًا بَيْنَ مَنْ شَدَا فِي ذَلِكَ الْفَنِّ وَمَنْ هُوَ مُبْتَدِئٌ فِيهِ ، وَبَيْنَ الْعَامِّيِّ الَّذِي
لَمْ يَحْصُلْ عِلْمًا وَبَيْنَ الْعَالِمِ التَّحْرِيرِ . وَالْمَلَكَةُ إِنَّمَا هِيَ لِلْعَالِمِ أَوْ الشَّادِي فِي الْفُنُونِ دُونَ
مَنْ سِوَاهُمَا . فَذَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَلَكَةَ غَيْرُ الْفَهْمِ .

وَالْمَلَكَاتُ كُلُّهَا جِسْمَانِيَّةٌ ، وَسَوَاءٌ كَانَتْ فِي الْبَدَنِ أَوْ فِي الدِّمَاغِ مِنَ الْفِكْرِ
وغيرِهِ ، كَالْحِسَابِ . وَالْجِسْمَانِيَّاتُ كُلُّهَا مُحْسُوسَةٌ ، فَتَقْتَضِرُ إِلَى التَّعْلِيمِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ السَّنَدُ
فِي التَّعْلِيمِ فِي كُلِّ عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ يَفْتَقِرُ إِلَى مَشَاهِيرِ الْمُعَلِّمِينَ فِيهَا ، مُعْتَبَرًا عِنْدَ أَهْلِ
كُلِّ أَفْقٍ وَجِيلٍ .

وَيَبْدُلُ أَيْضًا عَلَى أَنَّ تَعْلِيمَ الْعِلْمِ صِنَاعَةٌ اخْتِلَافُ الْأَصْطِلَاحَاتِ فِيهِ . فَكُلُّ
إِمَامٍ مِنَ الْأَيْمَةِ الْمَشَاهِيرِ اصْطِلَاحٌ فِي التَّعْلِيمِ يَخْتَصُّ بِهِ ، شَأْنُ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا . فَذَلَّ
عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْأَصْطِلَاحَ لَيْسَ مِنَ الْعِلْمِ . إِذْ لَوْ كَانَ مِنَ الْعِلْمِ لَكَانَ وَاحِدًا عِنْدَ
جَمِيعِهِمْ . أَلَا تَرَى إِلَى عِلْمِ الْكَلَامِ كَيْفَ تَخَالَفَ فِي تَعْلِيمِهِ اصْطِلَاحُ الْمُتَقَدِّمِينَ
وَالْمُتَأَخِّرِينَ ؛ وَكَذَا أَصُولُ الْفِقْهِ ، وَكَذَا الْعَرَبِيَّةُ وَالْفِقْهُ ، وَكَذَا كُلُّ عِلْمٍ يَتَوَجَّهُ^(ج) إِلَى

(أ) مَنْ ع ، وَفِي ط ج ي : تَعْلِيم (ب) ج : الْفَنِّ (ج) كَذَا فِي ط ج ي ، وَفِي ع : بِحَاج .

مُطَالَعَتِهِ تَجِدُ الاصْطِلَاحَاتِ فِي تَعْلِيمِهِ مُتَخَالِفَةً. فَدَلَّ عَلَى أَنَّهَا صِنَاعَاتٌ فِي التَّعْلِيمِ،
وَالْعِلْمِ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ.

وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّ سَنَدَ الْعِلْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ كَادَ أَنْ يَنْقَطَعَ عَنْ أَهْلِ
الْمَغْرِبِ كُلِّهِمْ بِاخْتِلَالِ عُمُرَانِهِ وَتَنَاقُصِ الدُّوَلِ فِيهِ، وَمَا يَحْدُثُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ نَقْصِ
الصَّنَائِعِ وَفَقْدَانِهَا كَمَا مَرَّ . وَذَلِكَ أَنَّ الْقَيْرَوَانَ وَقُرْطُبَةَ كَانَتَا حَاضِرَتَيِ الْمَغْرِبِ 5
وَالْأَنْدَلُسِ، وَاسْتَبْجَرَ عُمُرَانُهُمَا⁽¹⁾، وَكَانَ فِيهِمَا لِلْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ أَسْوَاقٌ نَافِقَةٌ وَبَحُورٌ
زَاخِرَةٌ. وَرَسَخَ فِيهِمَا التَّعْلِيمُ لِمُتَدَادِ عَصُورِهِمَا وَمَا كَانَ فِيهِمَا مِنَ الْحَضَارَةِ . فَلَمَّا خَرِبَتَا
انْقَطَعَ التَّعْلِيمُ عَنِ الْمَغْرِبِ إِلَّا قَلِيلًا / كَانَ فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ بِمَرَّاكُشَ مُسْتَفَادًا مِنْهَا. [293ب]
وَلَمْ تَرَسَخِ الْحَضَارَةُ بِمَرَّاكُشَ لِبِدَاوَةِ الدَّوْلَةِ الْمُوَحِّدِيَّةِ فِي أَوَّلِهَا وَقُرْبَ عَهْدِ انْقِرَاضِهَا
بِمَبْدئِهَا، فَلَمْ تَتَّصِلْ أَحْوَالُ الْحَضَارَةِ فِيهَا إِلَّا فِي الْأَقْلِ.

10

وَبَعْدَ انْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ بِمَرَّاكُشَ، ارْتَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ مِنْ إِفْرِيقِيَّةِ الْقَاضِي أَبُو
الْقَاسِمِ بْنِ زَيْتُونٍ، لِعَهْدِ أَوَاسِطِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ، فَأَدْرَكَ تَلْمِيزَ الْإِمَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ،
وَأَخَذَ عَنْهُمْ، وَلَقِيَ تَعْلِيمَهُمْ، وَخَذِقَ فِي الْعَقْلِيَّاتِ وَالنَّقْلِيَّاتِ، وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ بِعِلْمٍ
كَبِيرٍ وَتَعْلِيمٍ حَسَنِ.

وَجَاءَ عَلَى إِثْرِهِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ شُعَيْبِ الدَّكَّالِيُّ، كَانَ ارْتَحَلَ إِلَيْهِ 15
مِنَ الْمَغْرِبِ، فَأَخَذَ عَنْ مَشْيَخَةِ مِصْرَ، وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ وَاسْتَقَرَّ بِهَا، وَكَانَ تَعْلِيمُهُ
مُفِيدًا. فَأَخَذَ عَنْهَا أَهْلُ تُونِسَ، وَاتَّصَلَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِمَا فِي تَلْمِيزِهِمَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ،

(1) ج: عمرانها .

حتى انتهى إلى القاضي محمد بن عبدالسلام، شارح ابن الحاجب وتلميذه. * وانتقل من تونس إلى تلمسان في ^(١) ابن الإمام وتلميذه * ^(ب)، فإنه قرأ مع ابن عبد السلام على مَشِيخة واحدة وفي مجالس بأعيانها. وتلميذ ابن عبد السلام بتونس وابن الإمام بتلمسان لهذا العهد، إلا أنهم من القلة بحيث يُخشى انقطاع سندهم.

5 ثم ارتحل من زواوة في آخر المائة السابعة أبو علي ناصر الدين المشدالي * [إلى المشرق] ^(ج) وأدرك تلميذ * ^(د) أبي عمرو بن الحاجب، وأخذ عنهم ولقّن تعليمهم. وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة، وحذّق في العقليات والتقليّات، ورجع إلى المغرب بعلم كبير وتعليم مفيد، ونزل بجاية، واتصل سند تعليمه في طلبتها. وربّما انتقل إلى تلمسان عمران المشدالي، من تلميذه، وأوطنها 10 وبثّ طريقته فيها. وتلميذه لهذا العهد بجاية وتلمسان قليل، أو أقل من القليل.

وبقيت فاش وسائر أمصار المغرب خلوا من حُسن التعليم من لدن اقراض تعليم قُرطبة والقيروان، ولم يتصل سند / التعليم فيهم، فعسر عليهم حصول الملكة [294] والحذق في العلوم. وأيسر طرق هذه الملكة قوّة ^(هـ) اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلميّة، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها. فتجد طالب العلم 15 منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في مُلازمة المجالس العلميّة، سُكوتا لا ينطقون

(١) في ظ: فرأ (ب) سقط ما بين التجمين من ي (ج) سقط من ظ (د) سقط ما بين التجمين من ي ج (هـ) من ع ج، وفي ي: فتق، وفي ظ: فترة.

ولا يُفَاوِضُونَ، وَعِنَايَتُهُمْ بِالْحِفْظِ أَكْثَرُ مِنَ الْحَاجَةِ. فَلَا يَحْصُلُونَ عَلَى طَائِلٍ مِنْ
 مَلَكَةِ التَّصْرِيفِ فِي الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ. ثُمَّ ^(أ) بَعْدَ تَحْصِيلِ مَنْ يَرَى مِنْهُمْ أَنَّهُ قَدْ خَصَّلَ، تَجِدُ
 مَلَكَتَهُ قَاصِرَةً فِي عِلْمِهِ إِنَّ ^(ب) فَاوِضَ أَوْ نَاطَرَ أَوْ عَلَّمَ. وَمَا أَتَاهُمُ الْقُصُورُ إِلَّا مِنْ
 قَبْلِ التَّعْلِيمِ وَانْقِطَاعِ سَنَدِهِ . وَإِلَّا حَفِظْتَهُمْ أَبْلَغُ مِنْ حِفْظِ سِوَاهُمْ، لِشِدَّةِ عِنَايَتِهِمْ بِهِ
 وَظَنَّهُمْ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ مِنَ الْمَلَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ . وَمِمَّا يَشْهَدُ بِذَلِكَ فِي الْمَغْرِبِ، 5
 أَنَّ الْمُدَّةَ الْمَعْيَنَةَ لِسُكْنَى طَلَبَةِ الْعِلْمِ بِالْمَدَارِسِ عِنْدَهُمْ سِتُّ عَشْرَةَ سَنَةً، وَهِيَ
 بِتُونِسَ خَمْسُ سِنِينَ. وَهَذِهِ الْمُدَّةُ بِالْمَدَارِسِ عَلَى الْمُتَعَارَفِ هِيَ أَقَلُّ مَا يَتَأْتَى فِيهَا
 لِطَالِبِ الْعِلْمِ حَصُولُ مُبْتَغَاهِ مِنَ الْمَلَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ أَوْ الْيَأْسِ مِنْ تَحْصِيلِهَا. فَطَالَ أَمَدُهَا
 فِي الْمَغْرِبِ لِهَذِهِ الْعُصُورِ لِأَجْلِ عُسْرِهَا مِنْ قِلَّةِ الْجُودَةِ فِي التَّعْلِيمِ خَاصَّةً، لَا مِمَّا سِوَى
 ذَلِكَ.

10

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ، فَذَهَبَ رِسْمُ التَّعْلِيمِ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَذَهَبَتْ عِنَايَتُهُمْ بِالْعُلُومِ
 لِتَنَاقُصِ ^(ج) عُمُرَانِ الْمُسْلِمِينَ بِهَا مِنْذُ مِائَتَيْنِ مِنَ السِّنِينَ. وَلَمْ يَبْقَ مِنْ رِسْمِ الْعِلْمِ فِيهِمْ
 إِلَّا فَنُّ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَدَبِ، اقْتَصَرُوا عَلَيْهِ، وَاحْفَظَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِ بَيْنَهُمْ فَاحْفَظَ بِحِفْظِهِ.

وَأَمَّا الْفِقْهُ بَيْنَهُمْ، فَرَسَمَ خِلَافَ وَائِثْرٍ بَعْدَ عَيْنٍ. وَأَمَّا الْعَقْلِيَّاتُ، فَلَا أَثَرَ وَلَا عَيْنَ.
 15 وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِانْقِطَاعِ سَنَدِ التَّعْلِيمِ فِيهَا بِتَنَاقُصِ الْعُمُرَانِ وَتَغَلُّبِ الْعَدُوِّ عَلَى عَامَّتِهَا، إِلَّا
 قَلِيلًا بِسَيْفِ الْبَحْرِ، شُغِلَهُمْ بِمَعَايِشِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ شُغْلِهِمْ بِمَا بَعْدَهَا. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ
 عَلَى أَمْرِهِ﴾ [سورة يوسف، من الآية 21].

(أ) سقط من ع (ب) في ط : إذ (ج) ي ج : تناقض .

وأما المشرق^(١) ، فلم ينقطع سندُ التعليم فيه، بل أسواقه / نافقة، وبحوره [294ب] زاخرة لاتصال العُمران الموفور، واتصال السند فيه. وإن كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت، مثل بغداد والبصرة والكوفة، إلا أن الله قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك. وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق، ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب. فلم تزل موفورة وعمرانها متصلة 5 وسند التعليم بها قائماً. فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم، بل وفي سائر الصنائع، حتى إنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم، أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب، وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب. ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية، لما يرون من كينهم في العلوم والصنائع. وليس كذلك، ولا بين 10 قُطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذي [هو]^(ب) تفاوت في الحقيقة الواحدة. اللهم إلا الأقاليم المنحرفة، مثل الأول والسابع، فإن الأمزجة فيها منحرفة، والنفوس على نسبتها، كما مر. وإنما الذي فضل به أهل المشرق أهل المغرب، فهو ما يحصل في النفس من آثار الحضارة من [العقل]^(ج) المزيد، كما تقدم في الصنائع. وتزيده الآن 15 شرحاً وتحقيقاً.

وذلك أن الحضرة لهم آداب في أخوالهم من المعاش والمساكن والبناء وأمور الدين والدنيا، وكذلك سائر عاداتهم ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم. فلم يبق في ذلك

(١) في ج: وأما أهل المشرق (ب) من ي (ج) من: ع ج ي، وفي ظ: الفعل .

آداب^(١) يوقف عندها في جميع ما يتناولونه ويتلبسون به من أخذ وترك، حتى كأنها حدود لا تتعدى. وهي مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الأول منهم. ولا شك أن كل صناعة مترتبة فيرجع منها إلى النفس أثر يكسبها عقلاً مزيداً تستعد به لقبول صناعة أخرى، ويهيئها به العقل لسرعة الإذراك للمعارف.

[295] ولقد يبلغنا في تعليم الصنائع عن أهل مصر / غايات لا تدرك، مثل أنهم 5
يُعلِّمون الحُمُرَ الإنسيّة، والحيوانات العُجم من الماشي والطائر، مفردات من الكلام والأفعال يُستغرب ندورها ويعجز أهل المغرب عن فهمها، فضلاً عن تعليمها.

وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية يزيد^(ب) الإنسان ذكاءً في عقله وإضاءةً في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس، إذ قدّمنا أن النفس إنما تنشأ بالإذراكات وما يرجع إليها من الملكات، فيزدادون بذلك كينساً لما يرجع إلى 10
النفس من الآثار العلمية، فيطئن العايم تفاوتاً في الحقيقة الإنسانية؛ وليس كذلك.

ألا ترى إلى الحضر مع أهل البدو، كيف تجد الحضري متخلياً بالذكاء، مُمتلئاً من الكينس، حتى إن البدوي ليظنه أنه قد فاته في حقيقة إنسانيته وعقله، وليس كذلك. وما ذلك إلا لإجادته من ملكات الصنائع والآداب في العوائد والأحوال الحضريّة ما لا يعرفه البدوي. فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن 15
تعليمها، ظن كل من قصر عن تلك الملكات أنها لكمال في عقله، وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرتها، وليس كذلك. فإننا نجد في أهل البدو من

(١) كذا في: ط ع ج، وفي ي: أبواب (ب) ج: تزيد.

هو في أعلى رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرته. وإِنَّمَا الَّذِي ظَهَرَ عَلَى أَهْلِ
 الْحَضَرِ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ رَوْنُ الصَّنَاعِ وَالتَّعْلِيمِ، فَإِنَّ لَهَا آثَاراً تَرْجِعُ إِلَى النَّفْسِ، كَمَا
 قَدَّمْنَاهُ. وَكَذَا أَهْلُ الْمَشْرِقِ، لَمَّا كَانُوا فِي التَّعْلِيمِ وَالصَّنَاعِ أَرْسَخَ رَتَبَةً وَأَعْلَى قَدَمًا، وَكَانَ
 أَهْلُ الْمَغْرِبِ أَقْرَبَ إِلَى الْبَدَاوَةِ، لَمَّا قَدَّمْنَاهُ فِي الْفَضْلِ قَبْلَ هَذَا، ظَنَّ الْمُغْفَلُونَ فِي
 5 بَادِي الرَّأْيِ أَنَّهُ لِكَمَالٍ فِي حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ اخْتَصَّصُوا بِهِ عَنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ
 بِصَحِيحٍ، فَتَفَهَّمَهُ. وَاللَّهُ ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة فاطر، من الآية 1].

9 فصل، في أَنَّ الْعُلُومَ إِنَّمَا تَكْثُرُ حَيْثُ يَكْثُرُ الْعُمَرَانُ وَتَعْظُمُ الْحَضَارَةُ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، أَنَّ تَعْلِيمَ الْعِلْمِ، كَمَا قُلْنَاهُ، مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَاعِ. وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا
 أَنَّ الصَّنَاعَ إِنَّمَا تَكْثُرُ فِي الْأَمْصَارِ؛ وَعَلَى نِسْبَةِ عُمَرَانِهَا فِي الْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ وَالْحَضَارَةِ
 10 / وَالتَّرَفِ، تَكُونُ نِسْبَةُ الصَّنَاعِ فِي الْجُودَةِ وَالْكَثْرَةِ، لِأَنَّهُ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى الْمَعَاشِ. فَتَمَّى [295ب]
 فَضَّلْتُ أَعْمَالُ أَهْلِ الْعُمَرَانِ عَنْ مَعَاشِهِمْ، انصَرَفَتْ إِلَى مَا وَرَاءَ الْمَعَاشِ مِنَ التَّصَرُّفِ
 فِي خَاصِيَةِ الْإِنْسَانِ، وَهِيَ الْعُلُومُ وَالصَّنَاعُ. وَمَنْ تَشَوَّفَ بِفَطْرَتِهِ إِلَى الْعِلْمِ مِمَّنْ نَشَأَ فِي
 الْقُرَى وَالْأَمْصَارِ غَيْرِ الْمُتَمَدِّنَةِ، فَلَا يَجِدُ فِيهَا التَّعْلِيمَ الَّذِي هُوَ صِنَاعِيٌّ، لِفُقْدَانِ الصَّنَاعِ
 فِي أَهْلِ الْبَدْوِ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ. وَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الرَّحَلَةِ فِي طَلَبِهِ فِي الْأَمْصَارِ الْمُسْتَبْحِرَةِ،
 15 شَأْنَ الصَّنَاعِ كُلِّهَا.

وَاعْتَبِرْ مَا قَرَّرْنَاهُ بِحَالِ بَغْدَادِ وَقَرْطَبَةِ وَالْقَيْرَوَانِ وَالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ، لَمَّا كَثُرَ
 عُمَرَانُهَا صَدَرَ الْإِسْلَامُ وَاسْتَوَتْ فِيهَا الْحَضَارَةُ، كَيْفَ زَخَرَتْ فِيهَا بِحَارُ الْعِلْمِ، وَتَقَنَّنُوا

في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم، واستنباط المسائل والفنون، حتى أرتبوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين. ولما تناقص عُمرانها وابتدعَ سُكَّانُها، انطوى ذلك البساطُ جملةً بما عليه، وفقد العلمُ بها والتعليمُ، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام.

- 5 ونحن لهذا العهد، نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر، لما أن عُمرانها مُستبَحَّرٌ، وحضارتها مُستَحْكَمَةٌ منذ آلاف من السنين. فاستحكمت فيها الصنائع وتَشَنَّتْ، ومن جُمَلِتها تعليمُ العلم. وأكد ذلك فيها وحفظه ما وَقَعَ لهذه العصور بها مُنْذُ مائتين من السنين في دَوْلَةِ التُّرك من أَيَّامِ صلاح الدين بن أيُّوب، وهَلُمَّ جَرًّا. وذلك أن أمراء التُّرك في دَوْلَتِهِمْ يَخْشَوْنَ عَادِيَةَ سُلْطَانِهِمْ على من يَتَخَلَّفُونَهُ من ذُرِّيَّتِهِمْ لما له عليهم من الرِّقِّ أو الولاءِ ، ولما يُخْشَى من معاطب الملك ونكباته. 10 فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والرُّبُط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلَّة، يَجْعَلُونَ فيها شِرْكَاً لَوْلِيِهِمْ بنظرِ عليها أو نصيبِ فيها، مع ما فيهم غالباً من الجنوح إلى الخيَر والتماس الأجور في المقاصد والأفعال. فكَثُرَتِ الأوقاف لذلك ، وعظُمت الغلات والفوائد، وكَثُرَ / طَالِبُ الْعِلْمِ ومُعَلِّمُهُ بكثرة جرائتهم منها ، وازتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب، ونَقَّثَتْ بِهَا أسواقُ العلوم وزَحَرَتْ بجارِها. والله 15 ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة الشورى، من الآية 49].

10 • فصلٌ ، في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

اعلم أنَّ العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وتعلماً، هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان، يهتدي إليه بفكره، وصنف ثقلي يأخذه عمن وضعه.

5 والأول: هي العلوم الحكيمية الفلسفية، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليلها، حتى يققه نظره ويحجته على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكر.

والثاني: هي العلوم الثقيلة الوضعية، وهي كلها مُستندة إلى الخبر عن الوضع 10 الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول، لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت الثقل الكلي بمجرد وضعه، فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسي. إلا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الأصل، وهو ثقلي، فرجع هذا القياس إلى الثقل لتفرعه عنه.

وأصل هذه العلوم الثقيلة كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي 15 مشروعة لنا من الله ورسوله، وما يتعلّق بذلك من العلوم التي تهَيُّونا للاستفادة منها. ثم يستنبع ذلك علوم اللسان العربي، الذي هو لسان الملة وبه تزل القرآن. وأصناف هذه العلوم الثقيلة كثيرة، لأن المكلف يجب عليه أن يعلم أحكام الله المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه، وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو

بالإجماع أو بالإلحاق. فلا بُدَّ من النَّظَر في الكتاب ببيان أَلْفَاظِهِ أَوَّلًا، وهذا هو
 عِلْمُ التَّفْسِيرِ . ثم بإسناد نقله وروايته إلى النَّبِيِّ ﷺ الذي جاء به من عند الله ،
 واختلاف / روايات القراء في قراءته، وهذا هو عِلْمُ القِراءات. ثم بإسناد السُّنَّة إلى [296ب]
 صاحبها ، والكلام في الرِّوَاةِ التَّاقِلِينَ لها ، ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ، لِيَقَعَ الْوُثُوقُ
 بأخبارهم ويُعْلَمَ ما يَجِبُ الْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهُ من ذلك، وهذه هي علومُ الْحَدِيثِ. ثم لا بُدَّ في 5
 استنباط هذه الأحكام من أصولها من وَجْهٍ قانوني يُفِيدُنَا الْعِلْمَ بِكَيْفِيَّةِ هَذَا الِاسْتِنْبَاطِ ،
 وهذا هو أصولُ الْفِقْهِ. وبعد هذه تحصل الثَّمَرَةُ بِمَعْرِفَةِ أَحْكَامِ اللَّهِ في أفعالِ الْمُكَلَّفِينَ ،
 وهذا هو الْفِقْهُ. ثم إِنَّ التَّكْلِيفَ مِنْهَا بَدَنِيٌّ وَمِنْهَا قَلْبِيٌّ، وهو الْمُخْتَصُّ بِالْإِيمَانِ وما يَجِبُ
 أَنْ يُعْتَقَدَ تَمَّا لَا يُعْتَقَدُ، وهذه هي الْعَقَائِدُ الْإِيمَانِيَّةُ في الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَأُمُورِ الْحَشَرِ
 وَالنَّعِيمِ وَالْعَذَابِ وَالْقَدَرِ. وَالْحِجَاجُ عَنْ هَذِهِ بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ هو عِلْمُ الْكَلَامِ. ثم النَّظَرُ 10
 فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ لَا بُدَّ أَنْ تَتَقَدَّمَ الْعُلُومُ اللَّسَانِيَّةُ، لِأَنَّهُ مُتَوَقَّفٌ عَلَيْهَا. وَهِيَ
 أَصْنَافٌ، فَمِنْهَا: عِلْمُ اللُّغَةِ، وَعِلْمُ التَّحْوِ، وَعِلْمُ الْبَيَانِ، وَعِلْمُ الْأَدَبِ، حَسْبِ مَا تَكَلَّمُ عَلَيْهَا كُلُّهَا.
 وَهَذِهِ الْعُلُومُ التَّقْلِيَّةُ كُلُّهَا مُخْتَصَّةٌ بِالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَأَهْلِهَا، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّ مِلَّةٍ
 عَلَى الْجُمْلَةِ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ، فَهِيَ مُشَارِكَةٌ لَهَا فِي الْجَنْسِ الْبَعِيدِ مِنْ حَيْثُ
 أَنَّهَا عُلُومُ الشَّرِيعَةِ الْمَنْزُوعَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ الْمُبْلَغِ لَهَا. 15
 وَأَمَّا عَلَى الْخُصُوصِ، فَبَيَانُهُ لِكُلِّ [الْمَلَلِ] ⁽¹⁾، لِأَنَّهَا نَاسِجَةٌ لَهَا. وَكُلُّ مَا قَبْلَهَا
 مِنْ عُلُومِ الْمَلَلِ فَهَجُورَةٌ، وَالنَّظَرُ فِيهَا مَحْظُورٌ. فَقَدْ نَهَى الشَّرْعُ عَنِ النَّظَرِ فِي

(1) ظ: الأم .

الكتب المنزلة غير القرآن، وقال ﷺ⁽¹⁾ : "لا تُصدّقوا أهل الكتاب ولا تُكذبوهم، ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾" [سورة العنكبوت، من الآية 46]. ورأى في يد عمر - رضي الله عنه - ورقة من التوراة، فغضب حتى تبيّن الغضب في وجهه، ثم قال⁽²⁾ : "الم آتاكم بها ينضاء نقيّة ؟ والله لو كان موسى حيّاً ما وسّعه إلا أتباعي". 5

ثم إنّ هذه العلوم الشرعيّة الثقلية قد نفقت / أسواقها في هذه الملة بما لا مزيد عليه، وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى التي لا فوقها، وهذبت الاصطلاحات، ورُتبت الفنون، فجاءت من وراء الغاية في الحُسْن والتّتميق. وكان لكلّ فنّ رجالٌ يرجع إليهم فيه ، وأوضاعٌ يُستفاد منها التّعليم . واختصّ المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهورٌ منها حسبما نذكره الآن عند تعديد هذه الفنون. 10

وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العُمران فيه، وانقطاع سند التّعليم ، كما قدّمناه في الفصل قبله. وما أذري ما فعل الله بالمشرق، والظنّ به نفاق العلم فيه، واتّصال التّعليم في العلوم وفي سائر الصّنائع الصّوريّة والكماليّة، لكثرة العُمران فيه والحضارة، ووجود الإعانة لطالب العلم بالجراية من الأوقاف التي اتّسعت بها أرزاقهم. والله مقدّر الليل والنّهار. 15

(1) أخرجه البخاري في ثلاثة مواضع من صحيحه: في التفسير (4485) والاعتصام (7362) والتوحيد (7542).
(2) أخرجه أحمد في مسنده 3: 387، وأبو عبيد في غريب الحديث 3: 28، وابن أبي شيبة في المصنف 9: 27، وابن أبي عاصم في السنّة (50) والتّاريخ في سننه (435) كلّهم من طرق عن مجاهد، عن الشّعبي، عن جابر، ومجاهد وهو ابن سعيد، ضعيف.

11 • فَصْلٌ ، فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالْقِرَاءَاتِ

الْقُرْآنُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ الْمُنْزَلُ عَلَى نَبِيِّهِ، الْمَكْتُوبُ بَيْنَ دَقَّتِي الْمُصْحَفِ. وَهُوَ مُتَوَاتِرٌ بَيْنَ الْأُمَّةِ، إِلَّا أَنَّ الصَّحَابَةَ رَوَوْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى طُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِهِ وَكَيْفِيَّاتِ الْحُرُوفِ فِي أَدَائِهَا. وَتَوَقَّلَ ذَلِكَ وَاشْتَهَرَ، إِلَى أَنْ اسْتَقَرَّتْ مِنْهَا سَبْعُ طُرُقٍ مُعَيَّنَةٍ تَوَاتَرَ نَقْلُهَا أَيْضاً بِأَدَائِهَا، وَاخْتَصَّتْ بِالْإِنْسَابِ إِلَى مَنْ اشْتَهَرَ بِرَوَايَتِهَا مِنَ الْجَمْعِ الْقَلِيلِ. فَصَارَتْ هَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ أَصُولاً لِلْقِرَاءَةِ. وَرُبَّمَا زِيدَ بَعْدَ ذَلِكَ قِرَاءَاتٌ أُخَرُ لِحَقِّقِ السَّبْعِ، إِلَّا أَنَّهَا عِنْدَ أَيْمَةِ الْقِرَاءَةِ لَا تَقْوَى قُوَّتُهَا فِي الثَّقَلِ.

وهذه القراءات السبعة معروفة في كثيرها. وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها، لأنها عندهم كيفيات للأداء، وهو غير منضبط. وليس ذلك عندهم بقادح في تواتر القرآن. وأباه الأكثر،⁽¹⁾ وقالوا بتواترها. وقال آخرون / بتواتر غير الأداء منها، كالمَدِّ [السهيل]^(ب) لعدم الوقوف على كيفيته بالسَّمْعِ*، وهو الصحيح. ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها إلى أن كتبت العلوم ودونت، فكثبت فيما كتبت من العلوم، وصارت صناعة مخصصة وعلماً منفرداً.

وتناقله الناس بالمشرق والأندلس في جيل بعد جيل، إلى أن ملك بشارق الأندلس مجاهد، من موالى العامريين، وكان معتنياً بهذا الفن من بين فنون القرآن لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر، واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من

(1) سقط ما بين النجمين من ع، وفيها إشارة لمُخْرِجِ إِلَى سَارِ الصَّفْحَةِ لَا وَجُودَ لَهُ (ب) من: ع ج ي، وفي ظ: التمهيل.

أَيِّمَةُ الْقُرَاءِ بِحَضْرَتِهِ، فَكَانَ سَهْمُهُ فِي ذَلِكَ وَافِراً. وَاخْتَصَّ مُجَاهِدٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِإِمَارَةِ دَانِيَّةَ وَالْجَزَائِرِ الشَّرْقِيَّةِ، فَتَفَقَّتْ بِهَا سَوْقُ الْقِرَاءَةِ [بما] ^(أ) كَانَ هُوَ مِنْ أَيْمَتِهَا، وَبِمَا كَانَ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ بِسَائِرِ الْعُلُومِ عُمُوماً وَبِالْقِرَاءَةِ خُصُوصاً. فَظَهَرَ لَعَهْدِهِ أَبُو عَمْرٍو الدَّائِي، وَبَلَغَ الْغَايَةَ فِيهَا، وَوَقَفَتْ عَلَيْهِ مَعْرِفَتُهَا، وَانْتَهَتْ إِلَى رِوَايَتِهِ أَسَانِيدُهَا، وَتَعَدَّدَتْ 5 تَوَالِيفُهُ فِيهَا، وَعَوَّلَ النَّاسُ عَلَيْهَا، وَعَدَّلُوا عَنْ غَيْرِهِ، وَاعْتَمَدُوا مِنْ بَيْنِهَا كِتَابَ التَّنْسِيرِ لَهُ.

ثُمَّ ظَهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فِيمَا يَلِيهِ مِنَ الْعُصُورِ وَالْأَجْيَالِ، أَبُو الْقَاسِمِ ابْنُ فَيْرُزٍ، مِنْ أَهْلِ شَاطِئَةِ، فَعَمِدَ إِلَى تَهْذِيبِ مَا دَوَّنَهُ أَبُو عَمْرٍو وَتَلْخِصِهِ. فَنَظَّمَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي قَصِيدَةٍ لَغَزٍ ^(ب) فِيهَا أَسْمَاءُ الْقُرَاءِ بِحُرُوفٍ أَمْجَدَ، عَلَى تَرْتِيبِ أَحْكَمِهِ لِيَتَنَسَّرَ عَلَيْهِ مَا قَصَدَ مِنَ الْإِخْتِصَارِ، وَلِيَكُونَ ^(ج) أَسْهَلَ لِلْحِفْظِ لِأَجْلِ نَظْمِهَا. فَاسْتَوْعَبَ فِيهَا الْفَرْقَ 10 اسْتِيعَاباً حَسَناً، وَعُيِّنِيَ النَّاسُ بِحِفْظِهَا وَتَلْقِينِهَا لِلْوَلَدِ الْمُتَعَلِّمِينَ. وَجَرَى الْعَمَلُ عَلَى ذَلِكَ فِي أَمْصَارِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ.

وَرَبَّمَا أَضِيفَ إِلَى فَنَّ الْقِرَاءَاتِ فَنَّ الرِّسْمِ أَيْضاً، وَهِيَ أَوْضَاعُ حُرُوفِ الْقُرْآنِ فِي الْمُضْخَفِ وَرُسُومُهُ الْخَطِّيَّةُ. لِأَنَّ فِيهِ حُرُوفاً كَثِيرَةً وَقَعَ رَسْمُهَا عَلَى غَيْرِ الْمَعْرُوفِ 15 مِنْ قِيَاسِ الْخَطِّ، كَزِيَادَةِ الْيَاءِ فِي ﴿يَأْتِيَدِرْ﴾ [سورة الدَّارِيَاتِ، مِنْ الْآيَةِ 47]، وَزِيَادَةِ الْأَلْفِ فِي ﴿لَا أَذْبَحَنَّهُ﴾ [سورة التَّمَلُّ، مِنْ الْآيَةِ 21] وَ﴿وَلَا أَوْضَعُوا﴾ [سورة التَّوْبَةِ، مِنْ الْآيَةِ 47]. وَالْوَاوُ فِي ﴿جَزَّوُا الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الْحَشْرِ، مِنْ الْآيَةِ 17]،

(أ) مِنْ ع، وَفِي ط: لا (ب) فِي نَسْخَةِ ط: بِشَدِيدِ الْفَيْنِ (ج) ع: وَلِتَكُونَ.

[298 أ] وحذف / الألف في مواضع دون أخرى، وما رُسم فيه التاءات⁽¹⁾ ممدوداً والأصل فيه مَرْبُوطٌ على شكل الهاء، وغير ذلك. وقد مرَّ تعليلُ هذا الرُّسم المصحفي عند الكلام في الخط. فلما جاءت هذه مخالفة لأوضاع الخط وقانونه، احتيج إلى حصرها؛ فكتب فيها الناس أيضاً عند كثبتهم في العلوم؛ وانتَهت بالمغرب إلى أبي عمرو اللّائي المذكور، فكتب فيها كُتباً من أشهرها: كتابُ المُقنع ، وأخذ به الناس 5 وعولوا عليه . ونظَّمه أبو القاسم الشَّاطِبي في قصيدته الشهيرة على رويِّ الرّاء، وولَّع الناس بحفظها.

ثم كثر الخلاف في الرُّسم في كلماتٍ وحروفٍ أخرى ذكرها أبو داود سليمان ابنُ نجاح من موالى مُجاهد، في كُتبه، وهو من تلميذ أبي عمرو اللّائي، والمشهور بحمَلِ علومه ورواية كُتبه. ثم نُقل بعده خلاف آخر، فنظَّم الحرَّاز، من المتأخِّرين 10 بالمغرب، أرجوزةً أخرى زادَ فيها على المُقنع خلافاً كثيراً وعزاه لناقله. واشتهرت بالمغرب، واقتصر الناس على حفظها وهجروا بها كُتب أبي داود وأبي عمرو والشَّاطِبي في الرُّسم.

وأما التفسيرُ، فاعلم أنَّ القرآن نزلَ بلغة العرب وعلى أساليبٍ بلاغيَّة. وكانوا 15 كلُّهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مُفرداته وتراكيبه. وكان يُنزلُ جُملاً جُملاً وآيات آياتٍ لبيان التوحيد والفروض الدينيَّة بحسب الوقائع. ومنها ما هو في العقائد الإيمانيَّة، ومنها ما هو في أحكام الجوارح، ومنها ما يتقدَّم، ومنها ما يتأخَّر ويكون ناسخاً له.

(1) ع: الثالث .

وكان النبي ﷺ، [هو المتين لذلك كما قال: ﴿لَتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾
[سورة النحل، من الآية 44]. فكان النبي ﷺ] ^(أ) يبين المَجْمَل، ويميز النَّاسِخَ من
الْمَنْسُوخِ، ويعرفه أصحابه، وعرفوه، وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال
منها منقولاً عنه، كما علم من قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [سورة النصر،
الآية 1] 5 أنها نغى النبي ﷺ، وأمثال ذلك.

[ونُقِلَ ذلك] ^(ب) عن الصحابة رضوان الله عليهم، وتداول ذلك التابعون من
بَعْدَهُمْ وقيل عنهم. ولم يزل ذلك مُتَنَاقِلًا بين الصُّدُرِ الْأَوَّلِ والسَّلف، حتى صارت
المعارف علوماً ودَوْنَتْ / الكُتُب. فكتب الكثير من ذلك، ونُقِلَت الآثار الواردة فيه
عن الصحابة والتابعين، وانتهى ذلك إلى الطبري، والواقدي، والثعالبي، وأمثالهم من
المفسرين، فكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار. 10

ثم صارت علومُ اللِّسانِ صِنَاعَةً ^(ج) من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام
الإغراب والبلاغة في التراكيب. فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات
للعرب لا يرجع فيها إلى نقل ولا كتاب. فتنوسي ذلك، وصارت تُنَلَّقَى من كتب
أهل اللسان، فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن لأنه بلسان العرب وعلى منهاج
بلاغتهم. وصار التفسير على صنفين: 15

تفسير نُقْلِيّ: مُسْتَنَدٌ إلى الآثار المنقولة عن السلف، وهي معرفة النَّاسِخِ
والمَنْسُوخِ، وأسباب النزول، ومقاصد الآي، وكل ذلك لا يعرف إلا بالنقل عن
الصحابة والتابعين. وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا.

(أ) من ع ج ي، وسقط من ظ (ب) من ع ج ي، وسقط من ظ (ج) من ظ ج ي، وفي ع: صانعة.

إِلَّا أَنْ كُتِبَ وَمَنْقُولَاتِهِمْ تَشْتَمِلُ عَلَى الْغَثِّ وَالسَّمِينِ، وَالْمَقْبُولِ^(١) وَالْمَزْدُودِ.
 وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَلَا عِلْمٍ، وَإِنَّمَا غَلَبَ عَلَيْهِمُ الْبَدَاوَةُ
 وَالْأُمِّيَّةُ، فَإِذَا تَشَوَّفُوا إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِمَّا تَنْشَوِّفُ إِلَيْهِ النَّفُوسُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي أَسْبَابِ
 الْمَكُونَاتِ وَبَدَأِ الْخَلِيقَةِ وَأَسْرَارِ الْوُجُودِ، فَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ أَهْلَ الْكِتَابِ قَبْلَهُمْ
 وَيَسْتَفِيدُونَهُ مِنْهُمْ، وَهُمْ أَهْلُ التَّوْرَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَمَنْ تَبَعَ دِينَهُمْ مِنَ النَّصَارَى. وَأَهْلُ
 5 التَّوْرَةِ الَّذِينَ بَيْنَ الْعَرَبِ يَوْمَئِذٍ بَادِيَةٌ مِثْلَهُمْ، وَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا تَعْرِفُهُ الْعَامَّةُ
 مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَمُعْظَمُهُمْ مِنْ جَمِيرِ الَّذِينَ أَخَذُوا بِدِينِ الْيَهُودِيَّةِ؛ فَلَمَّا أَسْلَمُوا بَقُوا
 عَلَى مَا كَانَ عَنْدهُمْ مِمَّا لَا تَعْلُقُ لَهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يَخْتِاطُونَ لَهَا، مِثْلَ
 أَخْبَارِ بَدَأِ الْخَلِيقَةِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَى الْحَدَثَانِ وَالْمَلَا حِمٍ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ: كَغَبِ
 10 الْأَخْبَارِ، وَوَهْبِ بْنِ مُتَبِّهِ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَأَمْثَالِهِمْ. فَامْتَلَأَتْ التَّفَاسِيرُ مِنْ
 التَّقُولَاتِ عَنْهُمْ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَغْرَاضِ أَخْبَاراً مَوْقُوفَةً / عَلَيْهِمْ، وَلَيْسَتْ مِمَّا يَرْجِعُ
 إِلَى الْأَحْكَامِ فَيَتَحَرَّى فِيهَا الصَّحَّةُ الَّتِي يَجِبُ بِهَا الْعَمَلُ. وَتَسَاهَلُ الْمَفْسَّرُونَ فِي مِثْلِ
 ذَلِكَ، وَمَلَأُوا كِتَابَ التَّفْسِيرِ بِهَذِهِ التَّقُولَاتِ، وَأَضْلَلُوا كَمَا قَلَنَاهُ، عَنْ أَهْلِ التَّوْرَةِ الَّذِينَ
 يَسْكُنُونَ الْبَادِيَّةَ، وَلَا تَحْقِيقَ عَنْدهُمْ بِمَعْرِفَةِ مَا يَنْقُلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّهُمْ بَعْدَ صِدْقِهِمْ
 15 وَعَظُمَتِ أَقْدَارُهُمْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْمَقَامَاتِ فِي الدِّينِ وَالْمِلَّةِ، فَتُلْقِيَتْ بِالْقَبُولِ مِنْ يَوْمَئِذٍ.
 فَلَمَّا رَجَعَ النَّاسُ إِلَى التَّحْقِيقِ وَالتَّمَحِيصِ، وَجَاءَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ عَطِيَّةَ، مِنْ
 الْمُتَأَخِّرِينَ بِالْمَغْرِبِ، فَلَخَّصَ تِلْكَ التَّفَاسِيرَ كُلَّهَا، وَتَحَرَّى مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الصَّحَّةِ
 مِنْهَا، وَوَضَعَ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ مُتَدَاوِلٍ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ، حَسَنَ الْمُنْحَى،

(١) مِنْ ج. ي. وَفِي ط. ع. الْمَقْبُولُ.

وتبعه القُرْطُبِيُّ في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق.
والصَّنْف الآخر من التفسير: وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة
والبلاغة في تأدية المعنى بحسن المقاصد والأساليب. وهذا الصَّنْف من التفسير قلَّ
أن ينفرد عن الأول، إذ الأول هو المقصود بالذات، وإنما جاء هذا بعد أن صار
5 اللسان وعلومه صناعات. نعم، يكون في بعض التفاسير غالباً.

ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفسير، كتاب الكشف للزمخشري،
من أهل خوارزم^(١). إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجاج على
مذاهبهم الفاسدة حيث يغرض له في أي القرآن من طرق البلاغة، فصار بذلك
للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكائده، مع إقرارهم بفسوخ
10 قديمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة. وإذا كان الناظر فيه واقفاً على المذاهب السنية
مُحسناً للحجاج عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فليقتنم مطالعته لغاية فنونه في
اللسان. ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين، وهو شرف الدين
الطليبي، من أهل توزير من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشري هذا، وتبع ألفاظه،
وتعرض لمذاهبه/ في الاعتزال وأدلتيه، يزيها ويبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على
15 ما يراه أهل السنة، لا على مذهب المعتزلة. فأحسن في ذلك ما شاء، مع إمتاعه
في سائر فنون البلاغة. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف، من الآية 76].

(١) ورد في ط ج ي: "من أهل خوارزم العراق". وليس لهذه الإضافة حقيقة جغرافية. وقد نقلت النسخ ذلك عن الأصل "ع".
وبيانه: أن ناسخها ابن الفخار، كتب: "من أهل العراق"، ثم أصلها ابن خلدون بخطه بإضافة كلمة "خوارزم" بخط دقيق في
حاشية آخر السطر بعد كلمة: "أهل"، ونسي أن يُلغى كلمة "العراق" التي يبدأ بها السطر التالي. فوقع النساخون في الوهم.

12 • علوم الحديث⁽¹⁾

وأما علوم الحديث: فهي كثيرة ومتنوعة، لأن منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه؛ وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفاً من الله بعباده وتخفيفاً عنهم، باعتبار مصالحهم التي تكفل لهم بها. قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [سورة البقرة، من الآية 106]. فإذا تعارض 5

(1) اعتاد ابن خلدون أن يتناول بعض الفصول بالتنقيح والتذهيب، كما عبر آخر المقدمة، وقد يقتضي الأمر إعادة كتابة الفصول على خطة مغايرة في العرض والاستيعاب، وقد رأيت في بعض هذه الحالات أن أحتفظ بنصه لما لها من الفائدة في تبين أسلوب تفكيره وفي تحليل مواد كتابة فصوله. ويقتضي أن هناك قرآن كوديكولوجية تساعد بفضل المخطوطات على ترتيب أي النصين أحدث. وفي هذه الحالة فإن ورود هذا النص بخطه في متن نسخة "ع" التي تعتبر أقدم الأصول وأحدثها في الآن نفسه، بما تناولها من زيادات لم تقطع طيلة إقامته بالقاهرة، يُفقد الأحداث تاريخاً.

علوم الحديث:

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة، فإن منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه، وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه، لطفاً من الله بعباده، وتخفيفاً عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل لهم بها. قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [سورة البقرة، من الآية 106]. ومعرفة النسخ والمنسوخ وإن كان عاماً للقرآن والحديث، إلا أن الذي في القرآن منه اندرج في تفاسيره، وبقي ما كان خاصاً بالحديث راجعاً إلى علومه، فإذا تعارض الخبران بالنفي والإثبات، وتعدّد الجمع بينهما ببعض التأويل، وعلم تقدم أحدهما، تعين أن المتأخر ناسخ. وهو من أهم علوم الحديث وأصعبها؛ قال الزهري: أعيا الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله ﷺ من منسوخه. وكان للشافعي رضي الله عنه فيه قدم راسخة.

ومن علوم الحديث معرفة القوانين التي وضعها أئمة المحدثين لمعرفة الأسانيد والرواة وأسمائهم، وكيفية أخذ بعضهم عن بعض، وأحوالهم وصفاتهم واختلاف اصطلاحاتهم. وتحصيل ذلك أن الإجماع واقع على وجوب العمل بالخبر الثابت عن رسول الله ﷺ، وذلك بشرط أن يغلب =

الخَبْرَانِ بِالنُّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَتَعَذَّرَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا بِبَعْضِ التَّأْوِيلِ، وَعَلِمَ تَقَدُّمُ أَحَدِهِمَا، تَعَيَّنَ أَنَّ الْمَتَأَخَّرَ نَاسِخٌ.

عَلَى الظَّنِّ صَدَقَهُ، فَيَجِبُ عَلَى الْمُجْتَهِدِ تَحْقِيقُ الطَّرِيقِ الَّتِي تَحْصُلُ ذَلِكَ الظَّنُّ، وَذَلِكَ بِالنَّظَرِ فِي أَسَانِيدِ الْحَدِيثِ، بِمَعْرِفَةِ زَوَاتِهِ بِالْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ وَالِإِتْقَانِ وَالْبِرَاءَةِ مِنَ السُّهُوِّ وَالْغَفْلَةِ، بِوُضُفِ عُدُولِ الْأُمَّةِ لَهُمْ بِذَلِكَ، ثُمَّ تَقَابُطِ مَرَاتِبِهِمْ فِيهِ، ثُمَّ كَيْفِيَّةِ رَوَايَةِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضِ سَمَاعِ الزَّوَايِ مِنَ الشَّيْخِ أَوْ قَرَأَتِهِ عَلَيْهِ، أَوْ سَمَاعِهِ يُقْرَأُ عَلَيْهِ، وَكِتَابَةِ الشَّيْخِ لَهُ أَوْ مَنَاولَتِهِ، أَوْ إِجَازَتِهِ فِي الصَّحَّةِ وَالْقَبُولِ؛ مَنْقُولٍ عَنْهُمْ. وَأَعْلَى مَرَاتِبِ الْمَقْبُولِ عِنْدَهُمُ الصَّحِيحُ، ثُمَّ الْحَسَنُ، وَأَدُونِ مَرَاتِبِهَا الضَّعِيفُ، وَيَشْتَمِلُ عَلَى الْمُرْسَلِ وَالْمُنْقَطِعِ وَالْمُعْضَلِ وَالْمَعْلَلِ وَالشَّاذِّ وَالْغَرِيبِ وَالْمُنْكَرِ. فَهِيَ مَا اخْتَلَفُوا فِي رَدِّهِ، وَمِنْهَا مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ.

وَكَذَلِكَ شَأْنُهُمْ فِي الصَّحِيحِ، فَهِيَ مَا أَجْمَعُوا عَلَى قَبُولِهِ وَصَحَّتِهِ، وَمِنْهَا مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَيَبْنِيهِمْ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْأَلْقَابِ اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ. ثُمَّ أَتْبَعُوا ذَلِكَ بِالْكَلَامِ فِي الْأَفَاطِيقِ فِي مُتُونِ الْحَدِيثِ مِنْ غَرِيبٍ أَوْ مُشْكِلٍ أَوْ تَضْجِيفٍ أَوْ مُفْتَرَقٍ أَوْ مُخْتَلَفٍ، وَوَضَعُوا لِهَذِهِ الْفُصُولِ كُلِّهَا قَانُونًا كَفِيلاً بِبَيَانِ تِلْكَ الْمَرَاتِبِ وَالْأَلْقَابِ، وَسَلَامَةِ الطَّرِيقِ عَنْ دُخُولِ التَّقْصِصِ فِيهَا. وَأَوَّلُ مَنْ وَضَعَ فِي هَذَا الْقَانُونِ مِنْ فُحُولِ أَيْمَةِ الْحَدِيثِ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمُ، وَهُوَ الَّذِي هَذَبَهُ وَأَظْهَرَ مُحَاسِنَتَهُ، وَتَوَالَيْفَهُ فِيهِ مَشْهُورَةٌ.

ثُمَّ كَتَبَ أَيْمَتُهُمْ فِيهِ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَشْهُرُ كِتَابٍ لِلْمَتَأَخِّرِينَ فِيهِ كِتَابُ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الصَّلَاحِ، كَانَ فِي أَوَائِلِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ، وَتَلَاهُ مُخَيِّي الدِّينِ النَّوَوِيُّ بِمِثْلِ ذَلِكَ. وَالْفَرُّ شَرِيفٌ فِي مَعْرَاضِهِ، لِأَنَّهُ مَعْرِفَةٌ مَا تَحْفَظُ بِهِ السُّنَنُ الْمَنْقُولَةُ عَنْ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ، حَتَّى يَتَعَيَّنَ قَبُولُهَا أَوْ رَدُّهَا.

وَاعْلَمْ أَنَّ رَوَاةَ السُّنَنِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَعْرُوفُونَ فِي أَمْصَارِ الْإِسْلَامِ، مِنْهُمْ بِالْحِجَازِ وَبِالْبَصْرَةِ وَبِالْكُوفَةِ، ثُمَّ بِالشَّامِ وَمِصْرَ، مَشْهُورُونَ فِي أَغْصَارِهِمْ. وَكَانَتْ طَرِيقَةُ الْحِجَازِ مِنْ بَيْنِهِمْ أَعْلَى وَأَمْتَنَ فِي الصَّحَّةِ بِتَجَافِيهِمْ عَنْ قَبُولِ الْمُسْتَوْرَيْنِ الْمَجْهُولَةِ أَحْوَالِهِمْ. وَسَيِّدُ الطَّرِيقَةِ الْحِجَازِيَّةِ بَعْدَ السَّلَفِ الْإِمَامُ مَالِكٌ عَالِمُ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ أَصْحَابُهُ؛ مِثْلُ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ؛ وَابْنِ وَهْبٍ، وَابْنِ بَكَيْرٍ، وَالْقَعْنَبِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ، وَمَنْ بَعْدَهُمُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي آخِرِينَ مِنْ أَمْثَالِهِمْ. وَكَانَ عِلْمُ الشَّرِيعَةِ فِي مَبْدِئِ الْأَمْرِ نَقْلًا صَرَفًا لَا نَظْرًا وَلَا رَأْيًا وَلَا تَعَمُّقًا فِي الْقِيَاسِ. وَشَمَّرَ لَهَا السَّلَفُ وَتَحَرَّوْا =

ومعرفة النَّاسِخِ والمُنْسُوخِ من أهم علوم الحديث وأصعبها. قال الزُّهْرِيُّ⁽¹⁾: أَعْيَا
الْفُقَهَاءَ وَأَعْجَزَهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا نَاسِخَ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَنْسُوخِهِ. وكان للشَّافِعِيِّ
- رضي الله عنه - فيه قَدَمٌ رَاسِخَةٌ.

«الصحیح حتى أكلوها، وكتب مالك رحمه الله كتاب الموطأ على طريقة الحجازيين، أودعه أصول الأخكام من الصحیح المتفق عليه، وربته على أبواب الفقه. ثم عني الحفاظ بمعرفة طرق الأحاديث وأسانيدها المختلفة، الحجازية والعراقية وغيرها. وقد تشدد في بعض الأحاديث وتتعدد، ويتكرر الحديث في أبواب الفقه باختلاف المعاني التي اشتمل عليها. وجاء محمد بن إسماعيل البخاري، فأوسع نطاق الرواية، وخرج أحاديث السنة على أبوابها في مسنده الصحیح، وجمع طرق الحجازيين والعراقيين والشاميين، واعتقد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه. وتكررت أحاديثه في الأبواب باختلاف معانيها كما أشرنا إليه، فاشتمل كتابه على سبعة آلاف حديث ومائتين، تكررت منها ثلاثة آلاف، وفرق الطرق والأسانيد عليها مختلفة في كل باب. ثم جاء مسلم بن الحجاج القشيري، فألف مسنده الصحیح، اتبع فيه البخاري في ثقل المجمع على صحته، وخذف المتكرر، وجمع الطرق والأسانيد، فبوّته على أبواب الفقه وتراجمه. واستدرك الناس عليها في استيعاب الصحیح، وجاءوا بما أغفلا عن شروطها. ثم كتب أبو داود السجستاني، وأبو عيسى الترمذي، وأبو عبد الرحمن النسائي في السنن بأوسع من الصحیح، وقصدوا ما توقرت فيه شروط العمل، إما من الرتبة العالية في الإسناد، وهي الصحیح كما هو معروف؛ وإما من الذي دونه كالحسن وغيره، ليكون ذلك إماماً للعقل بالسنة. وهذه المسانيد المعتمدة في الملة، وهي أمهات كتب الحديث من السنة. ولحق بهذه الحقسة مسانيد أخرى، كسند أبي داود الطيالسي، والبرز، وعبد بن حميد، والدارمي، وأبي يعلى الموصلي، والإمام أحمد، قاصدين فيها المستندات عن الضخبة من غير أن تكون مختجاً بها. هكذا قال ابن الصلاح [المقدمة في علوم الحديث 27-38]. وفي الرواية عن الإمام أحمد، أنه كان يقول لابنه عبد الله في كتابه المسند، =

(1) أبو نعيم: حلية الأولياء 3: 365، ابن عبد البر: التمهيد 3: 332، الذهبي: سير أعلام النبلاء 5: 346، وانظر رسالة الشافعي 106.

ومن علوم الحديث: النَّظَرُ في الأسانيد ومعرفة ما يَجِبُ العملُ به من الأحاديث بِوقوعه على السَّنَدِ الكاملِ الشُّروطِ، لأنَّ العملَ إِنَّا وَجِبَ بما يَغْلِبُ على الظَّنِّ صدقُه من أخبار رسول الله ﷺ، فيَجْتَهِدُ في الطَّرِيقِ الَّذِي يُحْصَلُ ذلك الظَّنُّ، وهو بمعرفة رُواة الحديث بالعدالة والضبط، وإِنَّمَا [يَنْبُتُ] ⁽¹⁾ ذلك بالثقل عن أعلام الذين بتعديلهم وبراءتهم من الجرح والغفلة، ويكون لنا ذلك دليلاً على

(1) من ج ي، وفي ط: ثبت .

= وهو يشتمل على أحد وثلاثين ألف حديث. وعن جماعة من أصحابه أَنَّهُم قالوا: قرأ علينا المسند، وقال: هذا كتاب انتقيته من سبع مائة ألف وخمسين ألف حديث مما اختلف فيه المسلمون من الأحاديث النبوية، وما لم تجدوه فيه فليس بحجة، فهذا يدلُّ على أَنَّ جميع ما في مُسنده يَصِحُّ الاحتجاجُ به، عكس ما قاله ابن الصلاح، نقلته من مناقب الإمام أحمد. وقد انقطع لهذا العهد تخرج شيء من الأحاديث واستدراكها على المتقدمين، إذ العادة تشهد بأن هؤلاء الأئمة على تعددهم وتلاحق عصورهم وكفائتهم واجتهادهم، لم يكونوا ليفعلوا شيئاً من السنة أو يتركوه حتى يعتز عليه المتأخر، وإِنَّمَا تنصرف العناية لهذا العهد إلى تصحيح الأخطاء المكتوبة وضبطها بالرواية، وإسنادها إلى مؤلفيها، لتصل الأسانيد مُحْكَمَةً من مبدئها إلى مُنتهاها، ولم يزيدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه الأخطاء الخمسة إلا في الأقل. فأما صحيح البخاري، وهو أعلاها رتبة، فاستصعب الناس شرحه واستغلغوا منه، من أجل ما يحتاج إليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من أهل الحجاز والشام والعراق، ومعرفة أحوالهم واختلاف الناس فيهم، وكذلك يحتاج إلى إمعان النظر في التفقه في التراجم، لأنه يترجم الترجمة ويحدد فيها الحديث بسند أو طريق، ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمنته من المعنى الذي ترجم به الباب، وكذلك في ترجمة وترجمة إلى أن يتكرر الحديث في أبواب مُتفرقة بحسب معانيه واختلافها. ومن النظر في تراجمه بيان المناسبة بين الترجمة والأحاديث التي في ضمنها؛ فقد وقع له في كثير من تراجمه خفاء المناسبة بينها وبين الأحاديث التي في ضمنها، وطال كلام =

القبول أو الترك. وكذلك مراتب هؤلاء الثقات من الصحابة والتابعين وتفاوتهم⁽¹⁾ في ذلك وتمييزهم فيه واحداً واحداً. وكذلك الأسانيد تتفاوت باتصالها وانقطاعها، بأن يكون الراوي لم يلق [الراوي]^(ب) الذي نقل عنه، وبسلامتها من العلل الموهنة لها،

(1) في ج: تفاوتهم (ب) في ط ج ي: للراوي، ولعل الأصح ما أثبتناه.

= الناس في بيانها، كما وقع في كتاب الفتن^(*) في الباب الذي ترجم فيه بقوله: باب تخريب البيت ذي السويقتين من الحبشة. ثم قال عن الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا﴾ [سورة البقرة، من الآية 125]. ولم يزد على ذلك في الباب شيئاً. وخفي على الناس وجه المناسبة بين هذه الترجمة وما في الباب، فمنهم من قال: كان المصنف رحمه الله يكتب التراجم في المسودة ثم يكتب الأحاديث في كل ترجمة حسب ما يتيسر له، وتوفي قبل أن يستوفي حشو التراجم فروق الكتاب، كذلك سمعت من أصحاب القاضي ابن بكار قاضي غزنطة، واستشهد في واقعة طريف سنة أربعين وسبعمائة، وكان قائماً على صحيح البخاري، أنه أراد بالترجمة تفسير الآية، بأن ذلك مشروع لا مقدر، لأن الإشكال إنما جاء من تفسير جعلنا، بقدرنا، وإذا كان بمعنى: شرعنا، لم يكن لبس في تخريب ذي السويقتين إياها. سمعت ذلك من شيخنا أبي البركات البليقي عنه، وكان من أجله تلميذه.

ومن شرح الكتاب ولم يستوف هذا كله فيه، فلم يؤف حق الشرح، كابن بطال، وابن المهلب، وابن التين، ونحوهم. ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم الله يقولون: شرح كتاب البخاري دين على الأمة. يعنون أن أحداً من علماء الأمة لم يؤف ما وجب له من الشرح بذلك الاعتبار.

وأما صحيح مسلم، فكثر عنايه أهل المغرب به، وأكثروا عليه، وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري. قال ابن الصلاح: وإنما يفضل على كتاب البخاري بما وقع فيه من تجريده عما =

(*) ليس في "كتاب الفتن". والحديث في كتاب الحج، باب قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ [سورة المائدة، من الآية 97]، وباب هدم الكعبة، حديث (1591) و (1596) وهو في كتاب الفتن من صحيح مسلم (2909).

ويُنْتَهِي بالتفاوت إلى طريق^(١)، يحْكُم بقبول الأعلى وَرَدَّ الأسفل، ويُخْتَلَف في المتوسط بحسب المنقول عن أئمة الشأن. ولهم في ذلك ألفاظ اصطلاحوا / على [300] وضعها لهذه المراتب المرتبة، مثل: الصحيح، والحسن، والضعيف، والمزئيل، والمنقطع، والمفضل، والشاذ، والغريب، وغير ذلك من ألقابه المتداولة^(ب) بينهم.

(١) من ج، وفي ظي: طرفين (ب) في ج: المتبادلة.

مَرَّحَ به البخاري كتابه من غير الصحيح، مما لم يكنه على شرطه، وأكثر ما وَقَعَ في التراجم. وأُملى الإمام المازري من فقهاء المالكية عليه شرحاً، وسمّاه المعلم بفوائد مسلم، واشتمل على عيون من علم الحديث ومتين من الفقه. ثم أكمله القاضي عياض من بعده وتَمَمَهُ، وسمّاه إكمال المعلم، وتلاههما محيي الدين النووي بشرح استوفى ما في الكتابين وزاد عليهما، وجاء شرحاً وافياً. وأما كتب السنن الأخرى الثلاثة، وفيها معظم ما أخذ الفقهاء، فأكثر شرحها في كتب الفقه، إلا ما يختص بعلم الحديث، فكتب الناس عليها واستوفوا من ذلك ما يحتاج إليه من علوم الحديث وموضوعاتها والمسانيد التي اشتملت على الأحاديث المعمول بها من السنة.

واعلم أن الأحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد، بين صحيح وحسن وضعيف ومغلول وغيرها، ميزها أئمة الحديث وجهابذته وعرفوها، ولم يبق طريق في تصحيح ما لم يصح من قبل. ولقد كان الأئمة في الحديث يعرفون الأحاديث بطرقها وأسانيدها، بحيث لو روي حديث بغير سنده وطريقه تفتنوا إلى أنه قد قلب عن وضعه؛ ولقد وقع مثل ذلك للإمام محمد بن إسماعيل البخاري حين ورد على بغداد وقصد المحدثون امتحانه، فسألوه عن أحاديث قلبوا أسانيدَها، فقال: لا أعرف هذه، ولكن حَدَّثني فلان، ثم أتى بجميع تلك الأحاديث على الوضع الصحيح، وردَّ كلَّ مَنٍّ إلى سنده، فأقرّوا له بالإمامة.

واعلم أيضاً، أن الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الإكثار من هذه البضاعة والإقلال، فأبو حنيفة رحمه الله يُقال: إنّه إنَّما بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثاً أو نحوها إلى خمسين؛ ومالك رحمه الله إنَّما صحَّ عنده ما في كتاب الموطأ وغايها ثلاثمائة حديث أو نحوها؛ وأحمد بن حنبل في مُسنده أربعون ألف حديث، والكلُّ على ما أدّاه إليه اجتهادهم في ذلك. =

وَتَوَبَّوْا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَتَقَلُّوا مَا فِيهِ مِنَ الْخِلَافِ لِأَيَّةِ الشَّانِ أَوْ الْوِفَاقِ، ثُمَّ النَّظَرُ فِي كَيْفِيَّةِ اخْتِذِ الرُّوَاةِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ بِقِرَاءَةٍ أَوْ كِتَابَةٍ أَوْ مُنَاوَلَةٍ أَوْ إِجَارَةٍ، وَتَقَاوُثُ رُتَبِهَا، وَمَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخِلَافِ بِالْقَبُولِ وَالرَّدِّ. ثُمَّ أَتْبَعُوا ذَلِكَ بِالْكَلَامِ فِي أَلْفَاظٍ تَقَعُ فِي مُتُونِ الْحَدِيثِ مِنْ غَرِيبٍ أَوْ مُشْكَلٍ أَوْ تَضْحِيفٍ أَوْ مُفْتَرِقٍ مِنْهَا

وقد يقول بعض المتعصبين المتعسفين أنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ قَلِيلَ الْبِضَاعَةِ فِي الْحَدِيثِ، وَلِهَذَا قَلَّتْ رَوَايَتُهُ. وَلَا سَبِيلَ إِلَى هَذَا الْمَعْتَقِدِ فِي كِبَارِ الْأَيَّةِ، لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ إِنَّمَا تَوْحَّدُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَنْ كَانَ قَلِيلَ الْبِضَاعَةِ مِنَ الْحَدِيثِ فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ طَلَبُهُ وَرَوَايَتُهُ وَالْجَدُّ وَالتَّشْمِيرُ فِي ذَلِكَ، لِيَأْخُذَ الَّذِينَ عَنْ أَصُولٍ صَحِيحَةٍ، وَيَتَلَقَّى الْأَحْكَامَ عَنْ صَاحِبِهَا الْمُبْلَغِ لَهَا عَنْ اللَّهِ. وَإِنَّمَا أَقَلُّ مِنْهُمْ مَنْ أَقَلَّ الرِّوَايَةَ، لِأَجْلِ الْمَطَاعِنِ الَّتِي تَعْرِضُهُ فِيهَا وَالْعِلَلِ الَّتِي تَغْمُضُ فِي طَرَفِهَا، سَيِّمًا وَالْجَرْحُ مَقْدَمٌ عِنْدَ الْأَكْثَرِ، فَيُؤَدِّيهِ الْاجْتِهَادُ إِلَى تَرْكِ الْأَخْذِ بِمَا يَعْرِضُ مِثْلُ ذَلِكَ فِيهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَطُرُقِ الْأَسَانِيدِ، وَيَكْثُرُ ذَلِكَ فَتَقُلُّ رَوَايَتُهُ لُضْفِ الطُّرُقِ، هَذَا مَعَ أَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ أَكْثَرُ رَوَايَةَ لِلْحَدِيثِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ، لِأَنَّ الْمَدِينَةَ دَارَ الْهَجْرَةِ وَمَأْوَى الصَّحَابَةِ، وَمَنْ انْتَقَلَ مِنْهُمْ إِلَى الْعِرَاقِ كَانَ شُغْلُهُمْ بِالْجِهَادِ أَكْثَرَ. وَالْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ إِنَّمَا قَلَّتْ رَوَايَتُهُ لِمَا شَدَّدَ فِي شُرُوطِ الرِّوَايَةِ وَالتَّحْقُلِ، فَاسْتَضْعِبَتْ، [وَضَعُفَ الْحَدِيثُ إِذَا عَارِضَهُ الْقَطْعِي فَاسْتَضَعَفَ الْعَقْلِي]، قَلَّتْ مِنْ أَجْلِهَا رَوَايَتُهُ فَقَلَّ حَدِيثُهُ، لَا أَنَّهُ تَرَكَ رَوَايَةَ الْحَدِيثِ مُتَعَمِّدًا، فَخَاشَاهُ مِنْ ذَلِكَ. وَيُدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ كِبَارِ الْمُجْتَهِدِينَ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ، اعْتِمَادُ مَذْهَبِهِ بَيْنَهُمْ، وَالتَّغْوِيلُ عَلَيْهِ، وَاعْتِبَارُهُ رَدًّا وَقَبُولًا. وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ وَهُمْ الْجُمْهُورُ، فَتَوَسَّعُوا فِي الشُّرُوطِ وَكَثُرَ حَدِيثُهُمْ، وَالْكُلُّ عَنْ اجْتِهَادٍ. وَقَدْ تَوَسَّعَ أَصْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ فِي الشُّرُوطِ وَكَثُرَتْ رَوَايَتُهُمْ. وَرَوَى الطَّحَاوِيُّ فَأَكْثَرَ، وَكَتَبَ مُسْنَدَهُ وَهُوَ جَلِيلُ النَّثَرِ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْدِلُ الصَّحِيحِينَ، لِأَنَّ الشُّرُوطَ الَّتِي اعْتَمَدَهَا الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابَيْهِمَا مُجْمَعٌ عَلَيْهَا بَيْنَ الْأُمَّةِ كَمَا قَالُوهُ، وَشُرُوطُ الطَّحَاوِيِّ غَيْرُ مُتَقَيٍّ عَلَيْهَا، كَالرِّوَايَةِ عَنِ الْمُسْتَوْرِ الْحَالِ وَغَيْرِهِ. فَلِهَذَا قُدِّمَ الصَّحِيحَانِ، بَلْ وَكُتِبَ السُّنَنُ الْمَعْرُوفَةُ، عَلَيْهِ، لِتَأَخَّرِ شَرْطُهُ عَنْ شُرُوطِهِمْ. وَمَنْ أَجَلَ هَذَا قِيلَ فِي الصَّحِيحِينَ بِالْإِجْمَاعِ عَلَى قَبُولِهَا مِنْ جَمْعَةِ الْإِجْمَاعِ عَلَى صِحَّةِ مَا فِيهَا عَلَى الشُّرُوطِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا. فَلَا تَأْخُذُكَ رِيبةٌ فِي ذَلِكَ، فَالْقَوْمُ أَحَقُّ النَّاسِ بِالظَّنِّ الْجَمِيلِ بِهِمْ، وَالتَّيَاسُ الْمَخَارِجِ الصَّحِيحَةِ لَهُمْ.=

وَمُخْتَلَفٌ، وَمَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ. هَذَا مُعْظَمُ مَا يَنْظُرُ فِيهِ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَغَالِبُهُ. وَكَانَتْ
أَحْوَالُ نَقْلَةِ الْحَدِيثِ فِي عُصُورِ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَعْرُوفَةً، كُلٌّ عِنْدَ
أَهْلِ بَلَدِهِ. فَمِنْهُمْ بِالْحِجَازِ، وَمِنْهُمْ بِالْبَصْرَةِ، وَالْكُوفَةِ مِنَ الْعِرَاقِ، وَمِنْهُمْ بِالشَّامِ،
وَمِصْرَ، وَالْجَمِيعُ مَعْرُوفُونَ مَشْهُورُونَ فِي أَغْصَارِهِمْ. وَكَانَتْ طَرِيقَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ فِي
5 أَغْصَارِهِمْ فِي الْأَسَانِيدِ أَعْلَى مِمَّنْ سِوَاهُمْ وَأَمَّتَنَ فِي الصَّحَّةِ، لِاسْتِدَادِهِمْ فِي شُرُوطِ
النَّقْلِ مِنَ الْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ، وَتَجَافَيْهِمْ عَنِ قَبُولِ الْمَجْهُولِ الْحَالِ فِي ذَلِكَ.

وسيد^(١) الطريقة الحجازية بعد السلف، الإمام مالك، عالم المدينة رضي الله
عنه، ثم أصحابه، مثل الإمام محمد بن إدريس الشافعي * والقنبي وابن وهب، ومن
بعدهم *^(ب) الإمام أحمد بن حنبل، وأمثالهم.

10 وكان علمُ الشريعة في مَبْدَأِ [هذا] ^(ج) الأمر نقلاً صِرْفاً؛ وشتم لها السلف
وتَحَرَّوْا الصَّحِيحَ حَتَّى أَكْمَلُوهَا. وَكَتَبَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابَ ^(د) الموطأ، أَوْدَعَهُ

(١) في ي: مسند (ب) سقط ما بين النجمين من ي (ج) من ي (د) في ج ي: كتابه.

= ثم^(١) من علوم الحديث تصريف هذا القانون في الكلام على الأحاديثِ واحداً واحداً
في أبوابها وتراجيحها في تفاسير هذه المسانيد، كما فعله الحافظ أبو عمر بن عبد البر، وأبو محمد بن
خزيم، والقاضي عياض، ومُخِي الدِّين التَّوَوِيُّ، وابنُ العطاء من بعدهما. وكثيرٌ من أَيْقَةِ الْمَغَارِبَةِ
والمُشَارِقَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي كَلَامِهِمْ عَلَى تِلْكَ الْأَحَادِيثِ غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ فِقْهِ مُتَوْنِهَا وَلُغَتِهَا وَإِعْرَابِهَا، إِلَّا
أَنَّ كَلَامَهُمْ فِي أَسَانِيدِهَا بِصَنَاعَةِ الْحَدِيثِ أَوْعَبُ، وَأَكْثَرُ هَذِهِ^(ب) علوم الحديث المتداولة بين
أَيْقَةِ الْأَغْصَارِ لِهَذَا الْعَهْدِ، وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الْحَقِّ وَالْمَعِينُ عَلَيْهِ.

(١) من هنا إلى الآخر، حاشية بخط نسخ متأخر (ب) كلمة غير مقروءة.

أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه، ورَبَّته على أبواب الفقه. ثم غني الحَقَّاطُ بمعرفة طُرُق الأحاديثِ وأسانيدها المُختلفة. وربما يقعُ إسنَادُ الحديث من طرق متعددة وعن رِوَاةٍ مُختلفين، وقد يقع الحديثُ أيضاً في أبواب متعددة باختلاف المعاني التي اشتمَلَ عليها. / وجاء مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيلَ البخاريُّ إمامَ المُحدثين لعصره، [300ب]

5 فخرَجَ أحاديثَ السُّنَّةِ على أبوابها في مُسنَدِهِ الصحيح، بجميع الطُّرُق التي للحجازيين والعراقيين والشَّاميين. واعتمدَ منها ما أجمعوا عليه دونَ ما اختلفوا فيه⁽¹⁾، وكرَّرَ الأحاديثَ يسوقُها في كلِّ بابٍ بمعنى ذلك البابِ الذي تضمَّنَهُ الحديثُ، فتكرَّرت لذلك أحاديثُه، حتَّى يُقالَ: إنَّه اشتمَلَ على سَبْعَةِ آلافِ حديثٍ ومائتين، منها ثلاثة آلافٍ متكررة، وفَرَّقَ الطُّرُقَ والأسانيِدَ عليها مُختلفةً في كلِّ باب.

10 ثم جاء الإمامُ مسلمُ بنُ الحُجَّاجِ القُشَيْرِيُّ رحمه الله ، فألَّفَ مُسنَدَهُ الصحيحَ، حَذا فيه حَدَوَ البخاريُّ في نَقْلِ المُجمَعِ عليه، وحَذَفَ المتكرِّرَ منها، وجمعَ الطُّرُقَ والأسانيِدَ، ويَوَّبهَ على أبواب الفقه وتراجمه. ومع ذلك فلم يَسْتَوْعِبِا الصَّحيحَ كُلَّهُ، وقد استدرك النَّاسُ عليهما في ذلك. ثم كتبَ أبو داود السَّجِسْتَانِيُّ، وأبو عيسى التِّرْمِذِيُّ، وأبو عبد الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ في السُّنَنِ بِأَوْسَعِ من الصحيح ، وقَصَدُوا ما توفَّرَتْ فيه شروطُ العملِ، إمَّا من الرِّبَّةِ العاليةِ في الإِسْنَادِ، وهو الصحيحُ كما هو 15 مَعْرُوفٌ، وإمَّا من الذي دونه من الحَسَنِ وَغَيْرِهِ، ليكون ذلك إماماً للسُّنَّةِ والعملِ بها. وهذه هي [المسانيد]^(ب) المشهورةُ في المِلَّةِ، وهي أَمْهَاتُ كُتُبِ الحديثِ في السُّنَّةِ. فَإِنَّهَا وإن تعدَّدَتْ فترجعُ إلى هذه في الأَعْلَبِ.

(1) سقط من ج (ب) من ج ي، وفي ظ: الأسانيد .

ومعرفة هذه الشروط والاضطلاحات كلها هي علم الحديث. وربما تفرّد عنها
 النَّاسِخُ والمنسوخُ فيُجْعَلُ فتناً برأسه، وكذا الغريبُ، وللتَّاسِ فيه تواليُفٌ مشهورةٌ،
 ثمَّ المؤتلفُ والمختلفُ. وقد ألف النَّاسُ في علوم الحديث وأكثرُوا. ومن فُحول علمائه
 وأَيَمَّتْهم أبو عبدالله الحاكم، وتواليُفه فيه مشهورةٌ، وهو الَّذي هذبه وأظهر محاسنَه.
 5 وأشهرُ كتابٍ للمتأخِّرينَ فيه، كتابُ أبي عمرو ابن الصَّلاح، كان لعهد أوائلِ المائة
 السَّابعة، وتلاه مُحيي الدِّين التَّوويّ بمثل ذلك. والفنُّ شريفٌ في مَغزاهُ لأنَّه معرفةٌ
 ما تُحْفَظُ به السَّنَنُ المنقولةُ عن صاحب الشَّريعة.

[301] وقد انقطعَ لهذا العهد / تخرِجُ شَيْءٍ من الأحاديثِ واستِدرأَها على المتقدِّمين؛
 إذ العادةُ تشهدُ بأنَّ هؤلاء الأئمَّةَ على تعدُّدهم وتلاحُقِ عُصورِهِم وكِفايتِهِم واجتهادِهِم
 10 لم يكونوا لِيُغْفَلُوا شَيْئاً من السُّنَّةِ أو يتركوه حتَّى يَغْثُرَ عليه المتأخَّرُ؛ هذا بعيدٌ عنهم.
 وإنَّما تنصرفُ العنايةُ لهذا العهدِ إلى تَصْحيحِ الأُمّهاتِ المكتوبةِ، وضَبْطِها بالروايةِ عن
 مصنِّفيها، والنَّظَرِ في أَسانيدِها إلى مؤلِّفيها، وعَرَضُ ذلك على ما تَقَرَّرَ في علوم
 الحديثِ من الشُّروطِ والأحكامِ، لتَتَّصِلَ الأَسانيدُ محكمةً إلى مُنتهاها. ولم يَزِدُوا في
 ذلك على العنايةِ بأكثر من هذه الأُمّهاتِ الخمسِ إلَّا في القليلِ.

15 فأما البخاريُّ، وهو أعلاها رتبةً، فاستصعب النَّاسُ شرحه، واستغلقوا مَنَحاها،
 من أجل ما يُحتَاجُ إليه من مَعْرِفةِ الطُّرُقِ المتعدِّدةِ، ورجالها من أهل الحِجاز
 والشَّامِ والعِراقِ، ومَعْرِفةِ أخوالهم واختلافِ النَّاسِ فيهم، وكذلك يُحتَاجُ إلى إِمعانِ
 النَّظَرِ في التَّفَقُّهِ في تراجمه، لأنَّه يترجمُ التَّرجمةَ ويوردُ فيها الحديثَ بسنَدٍ أو طريقٍ،

ثم يترجم أخرى ويوردُ فيها ذلك الحديثَ بعينه لما تَضَمَّنَهُ من المعنى الذي تَرَجَّم به الباب، وكذلك في تَرْجَمَةٍ وترجمةٍ إلى أن يتكرر الحديثُ في أبوابٍ كثيرة بحسب معانيه واختلافها. ومن شَرَحَهُ ولم يَسْتَوْفِ هذا فيه، فلم يُوفِ حقَّ الشرح، كإبن بطَّال وإبن المهلَّب وإبن التَّين، ونحوهم. ولقد سمعتُ كثيراً من شيوخنا، رحمهم الله، يقولون: شرحُ كتاب البخاري، ذينَّ على الأُمَّة. يعنون أن أحداً من علماء الأُمَّة لم يوفِّ ما يَجِبُ له من الشرح بذلك الاعتبار.

أما⁽¹⁾ صحيحُ مُسلم، فكثُرَت عنايةُ علماء المغرب به، وأكثَبوا عليه، وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري. قال ابنُ الصَّلاح⁽¹⁾: وإِنَّمَا يُفَضَّلُ على كتاب البخاري بما وَقَعَ فيه من تجريده عما مَرَّحَ به البخاري كتابه من غير الصَّحيح ممَّا لم يَكُنْبه على شَرْطه. وأكثرُ ما وَقَعَ له في التَّراجم.

10

وأُملى الإمامُ المازريُّ من فقهاء المالكيَّة / عليه شَرْحاً وسمَّاه: المُعَلِّمُ بفوائد مُسلم، واشتَمَلَ على عُيُونٍ من علم الحديثِ ومَتِينٍ من^(ب) الفقه. ثم أَكْمَلَهُ القاضي عياضٌ من بَعْدِهِ وتَمَّمَهُ وسمَّاه: إِكْمَالُ المُعَلِّم. وتلاهما مُحْيِي الدِّين التَّوَوِيُّ بِشَرْحِ اسْتَوْفَى ما في الكتابَيْن، وزادَ عليهما، وجاءَ شَرْحاً وافياً.

[301 ب]

وأما كُتُبُ السُّنَنِ الأُخْرَى وفيها مُعْظَمُ ما خِذَ الفُقهَاءُ، فأكثرُ شَرْحِها في 15 كُتُبِ الفقه، إلا ما يَخْتَصُّ بعِلْمِ الحديثِ، فكَتَبَ النَّاسُ عليها، واستَوْفَوْا من ذلك ما

(1) في ي: وأما (ب) سقط من ج .

(1) المَقْدَمَةُ : ص 161 .

يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ عُلُومِ الْحَدِيثِ وَمَوْضُوعَاتِهَا، وَالْمَسَانِيدِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى الْأَحَادِيثِ الْمَعْمُولِ بِهَا مِنَ السُّنَّةِ.

وَعَلِمَ أَنَّ الْأَحَادِيثَ قَدْ تَمَيَّزَتْ مَرَاتِبُهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بَيْنَ صَحِيحٍ وَحَسَنِ وَضَعِيفٍ وَمَعْلُولٍ^(أ) وَغَيْرِهَا ، مَيَّزَهَا أَيْمَةُ الْحَدِيثِ وَجَاهِدُونَهُ ، وَعَرَفُوهَا وَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ فِي تَضْحِيحِ مَا لَمْ يَصِحَّ مِنْ قَبْلُ ، وَلَقَدْ كَانَ الْأَيْمَةُ فِي الْحَدِيثِ يَغْرِفُونَ الْأَحَادِيثَ بِطُرُقِهَا وَأَسَانِيدِهَا ، بَحِثُوا لَوْ زُوِيَ حَدِيثٌ بِغَيْرِ سَنَدِهِ وَطَرِيقِهِ تَقَطَّنُوا إِلَى أَنَّهُ قَدْ قُلِبَ عَنْ وَضْعِهِ. وَلَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ لِلْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبَخَارِيِّ حِينَ وَرَدَ عَلَى بَغْدَادَ ، وَقَصَدَ الْمَحْدَثُونَ امْتِحَانَهُ ، فَسَأَلُوهُ عَنْ أَحَادِيثَ قَلَبُوا أَسَانِيدَهَا ، فَقَالَ: لَا أَعْرِفُ هَذِهِ ، وَلَكِنْ حَدَّثَنِي فَلَانٌ ، ثُمَّ أَتَى بِجَمِيعِ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ عَلَى الْوَضْعِ الصَّحِيحِ ، وَرَدَّ كُلَّ مَثْنٍ إِلَى سَنَدِهِ ، فَأَقَرُّوا لَهُ بِالْإِمَامَةِ⁽¹⁾.

وَعَلِمَ أَيْضًا أَنَّ الْأَيْمَةَ الْمُجْتَهِدِينَ تَفَاوَتُوا فِي الْإِكْثَارِ مِنْ هَذِهِ الْبِضَاعَةِ وَالْإِفْلَالِ ، فَأَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى^(ب) يُقَالُ: إِنَّهُ إِنَّمَا بَلَغَتْ رَوَايَتُهُ إِلَى سَبْعَةِ عَشَرَ حَدِيثًا أَوْ نَحْوَهَا ، وَمَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ إِنَّمَا صَحَّ عَنْهُ مَا فِي كِتَابِ الْمُوطَأِ ، وَغَايَتُهَا [ثَلَاثُمِائَةِ حَدِيثٍ]^(ج) أَوْ نَحْوَهَا ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ [رَحِمَهُ اللَّهُ]^(د) فِي مُسْنَدِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ حَدِيثٍ ، وَالْكُلُّ عَلَى مَا أَدَّاهُ إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُمْ فِي ذَلِكَ.

(أ) كَذَا، ومصطلح الحديثين: مُعْلَل (ب) سقط من ج ي (ج) سقط من ج ط، وفراغ كلمتين في ي، والتكلمة من ع (د) من ي .

(1) الخبر في تاريخ مدينة السلام للخطيب البغدادي 2: 340 ، وسير أعلام النبلاء للذهبي 12: 408 .

وقد يقول بعض المتعصّبين المتعسفين أنّ منهم من كان قليل البضاعة في الحديث ، ولهذا قلّت روايته . ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة ، لأنّ الشريعة / إنّما تؤخذ من الكتاب والسنة ، ومن كان قليل البضاعة من الحديث [1302] فيتعيّن عليه طلبه وروايته والجدّ والتّشهير في ذلك ، ليأخذ الدّين عن أصول صحيحة ، ويتلقّى الأحكام عن صاحبها المبلّغ لها عن الله . وإنّما أقلّ منهم من أقلّ 5 الزّواية لأجل المطاعين التي تعترضه فيها والعلل التي تغمض في طرقها، سيّما والجرّح مقدّم عند الأكثر، فيؤدّيه الاجتهاد إلى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد، ويكثر ذلك ⁽¹⁾، فنقل روايته لضعف الطرق. هذا مع أنّ أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق، لأنّ المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة، ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد أكثر. والإمام أبو حنيفة إنّما 10 قلّت روايته لما شدّد في شروط الرواية والتّحمّل، * [وضعف الحديث إذا عارضه العقل القطعي] ^(ب) * ^(ج) فاستصعب ^(د)، وقلّت من أجلها روايته، فقلّ حديثه، لا أنّه ترك رواية الحديث متعمّداً، فحاشاه من ذلك. ويدلّك على أنّه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم، والتعويل عليه واعتباره ردّاً وقبلاً. وأما غيره من محدّثين وهم الجمهور، فتوسّعوا في الشروط وكثّر حديثهم ، والكُلّ عن اجتهاد . وقد 15 توسّع أصحابه من بعده في الشروط وكثّرت روايتهم. وروى الطحاوي فأكثّر وكتب مُسنّده، وهو جليل القدر، إلّا أنّه لا يغدّل الصّحيحين، لأنّ الشروط التي اعتمدها

(1) في ي: وكثّر لذلك (ب) في ج: العقل القطعي (ج) سقط ما بين النجمين من ط ي (د) من ي، وفي ط ج: فاستصعب .

البخاري ومُسْلِمٌ في كتابَيْهما مُجْمَعٌ عليها بين الأُمَّة كما قالوه، وشُرُوطُ الطَّحاوِيِّ غيرُ مُتَّفَقٍ عليها، كالزَّروايَّةِ عن المُستَوْرِ الحَالِ وغيره. فلَهِذا قُدِّمَ الصَّحِيحانِ، بَلْ وَكُتِبَ السُّنَنِ المَعْرُوفَةُ عليه، لَتَأْخُرَ شَرْطُهُ عن شُرُوطِهِم. ومن أَجْلِ هذا قِيلَ في الصَّحِيحَيْنِ بالإِجماعِ على قَبولِهما من جَمَّةِ الإِجماعِ على صِحَّةِ ما فِيهما على الشُّرُوطِ المُتَّفَقِ عليها. فلا تَأْخُذْكَ رِيبَةٌ في ذلك ؛ فَالْقَوْمُ أَحَقُّ النَّاسِ بِالظَّنِّ^(١) الجَمِيلِ بِهِم، والتَّماسِ المَخارجِ / الصَّحِيحَةِ لَهُم. واللهُ الهادي إلى الحَقِّ والمَعِينُ عليه.

[302ب]

13 • الفَقْهُ وما يَتَبَعُهُ مِنَ الفَرائِضِ^(ب)

والفَقْهُ هو مَعْرِفَةُ أَحْكامِ اللَّهِ تَعَالَى في أفعالِ المُكَلَّفِينَ، بِالوُجوبِ، وَالْحَظَرِ، وَالنَّدْبِ، وَالكَراهِةِ، وَالإِباحَةِ. وَهي مُتَلَقَّاةٌ مِنَ الكِتابِ وَالسُّنَّةِ، وما نَصَبَهُ الشَّارِعُ لِمَعْرِفَتِها مِنَ الأدِلَّةِ. فإذا اسْتُخْرِجَتِ الأحْكامُ من تلكِ الأدِلَّةِ قِيلَ لَها: فِقْهُ.

وَكانَ السَّلَفُ يَسْتَخْرِجُونِها مِنَ تلكِ الأدِلَّةِ على اِختِلافٍ فِيها بَيْنَهُم لا بُدَّ مِنْ وُقُوعِهِ، ضَرُورَةً أَنَّ الأدِلَّةَ غالِبُها مِنَ التَّصَوُّصِ، وَهي بِلُغَةِ العَرَبِ، وَفي [اِقتِضاءاتِ أَلْفاظِها]^(ج) خِلافٌ بَيْنَهُم مَعْرُوفٌ. وَأيضاً فَالسُّنَّةُ مُخْتَلِفَةٌ الطَّرِيقِ في الثَّبوتِ، وَتَتَعَارَضُ في الأَكْثَرِ أَحْكامُها، فَتَحْتَاجُ إلى التَّرْجِيحِ، وَهو مُخْتَلَفٌ. وَأيضاً فَالأَدِلَّةُ مِنْ غَيرِ التَّصَوُّصِ مُخْتَلَفَةٌ فِيها. وَأيضاً فَالوَقائِعُ المُتَجَدِّدَةُ لا توفِي بِها التَّصَوُّصُ، وما

(١) ي : بالنظر (ب) كتب المؤلف قسماً كبيراً من هذا الفصل في الأصل ع بخطه (ج) من ع ج ي ، وفي ظ: الكثير من معانيها .

كان منها غير داخل في التصوص فيُحْمَلُ على مَنْصُوصٍ [المشابهة]⁽¹⁾ بينهما. وهذه كلها مَشارَات^(ب) للخلاف ضَرْورِيَّةُ الوقوع. ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم.

ثم إنَّ الصحابة لم يكونوا كلُّهم أهلَ فُتْنًا ، ولا كان الدين يُؤْخَذُ عن جميعهم ، وإِنَّمَا كان ذلك مُخْتَصَّاً منهم بالحاملين للقرآن ، العارفين بناسخه ومنسوخه ، ومُتَشَابِهِهِ 5 وَمُحْكَمِهِ وسائر دلالاته ، بما تَلَقَّوْهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أو مِمَّنْ سَمِعَهُ مِنْهُ مِنْ عِلِيِّهِمْ. وكانوا يُسَمُّونَ لذلك القراء ، أي الذين يقرأون الكتاب. لأنَّ العَرَبَ كانوا أُمَّةً أُمِّيَّةً ، فَاخْتَصَّ من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم ، لِعَرَابَتِهِ يَوْمئِذٍ. وبقي الأمر كذلك صَدَرَ الْمِلَّةُ. ثم عَظُمَتِ أُمُصَارُ الإسلام ، وَذَهَبَتِ الْأُمِّيَّةُ عَنِ الْعَرَبِ بِمَقَارَسَةِ الْكِتَابِ ، وَتَمَكَّنَ الْاسْتِنْبَاطُ ، وَكَمَلَ الْفِقْهُ وَأَصْبَحَ صِنَاعَةً وَعِلْماً ، فَبَدَّلُوا بِاسْمِ الْفُقَهَاءِ 10 وَالْعُلَمَاءِ مِنَ الْقُرَّاءِ.

وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين : طَرِيقَةُ أَهْلِ الرَّأْيِ / والقياس ، وهم أهلُ الْعِرَاقِ ، وطَرِيقَةُ [أهل]^(ج) الحديث ، وهم أهلُ الْحِجَازِ. وكان الحديثُ قَلِيلاً في أهلِ الْعِرَاقِ ، لِمَا قَدَّمَناهُ ، فَاسْتَكْتَرُوا مِنَ الْقِيَاسِ وَمَهَرُوا فِيهِ. فَلِذَلِكَ قِيلَ لَهُمْ : أَهْلُ الرَّأْيِ. وَمُقَدِّمُ جَمَاعَتِهِمُ الَّذِي اسْتَقَرَّ الْمَذْهَبُ فِيهِ فِي أَصْحَابِهِ ، الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ ، وَإِمَامُ 15 أَهْلِ الْحِجَازِ ، مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ، وَالشَّافِعِيُّ مِنْ بَعْدِهِ.

(1) من ع ، وفي ط ي ج : بمشابهة (ب) من ط ي ، وفي ع : إثارات ، وفي ج : شارَات (ج) سقط من ط .

ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به، وهم الظاهرية، وجعلوا مدارك الشرع كلها منحصرة في التصوص والإجماع، وردوا القياس الجلي والعلّة المنصوصة إلى النقص، لأنّ النقص على العلّة نقص على الحكم في جميع محالّها. وكان إمام هذا المذهب داود بن عليّ وابنه وأصحابهما.

5 فكانت هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الأمة.

وشدّ أهل البيت بمذهب ابتدعوه وفقه انفردوا به، وبتّوه على مذهبيهم في تناول بغض الصحابة بالقدح، وعلى قولهم بعبضة الأئمة ورفع الخلاف عن أقوالهم. وهي كلّها أصول واهية.

10 وشدّ بمثل ذلك الخوارج. ولم يخفل الجمهور بمذاهبيهم، بل أوسعوها جانب الإنكار والقدح، فلا يعرف شيء من مذاهبيهم ولا تروى كتبهم ولا أثر لشيء منها إلا في مواطنهم.

فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن، والخوارج كذلك. ولكلّ منهم كتب وتوايف وآراء في الفقه غريبة.

15 ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس أئمتهم وإنكار الجمهور على منتهى، ولم يبق إلا في الكتب المجلدة. وربّما يعكف كثير من البطالين من يكلف باشتغال مذاهبيهم على تلك الكتب، يروم أخذ فقههم منها ومذهبيهم، فلا يخلو بطائل، ويصير إلى مخالفة الجمهور وإنكارهم عليه. وربّما عدّ بهذه التخلّة في أهل البدع، بتلقّيه العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين. وقد فعل ذلك ابن حزم بالأندلس،

على علو رُتبته / في حفظ الحديث ، وصارَ إلى مذهب أهل الظاهر ، ومَهَر فيه
 باجتهادٍ زَعَمَهُ في أقوالهم؛ وخالفَ إمامهم داودَ ، وتعرَّضَ للكثير من أيقمة المسلمين،
 فنَقَمَ النَّاسُ ذلك عليه، وأوسعوا مَذْهَبَهُ استهجاناً وإنكاراً، وتلقَّوا كُتْبَهُ بالإغفال
 والترك، * حتى إنَّها لِيُخْطَرُ بَيْنَها بِالْأَسْوَاقِ، وَرُبَّمَا تُمَرَّقُ بَعْضُ الْأَخْيَانِ*^(١).

5 ولم يَتَّقِ إِلَّا مَذَاهِبُ أَهْلِ الرَّأْيِ مِنَ الْعِرَاقِ، وَأَهْلِ الْحَدِيثِ مِنَ الْحِجَازِ.

فَأَمَّا أَهْلُ الْعِرَاقِ، فإمامهم الَّذِي اسْتَقَرَّتْ عِنْدَهُ مَذَاهِبُهُمْ، أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ
 ابْنُ ثَابِتٍ. فَمَقَامُهُ فِي الْفِقْهِ لَا يُلْحَقُ، شَهِدَ لَهُ بِذَلِكَ أَهْلُ جِلْدَتِهِ، وَخُصُوصاً مَالِكاً
 وَالشَّافِعِيَّ.

وَأَمَّا أَهْلُ الْحِجَازِ ، فَكَانَ إِمَامُهُمْ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ الْأَصْبَحِيُّ ، إِمَامُ دَارِ الْهَجْرَةِ
 10 رَحِمَهُ اللَّهُ. وَاخْتَصَّ بِزِيَادَةِ مُدْرِكِهِ آخِرَ لِلْأَحْكَامِ غَيْرِ الْمَدَارِكِ الْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَ غَيْرِهِ،
 وَهُوَ عَمَلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ. لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّهُمْ فِيمَا يَتَّفِقُونَ^(ب) عَلَيْهِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ مُتَابِعُونَ
 لِمَنْ قَبْلَهُمْ ضَرُورَةً ، لَدِينِهِمْ [وَاقْتِدَائِهِمْ]^(ج)، وَكَذَا إِلَى الْجِيلِ الْمُبَاشِرِينَ لِفِعْلِ النَّبِيِّ
 ﷺ، الْآخِذِينَ ذَلِكَ عَنْهُ . وَصَارَ ذَلِكَ عِنْدَهُ مِنْ أَصُولِ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ. وَظَنَّ كَثِيرٌ
 أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَسَائِلِ الْإِجْمَاعِ، فَأَنْكَرَهُ. لِأَنَّ دَلِيلَ الْإِجْمَاعِ لَا يَخُصُّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنْ
 15 سِوَاهُمْ، بَلْ هُوَ شَامِلٌ لِلْأُمَّةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِجْمَاعَ إِنَّمَا هُوَ الْإِتِّفَاقُ عَلَى الْأَمْرِ الدِّينِيِّ عَنْ اجْتِهَادٍ. وَمَالِكٌ إِرْحَمَهُ
 اللَّهُ^(د) لَمْ يَغْتَبِرْ عَمَلَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى، وَإِنَّمَا اعْتَبَرَهُ مِنْ حَيْثُ اتَّبَاعُ

(١) ما بين النجمين ورد في ط ع ج، ومشطوب في ي (ب) في ي: ينفقون معلقة، وفي ج: ينفقون (ج) في ط: اقتدارهم (د) من ي ع.

الجيل بالمشاهدة للجيل بالمشاهدة، إلى أن يَنْتَهِى إلى الشَّارِعِ صلواتُ الله عليه،
 وضرورة اقتدائهم تُعَيِّن ذلك. نَعَمْ، المسألة ذُكِرَتْ في باب الإجماع، لأنَّه أَلْيَقُ
 الأبواب بها من حيثُ ما فيها من الاتفاق الجامع بَيْنَها وبين الإجماع. إلَّا أنَّ اتفاق
 أهل الإجماع عن اجتهادٍ ورأيٍ^(١)، بالنظر في الأدلة؛ واتفاق هؤلاء في فعلٍ أو
 تركٍ، مُستَندِينَ إلى مشاهدة من قَبْلَهُمْ. ولو ذُكِرَت المسألة في باب فعل النَّبِيِّ ﷺ
 5 وتقريره^(ب)، أو مع الأدلة / المختلف فيها، مثلَ شَرَعٍ من قَبْلُنَا، ومذهبِ الصحابيِّ،
 والاستِصْحَابِ، لكان أَلْيَقَ بها. والله الموفق للصواب^(ج).

[304]

ثمَّ كان من بَعْدِ مالِك بن أَنَس، مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الْمُطَّلِبِيُّ الشَّافِعِيُّ، رحمه الله،
 رحَلَ إلى العراق من بَعْدِ مالِك، وَلَقِيَ أَصْحَابَ الإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَخَذَ عَنْهُمْ، وَمَزَجَ
 10 طَرِيقَةَ أَهْلِ الْحِجَازِ بِطَرِيقَةِ أَهْلِ الْعِرَاقِ. وَاخْتَصَّ بِمَذْهَبٍ، وَخَالَفَ مَالِكاً رَحِمَهُ اللَّهُ
 فِي كَثِيرٍ مِنْ مَذَاهِبِهِ^(د).

وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ [رحمه الله]^(هـ)، وَكَانَ مِنْ عَلِيَّةِ الْمُحَدِّثِينَ.
 وَقَرَأَ أَصْحَابُهُ عَلَى أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ، مَعَ وَفُورٍ بِضَاعَتِهِمْ مِنَ الْحَدِيثِ. [فَاخْتَصَّوْا]^(و)
 بِمَذْهَبٍ آخَرَ.

وَوَقَّفَ التَّقْلِيدُ فِي الْأُمُصَارِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْأَزْبَعَةِ، وَدَرَسَ الْمُقَلِّدُونَ لِمَنْ سِوَاهِمُ.
 15 وَسَدَّ النَّاسُ بَابَ الْخِلَافِ وَطُرُقَهُ لِمَا كَثُرَ مِنْ شُعْبِ الْأَضْطِلَاحَاتِ فِي الْعُلُومِ، وَلَمَّا
 عَاقَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى رُتْبَةِ الْاجْتِهَادِ، وَلَمَّا حُشِيَ مِنْ إِسْنَادِ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ وَمَنْ
 لَا يُوَثِّقُ بِرَأْيِهِ وَلَا بِدِينِهِ؛ فَصَرَّحُوا بِالْعَجْزِ وَالْإِعْوَازِ، وَرَدُّوا النَّاسَ إِلَى تَقْلِيدِ هَؤُلَاءِ،

(١) في ي: ونظر (ب) سقط من ج (ج) سقط من ج ي (د) ي: مذهبه (هـ) من ي (و) في ظ: فاخض.

كُلٌّ وَمِنْ اخْتِصَّ بِهِ مِنَ الْمُقَلِّدِينَ، وَحَظَرُوا أَنْ يُتَدَاوَلَ تَقْلِيدُهُمْ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّلَاعِبِ. وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا نَقْلُ مَذَاهِبِهِمْ، وَعَمَلُ كُلِّ مُقَلِّدٍ بِمَذْهَبٍ مِنْ قَلْدِهِ مِنْهُمْ بَعْدَ تَصْحِيحِ الْأَصُولِ وَاتِّصَالِ سَنَدِهَا بِالرَّوَايَةِ، لَا مَحْصُولَ الْيَوْمَ لِلْفِقْهِ غَيْرُ هَذَا. وَمُدَّعَى الْجَهْدِ لِهَذَا الْعَهْدِ مَرْدُودٌ عَلَى عَقِبِهِ مَهْجُورٌ تَقْلِيدُهُ.

5 وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأربعة.

فَأَمَّا ابْنُ حَنْبَلٍ، فَقُلْدُهُ قَلِيلٌ، [لُبُغْدَ مَذْهَبِهِ عَنِ الْجَهْدِ، وَأَصَالَتِهِ فِي مُعَاضَدَةِ الرِّوَايَةِ وَالْأَخْبَارِ بَعْضًا بَعْضًا] ^(أ) وَأَكْثَرُهُمْ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ مِنْ بَغْدَادَ وَنَوَاحِيهَا. وَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ حِفْظًا لِلسُّنَّةِ وَرَوَايَةً لِلْحَدِيثِ [وَمِثْلًا بِالِاسْتِنْبَاطِ إِلَيْهِ عَنِ الْقِيَاسِ مَا أُمْكِنَ. وَكَانَ لَهُمْ بِبَغْدَادَ كَثْرَةٌ وَصَوْلَةٌ، حَتَّى كَانُوا يَتَوَاقَعُونَ مَعَ الشَّيْعَةِ فِي نَوَاحِيهَا، وَعَظُمَتِ الْفِتْنَةُ بِبَغْدَادَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ. ثُمَّ انْقَطَعَ ذَلِكَ عِنْدَ اسْتِيلَاءِ الطُّطَرِ عَلَيْهَا، وَلَمْ يَرَجَعْ، وَصَارَتْ كَثَرَتُهُمْ بِالشَّامِ] ^(ب).

وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ، فَقُلْدُهُ الْيَوْمَ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَمُسْلِمَةُ الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ، وَبِلَادُ الْعَجَمِ كُلِّهِمْ، لِمَا كَانَ مَذْهَبُهُ أَخَصَّ بِالْعِرَاقِ وَدَارِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ تَلْمِيزُهُ صَحَابَةَ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ. فَكَثُرَتْ تَوَالِيْفُهُمْ وَمُنَاطَرَاتُهُمْ مَعَ الشَّافِعِيَّةِ، وَ[حَسُنَتْ] ^(ج) / مَنَاجِيهِمْ ^(د) فِي الْخِلَافِيَّاتِ، وَجَاءُوا مِنْهَا بِعِلْمٍ مُسْتَطَرَفٍ وَأَنْظَارٍ غَرِيبَةٍ. وَهِيَ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ. وَبِالْمَغْرِبِ مِنْهَا شَيْءٌ قَلِيلٌ، نَقَلَهُ إِلَيْهِ الْقَاضِي ابْنُ الْعَرَبِيِّ ^(١) وَأَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِي فِي رَحْلَتَيْهِمَا.

(١) مِنْ ي (ب) مِنْ ع ج ، وَسَقَطَ مِنْ ظ ي (ج) سَقَطَ مِنْ ظ (د) كَذَا، وَلَعَلَّهَا: مَبْجُودُهُمْ .

(١) قَانُونُ التَّأْوِيلِ: 76 - 77 .

وَأَمَّا الشَّافِعِيُّ [رحمه الله] ^(١)، فُقُلِدُوهُ بِمَضَرَ أَكْثَرَ مِمَّا سِوَاهَا. وَقَدْ كَانَ انْتَشَرَ
مَذْهَبُهُ بِالْعِرَاقِ وَخُرَّاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ، وَقَاسَمُوا الْحَنْفِيَّةَ الْقَثْوَى وَالتَّحْدِيسَ فِي
جَمِيعِ الْأَمْصَارِ، وَعَظُمَتِ مَجَالِشُ الْمَنَظَرَاتِ بَيْنَهُمْ، وَشُجِنَتْ كُتُبُ الْخِلَافَاتِ بِأَنْوَاعِ
اسْتِدْلَالِهِمْ. ثُمَّ دَرَسَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِدُرُوسِ الْمَشْرِقِ وَأَقْطَارِهِ.

- 5 [وَكَانَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ لَمَّا نَزَلَ] ^(ب) عَلَى بَنِي عَبْدِ الْحَكَمِ بِمَضَرَ،
أَخَذَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ * مِنْهُمْ. وَكَانَ مِنْ تَلْمِيزِهِ بِهَا الْبُؤَيْطِيُّ، وَالْمَزْنِيُّ، وَغَيْرُهُمْ. وَكَانَ بِهَا مِنْ
الْمَالِكِيَّةِ جَمَاعَةٌ * ^(ج) مِنْ بَنِي عَبْدِ الْحَكَمِ، وَأَشْهَبُ، وَابْنُ الْقَاسِمِ، وَابْنُ الْمَوَّازِ، وَغَيْرُهُمْ،
ثُمَّ الْحَارِثُ بْنُ مِسْكِينٍ، وَبَنُوهُ، * ثُمَّ الْقَاضِي أَبُو إِسْحَاقَ بْنِ شُعْبَانَ وَأَصْحَابُهُ * ^(د). ثُمَّ
انْقَرَضَ فِقْهُ أَهْلِ السُّنَّةِ [وَالْجَمَاعَةِ] ^(هـ) مِنْ مَضَرَ بِظُهُورِ دَوْلَةِ الرَّافِضَةِ. وَتَدَاوَلَ بِهَا فِقْهُ
10 أَهْلِ الْبَيْتِ، إِنْ وَكَادَ مَنْ سِوَاهُمْ أَنْ يَتَنَاسَلُوا وَيَذْهَبُوا. وَازْتَحَلَ إِلَيْهَا الْقَاضِي عَبْدُ
الْوَهَّابِ مِنْ بَغْدَادَ، آخِرَ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ، عَلَى مَا عَلِمَ مِنَ الْحَاجَةِ وَالتَّقَلُّبِ فِي الْمَعَاشِ.
فَتَأَذَّنَ ^(و) خِلَفَاءُ الْعُبَيْدِيِّينَ بِإِكْرَامِهِ وَإِظْهَارِ فَضْلِهِ، نِعْيَاً عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ فِي أَطْرَاحِ
مِثْلِ هَذَا الْإِمَامِ وَالْإِعْتِيَاظِ بِهِ. فَتَفَقَّتْ سَوْقُ الْمَالِكِيَّةِ بِمَضَرَ قَلِيلًا، إِلَى] ^(ز) أَنْ
انْقَرَضَتْ ^(ح) دَوْلَةُ الْعُبَيْدِيِّينَ مِنَ الرَّافِضَةِ عَلَى يَدِ صَلاَحِ الدِّينِ ابْنِ أَيُّوبَ. فَذَهَبَ
15 مِنْهَا فِقْهُ أَهْلِ الْبَيْتِ، [وَعَادَ] ^(ط) فِقْهُ الْجَمَاعَةِ إِلَى ظُهُورِهِ بَيْنَهُمْ. وَتَوَقَّرَ مِنْ ذَلِكَ فِقْهُ
الشَّافِعِيِّ وَأَصْحَابِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ، فَعَادَ إِلَى * أَحْسَنَ مَا كَانَ * ^(ي)، وَتَفَقَّقَ

(أ) مِنْ ي (ب) سَقَطَ مِنْ ظ (ج) سَقَطَ مَا بَيْنَ النَّجْمَيْنِ مِنْ ي (د) مِنْ ج ع، وَسَقَطَ مِنْ ظ ي (هـ) مِنْ ع ج، وَسَقَطَ
مِنْ ظ ي (و) ج: فَبَادِر (ز) مِنْ ع ج، وَسَقَطَ مِنْ ظ ي (ح) ي: ذَهَبَتْ (ط) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَشْطُوبَةٌ فِي ع، وَفِي ي ظ:
وَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فِقْهُ الشَّافِعِيِّ وَأَصْحَابِهِ (ي) سَقَطَ مَا بَيْنَ النَّجْمَيْنِ مِنْ ج .

سوفه. [وجلب كتاب الرافعي منها إلى الشام ومصر]^(أ)، واشتهر منهم مُحيي الدين التّوّي من الحلبة التي رينت في ظلّ الدّولة الأيوبيّة بالشّام، وعزّ الدين ابن عبد السّلام [أيضاً]^(ب)، ثمّ ابن الرّفعة بمصر، وتقيّ الدين ابن دقيق العيد، ثمّ تقيّ الدين السّبكي من بعدهما، إلى أن انتهى ذلك إلى شيخ الإسلام بمصر لهذا العهد، وهو سراج الدين البلقيني. فهو اليوم كبير الشّافعيّة [هنا]^(ج)، لا بل كبير العلّماء من أهل 5 العصر.

وأما مالك [رحمه الله]^(د)، فاختصّ مذهبه^(هـ) بأهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم. إلّا أنّهم لم يقلّدوا غيره إلّا في القليل، لما أنّ رحلتهم غالباً كانت إلى الحجاز، وهو مُنتهى سفرهم. والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق، ولم يكن العراق في طريقهم. / فاقتصرّوا على الأخذ من علماء المدينة، 10 وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك، [وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده]^(و). فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممّن لم تصل إليهم طريقته. وأيضاً بالبداوة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميلَ لمناسبة البداوة. ولهذا لم يزل المذهب المالكي عندهم غصّاً ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها، كما وقع في غيره من المذاهب. 15

ولمّا صار مذهب كلّ إمام علماً مخصوصاً عند أهل مذهبه، ولم يكن لهم سبيل إلى الاجتهاد والقياس، فاحتاجوا إلى تنظير المسائل في الإلحاق وتثقيفها عند

(أ) سقط من ظي (ب) من ي ج (ج) في ظ ج ي: بمصر (د) من ي (هـ) ي: بمذهبه أهل (و) من ع ج ي، وسقط من ظ .

الاشتياء، بعد الاستناد إلى الأصول المتقررة من مذهب إمامهم. وصار ذلك كله يحتاج إلى ملكة راسخة يُقَدَّر بها على ذلك النوع من التنظير والتفرقة، واتباع مذهب⁽¹⁾ إمامهم فيها ما استطاعوا. وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد.

وأهل المغرب جميعاً مُقلِّدون لمالك رضي الله عنه. وقد كان تلميذه افترقوا بمصر والعراق. فكان بالعراق منهم القاضي إسماعيل وطبقته، مثل ابن خوارزمنداد، وابن المُنْتَاب، والقاضي أبو بكر الأبهري، والقاضي أبو الحسن بن القصار، والقاضي عبد الوهاب، ومن بعدهم. وكان بمصر ابن القاسم، وأشهب، وابن عبد الحكم، والحارث بن مسكين، وطبقته. ورحل من الأندلس [يحيى بن يحيى الليثي، ولقي مالكا وروى عنه كتاب الموطأ، وكان من جلة أصحابه. ورحل بعده]^(ب) عبد الملك ابن حبيب، فأخذ عن ابن القاسم وطبقته، وبث مذهب مالك بالأندلس، ودون فيه كتاب الواضحة. ثم دَوَّن العُثْبِيُّ، من تلاميذه، كتاب العُثْبِيَّة.

ورحل من إفريقية أسد بن الفرات، فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولاً، ثم انتقل إلى مذهب مالك، وكتب عن ابن القاسم في سائر أبواب الفقه. وجاء إلى القيروان بكتابه، وسُمِّي الأَسَدِيَّة، نسبةً إلى أسد بن الفرات. / فقرأها سَحْنُونٌ على أسد، ثم ارتحل إلى المشرق، ولقي ابن القاسم وأخذ عنه، وعارضه بمسائل الأَسَدِيَّة، فرجع عن كثير منها. وكتب سَحْنُونٌ مسائله ودونها، وأثبت ما رجع عنه منها. وكتب معه ابن القاسم إلى أسد أن يَمْحَوْ من أَسَدِيَّتِهِ ما رجع عنه، وأن يأخذ بكتاب

(1) مذاهب (ب) من حاشية ع بخطه، ولم تنبها ط ج ي .

سُخَنُونَ . فَأُتِيَ مِنْ ذَلِكَ ، فَتَرَكَ النَّاسُ كِتَابَهُ وَاتَّبَعُوا مُدَوَّنَةَ سُخَنُونَ ، عَلَى مَا كَانَ فِيهَا مِنْ اخْتِلَافِ الْمَسَائِلِ فِي الْأَبْوَابِ . فَكَانَتْ تُسَمَّى الْمُدَوَّنَةُ وَالْمُخْتَلِطَةُ . وَعَكَفَ أَهْلُ الْقَيْرَوَانِ عَلَى هَذِهِ الْمُدَوَّنَةِ ، وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ عَلَى الْوَاضِحَةِ وَالْعُثَيْيَةِ .

ثُمَّ اخْتَصَرَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ الْمُدَوَّنَةَ وَالْمُخْتَلِطَةَ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِالْمُخْتَصَرِ ، وَلَخَّصَهُ أَيْضاً أَبُو سَعِيدٍ الْبَرَادِئِيُّ ، مِنْ فُقَهَاءِ الْقَيْرَوَانِ ، فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِالْتَهْذِيبِ . وَاعْتَمَدَهُ 5 الْمَشَيْخَةُ مِنْ أَهْلِ إِفْرِيقِيَّةٍ ، وَأَخَذُوا بِهِ وَتَرَكُوا مَا سِوَاهُ . وَكَذَلِكَ اعْتَمَدَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ كِتَابَ الْعُثَيْيَةِ ، وَهَجَرُوا الْوَاضِحَةَ وَمَا سِوَاهَا .

وَلَمْ يَزَلْ عُلَمَاءُ الْمَذْهَبِ يَتَعَاهَدُونَ هَذِهِ الْأَمْهَاتِ بِالشَّرْحِ وَالْإِيضَاحِ وَالْجَمْعِ . فَكَتَبَ أَهْلُ إِفْرِيقِيَّةٍ عَلَى الْمُدَوَّنَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ ، مِثْلُ ابْنِ يُونُسَ ، وَاللَّخْمِيِّ ، وَابْنِ مُخْرَزٍ ، وَالتُّونُسِيِّ ، وَابْنِ بَشِيرٍ وَأَمْثَالِهِمْ . وَكَتَبَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ عَلَى الْعُثَيْيَةِ مَا 10 شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ ، مِثْلُ ابْنِ رُشْدٍ وَأَمْثَالِهِ .

وَجَمَعَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ جَمِيعَ مَا فِي الْأَمْهَاتِ مِنَ الْمَسَائِلِ وَالْخِلَافِ وَالْأَقْوَالِ فِي كِتَابِ النَّوَادِرِ . فَاشْتَمَلَ عَلَى جَمِيعِ أَقْوَالِ الْمَذْهَبِ ، وَ[فَرَّغَ] ^(١) الْأَمْهَاتِ كُلَّهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ . وَنَقَلَ ابْنُ يُونُسَ مُعْظَمَهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْمُدَوَّنَةِ .

وَزَحَرَتْ بِحَارِ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ فِي الْأَفْقَيْنِ إِلَى انْقِرَاضِ دَوْلَةِ قُرْطُبَةَ 15 وَالْقَيْرَوَانِ . ثُمَّ تَمَسَّكَ بِهَا أَهْلُ الْمَغْرِبِ بَعْدَ ذَلِكَ .

(١) مِنْ ع ج ، وَفِي ط ي : فَرَّغَ .

إلى أن جاء كتابُ أبي عمرو بن الحَاجِب، لَحَصَ فيه طُرُقُ أَهْلِ المَذْهَبِ في كل بابٍ، وتَعْدِيدُ أَقْوَالِهِمْ في كُلِّ مَسْأَلَةٍ، فُجَاءَ كَالْبِرْنامِجِ للمذهبِ.

وكانت الطريقة المالكية^(١) بَقِيَتْ في مِصْرَ من لَدُنِ الحارثِ بنِ مُسْكِين، وابنِ مُيَسَّر، وابنِ اللَّهِيْب، وابنِ رَشِيْق، وابنِ شَاس، وكانت الإسكندريَّة في بني عَوْفٍ وبني سَندٍ^(ب)، وابنِ عطاء الله، ولا أدري عَمَّنْ أَخَذَهَا أَبُو عَمْرٍو بنِ الحَاجِب، / لكنَّه 5 جاء بعد انقراضِ دولة العَبِيدِيَّين، وَذَهابِ فَقه آلِ البَيتِ، وَظُهورِ فُقهائِ السُّنَّةِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ^(١).

(١) أَوْجَزَ ابنُ خُلْدُونِ في سِياقِ نَسَخَتِي ظي حديثه عن المذهب المالكي في هذا الموضع. ويبدو أَنَّهُ أَغَادَ التَّنْظُرَ فيما كان كُتِبَ في هذا الجزء من الفصل وتوسَّع فيه. فلم يَقْمِمْ على مَتْنِ ظي المتطابقين اجْتِنَاباً لِتَكَرُّرِ بعضِ المحتوى، وَأَفْرَدَاهُ هُنَا عن نَسَخَتِي ع ج منفصلاً، وموقعه بين حرفي (أ - آ) :

وتميّزت للمذهب المالكي ثلاثُ طُرُقٍ: لِلْقُرَوِيَّين، وكَبِيرُهُم سَخْنُونُ الآخِذُ عن ابنِ القَاسِمِ. وَلِلْقُرْطُبِيِّينَ [في ج: القرطبيين]، وكَبِيرُهُم ابنُ حَبِيبِ الآخِذُ عن مالِك، ومُظَرِّف، وابنِ المَاجِشُون، وَأَصْبَغ. وَلِلْعِرَاقِيِّينَ [في ج: العراقيين]، وكَبِيرُهُم القَاضِي إِسْمَاعِيلُ وَأَصْحَابُهُ. وكانت طَريقَةُ المِصْرِيِّينَ تَابِعَةً لِلْعِرَاقِيِّينَ. وَإِنَّ القَاضِي عَبدَ الوَهَّابِ انتَقَلَ إِلَيهَا من بَغْدَادِ آخِرِ المِائَةِ الرَّابِعَةِ، وَأَخَذَ أَهْلُهَا عَنْهُ.

وكانت الطريقة المالكية بِمِصْرَ من لَدُنِ الحارثِ بنِ مُسْكِين، وابنِ مُيَسَّر، وابنِ اللَّهِيْب، وابنِ رَشِيْق. وكانت خَافِيَةً بسببِ ظُهورِ الرَّاغِبِيَّةِ وَفَقْهِ أَهْلِ البَيتِ.

وَأَمَّا طَريقَةُ العِرَاقِيِّينَ، فَكانت مَهْجُورَةً عِنْدَ أَهْلِ القُيُروَانِ وَالْأَنْدَلُسِ، لِبُعْدِهَا عَنْهُمْ وَخَفَاءِ مَدَارِكِهَا وَقِلَّةِ أَطْلَاعِهِمْ عَلَى مَا خَذِمَ فِيهَا. وَالقَوْمُ أَهْلُ اجْتِهَادٍ، وَإِنْ كانَ خَاصّاً، لا يَزِرُونَ التَّغْلِيذَ ولا يَرْضَوْنَهُ طَريقاً. وَلِذلِكَ [في ج: فذلِكَ] نَحْذُ أَهْلَ المِغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ لا يَأْخُذُونَ بِرَأْيِ العِرَاقِيِّينَ فيما لا يَجِدُونَ فِيهِ رِوَايَةً عَنِ الإِمَامِ، أو وَاحِدٍ [في ج: أَحَدٍ] مِنْ أَصْحَابِهِ.

ثمَّ امْتَرَحَتِ الطَّرِيقُ بَعْدَ ذلِكَ، وَرَحَلَ أَبُو بَكْرٍ الطَّرْطُوشِيّ مِنَ الْأَنْدَلُسِ في المِائَةِ السَّادِسَةِ، وَنَزَلَ البَيتُ المَقْدَسَ وَأَوْطَئَهُ. وَأَخَذَ عَنْهُ أَهْلُ مِصْرَ وَالْإِسْكَندَرِيَّةِ، وَمَزَجُوا طَريقَتَهُ الْأَنْدَلُسِيَّةَ =

(ب) من ي.

ولما جاء كتابه إلى المغرب آخِرَ المائة السابعة، عكف عليه الكثير من طلبة المغرب، وخصوصاً أهل بجاية، لما كان كبير مشيختهم أبو علي ناصر الدين الزواوي هو الذي جلبه إلى المغرب، فإنه كان قرأ على أصحابه بمصر، ونسخ مختصره ذلك وجاء به، فانتشر بقطر بجاية في تلميذه، ومنهم انتقل إلى سائر أمصار المغرب. وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسون⁵، لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه. وقد شرحه جماعة من شيوخهم،

= بطريقتهم المصرية. وكان من جلة أصحابه الفقيه سند، صاحب الطراز، وأصحابه. وأخذ عنهم جماعة، كان منهم بنو عوف وأصحابهم. وأخذ عنهم أبو عمرو ابن الحاجب، وبغده شهاب الدين القرافي. واتصل ذلك في تلك الأعصار.

وكان فقه الشافعية قد انقرض أيضاً بمصر منذ ذولة العبديين⁽¹⁾، أهل البيت. فظهر بعدهم في الفقهاء الذين جددوه كتاب الزاوي، فقيه أهل خراسان منهم. وظهر بالشام مخيي الدين النووي، من تلك الخلبة.

ثم امتزجت طريقة المغاربة من المالكية أيضاً بطريقة العراقيين من لدن الشرفساجي، كان بالإسكندرية ظاهراً في الطريقة المغربية والمصرية. فبنى المستنصر الغباسي، أبو المستغصم وابن الظاهر، مدرسته ببغداد، واستدعاه لها من خلفاء العبديين الذين كانوا يومئذ بالقاهرة، فأذنوا له في الرحيل إليه. فلما قديم ببغداد، ولأه تدريس المستنصرية، وأقام هنالك إلى أن استولى هولاكو على بغداد سنة ست وخمسين من المائة السابعة، وخلص من تيار تلك التكنبة وحل سبيله. فعاش هنالك إلى أن مات في أيام ابنه أحمد أبغا.

وتلخص طرق هؤلاء المصريين ممتزجة بطرق المغاربة، كما ذكرناه، في مختصر أبي عمرو ابن الحاجب، يذكر فقه الباب في مسائله* المفرقة، ويذكر الأقوال في كل مسألة*^(ب) على تعدادها، فجاء كالبرزنايمج للمذهب.

(1) سقط من ج (ب) سقط ما بين النجمين من ج.

كأبن عبد السلام، وأبن راشيد، وأبن هارون، وكلهم من مَشِيخة أهل تونس.
وسابقُ حَلَبَتِهِمْ⁽¹⁾ في الإجابة في ذلك* (ب) ابنُ عبد السلام. وهم مع ذلك يتعهدون
كتاب التهذيب في دُروسهم. والله يَهْدِي من يشاء.

وأما علمُ الفرائض، وهو معرفةُ فُرُوضِ الوِراثَةِ، وتصحيحُ سِهامِ الفريضة
5 من كَمْ تَصَحَّحَ باعتبار فُرُوضِها الأصول أو مَناسَحَتِها. وذلك إذا هَلَكَ أحدُ الوَرَثة،
وانكسرت سِهامُهُ على فُرُوضِ وَرَثَتِهِ، فإنه حينئذٍ يَحْتَاجُ إلى حُسبانٍ يُصَحِّحُ
الفريضة الأولى حتى يصلَ أهلُ الفُرُوضِ جَمِيعاً في الفريضَتَيْنِ إلى فُرُوضِهِم من غير
تَجَزِئَةٍ. وقد تكونُ هذه المَناسَحَاتُ أَكْثَرَ من واحدٍ واثنين. وتَتَعَدَّدُ كذلك بَعْدَ أَكْثَرِ،
وبقَدَر ما تَتَعَدَّدُ حَتَّاجٌ إلى الحُسبان.

وكذا إذا كانت الفريضة ذاتَ وَجْهَيْنِ، مثل أن يُقَرَّ بعضُ الوَرَثةِ بوارثٍ
10 ويُكْرَهُ الآخرُ، فتَصَحَّحَ على الوَجْهَيْنِ حينئذٍ وَيُنْظَرُ مَبْلَغُ السَّهامِ، ثم تُقَسَّمُ التَّرَكَةُ
على نِسَبِ سِهامِ الوَرَثةِ من أَصْلِ الفريضة. وكلُّ ذلك مُحْتَاجٌ إلى الحُسبان.
فأفردوا هذا البابَ من أبوابِ الفِقه لما اجْتَمَعَ فيه إلى الفِقه من الحُسبان وكان غالباً
/ فيه، وجَعَلُوهُ فِتْناً مُتَفَرِّداً.

[306 ب]

وللناس فيه تَوَالِيفُ كثيرةٌ، أشهرُها عند المَالِكِيَةِ من مُتَأَخَّرِي الأَنْدَلُسِ كتابُ
15 ابنِ ثَابِتٍ، ومُخْتَصَرُ القَاضِي أبي القاسمِ الحَوفِيِّ، ثم الجَعْدِيُّ. ومن مُتَأَخَّرِي إفريقيَّةِ،
ابنُ المُنْتَمِرِ الطَّرَابُلُسِيِّ، وأمثالهم.

(1) ع: أهل حَلَبَتِهِمْ (ب) سقط ما بين النجمين من ج .

وأما الشافعية والحنفية والحنابلة، فلهم فيه تواليف كثيرة وأعمال عظيمة صعبة،
شاهدة لهم باتساع الذرع في الفقه والحساب، وخصوصاً أبا المعالي - رحمه الله -
وأمثاله من أهل المذاهب.

وهو فنٌ شريفٌ لجمعه بين المعقول والمنقول ، والوصول به إلى الحقوق في
الوراثات عندما تُجهل الحظوظ وتُشكل على القاسمين * بوجوه صحيحة يقينية*^(١).
وللعلماء من أهل الأمصار بها عناية. ومن المصنفين من ينجح فيها إلى الغلو في
الحساب، وفرض المسائل التي تحتاج في استخراج المجهولات من فنون الحساب،
كالجبر والمقابلة، والتصرف في الجذور، وأمثال ذلك، فيملأون بها تواليفهم. وهو وإن
لم يكن متداولاً بين الناس، ولا يُفيد فيما يتداولونه من وراثاتهم لغرابيته وقلة وقوعه،
فهو يُفيد المِرانَ وتحصيل الملكة في المتداول على أكمل الوجوه.

وقد يحتجُّ الأكثر من أهل هذا الفن على فضله بالحديث المنقول عن أبي
هريرة: "أنَّ الفرائض ثلثُ العلم، وأنها أول ما يُنسى". وفي رواية: نضفُ العلم.
خرَّجه أبو نُعيم الحافظ^(١)، واحتجَّ به أهلُ الفرائض بناءً على أنَّ المراد بالفرائض

(١) سقط من ي .

(١) لم نقف عليه من رواية أبي نعيم في كنبه، ولكنه روي مرفوعاً من حديث أبي هريرة: قال رسول الله
ﷺ: "يا أبا هريرة، تعلّموا الفرائض وعَلِّمُوهُ فَإِنَّهُ نِصْفُ الْعِلْمِ، وَهُوَ يُنْسَى، وَهُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يَنْزِعُ مِنْ
أُمِّي". أخرجه ابن ماجه (2719)، والدارقطني 4: 67، والحاكم في المستدرک 4: 332، والبيهقي في سننه
الكبرى 6: 209، والمزي في تهذيب الكمال 7: 40، وإسناده ضعيف لضعف حفص بن عمر بن أبي
العطاف راويه عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. وأما "ثلث العلم" فقد وردت من قول طاووس
وقتادة كما في سنن البيهقي 6: 209 .

فروض الوراثة. والذي يظهر أنّ هذا المحمل بعيد، وأنّ المراد بالفرائض إنّما هي
 الفروض التّكليفية في العبادات والعادات والموارث وغيرها، وبهذا المعنى تصحّ فيها
 التّصفية والثّلية. وأمّا فروض الوراثة، فهي أقلّ من ذلك كلّها بالنسبة إلى علم
 الشّريعة كلّها ؛ ويُعين هذا المراد أنّ حمل لفظ الفرائض على هذا الفنّ المخصوص أو
 تخصيصه بفروض / الوراثة ، إنّما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء عند حدوث الفنون [307]
 والاصطلاحات. ولم يكن صدر الإسلام يُطلق هذا اللفظ إلاّ على عُمومه، مُشتقّاً
 من الفرض الذي هو لغة التّقدير أو القطع. وما كان المراد [به] ⁽¹⁾ في إطلاقه إلاّ جميع
 الفروض، كما قلناه. وهي حقيقة الشّريعة. فلا ينبغي أن يُحمّل إلاّ على ما كان
 يُحمّل في عصرهم، فهو الأليقُ بمرادهم منه. والله أعلم.

10 14 • أصول الفقه وما يتعلّق به من الجدَل والخلافات

اعلم أنّ أصول الفقه من أعظم العلوم الشّرعية [وأجلّها قدراً وأكثرها
 فائدة. وهو النّظر في الأدلّة الشّرعية] ⁽¹⁾ من حيث تؤخّذ منها الأحكام والتكاليف.
 وأصول الأدلّة الشّرعية هي الكتاب الذي هو القرآن، ثمّ السّنة المبيّنة له.
 فعلى عهد النّبي ﷺ كانت الأحكام تُتلّى منه بما يُوحى إليه من القرآن، ويبيّنه بقوله
 15 وفعله بخطاب شفاهي لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظير وقياس. ومن بعده - صلوات
 الله عليه - تعذّر الخطاب الشّفاهي ، وانخفض القرآن بالتّواتر . وأمّا السّنة ، فأجمع

(1) سقط من ط .

الصَّحَابَةُ - رضوانُ الله عليهم - على وُجوبِ العملِ بما يَصِلُ إلينا منها قولاً أو فعلاً بالتَّنْقُلِ الصَّحِيحِ الَّذِي يَغْلِبُ على الظَّنِّ صِدْقُهُ. وتَعَيَّنَتْ ذِلَالَةُ الشَّرْعِ في الكتاب والسُّنَّةِ بهذا الاعتبار.

ثُمَّ تَنَزَّلَ الإِجْمَاعُ مَنْزِلَتَهُمَا لِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ على التَّكْيِيرِ على مُخَالَفَتِهِمْ^(أ). ولا يَكُونُ مِثْلُ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ مُسْتَنَدٍ، لَأَنَّ مِثْلَهُمْ لَا يَتَّفِقُونَ عَنْ غَيْرِ دَلِيلٍ ثَابِتٍ، مع 5 شهادةِ الأدلَّةِ ببعضِ الجماعة؛ فَصَارَ الإِجْمَاعُ دَلِيلًا ثَابِتًا فِي الشَّرْعِيَّاتِ.

ثُمَّ نَظَرْنَا فِي طُرُقِ اسْتِدْلَالِ الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَإِذَا هُمْ يُقَاسِمُونَ الْأَشْبَاهَ مِنْهَا^(ب) بِالْأَشْبَاهِ، وَيُنَظِّرونَ الْأَمْثَالَ بِالْأَمْثَالِ بِإِجْمَاعِ مِنْهُمْ، وَتَسْلِيمِ [بَعْضِهِمْ]^(ج) لِبَعْضٍ فِي ذَلِكَ. فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْوَاقِعَاتِ بَعْدَهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - لَمْ تَنْدَرْجْ فِي التَّصَوُّصِ / الثَّابِتَةِ، فَقَاسَمُوهَا بِمَا ثَبَّتَ، وَأَلْحَقُوهَا بِمَا نَصَّ عَلَيْهِ 10 [307 ب] بِشُرُوطٍ فِي ذَلِكَ الْإِلْحَاقِ، يُصَحِّحُ تِلْكَ الْمَسَاوَاةَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أَوْ الْمِثْلَيْنِ حَتَّى يَغْلِبَ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ حَكَمَ اللَّهِ فِيهَا وَاحِدٌ. وَصَارَ ذَلِكَ دَلِيلًا شَرْعِيًّا بِإِجْمَاعِهِمْ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْقِيَاسُ، وَهُوَ رَابِعُ الْأَدِلَّةِ.

وَاتَّفَقَ جَمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ هِيَ أَصُولُ الْأَدِلَّةِ، وَإِنْ خَالَفَ بَعْضُهُمْ فِي الإِجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ، إِلَّا أَنَّهُ شُدُودٌ. وَأَلْحَقَ بَعْضُهُمْ بِهِذِهِ [الْأَدِلَّةُ]^(د) الْأَرْبَعَةَ، أَدِلَّةً أُخْرَى 15 لَا حَاجَةَ بِنَا عَلَى ذِكْرِهَا، لَضَعْفِ مَذْرُوعِهَا^(هـ) وَشُدُودِ الْقَوْلِ بِهَا^(و).

(أ) ظ: مخالفتهم (ب) من ظ ج ي، وسقط من ع (ج) في ظ: بعض (د) سقط من ظ ع ي (هـ) من ظ ج، وفي ع ي: مداركها (و) ي: فيها.

فكان من أول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه أدلة.

فأما الكتاب، فدليله المعجزة القاطعة في مآثره، والتأثر في نقله. فلم يبق فيه مجال للاختيال.

وأما السنة وما نقل إلينا منها، فالإجماع على وجوب العمل بما يصح منها، كما 5 قدمنا، معترضاً بما كان عليه العمل في حياته - صلوات الله عليه - من إنفاذ الكتب والرسل إلى التواحي بالأحكام والشرائع آمراً وناهياً.

وأما الإجماع، فلاشاقهم - رضوان الله عليهم - على إنكار مخالفتهم، مع العزيمة الثابتة للأمة.

وأما القياس، فبإجماع الصحابة - رضي الله عنهم - عليه كما قدمناه.

هذه أصول الأدلة. 10

ثم إن المنقول من السنة يحتاج إلى توضيح الخبر بالنظر في طرق النقل وعدالة الناقلين، لتتميز الحالة المحصلة للظن بصدقته التي هي مناط وجوب العمل بالخبر. وهذه أيضاً من قواعد الفن. ويلحق بذلك عند التعارض بين الخبرين وطلب المتقدم منها معرفة التاسخ والمنسوخ، وهي من فصوله أيضاً وأبوابه.

ثم بعد ذلك؛ يتعين النظر في دلالات الألفاظ. وذلك أن استفادة المعاني على 15 الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق، تتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة. والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف / والبيان. [1308] وحين كان اللسان ملكة لأهله لم تكن هذه علوماً ولا قوانين، ولم يكن الفقيه حينئذ

بحِجَاجِ إِيَّاهَا، لِأَنَّهَا حَبْلَتُهُ وَمَلَكَّتُهُ. فَلَمَّا فَسَدَتِ الْمَلَكَةُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ، قَيَّدَهَا الْجَهَابِذَةُ الْمُتَجَرِّدُونَ لِذَلِكَ، بِثَقَلِ صَحِيحٍ وَمَقَاسٍ مُسْتَنْبِطَةٍ صَحِيحَةٍ، وَصَارَتْ عُلُومًا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْفَقِيهُ فِي مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ اللَّهِ.

ثُمَّ إِنَّ هُنَا اسْتِفَادَةَ أُخْرَى خَاصَّةً مِنْ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ، وَهِيَ اسْتِفَادَةُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بَيْنَ الْمَعَانِي مِنْ أَدِلَّتِهَا الْخَاصَّةِ بَيْنَ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ، وَهُوَ الْفِقْهُ. وَلَا تَكْفِي فِيهِ 5 مَعْرِفَةُ الدَّلَالَاتِ الْوَضْعِيَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ أُمُورٍ أُخْرَى تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا تِلْكَ الدَّلَالَةُ الْخَاصَّةُ، وَبِهَا تُسْتَفَادُ الْأَحْكَامُ بِحَسَبِ مَا أَصَّلَ أَهْلُ الشَّرْعِ وَجَهَابِذَةُ الْعِلْمِ مِنْ ذَلِكَ، وَجَعَلُوهُ قَوَانِينَ لِهَذِهِ الْاسْتِفَادَةِ؛ مِثْلُ أَنَّ اللَّغَةَ لَا تَثْبُتُ قِيَاسًا، وَالْمُشْتَرَكُ لَا يُرَادُ بِهِ مَعْنِيَاهُ مَعًا، وَالْوَاوُ لَا يُقْتَضِي التَّرْتِيبَ، وَالْعَامُّ إِذَا أُخْرِجَتْ 10 أَفْرَادُ الْخَاصِّ مِنْهُ هَلْ يَبْقَى حُجَّةٌ فِيهَا عَدَاهَا، وَالْأَمْرُ لِلْوُجُوبِ أَوْ النَّدْبِ، وَلِلْفُجُورِ أَوْ التَّرَاحِي، وَالنَّهْيُ يَقْتَضِي الْفُسَادَ أَوْ الصَّحَّةَ⁽¹⁾، وَالْمَطْلَقُ هَلْ يُحْمَلُ عَلَى الْمَقْيَدِ، وَالنَّصُّ عَلَى الْعِلَّةِ كَافٍ فِي التَّعْدِي أَوْ لَا؟ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ. فَكَانَتْ كُلُّهَا مِنْ قَوَاعِدِ هَذَا الْفَنِّ. وَلَكُونَهَا مِنْ مَبَاحِثِ الدَّلَالَةِ كَانَتْ لُغَوِيَّةً.

ثُمَّ إِنَّ النَّظَرَ فِي الْقِيَاسِ مِنْ أَعْظَمِ قَوَاعِدِ هَذَا الْفَنِّ. لِأَنَّ فِيهِ تَحْقِيقَ الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ فِيمَا يُقَاسُ وَيُضَاقَلُ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَتَثْقِيقَ الْوُضُفِ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ 15 الْحُكْمَ عُلِّقَ بِهِ فِي الْأَصْلِ مِنْ بَيْنِ أَوْصَافِ ذَلِكَ الْحَلِّ، وَوُجُودَ ذَلِكَ الْوُضُفِ فِي الْفَرْعِ مِنْ غَيْرِ مُعَارِضٍ يَمْنَعُ مِنْ تَرْتِيبِ الْحُكْمِ عَلَيْهِ، إِلَى مَسَائِلَ أُخْرَى مِنْ تَوَابِعِ ذَلِكَ، كُلُّهَا قَوَاعِدُ لِهَذَا الْفَنِّ.

(1) اختلاف الأصوليين كان في هل النهي يقتضي الفساد أو البطلان؟

واعلم أن هذا الفن من الفنون المستحدثة في الملة. وكان السلف في غنية

[308 ب]

عنه ، بما أن استفادة المعاني / من الألفاظ لا يحتاج فيها إلى أزيد مما عندهم من الملكة اللسانية . وأما القوانين التي يحتاج إليها في استفادة الأحكام خصوصاً ، فعنهم أخذ معظمها . وأما الأسانيد ، فلم يكونوا يحتاجون إلى النظر فيها ، لقرب العصر وممارسة التقلّة وخبرتهم بهم . فلما انقضى السلف وذهب الصدر الأول ، وانقلبت العلوم كلها صناعية ، كما قرّزناه من قبل ، احتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الأحكام من الأدلة . فكتبوها فنّاً قائماً برأسه سموه أصول الفقه .

وكان أول من كتب فيه الشافعي ، رضي الله عنه ، وأملى فيه رسالته المشهورة ،

10 تكلم فيها في الأوامر والنواهي ، والبيان ، والخبر ، والنسخ ^(١) ، وحكم العلة المنصوصة من القياس . ثم كتب فقهاء الحنفية فيه ، وحقّقوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها .

وكتب المتكلمون أيضاً كذلك ؛ إلا أن كتابة الفقهاء فيها أمس بالفقه وأليق بالفروع ، لكثرة الأمثلة منها والشواهد ، وبناء المسائل فيها على الثكّت الفقهيّة . والمتكلمون يجردون صور تلك المسائل عن الفقه ، ويميلون إلى الاستدلال العقلي ما أمكن ، لأنّه ^(ب) قالب فنونهم ومقتضى طريقتهم .

15 فكان لفقهاء الحنفية فيها يدّ طولى من الغوص على الثكّت الفقهيّة والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن . وجاء أبو زيد الدبوسي ، من أئمتهم ،

(١) سقط من ج (ب) لأن العقل .

فكتب في القياس بأوسع من جميعهم، وتَمَّ الأبحاث والشروط التي يحتاج إليها فيه. فكمّلت صناعة أصول الفقه بكماله، وتهذبت مسائله، وتمهّدت قواعده.

وعني الناس بطريقة المتكلمين فيه. وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتابا : البرهان لإمام الحرمين ، والمستصفي للغزالي ، وهما من الأشعرية ، وكتابا : العمد⁽¹⁾ لعبد الجبار ، وشرحه المعتمد لأبي الحسين البصري ، وهما من / المعتزلة . 5 [1309] وكانت الأربعة قواعد هذا الفن وأزكاه.

ثم لخص هذه الكتب الأربعة فخلان من المتكلمين المتأخرين، وهما الإمام فخر الدين ابن الخطيب في كتاب المخصول، وسيف الدين الآمدي في كتاب الإحكام، واختلفت طرائقهما في الفن بين التحقيق والحجاج. فابن الخطيب أميل إلى الاستكثار من الأدلة والاحتجاج، والآمدي مولع بتحقيق المذاهب وتفريع المسائل. 10 فأما كتاب المخصول، فاختصره تلميذ الإمام ، مثل سراج الدين الأزموي في كتاب التخصيل، وتاج الدين الأزموي في كتاب الحاصل. واقتطف شهاب الدين القرافي منها مقدمات وقواعد في كتاب صغير سماه التنقيحات . وكذلك فعل البيضاوي في كتاب المنهاج. وعني المبتدئون بهذين الكتابين، وشرّحهما كثير من الناس. وأما كتاب الإحكام للآمدي ، وهو أكثر تحقيقاً في المسائل ، فلخصه أبو عمرو بن 15 الحاجب في كتابه المعروف بالمختصر الكبير؛ ثم اختصره في كتاب آخر تداوله طلبة العلم، وعني أهل المشرق والمغرب بمطالعته وشرحه. وحصلت زبدة طريقة المتكلمين في هذا الفن، في هذه المختصرات.

(1) كذا في ظ ج ي ، وهو الصحيح ، وفي ع : العهد .

وأما طريقة الحنفية، فكتبوا فيها كثيراً. وكان من أحسن كتابة المتقدمين فيها،
تأليف أبي زيد الدبوسي، وأحسن تأليف^(١) المتأخرين تأليف سيف الإسلام
البرذوي، من أئمتهم، وهو مستوعب. وجاء ابن الساعاتي، من فقهاء الحنفية، فجمع
بين كتاب الإحكام وكتاب البرذوي في الطريقتين، وسمى كتابه بالبدیع. فجاء من
أحسن الأوضاح وأبدعها. وأئمة العلماء لهذا العهد يتداولونه قراءة وبحثاً؛ وولع كثير
5 من علماء العجم بشرحه. والحال على ذلك لهذا العهد.

*[هذه حقيقة هذا الفن وتعيين موضوعاته وتعدد تأليفه^(ب) المشهورة
لهذا]^(ج)* العهد فيه. والله يتفعلنا بالعلم ويجعلنا من أهله، بمنه.

- / وأما الخلافات، فاعلم أن هذا الفئة المستنبط من الأدلة الشرعية كثر [309ب]
10 فيه الخلاف بين المجتهدين، باختلاف مداركهم وأنظارهم، خلافاً لا بد من وقوعه لما
قدّمناه. واتسع ذلك في الملة اتساعاً عظيماً، وكان للمقلدين أن يقلدوا من شاءوا منهم.
ثم لما انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار، وكانوا بمكان من حسن
الظن بهم، اقتصر الناس على تقليدهم. ومنع من تقليد سواهم، لذهاب الاجتهاد
بصعوبته^(د) وتشتت العلوم التي هي موارده باتصال الزمان، واقتقاد من يقوم على
15 سيوى هذه المذاهب الأربعة. فأقيمت هذه المذاهب الأربعة أصولاً للملة، وأجري
الخلاف بين المتمسكين بها والآخرين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص
الشرعية والأصول الفقهية.

(١) في ج ي: كتابة (ب) في ج ي: التأليف (ج) سقط ما بين النجمين من ط (د) ي: لصوته .

وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كلٍّ منهم مذهبٍ إماميه، تجري على أصولٍ صحيحةٍ وطرائقٍ قويمَةٍ، ويحتاجُ بها كلٌّ على صِحَّةِ مذهبِهِ الَّذِي قَلَّدَهُ وتمسَّكَ به، وأُجريت في مسائل الشريعة كلها وفي كلِّ بابٍ من أبواب الفقه، فتارةً يكونُ الخلافُ بين الشافعيِّ ومالك، وأبو حنيفةً يُوافق أحدهما. وتارةً بين مالك وأبي حنيفة، [والشافعيُّ يُوافق أحدهما، وتارةً بين الشافعيِّ وأبي حنيفة^(١)] ومالك يُوافق أحدهما. 5 وكان في هذه المناظرات بيانٌ مآخذ هؤلاء الأئمة ومشارب اختلافهم ومواقع اجتهدهم.

وكان هذا الصنف من العلم يُسمى بالخلافيات. ولا بُدَّ لصاحبه من معرفة القواعد التي يتوصلُ بها إلى استنباط الأحكام كما يحتاج إليها المجتهد. إلا أنَّ المجتهد يحتاج إليها للاستنباط، وصاحب الخلافات يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالفُ بأدليته. وهو لعمري علمٌ جليلٌ الفائدة في تعرُّف مآخذ الأئمة 10 وأدلتهم ومiran المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلالَ عليه.

[٣١٠] وتوالف الحنفية فيه^(ب) والشافعية / أكثر من توالف المالكية. لأنَّ القياس عند الحنفية أصلٌ للكثير من فروع مذهبهم، كما عرفت. فهم لذلك أهلُ النظر والبحث. وأمَّا المالكية، فالأثر أكثر مُعتمديهم وليسوا بأهلِ نظر. وأيضاً، فأكثرهم أهلُ المغرب، وهم باديةٌ عُقل من الصنائع إلا في الأقل. 15

وللغزالي [رحمه الله]^(ج) فيه كتاب المآخذ، ولأبي بكر بن العربي، من المالكية، كتاب التلخيص، جلبه من المشرق، ولأبي زيد الدبوسي كتاب التعليق، ولابن

(١) سقط من ظ (ب) سقط من ي (ج) من ي .

القَصَار، من شيوخ المالِكِيَّة، عيُونُ الأدلَّة. وقد جمع ابنُ السَّاعَتِي في مُخْتَصَرِه في أصول الفقه جميع ما يَتَّبِعِي عليها من الفقه الحِلَافِي، مُدرِجاً في كُلِّ مَسْأَلَةٍ منه ما يَتَّبِعِي عليها من الحِلَافِيَّات.

وأما المَجْدُلُ، وهو مَعْرِفَةُ آدابِ المُنَاطَرَةِ الَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ المَذَاهِبِ الفِقهِيَّةِ 5 وغيرِهِم، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ المُنَاطَرَةِ في الرَّدِّ والقَبُولِ مُتَّسِعاً، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ المُنَاطَرِينَ في الاستِدْلَالِ والجَوَابِ مُرْسِلٌ عَنانَهُ في الاحتِجَاجِ، ومنه ما يَكُونُ صَوَاباً ومنه ما يَكُونُ خَطَأً، فَاحتِجَّ الأيْمَةُ أَنْ يَضَعُوا آدَاباً وَأَحْكَاماً يَقِفُ المُنَاطَرَانِ عِنْدَ حُدُودِهَا في الرَّدِّ والقَبُولِ، وكيف يَكُونُ حَالُ المُسْتَدِلِّ والمُجِيبِ، وَحَيْثُ يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَدِلاً، وكيف يَكُونُ مَخْصُوماً مُنْقَطِعاً، وَمَحَلٌّ 10 اعْتِرَاضِهِ أو مُعَارَضَتِهِ، وَأَيْنَ يَجِبُ عَلَيْهِ الشُّكُوتُ، وَلِخُصْمِهِ الكَلَامُ والاستِدْلَالُ. ولذلك قِيلَ فِيهِ: إِنَّهُ مَعْرِفَةُ بالقَوَاعِدِ مِنَ الحُدُودِ والآدَابِ في الاستِدْلَالِ، الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى حِفْظِ رَأْيٍ أو هَدْمِهِ، كَانَ ذَلِكَ الرَّأْيُ مِنَ الفقهِ أو غَيْرِهِ.

وهي طَرِيقَانِ: طَرِيقَةُ البَرْدَوِيِّ، وَهِيَ خَاصَّةٌ بِالْأَدِلَّةِ⁽¹⁾ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النَّصِّ والإِجْمَاعِ والاستِدْلَالِ. وطَرِيقَةُ العِمِيدِيِّ، وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ 15 أَيْ عِلْمٍ كَانَ، وَأَكْثَرُهُ اسْتِدْلَالٌ. وَهُوَ مِنَ المَنَاحِي الحَسَنَةِ، والمُغَالَطَاتِ فِيهِ فِي نَفْسِ الأَمْرِ كَثِيرَةٌ. وَإِذَا اعْتَبِرَ بالنَّظَرِ / المنطِقِيِّ، كَانَ فِي الغَالِبِ أَشْبَهُ بِالْقِيَاسِ المِغَالِطِيِّ [310ب] والسُّوْفِسْطَائِيِّ. إِلَّا أَنَّ صُورَةَ الأدِلَّةِ والأَقْيَسَةِ فِيهِ مُحْفَوظَةٌ مُرَاعَاةً يُتَحَرَّى فِيهَا طُرُقُ الاستِدْلَالِ كَمَا يَتَّبِعِي.

(1) فِي ج ي : بِالْأَلَةِ .

وهذا العميدي هو أول من كتب فيها، ونُسبت الطريقة إليه، ووضع كتابه
المسمى بالإرشاد مختصراً. وتبعه من بعده من المتأخرين، كالنسفي وغيره، جاءوا
على أثره وسلكوا مسلكه. وكثرت في الطريقة التواليف، وهي لهذا العهد مهجورة
لنقص العلم والتعليم في الأمصار الإسلامية؛ وهي مع ذلك كمالية وليست ضرورية.
﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [سورة يوسف، من الآية 21].

5

15 * عِلْمُ الْكَلَامِ

وهو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرّد على
المبتدعة المخرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة.

وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد . فلنقدّم هنا لطيفة في برهان عقلي
يكشف لنا عن التوحيد على أقرب الطرق والمآخذ، ثم نرجع إلى تحقيق علم الكلام
وفيما ينظر، ونشير إلى سبب حدوثه في الملة وما دعا إلى وضعه، فنقول:

اعلم أنّ الحوادث في عالم الكائنات، سواء كانت من الدواب أو الأفعال البشرية
أو الحيوانية، فلا بد لها من أسباب بهذا المعنى متقدمة عليه، بها يقع في مستقر
العادة وعنها يتم كونه . وكل واحد من تلك الأسباب [حادث أيضاً ، فلا بد له من
أسباب أخرى. ولا تزال تلك الأسباب]⁽¹⁾ مُرتبة حتى تنتهي إلى مسبب الأسباب
وموجدّها وخالقها سبحانه ، لا إله إلا هو . وتلك الأسباب في ارتقائها تتضاعف

15

(1) سقط من ظ .

فَتَنْفَسِحُ طَوْلًا وَعَرْضًا، وَيَحَارُ الْعَقْلُ فِي إِدْرَاكِهَا وَتَعْدِيدِهَا. فَإِذَنْ، لَا يَحْصُرُهَا إِلَّا الْعِلْمُ الْحَيْطُ، سَيِّمَا الْأَفْعَالُ الْبَشَرِيَّةُ وَالْحَيَوَاتِيَّةُ. فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَسْبَابِهَا فِي الشَّاهِدِ الْقُصُودَ وَالْإِرَادَاتِ، إِذْ لَا يَتِمُّ كَوْنُ الْفِعْلِ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَالْقَصْدِ إِلَيْهِ. وَالْقُصُودُ وَالْإِرَادَاتُ أُمُورٌ نَفْسَانِيَّةٌ نَاشِئَةٌ فِي الْغَالِبِ عَنْ تَصَوُّرَاتٍ سَابِقَةٍ / يَتَلَوُّ بَعْضُهَا بَعْضًا. [1311]

5 وتلك التَّصَوُّرَاتُ هي أسبابُ قَصْدِ الْفِعْلِ. وقد تكونُ أسبابُ تلكِ التَّصَوُّرَاتِ تَصَوُّرَاتٍ أُخْرَى. وكلُّ ما يَقَعُ فِي النَّفْسِ مِنَ التَّصَوُّرَاتِ، فَمَجْهُولٌ سَبَبِيَّةً، إِذْ لَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ عَلَى مَبَادِي الْأُمُورِ النَّفْسَانِيَّةِ وَلَا عَلَى تَرْتِيبِهَا. إِنَّمَا هِيَ أَشْيَاءُ يُلْقِيهَا اللَّهُ فِي الْفِكْرِ، يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا. وَالْإِنْسَانُ عَاجِزٌ عَنْ مَعْرِفَةِ مَبَادِيهَا وَغَايَاتِهَا. وَإِنَّمَا يُحِيطُ عِلْمًا فِي الْغَالِبِ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي هِيَ طَبِيعِيَّةٌ ظَاهِرَةٌ، وَقَعُ فِي مَدَارِكِنَا عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ، 10 لِأَنَّ الطَّبِيعَةَ مَخْصُورَةٌ لِلنَّفْسِ وَتَحْتَ طَوْرِهَا. وَأَمَّا التَّصَوُّرَاتُ، فَيُطَاقُهَا أَوْسَعُ مِنَ النَّفْسِ، لِأَنَّهَا لِلْعَقْلِ الَّذِي هُوَ فَوْقَ طَوْرِ النَّفْسِ. فَلَا تَكَادُ النَّفْسُ تُدْرِكُ الْكَثِيرَ مِنْهَا، فَضْلًا عَنِ الْإِحَاطَةِ.

وَتَأْمَلْ مِنْ ذَلِكَ حِكْمَةَ الشَّارِعِ فِي نَهْيِهِ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْأَسْبَابِ وَالْوُقُوفِ مَعَهَا. فَإِنَّهُ وَإِذْ يَهَيِّمُ فِيهِ الْفِكْرُ وَلَا يَحُلُو مِنْهُ بَطَائِلٌ، وَلَا يَظْفَرُ بِحَقِيقَةٍ ^(أ). ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية 91]. 15

وَرُبَّمَا انْقَطَعَ فِي وَقُوفِهِ عَنِ الِارْتِقَاءِ إِلَى مَا فَوْقَهُ، فَزَلَّتْ قَدَمُهُ وَأَصْبَحَ فِي الضَّالِّينَ الْهَالِكِينَ، نَعُودُ بِاللَّهِ مِنَ الْجِزْمَانِ وَالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ. وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ هَذَا الْوُقُوفَ أَوْ الرَّجُوعَ عَنْهُ ^(ب) فِي قُدْرَتِكَ أَوْ اخْتِيَارِكَ، بَلْ هُوَ لَوْ يَحْصُلُ لِلنَّفْسِ، وَصَبْغَةٌ

(أ) فِي ع: بِحَقِيقَتِهِ (ب) فِي ط ج ي، وَسَقَطَ مِنْ ع.

تَسْتَحْكُمُ مِنَ الْخَوْضِ فِي الْأَسْبَابِ عَلَى نِسْبَةٍ لَا نَعْلَمُهَا، إِذْ لَوْ عَلِمْنَاهَا لَتَحَرَّزْنَا مِنْهَا. فَلْيَتَحَرَّزْ مِنْ ذَلِكَ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْهَا جُمْلَةً.

وأيضاً فوجهُ تأثيرِ هذه الأسبابِ في الكثير من مُسَبِّبَاتِهَا مَجْهُولٌ، لأنها إِنَّمَا يوقَّفُ عليها بِالْعَادَةِ، وَقَضِيَّةُ الْاِقْتِرَانِ الشَّاهِدِ بِالِاسْتِنَادِ فِي الظَّاهِرِ، وَحَقِيقَةُ التَّأْتِيرِ وَكَيْفِيَّتُهُ، مَجْهُولَةٌ. ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية 85]. 5
فلذلك أَمَرْنَا بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْهَا وَإِلْغَائِهَا جُمْلَةً، وَالتَّوَجُّعِ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ كُلِّهَا وَفَاعِلِهَا وَمُوجِدِهَا، لَتَرَسَّخَ صِبْغَةُ التَّوْحِيدِ فِي النَّفْسِ عَلَى مَا عَلَّمْنَا / الشَّارِعُ الَّذِي [311ب]
هو أَعْرَفُ بِمَصَالِحِ دِينِنَا وَطُرُقِ سَعَادَتِنَا لِاطِّلَاعِهِ عَلَى مَا وَرَاءَ الْحِسِّ. قَالَ ﷺ: "مَنْ مَاتَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ". فَإِنْ وَقَفَ عِنْدَ تِلْكَ الْأَسْبَابِ، فَقَدْ انْقَطَعَ، وَحُقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْكُفْرِ. وَإِنْ سَبَحَ فِي بَحْرِ النَّظَرِ وَالبَحْثِ عَنْهَا وَعَنْ أَسْبَابِهَا 10 وَتَأَثِيرَاتِهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، فَأَنَا الضَّامِنُ لَهُ الْأَ يَعُودُ إِلَّا بِالْحَيِّتَةِ. فَلِذَاكَ نَهَانَا [الشَّارِعُ] (1)
عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْأَسْبَابِ، وَأَمَرْنَا بِالتَّوْحِيدِ الْمُطْلَقِ. ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص].

وَلَا تَتَّقَنَّ بِمَا يَزْعُمُ لَكَ الْفِكْرُ مِنْ أَنَّهُ مُقْتَدِرٌ عَلَى الْإِحَاطَةِ بِالْكَائِنَاتِ وَأَسْبَابِهَا، وَالْوُقُوفِ عَلَى تَفْصِيلِ الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَسَقَّةَ رَأْيِهِ فِي ذَلِكَ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ 15

(1) فِي ظ وَحْدَهَا: الشَّرْعُ .

(1) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (26) مِنْ حَدِيثِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ (4041) مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبِ الْأَنْصَارِيِّ، وَ 20 (79) مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ 5: 229، وَالنَّسَائِيُّ فِي عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ (1134)، وَابْنُ خُزَيْمَةَ فِي التَّوْحِيدِ 2: 787، وَابْنُ مَنْدَةَ فِي الْإِيمَانِ (94) .

مُدْرِكٍ فِي بَادئِ رَأْيِهِ أَنَّهُ مُنْحَصِرٌ فِي مَدَارِكِهِ، لَا يَغْدُوهَا. وَالْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ بِخِلَافِ ذَلِكَ، وَالْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ. أَلَا تَرَى الْأَصَمَّ كَيْفَ يَنْحَصِرُ الْوُجُودَ عِنْدَهُ فِي الْمَحْسُوسَاتِ الْأَزْجِ وَالْمَقْذُولَاتِ، وَسَقَطَ مِنَ الْوُجُودِ عِنْدَهُ صِنْفُ الْمَسْمُوعَاتِ؟ وَكَذَلِكَ الْأَعْمَى [الْأَكْمَه] ^(١) أَيْضاً، يَسْقُطُ مِنَ الْوُجُودِ عِنْدَهُ صِنْفُ الْمَرْئِيَّاتِ، وَلَوْلَا مَا يَزِدُّهُمْ إِلَى ذَلِكَ، تَقْلِيدُ الْآبَاءِ وَالْمَشِيخَةِ مِنْ أَهْلِ عَصَرِهِمُ وَالْكَافَّةِ لَمَا أَقْرَبُوا بِهِ. لَكِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكَافَّةَ فِي إِثْبَاتِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ، لَا بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمْ وَطَبِيعَةِ إِدْرَاكِهِمْ. وَلَوْ سُئِلَ الْحَيَوَانُ الْأَعْجَمُ وَنَطَقَ، لَوَجَدْنَاهُ مُنْكَرَا صِنْفِ الْمَقْذُولَاتِ، وَسَاقِطَةً لَدَيْهِ بِالْكَلِّيَّةِ.

وَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ، فَلَعَلَّ هُنَاكَ ضَرْباً مِنَ الْإِدْرَاكِ غَيْرِ مُدْرَكَاتِنَا ^(ب)، لِأَنَّ إِدْرَاكَتِنَا ^(ج) مَخْلُوقَةٌ مُخَدَّثَةٌ، وَخَلَقَ اللَّهُ ﴿أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ، مِنْ الْآيَةِ 57]، وَالْحَصْرُ مَجْهُولٌ، وَالْوُجُودُ أَوْسَعُ نِطَاقاً مِنْ ذَلِكَ. ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [سُورَةُ الْبُرُوجِ، الْآيَةُ 20]. فَاتَّهَمُوا إِدْرَاكَكَ وَمُدْرَاكَتِكَ فِي الْحَصْرِ، وَاتَّبَعَ مَا أَمَرَ الشَّارِعُ بِهِ فِي اعْتِقَادِكَ وَعَمَلِكَ، فَهُوَ أَحْرَضَ عَلَى سَعَادَتِكَ، وَأَعْلَمَ بِمَا يَنْفَعُكَ، لِأَنَّهُ مِنْ طَوْرِ فَوْقِ إِدْرَاكَكَ وَمِنْ نِطَاقٍ أَوْسَعَ مِنْ نِطَاقِ عَقْلِكَ. / وَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِحٍ فِي الْعَقْلِ وَمَدَارِكِهِ، بَلِ الْعَقْلُ مِيزَانٌ صَحِيحٌ، وَأَحْكَامُهُ يَقِينِيَّةٌ لَا كَذِبَ فِيهَا. غَيْرَ أَنَّكَ لَا تَطْمَعُ أَنْ تَزِنَ بِهِ أُمُورَ التَّوْحِيدِ وَالْآخِرَةِ، وَحَقِيقَةَ الثَّبُوتِ وَحَقَائِقَ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَكُلِّ مَا وَرَاءَ طَوْرِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ طَمَعٌ فِي مُحَالٍ. وَمِثَالُ ذَلِكَ مِثَالُ رَجُلٍ رَأَى الْمِيزَانَ الَّذِي يوزُنُ بِهِ الذَّهَبُ، فَطَمَعُ أَنْ يَزِنَ بِهِ الْجِبَالَ، وَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمِيزَانَ فِي أَحْكَامِهِ

(١) مخرج بخطه في ع، وسقط من ط ج ي (ب) في ط: مدركاها (ج) ط: إدراكها .

غير صادق، لكن للعقل حدٌ يقف عنده ولا يتعدى طوره، حتى يكون له أن يحيط بالله وصفاته. فإنه ذرةٌ من ذرات الوجود الحاصل منه. وتسطن من هذا الغلط من يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا، وقصور فهمه واضمحلال رأيه، فقد يتبين لك الحق من ذلك.

- 5 وإذا تبين ذلك ، فلعل الأسباب إذا تجاوزت في الارتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا، خرجت عن أن تكون مُدركةً، فيضلُّ العقل في بيداء الأوهام، ويحار ويتقطع. فإذن، التوحيد هو العجز عن إدراك الأسباب وكميات تأثيراتها، وتفويض ذلك إلى خالقها المحيطة بها، إذ لا فاعل غيره، وكلها ترتقي إليه وترجع إلى قدرته. وعلمنا به إنما هو من حيث صدورنا عنه لا غير. وهذا هو معنى ما نُقل عن بعض الصديقين: العجز عن [درك] ⁽¹⁾ الإدراك إدراك ⁽²⁾.
- 10

ثم إنَّ المُعتبر في هذا التوحيد، ليس هو الإيمان فقط، الذي هو تصديق حُكمي، فإنَّ ذلك من حديث النفس. وإنَّما الكمال فيه حصولُ صفةٍ منه تتكيف بها النفس. كما أنَّ المطلوب من الأعمال والعبادات أيضاً حصولُ ملكة الطاعة والاعتقاد، وتفرغ القلب من شواغل ما سوى المعبود، حتى ينقلب المريد السالك ربانياً.

15

(1) زيادة اقتضاها أصل النص ومعناه .

(2) عزاء غير واحد هذا القول لأبي بكر الصديق، وما أظنَّه قاله، فقول المؤلف: بعض الصديقين، أجود. ومن عزاه إلى أبي بكر: الإسفراني في "التبصير في الدين" 160، والغزالي في "المقصد الأسنى" 54، وعلي القاري في "الرد على من قال بوحدة الوجود" 1: 18، 74، 90 .

والفرق بين الحال والعلم في العقائد ، فرق ما بين القول والاتصاف .

[312ب] وشَرَحُهُ ، أنَّ كثيراً من الناس / يَعْلَمُ أَنَّ رَحْمَةَ الْيَتِيمِ وَالْمَسْكِينِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ مَدْبُوبٌ
إِلَيْهَا ، وَيَقُولُ [بِذَلِكَ] ^(١) وَيَغْتَرِفُ بِهِ وَيَذْكُرُ مَا أَخَذَهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ ، وَهُوَ لَوْ رَأَى
يَتِيماً أَوْ مَسْكِيناً مِنْ أُنْبَاءِ الْمُسْتَضْعِفِينَ لَفَرَّ عَنْهُ وَاسْتَنَكَفَ أَنْ يُبَاشِرَهُ ، فَضْلاً عَنْ
5 التَّمَسُّحِ عَلَيْهِ لِلرَّحْمَةِ ، وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ مَقَامَاتِ الْعَطْفِ وَالْحَنُونِ وَالصَّدَقَةِ . فَهَذَا إِنَّمَا
حَصَلَ ^(ب) لَهُ - مِنْ رَحْمَةِ الْيَتِيمِ - مَقَامُ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَحْضُلْ لَهُ مَقَامُ الْحَالِ وَالْإِتِّصَافِ .
وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَحْضُلُ [لَهُ] مَعَ مَقَامِ الْعِلْمِ وَالْإِعْتِرَافِ ، بِأَنَّ رَحْمَةَ الْمَسْكِينِ قُرْبَةٌ
إِلَى اللَّهِ ، مَقَامٌ آخَرُ أَعْلَى مِنَ الْأَوَّلِ ، وَهُوَ الْإِتِّصَافُ بِالرَّحْمَةِ وَحَصُولُ مَلَكَتِهَا .
فَمَتَى رَأَى يَتِيماً أَوْ مَسْكِيناً بَادَرَ إِلَيْهِ وَمَسَحَ عَلَيْهِ وَالتَّمَسَّ الثَّوَابَ فِي الشَّفَقَةِ عَلَيْهِ ،
10 لَا يَكَاذُ يَضِرُّ عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ دُفِعَ عَنْهُ . ثُمَّ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ بِمَا حَضَرَهُ مِنْ ذَاتِ
يَدِهِ .

وكذا عِلْمُكَ بِالتَّوْحِيدِ مَعَ اتِّصَافِكَ بِهِ . وَالْعِلْمُ حَاصِلٌ عَنِ الْإِتِّصَافِ ضَرُورَةً ،
وَهُوَ أَوْثَقُ مَبْنًى مِنَ الْعِلْمِ الْحَاصِلِ قَبْلَ الْإِتِّصَافِ . وَلَيْسَ الْإِتِّصَافُ بِحَاصِلٍ عَنِ
مُجَرَّدِ الْعِلْمِ حَتَّى يَقَعَ الْعَمَلُ وَيَتَكَرَّرَ مِرَاراً غَيْرَ مُنْحَصِرَةٍ ، فَتَرْسَخَ الْمَلَكََةُ وَيَحْضَلَ
15 الْإِتِّصَافُ وَالتَّحْقِيقُ ، وَيَجِيءُ الْعِلْمُ الثَّانِي النَّافِعُ فِي الْآخِرَةِ . فَإِنَّ الْعِلْمَ الْأَوَّلَ الْمُجَرَّدَ
عَنِ الْإِتِّصَافِ قَلِيلُ الْجَدْوَى وَالتَّنْفَعِ . وَهَذَا عِلْمٌ أَكْثَرُ التُّظَّارِ ، وَالْمَطْلُوبُ إِنَّمَا هُوَ الْعِلْمُ
الْحَالِي النَّاشِئُ عَنِ الْعِبَادَةِ .

(١) من ع ج ي ، وسقط من ظ (ب) في ع : يحصل .

واعلم أنّ الكمال عند الشارع في كلّ ما كلف به إنّما هو في هذا. فما طلب اعتقاده فالكمال فيه في العلم الثاني الحاصل عن الاتّصاف، وما طلب عمله من العبادات، فالكمال فيها في حصول الاتّصاف والتّحقّق بها. ثمّ إنّ الإقبال على العبادات والمواظبة عليها هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة. قال ﷺ⁽¹⁾ في رأس العبادات: "جُعِلَتْ قُرّة عيني في الصلاة". فإنّ الصلاة صارت له صفة وحالاً يحدّ 5 فيها مُتَمَهِي لَدَيْهِ وَقُرّة عَيْنِهِ. وأين / هذه من صلاة الناس، وَمَنْ لَهمُ بها ﴿ قَوِيلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [سورة الماعون، الآيتان 4، 5]. اللَّهُمَّ وَقِنَا و ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [سورة الفاتحة، الآيتان 6، 7].

[313]

فقد تبيّن لك من جميع ما قرّرناه، أنّ المطلوب في التكاليف كلّها حصول 10 ملكة راسخة في النفس، ينشأ عنها علم اضطراريّ للنفس، هو التّوحيد، وهو العقيدة الإيمانيّة، وهو الذي تحضّل به السعادة، وأنّ ذلك سواء في التكاليف القلبية أو البدنيّة. وتفهّم منه أنّ الإيمان الذي هو أصل التكاليف كلّها وينبوعها هو بهذه المثابة، وأنّه ذو مراتب: أوّلها، التّصديق القلبيّ الموافق للسان، وأعلاها 15 حصول كفيّة من ذلك الاعتقاد القلبيّ وما يتبعه من العمل، مُستولية على القلب، فتستتبّع الجوارح، وتدرج في طاعتها جميع التصرّفات، حتّى تنخرط الأفعال كلّها

(1) حديث حسن أخرجه أحمد في مسنده 3: 128، 199، 285، والنسائي في المجتبى 7: 61-62، والطبراني في المعجم الأوسط (5768)، وفي المعجم الصغير (741)، والحاكم في المستدرک 2: 160، والخطيب البغدادي في تاريخ مدينة السلام 14: 343 من حديث أنس بن مالك.

في طاعة ذلك التَّصديق الإيماني. وهذا أرفع مراتب الإيمان، وهو الإيمان الكامل الذي لا يقارِف المؤمنُ معه كبيرة ولا صغيرة، إذ حصول الملكة ورسوخها مانعٌ مع الانحراف عن مَنَاهِجها طَرَفَةٌ عَيْنٌ . قال ﷺ (1) : "لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وهو مُؤْمِنٌ" . وفي حديث هِرْقُل (2) ، لما سأل أبا سُفْيَانَ بْنَ حَزْبٍ عن النَّبِيِّ ﷺ وأحواله ، فقال في أصحابه: هل يَزْنِي أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخَطَةً لِدِينِهِ [بعد أن يَدْخَلَ فِيهِ] (1) ؟ 5 قال: لا. قال : وكذلك الإيمان حين تُخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ . وَمَعْنَاهُ أَنَّ مَلَكَةَ الْإِيمَانِ إِذَا اسْتَقَرَّتْ عَسَرَ عَلَى النَّفْسِ [مُخَالَفَتُهَا] (ب) ، شَأْنَ الْمَلَكَاتِ إِذَا اسْتَقَرَّتْ، فَإِنَّهَا تَحْصُلُ بِمَثَابَةِ الْجِبَلَةِ وَالْفِطْرَةِ . وهذه هي الرُّتْبَةُ الْعَالِيَةُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَهِيَ فِي الرُّتْبَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْعِصْمَةِ، لِأَنَّ الْعِصْمَةَ وَاجِبَةٌ لِلْأَنْبِيَاءِ وَجُوباً سَابِقاً، وَهَذِهِ حَاصِلَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ حُصُولاً تَابِعاً لِأَعْمَالِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ. 10

فبهذه الملكة ورسوخها يَقَعُ التَّفَاوُثُ فِي الْإِيمَانِ [الَّذِي] (ج) يُثَلَّى عَلَيْكَ / من أقاويل السَّلَف. وفي تراجم البخاري [رضي الله عنه] (د) في باب الإيمان (3) ، [313ب] كثيرٌ منه، مثل: أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ (4) ، وأنه يَزِيدُ وَيَنْقُصُ (5) ، وَأَنَّ الصَّلَاةَ وَالصَّيَامَ

(أ) من حاشية ع، وسقط من ط ج ي (ب) من ع، وفي ظ: مخالفتها (ج) كذا في ع، وفي ط ج ي: كالذي (د) من ي.

(1) في الصحيحين من حديث أبي هريرة: البخاري 3: 135، 178، 195-، 8: 204 حديث رقم (6810) ومسلم (57) .

(2) قطعة من حديث هرقل الطويل الذي أخرجه البخاري في صحيحه (7) ومسلم (1773) .

(3) هو أول كتاب في صحيح البخاري 1: 8 .

(4) المصدر نفسه : 1: 8 .

(5) المصدر نفسه 1: 17 .

من الإيمان⁽¹⁾، وَأَنَّ تَطَوُّعَ رَمَضَانَ من الإيمان⁽²⁾، والحياء من الإيمان⁽³⁾. والمراد بهذا كله الإيمان الكامل الذي أَشْرَنَّا إِلَيْهِ وإلى حُصُولِ مَلَكَتِهِ، وهو فِعْلِيٌّ. وَأَمَّا التَّصَدِيقُ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ مَرَاتِبِهِ، فَلَا تَفَاوُتَ فِيهِ. فَمَنْ اعتَبَرَ أَوَائِلَ الْأَسْمَاءِ، وَحَمَلَهُ عَلَى التَّصَدِيقِ، مَنَعَ مِنَ التَّفَاوُتِ، كَمَا قَالَ أَيْمَةُ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَمَنْ اعتَبَرَ أَوَاخِرَ الْأَسْمَاءِ وَحَمَلَهُ عَلَى هَذِهِ الْمَلَكَةِ الَّتِي هِيَ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ، ظَهَرَ لَهُ التَّفَاوُتُ. وَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِحٍ 5 فِي اتِّحَادِ حَقِيقَتِهِ الْأُولَى الَّتِي هِيَ التَّصَدِيقُ، إِذِ التَّصَدِيقُ موجودٌ فِي جَمِيعِ رُتَبِهِ، لِأَنَّهُ أَقْلٌ مَا يَنْتَظِقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْإِيمَانِ، وَهُوَ الْمُخْلَصُ مِنْ عَهْدَةِ الْكُفْرِ، وَالْفَيْصَلُ بَيْنَ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ. فَلَا يُجْزِئُ أَقْلٌ مِنْهُ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تَتَفَاوَتُ. وَإِنَّمَا التَّفَاوُتُ فِي الْحَالِ الْحَاصِلَةِ عَنِ الْأَعْمَالِ، كَمَا قُلْنَا؛ فَافْهَمْهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّارِعَ وَصَفَ لَنَا هَذَا الْإِيمَانَ الَّذِي فِي الرُّتَبَةِ الْأُولَى الَّذِي هُوَ 10 تَصَدِيقٌ، وَعَيَّنَ أُمُورًا مَخْصُوصَةً كُلَّفْنَا التَّصَدِيقَ بِهَا بِقُلُوبِنَا وَاعْتِقَادِهَا فِي أَنْفُسِنَا، مَعَ الْإِفْرَارِ بِهَا بِالْإِسْتِنَاءِ، وَهِيَ الْعَقَائِدُ الَّتِي تَقَرَّرُ فِي الدِّينِ. قَالَ ﷺ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ⁽⁴⁾: "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ". وَهَذِهِ الْعَقَائِدُ الْإِيمَانِيَّةُ الْمَقَرَّرَةُ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ.

(1) صحيح البخاري 1: 16 .

(2) المصدر نفسه .

(3) المصدر نفسه 1: 12 .

(4) أخرجه مسلم في الإيمان (10) من حديث ابن عمر (8) بهذا اللفظ، وأخرجه بمثله أيضاً (10) من حديث أبي هريرة، وأخرجه هو (9) والبخاري في صحيحه 1: 19 حديث (50) من حديث أبي هريرة أيضاً، وليس فيه: وتؤمن بالقدر خيره وشره .

ولنُشِرَ إليها مُجْمَلَةٌ لِيَتَبَيَّنَ لَكَ حَقِيقَةُ هَذَا الْفَنِّ وَكَيْفِيَّةُ حُدُوثِهِ، فنقول: اعْلَمْ
 أَنَّ الشَّارِعَ لَمَّا أَمَرْنَا بِالْإِيمَانِ بِهَذَا الْخَالِقِ، الَّذِي رَدَّ الْأَفْعَالَ كُلَّهَا إِلَيْهِ، وَافْرَدَهُ بِهَا، كَمَا
 قَدَّمْنَاهُ، وَعَرَّفْنَا أَنْ فِي هَذَا الْإِيمَانِ نَجَاتُنَا إِذَا حُضِرْنَا عِنْدَ الْمَوْتِ، لَمْ يُعَرَفْنَا بِكُنْهِ
 حَقِيقَةِ هَذَا الْخَالِقِ الْمَعْبُودِ، إِذْ ذَلِكَ مُتَعَذِّرٌ عَلَى إِذْرَاكَ / وَمِنْ فَوْقِ طَوْرُنَا. فَكَلَّفْنَا [314] 5
 أَوَّلًا اعْتِقَادَ تَثْنِيهِ فِي ذَاتِهِ عَنْ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقِينَ، وَإِلَّا لَمَّا صَحَّ أَنَّهُ خَالِقٌ لَهُمْ، لَعَدَمَ
 الْفَارِقِ عَلَى ذَلِكَ التَّقْدِيرِ. ثُمَّ تَثْنِيهِ عَنْ صِفَاتِ النَّقْصِ، وَإِلَّا لَشَابَهَةِ الْمَخْلُوقِينَ. ثُمَّ
 تَوْحِيدِهِ [بِالْأُلُوْهِيَّةِ] ⁽¹⁾، وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ الْخَلْقُ لِلتَّمَانُعِ. ثُمَّ اعْتِقَادَ أَنَّهُ عَالِمٌ قَادِرٌ، فَبِذَلِكَ تَمَّ
 الْأَفْعَالَ شَاهِدَ أَقْصِيَّتِهِ، لِكَمَالِ الْإِبْجَادِ وَالْخَلْقِ. وَمُرِيدٌ، وَإِلَّا لَمْ يَتَخَصَّصْ شَيْءٌ مِنَ
 الْمَخْلُوقَاتِ. وَمُقَدَّرٌ لِكُلِّ كَائِنٍ، وَإِلَّا فَالْإِرَادَةُ حَادِثَةٌ. وَأَنَّهُ يَعِيدُنَا بَعْدَ الْمَوْتِ، تَكْمِيلًا
 10 لِعِنَايَتِهِ بِالْإِبْجَادِ الْأَوَّلِ. وَلَوْ كَانَ لِلْفَنَاءِ الصَّرْفُ كَانَ عَبَثًا، فَهُوَ لِلْبَقَاءِ السَّرْمَدِيِّ بَعْدَ
 الْمَوْتِ. ثُمَّ اعْتِقَادَ بَعْثِهِ الرُّسُلَ لِلنَّجَاةِ مِنْ شَقَاءِ هَذَا الْمَعَادِ، لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِهِ بِالشَّقَاءِ
 وَالسَّعَادَةِ. وَعَدَمَ مَعْرِفَتِنَا بِذَلِكَ، وَتِمَامَ لُطْفِهِ بِنَا فِي الْإِنْبَاءِ بِذَلِكَ، وَبَيَانِ الطَّرِيقَيْنِ،
 وَأَنَّ الْجَنَّةَ لِلتَّعِيمِ، وَجَهَنَّمَ لِلْعَذَابِ. هَذِهِ ^(ب) أَمْهَاتُ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ، مُعَلَّلَةٌ بِأَدِلَّتِهَا
 الْعَقْلِيَّةِ. وَأَدِلَّتُهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرٌ.

15 وَعَنْ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ أَخَذَهَا السَّلَفُ، وَأَرْشَدَ إِلَيْهَا الْعُلَمَاءُ، وَحَقَّقَهَا الْأَيُّمَةُ. إِلَّا أَنَّهُ
 عَرَّضَ بَعْدَ ذَلِكَ خِلَافٌ فِي تَفَاصِيلِ هَذِهِ الْعَقَائِدِ، أَكْثَرُ مَثَارِهَا مِنَ الْآيِ الْمُتَشَابِهَةِ.
 فَدَعَا ذَلِكَ إِلَى الْخِصَامِ وَالتَّنَازُلِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِالْعَقْلِ، زِيَادَةً إِلَى التَّغْلُ. فَحَدَّثَ
 بِذَلِكَ عِلْمُ الْكَلَامِ. وَلِنُبَيِّنَ لَكَ تَفْصِيلَ هَذَا الْمُجْمَلِ.

(1) كَذَا فِي ع ج، وَفِي ظ ي: بِالْإِبْجَادِ (ب) فِي ع: فَهَذِهِ.

وذلك أَنَّ القرآنَ وردَ فيه وَصْفُ المَعْبُودِ بالتَّنْزِيهِ المَطْلَقِ الظَّاهِرِ الدَّلَالَةُ من غير تأويلٍ في آيٍ كثيرة. وهي سُلُوبٌ كُلُّها وصريحةٌ في بابها. فوجب الإيمانُ بها. ووقع في كلام الشَّارِعِ صلواتُ الله عليه وكلام الصَّحَابَةِ والتَّابِعِينَ تفسِيرُها على ظاهِرِها. ثم وردتْ في القرآنِ آيٌ أخرى قليلةٌ ، توهمُ التَّشْبِيهَ مَرَّةً في الذَّاتِ ، وأخرى في الصِّفَاتِ . فأما السَّلَفُ ، فغلبوا أدلةَ التَّنْزِيهِ لكثرتها / ووضوح دلائلها ، وعلموا 5 استحالةَ التَّشْبِيهِ، وَقَضَوْا بأنَّ الآياتِ من كلامِ الله ، فأمنوا بها ولم يَتَعَرَّضُوا لمعناها بِبَحْثٍ ولا تأويل. وهذا مَعْنَى قولِ الكثيرِ منهم: أمروها⁽¹⁾ كما جاءَتْ، أي: آمِنُوا بأنَّها من عند الله ، ولا تتعرَّضُوا لتأويلها ولا تغيِّرُها، لجوازِ أن تكونَ ابتلاءً. فيجب الوقفُ والإدعانُ له.

- 10 وشدَّ لعصرهم مبتدعةً اتَّبَعُوا ما تشابهَ من الآياتِ * وتَوَعَّلُوا في التَّشْبِيهِ⁽¹⁾ ،
ففرَّقوا شَبَّوها في الذَّاتِ باعْتِقادِ اليَدِ والقَدَمِ والوَجْهِ، عَمَلًا بظواهرِ وردتْ بذلك.
فوقعوا في التَّجْسِيمِ الصَّريحِ ومُخالفةِ آيِ التَّنْزِيهِ. لأنَّ معقوليَّةَ الجِسْمِ تُقْضِي التَّقْصُصَ
والاِفتِقَارَ. وتَغْلِيْبُ^(ب) آياتِ السُّلُوبِ في التَّنْزِيهِ المَطْلَقِ الَّتِي هي أَكْثَرُ مَواردَ
وأوضحُ دلالةٍ، أُولَى من^(ب) التَّعَلُّقِ بظواهرِ هذه الَّتِي لنا غُنيَّةٌ عنها^(ج) ، وَجَمْعُ بَيْنِ
الدَّلِيلَيْنِ بتأويلها. ثم يَفَرِّقُونَ من شناعةِ ذلك بقولهم: جِسْمٌ لا كالأجسامِ. وليس ذلك 15
بدافعٍ عنهم، لأنَّه قولٌ مُتَنَاقِضٌ ، وَجَمْعُ بَيْنِ نَقْيٍ وإثباتٍ ؛ إن كانا لمعقوليَّةٍ واحدةٍ من

(1) سقط ما بين النجمين من ع (ب) ما بين الباءين حاشية في ع بخطه (ج) سقط من ظ ي ج .

(1) استعملها سفيان بن عيينة في الأخبار عن الصفات (المزني: تهذيب الكمال 1: 514) والزهرى ومكحول (الذهبي: سير أعلام النبلاء 5: 162، 7: 247) ومالك والثوري والليث والأوزاعي (تذكرة الحفاظ 1: 304).

الجسم، وإن خالفًا بينها ونفياً المعقوليّة المتعارفة فقد وافقونا في التّزيه. ولم يبق إلاّ جعلهم لفظ الجسم اسماً من أسمائه، ويتوقّف مثله على الأذن. وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات، كإثبات الجهة والاستواء والنزول والصّوت والحزف، وأمثال ذلك. وآل قولهم إلى التجسيم، فزَعَوْا مثل الأولين إلى قولهم: صوت لا كالأصوات، جهة لا كالجهات، نزول لا كالنزول، يَغنون من الأجسام. واندفع ذلك بما دُفِعَ [به] ⁽¹⁾ الأول. ولم يبقَ في هذه الظواهر إلاّ اعتقادات السلف ومذاهبهم، والإيمان بها كما هي، لئلاّ يَكُرَّ التّقيُّ لمعانيها على نفْيها مع أنّها صحيحة ثابتة من القرآن. وإلى هذا ينظر ما تراه في عقيدة الرسالة لابن أبي زيد، وكتاب / المختصر [315] له، وفي كتب الحافظ ابن عبد البر، وغيرهم. فإنّهم يُحْمَوْنَ على هذا المعنى. ولا تُغْمِضُ عينك عن القرائن الدّالة على ذلك في عُضُونِ كلامهم.

ثمّ لما كَثُرَت العلوم والصنائع، وولّع الناس بالتدوين والبحث في سائر الأنحاء، وآلّف المتكلمون في التّزيه، حدثت بدعة المغتزلة في تَعْمِيمِ هذا التّزيه في آي السُّلوب. فقَضَوْا بنفْيِ صفات المعاني، من العلم والقُدرة والإرادة والحياة، زائدة على أحكامها، لما يلزَمُ عن ^(ب) ذلك من تعدّد القديم بزعمهم. وهو مردودٌ بأنّ الصّفات ليست نفس الذات ولا غيرها. وقَضَوْا بنفْيِ صفة الإرادة، فلزِمَهم نفْيُ القدر، لأنّ مَعْنَاهُ سَبْقُ الإرادة للكائنات. وقَضَوْا بنفْيِ السَّمْعِ والبصرِ لكونهما من عوارض الأجسام، وهو مردودٌ بأنّ الصّفات ليست نفس الذات ولا غيرها.

(1) من ع وحدها (ب) ع: على .

بَنَى صِفَةَ الْإِرَادَةِ، فَلَزِمَهُمْ نَفْيُ الْقَدَرِ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ سَبَقُ الْإِرَادَةِ لِلْكَائِنَاتِ. وَقَضَوْا
بَنَى السَّمْعَ وَالْبَصَرَ لَكُونَهُمَا مِنْ عَوَارِضِ الْأَجْسَامِ، وَهُوَ مُرَدُّوْدٌ لِعَدَمِ اشْتِرَاطِ الْبَيِّنَةِ
فِي مَذْلُولِ هَذَا اللَّفْظِ، وَإِنَّمَا هُوَ إِدْرَاكٌ لِلْمَسْمُوعِ أَوْ الْمُبْصَرِ. وَقَضَوْا بَنَى الْكَلَامَ
لشِبْهِهِ مَا فِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَلَمْ يَعْقِلُوا صِفَةَ الْكَلَامِ الَّتِي تَقُومُ بِالنَّفْسِ، فَقَضَوْا بِأَنَّ
5 الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ؛ بِدَعَا صَرَّحَ السَّلَفُ بِخِلَافِهَا. وَعَظُمَ ضَرَرُ هَذِهِ الْبِدْعَةِ، وَلَقَبَهَا بَعْضُ
الْخُلَفَاءِ عَنْ بَعْضِ أَيْمَتِهِمْ، فَحُمِلَ عَلَيْهَا النَّاسُ، وَخَالَفَهُمْ أَيْمَةُ الدِّينِ ⁽¹⁾، فَاسْتَبَاحَ
بِخِلَافِهِمْ أَنْبَاءَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ وَدُمَاءَهُمْ. وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لَانْتِهَاضِ أَهْلِ السُّنَّةِ بِالْأَدِلَّةِ
العَقْلِيَّةِ عَلَى هَذِهِ الْعَقَائِدِ دَفْعًا فِي صُدُورِ هَذِهِ الْبِدْعِ. وَقَامَ بِذَلِكَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ
الْأَشْعَرِيُّ، إِمَامُ الْمُتَكَلِّمِينَ، فَتَوَسَّطَ بَيْنَ الطَّرِيقِ، وَنَفَى التَّشْبِيهَ، وَأَثَبَتِ الصِّفَاتِ
10 الْمَعْنَوِيَّةَ، وَقَصَرَ التَّنْزِيهَ عَلَى مَا قَصَرَهُ عَلَيْهِ السَّلَفُ. وَشَهِدَتْ لَهُ الْأَدِلَّةُ الْمُخَصَّصَةُ
لِعُمُومِهِ، فَأَثَبَتِ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعُ الْمَعْنَوِيَّةَ، وَالسَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْكَلامَ الْقَائِمَ بِالنَّفْسِ،
بِطَرِيقِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ. وَرَدَّ عَلَى الْمُبْتَدِعَةِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ. وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ فِيمَا مَهَّدُوهُ لِهَذِهِ
الْبِدْعِ مِنَ الْقَوْلِ بِالصَّلَاحِ وَالْأَصْلَحِ، وَالتَّحْسِينِ وَالتَّشْبِيحِ. وَكَمَّلَ الْعَقَائِدَ فِي الْبُعْثَةِ،
وَأَحْوَالِ / الْمَعَادِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالثَّوَابِ، وَالْعِقَابِ. وَالْحَقُّ بِذَلِكَ الْكَلَامَ
[315ب] فِي الْإِمَامَةِ، لَمَا ظَهَرَ حِينَئِذٍ مِنْ بِدْعَةِ الْإِمَامِيَّةِ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّهَا مِنْ عَقَائِدِ الْإِيمَانِ،
15 وَإِنَّهَا يَجِبُ عَلَى النَّبِيِّ تَعْيِينُهَا وَالْخُرُوجُ عَنْ الْعَهْدَةِ فِيهَا لِمَنْ هِيَ لَهُ، وَكَذَلِكَ عَلَى
الْأُمَّةِ.

(1) ي: السلف .

وَقُصَارَى أَمْرِ الْإِمَامَةِ أَنَّهَا قَضِيَّةٌ مَصْلَحِيَّةٌ إِجْمَاعِيَّةٌ، وَلَا تَلْحَقُ بِالْعَقَائِدِ؛ فَلِذَلِكَ
أَلْحَقُوهَا بِمَسَائِلِ هَذَا الْقَرْنِ.

وَسَمَّوْا مَجْمُوعَهُ عِلْمَ الْكَلَامِ، إِمَّا لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَنَاطِرَةِ عَلَى الْبِدْعِ، وَهِيَ كَلَامٌ
صِرْفٌ، وَلَيْسَتْ بِرَاجِعَةٍ إِلَى عَمَلٍ. وَإِمَّا لِأَنَّ سَبَبَ وَضْعِهِ وَالْحَوْضَ فِيهِ هُوَ تَنَازُعُهُمْ
5 فِي إِثْبَاتِ الْكَلَامِ النَّفْسَانِيِّ.

وَكَثُرَ أَتْبَاعُ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ، وَاقْتَنَى طَرِيقَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ تَلْمِيزُهُ،
كَابْنِ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ. وَأَخَذَ عَنْهُمْ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ، فَتَصَدَّرَ لِلْإِمَامَةِ فِي
طَرِيقَتِهِمْ، وَهَذَّبَهَا وَوَضَعَ الْمَقْدِمَاتِ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا الْأَدِلَّةُ وَالْأَنْظَارُ فِي
ذَلِكَ، مِثْلَ إِثْبَاتِ الْجَوْهَرِ الْقَرْدِ، وَالْحَلَاءِ، وَأَنَّ الْقَرَضَ لَا يَقُومُ بِالْعَرَضِ، وَأَنَّهُ لَا
يَبْقَى زَمَنَيْنِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ أُدِلَّتُهُمْ. وَجَعَلَ هَذِهِ الْقَوَاعِدَ تَبَعاً لِلْعَقَائِدِ
10 الْإِيمَانِيَّةِ فِي وُجُوبِ اعْتِقَادِهَا لِتَتَوَقَّفَ تِلْكَ الْأَدِلَّةُ عَلَيْهَا، وَأَنَّ بُطْلَانَ الدَّلِيلِ يُؤْذَنُ
بِبُطْلَانِ الْمَذْلُولِ. فَكَمُلَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ، وَجَاءَتْ مِنْ أَحْسَنِ الْفُنُونِ النَّظَرِيَّةِ وَالْعُلُومِ
الدِّيْنِيَّةِ. إِلَّا أَنَّ صَوْرَ الْأَدِلَّةِ فِيهَا بَعْضُ الْأَخْيَانِ عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الصَّنَاعِيِّ، لِسَدَاجَةِ
الْقَوْمِ، وَلِأَنَّ صِنَاعَةَ الْمَنْطِقِ الَّتِي تُسَبِّرُ بِهَا الْأَدِلَّةَ وَتُعْتَبِرُ بِهَا الْأَقْسِئَةُ، لَمْ تَكُنْ حِينَئِذٍ
15 ظَاهِرَةً فِي الْمِلَّةِ. وَلَوْ ظَهَرَ مِنْهَا بَعْضُ الشَّيْءِ فَلَمْ⁽¹⁾ يَأْخُذْ بِهَا الْمُتَكَلِّمُونَ، لِمَلَابَسَتِهَا
لِلْعُلُومِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْمُبَايِنَةِ لِعَقَائِدِ الشَّرْعِ بِالْجُمْلَةِ. فَكَانَتْ عَنْدهُمْ مَهْجُورَةً لِذَلِكَ. ثُمَّ جَاءَ
بَعْدَ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ مِنْ أَيْمَةِ الْأَشْعَرِيَّةِ، إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ أَبُو الْمَعَالِي، وَأَمَلَى فِي الطَّرِيقَةِ

(1) ع: لم .

- [1316] إماماً لعقائدهم. ثم انتشر من بعد ذلك علم المنطق / في الملة، وقرأه الناس، وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية بأنه قانون ومعيّار للأدلة فقط، تُسبر به الأدلة منها كما تُسبر من سواها. ثم نظروا في تلك القواعد المقدمات في فن الكلام للأقدمين، فخالفوا الكثير منها بالبراهين التي أدّتهم إلى ذلك. وربما أن كثيراً منها مُقتبس من 5 كلام الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات. فلما سبروها بمعيّار المنطق ردّهم إلى ذلك فيها، ولم يعتقدوا بطلان المدلول من بطلان دليله، كما صار إليه القاضي. فصارت هذه الطريقة في مُصطلحهم مباينة للطريقة الأولى، وتُسمى طريقة المتأخرين. وربما أدخلوا فيها الردّ على الفلاسفة فيما يُخالفون فيه من العقائد الإيمانية، وجعلوهم من خصوم العقائد، لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم. 10
- وأول من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالي [رحمه الله] (ب) وتبعه الإمام ابن الخطيب، وجماعة قفّوا أثرهم واعتمدوا تقليدهم. ثم توغل المتأخرون من بعدهم في مُخالطة كتب الفلسفة، والتبس عليهم شأن الموضوع في العلمين، فحسبوه فيها واحداً من اشتباه المسائل فيها.
- 15 واعلم أن المتكلمين لما كانوا يستدلّون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته، وهو نوع استدلالهم غالباً، والجسم الطبيعي الذي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات هو بعض من هذه الكائنات. إلا أن نظره فيها مخالف
- (أ) ع: وسع (ب) من ي .

لنَظَرِ المتكَلِّم، هو يَنْظُرُ في الجِسم من حيثُ يتحرَّكُ وَيَسْكُنُ، والمتكَلِّمُ ينظرُ فيه من حيثُ يدلُّ على الفاعِل. وكذا نظرُ الفيلسوفِ في الإلهيات، إنّما هو نظرٌ في الوجودِ المطلقِ وما يقتضيه لذاته، ونظرُ المتكَلِّمِ في الموجودِ من حيثُ يدلُّ على الموجدِ.

5 وبالجملة، فموضوعُ علمِ الكلامِ عندَ أهلِهِ إنّما هو العقائدُ الإيمانيّةُ بعد / فَرَضِهَا [316ب] صحيحةً من الشرعِ، من حيثُ يمكنُ أن يُستدلَّ عليها بالأدلةَ العقليةَ، فتُدْفَعُ البدعُ وتُرَالُ الشُّكوكُ والشُّبُهَةُ عن تلكِ العقائدِ.

10 وإذا تأملتَ حالَ الفنِّ في حدوثه وكيف تدرّجُ كلامُ الناسِ فيه صُدراً بعد صذر، وكلُّهم يقرُّصُ العقائدَ صحيحةً ويستنهضُ الحججَ والأدلةَ، علمتَ حينئذٍ صحّةَ ما قررناه لك في موضوعِ الفنِّ، وأنّه لا يَعدوهُ. ولقد اختلّطتِ الطريقتانِ عند هؤلاء المتأخّرينَ، والتبسَتْ مسائلُ الكلامِ بمسائلِ الفِلسَفَةِ، بحيثُ لا يُمَيِّزُ أَحَدُ الفَنَيْنِ من الآخرِ، ولا يَحْصُلُ طائِبٌ عليه من كُتُبِهِمْ، كما فعله التَّبِضَاوِيُّ في الطّوَالِغِ، ومن جاءَ بَعْدَهُ من عُلَمَاءِ العَجَمِ في جَمِيعِ تَوَالِيْفِهِمْ.

15 إلّا أنّ هذه الطّريقةَ قد يُعْنَى بها بعضُ طَلَبَةِ العِلْمِ، للاطّلاعِ على المذاهبِ والإغراقِ في مَعْرِفَةِ الحِجَاجِ لوفور ذلكِ فيها . وأمّا محاذاةُ طَريقَةِ السَّلَفِ بعقائدِ علمِ الكلامِ، فإنّما هُوَ⁽¹⁾ في الطّريقةِ القَدِيمَةِ للمتكلِّمينَ، وأصلُها كتابُ الإرشادِ وما حذا

(1) ع: هي .

حَذْوَهُ. ومن أراد إدخال الردّ على الفلاسفة في عقائده، فعليه بكتب الغزالي والإمام ابن الخطيب، فإنّها وإن وَقَّعَ فيها مُخَالَفَةً للاضطلاح القديم، فليس فيها من الاختلاط في المسائل والالتباس في الموضوع ما في طريقة هؤلاء المتأخّرين من بعدهم.

- وعلى الجملة، فينبغي أن تعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير 5
 ضروري لهذا العهد على طالب العلم، إذ الملحّة والمبتدعة قد انقراضوا، والأئمة من
 أهل السنّة كفّونا شأنهم فيما دَوَّنُوا وكتبوا. والأدلة العقلية، إنّما احتيج إليها لما دافعوا
 ونصروا. وأمّا الآن، فلم يبق منها إلّا كلام يترّهُ البارئ عن الكثير من إيهاماته
 وإطلاقاته. ولقد سأل الجنيد عن قوم مرّ بهم من المتكلمين يفيضون فيه، فقال: ما
 هؤلاء ؟ فقل: قوم يترّهون / الله بالأدلة عن صفات الحدوث وسمات النقص. 10
 فقال⁽¹⁾: نفى الغيب حيث يستحيل الغيب غيب. لكن فائدته في آحاد الناس
 وطلبة العلم فائدة معتبرة، إذ لا يحسنُ بجامل السنّة الجهل بالحجّاج النظرية على
 عقائدها. ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية 68].

(1) نقل المقرئ من كتاب المحاضرات لجده، قوله: قيل لصوفي: لم تقول الله الله، ولا تقول: لا إله إلا الله؟
 فقال: نفى الغيب حيث يستحيل الغيب غيب (نفع الطيب 5: 385).

16 ﴿ فَصْلٌ ⁽¹⁾ ، فِي كَشْفِ الْغَطَاءِ عَنِ الْمُتَشَابِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ،
وَمَا حَدَّثَ لِأَجْلِ ذَلِكَ مِنْ طَوَائِفِ السُّنَّةِ وَالْمُبْتَدِعَةِ فِي الْأَعْتِقَادَاتِ

اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ إِلَيْنَا نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ ، يَدْعُونَا إِلَى النَّجَاةِ وَالْفَوْزِ
بِالنَّعِيمِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْكَرِيمَ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ ، يُخَاطِبُنَا فِيهِ بِالتَّكْلِيفِ
5 الْمُفْصِيَّةِ بِنَا إِلَى ذَلِكَ . وَكَانَ فِي خِلَالِ هَذَا الْخِطَابِ وَمِنْ ضَرُورَاتِهِ ذِكْرُ صِفَاتِهِ
سُبْحَانَهُ وَأَسْمَائِهِ لِيَعْرِفُنَا بِذَاتِهِ ، وَذِكْرُ الرُّوحِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِنَا ، وَذِكْرُ الْوَحْيِ وَالْمَلَائِكَةِ
الْوَسَائِطِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رُسُلِهِ إِلَيْنَا ، وَذِكْرُ لَنَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَإِنْذَارَاتِهِ ، وَلَمْ يُعَيِّنْ لَنَا الْوَقْتَ
فِي شَيْءٍ مِنْهَا . وَثَبَّتَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حُرُوفٌ مِنَ الْهَجَاءِ مُقَطَّعَةٌ فِي أَوَّلِ بَقْضِ
سُورِهِ لَا سَبِيلَ لَنَا إِلَى فَهْمِ الْمَرَادِ بِهَا . وَسَمَّيْ هَذِهِ الْأَنْوَاعَ كُلَّهَا مِنَ الْكِتَابِ مُتَشَابِهَةً وَذَمَّ
10 عَلَى اتِّبَاعِهَا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ
الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ
الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ . وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا
بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة آل عمران، الآية 7] . وَحَمَلَ
الْعُلَمَاءُ مِنْ سَلَفِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى أَنَّ الْمَحْكَمَاتِ هِيَ الْمَبِينَاتُ الثَّابِتَةُ
15 الْأَحْكَامِ . وَلِذَلِكَ قَالَ الْفُقَهَاءُ فِي اصْطِلَاحِهِمُ الْمُحْكَمُ ، الْمُتَضَحُّ الْمَعْنَى ⁽¹⁾ . وَأَمَّا
الْمُتَشَابِهَاتُ فَلَهُمْ فِيهَا عِبَارَاتٌ ، فَقِيلَ : هِيَ الَّتِي تَفْتَقِرُ إِلَى نَظَرٍ وَتَفْسِيرٍ يُصَحِّحُ مَعْنَاهَا

(1) هذا الفصل اشتردت به نسخة ع ، ولم يرد في ط ج ي .

(1) لعله نقله من المحرر الوجيز 1: 43 ، وهو في تفسير البغوي 1: 279 ، وتفسير القرطبي 4: 11 .

لتعارضها مع آية أخرى أو مع العقل، فتخفى دلائلها وتشبهه. وعلى هذا قال ابن عباس⁽¹⁾: المتشابه يؤمن به ولا يعمل به. وقال مجاهد وعكرمة: كل ما سوى آيات الأحكام والقصاص متشابه. وعليه القاضي أبو بكر، وإمام الحرمين⁽²⁾. وقال الثوري والشعبي وجماعة من علماء السلف: المتشابه ما لم يكن سبيلاً إلى علمه، كشروط الساعة، وأوقات الإنذارات، وحروف الهجاء في أوائل السور⁽³⁾. وقوله في الآية: 5 ﴿ هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ ﴾ أي: معظمه وغالبه، والمتشابه أقله، وقد يرد إلى المحكم. ثم ذم المتبعين للمتشابه بالتأويل، أو بحملها على معانٍ لا تفهم منها في لسان العرب الذي خوطبنا به، وسمّاهم أهل زيغ، أي ميل عن الحق من الكفار والزنادقة وجملة أهل البدع، وأن فعلهم ذلك قصداً للفتنه التي هي الشرك أو اللبس على المؤمنين، أو قصداً لتأويلها بما يشبهونه، فيفتنون⁽⁴⁾ به في بدعتهم. ثم أخبر سبحانه بأنه استأثر 10 بتأويلها ولا يعلمه إلا هو، فقال: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾. ثم أتى على العلماء بالإيمان بها فقط، فقال: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَمَّا بِهِ ﴾ ولهذا جعل السلف ﴿ وَالرَّاسِخُونَ ﴾ مستأنفاً، ورجحوه على العطف، لأن الإيمان بالغيب أبلغ في الثناء، ومع عطفه إنما يكون إيماناً بالشاهد، لأنهم يعلمون التأويل حينئذ فلا

(1) وردت في ع محلة غير مقروءة .

(1) تفسير ابن حاتم 2: 593، وتفسير الطبري 3: 172، والدر المنثور للسيوطي 2: 144 .

(2) المحرر الوجيز 1: 400، وتفسير الثعلبي 3: 10، الدر المنثور 2: 145 .

(3) نقله من المحرر الوجيز 1: 401 لأنه لم يذكر الأسماء غيره. وهو في تفسير الطبري 3: 174، وتفسير البغوي

1: 279، وأحكام القرآن للجصاص 2: 283 .

يَكُونُ غَيْبًا . وَيَقْصُدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ كُلُّ مَنٍ عِنْدَ رَبِّنَا ﴾ . ويدلّ على أنّ التّأويلَ فيها غيرُ معلومٍ للبشر، إذ الألفاظُ اللَّغويَّةُ إِنَّمَا يُفْهَمُ منها المعاني التي وَضَعَهَا العربُ لها، فإذا استحالَ إسنادُ الخبرِ إلى مُخْبِرٍ عنه جَهِلْنَا مدلولَ الكلام حينئذٍ. وإن جَاءَنَا من عند الله فَوَضَعْنَا عِلْمَهُ إِلَيْهِ، ولا نَشْغَلُ أَنْفُسَنَا بِمَدْلُولِ نَلْتَمِسُهُ لَهُ ؛ فلا سبيلَ لنا إلى ذلك . وقد قالت عائِثَةُ رضيَ اللهُ عنها : إذا رأيْتُمُ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ 5 في القرآن ، فهم الَّذِينَ عَنِ اللهِ ، فاحذَرُوهُمْ⁽¹⁾ . هذا مذهبُ السَّلَفِ في الآياتِ المُتَشَابِهَةِ. وجاءَ في السُّنَّةِ أَلْفَاظٌ مِثْلُ ذَلِكَ، مَحْمُلُهَا⁽²⁾ عندهم محلُّ الآياتِ، لأنَّ المنبَعِ واحدٌ.

وإذا تَقَرَّرَتِ أصنافُ المُتَشَابِهَاتِ على ما قُلْنَا، فلنَرْجِعْ إلى اختلافِ النَّاسِ 10 فيها . وأمَّا ما يرجعُ منها على ما ذَكَرُوهُ إلى السَّاعَةِ وأَشْرَاطِهَا وَأَوْقَاتِ الإِنذَارَاتِ ، وعددِ الزَّبَانِيَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ، فَلَيْسَ هَذَا، واللهُ أَعْلَمُ، من المُتَشَابِهِ؛ لأنَّهُ لم يَرِدْ فيه لفظٌ مُحتمَلٌ ولا غَيْرُهُ، وَإِنَّمَا هِيَ أَزْمَنَةُ لِحَادِثَاتِ اسْتَأْثَرِ اللهُ بِعِلْمِهَا بَنَصِّهِ في كِتَابِهِ وعلى لِسَانِ نَبِيِّهِ⁽²⁾، وقال: ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [سورة الأعراف، من الآية 187]. والعَجَبُ مِمَّنْ عَدَّهَا في المُتَشَابِهَةِ. وأمَّا الحُرُوفُ المَقْطُوعَةُ أَوَّلَ السُّورِ فَحَقِيقَتُهَا حُرُوفُ 15 الهِجَاءِ ، وَلَيْسَ بِبَعِيدٍ أَنْ تَكُونَ مُرَادَةً . وقد قال الزَّمَخْشَرِيُّ⁽³⁾ : فيها إشارَةٌ إلى بُعْدِ

(1) ع: مجملها .

(1) هو في الصحيحين : البخاري (4547) ومسلم (1665) .

(2) ينظر مثلاً، البخاري 1: 20 حديث (50)، ومسلم (10) و (14) .

(3) الكشف 1: 69 - .

الغاية في الإعجاز، لأنَّ القرآنَ المنزلَ مؤلَّفٌ منها، والبشرُ فيها سواءٌ، والتفاوتُ موجودٌ في دلائلها بعدَ التَّأليفِ. وإنَّ عدلَ عن هذا الوجهِ الذي تَضَمَّنَ الدَّلالةَ على الحقيقة، فإنَّما يكونُ بِنَقْلِ صحيح، كقولهم في ﴿طه﴾: إِنَّهُ يَدَاءُ مِنْ طَاهِرٍ وَهَادِي، وأمثال ذلك، والنقلُ الصَّحِيحُ مُتَعَدِّرٌ، فيجوزُ التَّشابهُ من هذا الوجهِ. وأما الوحيُ والملائكةُ والروحُ والجنُّ فاشتباهُها من خفاء دلائلها الحقيقية، لأنَّها غيرُ مُتعارفة، 5 فجاء التَّشابهُ فيها من أجل ذلك. وقد أُلْحَقَ بعضُ النَّاسِ بها كلُّ ما في مَعْنَاهَا من أحوال القيامةِ والجنةِ والنَّارِ والدَّجَالِ والفتنِ والشُّروطِ، وما هو بِمُخْلَافِ العَوَائِدِ المألوفةِ؛ وهو غيرُ بعيدٍ؛ إلَّا أنَّ الجمهورَ لا يوافقونهم عليه، وسيِّمًا المتكلمونَ، فقد عَيَّنوا محامِلَها على ما تَرَاهُ في كُتُبِهِمْ. ولم يَبْقَ من المتشابهِ إلَّا بالصفاتِ التي وصفَ الله بها نَفْسَهُ في كتابِهِ وعلى لسانِ نَبِيِّهِ مِمَّا يُوهِمُ ظاهِرُهُ نَفْصاً أو تَعَجِيزاً. وقد 10 اختلفَ النَّاسُ في هذه الظواهرِ من بَعْدِ السَّلَفِ الَّذِينَ قَرَّرْنَا مَذْهَبَهُمْ، وتنازَعُوا وَتَطَرَّقَ الْبِدْعُ إِلَى الْعَقَائِدِ. فَلُنْشِرَ إِلَى بَيَانِ مَذْهَبِهِمْ وَإِثَارِ الصَّحِيحِ مِنْهَا عَلَى الْفَاسِدِ، فنقول، وما توفيقِي إلَّا بالله:

اعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَصَفَ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ بِأَنَّهُ عَالِمٌ قَادِرٌ مَرِيدٌ حَيٌّ سَمِيعٌ بَصِيرٌ مُتَكَلِّمٌ جَلِيلٌ كَرِيمٌ جَوَادٌّ مُنْعِمٌ عَزِيزٌ عَظِيمٌ؛ وَكَذَلِكَ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ الْيَدَيْنِ 15 وَالْعَيْنَيْنِ وَالْوَجْهَ وَالْقَدَمَ وَالسَّاقَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ. فَمِنْهَا مَا يَقْتَضِي ⁽¹⁾ صَحَّةَ الْأُلُوْهِيَّةِ مِثْلَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ ثُمَّ الْحَيَاةِ الَّتِي هِيَ شَرْطُ جَمِيعِهَا. وَمِنْهَا مَا هِيَ

(1) فِي ع: يَقْضِي.

صِفَةُ الْكَمَالِ كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ. وَمِنْهَا مَا يُوهِمُ النِّقْصَ كَالِاسْتِثْوَاءِ وَالتَّزْوِيلِ
وَالْمَجِيءِ، وَكَالْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ وَالْعَيْنَيْنِ الَّتِي هِيَ صِفَاتُ الْمُحْدَثَاتِ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَا نَرَى
رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا نُضَامُ فِي رُؤْيَيْهِ.

فَأَمَّا السَّلَفُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، فَأَثْبَتُوا لَهُ صِفَاتِ الْأُلُوْهِيَّةِ وَالْكَمَالِ
5 وَفَوَّضُوا إِلَيْهِ مَا يُوهِمُ النِّقْصَ سَاكِنِينَ عَنْ مَذْلُومِهِ. ثُمَّ اخْتَلَفَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِمْ،
وَجَاءَ الْمُعْتَزَلَةُ فَأَثْبَتُوا هَذِهِ الصِّفَاتِ أَحْكَاماً ذِهْنِيَّةً مُجَرَّدَةً، وَلَمْ يُثْبِتُوا صِفَةً تَقُومُ لِدَاثِهِ،
وَسَمَّوْا ذَلِكَ تَوْحِيداً. وَجَعَلُوا الْإِنْسَانَ خَالِقاً لِأَفْعَالِهِ وَلَا تَتَعَلَّقُ بِهَا قُدْرَةُ اللَّهِ، سَبِيحاً
الشَّرُّورِ وَالْمَعَاصِي مِنْهَا، إِذْ يَمْتَنِعُ عَلَى الْحَكِيمِ فِعْلُهَا. وَجَعَلُوا مِرَاعَاةَ الْأَصْلَحِ لِلْعِبَادِ
وَاجِبَةً عَلَيْهِ، وَسَمَّوْا ذَلِكَ عَدَلاً، بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَوَّلَ يَقُولُونَ بِنُفْيِ الْقَدَرِ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ
10 مُسْتَأْتَفٌ بِعِلْمِ حَادِثٍ وَقُدْرَةِ وَإِرَادَةِ كَذَلِكَ كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ⁽¹⁾، وَأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ
عُمَرَ تَبَرَّأَ مِنْ مَقْبَدِ الْجَهَنِّيِّ وَأَصْحَابِهِ الْقَائِلِينَ بِذَلِكَ. وَانْتَهَى نَفْيُ الْقَدَرِ إِلَى وَاصِلِ بْنِ
عَطَاءٍ الْغَزَالِ مِنْهُمْ تَلْمِيزِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ لِعَهْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، ثُمَّ آخِراً إِلَى مَعْمَرِ
السُّلَمِيِّ، وَرَجَعُوا عَنِ الْقَوْلِ بِهِ. وَكَانَ مِنْهُمْ أَبُو الْهَذِيلِ الْعَلَّافُ، وَهُوَ شَيْخُ الْمُعْتَزَلَةِ،
أَخَذَ الطَّرِيقَةَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ خَالِدِ الطَّوِيلِ عَنْ وَاصِلٍ، وَكَانَ مِنْ نُفَاةِ الْقَدَرِ، وَاتَّبَعَ رَأْيَ
15 الْفَلَّاسِفَةِ فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ الْوُجُودِيَّةِ لظُهُورِ مَذَاهِبِهِمْ يَوْمئِذٍ. ثُمَّ جَاءَ إِبْرَاهِيمُ النَّظَّامُ
وَقَالَ بِالْقَدَرِ وَاتَّبَعُوهُ، وَطَالَعَ كَتَبَ الْفَلَّاسِفَةِ وَشَدَّدَ فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ، وَقَرَّرَ قَوَاعِدَ
الْإِعْتِزَالِ. ثُمَّ جَاءَ الْجَا حِظُّ وَالْكَفِيُّ وَالْجُبَّائِيَّةُ. وَكَانَتْ طَرِيقَتُهُمْ تُسَمَّى عِلْمَ الْكَلَامِ، إِمَّا

(1) قطعة من حديث أخرجه مسلم (1) والترمذي (2610) وأبو داود (4695) و (4696) و (4697).

لما فيها من الججاج والجِدال، وهو الَّذي يُسمَّى كلاماً؛ وإِما لأنَّ أصلَ طريقَتهم نُقي صِفة الكلام. فلِهذا كان الشَّافِعِيُّ يَقولُ⁽¹⁾: حَقُّهم أَن يُضْرَبوا بِالْجَرِيدِ وَيُطَافَ بِهِمْ. وَقَرَّرَ هَؤُلاءِ طريقَتهم، وتَتَابَعَ ذلكَ في أَتْباعِهِمْ وَأَثْبَتُوا مِنْهَا وَرَدُّوا. إلى أَن ظَهَرَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ، وناظَرَ بَعْضَ مَشِيخَتِهِمْ في مَسائِلِ الصَّلَاحِ والأُصْلَحِ، فَرَفَضَ طريقَتهم، وكانَ على رَأْيِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كُلَّابٍ، وأَبِي الْعَبَّاسِ الْقَلَانِسِيِّ، 5 والحَارِثِ بْنِ أَسَدِ الْمُحَاسِبِيِّ، من أَتْباعِ السَّلَفِ وعلى طَريقَةِ السُّنَّةِ، فَأَيَّدَ مَقالاتِهِم بِالْحُجَجِ الْكَلَامِيَّةِ، وَأَثْبَتَ الصِّفَاتِ الْقَائِمَةَ بِذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْحَيَاةِ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ دَلِيلُ التَّمَانُعِ وَتَصَحُّحُ الْمَعْجَزَاتِ لِلْأَنْبِيَاءِ. وكانَ من مَذْهَبِهِمْ إِثْبَاتُ الْكَلَامِ وَالسَّمْعِ وَالبَصَرِ، لِأَنَّهَا وَإِنْ أَوْهَمَ ظَاهِرُهَا التَّقْصُّ بِالصَّوْتِ وَالْحَرْفِ الْجَسْمَانِيَيْنِ، فَقَدْ وُجِدَ لِلْكَلامِ عِنْدَ الْعَرَبِ مَدْلُولٌ آخَرُ غَيْرُ الْحَرْفِ وَالصَّوْتِ، وهو ما يَدورُ في 10 الْخَلْدِ، وَالْكَلامُ حَقِيقَةٌ فِيهِ دُونَ الْأَوَّلِ. فَأَثْبَتُوهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وانْتَهَى إِيهامُ التَّقْصُّ، وَأَثْبَتُوا هَذِهِ الصِّفَةَ قَدِيمَةً عَامَّةً التَّعَلُّقِ، شَأْنِ الصِّفَاتِ الْأُخْرَى، وصارَ الْقُرْآنُ اسماً مُشْتَرَكاً بَيْنَ الْقَدِيمِ الْقَائِمِ بِذَاتِ اللَّهِ، وهو الْكَلَامُ التَّقْسِيُّ، وَالْمَحْدَثُ الَّذِي هُوَ الْحُرُوفُ الْمُؤَلَّفَةُ الْمَقْرُوءَةُ بِالأَصْوَاتِ. فَإِذَا قِيلَ: قَدِيمٌ، فَلِإِشْرَافِ الْأَوَّلِ، وَإِذَا قِيلَ: مَقْرُوءٌ مَسْمُوعٌ فَلِدَلَالَةِ الْقِرَاءَةِ وَالكِتَابَةِ عَلَيْهِ. وَتَوَرَّعَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ إِطْلَاقِ لَفْظِ الْحُدُوثِ عَلَيْهِ؛ 15 لِأَنَّهُ لَمْ يُسْمَعْ مِنَ السَّلَفِ قَبْلَهُ [أَنَّهُ]⁽¹⁾ يَقولُ: إِنَّ الْمَصاحِفَ الْمَكْتُوبَةَ قَدِيمَةً، وَلَا أَنَّ

(1) قراءة تقريبية من حاشية ع .

(1) أبو نعيم: حلية الأولياء 9: 116، وشرف أصحاب الحديث: للخطيب البغدادي 78، والغزالي: إحياء علوم الدين 1: 95، وسير أعلام النبلاء 10: 29 .

القراءة الجارية على الألسنة قديمة، وهو يشاهدها مُحدثة. وإنما منعه من ذلك الورع
 الذي كان عليه. وأما غير ذلك فإنكاراً للضروريات، وحاشاه منه. وأما السمع
 والبصر، وإن كان يوهّم إدراك الجارحة، فهو يدلُّ أيضاً لغةً على إدراك المسموع
 والمُبصر، وينتفي إيهامُ النَّقْصِ حينئذٍ، لأنه حقيقةٌ لغويةٌ فيها. وأما لفظُ الاستواءِ،
 5 والمحيء، والتزول، والوجه، واليدين، والغينين، وأمثال ذلك، فعَدَلُوا عن حقائقها
 اللغوية لما فيها من إيهام النَّقْصِ بالتشبيه إلى مجازاتها على طريقة العرب، حيث
 تتعذر حقائق الألفاظ، فيرجعون إلى المجاز، كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾
 [سورة الكهف، من الآية 77] وأمثاله طريقةٌ معروفةٌ لهم غيرُ مُنْكَرَةٍ ولا مُبْتَدَعَةٍ. وحملهم
 على هذا التأويل، وإن كان مخالفاً لمذهب السلف في التفويض، أن جماعةً من
 10 من أتباع السلف وهم المُحَدِّثُونَ والمتأخرون من الحنابلة ارتَبَكُوا في مَحْمَلِ هذه
 الصفات، فحملوها على صفاتٍ ثابتةٍ لله تعالى مجهولةٍ الكيفية، فيقولون في
 ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [سورة الأعراف، من الآية 54]: نُثِبَتْ لَهُ استواءٌ بحسبِ مَذَلُولِ
 اللفظ، فراراً من تعطيله؛ ولا نقول بكيفيته فراراً من القول بالتشبيه الذي تنفيه
 آياتُ السُّلُوبِ، من قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى، من الآية 11]،
 15 ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية 91]؛ تعالى الله عما يقول
 الظالمون؛ ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [سورة الإخلاص، الآية 3]. ولا يعلمون مع
 ذلك أنهم ولجوا من باب التشبيه في قولهم بإثبات استواء، والاستواء عند أهل اللغة
 إنما هو موضوعه الاستقرار والتَّكُنُّ، وهو جسمانيٌّ. وأما التَّعْطُّلُ الذي يُشْتَعُونَ
 بالزامه، وهو تعطيل اللفظ، فلا محذور فيه، وإنما المحذور في تعطيل الآلهة. وكذلك

يُسْتَعْنَى بِالْإِزَامِ التَّكْلِيفِ بِمَا لَا يُطَاقُ؛ وَهُوَ تَقْوِيَةٌ؛ لِأَنَّ التَّشَابُهَ لَمْ يَقَعْ فِي التَّكْلِيفِ. ثُمَّ يَدَّعُونَ أَنَّ هَذَا هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ، وَحَاشَ لِلَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا مَذْهَبُ السَّلَفِ مَا قَرَّرْنَاهُ أَوَّلًا مِنْ تَقْوِيضِ الْمُرَادِ بِهَا إِلَى اللَّهِ، وَالسَّكُوتُ⁽¹⁾ عَنْ فَهْمِهَا. وَقَدْ يَحْتَجُّونَ لِإِبْثَاتِ الْإِسْتِثْوَاءِ لِلَّهِ بِقَوْلِ مَالِكٍ: الْإِسْتِثْوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيفُ مَجْهُولٌ⁽²⁾؛ وَلَمْ يُرِدْ مَالِكٌ أَنَّ الْإِسْتِثْوَاءَ مَعْلُومٌ الثَّبُوتُ لِلَّهِ، وَحَاشَاةٌ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَدْلُولَ الْإِسْتِثْوَاءِ؛ وَإِنَّمَا 5 أَرَادَ أَنَّ الْإِسْتِثْوَاءَ مَعْلُومٌ مِنَ اللَّغَةِ وَهُوَ الْجِسْمَانِي، وَكَيْفِيَّتُهُ، أَيْ حَقِيقَتُهُ، لِأَنَّ حَقَائِقَ الصِّفَاتِ كُلِّهَا كَيْفِيَّاتٌ، وَهِيَ مَجْهُولَةُ الثَّبُوتِ لِلَّهِ. وَكَذَلِكَ يَحْتَجُّونَ عَلَى إِبْثَاتِ الْمَكَانِ بِحَدِيثِ السُّودَاءِ⁽²⁾، وَأَنَّهَا لَمَّا قَالَ لَهَا ﷺ: "أَيْنَ اللَّهُ؟" وَقَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. فَقَالَ: "أَعْنَيْتِهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ". وَالتَّبَيُّ ﷺ لَمْ يُثَبِّتْ لَهَا الْإِيمَانَ بِإِبْثَاتِهَا الْمَكَانَ لِلَّهِ، بَلْ لِأَنَّهَا آمَنَتْ بِمَا جَاءَ 10 مِنْ ظَوَاهِرِ أَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ، فَدَخَلَتْ فِي جُمْلَةِ الرَّاسِخِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْمُتَشَابِهِ مِنْ غَيْرِ كَشْفٍ عَنْ مَعْنَاهُ، وَالْقَطْعُ بِنَفْيِ الْمَكَانِ حَاصِلٌ مِنْ دَلِيلِ الْعَقْلِ التَّائِي لِلْإِفْتِقَارِ، وَمِنْ أَدِلَّةِ السُّلُوبِ الْمُؤَدَّةِ بِالتَّنْزِيهِ، مِثْلُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى، من الآية 11] وَأَشْبَاهُهُ، وَمِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي 15 الْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام، من الآية 3]، إِذِ الْمَوْجُودُ لَا يَكُونُ فِي مَكَانَيْنِ، فَلَيْسَتْ "فِي" هُنَا لِلْمَكَانِ قِطْعًا وَالْمُرَادُ غَيْرُهُ. ثُمَّ طَرَدُوا ذَلِكَ الْمَحْمَلُ^(ب) الَّذِي ابْتَدَعُوهُ فِي ظَوَاهِرِ الْوَجْهِ وَالْعَيْنَيْنِ وَالْيَدَيْنِ وَالْمَجِيءِ وَالتَّزْوِيلِ وَالْكَلَامِ بِالْحَرْفِ وَالصَّوْتِ، يَجْعَلُونَ لَهَا

(أ) كَتَبَهَا فِي الْحَاشِيَةِ بِخَطِّهِ بِالضَّادِ: الصَّكُوتُ (ب) قَرَأَ أَيْضًا فِي حَاشِيَةِ ع: الْحَمْلُ.

(1) الْإِسْتِذْكَارُ لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ 2: 529، تَرْتِيبُ الْمَدَارِكِ 1: 170.

(2) قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثٍ صَحِيحٍ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ 5: 447، وَمُسْلِمٌ (537)، وَأَبُو دَاوُدَ (930)، وَالنَّسَائِيُّ 3: 14-18.

مَذْلُولَاتٍ أَعْمَ مِنَ الْجِسْمَانِيَّةِ، وَيُزْهَوْنَهُ عَنْ مَذْلُولِ الْجِسْمَانِيَّاتِ مِنْهَا. وَهَذَا شَيْءٌ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ. وَقَدْ دَرَجَ عَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ مِنْهُمْ. وَنَافَرَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ الْأَشْعَرِيَّةَ وَالْحَنْفِيَّةَ وَرَفَضُوا عَقَائِدَهُمْ فِي ذَلِكَ. وَوَقَعَ بَيْنَ مُتَكَلِّمِي الْحَنْفِيَّةِ بِيُخَارَى وَبَيْنَ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ⁽¹⁾.

5 وَأَمَّا الْمَجَسَّمَةُ، فَفَعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ فِي إِثْبَاتِ الْجِسْمِيَّةِ لِلَّهِ، وَأَنَّهَا لَا كَالْأَجْسَامِ؛ وَلَفْظُ الْجِسْمِ لَمْ يَتَّبَثْ فِي مَنْقُولِ الشَّرْعِيَّاتِ. وَإِنَّمَا جَرَّاهُمْ عَلَيْهِ إِثْبَاتُ هَذِهِ الظَّوَاهِرِ؛ فَلَمْ يَفْتَصِّرُوا عَلَيْهَا، بَلْ تَوَعَّلَّوْا وَأَثْبَتُوا الْجِسْمِيَّةَ، يَزْعُمُونَ فِيهَا مِثْلَ ذَلِكَ، وَيُزْهَوْنَهُ بِقَوْلِ مُتَنَاقِضٍ سَفْسَافٍ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: جِسْمٌ لَا كَالْأَجْسَامِ، وَالْجِسْمُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ هُوَ الْعَمِيقُ الْمَحْدُودُ، وَغَيْرُ هَذَا التَّفْسِيرُ، مِنْ أَنَّهُ الْقَائِمُ بِالذَّاتِ، أَوِ الْمَرْكَبُ مِنَ الْجَوَاهِرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَاصْطِلَاحَاتٌ لِلْمُتَكَلِّمِينَ يُرِيدُونَ بِهَا غَيْرَ الْمَذْلُولِ اللَّغَوِيِّ. فَلِهَذَا 10 كَانَ الْمَجَسَّمَةُ أَوْغَلَ فِي الْبِدْعَةِ، بَلْ وَالْكَفْرِ، حَيْثُ أَثْبَتُوا لِلَّهِ وَصْفًا مَوْهِمًا يُوْهِمُ النَّقْصَ لَمْ يَرِدْ فِي كَلَامِهِ وَلَا كَلَامِ نَبِيِّهِ.

فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ الْفَرْقُ بَيْنَ مَذَاهِبِ السَّلَفِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ السُّنِّيَّةِ وَالْمُحَدِّثِينَ، وَالْمُبْتَدِعَةِ مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ وَالْمَجَسَّمَةِ بِمَا أَطْلَعْنَاكَ عَلَيْهِ.

(1) لَمْ يَقَعْ بَيْنَ الْحَنْفِيَّةِ وَالْبُخَارِيِّ فِي بُخَارَى نِزَاعٌ، وَإِنَّمَا وَقَعَ مَعَ أَمِيرِ بُخَارَى خَالِدِ بْنِ أَحْمَدَ كَمَا فِي تَارِيخِ الْخَطِيبِ 2: 355، وَوَقَعَ نِزَاعٌ مَعْرُوفٌ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى الْأَهْلِيِّ بَنِيْسَابُورَ. انْظُرْ أَيْضًا: تَارِيخِ الْخَطِيبِ 2: 352.

وفي الحديثين غلاةٌ يسمّون المشبهة لتصريحهم بالتشبيه؛ حتى إنه يحكى عن بعضهم أنه قال⁽¹⁾: اغفوا عن اللحية والفرج وسلّوا عمّا بدا لكم من سيّوَاهُما. وإن لم يتأوّل ذلك لهم بأنهم يريدون حَضْرَ ما وردَ من هذه الظواهر الموهمة وحملها على ذلك المخمل الذي لا يقيّمهم ، وإلاّ فهو كفرٌ صريحٌ والعياذُ لله . وكُتِبَ أهلُ السُّنّةِ مشحونةٌ بالحِجَابِ على هذه البدعِ وبَسَطَ الرّدُّ عليهم بالأدلة الصّحيحة . وإِنَّمَا أَوْمَئِنَا 5 إلى ذلك إيماءٌ يتميّز به فصولُ المغالاة وحملها. ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [سورة الأعراف، من الآية 43].

وأما الظواهرُ الخفيّةُ الدّلالةُ، كالوُحْيِ والملائكة والروح والجنّ والبرزخ وأحوال القيامة والدّجال والفتن والشُّروط وسائر ما هو مُتَغَدِّرٌ على الفهم أو مُخَالِفٌ للعاديّات : فإن حَمَلْنَاهُ على ما ذهب إليه الأشعريّة في تفصيله ، وهم أهلُ السُّنّةِ، 10 فلا تشابه؛ وإن قُلْنَا فيه بالتشابهِ فلنوضّح القولَ في كشف الحِجَابِ عنه، فنقول:

اعْلَمْ أَنَّ الْعَالَمَ الْبَشَرِيَّ أَشْرَفُ الْعَوَالِمِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَأَرْفَعُهَا. وَهُوَ، وَإِنْ اتَّخَذَتْ حَقِيقَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِ، فَلَهُ أَطْوَارٌ يَخَالِفُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا الْآخَرَ بِأَحْوَالٍ تَخْتَصُّ بِهِ، حَتَّى كَأَنَّ الْحَقَائِقَ فِيهَا مُخْتَلِفَةٌ.

فَالطُّورُ الْأَوَّلُ: عَالَمُهُ الْجِسْمَانِيُّ بِجِسْمِهِ الظَّاهِرِ وَفِكْرِهِ الْمَعَاشِيِّ وَسَائِرِ تَصَرُّفَاتِهِ 15 الَّتِي أَعْطَاهُ إِيَّاهَا وَجُودُهُ الْحَاضِرُ.

(1) المقولة منسوبة لداود الجواربي . (الشهرستاني: الملل والنحل 1: 105) .

الطُّورُ الثَّانِي: عَالَمُ النَّوْمِ، وَهُوَ تَصَوُّرُ الْخَيَالِ بِإِنْفَازِ تَصَوُّرَاتِهِ جَائِلَةً فِي بَاطِنِهِ، فَيُذَرِّكُ مِنْهَا بِحَوَاسِّهِ الظَّاهِرَةَ مُجَرَّدَةً عَنِ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمَكْنَةِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ الْجِسْمَانِيَّةِ، وَيُشَاهِدُهَا فِي مَكَانٍ لَيْسَ هُوَ فِيهِ، وَيُحَدِّثُ لَهُ الصَّالِحُ مِنْهَا الْبُشْرَى بِمَا يَتَرَقَّبُ مِنْ مَسَرَّاتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ، كَمَا وَعَدَ بِهِ الصَّادِقُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ. 5 وَهَذَانِ الطَّوْرَانِ عَامَانِ فِي جَمِيعِ أَشْخَاصِ الْبَشَرِ، وَهُمَا مُخْتَلِفَانِ فِي الْمَدَارِكِ كَمَا تَرَاهُ.

الطُّورُ الثَّلَاثُ: طَوْرُ النَّبَوَّةِ، وَهُوَ خَاصٌّ بِأَشْرَفِ صِنْفِ الْبَشَرِ، بِمَا خَصَّهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَتَنْزِيلِ مَلَائِكَتِهِ عَلَيْهِمْ بِوَحْيِهِ، وَتَكْلِيفِهِمْ بِإِصْلَاحِ الْبَشَرِ فِي أَحْوَالِ كُلِّهَا مَغَايِرَةً لِأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ الظَّاهِرَةِ.

الطُّورُ الرَّابِعُ: طَوْرُ الْمَوْتِ الَّذِي يُفَارِقُ أَشْخَاصَ الْبَشَرِ فِيهِ حَيَاتِهِمُ الظَّاهِرَةَ إِلَى وُجُودٍ قَبْلَ الْقِيَامَةِ، يُسَمَّى الْبَرْزَخَ، يَتَنَعَّمُونَ فِيهِ وَيُعَذَّبُونَ عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِهِمْ، ثُمَّ يُفْضَوْنَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى، وَهِيَ دَارُ الْجَزَاءِ الْأَكْبَرِ نَعِيماً وَعَذَاباً فِي الْجَنَّةِ أَوْ فِي النَّارِ. 10

وَالطَّوْرَانِ الْأَوَّلَانِ شَاهِدُهُمَا وَجْدَانِيٌّ. وَالطُّورُ الثَّلَاثُ النَّبَوِيُّ شَاهِدُهُ الْمَعْجِزَةُ وَالْأَحْوَالُ الْمُخْتَصَّةُ بِالْأَنْبِيَاءِ. وَالطُّورُ الرَّابِعُ شَاهِدُهُ مَا تَنْزَّلُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ فِي الْمَعَادِ وَأَحْوَالِ الْبَرْزَخِ وَالْقِيَامَةِ، مَعَ أَنَّ الْعَقْلَ يَقْضِي بِهِ كَمَا نَبَّهَنَا اللَّهُ عَلَيْهِ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ الْبَعْثَةِ. وَمَنْ أَوْضَحَ الْأَدِلَّةَ عَلَى صِحَّتِهَا أَنَّ أَشْخَاصَ الْإِنْسَانِ 15 لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَجُودٌ آخِرُ بَعْدَ الْمَوْتِ غَيْرَ هَذَا الْمَشَاهِدِ، تَتَلَقَّى فِيهِ أَحْوَالاً تَلِيقُ بِهِ، لَكَانَ إِيجَادُهُ الْأَوَّلُ عَبَثاً؛ إِذَا الْمَوْتُ إِذَا كَانَ عَدَمًا كَانَ مَالُ الشَّخْصِ إِلَى الْعَدَمِ؛ فَلَا يَكُونُ لَوْجُودِهِ الْأَوَّلُ حِكْمَةً؛ وَالْعَبَثُ عَلَى الْحَكِيمِ مُحَالٌ. وَإِذَا تَقَرَّرَتْ هَذِهِ الْأَطْوَارُ

الأزعة، فلنأخذ في بيان مدارك الإنسان فيها كيف تختلف اختلافاً بيناً يكشف لك غور المتشابه:

فأما مداركه في الطور الأول فواضحة جليّة . قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ [سورة النحل، من الآية 78]. فهذه المدارك يستولي على ملكات المعارف 5 ويستكمل حقيقة إنسانيته ويوفي حق العبادة المفضية به إلى النجاة .

وأما مداركه في الطور الثاني، وهو طور النوم، فهي المدارك التي في الحس الظاهر بعينها؛ لكن ليست في الجوارح كما هي في اليقظة. لكن الرائي يتيقن كل شيء أدركه في نومه ، لا يشك فيه ولا يرتاب ، مع خلو الجوارح عن الاستعمال العادي لها. والتأثر في حقيقة هذه الحالة فريقان: 10

الحكماء، ويزعمون أن الصور الخيالية تدفعها الخيال بحركة الفكر إلى الحس المشترك، الذي هو الفصل المشترك بين الحس الظاهر والحس الباطن، فيتصور محسوسه بالظاهر في الحواس كلها. ويشكل عليهم هذا أن المرأي الصادقة التي هي من الله أو من الملك أرسخ وأثبت في الإدراك من المرأي الخيالية الشيطانية، مع أن الخيال فيها على ما قرروه واجد. 15

الفريق الثاني: المتكلمون أجملوا فيها القول، وقالوا: هو إدراك يخلقه الله في الحاسة فيقع كما يقع في اليقظة. وهذا أليق، وإن كنا لا نتصور كيفيته. وهذا الإدراك التوحيي أوضح شاهد على ما يقع بعده من المدارك الحسية في الأطوار.

وأما الطُّورُ الثَّالثُ، وهو طُورُ الأنبياء، فالمداركُ الحِسِّيَّةُ فيها مجهولةٌ الكَيْفِيَّةُ عندنا، وجدائيَّةٌ عندهم بأَوْضَحَ من اليقين. فيرى النَّبِيُّ اللهُ والملائكةُ، ويسمَعُ كلامَ الله منه أو من الملائكةِ، ويَرى الجَنَّةَ والنَّارَ والعَرْشَ والكُرْسِيِّ، ويَخْتَرِقُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ في إِسْرَائِهِ، ويركَبُ البُرَاقَ فيها، ويلتَقى التَّيِّينَ هنالك، ويُصَلِّيَ بِهِمْ، ويُدْرِكُ 5 أنواعَ المداركِ الحِسِّيَّةِ كما يُدْرِكُ في طَوْرِهِ الجِسْمَانِيَّ والتَّوْحِيدِيَّ بعِلْمٍ ضَرْوَرِيٍّ يَخْلُقُهُ اللهُ لَهُ، لا بالإدراكِ العَادِيِّ لِلْبَشَرِ في الجَوَارِحِ. ولا تَلْتَمِثُ في ذلك إلى ما يَقُولُهُ ابنُ سِينَا⁽¹⁾ من تَنْزِيلِهِ أَمْرَ النُّبُوَّةِ على أَمْرِ التَّوَمِّ في دَفْعِ الخِيَالِ صُورَهُ إلى الحِسِّ المُشْتَرَكِ. فَإِنَّ الكَلَامَ عَلَيْهِمْ هُنَا أَشَدُّ من الكَلَامِ في التَّوَمِّ، لأنَّ هَذَا التَّنْزِيلَ طَبِيعَةٌ وَاحِدَةٌ كَمَا قَرَّرْنَاهُ. فَيَكُونُ على هَذَا حَقِيقَةُ الوَحْيِ والرُّؤْيَا مِنَ النَّبِيِّ وَاحِدَةٌ فِي يَقِينِهَا 10 وَحَقِيقَتِهَا، وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ على مَا عَلِمْتَ من رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ قُبَيْلِ السُّوْحِيِّ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ، وَأَنَّهُ كَانَتْ بَدْءَ الوَحْيِ وَمَقْدَمَتَهُ. وَيُشْعِرُ ذَلِكَ بِأَنَّهَا دُونُهُ فِي الْحَقِيقَةِ.

وكذلك حال الوَحْيِ في نَفْسِهِ. فَقَدْ كَانَ يَضُغُّ عَلَيْهِ، وَيُقَاسِي مِنْهُ شِدَّةً، كَمَا فِي الصَّحِيحِ⁽²⁾، حَتَّى كَانَ الْقُرْآنُ يَنْزِلُ آيَاتٍ مُقَطَّعَةً، وَبَعْدَ ذَلِكَ نَزَلَتْ عَلَيْهِ ﴿بَرَاءَةٌ﴾ فِي عَزْوَةِ تَبُوكَ جَمَلَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهُوَ يَسِيرُ على نَاقَتِهِ، فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ تَنْزِيلِ الْفِكْرِ إِلَى الْخَيَالِ فَقَطْ وَمِنْ الْخَيَالِ إِلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرَكِ، لَمْ يَكُنْ بَيْنَ هَذِهِ 15 الْحَالَاتِ فَرْقٌ.

(1) الإشارات والتنبيهات - القسمان 3 و 4، ص 878 - 880.

(2) يعني صحيح مسلم (448) وهو من قول ابن عباس، وتقدم التخرُّج في الجزء الأول من الكتاب الأول: 166 (2).

وأما الطَّوْرُ الرَّابِعُ، وهو طَوْرُ الأَمْواتِ في بَرَزَجِهِمْ، الَّذِي أَوَّلُهُ الْقَبْرُ، وَهُمْ مُجَرَّدُونَ عَنِ الْبَدَنِ، أَوْ فِي بَعْثِهِمْ عِنْدَمَا يَرْجِعُونَ إِلَى الْأَجْسَامِ، فَمَدَارِكُهُمُ الْحِسِّيَّةُ موجودةٌ لَهُمْ. فَيَرى الْمَيِّتُ فِي قَبْرِه [الْمَلَكَيْنِ] ^(١) يُسْأَلَانِهِ، وَيَرى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ بَعَيْنَي رَأْسِهِ، وَيَرى شُهودَ الْجَنَازَةِ وَيَسْمَعُ كَلَامَهُمْ وَخَفَقَ نَعَالِهِمْ فِي الْإِنْصِرَافِ عَنْهُ، وَيَسْمَعُ مَا يُذَكِّرُونَهُ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ أَوْ مِنْ تَقْرِيرِ الشَّهَادَتَيْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَفِي 5 الصَّحِيحِ ^(١): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ عَلَى قَلْبِ بَدْرِ وَفِيهِ قَتْلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَنَادَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ. فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَتُكَلِّمُ هَؤُلَاءِ الْحَيِّفَ؟! فَقَالَ ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَتَمُّ بِأَسْمَاعِهِمْ لَمَّا أَقُولُ". ثُمَّ فِي الْبُعْثَةِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَايِنُونَ بِأَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، كَمَا كَانُوا يُعَايِنُونَ فِي الْحَيَاةِ، مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ عَلَى مَرَاتِبِهِ وَعَذَابِ النَّارِ عَلَى مَرَاتِبِهِ، وَيَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ وَيَرَوْنَ رَبَّهُمْ، كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ ^(٢): "إِنَّكُمْ تَرَوْنَ 10 رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ". وَهَذِهِ الْمَدَارِكُ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهِيَ حِسِّيَّةٌ مِثْلُهَا، وَتَقَعُ فِي الْجَوَارِحِ بِالْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ الَّذِي يَخْلُقُهُ ^(ب) اللَّهُ كَمَا قُلْنَا. وَسِرُّ هَذَا، أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ... ^(ج) تَنْشَأُ بِالْبَدَنِ وَمَدَارِكِهِ.

(أ) فِي الْأَصُولِ: الْمَلَكَانِ، وَمَوْقِعُ الْمَفْعُولِ بِهِ وَاضِحٌ بِالْعَطْفِ التَّالِي فِي النَّصِّ، فَأَصْلَحْنَاهُ (ب) فِي ع: يَخْلُقُهُ (ج) ذَكَرَ بَيْنَ الْكَلِمَتَيْنِ لَفْظَةً: هِيَ، فَأَصْبَحَتِ الْعِبَارَةُ بِهَا قَلْفَةً، فَأَسْقَطْنَاهَا لِلْحَاشِيَةِ.

(١) حَدِيثٌ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٠٦٥) وَمُسْلِمٌ (٢٨٧٥) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِي طَلْحَةَ زَيْدِ بْنِ سَهْلٍ. وَتَمَامُ تَحْرِيجِهِ فِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ (١٥٥١).

(٢) الْبُخَارِيُّ ١: ١٤٥ حَدِيثٌ (٥٥٤) وَ ١: ١٥٠ حَدِيثٌ (٥٧٣) وَ ٦: ١٧٣ حَدِيثٌ (٤٨٥١) وَ ٩: ١٥٦ حَدِيثٌ (٧٤٣٥) وَ (٧٤٣٦) وَمُسْلِمٌ (٦٣٣) مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ.

فإذا فارقت البدن بنوم أو موت، أو صار النبي حالة الوحي من المدارك البشرية إلى المدارك الملكية، فقد / استضحت ما كان معها من المدارك البشرية مجردة عن الجوارح، فيدرك بها في ذلك الطور أي إدراك شاعث منها أرفع من إدراكها وهي في الجسد؛ قاله الغزالي⁽¹⁾ رحمه الله. وزاد على ذلك أن للنفس الإنسانية صورة تبقى لها بعد المفارقة، فيها العينان والأذنان وسائر الجوارح المدركة، أمثالا لما كان في البدن وصوراً. وأنا أقول: إنما يشير بذلك إلى الملكات الحاصلة من تصريف هذه الجوارح في بدنها زيادة على الإدراك. فإذا تقطعت لهذا كله، علمت أن هذه المدارك موجودة في الأطوار الأربعة، لكن ليس على ما كانت في الحياة الدنيا، وإنما هي تختلف بالقوة والضعف بحسب ما يعرض لها من الأحوال. ويشير المتكلمون إلى هذا إشارة مجملة بأن الله يخلق فيها علماً ضرورياً بذلك المدرك، أي مدرك كان. ويعنون به هذا القدر الذي أوصناه.

وهذه نبذة أومأنا بها إلى ما يوضح القول في المتشابه. ولو أوسعنا الكلام فيه لقصرت المدارك عنه. فلنضرع إلى الله في الهداية والفهم عن أنبيائه وكتابه بما حصل به الحق في توحيدنا والظفر بنجاتنا. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾⁽¹⁾ [سورة البقرة، 15 من الآية 213].

(1) آخر الفصل المنقول عن ع وحدها .

(1) تهافت الفلاسفة 226 .

17 • عِلْمُ التَّصَوُّفِ

هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة في الملة. وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين^(أ) ومن بعدهم طريقة الحق والهداية. وأصلها العكوف على العبادة، والانتقطاع إلى الله، والإعراض عن زُخرف الدنيا وزينتها، والرَّهْدُ فيما يُقْبَلُ عليه الجمهور من لَذَّةٍ [وجاه ومال]^(ب)، والافتِرَادُ 5 عن الخلق في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عامًّا في الصحابة والسلف، فلما فشأ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختصَّ المُقْبِلُونَ على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة.

قال القشيري⁽¹⁾ رحمه الله : ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس ؛ والظاهر أنه لَقَبٌ . ومن قال: اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة أو من 10 الصِّفِّ، فبعيدٌ من جهة القياس اللغوي. قال: وكذلك من الصوف، لأنهم لم يختصوا بلُبْسِهِ.

[قلت: والأظهر - إن قيل بالاشتقاق - أنه من الصوف. وهم في الغالب مُخْتَصِّصُونَ بلُبْسِهِ]^(ج)، لما كانوا عليه من مخالفة الناس^(د) في لبس فاخر الثياب إلى 15 لبس الصوف.

(أ) سقط من ج (ب) في ع ج ي: ومال وجه (ج) سقط من ط (د) كنا في ع ط ج، وفي ي: القياس .

(1) الرسالة القشيرية 126 .

فلَمَّا اخْتُصَّ هؤلاء بِمَذْهَبِ الزُّهْدِ والاشْرَادِ عَنِ الْحُلُقِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الْعِبَادَةِ،
 اخْتُصُّوا بِمَوَاجِدَ مُذَرَكَةٍ لَهُمْ. وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ بِمَا هُوَ إِنْسَانٌ، إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنْ سَائِرِ
 الْحَيَوَانِ بِالْإِدْرَاكِ. وَإِدْرَاكُهُ نَوْعَانِ: إِدْرَاكٌ لِلْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ مِنَ الْيَقِينِ وَالطَّنِّ وَالشَّكِّ
 وَالْوَهْمِ، وَإِدْرَاكٌ لِلْأَخْوَالِ الْقَائِمَةِ بِهِ مِنَ الْفَرَحِ وَالْحُزْنِ وَالْقَبْضِ وَالْبَسْطِ وَالرِّضَا
 5 وَالْغَضَبِ / وَالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ. فَالْمَغْنَى ⁽¹⁾ الْعَاقِلُ وَالْمَتَصَرِّفُ فِي الْبَدَنِ،
 يَنْشَأُ مِنْ إِدْرَاكِاتٍ وَإِرَادَاتٍ وَأَحْوَالٍ، وَهِيَ الَّتِي تَمَيَّزُ بِهَا الْإِنْسَانُ كَمَا قُلْنَا. وَبَعْضُهَا
 يَنْشَأُ عَنْ بَعْضٍ، كَمَا يَنْشَأُ الْعِلْمُ عَنِ الْأَدِلَّةِ، وَالْفَرَحُ أَوْ الْحُزْنُ عَنِ إِدْرَاكِ الْمَوْلِمِ
 وَالْمُلْتَذِّ بِهِ، وَالنَّشَاطُ عَنِ الْحِمَامِ، وَالْكَسَلُ عَنِ الْإِغْيَاءِ. وَكَذَلِكَ الْمُرِيدُ فِي مُجَاهَدَتِهِ
 وَعِبَادَتِهِ، لَا بُدَّ أَنْ يَنْشَأَ لَهُ عَنْ كُلِّ مُجَاهَدَةٍ حَالٌ هِيَ نَتِيجَةُ لِتِلْكَ الْمُجَاهَدَةِ. وَتِلْكَ
 10 الْحَالُ، إِمَّا أَنْ تَكُونَ نَوْعَ عِبَادَةٍ فَتَرْسَخَ وَتَصِيرَ مَقَاماً لِلْمُرِيدِ، وَإِمَّا أَنْ لَا تَكُونَ عِبَادَةً،
 [وَإِنَّمَا تَكُونَ] ^(ب) صِفَةً حَاصِلَةً لِلنَّفْسِ مِنْ فَرَحٍ أَوْ سُرُورٍ أَوْ نَشَاطٍ أَوْ كَسَلٍ، أَوْ
 غَيْرِ ذَلِكَ.

وَالْمَقَامَاتُ، لَا يَزَالُ الْمُرِيدُ يَتَرَقَّى فِيهَا مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى
 التَّوْحِيدِ وَالْمَعْرِفَةِ الَّتِي هِيَ الْغَايَةُ الْمَطْلُوبَةُ لِلْسَّعَادَةِ. قَالَ ﷺ: "مَنْ مَاتَ يَشْهَدُ أَنْ لَا
 15 إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ" ⁽¹⁾. فَالْمُرِيدُ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ التَّرَقِّي فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ، وَأَصْلُهَا كُلُّهَا
 الطَّاعَةُ وَالْإِخْلَاصُ، وَيَتَقَدَّمُهَا الْإِيمَانُ وَيُصَاحِبُهَا، وَتَنْشَأُ عَنْهَا الْأَحْوَالُ، وَالصِّفَاتُ
 نَتَائِجُ وَثَرَاتٌ، ثُمَّ تَنْشَأُ عَنْهَا أُخْرَى وَأُخْرَى إِلَى مَقَامِ التَّوْحِيدِ وَالْعِزِّ. وَإِذَا وَقَعَ

(أ) فِي ج. ي. فَالْجُزْءُ (ب) مِنْ ط. ج. ي. وَفِي ع. وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ.

(1) تَقَدَّمَ تَحْرِيجُهُ فِي صَفْحَةِ (231).

تقصير في النتيجة أو خلل، فيعلم أنه إنما أتى من قبل التفسير في الذي قبله، وكذلك في الخواطر التفسيرية والواردات القلبية. فلهذا يحتاج المريد إلى محاسبة نفسه في سائر أعماله وينظر في [حقائقها]⁽¹⁾، لأن حصول النتائج عن الأعمال ضروري، وقصورها من الخلل فيها كذلك. والمريد يجد ذلك بذوقه، ويحاسب نفسه على أسبابه. ولا يشاركهم في ذلك إلا القليل من الناس، لأن الغفلة عن هذا كانت 5 شاملة.

وغاية أهل العبادات إذا لم ينتهوا إلى هذا النوع، أنهم يأتون بالطاعات [318] مُخْلِصَةً من نظر الفقه في الأجزاء والامتنال، وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالأذواق والمواجد، ليطلعوا على أنها [خالصة]^(ب) من التفسير أو لا. فظهر أن أصل طريقهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والثروك، والكلام في هذه الأذواق والمواجد 10 التي تحصل عن المجاهدات، ثم تستقر للمريد مقاماً ويترقى منها إلى غيرها.

ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور [في التعليم]^(ج) بينهم، إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة. فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلاحاً على التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه. فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس يوجد لغيرهم من أهل الشريعة الكلام 15 فيه. وصار علم الشريعة على صنفين: صنف^(د) مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا، وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات، وصنف^(د) مخصوص بالقوم

(1) من ع، وفي ظ: خفاياها (ب) من ع، وفي ظ: خالية (ج) حاشية في ع بخطه، لم تذكرها ط ج (د) ي: صنف .

في القيام بهذه المجاهدة ومُحاسبة النفس عليها، والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها، وكيفية التَّرقِّي فيها^(أ) من ذوق إلى ذوق، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك.

فلما كُتِبَت العلوم ودُوِّنَتْ ، وألّف الفقهاء في الفقه وأصوله ، والكلام،
5 والتفسير ، وغير ذلك ، كتب رجالٌ من أهل هذه الطريقة في طريقهم . فمنهم من كتب في أحكام الورع ومُحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والتَّرك، كما فعله المحاسبي في كتاب الرعاية، له، ومنهم من كتب في آداب الطريقة وأذواق أهلها ومواجهتهم في الأحوال، كما فعله القشيري في كتاب الرسالة، والشهرزدي في كتاب عوارف المعارف ، وأمثالهم . وجمع الغزالي [رحمه الله]^(ب) بين الأمرين في كتاب الإحياء، فدوّن فيه أحكام الورع والاقتداء، ثم بيّن آداب القوم وسُنَنهم،
10 وشرح^(ج) اصطلاحاتهم في عباراتهم. وصار علمُ التَّصوّف / في المِلَّة علماً مدوّناً بعد [318ب] أن كانت الطريقة عبادة فقط، وكانت أحكامها إنَّما تتلقّى من صدور الرّجال، كما وقّع في سائر العلوم التي دُوِّنَتْ بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك.

15 ثم إنَّ هذه المجاهدة والخلوة^(د) والذكر، يتبعها غالباً كَشْفُ حِجَابِ الحِسِّ، والاطِّلاع على عوالم من أمور الله ليس لصاحب الحِسِّ إدراك شيء منها، والروح من تلك العوالم. وسببُ هذا الكَشْفِ أنَّ الروح إذا رَجَعَ عن الحِسِّ الظاهر إلى

(أ) ي: منها (ب) من ي (ج) في ع: في شرح (د) سقط من ع .

الباطن، ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشؤه، وأعان على ذلك الذكر، فإنه كالغذاء لتنمية الروح. ولا يزال في نمو وتزيد إلى أن يصير⁽¹⁾ شهوداً بعد أن كان علماً ويكشف حجاب الحس، ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها، وهو عين الإدراك، فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم الدنية والفتح الإلهي، وتقرب ذاته في تحقق حقيقتها من الأفق الأعلى، أفق الملائكة. 5

وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة، فيذكرون من حقائق الوجود ما لا يذكرون سواهم. وكذلك يذكرون كثيراً من الواقعات قبل وقوعها، ويتصوفون بهمهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع إرادتهم. فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا التصرف، ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمروا بالتكلم فيه، بل يعدون ما يقع لهم من ذلك محنة، ويتعوذون منه إذا هاجمهم. وقد كان 10 الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة، وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ، لكنهم لم تقع لهم بها عناية. وفي فضائل أبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم كثير منها. وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة الشيرازي [1319] / على ذكرهم ومن تبع طريقهم من بعدهم.

ثم إن قوماً من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والكلام في 15 المدارك التي وراءه، واختلقت طرق الرياضة عندهم في ذلك باختلاف تعليمهم في إمامة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر، حتى يحصل للنفس إدراكها الذي

(1) ع: تصير .

لها من ذاتها بتمام نُشوِّها وتغذيتها. فإذا حصل ذلك رَعَمُوا أَنَّ الوجودَ قد انحصَرَ في مدارِكها حينئذٍ، وأنَّهم كَشَفُوا ذواتِ الوجودِ وتَصَوَّرُوا حَقائِقَهُ كُلَّها من العرشِ إلى الطُّش⁽¹⁾. هكذا قال الغزالي [رحمه الله]⁽¹⁾ في كتاب الإحياء بعد أن ذَكَرَ صورةَ الرِّياضة.

5 ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْكَشْفَ لَا يَكُونُ صَحِيحاً كَامِلاً عِنْدَهُمْ إِلَّا إِذَا كَانَ نَاشِئاً عَنِ
الاسْتِقَامَةِ، لِأَنَّ الْكَشْفَ قَدْ يَحْصُلُ لِصَاحِبِ [الجوع والخلوة]^(ب) وَإِنْ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ
اسْتِقَامَةٌ، كَالسَّحَرَةِ وَالتَّصَارِي وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُتَنَاضِينَ، وَلَيْسَ مُرَادُنَا إِلَّا الْكَشْفَ
النَّاشِئَ عَنِ الْاسْتِقَامَةِ. وَمِثَالُهُ أَنَّ الْمِرْآةَ الصَّغِيرَةَ إِذَا كَانَتْ مُعَدَّبَةً أَوْ مُقَعَّرَةً وَحُودِي بِهَا
جَمَّةُ الْمَرْيِّ، فَإِنَّهُ يَتَشَكَّلُ فِيهَا مُعَوَّجاً عَلَى غَيْرِ صَوَرَتِهِ، وَإِذَا كَانَتْ مُسَطَّحَةً تَشَكَّلَ فِيهَا
10 الْمَرْيُّ صَحِيحاً. فَالْاسْتِقَامَةُ لِلتَّنَفُّسِ كَالْإِنْبَسَاطِ لِلْمِرْآةِ فِيهَا يَنْطَبِعُ فِيهَا مِنَ الْأَحْوَالِ.

وَلَمَّا عُنِيَ الْمُتَأَخَّرُونَ بِهَذَا التَّنَوُّعِ مِنَ الْكَشْفِ، تَكَلَّمُوا فِي حَقَائِقِ الْمَوْجُودَاتِ
الْعُلُويَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ، وَحَقَائِقِ الْمَلِكِ وَالرُّوحِ وَالْعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ،
وَقَصَّرَتْ مَدَارِكُ مَنْ لَمْ يُشَارِكْهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ عَنْ فَهْمِ أَدْوَابِهِمْ وَمَوَاجِدِهِمْ فِي ذَلِكَ.
فَأَهْلُ الْفُتْيَا بَيْنَ مُنْكَرٍ عَلَيْهِمْ وَمُسَلِّمٍ لَهُمْ. وَلَيْسَ الْبُزْهَانُ وَالذَّلِيلُ بِنَافِعٍ فِي هَذَا
15 الطَّرِيقِ رَدّاً وَقَبُولاً، إِذْ هِيَ مِنْ قِبَلِ الْوُجْدَانِيَّاتِ.

(أ) من ي (ب) من ع، وفي ج ي ظ: الخلوة والجوع.

(1) كذا في الأصول، ولا معنى للطش، وهو المطر الخفيف والذي لا تقابل بينه وبين العرش، وعبارة الغزالي في الإحياء (4: 303) أصوب، فقد أوردها في باب المستحق للمحبة، بصيغة: من ذروة العرش إلى منتهى القرش.

[تَفْصِيلٌ وَتَحْقِيقٌ⁽¹⁾ :

يَقَعُ كَثِيرًا فِي كَلَامِ أَهْلِ الْعَقَائِدِ مِنْ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُبَايِنٌ لِمَخْلُوقَاتِهِ، وَيَقَعُ لِلْمُتَكَلِّمِينَ أَنَّهُ لَا مَبَايِنٌ وَلَا مُتَّصِلٌ، وَيَقَعُ لِلْفَلَّاسِفَةِ أَنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، وَيَقَعُ لِلْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ أَنَّهُ مُتَّحِدٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ، إِمَّا بِمَعْنَى الْخُلُوعِ فِيهَا، أَوْ بِمَعْنَى أَنَّهُ هُوَ نَفْسُهَا، وَلَيْسَ هُنَاكَ غَيْرُهُ جَمَلَةً وَلَا تَفْصِيلًا. 5 فَلَئِبَيْنِ تَفْصِيلَ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ، وَنُشْرَحُ حَقِيقَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا، حَتَّى تَتَضَحَّ مَعَانِيهَا، فَنَقُولُ:

إِنَّ الْمُبَايِنَةَ تُقَالُ لِمَعْنَيْنِ، أَحَدُهُمَا: الْمُبَايِنَةُ فِي الْحِيزِ وَالْجِهَةِ، وَيُقَابِلُهُ الْإِتِّصَالُ. وَتُشْعِرُ هَذِهِ الْمَقَالَةُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ بِالْمَكَانِ، إِمَّا صَرِيحًا وَهُوَ تَجَسُّمٌ، أَوْ لُزُومًا وَهُوَ تَشْبِيهُ مِنْ قَبِيلِ الْقَوْلِ بِالْجِهَةِ. وَقَدْ نُقِلَ مِثْلُهُ عَنْ بَعْضِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ مِنَ التَّضَرُّعِ 10 بِهَذِهِ الْمُبَايِنَةِ. فَيَحْتَمِلُ غَيْرَ هَذَا الْمَعْنَى. وَمَنْ أَجَلْ ذَلِكَ أَنْكَرَ الْمُتَكَلِّمُونَ هَذِهِ الْمُبَايِنَةَ، وَقَالُوا: لَا يُقَالُ فِي الْبَرَاءِ: إِنَّهُ مُبَايِنٌ لِمَخْلُوقَاتِهِ وَلَا مُتَّصِلٌ بِهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ لِلْمُتَحَيِّزَاتِ. وَمَا يُقَالُ مِنْ أَنَّ الْمَحَلَّ لَا يَخْلُو عَنْ الْإِتِّصَافِ بِالْمَعْنَى وَضِدُّهُ، فَهُوَ مَشْرُوطٌ بِصِحَّةِ الْإِتِّصَافِ أَوَّلًا. وَأَمَّا مَعَ امْتِنَاعِهِ فَلَا. بَلْ يَجُوزُ الْخُلُوعُ عَنِ الْمَعْنَى وَضِدُّهُ، كَمَا يُقَالُ فِي الْجَمَادِ: لَا عَالِمٌ وَلَا جَاهِلٌ، وَلَا قَادِرٌ وَلَا عَاجِزٌ، وَلَا مُدْرِكٌ وَلَا 15 مُؤَوَّفٌ^(ب). وَصِحَّةُ الْإِتِّصَافِ بِهَذِهِ الْمُبَايِنَةِ مَشْرُوطٌ بِالْحُصُولِ فِي الْجِهَةِ عَلَى مَا نَقُولُ

(أ) افتردت نسخة ع هذا النص مُضافاً على وجهي بطاقة بخط ابن خلدون، وسقط من ط ج ي (ب) كذا بخطه، ومعناه غير واضح.

من مَذْلُولِهَا. والبارئُ سُبْحَانَهُ مُنَزَّةٌ عَنْ ذَلِكَ. ذكره ابن التِّلْفَسَانِي فِي شَرْحِ اللَّعَامِ
لِإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ، وَقَالَ: وَلَا يُقَالُ فِي الْبَارِئِ: مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ وَلَا مُتَّصِلٌ بِهِ، وَلَا دَاخِلٌ
فِيهِ وَلَا خَارِجٌ عَنْهُ. وَهُوَ مَعْنَى مَا تَقُولُهُ الْفَلَسَفَةُ أَنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ،
بِنَاءٍ عَلَى وُجُودِ الْجَوَاهِرِ غَيْرِ الْمُتَحَيِّزَةِ. وَأَنْكَرَهَا الْمُتَكَلِّمُونَ، لَمَّا يَلْزَمُ مِنْ مُسَاوَاتِهَا
5 الْبَارِئِ فِي أَخْصِّ الصِّفَاتِ. وَهُوَ مُبْسُوطٌ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ.

وَأَمَّا الْمَعْنَى الْآخَرُ لِلْمُبَايِنَةِ، فَهُوَ الْمُغَايِرَةُ وَالْمُخَالَفَةُ. فَيُقَالُ: الْبَارِئُ مُبَايِنٌ لِمَخْلُوقَاتِهِ
فِي ذَاتِهِ وَهُوِيَّتِهِ وَوُجُودِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيُقَابِلُهُ الْاِتِّحَادُ وَالْاِمْتِزَاجُ وَالْاِخْتِلَاطُ. وَهَذِهِ
الْمُبَايِنَةُ هِيَ مَذْهَبُ أَهْلِ الْحَقِّ كُلِّهِمْ مِنْ جُمْهُورِ السَّلَفِ وَعُلَمَاءِ أَهْلِ الشَّرَائِعِ
وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَالتَّصَوُّفَةِ الْأَقْدَمِينَ، كَأَهْلِ الرِّسَالَةِ وَمَنْ نَحَا مَنَحَاهُمْ.

10 وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَّصِفَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ الَّذِينَ صَيَّرُوا الْمَدَارِكَ الْوُجْدَانِيَّةَ عِلْمِيَّةً
نَظَرِيَّةً، إِلَى أَنَّ الْبَارِئَ تَعَالَى مُتَّحِدٌ بِمَخْلُوقَاتِهِ فِي هُوِيَّتِهِ وَوُجُودِهِ وَصِفَاتِهِ، وَرَبَّمَا
يُزْعَمُونَ أَنَّهُ مَذْهَبُ الْفَلَسَفَةِ قَبْلَ أَرِسْطُو، مِثْلَ أَفْلَاطُونٍ وَسُقْرَاطِ، وَهُوَ الَّذِي
يَغْنِيهِ الْمُتَكَلِّمُونَ حَيْثُ يَنْقُلُونَهُ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ وَيُحَاوِلُونَ الرَّدَّ عَلَيْهِ، لَا أَنَّهُ ذَاتَانِ
تَتَنَفَّى أَحَدَاهُمَا أَوْ تَتَدْرَجُ اِنْدِرَاجَ الْجُزْءِ. فَإِنَّ تِلْكَ مُغَايِرَةٌ صَرِيحَةٌ، وَلَا يَقُولُونَ بِذَلِكَ.
15 وَهَذَا الْاِتِّحَادُ هُوَ الْحُلُولُ الَّذِي يَدَّعِيهِ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ. وَهُوَ أَغْرَبُ، لِأَنَّهُ
حُلُولٌ قَدِيمٌ فِي مُخَدَّثٍ، أَوْ اِتِّحَادُهُ بِهِ. وَهُوَ أَيْضاً عَيْنُ مَا تَقُولُهُ الْإِمَامِيَّةُ مِنَ الشَّيْعَةِ
فِي الْإِيْمَةِ.

وَتَقْرِيرُ هَذَا الْاِتِّحَادِ فِي كَلَامِهِمْ عَلَى طَرِيقَتَيْنِ:

الأولى، أنَّ ذات القديم كائنة في المحدثات محسوسها ومَعْقُولها، متحدة بها في التَّصَوُّرين، وهي كُلُّها مَظَاهِرُ له، وهو القائمُ عليها، أي المَقْوَمُ لوجودها، بِمَعْنَى أَنَّها لولاهُ كانت عَدَمًا. وهو رأيُ أهلِ الحُلُول.

الثَّانية، طريقُ أهلِ الوَحْدَةِ المُطلَّقة. وكأنَّهم اسْتَشْعَرُوا من تقريرِ أهلِ الحُلُول الغيْرِيَّةَ المنايَةِ لمَعْقُولِ الاتِّحاد، فنَفَوْها بين القديم وبين المخلوقاتِ في الدَّاتِ والوُجُودِ 5 والصفات، وغالَطُوا في غيْرِيَّةِ المَظَاهِرِ المُذَرَّكَ بِالْحِسِّ والعَقْلِ، بأنَّ ذلك من المَدَارِكِ البَشَرِيَّةِ، وهي أَوْهَامٌ. ولا يُريدونَ الوَهْمَ الَّذِي هو قَسِيمُ العِلْمِ والظَّنِّ والشَّكِّ، وإنَّما يريدونَ أَنَّها كُلُّها عَدَمٌ في الحَقِيقَةِ، وُجُودٌ في المَذَرَكِ البَشَرِيِّ فقط، ولا وُجُودٌ بالحَقِيقَةِ إلا للقديم، لا في الظَّاهر ولا في الباطن، كما تَقَرَّرُهُ بعدُ بِحَسَبِ الإمكان. 10 والتَّعْوِيلُ في تَعَقُّلِ ذلك على التَّنْظَرِ والاستِدْلالِ كما في المَدَارِكِ البَشَرِيَّةِ غيرِ مُفيد، لأنَّ ذلك إنَّما يُنْقَلُ من المَدَارِكِ المَلَكِيَّةِ، وإنَّما هي حاصِلَةٌ للأَنْبياءِ بِالْفِطْرَةِ، ومن بَغْدِهِمَ للأولياءِ بِهَدَايَتِهِمْ. وَقَصْدُهُمَ من يَقْصِدُ الحِصُولَ عليها بِالطَّرِيقَةِ العِلْمِيَّةِ ضَلالٌ^(١).

وربَّما قَصَدَ بعضُ المصنِّفِينَ بيانَ مَذاهِبِهِمَ في كَشْفِ الوُجُودِ وتَرْتِيبِ حَقائِقِهِ / فَأَتَى بِالْأَغْمَضِ فالْأَغْمَضِ بِالنِّسْبَةِ إلى أَهْلِ التَّنْظَرِ والاصْطِلَاحاتِ والعُلُومِ ، [319ب] 15 كما فَعَلَ الفَرْغَانِيُّ، شارِحُ قَصِيدَةِ ابنِ الفَارِضِ في الدِّيَابِجَةِ الَّتِي كَتَبَ في صَدْرِ ذَلِكَ الشَّرْحِ . فَإِنَّهُ ذَكَرَ في صُدُورِ الوُجُودِ عَنِ الفَاعِلِ وتَرْتِيبِهِ أَنَّ الوُجُودَ كُلَّهُ صَادِرٌ عَنِ صِفَةِ الوَحْدَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَظْهَرُ الْأَحَدِيَّةِ ، وَهِيَ مَعاً صَادِرَانِ عَنِ الدَّاتِ الْكَرِيمَةِ

(١) انتهى محتوى البطاقة التي افردت نسخة ع بها ويخطه، وسقطت من ط ج ي .

التي هي عين الوحدة لا غير. ويسمّون هذا الصّدر بالتّجلي. وأوّل مراتب التّجليات عندهم تجلي الذات على نفسه، وهو يتضمّن الكمال بإفاضة الإيجاد والظهور، لقوله في الحديث الذي يتناقلونه: "كثّ كثرًا مخفياً فأخبيت أن أعرف، فخلقت الخلق ليغرفوني"⁽¹⁾. وهذا الكمال في الإيجاد المتّزلّ في الوجود وتفصيل الحقائق، وهو 5 عندهم عالم المعاني والحضرة العائنيّة والحقيقة المحمّديّة. وفيها حقائق الصفات، واللّوح، والقلم، وحقائق الأنبياء والرّسل أجمعين، والكملي من أهل المِلّة⁽²⁾ المحمّديّة. وهذا كلّ تفصيل الحقيقة المحمّديّة. وتصدّر عن هذه الحقائق حقائق^(ب) أخرى في الحضرة الهبائيّة، وهي مرتبة المثل، ثمّ عنها العرش، ثمّ الكرسي، ثمّ الأفلak، ثمّ عالم العناصر، ثمّ عالم التّركيب. هذا في عالم الرّثق. فإذا تجلّت، فهي في عالم الفتح. [انتهى] (ج).

ويُسمّى هذا المذهب مذهب أهل التّجلي والمظاهر والحضرات. وهو كلام لا 10 يقتدير أهل النظر على تحصيل مُقتضاه لغموضه وانغلاقه، ويُعدّ ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل. وربّما أنكر بظاهر الشّرع هذا التّرتيب، [فإنّه لا يُعرّف في شيء من مناجيه]^(د).

وكذلك ذهب آخرون منهم إلى القول بالوحدة المطلقة، وهو رأي أغرب 15 من الأوّل في تعقّله وتفاريعه. يزعمون فيه أنّ^(هـ) الوجود كلّ [له]^(د) قوَى في تفصيله، بها كانت حقائق الموجودات / وصورها وموادّها.

[320 أ]

(أ) في ع: الأئمة (ب) سقط من ج (ج) سقط من ط ج ي (د) من ع، وسقط من ط ج ي (هـ) سقط من ج (و) سقط من ط.

(1) حديث موضوع ذكره ابن عَرّاق في تنزيه الشريعة 1: 148، وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (232) والفتي في تذكرة الموضوعات 11، وأورده ابن العربي في الفتوحات الباب 198 بمعناه.

والعناصر إنما كانت بما فيها من القوى. وكذلك مادتها لها في نفسها قوة بها كان وجودها. ثم إن المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كان بها التركيب، كالقوة المعدنية، فيها قوى العناصر بهيولها وزيادة القوة المغذية، ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة المعدنية وزيادة قوتها في نفسها. وكذا القوة الإنسانية مع الحيوانية، ثم الفلك يتضمن القوة الإنسانية وزيادة. وكذا الذوات الروحانية. والقوة الجامعة لكل 5 من غير تفصيل هي القوة الإلهية. فهي التي انبثت في جميع الموجودات، كهيئة وجزيئة، وجمعتها وأحاطت بها من كل وجه، لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفاء، ولا من جهة الصورة ولا من جهة المادة. فالكُل واحد، وهو نفس الذات الإلهية. وهي في الحقيقة واحدة بسيطة، والاعتبار هو المفصل لها، كالإنسانية مع الحيوانية. ألا ترى أنها مُندرجة فيها وكائنة بكونها ؟ فتارة يمثّلونها بالجنس مع النوع في كل موجود، كما ذكرناه، 10 وتارة بالكل مع الجزء على طريقة المثال. وهم في هذا كله يقرّون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه. وإنّا أوجبنا عندهم الوهم والخيال.

والذي يظهر من كلام ابن دهاق⁽¹⁾ في تقرير هذا المذهب، أن حقيقة ما يقولونه في الوحدة شبيهة بما يقوله الحكماء في الألوان، من أن وجودها مشروط بالضوء، فإذا عديم الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه. وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كلها 15 مشروطة بوجود المدرك الحسي، بل والموجودات المعقولة والمتوهمة أيضاً مشروطة بوجود المدرك العقلي. فإذن، الوجود المفصل كله مشروط بالمدرك البشري. فلو فرضنا عدم المدرك البشري جملة لم يكن هناك تفصيل / في الوجود، بل هو بسيط واحد.

[320ب]

(1) كذا ضبطه ابن خلدون، وفي الإحاطة (1: 333) بتشديد الهاء .

فالحَرُّ والبرْدُ، والصَّلابةُ واللِّينُ، بل والأَرْضُ والماءُ، والنَّارُ والسَّمَاءُ والكواكِبُ، إِنَّمَا وُجِدَتْ لوجودِ الحواسِّ المدركةِ لها، لما جُعِلَ في المدركِ من التفصيلِ الَّذي لَيْسَ في الوجودِ، وإِنَّمَا هو في المداركِ فقط. فإذا قُفِدَت المداركُ المفصلةُ، فلا تفصيل، إِنَّمَا هو إدراكٌ واحدٌ، وهو أَنَا لا غَيْرُهُ. وَيَعْتَبِرُونَ ذلك بحالِ التَّائِمِ ، فَإِنَّهُ إِذَا نَامَ وَقَفَدَ الحِسَّ الظَّاهِرَ فَقَدَ كُلَّ مَحْسُوسٍ وهو في تلكِ الحالةِ ، إِلَّا ما يَفْصِلُهُ لَهُ الخيالُ. قالوا: فكذلكِ اليَقْظانُ، إِنَّمَا يَعْتَبَرُ تلكِ المدركاتِ كُلُّها على التفصيلِ بنوعِ مَدْرَكِهِ البَشَرِيِّ. ولو قد فَقَدَ مَدْرَكُهُ [البَشَرِيَّ]⁽¹⁾ فَقَدَ التفصيلَ. وهذا هو مَعْنَى قولِهِم: الوَهْمُ، لا الوَهْمُ الَّذي هو من جُمْلَةِ المداركِ البَشَرِيَّةِ.

هذا مُلَخَّصُ رأيِهِم على ما يَفْهَمُ من كلامِ ابنِ دِهَاقٍ ، وهو في غايةِ السُّقُوطِ. 10 لَأَنَّا نَقْطَعُ بوجُودِ البَلَدِ الَّذي نَحْنُ مُسافِرُونَ عَنْهُ وإِلَيْهِ يَقِيناً مع غَيْبَتِهِ عن أَعْيُنِنَا ، وبوجودِ السَّمَاءِ الْمُظَلَّةِ والكواكِبِ وسائِرِ الأشياءِ الغائِبَةِ عَنَّا. والإنسانُ قاطِعٌ بِذلكِ، ولا يُكَايِرُ أَحَدٌ نَفْسَهُ في اليَقِينِ.

مع أَنَّ المُحَقِّقِينَ من المُتَصَوِّفَةِ المُتَأَخِّرِينَ ، يَقُولُونَ: إِنَّ المُريدَ عِنْدَ الكَشْفِ رُبَّمَا يَغْرِضُ لَهُ تَوَهُّمُ هَذِهِ الوَحْدَةِ، وَيُسَمَّى ذلكَ عِنْدَهُم مَقامَ الجَمْعِ . ثُمَّ تَتَرَقَّى عَنْهُ إلى 15 التَّمْيِيزِ بَيْنَ المَوْجُودَاتِ ، وَيُعْبَرُونَ عَنْ ذلكَ بِمَقامِ الفَرَقِ ، وهو مَقامُ العارِفِ المُحَقِّقِ. وَلَا بُدَّ لِلْمُرِيدِ عِنْدَهُم من عَقَبَةِ الجَمْعِ، وَهِيَ عَقَبَةُ صَغْبَةٍ، لِأَنَّهُ يُخْشَى على المُريدِ من وَقُوفِهِ عِنْدَها، فَتَخَسَّرُ صَفَقَتُهُ. فَقَدْ تَبَيَّنَتْ مَرَاتِبُ أَهْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ.

(1) من ج .

[فصل⁽¹⁾]

ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْكَشْفِ وَفِيَا وَرَاءَ^(ب) الْحِسِّ، تَوَعَّلُوا فِي ذَلِكَ، وَذَهَبَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ إِلَى الْحُلُولِ وَالْوَحْدَةِ، كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ، وَمَلَأُوا الصُّحُفَ مِنْهُ، مِثْلَ الْهَرَوِيِّ / فِي كِتَابِ الْمَقَامَاتِ، لَهُ، وَغَيْرِهِ، وَتَابِعَهُمْ ابْنُ^[321] الْعَرَبِيِّ، وَابْنُ سَبْعِينَ وَتَلْمِذُهُمَا، ثُمَّ ابْنُ الْعَفِيفِ، وَابْنُ الْفَارِضِ، وَالنَّجْمُ الْإِسْرَائِيلِيُّ⁵ فِي قِصَائِدِهِمْ. وَكَانَ سَلَفُهُمْ مُخَالِطِينَ لِلْإِسْمَاعِيلِيَّةِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الرَّافِضَةِ، الدَّائِنِينَ أَيْضاً بِالْحُلُولِ وَالْهَيْئَةِ الْأَيِّمَةِ، مَذْهَباً لَمْ يُعْرِفْ لِأَوَّلِيهِمْ. فَأُشْرِبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مَذْهَبَ الْآخَرِ، وَاخْتَلَطَ كَلَامُهُمْ، وَتَشَابَهَتْ عَقَائِدُهُمْ.

وظَهَرَ فِي كَلَامِ الْمُتَصَوِّفَةِ الْقَوْلُ بِالْقُطْبِ، وَمَعْنَاهُ رَأْسُ الْعَارِفِينَ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُسَاوِيَهُ أَحَدٌ فِي مَقَامِهِ فِي الْمَعْرِفَةِ حَتَّى يَقْبُضَهُ اللَّهُ. ثُمَّ يُورَثُ مَقَامَهُ لآخر¹⁰ مِنْ أَهْلِ الْعِرْفَانِ. وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ ابْنُ سِينَا فِي كِتَابِ الْإِشَارَاتِ فِي فُصُولِ التَّصَوُّفِ مِنْهَا، فَقَالَ⁽¹⁾: جَلَّ جَنَابُ الْحَقِّ أَنْ يَكُونَ شَرْعَةً لِكُلِّ وَارِدٍ، أَوْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ إِلَّا الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ. وَهَذَا الْكَلَامُ^(ج) لَا تَقُومُ عَلَيْهِ حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ وَلَا دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ أَنْوَاعِ الْخُطَابَةِ. وَهُوَ بَغِينُهُ مَا يَقُولُهُ الرَّافِضَةُ فِي تَوَارِثِ الْأَيِّمَةِ عِنْدَهُمْ. فَاَنْظُرْ كَيْفَ سَرَقَتْ طِبَاعُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ هَذَا الرَّأْيَ مِنَ الرَّافِضَةِ وَدَانُوا بِهِ.¹⁵

(أ) العنوان من ع وحدها (ب) ط: وراءه (ج) ج ي: كلام.

(1) الإشارات والتنبيهات، القسمان 2، 3، ص: 851، وفيها: شريعة لكل وارد.

ثُمَّ قَالُوا بِتَرْتِيبِ وُجُودِ الْأَبْدَالِ بَعْدَ هَذَا الْقُطْبِ ، كَمَا قَالَ الشَّيْعَةُ فِي النَّقَبَاءِ ،
 حَتَّى إِنَّهُمْ لَمَّا أَسْنَدُوا لِبَاسِ خِزْقَةِ النَّصُوفِ لِيَجْعَلُوهُ أَضْلاً لَطَرِيقَتِهِمْ وَنَحْلَتِهِمْ وَقَفُوهُ
 عَلَى عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَهُوَ مِنْ هَذَا الْمَغْنَى أَيْضاً . وَإِلَّا فَعَلِيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 لَمْ يُخْتَصَّ مِنْ بَيْنِ الصَّحَابَةِ بِنِخْلَةٍ وَلَا طَرِيقَةٍ فِي لَبُوسٍ وَلَا حَالٍ ، بَلْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ
 5 وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَزْهَدَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَكْثَرَهُمْ عِبَادَةً . وَلَمْ يُخْتَصَّ
 أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي الدِّينِ بِشَيْءٍ يُؤَثِّرُ عَنْهُ عَلَى الْخُصُوصِ ، بَلْ كَانَ الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ أَسْوَةً فِي
 الدِّينِ وَالْوَرَعِ وَالزُّهْدِ وَالْمَجَاهِدَةِ ، تَشْهَدُ بِذَلِكَ سِيرَتُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ . نَعَمْ ، إِنَّ الشَّيْعَةَ
 يَخْتَلُونَ بِمَا يَقُولُونَ مِنْ ذَلِكَ اخْتِصَاصَ عَلِيٍّ بِالْفَضَائِلِ / دُونَ مَنْ سِوَاهُ مِنَ الصَّحَابَةِ ، [321ب]
 ذَهَاباً مَعَ عَقَائِدِ التَّشْيِيعِ الْمَعْرُوفَةِ لَهُمْ .

10 (1) [وَالَّذِي يَظْهَرُ ، أَنَّ الْمُتَصَوِّفَةَ بِالْعِرَاقِ لَمَّا ظَهَرَتِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ مِنَ الشَّيْعَةِ ،
 وَظَهَرَ مِنْ كَلَامِهِمْ فِي الْإِمَامَةِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا مَا هُوَ مَعْرُوفٌ ، فَاقْتَبَسُوا مِنْ ذَلِكَ
 الْمَوَازِنَةَ بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، وَجَعَلُوا الْإِمَامَةَ لِسِيَاسَةِ الْخَلْقِ فِي الْاِئْتِمَادِ إِلَى
 الشَّرْعِ ، وَأَفْرَدُوهُ بِذَلِكَ أَنْ لَا يَقَعَ اخْتِلَافٌ كَمَا تَقَرَّرَ فِي الشَّرْعِ ، ثُمَّ جَعَلُوا هَذَا
 الْقُطْبَ لِتَعْلِيمِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ ، لِأَنَّهُ رَأْسُ الْعَارِفِينَ . وَأَفْرَدُوهُ بِذَلِكَ تَشْبِيهاً بِالْإِمَامِ فِي
 15 الظَّاهِرِ ، مِنْ أَنْ يَكُونَ (ب) عَلَى وَزَانِهِ . وَإِنَّمَا سَمَّوْهُ قُطْباً لِمَدَارِ الْمَعْرِفَةِ عَلَيْهِ . وَجَعَلُوا
 الْأَبْدَالَ كَالنَّقَبَاءِ ، مِبَالِغَةً فِي التَّشْبِيهِ] .

(1) حاشية افردت بها نسخة وحدها، والغريب أنه توجد إشارة للمخرج في هذا الموقع متجهة عكس موقع الحاشية (ب) قراءة
 تقريبية لانطاس الكلمة في الأصل .

فتأمل ذلك من كلام هؤلاء^(١) المتصوفة، [واعلم أننا يشهد لك بما قلته كلام هؤلاء المتصوفة]^(ب) في أمر الفاطمي وما شخنوا به كتبهم من ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي ولا إثبات. وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم. والله يهدي إلى الحق.

[تذييل]^(ج)

5

^(د) وقد رأيت أن أجلب هنا فصلاً من كلام شيخنا العارف، كبير الأولياء بالأندلس، أبي مهدي، عيسى بن الزيات، كان يقع له أكثر الأوقات على أبيات الهروي التي وقعت له في كتاب المقامات، له، توهم القول بالوحدانية المطلقة أو تكاد تُصرح بها. وهي قوله^(١): [من السريع]

10 ما وَحَّدَ الواحدَ من واحدٍ إِذْ كُلُّ من وَحَّدَهُ جاحِدُ
توحيدُ من يُنطق عن نَعْتِهِ تَثْلِيثٌ أَبْطَلَهَا الواحدُ
توحيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ وَنَعْتُ من يَنْعَتُهُ لاجِدُ

فيقول رحمه الله على سبيل العذر عنه: استشكل الناس إطلاق لفظ الجحود على كل من وَحَّدَ الواحدَ ، ولفظ الإلحاد على من نَعْتَهُ وَوَصَفَهُ . واستنبشوا هذه الأبيات، وحملوا على قائلها واستخفوه. ونحن نقول على رأي هذه الطائفة: إن معنى

15

(١) سقط من ج (ب) من ط ج، وسقط من ع ي (ج) العنوان من ع وحدها (د) أوردت النسخ ط ع ج كامل نص هذا التذييل، وسقط من ي .

(١) التلمساني : شرح منازل السائرين إلى الحق المبين للهروي 2: 609

التوحيد عندهم انتفاء عَيْنِ الحُدُوثِ بِثُبُوتِ عَيْنِ الْقِدَمِ، وَإِنَّ الوجودَ كُلَّهُ حقيقةً واحدةً، وآيَةٌ واحدةٌ. وقد قال أبو سعيد الخِرَاز، من [كبار القوم]^(أ): الحقُّ عَيْنُ^(ب) ما ظَهَرَ وعَيْنُ^(ب) ما بَطَنَ. وَيَزُودُ أَنَّ وَقُوعَ التَّعَدُّدِ فِي تِلْكَ الْحَقِيقَةِ وَوُجُودَ الْإِثْنَيْنِيهِ وَهُمْ بِاعْتِبَارِ حَضَرَاتِ الْحِسِّ بِمَنْزِلَةِ صُورِ الظُّلَالِ وَالصُّدَى وَصُورِ الْمَرَائِي. وَأَنَّ كُلَّ ما سِوَى عَيْنِ الْقِدَمِ إِذَا اسْتُثْبِتَ فَهُوَ عَدَمٌ. وهذا مَعْنَى "كان الله ولا شيء معه"، وهو الآن على ما عليه كان عندهم. وَمَعْنَى قَوْلِ لَبِيدٍ الَّذِي صَدَّقَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ⁽¹⁾ [في قوله] (ج):

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ

قالوا: فمن وَحَدَ وَنَعَتْ فَقَدْ قَالَ بِمُوحَّدٍ مُخَدَّبٍ هُوَ نَفْسُهُ، وتوحيدٍ مُخَدَّبٍ هُوَ فِعْلُهُ، وَمُوحَّدٍ قَدِيمٍ هُوَ مَغْبُودُهُ. / وقد تقدَّم أَنَّ مَعْنَى التَّوْحِيدِ انتفاءُ عَيْنِ الحُدُوثِ، [322 أ] وعَيْنُ الحُدُوثِ الآنُ ثَابِتَةٌ، بَلْ وَمُتَعَدِّدَةٌ، وَالتَّوْحِيدُ مَجْهُودٌ، وَالِدَّعْوَى كَاذِبَةٌ، كَمَنْ يَقُولُ لغيرِهِ وهما معاً في بَيْتٍ وَاحِدٍ^(د): ليس في البَيْتِ غَيْرُكَ، فيقولُ الْآخَرُ بِلِسَانِ حالِهِ: لَا يَصِحُّ هَذَا إِلَّا لو عُدِمَتْ أَنْتَ. وقد قال بعضُ الْمُحَقِّقِينَ في قولِهِم: خَلَقَ اللَّهُ الزَّمانَ: هذه أَلْفَاظٌ تُناقِضُ أَصُولَهَا، لِأَنَّ خَلْقَ الزَّمانِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى الزَّمانِ، وَهُوَ فِعْلٌ

(أ) ظ: كبارهم (ب) ظ: غير (ج) سقط من ظ (د) سقط من ع ج .

(1) من حديث أبي هريرة: أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا ... وهو في الصحيحين: البخاري (3841) و (6741) ومسلم (2256) وعجز البيت: وكل نعيم لا محالة زائل. (انظر شرح ديوان لبيد العامري 256)، والبيت من قصيدة يرثي بها النعمان بن المنذر، طالعتها:

أَلَا تَسْأَلَانِ الْمَرْءَ مَاذَا يُحَاوِلُ أَنْحَبَ فَيَقْضَى أَمْ ضَلالٌ وَبَاطِلٌ

لابدّ من وقوعه في الزمان. وإنّا حمل على ذلك ضيق العبارة عن الحقائق، وعجز اللغات عن تأدية الحق فيها وبها.

فإذا تحقّق أنّ الموحّد هو الموحّد وغدّم ما سواه جملة، صحّ التّوحيد حقيقة. وهذا معنى قولهم: لا يعرف الله إلا الله. ولا حرج على من وحد الحقّ مع بقاء الرسوم والآثار، وإنّا هو من باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين، لأنّ ذلك 5 لازم التّقييد والعبودية والشّفعيّة. ومن ترقّى إلى مقام الجمع كان في حقه نقصاً، مع علمه بمزبنته، وأنّه تلبّس تستلزمه العبوديّة ويرفعه الشّهود ويظهر من دسّ حدوده عين الجمع.

وأعرق الأصناف في هذا الزّعم، القائلون بالوَحدة المطلقة، ومدار المعرفة بكلّ اعتبار على الانتهاء إلى الواحد. وإنّا صدر هذا القول من التّأطيم على سبيل 10 التّخريض والتّنبية والتّفطين لمقام أعلى، ترتفع فيه الشّفعيّة ويحصل التّوحيد المطلق عينا لا خطاباً وعبارة. فمن سلّم استراح، ومن نازعته حقيقته أنس بقوله: كنت سَمْعُهُ وبَصَرُهُ⁽¹⁾. وإذا عرفت المعاني لا مُشاحّة في الألفاظ. والذي يفيد هذا كلّهُ تحقّق أمرٍ فوق هذا الطّور لا نُطق فيه ولا خبر عنه. وهذا المقدار من الإشارة كافٍ؛ والتّعمّق في مثل هذا حجاب، وهو الذي أوقع في المقالات المعروفة. 15 انتهى كلام الشّيخ أبي مَهدي ابن الزّيّات⁽¹⁾. ونقله^(ب) من كتاب الوزير ابن

(1) سقط من ع (ب) سقط من ع ج .

(1) قطعة من الحديث القدسي: "من عادى لي ولياً" الذي تقدّر به البخاري 8: 131 حديث رقم (6502).

الخطيب الذي أَلَفَهُ / في المَحَبَّة، وسمَّاهُ⁽¹⁾ التعريف بالحبِّ الشريف. وقد سَمِعْتُهُ من [322ب] شيخنا أبي مَهْدِي مِراراً، إلَّا أَنِّي رَأَيْتُ [أَن] ⁽¹⁾ رَسَمَ الكِتَابِ أَوْعَى لَهُ لَطُولَ عَهْدِي بِهِ. [والله الموفق] ^(ب).

^(ج) تَمَّ إِنَّ كَثِيراً من الفُجَّهَاءِ وَأَهْلِ الفُتْيَا انْتَدَبُوا لِلرَّدِّ عَلَى هَؤُلَاءِ المتأخِّرينَ في هذه المقالاتِ وأمثالها ، وشملوا بالتكثير سائر ما وَقَعَ لَهُم في الطَّرِيقَةِ . والحقُّ أَنَّ الكلامَ معهم فيه تفصيلٌ. فَإِنَّ كلامَهُم في أَرْبَعَةِ مواضع:

أحدها: الكلامُ على المجاهداتِ، وما يَحْصُلُ من الأذواقِ والمواجِدِ، ومُحاسِنَةِ النَّفْسِ على الأَعْمَالِ لِتَحْصُلِ تِلْكَ الأذواقِ الَّتِي تُصِيرُ مَقَاماً، وَيَتَرَفَّى مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ كَمَا قُلْنَاهُ.

10 وثانيها: الكلامُ في الكَشْفِ والحَقَائِقِ المدركةِ من عَالَمِ الغَيْبِ ، مثل الصفاتِ الرَّبَّانِيَّةِ، والعرشِ، والكُرْسِيِّ، والملائِكَةِ، والوَحْيِ، والتَّبَوُّةِ، والزَّوْجِ، وحَقَائِقِ كُلِّ موجودٍ غَائِبٍ أو شَاهِدٍ، وَتَرْتِيبِ الأَكْوَانِ فِي صُدُورِهَا عَنْ مُوجِدِهَا ومَكُونِهَا، كَمَا مَرَّ. وثالثها: التَّصَرِّفَاتُ فِي العوالمِ والأَكْوَانِ بأنواعِ الكراماتِ.

15 ورابعها: أَلْفَاظٌ موهِمةٌ الظَّاهِرِ، صَدَرَتْ من الكَثِيرِ من أَيْمَةِ القُومِ، يُعَبِّروْنَ عنها في اصطلاحهم بالشَّطِّحاتِ تُشْتَشْكَلُ ظواهرُها، فُنَكَّرُ، وَمُحَسَّنٌ، وَمُتَأَوَّلٌ.

(أ) من ج ع، وسقط من ط (ب) من ع ج وسقط من ط (ج) بدء استئناف نسخة ي للنص بعد انقطاعها .

(1) ابن الخطيب : التعريف 499 .

فأما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الأدواق والمواجد في نتائجها، ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها، فأمر لا مدفع فيه لأحد. وأذواقهم فيه صحيحة، والتحقق بها هو عين السعادة.

وأما الكلام في كرامات القوم وإخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات، فأمر صحيح غير منكر، وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها، فليس ذلك من الحق. وما احتج به الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني من أئمة الأشعرية على إنكارها بالنياسها بالمعجزة⁽¹⁾، فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدي، وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به. قالوا: ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور، لأن دلالة المعجزة / على الصدق عقلية، فإن صفة نفسها التصديق. فلو [323] وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة النفس، وهو محال. هذا مع أن الوجود شاهد 10 بوقوع الكثير من هذه الكرامات، وإنكارها نوع مكابرة. وقد وقع للصحابه وأكابر السلف كثير من ذلك؛ وهو معلوم مشهور.

وأما الكلام في الكشف وإعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات، فأكثر كلامهم فيه من نوع التشابه لما أنه وجداني عندهم. وفاقد الوجدان بمغزل عن أدواقهم فيه. واللغات لا تعطي دلالة على مرادهم منه، لأنها لم توضع إلا للمتعارف، 15 وأكثره من المحسوسات. فينبغي أن لا نعرض لكلامهم في ذلك، ونتركه فيما تركناه من التشابه. ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة، فأكرم بها سعادة.

(1) انظر الرسالة القشيرية: 158 (باب كرامات الأولياء).

وأما الألفاظ الموهمة التي يُعبرون عنها بالشطحات، ويؤاخذهم بها أهل
 الشرع، فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس، والواردات
 تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه. وصاحب الغيبة غير مخاطب، والمجبور
 معذور. فمن علم منهم فضله واقتداؤه، حُمل على القصد الجميل من هذا وأمثاله،
 5 وأن العبارة عن المواجه صعبة لفقدان الوضع لها، كما وقع لأبي يزيد [السبطي] ⁽¹⁾ ⁽¹⁾
 وأمثاله. ومن لم يُعلم فضله ولا اشتهر، فمواخذ بما صدر عنه من ذلك، إذ لم يتبين
 لنا ما يحملنا على تأويل كلامه. وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسه ولم تملكه
 الحال، فمواخذ أيضاً. ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الحلاج، لأنه تكلم في
 حضور وهو مالك لحاله. والله أعلم.

10 وسلف المتصوفة من أهل الرسالة، أعلام الملة الذين أشرنا إليهم من قبل، لم
 يكن لهم جزئ على كشف الحجاب، ولا هذا النوع من الإدراك. إنما همم الاتباع
 والافتداء ما استطاعوا. / ومن عرض له شيء من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به،
 بل يقرؤون منه، ويروون أنه من العوائق والمحن، وأنه إدراك من إدراكات النفس
 مخلوق حادث، وأن الموجودات لا تنحصر في مدارك الإنسان، وعلم الله أوسع،
 15 وخلق أكبر، وشريعته بالهداية أملك. فلم ينطقوا بشيء مما يدركون، بل حطروا
 الخوض في ذلك، ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه
 والوقوف عنده. بل يلتزمون طريقهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من

(1) من ع، وسقط من ط ج ي .

(1) كان يقول: سبحانه ما أعظم شاني ! انظر الصفيدي : الوافي 16: 516 .

الاتباع والافتداء، ويأمرُونَ أصحابَهُم بالتزامِها. وهكذا يُنبغي أن تكونَ حالُ المرِيدِ.
واللهُ الموفِّقُ.

18 • علمُ تَعْيِيرِ الرُّؤْيَا

- هذا العلمُ من العلومِ الشَّرْعِيَّةِ ، وهو حادثٌ في المِلَّةِ عندما صارت العلومُ
صنائعَ وكتبَ النَّاسِ فيها . وأمَّا الرُّؤْيَا والتَّعْيِيرُ لها فقد كانَ موجوداً في السَّلَفِ كما
هو في الخَلَفِ . ورُبَّمَا كانَ في المِلَلِ والأُمَمِ من قَبْلُ ، إلَّا أنَّه لم يَصِلْ إلَيْنَا للاكْتِفَاءِ فيه
بكلامِ المُعْتَبَرِينَ من أَهْلِ الإسلامِ . وإلَّا فالرُّؤْيَا موجودةٌ في صِنْفِ البَشَرِ على الإطلاقِ ،
ولا بُدَّ من تَعْيِيرِها . وقد كانَ يُوسُفُ الصَّدِيقُ صلواتُ اللهِ عليه يُعَبِّرُ الرُّؤْيَا ، كما وَقَعَ في
القرآن . وكذا ثَبَّتَ في الصَّحِيحِ عن النَّبِيِّ ﷺ ، وعن أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ⁽¹⁾ .
- والرُّؤْيَا مَدْرَكٌ من مَدَارِكِ الغَيْبِ . وقال ﷺ ⁽²⁾ : "الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ من
سِتَّةٍ وأَرْبَعِينَ جُزْءاً من النَّبُوَّةِ" . وقال ⁽³⁾ : "لم يَتَّقِ من المُبَشِّرَاتِ إلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ ،
يَراها الرَّجُلُ الصَّالِحُ أو تُرى لَهُ" . وأوَّلُ ما بُدِئَ به النَّبِيُّ ﷺ من الوَحْيِ الرُّؤْيَا .

(1) ينظر في ذلك مجمل كتاب "التعير" في صحيح البخاري 9: 37-58 ففيه عشرات الأحاديث التي عبرها رسول الله ﷺ وأبو بكر أيضاً .

(2) أخرجه مالك في الموطأ (2746) برواية الليثي ، وأحمد 3: 149 والبخاري (6983) وابن ماجه (3893) وغيرهم .

(3) أخرجه مالك في الموطأ (2749) برواية الليثي من حديث عطاء بن يسار مرسلاً . وأخرج البخاري (6990) من حديث أبي هريرة القسم الأول منه . وقال ابن عبد البر : وحديث عطاء بن يسار المذكور في هذا الباب يتصل معناه من وجوه ثابتة من حديث ابن عباس ، وحذيفة ، وابن عمرو ، وعائشة ، وأم كرز الخزاعية . (التمهيد 5: 56) .

فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح⁽¹⁾. وكان ﷺ إذا اقتتل من صلاة الغداة يقول لأصحابه: "هل رأى أحدٌ منكم الليلة رؤيا؟"⁽²⁾ يسألهم عن ذلك ليستبشّر بما يقع من ذلك ممّا فيه ظهور الدين وإعزازه.

/ وأما السبب في كون الرؤيا مذكراً للغيب، فهو أنّ الرّوح القلبيّ، وهو [324] البخار اللطيف المنبعث من تجويف القلب اللّحميّ، يتنشّر في الشّريانات ومع الدّم في سائر البدن، وبه تكمل أفعال القوى الحيوانيّة وإحساسها. فإذا أدركه الملال بكثرة التصرّف في الإحساس بالحواس الخمس، وتصريف القوى الظاهرة، وغشي سطح البدن ما يغشاه من بزد الليل، انخسّ الرّوح من سائر أقطار البدن إلى مركزه القلبيّ يستجم بذلك لمعاودة فعله، فتعطّلت الحواس الظاهرة كلّها. وذلك هو معنى النوم، كما تقدّم في أول الكتاب. 10

ثمّ إنّ هذا الرّوح القلبيّ هو مطيّة للروح العاقل من الإنسان. والرّوح العاقل مدرك لجميع ما في عالم الأمر بذاته، إذ حقيقة ذاته أنّه عين الإدراك. وإنّا بمنع من تعقّله للمدارك الغيبيّة ما هو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقوّاه وحواسّه. فلو قد خلا من هذا الحجاب وتجرّد عنه، لرجع إلى حقيقة، وهو عين الإدراك، فيفعل كلّ مدرك. فإذا تجرّد عن بغضها خفت شواغلّه، فلا بدّ له من إدراك لمحة من عالمه بقدر ما تجرّد له. وهو في هذه الحالة قد خفت عنه شواغل الحس الظاهر 15

(1) أخرجه البخاري (3) و (4670) و (6581) ومسلم (160) والترمذي (3632) وفيه تمام تحريجه .
(2) أخرجه مالك في الموطأ (2748 برواية الليثي) وأحمد 2: 325 من حديث أبي هريرة، وأخرجه البخاري (845) و (1386) و (2085) و (2791) ومسلم (2275) من حديث سمرة بن جندب . وله طرق أخرى.

كلُّها، وهي الشَّاعِلُ الأعظمُ. فاستعدَّ لقبولِ ما هنالك من المداركِ اللَّائِقَةِ به من عالمِهِ. وإذا أدركَ ما يُدركُ من عوَالِمِهِ^(أ)، رجعَ به إلى بَدَنِهِ، إذ هو ما دام في بَدَنِهِ جَسَامِيًّا، لا يُمكنُهُ التَّصَرُّفُ إلَّا بالمداركِ الجِسْمَانِيَّةِ. والمداركُ الجِسْمَانِيَّةُ لِلْعِلْمِ إنَّما هي الدِّماغِيَّةُ، والمتصرِّفُ منها هو الخيالُ. فإنَّه يَنْتَزِعُ مِنَ الصُّوَرِ المحسوسةِ صُوراً خياليَّةً، ثمَّ يَدْفَعُهَا إِلَى [الحافظة]^(ب) تحفظُها له إلى وَقْتِ الحاجةِ إليها عندَ النظرِ 5 والاستِذلالِ. وكذلك تُجَرِّدُ النَّفْسُ منها صُوراً أُخْرَى نفسانيَّةً عقليَّةً، فيترقَّى [324ب] التَّجْرِيدُ مِنَ المحسوسِ / إلى المَعْقُولِ، والخيالُ واسِطَةٌ بينهما. وكذلك إذا أدركتِ النَّفْسُ من عالمِها ما تُدركُهُ، أَلْقَتْهُ إِلَى الخيالِ، فيصوِّرُهُ بالصُّوَرِ المناسبةِ له، ويدفعُهُ إلى الحِسِّ المُشْتَرَكِ، فیراهُ التَّائِمُ كأنَّه محسوسٌ، فيتنزَّلُ [هذا]^(ج) المُدْرَكُ مِنَ الرُّوحِ العَقْلِيِّ إلى الحِسِّ، والخيالُ أيضاً واسِطَةٌ.

10

هذا حَقِيقَةُ الرُّؤْيَا؛ ومن هذا التَّقريرِ، يَظْهَرُ لَكَ الفَرْقُ بَيْنَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ وَأَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ الكاذِبَةِ. فإنَّها كُلُّها صُورٌ في الخيالِ حَالَةٌ النَّوْمِ. لكنَّ إنَّ كانت تلكَ الصُّوَرُ مُنْزَلَةٌ مِنَ الرُّوحِ العَقْلِيِّ المدركِ فهي رُؤْيَا، وإنَّ كانت مأخوذةً مِنَ الصُّوَرِ الَّتِي فِي الحَافِظَةِ الَّتِي كانَ الخيالُ أودَعَهَا إِيَّاهَا مُنْذُ اليَقَظَةِ، فهي أَضْغَاثُ 15 أَحْلَامٍ.

15

^(د) [وَأَعْلَمُ أَنَّ لِلرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ^(هـ) عِلَامَاتٍ تَوْذِنُ بِصِدْقِهَا وَتَشْهَدُ بِصَحَّتِهَا،

(أ) ج: عالمه (ب) ظ: الحافظ (ج) من ع، وسقط من ظ ي ج (د) هذا النص مدرج في متن نسخة ع، ومضاف في بطاقة على نسخة ج، وسقط من ظ ي (هـ) ج: وللرؤيا الصادقة .

فَيَسْتَشْعِرُ الزَّائِي الْبَشَارَةَ مِنْ اللَّهِ بِمَا أُلْقِيَ إِلَيْهِ فِي نَوْمِهِ. فَهِيَ: سُرْعَةُ انْتِبَاهِ الزَّائِي
عِنْدَمَا يُدْرِكُ الرُّؤْيَا، كَأَنَّهُ يُعَاجِلُ الرَّجُوعَ إِلَى الْحِسِّ بِالْيَقَظَةِ، وَلَوْ كَانَ مُسْتَغْرِقاً فِي
نَوْمِهِ لِيَقْلَ مَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ الْإِذْرَاكِ. فَيَفِرُّ مِنْ تِلْكَ الْحَالَةِ إِلَى حَالَةِ الْحِسِّ
الَّتِي تَبْقَى النَّفْسُ فِيهَا مُنْعَمَسَةً بِالْبَدَنِ وَعَوَارِضِهِ. وَمِنْهَا: ثُبُوتُ ذَلِكَ الْإِذْرَاكِ وَدَوَامِهِ
بِانْطِبَاعِ تِلْكَ الرُّؤْيَا بِتَفَاصِيلِهَا فِي حِفْظِهِ، فَلَا يَتَخَلَّلُهَا سَهْوٌ وَلَا نِسْيَانٌ، وَلَا يَحْتَاجُ
إِلَى إِحْضَارِهَا بِالْفِكْرِ وَالتَّذْكَرِ، بَلْ تَبْقَى مَتَّصِرَةً فِي ذَهْنِهِ إِذَا انْتَبَهَ، وَلَا يَقْرُبُ عَنْهُ
مِنْهَا شَيْءٌ، لِأَنَّ الْإِذْرَاكَ النَّفْسَانِيَّ لَيْسَ بِزَمَانِيٍّ، وَلَا يَلْحَقُهُ تَرْتِيبٌ، بَلْ يُدْرِكُهُ دَفْعَةً
فِي زَمَنِ فَرْدٍ.

وَأَضْغَاثُ الْأَحْلَامِ زَمَانِيَّةٌ، لِأَنَّهَا فِي الْقُوَى الدَّمَاعِيَّةِ، يَسْتَخْرِجُهَا الْخِيَالُ مِنْ
الْحَافِظَةِ إِلَى الْحِسِّ الْمَشْتَرَكِ، كَمَا قُلْنَا. وَأَفْعَالُ الْبَدَنِ كُلُّهَا زَمَانِيَّةٌ، فَيَلْحَقُهَا التَّرْتِيبُ
فِي الْإِذْرَاكِ، وَالْمُتَقَدِّمُ وَالْمُتَأَخَّرُ، وَيَعْرِضُ النَّشْيَانُ الْعَارِضُ لِلْقُوَى الدَّمَاعِيَّةِ. وَلَيْسَ
كَذَلِكَ مَدَارِكُ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ، إِذْ لَيْسَتْ بِزَمَانِيَّةٍ وَلَا تَرْتِيبٌ فِيهَا. وَمَا يَنْطَبِعُ فِيهَا مِنْ
الْإِذْرَاكِ فَيَنْطَبِعُ دَفْعَةً وَاحِدَةً فِي أَقْرَبِ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ. وَقَدْ تَبْقَى الرُّؤْيَا بَعْدَ
الْإِنْتِبَاهِ حَاضِرَةً فِي الْحِفْظِ أَيْاماً مِنَ الْعُمْرِ، لَا تَشُدُّ بِالْغَفْلَةِ عَنِ الْفِكْرِ بَوَاجِهُ إِذَا كَانَ
الْإِذْرَاكَ الْأَوَّلُ [لَهَا] ^(١) قُوَّةً. وَإِذَا كَانَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ الرُّؤْيَا بَعْدَ الْإِنْتِبَاهِ مِنَ النَّوْمِ بِأَعْمَالِ
الْفِكْرِ وَالْوِجْهِ إِلَيْهَا، أَوْ يَنْسَى الْكَثِيرَ مِنْ تَفَاصِيلِهَا حَتَّى يَتَذَكَّرَهَا، فَلَيْسَتْ الرُّؤْيَا
بَصَادِقَةٍ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ أَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ.

(١) مِنْ ج .

وهذه العلامات من خواص الوحي . قال الله تعالى لنبيّه : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِغْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [سورة القيامة، الآيات 16- 19]. والرؤيا لها نسبة من النبوة والوحي، كما في الصحيح. قال ﷺ⁽¹⁾: "الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة". فليخصها أيضاً نسبة إلى خواص النبوة بذلك القدر. فلا تستبعد ذلك، فهذا وجهه. والله 5 الخالق لما يشاء⁽¹⁾.

وأما معنى التعبير، فاعلم أنّ الروح العقلي إذا أدرك مدركه وألقاه إلى الخيال فصوّره، فإنّما يصوّره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء. كما يدرك معنى السلطان الأعظم، فيصوّره الخيال بصورة البحر، أو يدرك العداوة فيصوّرها الخيال في صورة الحية. فإذا استيقظ وهو لم يعلم من أمره إلا أنّه رأى البحر أو الحية، فينظر 10 المعبر بقوة التشبيه بعد أن يتيقّن أنّ البحر صورة محسوسة وأنّ المدرك وراءها، ويهتدي^(ب) بقرائن أخرى تعيّن له المدرك، فيقول مثلاً: هو السلطان، لأنّ البحر خلق عظيم يناسب أن يشبّه به السلطان. وكذا الحية، يناسب أن تشبّه بالعدو لعظم^(ج) ضررها. وكذا الأواني تشبّه بالنساء، لأنهنّ أوعية. وأمثال ذلك.

ومن المرائي ما يكون صريحاً لا تقتصر إلى تعبير لجلالها ووضوحها، أو قُرب 15 [النسبة]^(د) فيها بين المدرك وشبهه. ولهذا وقع في الصحيح: "الرؤيا ثلاث: رؤيا من

(1) نهاية النص المدرج في متن نسخة ع، والمضاف في بطاقة على نسخة ج، وقد سقط من ط ي (ب) في ي: وهو يهتدي (ج) في ع: لعظم (د) ط ي: التشبيه .

(1) تقدّم تخرجه في صفحة 281 حاشية 2 .

الله، ورؤيا من الملك، ورؤيا من الشيطان⁽¹⁾. فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر إلى تأويل، والتي من الملك هي / الرؤيا الصادقة تفتقر إلى التعبير، [325] والرؤيا التي من الشيطان هي الأضغاث.

واعلم أيضاً أن الخيال إذا أُلقي إليه الروح مُدركه، فإنما يُصوره في القوالب المعتادة للحس. وما لم يكن الحس أذركه قط من القوالب فلا يُصور فيه شيئاً. فلا يمكن من وُلد أغمى أكمة⁽¹⁾ أن يُصور له السلطان بالبحر، ولا العدو بالحية، ولا النساء بالأواني، لأنه لم يدرك شيئاً من هذه، وإنما يُصور له الخيال أمثال هذه في شبهها ومناسبتها من جنس مداركه التي هي المسموعات والمشمومات. وليتخفظ المعبر من مثل هذا، فربما اختلط به التعبير وفسد قانونه.

ثم إن علم التعبير علم بقوانين كلية يثني عليها المعبر عبارة ما يقص عليه. وتأويله كما يقولون: البحر يدل على السلطان. وفي موضع آخر يقولون: البحر يدل على الغيظ، وفي موضع آخر على الهَم والأمر الفادح. ومثل ما يقولون: الحية تدل على العدو. وفي موضع آخر يقولون: تدل على الحياة. وفي موضع آخر يقولون^(ب): هي كاتم سر، وأمثال ذلك. فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية، ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي تُعين من هذه ما هو أليق بالرؤيا. وتلك القرائن، منها في اليقظة، ومنها في النوم، ومنها ما يتقدح في نفس المعبر بالخاصية التي خلقت فيه. وكل مُيسر لما خلق له.

(1) حاشية مضافة في ع لم تدرجها ط ج ي (ب) من ع ظ، وأغفلها ج ي .

(1) البخاري 9: 48 (7017)، مسلم (2263)، وتقدم في الجزء الأول 1: 186 (1) .

ولم يَزَلْ هذا العلمُ يُتناقلُ بين السَّلَفِ، وكان محمد بن سيرينَ فيهم من أشهرِ العلماءِ به . وكُنِيت عنه في ذلك قوانينُ ، وتناقلها الناسُ لهذا العهد . وألفَ الكُزَمائيُّ فيه من بعده، ثم أَلَفَ المتأخرونَ وأكثرُوا. والمتداولُ بين أهل المغرب لهذا العهد كُتِبَ ابن أبي طالب القيرواني، من علماء أهل القيروان، مثل المُتَمَع⁽¹⁾ وغيره. وكتابُ الإشارةِ للسَّالِمِيِّ من أُنْفَعِ الكُتُبِ فيه [وأخَصَرُها. وكذلك كتابُ المَرْقَبَةِ العُلَيَّا 5 لابن راشد، من مَشِيخَتِنَا بتونس] (ب) .

[325ب] وهو علمٌ مضيءٌ بنور النبوة ، للمُنَاسِبَةِ الَّتِي يَنْبَغُهَا ، ولكَوْنِهَا / كانت من مدارِكِ الوَحْيِ، كما ثبت في الصحيح⁽¹⁾. ﴿وَاللَّهُ عَلَّمَ الْغُيُوبَ﴾ [سورة التوبة، من الآية 78].

10

19 ❁ العلومُ العَقْلِيَّةُ وَأَصْنَافُهَا

وأما العلومُ العَقْلِيَّةُ الَّتِي هِيَ طَبِيعِيَّةٌ لِلإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ ذُو فِكْرٍ، فَهِيَ غَيْرُ مُخْتَصَّةٍ بِمِلَّةٍ، بل يوجَدُ النَّظَرُ فِيهَا لِأَهْلِ الْمِلَلِ كُلِّهِمْ، وَيَسْتَوُونَ فِي مَدَارِكِهَا وَمَبَاحِثِهَا. وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ مُذْ كَانَ عُمْرَانُ الْخَلِيقَةِ. وَتُسَمَّى هَذِهِ الْعُلُومُ عُلُومَ الْفَلَسَفَةِ وَالْحِكْمَةِ.

(1) سقط من ج (ب) من ع وحدها، لم تدرجه ظ ي ج .

(1) يشير إلى حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ : "الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة". وتقدم تخريجها في صفحة (281) .

وهي مُشْتَمِلَةٌ على أربعة علوم:

الأول، عِلْمُ الْمَنْطِق. وهو عِلْمٌ يَعْصِمُ الدَّهْنَ عَنِ الْخَطَا فِي افْتِنَائِصِ الْمَطَالِبِ الْمَجْهُولَةِ مِنَ الْأُمُورِ الْحَاصِلَةِ الْمَعْلُومَةِ^(أ). وفَائِدَتُهُ تَمْيِيزُ الْخَطَا مِنَ الصَّوَابِ فِيمَا يَلْتَمِسُهُ التَّائِظُ فِي الْمَوْجُودَاتِ وَعَوَارِضِهَا^(ب) لِيَقِفَ عَلَى تَحْقِيقِ الْحَقِّ فِي الْكَائِنَاتِ [نَفِيًّا وَثُبُوتًا]^(ج) بِمُنْتَهَى فِكْرِهِ.

ثُمَّ التَّظَرُّعُ بَعْدَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ، إمَّا فِي الْمَحْسُوسَاتِ مِنَ الْأَجْسَامِ الْعُنْصَرِيَّةِ وَالْمَكُونَةِ عَنْهَا مِنَ الْمَغْدِنِ وَالتَّيَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ، وَالْأَجْسَامِ الْفَلَكيَّةِ، وَالْحَرَكَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ، أَوِ النَّفْسِ الَّتِي تَتَّبَعُ عَنْهَا الْحَرَكَاتُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ. وَيُسَمَّى هَذَا الْقَنُْ بِالْعِلْمِ الطَّبِيعِيِّ، وَهُوَ الْعِلْمُ الثَّانِي مِنْهَا.

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ التَّظَرُّعُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ مِنَ الرُّوحَانِيَّاتِ، وَيُسَمُّونَهُ الْعِلْمَ الْإِلَهِيَّ، وَهُوَ الْعِلْمُ الثَّلَاثُ مِنْهَا.

وَالْعِلْمُ الرَّابِعُ، وَهُوَ التَّائِظُ فِي الْمَقَادِيرِ. وَيَشْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومٍ، وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى التَّعَالِيمَ.

أَوَّلُهَا: عِلْمُ الْهَنْدَسَةِ، وَهُوَ النَّظَرُ فِي الْمَقَادِيرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، إمَّا الْمُنْفَصَلَةَ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا مَعْدُودَةً، أَوِ الْمَتَّصِلَةَ^(د). وَهِيَ إمَّا ذُو بُعْدٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْخَطُّ، أَوِ ذُو بُعْدَيْنِ، وَهُوَ السَّطْحُ، أَوِ ذُو أبعادٍ ثَلَاثَةٍ، وَهُوَ الْجِسْمُ التَّعْلِيِي. يُنْظَرُ فِي هَذِهِ

(أ) سقط من ج (ب) كذا في ط ج ي، وفي ع: التصورات والتصديقات الناتجة والعرضية، ليقف (ج) من ع، وسقط من ط ج ي (د) ع: متصلة.

المقادير وما يَعْرِضُ لها، إمّا من حيث ذاتها ، أو من حيثُ نسبةً بَعْضُها إلى بَعْضٍ.

وثانيها: علم الأَرْتَاطِيْقِيّ، وهو معرفة ما يَعْرِضُ للكَمِّ الْمُتَفَصِّلِ الَّذِي هو العَدَدُ، ويوجدُ له من الخواصّ والعوارض / اللَّاحِقَةِ. [326]

وثالثها: علم الموسِيقِيّ، وهو معرفة نِسْبِ⁽¹⁾ الأصوات والتَّعَمُّعِ بَعْضُها من بعض، وتَقْدِيرِها بِالْعَدَدِ. وثمرته معرفة تلاحين الغناء.

ورابعها: علم الهَيْئَةِ، وهو تَعْيِينُ الأشكال للأفلاك، وَحَضْرُ أَوْضَاعِها، وتَعَدُّدُها لِكُلِّ كَوَكَبٍ من السَّيَّارَةِ [وَالثَّابِتَةِ]^(ب)، والقيامُ على مَعْرِفَةِ ذلك من قِبَلِ الحركاتِ السَّامِيَةِ المَشَاهِدَةِ المَوْجُودَةِ لِكُلِّ واحدٍ منها ، ومن رُجُوعِها واسْتِقَامَتِها وإِقْبَالِها وإِذْبَارِها.

فهذه أصولُ العُلُومِ الفَلَسَفِيَّةِ، وهي سَبْعَةٌ: المنطقُ، وهو المَقْدَمُ، وتَعَدُّهُ التَّعَالِيمُ. فالأَرْتَاطِيْقِيّ أولاً، ثُمَّ الهَنْدَسَةُ، ثُمَّ الهَيْئَةُ، ثُمَّ الموسِيقِيّ، ثُمَّ الطَّبِيعِيَّاتُ، ثُمَّ الإِلَهِيَّاتُ.

ولِكُلِّ واحدٍ منها فُرُوعٌ تَتَفَرَّعُ عَنْهُ. فمن فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ الطَّبُّ، ومن فُرُوعِ علمِ العَدَدِ علمُ الحِسابِ، والفرائضُ، والمعاملاتُ. ومن فُرُوعِ الهَيْئَةِ الأَزْيَاجُ ، وهي 15 قَوَانِينُ حُسْبَانَاتِ حركاتِ الكواكِبِ وتَعْدِيلِها، لِيُوقَفَ على مَوَاضِعِها متى قُصِدَ ذلك. ومن فُرُوعِ النَّظَرِ فِي النُّجُومِ علمُ الأَحْكَامِ التَّجُومِيَّةِ.

(1) من ظ ج ي ، وفي ع: نِسْبَةٌ (ب) من ع، وسقط من ظ ج ي .

ونحن نتكلّم عليها واحداً بعد واحدٍ إلى آخرها.

واعلم أنّ أكثر من عُني بها في الأجيال [الذين]^(أ) عرفنا أخبارهم، الأمّتان العظيمتان في الدّولة قبل الإسلام، وهما فارسُ والروم. فكانت أسواق العلوم نافقةً لديهم على ما بلغنا، لما كان العُمُران موفوراً فيهم، والدّولة والسّلطان قبيل الإسلام وعصره لهم. فكان لهذه العلوم بحورٌ زاخرةٌ في آفاقهم وأمصاريهم. 5

وكان للكلدانيين ومن قبلهم من الشّريانيين ومن عاصرهم من القبط، عنايةً بالسّحر والتّجامة، وما يتبعها من التأثيرات والطلّسمات. وأخذ ذلك عنهم الأمم، من فارس ويونان، واختصّ به القبط، وطماّ بحرها فيهم، كما وقع في المثلّث من خبر هاروت / وماروت وشأن السّحرة، وما نقله أهل العالم^(ب) من شأن البراري^(ج) [326ب] بضعيد مضر. ثمّ تتابعت المللُ بحظر ذلك وتحرّيه، فدرست علومه وبطلت كأن لم تكن، إلّا بقايا يتناقلها مُنتحلّو هذه الصّنائع، الله أعلم بصحّتها. مع أنّ سيوف الشرع قائمةٌ على ظهورها ومابغةٌ من [اختيارها]^(د).

وأما الفرس، فكان شأن هذه العلوم العقليّة عندهم عظيماً ونطاقها مُتسعاً، لما كانت^(هـ) عليه دُولهم من الضّخامة واتّصال الملك. ولقد يُقال: إنّ هذه العلوم إنّما وَصَلت إلى يونان منهم، حين قتل الإسكندر دارا وغلب على مملكة الكينيّة، 15 فاستولى على كثيرهم وعلومهم. إلّا أنّ المسلمين لما افتتحو بلاد فارس وأصابوا من

(أ) من ع، وفي ط ج ي: الذي (ب) من ط ج ي، وفي ع: العلم (ج) في ع: البراري (د) من ع، وفي ط ج ي: اختباؤها (هـ) في ج: كان.

كتبهم وصحائف علومهم ما لا يأخذه الحصر، كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في شأنها وتنفيلها للمسلمين، فكتب إليه عمر أن اطرحوها⁽¹⁾ في الماء، فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه، وإن يكن ضللاً فقد كفناه الله؛ فطرحوها في الماء أو في النار، وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا.

5

وأما الروم، فكانت الدولة منهم^(ب) ليونان أولاً. وكان لهذه العلوم بينهم مجال رخب، وحملها مشاهير من رجالهم، مثل أساطين الحكمة وغيرهم. واختص فيها المشاءون، منهم أصحاب الرواق، بطريقة حسنة في التعليم، كانوا يقرأون في رواق يظللهم من الشمس والبرد على ما زعموا. واتصل فيها سند تعليمهم على ما يرمون من لدن لقمان الحكيم في تلميذه إلى سُقراط الدن، ثم إلى تلميذه أفلاطون، ثم إلى 10 تلميذه أرسطو، ثم إلى تلميذه الإسكندر الأفروديسي وتامسطيوس، وغيرهم. وكان أرسطو معلماً للإسكندر، ملكهم الذي غلب الفرس على ملكهم وانتزع الملك من أيديهم. وكان أرسخهم في هذه العلوم قدماً وأبعدهم فيها صيتاً وشهرة. وكان يُسمى [327] / المعلم الأول، فطار له في العالم ذكر.

ولما انقضى أمر اليونانيين، وصار الأمر للقيصرية، وأخذوا بدين النصرانية، 15 هجروا^(ج) تلك العلوم كما تقتضيها الملل والشرائع فيها، وبقيت في صُحفها ودواوينها مخلدة باقية في خزائنها. ثم ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيهم.

(1) من ظ ج ي، وفي ع: اطرخها (ب) ج: فيهم (ج) ظ: وهجروا.

ثم جاء الله بالإسلام، وكان لأهله الظهور الذي لا كفاء له. وانتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للأمم. وابتدأ أمرهم بالسداجة والغفلة عن الصنائع، حتى إذا تبخّج السلطان والدولة، وأخذوا من الحضارة بالخط الذي لم يكن لغيرهم من الأمم، وتفنّوا في الصنائع والعلوم، تشوّفوا إلى الاطلاع على هذه العلوم الحكيمية بما سمعوا من الأساقفة والأقسة المعاهدين بعض ذكر منها، وما تسمو إليه أفكار الإنسان فيها. 5 فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب الثعالب مترجمة. فبعث إليه بكتاب أوقليدس، وبعض كتب الطبيعيات. وقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها، وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي [منها] ⁽¹⁾.

وجاء المأمون من بعد ذلك، وكانت له في العلم رغبة بما كان ينتج له. فانبعث لهذه العلوم حرصاً، وأوفد الرسل على ملوك ^(ب) الروم في استخراج علوم اليونانيين 10 وانساجها بالخط العربي. وبعث المترجمين لذلك، فأوعى منه واستوعب. وعكف عليها النظار من أهل الإسلام، وحذقوا في فنونها، وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها. وخالفوا كثيراً من آراء المعلم الأول، واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده. ودوّنوا في ذلك الدواوين، وأزبنوا على من تقدّمهم في هذه العلوم.

15 وكان من أكابرهم في الملة أبو نصر الفارابي، وأبو علي بن سينا بالمشرق، والقاضي أبو الوليد بن رشد، والوزير أبو بكر بن الصائغ بالأندلس، / إلى آخرين [327ب] بلغوا الغاية في هذه العلوم، واختص هؤلاء بالشهرة والذكر. واقتصر كثير على

(1) من ع ج ي، وفي ظ: فيها (ب) ج: ملك.

اُنْتِحَالِ التَّعَالِيمِ وما يَنْضَافُ إليها من عُلُومِ النَّجَامَةِ وَالسَّخَرِ وَالطَّلَسَمَاتِ. ووقفت الشهرة في هذا المُنْتَخَلِ على [جابر بن حيان من أهل المشرق]^(أ)، وعلى مَسَلَمَةَ [ابن أحمد]^(ب) المَجْرِيَّ، من أهل الأندلس وتلميذه. ودخل على المِلَّةِ - من هذه العلوم وأهلها - داخِلَةً. واستهوت الكثير من الناس بما جَنَحُوا إليها وقَلَّبُوا آراءَها. والذَّنْبُ في ذلك لمن اِزْتَكَبَهُ. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [سورة الأنعام، من الآية 137]. 5

ثم إنَّ المَغربَ والأندلسَ، لما رَكَذَتْ رِيحُ العُمرانِ به وتناقضت العلوم بتناقضيه، اضمحلَّ ذلك منه، إلَّا قَلِيلاً من رُسومِهِ تَجِدُها في تفاريق من الناس، وتحت رِقْبَةٍ من علماء السُّنَّةِ.

ويُبلِّغُنَا عن أهل المَشْرِيقِ أنَّ بضائع هذه العلوم لم تزلَ عندهم موفورة، وخصوصاً في عِراقِ العَجَمِ وما بعده فيما وراء النهر، وأنهم على نَبَجٍ من العلوم العَقْلِيَّةِ والتَقْلِيَّةِ، 10 لتوفّر عُمرانِهِم واستِحْكامِ الحضارة فيهم.

ولقد وقفت بِمَضَرٍ على تَوَالِيْفٍ في المَعْقُولِ مُتَعَدِّدَةٍ لِرَجُلٍ من عُظَمَاءِ هَرَاةٍ، من بَلَدِ خُرَاسَانَ، يَشْتَهَرُ^(ج) بِسَعْدِ الدِّينِ التَّقْطَازَانِيِّ، منها^(د) في عِلْمِ الكَلَامِ وأصولِ الفِقهِ والبيانِ، تَشْهَدُ بأنَّ له مَلَكَةً راسخةً في هذه العلوم. وفي أَثْنائِها ما يَدُلُّ على أنَّ 15 له اِطِّلاَعاً على^(هـ) العلوم الحِكْمِيَّةِ وتَضَلُّعاً بها، وَقَدِماً عَالِيَةً في سائِرِ الفُنُونِ العَقْلِيَّةِ. ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية 13].

(أ) مخرج بخطه في ع، لم تنقله ط ج ي (ب) سقط من ط وحدها (ج) في ع ج ي: يُشهر (د) سقط من ج (هـ) ي: في .

و^(١) كذلك يَبْلُغُنَا لهذا العهد، أَنَّ هذه العلوم الفلسفية ببلاد الفرنجة من أرض رومة وما إليها من العدو الشمالية نافقة الأسواق، وَأَنَّ رُسومها هنالك مُتَجَدِّدَةٌ، ومجالس تعلّيمها مُتَعَدِّدَةٌ، ودواوينها جامعة، وحمَلَتها [متوقرون]^(ب)، وطلَبَتها مُتَكَثِّرون. والله أعلم بما هنالك. [وهو]^(ج) ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [سورة القصص، من الآية 68].

[328]

5 20 / العلوم العددية

وأولها الأمر تماطيتي. وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف، إما على التوالي أو بالتضعيف.

مثل: أَنَّ الأعداد إذا توالَتْ مُتفاضلةً بعدد واحد، فإنَّ جَمْع الطرفين منها مُساوٍ^(د) لجمع كلِّ عددين، بَعْدُهما من الطرفين بَعْدَ واحد.

ومثلُ ضِعْفِ الواسطة، إن كان عدَّة تلك الأعداد فرداً، مثل الأعداد على تواليها، والأزواج على تواليها،* والأفراد على تواليها*^(هـ).

ومثل أَنَّ الأعداد إذا توالَتْ على نسبة واحدة [بأن]^(و) يكون أولها نصف ثانيها، وثانيها نصف ثالثها، إلى آخرها، أو يكون أولها ثلث ثانيها، وثانيها ثلث ثالثها، إلى آخرها، فإنَّ ضَرْب الطرفين أحدهما في الآخر، كضَرْب كلِّ عددين بَعْدُهما من الطرفين بَعْدَ واحد أحدهما في الآخر.

(١) سقط العطف من ع (ب) من ع، وفي ظ: متوقرون (ج) في ظ: والله ﴿يَخْلُقُ ...﴾ (د) ج: متساوٍ (هـ) ما بين التجميع سقط من ع (و) من ع وحدها.

ومثل مربع الواسطة إن كانت العدّة فرداً، وذلك مثل أعداد زَوْج الزَّوْج المتوالية من اثنين، فأربعة، فثمانية، فستة عشر.

ومثل ما يحدث من الخواصّ العدديّة في وضع المثلثات العدديّة والمربّعات والمخمّسات والمسدّسات، إذا وُضِعَتْ مُتتاليّة في سُطورِها، بأن تُجمَعَ من الواحد إلى العدد الأخير فيكون مُثلّثه. وتتوالى المثلثات هكذا في سَطْرٍ تحت الأضلاع، 5 ثمّ تزيد على كلّ مثلثٍ مثلث الصّلع الذي قبله فيكون مُربّعه، وتزيد على كلّ مُربّعٍ مُثلث الذي قبله فيكون مُخمّسه، وهلمّ جراً. وتتوالى الأشكال على توالي الأضلاع. ويحدث جدول ذو طولٍ وعرض. ففي عرضه الأعداد على تواليها، ثمّ المثلثات على تواليها، ثمّ المربّعات، ثمّ الخمّسات، إلى آخرها. وفي طوله كلّ عددٍ وأشكاله بالغا ما بلغ. ويحدث في [جميعها] ^(أ) وقسمة بقضها على بعض ^(ب) طولاً وعرضاً خواصّ غريبة 10 استقرّرت منها وتقرّرت في دواوينهم مسائلها ^(ج).

وكذلك ما يحدث للزوج، والفرد، وزوج / الزوج، وزوج الفرد، [أزواج الزوج والفرد. فإنّ لكلّ منها خواصّ تُخصّ ^(د) به تضمّن هذا الفن] ^(هـ) وليس في غيره. [328 ب]

وهذا الفنّ أوّل أجزاء التّعاليم وأيّتها. ويدخل في براهين الحساب. وللحكّماء 15 المتقدّمين والمتأخّرين فيه تواليف؛ وأكثرهم يُدرّجون في التّعاليم ولا يُفردونه بالتّأليف. فعَل ذلك ابنُ سينا في كتاب الشّفاء والنّجاة، وغيره من المتقدّمين. وأمّا المتأخّرون

(أ) من ع ي، وفي ظ ج: جميعها (ب) كترت ع بعده كلمة قسمة ولا معنى له (ج) في ج: بمسائلها (د) كذا في ع، وفي ج ي: تختصّ (هـ) من: ع ج ي، وسقط من ظ.

فهو عندهم مَهْجُورٌ، إذ^(١) هو غيرُ متداولٍ، ومنفعته في البراهين لا في الحساب،
فَهَجَرُوهُ لذلك بعد أن اسْتَخْلَصُوا زُبْدَتَهُ في البراهينِ الحِسَابِيَّةِ، كما فَعَلَهُ ابْنُ البَتَّاءِ في
كتاب رَفْعِ الحِجَابِ، وغيره. والله أعلم.

ومن فُرُوعِ علمِ العدد: صناعةُ الحساب. وهي صناعةٌ عَمَلِيَّةٌ في حُسبانِ
5 الأعدادِ بالضَّمِّ والتَّفْرِيقِ، فالضَّمُّ يكونُ في الأعدادِ بالإفرادِ، وهو الجَمْعُ. وبالتَّضْعِيفِ،
أي: يُضَاعَفُ عددٌ بِأَحَادٍ عددٍ آخر. وهذا هو الضَّرْبُ. والتَّفْرِيقُ أيضاً يكونُ في
الأعدادِ، إمَّا بالإفرادِ، مثل إزَالَةِ عددٍ من عددٍ ومعرفةِ الباقي، وهو الطَّرْحُ، أو
تفصيلِ عددٍ بأجزاءٍ متساويةٍ تكونُ عِدَّتُهَا مُحْصَلَةً، وهو القِسْمَةُ.

وسواءً كان هذا الضَّمُّ والتَّفْرِيقُ في الصَّحِيحِ من العددِ أو الكَسْرِ.

10 وَمَعْنَى الكَسْرِ، نسبةُ عددٍ إلى عددٍ، وتلك النسبةُ تُسَمَّى كَسْراً. وكذلك
يكونُ الضَّمُّ والتَّفْرِيقُ في الجُذورِ، وَمَعْنَاهَا العددُ الَّذِي يُضْرَبُ في مثله فيكونُ منه
العددُ المُرَبَّعُ.

والعددُ الَّذِي يكونُ مُصَرَّحاً به يُسَمَّى المُنْطَقَ، ومُرَبَّعُهُ كذلك. ولا يُحْتَاجُ
فيه أن يَكْلَفَ عَمَلٌ بالحُسبانِ. وَالَّذِي لا يكونُ مُصَرَّحاً به يُسَمَّى الْأَصَمَّ. ومُرَبَّعُهُ إمَّا
15 مُنْطَقٌ، مثل جَذْرِ ثلاثةَ الَّذِي مُرَبَّعُهُ ثلاثةٌ، وإمَّا أَصَمٌّ، مثل جَذْرِ ثلاثةَ الَّذِي مُرَبَّعُهُ
جَذْرُ ثلاثةَ. وهو أَصَمٌّ، ويَحْتَاجُ إلى عَمَلٍ من الحُسبانِ^(ب)، فإنَّ تلكَ الجُذورَ أيضاً
يَدْخُلُهَا الضَّمُّ والتَّفْرِيقُ.

(أ) ع: وهو (ب) مخرج في حاشية ع بخطه، وسقط من ط ج ي .

وهذه الصناعة [الحسابية]^(أ) حادثة، احتيج إليها للحسبان في المعاملات،
وألّف فيها النَّاسُ كثيراً وتداولوها^(ب) في الأمصار بالتعليم للولدان . ومن
أحسن التعليم عندهم الابتداء بها، لأنّها معارف متّصّحة وبراهينها منتظمة.
فينشأ عنها في الغالب عقلٌ مضيءٌ درّب على الصّواب . وقد يُقال: إنّ من أخذ
نفسه بتعليم الحساب أوّل أمره أنّه يغلب عليه الصّدق ، / لما في الحساب من
5 صحّة المباني ومناقشة النفس، فيصير له ذلك خلقاً ويتعوّد الصّدق ويلزمه
مذهباً.

ومن أحسن التّوَاليف المبسّطة فيها لهذا العهد بالمغرب، كتابُ الحصارِ
الصّغير. ولابن البتاء المراكشيّ فيه تلخيص ضابط لقوانين أعماله مفيدٌ . ثمّ شرّحه
بكتاب سماء رفع الحجاب، وهو مُستغلّق على المبتدئ ، بما فيه من البراهين الوثيقة
10 المباني، وهو كتابٌ جليلُ القدر، أدركنا المَشِيخَةَ تُعْظِمْه، وهو^(ج) جديرٌ بذلك.
*وساوق فيه المؤلّف رحمه الله كتابَ فقه الحساب لابن مُنعم، وكتاب^(د) الكامل
للأخْذَبِ^(هـ)، ولَخَصَ براهينها وغيّرها^(و) عن اصطلاح الحروف فيها إلى عللٍ مَعْنَوِيَةٍ
[ظاهرة]^(ز) هي العبارة بالحروف ولُبابها^(ح)، وهي كلّها مُستغلّقةٌ*^(ط).

15 وإنّا جاءها الاستِغْلَاقُ من طريق البرهان، شأنَ علومِ التّعاليم. لأنّ مسائلها
وأعمالها واضحةٌ كلّها. وإذا قُصِدَ شَرْحُهَا، فإنّما هو إعطاءُ العِلَلِ في تلك الأعمال. وفي

(أ) من حاشية ع، وسقط من ط ج ي (ب) ي: فتداولوها (ج) في ي: وهو كتاب، ومشطوبة في ط (د) سقط من ع
(هـ) في ع: الأجر (و) في ج: وغيّرها (ز) من ع ج (ح) ع ج: ورُبّذنها (ط) ما بين التّجَمين حاشية في ط بخط ابن
خلدون عدل فيها نص ع وضبطه؛ وسقطت الحاشية كلها من ي.

ذلك من العُسْرِ على الفَهْم ما لا يوجَدُ في أَعْمَالِ المسَائِلِ . فتَأَمَّلْهُ . والله يَهْدِي بنوَرِهِ
من يشاء .

وَمِنْ فُرُوعِهِ: الجَبْرُ والمُقَابَلَةُ . وهي صِنَاعَةٌ يُسْتَخْرَجُ بِهَا العَدَدُ المَجْهُولُ من قِبَلِ
المَعْلُومِ المَفْرُوضِ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا نِسْبَةٌ تُقْتَضِي ذَلِكَ . فاضْطَلَحُوا فِيهَا عَلَى أَنْ جَعَلُوا
5 المَجْهُولَاتِ مَرَاتِبَ من طَرِيقِ التَّضْعِيفِ بالضَّرْبِ . أَوَّلُهَا العَدَدُ ، لِأَنَّهُ ^(أ) بِهِ يَتَعَيَّنُ
المَطْلُوبُ المَجْهُولُ بِاسْتِخْرَاجِهِ مِنْ نِسْبَةِ المَجْهُولِ إِلَيْهِ . وَثَانِيهَا الشَّيْءُ ، لِأَنَّ كُلَّ مَجْهُولٍ
فَهُوَ مِنْ حَيْثُ إِبْهَامُهُ شَيْءٌ . وَهُوَ أَيْضاً [جَذْرٌ] ^(ب) لِمَا يَلْزَمُ مِنْ تَضْعِيفِهِ فِي الْمَرْتَبَةِ
الثَّانِيَةِ . وَثَالِثُهَا المَالُ ، وَهُوَ مُرْتَبِعٌ مِنْهُمْ .

وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَى نِسْبَةِ الْأُسِّ فِي الْمَضْرُوبِينَ . ثُمَّ يَقَعُ الْعَمَلُ الْمَفْرُوضُ فِي
10 الْمَسْأَلَةِ ، فَيَخْرُجُ إِلَى مُعَادَلَةٍ بَيْنَ مُخْتَلِفَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ . فَيُقَابِلُونَ بَعْضُهَا
بِبَعْضٍ ، وَيَجْهَرُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْكَسْرِ حَتَّى يَصِيرَ صَحِيحاً . وَيُحْطَوْنَ الْمَرَاتِبَ إِلَى أَقَلِّ
الْأُسُوسِ إِنْ أُمِكنَ ، حَتَّى تَصِيرَ إِلَى الثَّلَاثَةِ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الْجَبْرِ عِنْدَهُمْ ، وَهِيَ
العَدَدُ ، وَالشَّيْءُ ، وَالْمَالُ .

فَإِنْ كَانَتِ الْمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَوَاحِدٍ ، تَعَيَّنَ . فَالْمَالُ أَوْ الْجَذْرُ يَزُولُ إِبْهَامُهُ
15 بِمُعَادَلَةِ الْعَدَدِ وَيَتَعَيَّنُ . وَالْمَالُ إِنْ عَادَلَ الْجَذْرَ ، فَيَتَعَيَّنُ بَعْدَهَا .

/ وَإِنْ كَانَتِ الْمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَاثْنَيْنِ ، أَخْرَجَهُ الْعَمَلُ الْهَنْدَسِيُّ ^(ج) مِنْ طَرِيقِ [329ب]

(أ) ي: لأن (ب) ظ: جذور (ج) كسب الناصح الجملة في ظ مقلوبة هكذا: بين واحد واثني أخرجه العمل الهندسي وإن كانت
المعادلة .

تَفْصِيلِ الضَّرْبِ فِي اثْنَيْنِ وَهِيَ مُبْهَمَةٌ، فَيَعْنِيهَا ذَلِكَ الضَّرْبُ الْمَفْصُلُ. وَلَا تُمْكِنُ
الْمُعَادَلَةُ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ.

وَأَكْثَرُ مَا انْتَهَتْ الْمُعَادَلَةُ عَنْدهُمْ إِلَى سِتِّ مَسَائِلَ. لِأَنَّ الْمُعَادَلَةَ بَيْنَ عَدَدٍ وَجَذْرٍ
وَمَالٍ مُفْرَدَةٍ أَوْ ^(١) مَرْكَبَةٍ تَحْيِيءُ سِتَّةَ.

5 وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِي هَذَا الْفَنِّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْخَوَارِزْمِيُّ. وَبَعْدَهُ أَبُو كَامِلٍ شَبَّاحُ
ابْنِ أَسْلَمَ. وَجَاءَ الثَّلَاثُ عَلَى أَثَرِهِ فِيهِ. وَكُتِبَ فِي مَسَائِلِهِ السِّتُّ مِنْ أَحْسَنِ الْكُتُبِ
الْمَوْضُوعَةِ فِيهِ. وَشَرَحَهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فَأَجَادُوا. وَمَنْ أَحْسَنَ شُرُوحَاتِهِ
كِتَابُ الْقُرْشِيِّ.

وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ بَعْضَ أَيْمَةِ التَّعَالِيمِ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ أَنْهَى الْمُعَادَلَاتِ ^(ب) إِلَى أَكْثَرِ
10 مِنْ هَذِهِ السِّتَّةِ أَجْنَاسٍ وَبَلَّغَهَا إِلَى فَوْقِ الْعِشْرِينَ ، وَاسْتَخْرَجَ لَهَا كُلَّهَا أَعْمَالاً وَثِيقَةً
بِرَاهِينٍ هَنْدَسِيَّةٍ. وَاللَّهُ ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة فاطر، من الآية 1].

وَمِنْ فُرُوعِهِ أَيْضاً: الْمُعَامَلَاتُ. وَهُوَ ^(ج) تَصْرِيفُ الْحِسَابِ فِي مُعَامَلَاتِ الْمُدْنِ
فِي الْبَيَاعَاتِ وَالْمِسَاحَاتِ وَالزَّكَاةِ وَسَائِرِ مَا يَغْرِضُ فِيهِ الْعَدْدُ مِنَ الْمُعَامَلَاتِ،
تُصَرَّفُ فِي ذَلِكَ صِنَاعَةً الْحِسَابِ فِي الْمَجْهُولِ وَالْمَعْلُومِ وَالْكَسْرِ وَالصَّحِيحِ وَالْجَذْرِ
15 وَغَيْرِهَا.

وَالْعَرَضُ مِنْ تَكْثِيرِ الْمَسَائِلِ الْمَفْرُوضَةِ فِيهَا حَصُولُ الْمِرَانِ وَالذَّرِيَّةِ بِتَكَثُّرِ الْعَمَلِ
حَتَّى تَرَسَّخَ الْمَلِكَةُ فِي صِنَاعَةِ الْحِسَابِ.

(١) مِنْ طَع، وَفِي ج ي: وَ (ب) فِي ط ع، وَفِي ج ي: الْمَعَامَلَاتُ (ج) ج: وَهِيَ.

ولأهل الصنعة الحسائية من أهل الأندلس تواليف فيها متعددة، من أشهرها معاملات الزهراوي، وابن السّمح، وأبي مُسلم بن خلدون، من تلميذ مَسْلَمَة المجريطي، وأمثالهم.

ومن فُرُوعه أيضاً: الفرائض. وهي صنعة حسائية في تصحيح السّهام لدّوي 5 الفروض في الوراثة⁽¹⁾ إذا تعدّدت وهلك بعض الوارثين وانكسرت سهامه على ورثته، أو زادت الفروض عند اجتماعها وتزاحمها على المال كلّ، أو كان في الفريضة / إقرار أو إنكار من بعض الورثة دون بعض. فيحتاج في ذلك [كله]^(ب) إلى عمل [330] تُعَيّن به سهام الفريضة إلى كم تصحّ، وسهام الورثة من كلّ بطنٍ مُصَحَّحاً حتّى تكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة سهامهم من جملة سهام الفريضة.

10 فيدخلها من صنعة الحساب جزء كبير من صحيحه وكسوره و[جذوره]^(ج) ومغلوله ومجهوله، ويترتب على ترتيب أبواب الفرائض الفقهيّة ومسائله.

فتشتمل حينئذ هذه الصنعة على جزء من الفقه، وهو أحكام الوراثة في الفروض والعول والإقرار والإنكار والوصايا والتدبير، وغير ذلك من مسائلها، وعلى جزء من الحساب، وهو تصحيح السّهام باعتبار الحكم الفقهيّ.

15 وهي من أجلّ العلوم. وقد يورد أهلها أحاديث نبويّة تشهد بفضليها، مثل: "الفرائض ثلث العلم، وأنها أول ما يُزفّع من العلوم"⁽¹⁾، وغير ذلك. وعندي أنّ

(1) ع: الوراثة (ب) سقط من ظ (ج) في ظ: حدوده.

(1) تقدّم تخرجه في صفحة 219.

ظواهر تلك الأحاديث كلها إنما هي في الفرائض العينية، كما تقدّم، لا فرائض الوراثة؛ فإنها أقلُّ من أن تكونَ في كميّتها ثلثُ العلم. وأمّا الفرائض العينية، فكثيرة.

وقد ألّف الناس في هذا الفنّ قديماً وحديثاً وأوعبوا . ومن أحسن التّواليف فيه على مذهب مالِك رحمه الله كتابُ ابن ثابت ، ومختصرُ القاضي أبي القاسم الحوفيّ، وكتابُ ابن المنّمّر والجعديّ والصّوديّ، وغيرهم. لكنّ الفضلَ للحوفيّ، وكتابه مقدّمٌ على جميعها. وقد شرّحه من شيوخنا أبو عبد الله، محمد بن سلّمان السّطيّ، كبيرُ مشيخة فاس، فأوضح وأوعب. وإمام الحرمين فيها توافيف على مذهب الشّافعيّ، تشهدُ باتّساعِ بابه في العلوم، ورُسوخِ قَدَمِهِ . وكذا للحنفيّة والحنابلة.

10

ومقاماتُ الناس في العلوم مُختلفة. والله يَهْدِي من يَشَاء.

21 * العلوم الهندسيّة

هذا العلمُ هو النّاطِرُ في المقادير؛ إمّا المتّصلة، كالخطّ والسّطح والجسم، أو المنفصلة كالأعداد، وفيما يعرّضُ / لها من العوارض الدّائية.

[330ب]

15

مثل أن كلّ مُثلثٍ فزواياه مثلُ قائمتين .
ومثل أن كلّ خطّين مُتوازيين لا يلتقيان في جهة، ولو خرّجا إلى غير نهاية.
ومثل أن كلّ خطّين مُتقاطعين، فالزاويتان المتقابلتان منهما مُتساويتان.

ومثل أن الأربعة المقادير المتناسبة، ضُرب الأول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع.

وأمثال ذلك.

والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب أوفليدس، ويُسمى كتاب 5 الأصول والأركان، وهو أبسط ما وُضِعَ فيها للمُتعلِّمين، وأوّل ما تُرجم من كتب اليونانيين في المِلَّةِ أيامَ أبي جعفر المنصور. ونُسَخُه مُخْتَلِفَةٌ باختلاف المترجمين. فمنها لحنين بن إسحاق، ولثابت بن قُرّة، وليوسف بن الحجاج.

ويشتمل على خمس عشرة مقالة؛ أربعة في السطوح، وواحدة في الأقدار 10 المتناسبة، وأخرى في نسب السطوح بعضها إلى بعض، وثلاث في العدد، والعاشر في المنطقات والقوية على المنطقات، ومعناه الجذور، وخميس في المجسمات. وقد اختصره الناس مختصرات كثيرة، كما فعله ابن سينا في تعاليم الشفاء، أفرد له جزءاً منها واختصّه به. وكذلك ابن الصلّ في كتاب الاقتصار، وغيرهم. وشرحه آخرون شروحاً كثيرة. وهو مبدأ العلوم الهندسية بإطلاق.

واعلم أن الهندسة تُقيد صاحبها إضاءة في عقله واستقامة في فكره. لأن 15 براهينها كلّها بينة الانتيظام، جليّة الترتيب، لا يكادُ الغلطُ يدخلُ أقيستها لترتيبها وانتيظامها. فبيعدُ الفكرُ بممارستها عن الخطأ، وينشأ لصاحبها عقله على ذلك المنهج. ولقد زعموا أنه كان مكتوباً على باب أفلاطون: من لم يكن مُهندساً فلا يدخلن منزلاً. وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون: ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون

[1331] / للثوب الذي يغسل منه الأقدار ويُقَيِّيه من الأوضار والأدران. وإنّا ذلك لما أشرنا إليه من ترتبه وانتظامه.

ومن فروع هذا الفنّ، الهندسة المخصوصة بالأشكال الكريّة والمخروطات. أمّا الأشكال الكريّة، ففيها كتابان من كتب اليونانيين، لتأودوسينوس وميلاؤش في سطوحهما وقطوعهما. وكتاب تأودوسينوس مقدّم في التعليم على كتاب ميلاؤش،⁵ لتوقف كثير من براهينه عليه. ولا بدّ منها لمن يريد الخوض في علم الهيئة،* لأنّ براهينها متوقّفة عليها⁽¹⁾. فإنّ الكلام في الهيئة*^(ب) كلّ كلام في الكرات السماويّة وما يعرّض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات، كما تذكّره. فقد يتوقّف على معرفة أحكام الأشكال الكريّة، سطوحها وقطوعها.

وأما المخروطات، فهو من فروع الهندسة أيضاً. وهو علم ينظر فيما يقع في¹⁰ الأجسام المخروطيّة من الأشكال والقطوع. ويبرهن على ما يعرّض لذلك من العوارض ببراهين هندسيّة متوقّفة على التعليم الأوّل. وفائدتها تظهر في الصنائع العمليّة التي موادّها الأجسام، مثل التجارة والبناء، وكيف تُصنّع التماثيل الغريبة والهيكل النادرة، وكيف يُتحيّل على جرّ الأثقال ونقل الهياكل بالهندام والميخال، وأمثال ذلك.

وقد أفرّد بعض المؤلفين في هذا الفنّ كتاباً في الحيل العمليّة، يتضمّن من¹⁵ الصناعات الغريبة والحيل المستطرفة كلّ عجيب. وربّما استغلّق على الفهم لصعوبة براهينه الهندسيّة. وهو موجود بأيدي الناس، ويسبونه لبني شاكر.

(1) ط: عليها (ب) سقط ما بين النجمين من ج .

ومن فُروع الهندسة: المساحة، وهو فنُّ يُحتاج إليه في مَسَح الأرض^(١).
ومَعْنَاهُ استخراج مقدار أرض معلومة بنسبة شبرٍ أو ذراعٍ أو غيرهما، أو نسبة
أرض من أرض / إذا قُويسَتْ بمثل ذلك.

[331ب]

ويُحتاج إلى ذلك في تَوْظِيف الخراج على المزارع والفُدنِ وبساتين الغراسَةِ،
5 وفي قِسْمَةِ الحوائِطِ والأراضي بين الشُّركاءِ أو الورثة، وأمثال ذلك.
وللناس فيها مَوَضيعٌ حَسَنَةٌ وكثيرةٌ.

المناظر^(ب) من فُروع الهندسة، وهو علمٌ يَتَبَيَّنُ به أسبابُ الغَلَطِ في الإدراكِ
البَصَرِيِّ بِمَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ وَقُوعِهَا، بناءً على أنَّ إدراكَ البَصَرِ يكونُ بِمَخْرُوطِ شُعَاعِيٍّ،
رَأْسُهُ نُقْطَةُ البَاصِرِ، وقَاعِدَتُهُ المَرْيُّ. ثُمَّ يَقَعُ الغَلَطُ كَثِيراً في رُؤْيَةِ القَرِيبِ كَبِيراً والبَعِيدِ
10 صَغِيراً. وكذلك رُؤْيَةُ الأشباحِ الصَّغِيرَةِ تحتِ الماءِ وَوَرَاءَ الأجسامِ الشَّفَافَةِ كَبِيرَةً،
ورُؤْيَةُ النُّقْطَةِ النَّازِلَةِ من المَطَرِ خَطّاً مُسْتَقِماً، والشَّعْلَةِ دائِرةً، وأمثال ذلك.

فَيَتَبَيَّنُ في هذا العِلْمِ أسبابُ ذلك وكَيْفِيَّاتُهُ بالبراهينِ الهندِسيَّةِ. وَيَتَبَيَّنُ به أيضاً
اِخْتِلَافُ المَنْظَرِ في القَمَرِ بِاِخْتِلَافِ العُرُوضِ الَّذِي تَتَّبِعِي عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ رُؤْيَةِ الأَهْلَةِ،
وحصولُ الكُسُوفَاتِ، وكثيرٌ من أمثالِ هذا.

15 وقد أَلْفَ في هذا الفَنِّ كثيرٌ من اليونانيِّينَ.

وأشهُرُ من أَلَفَ فيه من الإسلامِيِّينَ ابنُ الهَيْثَمِ. وَلِغَيْرِهِ فيه أيضاً تَوَالِيفٌ.
وهو من هذه العُلُومِ الرِّياضيَّةِ وتَفَارِيعِهَا.

(١) كذا في ط ع ج، وفي ي: الأراضي (ب) كذا جاءت الجملة اسمية في ط ج ي، وفي ع: ومن فُروع الهندسة المناظر.

22 • عِلْمُ الْهَيْئَةِ

وهو عِلْمٌ يَنْظُرُ فِي حَرَكَاتِ الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ وَالْمُتَحَيِّرَةِ. وَيُسْتَدَلُّ بِكَيْفِيَّاتِ تِلْكَ الْحَرَكَاتِ عَلَى أَشْكَالٍ وَأَوْضَاعٍ لِلْأَفْلَاقِ لَزِمَتْ عَنْهَا هَذِهِ الْحَرَكَاتُ الْمَحْسُوسَةُ بِطَرِيقِ هَنْدَسِيَّةٍ. كَمَا يُبْرَهُنُ عَلَى أَنَّ مَرْكَزَ الْأَرْضِ مُبَايِنٌ لِمَرْكَزِ فَلَكِ الشَّمْسِ بِوُجُودِ حَرَكَةِ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ. وَكَمَا يُسْتَدَلُّ بِالرُّجُوعِ وَالِاسْتِقَامَةِ لِلْكَوَاكِبِ^(أ) عَلَى وُجُودِ أَفْلَاقِ 5 صَغِيرَةٍ حَامِلَةٍ لَهَا، مُتَحَرِّكَةٍ دَاخِلَ فَلَكِهَا الْأَعْظَمِ. وَكَمَا يُبْرَهُنُ عَلَى وُجُودِ الْفَلَكَ الثَّامِنِ بِحَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ. وَكَمَا يُبْرَهُنُ عَلَى تَعَدُّدِ الْأَفْلَاقِ / لِلْكَوَاكِبِ الْوَاحِدِ [332] بِتَعَدُّدِ الْمَيُولِ لَهُ. وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

وإِدْرَاكُ الْمَوْجُودِ مِنَ الْحَرَكَاتِ وَكَيْفِيَّاتِهَا وَأَجْنَاسِهَا إِنَّمَا هُوَ بِالرُّضْدِ. فَإِنَّمَا عَلِمْنَا حَرَكَةَ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ بِهِ، وَكَذَا تَرْتِيبُ الْأَفْلَاقِ فِي طَبَقَاتِهَا، وَكَذَا الرُّجُوعُ وَالِاسْتِقَامَةُ، 10 وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

وَكَانَ الْيُونَانِيُّونَ يَعْتَنُونَ بِالرُّضْدِ كَثِيرًا، وَيَتَّخِذُونَ لَهُ الْآلَاتِ الَّتِي تَوْضَعُ لِرُّضْدِهَا حَرَكَةُ [الْكُوكِبِ]^(ب) الْمَعْيِنِ. وَكَانَتْ تُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَاتَ الْحَلْقِ. وَصَنَاعَةُ عَمَلِهَا وَالْبِرْهَانُ عَلَيْهِ فِي مُطَابَقَةِ حَرَكَتِهَا بِحَرَكَةِ الْفَلَكَ مَنْقُولٌ بِأَيْدِي النَّاسِ.

وَأَمَّا فِي الْإِسْلَامِ، فَلَمْ تَقَعْ بِهِ عَنَاءٌ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ. وَكَانَ فِي أَيَّامِ الْمُأْمُونِ شَيْءٌ 15 مِنْهُ. وَصَنَعَ هَذِهِ الْآلَةَ^(ج) الْمَعْرُوفَةَ بِذَاتِ الْحَلْقِ، وَشَرَعَ فِي ذَلِكَ فَلَمْ يَتِمَّ. وَلَمَّا مَاتَ ذَهَبَ رَسْمُهُ وَأُغْفِلَ، وَاعْتُمِدَ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى الْأَرْصَادِ الْقَدِيمَةِ. وَلَيْسَتْ بِمُعْنِيَةٍ

(أ) فِي ع: لِلْكُوكِبِ (ب) فِي ظ ج: الْكَوَاكِبِ (ج) فِي ع: الْأُدْلَةُ، خَطَأً.

لاختلاف الحركات باتّصالِ الأخقاب، وإنَّ مطابقةَ حركةِ الآلةِ في الرُّضْدِ لحركةِ
الأفلاكِ والكواكبِ إنّما هو بالتَّقريبِ، ولا يُعْطَى التَّحْقِيقُ. فإذا طَالَ الزَّمانُ أَظْهَرَ⁽¹⁾
تفاوتَ ذلكِ التَّقريبِ.

وهذه الهيئَةُ صناعةٌ شريفةٌ، وليستْ على ما يُفْهَمُ، في المشهور، أنّها تُعْطَى
5 صورةُ السَّمَاوَاتِ وتَرْتِيبُ الأَفْلاكِ بالحقيقةِ، بل إنّما تُعْطَى أنّ هذه الصورَ والهيئاتِ
للأفلاكِ لَزِمَتْ عن هذه الحركاتِ. وأنْتَ تعلمُ أنّه لا يَنْبَغُ أن يكونَ الشَّيْءُ الواحدُ
لازماً لِمُتَعَلِّفَيْنِ. وإنَّ قُلْنَا: إنّ الحركاتِ لازِمةٌ، فهو استِدْلالٌ بِاللَّازِمِ على وُجُودِ
الملزومِ، ولا يُعْطَى الحقيقةُ بوجهٍ. على أنّه علمٌ جليلٌ، وهو أحدُ أركانِ التَّعاليمِ.

ومن أحسنِ التَّوَالِيفِ فيه كتابُ المَجْسطِي، منسوبٌ لبَطْلَمَيْوسَ. وليس من
10 مُلُوكِ اليونانِيِّينَ الَّذِينَ أَسْمَاوَهُم بَطْلَمَيْوسَ، على ما حَقَّقَهُ شُراحُ الكِتابِ. وقد
اختَصَرَهُ الأَيمَةُ من حُكَمَاءِ الإسلامِ، كما فَعَلَهُ ابنُ سينا، / وأدرَجَهُ في تعاليمِ الشِّفاءِ،
ولِخَصَّةِ ابنِ رَشْدٍ أيضاً من حُكَمَاءِ الأَنْدَلُسِ، وابنِ السَّمْحِ، وابنِ الصَّلْتِ في كتابِ
الاِفْتِصارِ. ولابنُ الفَرغَانِيّ هِئَةُ مِلْخَصَّةٌ، قَرَّبَهَا وَحَدَفَ بِرَاهِنِهَا الهندِسيَّةِ^(ب).

واللهُ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق، الآية 5].

15 ومن فُرُوعِهِ: عِلْمُ الأَزْياجِ، وهي صناعةٌ حسابيَّةٌ على قَوَانِينِ عَدَدِيَّةٍ فيما
يُخَصُّ كُلَّ كَوَكَبٍ من طَرِيقِ حَرَكَتِهِ وما أَدَّى إِلَيْهِ بُزْهَانُ الهِئَةِ في وَضْعِهِ من سُرْعَةٍ
وَبُطْءٍ، واستقامةٍ ورجوعٍ، وغير ذلك. يُعرَفُ بِهِ^(ج) مواضعُ الكواكبِ في أفلاكِها

(1) كُنا في طع، وفي ج ي: ظهر (ب) سقط من ج (ج) ع: بها.

لأَيِّ وَقْتٍ فُرِضَ مِنْ قَبْلِ حُسْبَانِ حَرَكَاتِهَا عَلَى تِلْكَ الْقَوَائِنِ الْمُسْتَخْرَجَةِ مِنْ كُتُبِ
الْهَيْئَةِ.

ولهذه الصَّنَاعَةُ قَوَائِنُ كَالْمَقْدَمَاتِ وَالْأُصُولِ لَهَا فِي مَعْرِفَةِ الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ
وَالْتَّوَارِيخِ الْمَاضِيَةِ ، وَأُصُولٌ مُتَقَرَّرَةٌ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَوْجِ وَالْحَضِيضِ وَالْمِيُولِ وَأَصْنَافِ
الْحَرَكَاتِ ، وَاسْتِخْرَاجُ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ ، يَضَعُونَهَا فِي جَدَاوِلَ مُزَيَّنَةٍ تَسْهِيلاً عَلَى
الْمُتَعَلِّمِينَ ، وَتُسَمَّى الْأَزْيَاجُ وَيُسَمَّى اسْتِخْرَاجُ مَوَاضِعِ الْكَوَاكِبِ لِلْوَقْتِ الْمَفْرُوضِ بِهِذه
الصَّنَاعَةُ تَعْدِيلاً وَتَقْوِيماً.

وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَوَالِيفُ كَثِيرَةٌ لِلْمُتَقَدِّمِينَ وَالتَّأَخِّرِينَ ، مِثْلُ الْبَتَّائِيِّ وَابْنِ الْكَمَّادِ.

وَقَدْ عَوَّلَ الْمُتَأَخِّرُونَ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَغْرِبِ عَلَى زَيْنَجٍ مَنْسُوبٍ لِابْنِ إِسْحَاقَ ،
وَيَزْعَمُونَ أَنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ عَوَّلَ فِيهِ عَلَى الرَّضْدِ ، وَأَنَّ يَهُودِيًّا كَانَ بِصِقْلِيَّةٍ مَاهِراً فِي
الْهَيْئَةِ وَالتَّعَالِيمِ ، وَكَانَ قَدْ عَنِيَ بِالرَّضْدِ ، وَكَانَ يَبْعَثُ إِلَيْهِ بِمَا يَصِحُّ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ
أَحْوَالِ الْكَوَاكِبِ وَحَرَكَاتِهَا ؛ فَكَأَنَّ أَهْلَ الْمَغْرِبِ لَذَلِكَ عُنُوا بِهِ لَوَثَاقَةٍ مَبْنَاهُ فِيهَا⁽¹⁾
يَزْعَمُونَ . وَلَخَّصَهُ ابْنُ الْبَتَاءِ فِي آخِرِ سَمَاءِ الْمَنَاهِجِ . فَوَلَّعَ بِهِ النَّاسُ لَمَّا سَهَّلَ مِنَ الْأَعْمَالِ فِيهِ .
وَإِنَّمَا يُحْتَاجُ إِلَى مَوَاضِعِ الْكَوَاكِبِ مِنَ الْفَلَكَ لِتُبْنَى عَلَيْهَا الْأَحْكَامُ النَّجُومِيَّةُ ،
وَهِيَ^(ب) مَعْرِفَةُ الْآثَارِ الَّتِي تَحْدُثُ عَنْهَا بِأَوَاضِعِهَا فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِ ، مِنْ الْمِلَلِ وَالْأَدْوَلِ
وَالْمَوَالِيدِ الْبَشَرِيَّةِ / * وَالْكَوَائِنِ الْحَادِثَةِ *^(ج) ، كَمَا نُبَيِّنُهُ بَعْدُ ، وَنُوضِّحُ فِيهِ أَدِلَّتَهُمْ ، إِنْ
شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(1) ي: على ما (ب) في ع ج ي: وهو (ج) سقط من ي .

23 • عِلْمُ الْمَنْطِقِ

وهو قوانينُ يُعرَفُ بها الصَّحِيحُ من الفاسِدِ في الحدودِ المَعْرِفَةِ للماهياتِ
والْحَجَجِ المفيدةِ للتَّصْدِيقَاتِ.

وذلك أنَّ^(أ) الأصلَ في الإدراكِ إنّما هو المحسوساتُ بالحواسِّ الخمسِ. وجميعُ
5 الحيواناتِ مُشْتَرِكَةٌ في هذا الإدراكِ من النّاطِقِ وغيره . وإنّما يُمَيِّزُ الإنسانُ عنها
بإدراكِ الكَلِّيَّاتِ، وهي مُجَرَّدَةٌ من المَحْسُوسَاتِ. وذلك بأنَّ يحصلَ في [الخيالِ]^(ب)
من الأشخاصِ المُنْتَظَمَةِ صورةٌ مُنْطَبِغَةٌ^(ج) على جميعِ تلكِ الأشخاصِ المحسوسة، وهي
[الكُلِّيُّ]^(د). ثمَّ ينظرُ الذَّهْنُ بين تلكِ الأشخاصِ^(هـ) المُنْتَظَمَةِ وأشخاصٍ أخرى تُوافِقُها
في بَعْضٍ، فتحصلُ له صورةٌ تنطبقُ أيضاً عليهما باعتبار ما اتَّفَقَا فيه. ولا يزالُ يَرْتَقِي
10 في التَّجْرِيدِ إلى الكُلِّيِّ الَّذِي^(و) لا يجدُ كَلِّيّاً آخرَ معه يوافِقُهُ، فيكونُ لأجلِ ذلكِ
بسيطاً.

وهذا مثلاً ما تُجَرِّدُ من أشخاصِ الإنسانِ صورةُ النّوعِ المنطبعةِ عليها؛ ثمَّ
يُنْظَرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الحيوانِ وتُجَرِّدُ صورةُ الجنسِ المنطَبِقِ عليها، ثمَّ يَنْتَهِي وَبَيْنَ النَّبَاتِ،
إلى أنْ يَنْتَهِيَ إلى الجِنْسِ العَالِي، وهو الجَوْهَرُ، فلا يجدُ كَلِّيّاً يوافِقُهُ في شيءٍ، فيقفُ
15 العقلُ هنالكِ عن التَّجْرِيدِ.

(أ) في ع: لأنَّ (ب) ظ: الذَّهْنُ (ج) كذا في ظ ج ي، وفي ع: مُنْطَبِغَةٌ (د) من ع، وفي ظ: الكل (هـ) في ع: الأشخاصِ
المَحْسُوسَةِ، وشطب التَّمَتِ وأسقط من ظ ج ي (و) سقط من ج .

ثُمَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ، لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ لَهُ الْفِكْرَ الَّذِي بِهِ يَدْرِكُ الْعُلُومَ وَالصَّنَائِعَ، وَكَانَ الْعِلْمُ إِمَّا تَصَوُّراً لِلْمَاهِيَّاتِ، وَيُعْنَى بِهِ إدْرَاكٌ سَادَجٌ مِنْ غَيْرِ حَكْمٍ مَعَهُ، وَإِمَّا تَصْدِيقٌ، أَيْ حَكْمٌ بَثْبُوتِ أَمْرٍ لِأَمْرٍ. فَصَارَ سَعْيُ الْفِكْرِ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبَاتِ إِمَّا بِأَنْ تُجْمَعَ تِلْكَ الْكَلِّيَّاتُ بَعْضٌ إِلَى بَعْضٍ عَلَى جِهَةِ التَّأْلِيفِ، فَتَحْصُلَ صُورَةٌ فِي الذَّهْنِ كَلِّيَّةٌ مَنْطِيقَةٌ عَلَى أَفْرَادٍ فِي الْخَارِجِ، فَتَكُونُ تِلْكَ الصُّورَةُ الذَّهْنِيَّةُ مُفِيدَةً لِمَعْرِفَةِ مَاهِيَّةِ تِلْكَ الْأَشْخَاصِ. وَإِمَّا بِأَنْ يُحْكَمَ بِأَمْرٍ عَلَى أَمْرٍ فَيَثْبُتَ لَهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ تَصْدِيقاً. وَغَايَتُهُ فِي الْحَقِيقَةِ رَاجِعَةٌ إِلَى التَّصَوُّرِ، / لِأَنَّ فَايِدَةَ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ فَإِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ، الَّتِي هُوَ مُقْتَضَى الْعِلْمِ [الْحِكْمِيِّ] ^(١).

وهذا السَّعْيُ مِنَ الْفِكْرِ قَدْ يَكُونُ بِطَرِيقٍ صَحِيحٍ، وَقَدْ يَكُونُ بِطَرِيقٍ فَاسِدٍ. فَاقْتَضَى ذَلِكَ تَمْيِيزَ الطَّرِيقِ الَّتِي ^(ب) يَسْعَى بِهَا ^(ج) الْفِكْرُ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ الْعِلْمِيَّةِ لِتَمْيِيزِ فِيهَا الصَّحِيحِ مِنَ الْفَاسِدِ. فَكَانَ ذَلِكَ قَانُونُ الْمَنْطِقِ.

وَتَكَلَّمَ فِيهِ الْمُتَقَدِّمُونَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمُوا بِهِ جُمْلًا جُمْلًا وَمُفْتَرِقًا. وَلَمْ تُهْذَبْ طَرِيقُهُ وَلَمْ تُجْمَعْ مَسَائِلُهُ حَتَّى ظَهَرَ فِي يُونَانَ أَرِسْطُو. فَهْذَبَ مَنَاجِيهَهُ، وَرَتَّبَ مَسَائِلَهُ وَفَصُولَهُ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ الْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ وَفَاتَحَتْهَا ^(د). وَلِذَلِكَ يُسَمَّى بِالْمَعْلَمِ الْأَوَّلِ. وَكِتَابُهُ الْخَصُوصُ بِالْمَنْطِقِ يُسَمَّى الْقَصَصِ. وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى ثَمَانِيَةِ كُتُبٍ: ثَلَاثَةٌ ^(هـ) مِنْهَا فِي صُورَةِ الْقِيَاسِ، وَخَمْسَةٌ ^(و) فِي مَادَّتهِ.

(١) من ع، وسقط من ط ج ي (ب) في النسخ جميعاً: الذي، ولا يستقيم نحواً (ج) من ط ج ي، وفي ع: به (د) ج: فاتحته

(هـ) من ط، وفي ع ج ي: أربعة (و) في حاشية ج: أربعة.

وذلك أنَّ المطالبَ التَّصْديقيَّةَ على أنحاء. فمنها ما يكونُ المطلوبُ فيه اليقينَ بطَّبعه. ومنها ما يكونُ المطلوبُ فيه الظَّنَّ، وهو على مراتب. فيُنظر في القياس من حيثُ المطلوبُ الذي يفيدُه، وما يُلَبَّغِي أن تكونَ مُقدِّماتُه بذلك الاعتبار، ومن أيِّ جنس تكونُ من العِلْمِ أو الظَّنِّ. وقد يُنظرُ في القياس لا باعتبارِ مطلوبٍ مخصوص، بل من جهة إنتاجه خاصَّة. ويُقالُ لِلنَّظَرِ الأوَّل: إنَّه من حيثُ المادَّة، ويعني به المادَّة 5 المنتِجةُ للمطلوبِ الخاصِّ من يقينٍ أو ظنٍّ. ويُقالُ لِلنَّظَرِ الثَّاني: إنَّه من حيثُ الصَّوَرَةُ وإنتاجِ القياسِ على الإطلاق. فكانت لذلك كتبُ المنطق ثمانية.

الأوَّل: في الأجناسِ العاليةِ ^(١) التي ^(ب) ينتهي إليها تجريدُ المحسوساتِ في الدَّهْنِ. وهي التي ليس فوقها جنس. ويسمى كتابُ المقولات.

والثَّاني: في القضايا التَّصْديقيَّةِ وأصنافها. ويسمى كتابُ العبارة. 10

والثَّالثُ: في القياسِ وصورة إنتاجه على الإطلاق. ويسمى كتابُ القياس. وهذا آخرُ النَّظَرِ من حيثُ الصَّوَرَةُ.

ثمَّ الرَّابِعُ: /كتابُ البرهان. وهو النَّظَرُ في القياسِ المنتِجِ لليقين، وكيف يجبُ 15 أن تكونَ مُقدِّماتُه يقينيَّة. ويختصُّ بشروطٍ أخرى لإفادةِ اليقين، مذكورة فيه. مثل كونها ذاتيَّة، وأوليَّة، وغير ذلك. وفي هذا الكتاب الكلامُ في المعرَّفاتِ والحدود، إذ المطلوبُ فيها إنَّما هو اليقين، لوجوبِ المطابقةِ بين الحدِّ والمحدود، لا يَحْتَمِلُ غيَّرها. فلذلك اختصَّت عند المتقدمين بهذا الكتاب.

(١) سقط من ج (ب) من ط ع، وفي ج ي: الذي .

والخامس: كتابُ المجدل. وهو القياس المفيدُ قُطَعَ المشايِب وإفحامَ الخصم، وما يجبُ أن يُستعملَ فيه من المشهورات. ويختصُّ أيضاً من جهة إفادته لهذا الغرض بشروطٍ أخرى هي مذكورةٌ هناك. وفي هذا الكتاب تُذكرُ المواضعُ التي يستنبطُ منها صاحبُ القياس قِيَّاسَه * بتميز⁽¹⁾ الجامع بين طرفي المطلوب المسمَّى بالوسط *^(ب). وفيه عكوسُ القضايا.

5

والسادس: كتابُ السفسطة. وهو القياس الذي يُفيدُ خلافَ الحق، ويُغالطُ به المناظرُ صاحبه، وهو فاسدٌ بالغرض و^(ج)الموضوع. وإنما كُتِبَ ليعرَفَ به القياسُ المغالطي، فيحذر منه.

السابع: كتابُ الخطابة. وهو القياس المفيدُ ترغيبَ الجمهور وحملهم على المرادِ منهم، وما يجبُ أن يُستعملَ في ذلك من المقالات.

10

والثامن: كتابُ الشعر. وهو القياس الذي يُفيدُ التمثيلَ والتشبيه، خاصّةً للإقبالِ على الشيء أو النقرةِ عنه، وما يجبُ أن يُستعملَ فيه من القضايا التخيلية. هذه كتبُ المنطق الثمانية عند المتقدمين.

ثم إنَّ حكماءَ اليونانيين ، بعد أن تهذبت الصناعة ورُبِّتْ ، رأوا أنَّه لا بُدَّ من الكلام في الكليات الخمس المفيدة للتصوُّر *^(د) المطابق للماهيات [في الخارج]^(هـ) أو لأجزائها أو عوارضها وهي : الجنس ، والفصل ، والتنوع ، والخاصة ، والعرض

15

(1) سقط من ج (ب) سقط ما بين النجمين من ي (ج) سقط العاطف من ج ي (د) سقط ما بين النجمين من ي (هـ) من ع وسقط من ظ .

العام^(١) فاستدركوا فيها مقالة تختص بها مقدمة بين يدي الفن، فصارت مقالاته تسعاً.

وُترجمت كلها في الملة الإسلامية، وتناولها فلاسفة الإسلام بالشرح والتلخيص، كما فعله^(ب) الفارابي، وابن سينا، ثم ابن رشد، من فلاسفة الأندلس.

5 ولابن سينا / كتاب الشفاء، استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها. [334ب]

ثم جاء المتأخرون، فغيروا اصطلاح المنطق، وألحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرته، وهي الكلام في الحدود والرسم، نقلوها من كتاب البرهان، وحذفوا كتاب المقولات، لأنّ نظر المنطقي فيه بالعرض لا بالذات، وألحقوا في كتاب العبارة الكلام في العكس، وإن كان من كتاب الجدل في كتب المتقدمين، لكنه من توابع الكلام في القضايا بنقض الوجوه. 10

ثم تكلموا في القياس من حيث إنتاجه للمطالب على العموم، لا بحسب مادة. وحذفوا النظر فيه بحسب المادة، وهي الكتب الخمسة: البرهان، والجدل، والخطابة، والشعر، والسفسطة. وربّما يُلمّ بعضهم باليسير منها إماماً، وأغفلوها كأن لم تكن، [وهي] ^(ج) المهم المعتمد في الفن.

15 ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاماً مستبجراً^(د)، ونظروا فيه من حيث إنّه فنّ برأسه، لا من حيث إنّه آلة للعلوم. فطال الكلام فيه واتسع. وأوّل من فعل ذلك الإمام فخر الدين ابن الخطيب، ومن بعده أفضل الدين الخونجى، وعلى كتبه

(١) نهاية السقط من ي (ب) ج: نقله (ج) في ط: وهو (د) سقط من ج .

معتمد المشاركة لهذا العهد . وله في هذه الصناعة: كتاب كشف الأسرار، وهو طويل، ومختصر الموجز، وهو حسن في التعليم، ثم مختصر الجمل، في قدر أربعة أوراق، أخذ بمجامع الفن وأصوله، يتداوله المتعلمون لهذا العهد فينتفعون به. وهجرت كتب المتقدمين وطُرِفَهُمْ كأن لم تكن. وهي مُفْتِلَةٌ من ثَمَرَةِ المنطق وفائِدَتِهِ كما قلناه . والله الهادي للصواب.

5

فائدة^(١)

ثم^(ب) اعلم أن هذا الفن قد اشتد النكير على انتحاله من^(ج) مُتَقَدِّمِي المتكلمين أئمة السلف^(ج)، وبالغوا في الطعن عليه والتحذير منه، وحظروا تعلّمه وتعليمه. وجاء المتأخرون من بعدهم من لدن الغزالي والإمام ابن الخطيب، فسامحوا في ذلك بعض الشيء، وأكّـب الناس على انتحاله من يومئذ، إلا قليلاً يجنحون فيه إلى رأي¹⁰ المتقدمين، / فينفرون عنه ويُبَالِغُونَ في إنكاره . فلنبين لك نُكْتَةَ القبول والرد في ذلك، لتعلم مقاصد العلماء فيما يذهبون إليه^(د) .

[1335]

وذلك أن المتكلمين لما وُضِعُوا عِلْمُ الكلام لنُضْرِ العقائد الإيمانية بالحُجَج العقلية، كانت طريقتهم في ذلك بأدلة خاصة ذكروها في كتبهم، كالدليل على حَدَث^(هـ) العالم بإثبات الأغراض وُحْدُوها وامتناع خلو الأجسام عنها ، وما لا يخلو عن¹⁵

(١) كذا في ظ، وفي ع: فصل، ولم يُثَبِّرْ في ج، وسقط كامل نص الفائدة من ي (ب) سقط من ع (ج) ع: ج: متقدمي السلف والمتكلمين (د) ع: ج: في مذاهبهم (هـ) كذا في الأصول، ويعني حدوث .

الحوادث حادث، [وكا إثباتهم التوحيد]^(١) بدليل الثمانع، وإثبات الصفات [القديمة]^(٢) بالجوامع الأربعة، إلحاقاً للغائب بالشاهد، وغير ذلك من أدلتهم المذكورة في كثيرهم.

ثم قرروا تلك الأدلة بتمهيد قواعد وأصول هي كالمقدمات لها، مثل إثبات الجوهر الفرد، والزمن الفرد، والخلاء، [ونفي الطبيعة والتركيب العقلي للماهيات]^(ب)، وأنّ العرض لا يبقى زمنين، وإثبات الحال، وهي صفة [الموجود]^(ج) لا موجودة ولا معدومة، وغير ذلك من قواعدهم التي بنوا عليها أدلتهم الخاصة.

ثم ذهب الشيخ أبو الحسن، والقاضي أبو بكر، والأستاذ أبو إسحاق، إلى أنّ أدلة العقائد منعكسة عليها^(د)، بمعنى أنها إذا بطلت بطل مدلولها. ولهذا رأى القاضي أبو بكر أنها^(هـ) تنزل منزلة^(هـ) العقائد، والقدح فيها قدح في العقائد لا بنائها عليها. 10

وإذا تأملت المنطق، وجدته كله يدور على التركيب العقلي، وإثبات الكلّي الطبيعي في الخارج لينطبق عليه الكلّي الذهني المنقسم إلى الكليات الخمس، التي هي: الجنس، والتنوع، والفصل، والخاصة، والعرض العام. وهذا باطل عند المتكلمين. والكلّي والذاتي عندهم إنّما هو اعتبار ذهني ليس في الخارج ما يطابقه، أو حال عند من يقول بها، فتبطل الكليات الخمس والتعريف المبني عليها والمقولات العشر. ويبطل العرض الذاتي، فتبطل بطلانه القضايا [الضرورية الذاتية]^(و) المشترطة

(١) سقط من ظ (ب) سقط من ظ (ج) من ع، وفي ج: لوجود، وسقط من ظ (د) سقط من ع ج (هـ) ع: بمثابة (و) سقط من ظ .

في البرهان عندهم . وتبطل العلة العقلية ، فيبطل كتاب البرهان ^(أ) وتبطل المواضع التي يؤخذ منها الوسط الجامع بين طرفي المطلوب في / القياس ، وهو لباب كتاب الجدل . ولا يتقى من القياس إلا الصوري فقط ^(ب) ، ومن التعريفات المساوي في الصادية على أفراد المحدود ، لا يكون أعم ^(ب) فيكثر ، ولا أخص فيخرج بعضها . وهو الذي يعبر عنه التحاة بالجمع والمنع ، والمتكلمون بالطرد والعكس .

5

وتنهديم أركان المنطق جملة . وإن أثبتنا هذه كما في علم المنطق ، أبطلنا كثيراً من مقدمات المتكلمين في التكير على اتحال المنطق ، وعدوه بدعة أو كفراً على ما يصح من انعكاس الأدلة على العقائد ، كما قدمناه .

والتأخرون من لدن الغزالي لما أنكروا انعكاس الأدلة ، ولم يلزم عندهم من بطلان الدليل بطلان مدلوله ، وظهر لهم صحة ^(ج) رأي أهل المنطق في التركيب العقلي ووجود الماهيات الطبيعية [وكلياتها] ^(د) في الخارج ، لم يكن المنطق عندهم منافياً ^(هـ) للعقائد الإيمانية ، وإن كان منافياً لبغض أدلتها كما رأيت ^(و) ، بل قد يستدلون ^(ز) على إبطال كثير من هذه ^(ح) المقدمات الكلامية ، كما يستدلون على نفي الجوهر الفرد ، وإثبات الخلاء وبقاء الأغراض وغيرها ، ويستدلون ^(ط) من

10

(أ) وردت هذه الجملة المحصورة بين الألفين في ع وفي ج كما يلي : وتبطل المواضع التي هي لباب كتاب الجدل وهي التي يؤخذ منها الوسط الجامع بين الطرفين في القياس ولا يقى القياس الصوري (ب) في ع : أعم منها فيدخل غيرها ، ولا أخص فيخرج بعضه (ج) ع : وصح عندهم (د) سقط من ط (هـ) في ج ع : قضوا بأن المنطق غير مناف (و) من ط وحدها (ز) سقط من ع ، وفيها بعدها ، بل قد يستدل (ح) ع : تلك (ط) من ع ج ، وفي ط : ويستدلون .

أدلة المتكلمين على العقائد بأدلة أخرى يُصَحِّحُونَهَا بالتَّظَرُّ والقياس العَقْلِيّ ، ولم يُقَدِّحْ ذلك عندهم في العقائد السِّلْبِيَّةِ بوجهٍ . وهذا رأي الإمام والغزالي وتابعيهما لهذا العهد . فتأمل ذلك ، واعرف مدارك العلماء وما أخذهم فيما يذهبون إليه . والله الهادي والموفق للصواب .

5 24 • الطَّبِيعَاتُ

وهو علمٌ يَنَحِثُ عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون . فينظر في الأجسام السَّائِغِيَّةَ ^(أ) والعنصريَّةَ ، وما يتولَّد عنها من إنسانٍ وحيوانٍ ونباتٍ ومعدنٍ ، وما يتكوَّن في الأرض من العيون والزلازل ، وفي الجوّ من / السَّحاب [336] والبخار والرَّغْدِ والبرق والصَّواعِقِ ، وغير ذلك ^(ب) ، وفي مبدأ الحركة للأجسام ، وهو النفس على تنوعها في الإنسان والحيوان والثبات . 10

وكُتِبَ أرسطو ^(ج) فيه موجودة بين أيدي الناس ، تُرجمت مع ما تُرجم من علوم الفلسفة أيام المأمون . وألَّفَ النَّاسُ على حذوها ، مُسْتَتَبِعِينَ لها بالبيان والشرح ^(د) . وأوعب من ألَّفَ في ذلك ابنُ سينا في كتاب الشفاء ، جمع فيه العلوم السَّبعة للفلاسفة ، كما قدَّمنا ؛ ثم لَخَّصَهُ في كتاب النَّجاة وفي كتاب الإشارات . وكأنَّه يُخَالِفُ أرسطو ^(ج) في الكثير من مسائلها ويقولُ برأيه فيها . 15

(أ) سقط العطف من ع (ب) ج : وفي ذلك (ج) ضبطه في نسخة ع بالحركات : أرسطو (د) من ع وحدها ، وسقط من ط ج ي .

وأما ابنُ رُشدٍ، فلخصَ كُتبَ^(أ) أرسطو^(ب) وشرّحها مُتبعاً له غيرَ مُخالفٍ.
وألّف النَّاسُ بعده^(ج) في ذلك كثيراً. لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في
الصّناعة.

ولأهلِ المشرقِ عنايةٌ بكتابِ الإشاراتِ لابنِ سينا. وللإمامِ ابنِ الخطيبِ عليه
شرحٌ حسنٌ، وكذا الأَمِدِيُّ. وشرّحه نصيرُ الدّين الطّوسيُّ المعروفُ بِخواجه، من
أهلِ العراقِ. وبحثَ مع الإمامِ في كثيرٍ من مسائله، فأوفى على أنظاره وبُحوته.
﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف، من الآية 76].

25 • عِلْمُ الطَّبِّ

وهي صناعةٌ تنظرُ في بدنِ الإنسانِ من حيثَ يَمْرُضُ وَيَصِحُّ. فيحاولُ صاحبُها
على حِفْظِ الصّحّةِ وبُزْءِ المرضِ بالأدويةِ والأغذية، بعد أن يُبينَ المرضَ الَّذي يَخْصُ
كُلَّ عَضْوٍ^(د) من أعضاءِ البدنِ، وأسبابَ تلكِ الأمراضِ الّتي تنشأُ عنها، وما يَكُلُّ
مرضٍ من الأدويةِ، مُستَدِلِّينَ على ذلكِ بأمْرِجَةِ الأدويةِ وقُواها، وعلى المرضِ
[بالعلاماتِ المؤدّنة]^(هـ) بنُضْجِه وقَبولِه الدّواءِ أو لا في السّحنةِ والفضلاتِ والتّبْضِ،
مُحاذِينَ لذلكِ^(و) القُوّةِ الطّبيعيّةِ^(ز)، فإنّها المدبّرةُ في حالتي الصّحّةِ والمرضِ. وإِنّما
الطّبيبُ يُحاذيها ويُعينُها بعضَ الشّيءِ بِحَسَبِ ما تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ المادّةِ والقُضَلِ والسّنِّ.
ويُسَمَّى العِلْمُ الجامِعُ لهذا كُلِّهِ عِلْمُ الطَّبِّ.

(أ) في ج ي: كتاب (ب) ضبطه في نسخة ع بالحركات: أرسطو (ج) سقط من ج ي (د) من ع، وفي ط ج ي: كل عضو
عضو (هـ) يابض في ط (و) ع: بذلك (ز) من ط، وفي ع ج ي: قوّة الطّبيعة.

وَرَبَّمَا أَفْرَدُوا بَعْضَ الْأَعْضَاءِ / بالكلام ، وجَعَلُوهُ عِلْماً خَاصّاً ، كَالْعَيْنِ وَعِلَّيْهَا [336ب] وَأَكْثَالِهَا.

وكذلك أَلْحَقُوا بِالْفَرْ مَنَافِعَ الْأَعْضَاءِ. ومعناه المنفعة التي لأجلها خُلِقَ كُلُّ عَضْوٍ من أعضاء البدن الحيواني. وإن لم يَكُنْ ذلك من مَوْضوعِ عِلْمِ الطَّبِّ، إِلَّا أَنَّهُمْ 5 جَعَلُوهُ من لَوَاجِحِهِ وتَوَابِعِهِ.

[والجالينوس في هذا الفَرْ كتابٌ جليلٌ عَظِيمُ الْمَنَفَعَةِ] ^(أ). وهو إمامُ هذه الصَّنَاعَةِ التي تُرْجِمَتْ كُتُبُهُ فِيهَا من [الأَقْدَمِينَ] ^(ب). ويُقالُ: كان معاصراً لِعِيسَى عليه السَّلَام، ويُقالُ: ماتَ بِصِقْلِيَّةٍ في سَبِيلِ تَقْلُبٍ وَمُطَاوَعَةٍ اغْتِرَابٍ. وتَوَالِيْفُهُ فِيهَا هِيَ الْأُمّهَاتُ الَّتِي اقْتَدَى بِهَا جَمِيعُ الْأَطِبَّاءِ من بَعْدِهِ.

10 وكان في الإسلام في هذه الصَّنَاعَةِ أَيْمَةٌ جَاءُوا من وَرَاءِ الْغَايَةِ ، مثل الرَّايزِيِّ والمَجُوسِيِّ وابنِ سِينَا. ومن أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ أَيْضاً كَثِيرٌ، وأشْهَرُهُم ابْنُ زُهْرٍ. وهي لهذا الْعَهْدِ في الْمَدَنِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَأَنَّهَا نَقَصَتْ لِحُفُوفِ الْعُمُرَانِ وتَنَاقُصِهِ. وهي من الصَّنَائِعِ الَّتِي لَا تَسْتَدْعِيهَا إِلَّا الْحَضَارَةُ وَالتَّرَفُّ، كَمَا بُنِيَ بَعْدُ.

1. فَصْلٌ ^(ج)

15 وَلِلْبَادِيَةِ من أَهْلِ الْعُمُرَانِ طِبٌّ يَنْبُوْنُهُ في غَالِبِ الْأَمْرِ على تَجَرِبَةٍ قَاصِرَةٍ على بَعْضِ الْأَشْخَاصِ ، وَيَتَدَاوَلُونَهُ مَتَوَارِثاً عن مَشَايِخِ الْحَيِّ وَعَجَائِزِهِ . وَرَبَّمَا يَصْخُ مِنْهُ

(أ) من ع، وسقط من ط ج ي (ب) في ع: جالينوس، تم شطبت وبقيت في ط ج ي (ج) في ع ط وحدهما .

البغض، إلا أنه ليس على قانونٍ طبيعيٍّ، ولا عن مُوافقةٍ للمِزاج. وكان عند العرب من هذا الطبِّ كثيرٌ. وكان فيهم أطباءٌ معروفون، كالحارث بن كلدة وغيره.

والطبُّ المنقولُ في الشرعيات^(١) من هذا القبيل، وليس من الوحي في شيء،
إنما هو أمرٌ كان عاديًّا للعرب، ووقع في ذكر أحوال النبي ﷺ من نوع ذكر أحواله
التي هي عادةٌ جيله، لا من جهة أن ذلك مشروعٌ على ذلك النحو من العمل. فإنه 5
ﷺ إنما بعث ليُعرفنا الشرائع، ولم يُبعث لتعريف الطبِّ ولا غيره من العاديات.
وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع، فقال: "أتم أعلمُ بأمورِ دُنياكم"^(٢). فلا
يُنبغي أن / يحمل شيءٌ من الطبِّ الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على [337]
أنه مشروعٌ، فليس هناك ما يدلُّ عليه. اللهم إلا إن استُعملَ على جهة التبرُّك
و^(ب) بصدق العقد الإيماني، فيكون له أثرٌ عظيمٌ في النفع. وليس ذلك من الطبِّ 10
المزاجي، وإنما هو من آثار [الصدق في الكلمة الإيمانية]^(ج)، كما وقع في مداواة
المبتطون بالعسل^(د) [ونحوه]^(د). والله الهادي إلى الصواب.

(أ) كذا في ط ج ي، وفي ع: التبوّيات (ب) سقط من ج (ج) من ع، وبياض في ط (د) من ع ج، وسقط من ط ي.

(1) أخرجه مسلم (2363) من حديث أنس بن مالك.

(2) في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري. البخاري 7: 159، 165، مسلم (2217).

26 • [عِلْمُ] ^(أ) الفِلاحة

هذه الصَّنَاعَةُ من فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ. وهي ^(ب) النَّظَرُ في الثَّبَاتِ من حيثِ تَمَيُّنُهُ ونُشُوؤُهُ بالسَّقْيِ والعِلاجِ واستِجَادَةِ المُنْبِتِ وصِلَاحِيَةِ الفُضْلِ وتَعَاهُدِهِ *بِمَا يُضِلُّهُ وَيُؤَمِّمُهُ من ذَلِكَ كُلِّهِ *^(ج). وكانَ للمُتَقَدِّمِينَ بِهَا عِنَايَةٌ كَبِيرَةٌ. وكانَ النَّظَرُ فيها 5 *عَامًّا عِنْدَهُم في الثَّبَاتِ *^(د) من جِهَةِ غَرْسِهِ وَتَمَيُّنِهِ و[من] ^(هـ) جِهَةِ خَوَاصِّهِ وَرُوحَانِيَّتِهِ وَمُشَاكَلَتِهَا لِرُوحَانِيَّاتِ الكَوَاكِبِ وَالْهَيَاكِلِ المُسْتَعْمَلِ ذَلِكَ في بَابِ السَّخْرِ، فَعَظُمَتْ عِنَايَتُهُمْ بِهِ لِأَجْلِ ذَلِكَ.

وَتُرْجَمَ من كُتُبِ اليُونَانِيَّتَيْنِ كِتَابُ الفِلاحةِ التَّبَطِّيَّةِ، مَنْسُوبَةٌ لِعُلَمَاءِ التَّبَطِّ، مُشْتَمَلَةٌ من ذَلِكَ على عِلْمٍ كَبِيرٍ. وَلَمَّا نَظَرَ أَهْلُ المِلَّةِ فِيهَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الكِتَابُ، وَكَانَ 10 بَابُ السَّخْرِ مَسْدُودًا وَالنَّظَرُ فِيهِ مُحْظُورًا، فَاقْتَصَرُوا مِنْهُ على الكَلَامِ في الثَّبَاتِ من جِهَةِ غَرْسِهِ وَعِلاجِهِ وَمَا يَعرِضُ لَهُ في ذَلِكَ، وَحَذَفُوا الكَلَامَ في الفَنِّ الآخِرِ مِنْهُ جُمْلَةً.

وَاخْتَصَرَ ابْنُ العَوَّامِ كِتَابَ الفِلاحةِ التَّبَطِّيَّةِ على هَذَا المِنْهَاجِ، وَبَقِيَ الفَنُّ الآخِرُ مِنْهَا مُغْفَلًا. نَقَلَ مِنْهُ مَسْلَمَةٌ في كُتُبِهِ السَّحَرِيَّةِ أُمّهَاتٍ من مَسَائِلِهِ، كَمَا نَذَكَرَ عِنْدَ الكَلَامِ على السَّخْرِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

15 وَكُتِبَ المُتَأَخِّرِينَ في الفِلاحةِ كَثِيرَةٌ، وَلَا يَغْدُونَ فِيهَا الكَلَامَ في الْغَرَايِسِ وَالْعِلاجِ وَحِفْظِ الثَّبَاتِ من جَوَائِحِهِ وَعَوَائِقِهِ وَمَا يَعرِضُ في ذَلِكَ كُلِّهِ. وَهِيَ مَوْجُودَةٌ.

(أ) من ع، وسقط من ط ي ج (ب) ط: وهو (ج) فيما بين النجمين في ج ي: يمثل ذلك (د) سقط ما بين النجمين من ع (هـ) من ج ي، وسقط من ع ط.

27 • عِلْمُ الْإِلَهِيَّاتِ

وهو عِلْمٌ يَنْظُرُ - بِرَعْمِهِمْ - فِي الْوُجُودِ الْمَطْلُوقِ. فَأَوَّلًا فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ لِلْجَسَمَانِيَّاتِ [337ب] وَالرُّوحَانِيَّاتِ / مِنَ الْمَاهِيَّاتِ، وَالْوَحْدَةِ، وَالكَثْرَةِ، وَالْوُجُوبِ، وَالْإِمْكَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. ثُمَّ يَنْظُرُ فِي مَبَادِي الْمَوْجُودَاتِ، وَأَنْهَا رُوحَانِيَّاتٌ. ثُمَّ فِي كَيْفِيَّةِ صُدُورِ الْمَوْجُودَاتِ عَنْهَا وَتَرْتِيبِهَا. ثُمَّ فِي أَحْوَالِ النَّفْسِ بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْأَجْسَامِ وَعَوْدِهَا إِلَى الْمَبْدَأِ. 5

وهو عِنْدَهُمْ عِلْمٌ شَرِيفٌ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يَقْفَهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ الْوُجُودِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ عَيْنُ السَّعَادَةِ بِرَعْمِهِمْ. وَسَيَأْتِي الرَّدُّ عَلَيْهِمْ بَعْدُ. وَهُوَ تَالٍ لِلطَّبِيعِيَّاتِ فِي تَرْتِيبِهِمْ. وَلِذَلِكَ يُسَمَّوْنَهُ عِلْمَ مَا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ. وَكَتَبَ الْمَعْلَمُ الْأَوَّلُ فِيهِ مَوْجُودَةً بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ؛ وَلَخَّصَهَا ابْنُ سِينَا فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ وَالتَّجَاةِ، وَكَذَلِكَ لَخَّصَهَا ابْنُ رُشْدٍ مِنْ حُكَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ. 10

وَلَمَّا وَضَعَ الْمُتَأَخَّرُونَ فِي عُلُومِ الْقَوْمِ وَدَوَّنُوا فِيهَا، وَرَدَّ عَلَيْهِمُ الْغَزَالِيُّ مَا رَدَّهُ مِنْهَا، ثُمَّ خَلَطَ الْمُتَأَخَّرُونَ [فِي عُلُومِ الْقَوْمِ] ⁽¹⁾ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ مَسَائِلَ عِلْمِ الْكَلَامِ بِمَسَائِلِ الْفَلَسَفَةِ، لِاشْتِرَاكِهَا فِي الْمُبَاحِثِ، وَتَشَابُهِ مَوْضُوعِ عِلْمِ الْكَلَامِ بِمَوْضُوعِ الْإِلَهِيَّاتِ وَمَسَائِلِهِ بِمَسَائِلِهَا، فَصَارَتْ كَأَنَّهَا فَنٌّ وَاحِدٌ. وَغَيَّرُوا تَرْتِيبَ الْحُكَمَاءِ فِي مَسَائِلِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالْإِلَهِيَّاتِ، وَخَلَطَوْهُمَا فَنًّا وَاحِدًا، قَدَّمُوا فِيهِ الْكَلَامَ فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ، ثُمَّ 15 أَتَبَعُوهُ بِالْجَسَمَانِيَّاتِ وَتَوَابِعِهَا، ثُمَّ بِالرُّوحَانِيَّاتِ وَتَوَابِعِهَا، إِلَى آخِرِ الْعِلْمِ، كَمَا فَعَلَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْخَطِيبِ فِي الْمُبَاحِثِ الْمَشْرِقِيَّةِ، وَجَمِيعُ مَنْ بَعْدَهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ.

(1) مِنْ ي .

وصار علم الكلام مُختلطاً بمسائل الحكمة، وكُتِبَ محشوةً بها، كأنَّ الغرض من موضوعيها ومسائلها واحدٌ. والتَّبَسَّ ذلك على النَّاسِ، وهو غيرُ صوابٍ. لأنَّ مسائلَ علم الكلام إنَّما هي عقائدٌ مُتَلَقَّاةٌ من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع [فيها]^(أ) إلى العقل ولا تعويل عليه، بمعنى أنَّها لا تثبت إلا به. فإنَّ العقل معزولٌ عن الشرع

5 وأنظاريه، وما تحدَّث فيه المتكلمون من إقامة الحجج، فليس بحثاً عن الحق / فيها، [338]

ليُعلم بالدليل بعد أن لم يكن معلوماً كما هو شأنُ الفلسفة، بل إنَّما هو التماسُ حُجَّةٍ عقليةٍ تُعَصِّدُ عقائدَ الإيمان ومذاهبَ السلف فيها، وتدفعُ شبهةَ أهلِ البدع عنها، الذين زعموا^(ب) أنَّ مداركهم فيها عقليةٌ، وذلك بعد أن تُفرضُ صحيحةٌ بالأدلةِ الثقليةِ كما تلقاها السلف واعتقدوها؛ وكثيرٌ ما يبين المقامين. وذلك أنَّ مدارك صاحب الشريعة أوسع، لا تُسَاعِ نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية. فهي^(ج) فوقها ومحيطةٌ

بها، لاستيفادها من الأنوار الإلهية، فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها. فإذا هدانا الشارعُ إلى مُدْرِكٍ فينبغي أن نُقدِّمه على مداركنا ونَتَّقَ به دونها ولا نُنْظِرَ في تَصْحيحه بِمُدْرِكِ العقل ولو عارضه، بل نعتقد ما أَمَرنا به اعتقاداً وعِلماً ونسكتُ عما لم نفهم من ذلك، ونفوضه إلى الشارع، ونُعزِّلُ العقل عنه.

15 والمتكلمون إنَّما دَعَاهُم إلى ذلك كلامُ أهل الإلحاد في مُعارضاتِ العقائدِ السلفيةِ

بالبدع النظرية، فاحتاجوا إلى الرَّدِّ عليهم من جنسِ مُعارضاتهم، واستدعى ذلك الحججَ النظريةَ ومحاذاةَ العقائدِ السلفيةِ بها.

(أ) كذا في ع ج ي، وفي ظ: منها (ب) في ع: يزعمون (ج) في ج: فهو .

وأما النظر في مسائل الطبيعيات والإلهيات بالتصحيح والبطلان، فليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس أنظار المتكلمين. فاعلم ذلك لتمييز به بين الفئتين، فإنهما⁽¹⁾ مختلطان عند المتأخرين في الوضع والتأليف، والحق مغايرة كل منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل. وإنما جاء الالتباس من اتحاد المطالب عند الاستدلال، وصار احتجاج أهل الكلام كأنه إنشاء لطلب الاعتقاد بالدليل. وليس كذلك، بل 5 إنما هو رد على الملحدين، والمطلوب مفروض الصديق معلومه.

[338ب] وكذا جاء المتأخرون من غلاة المتصوفة / المتكلمين بالمواد أيضاً، فخلطوا مسائل الفئتين بفهم، وجعلوا الكلام واحداً فيها كلها، مثل كلامهم في الثبوت والاتحاد والحلول والوحدة وغير ذلك. والمدارك في هذه الفنون الثلاثة متغايرة مختلفة، وأبعدها من جنس الفنون والعلوم مدارك المتصوفة، لأنهم يدعون فيها 10 الوجدان، ويقرون عن الدليل. والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وأنجائها وتوابعها، كما يتناه وتبينه. والله الهادي إلى الصواب بمنه.

28 • علوم السحر والطلسمات^(ب)

وهي علم بكيفية استعدادات تقدير النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر، إما بغير معين، أو بمعين من الأمور السماوية. والأول هو السحر، 15 والثاني هو الطلسمات.

(1) في ع: وإتيا (ب) جاء في ي بلامين: الطلسمات، كما ذكرت في كامل النص.

ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع، لما فيها من الضرر، ولما يُشترط فيها من الوجهة إلى غير الله، من كوكب أو غيره، كانت كتبها كالمفقودة بين الناس، إلا ما وجد في كتب الأمم الأقدمين فيما قبل نبوة موسى عليه السلام، مثل التبط^(أ) والكلدانيين. فإن جميع من تقدمه من الأنبياء لم يُشرعوا الشرائع ولا جاءوا بالأحكام، إنما كانت كتبهم مواظ وتوحيداً لله وتذكيراً بالجنة والنار.

وكانت هذه العلوم في أهل بابل من السريانيين والكلدانيين، وفي أهل مصر من القبط، وغيرهم. وكان لهم فيها التواليف والآثار. ولم يترجم لنا من كتبهم فيها^(ب) إلا القليل، مثل الفلاحة التبطية [البن وحشية^(ج)]، من أوضاع أهل بابل. فأخذ الناس هذا العلم منها وتفننوا فيه، ووضعت بعد ذلك الأوضاع مثل مصاحف الكواكب السبعة، وكتاب طططم الهندي في صور الدرج والكواكب، وغيرهم.

ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان، كبير السخرة في هذه الملة. فتصفح كتب القوم، واستخرج الصناعة، وغاص على زبدتها. واستخرجها^(د) ووضع فيها عدة من التواليف، وأكثر الكلام فيها وفي صناعة الكيمياء، لأنها من تواعيها. لأن حالة [339] الأجسام التوعيتية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوى النفسانية لا بالصناعة العقلية. فهو من قبيل السخر، كما تذكره في موضعه.

(أ) ي: التبط (ب) في ج: منها (ج) من ع وحدها (د) ي ج: فاستخرجها.

ثم جاء مَسْلَمَةُ بن أَحْمَدَ المَجْرِيّ ، إمامُ أهلِ الأَنْدَلُسِ في التَّعاليمِ
 و^(أ)السَّخَرِيَّاتِ ، فَلَخَّصَ جَمِيعَ تِلْكَ الكُتُبِ وَهَذَّبَهَا ، وَجَمَعَ طُرُقَهَا فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ
 غَايَةَ الحَكِيمِ . وَلَمْ يَكْتُبْ أَحَدٌ فِي هَذَا العِلْمِ بَعْدَهُ .
 وَلِنُقَدِّمَ هُنَا مَقْدَمَةً يَتَبَيَّنُ لَكَ بِهَا^(ب) حَقِيقَةُ السَّخْرِ .

وذلك أَنَّ النَّفُوسَ البَشَرِيَّةَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً بِالنَّوْعِ ، فَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ بِالْخَوَاصِّ .
 وَهِيَ أَصْنَافٌ ، كُلُّ صِنْفٍ مَخْتَصٌّ بِخَاصِّيَّةٍ لَا تَوْجَدُ فِي الصَّنِفِ الْآخَرِ . وَصَارَتْ تِلْكَ
 الْخَوَاصُّ فِطْرَةً وَجِبَلَةً لِصِنْفِهَا .
 فَنفُوسُ الْأَنْبِيَاءِ ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، لَهَا خَاصِّيَّةٌ تَسْتَعِدُّ بِهَا لِلْمَعْرِفَةِ الرَّبَّائِيَّةِ ،
 وَمُخَاطَبَةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، كَمَا مَرَّ ، وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ مِنْ
 التَّأْثِيرِ فِي الْأَكْوَانِ .

10

[وَنَفُوسُ السَّحَرَةِ لَهَا خَاصِّيَّةُ التَّأْثِيرِ فِي الْأَكْوَانِ^(ج) وَاسْتِجْلَابِ رُوحَانِيَّةِ
 الْكَوَاكِبِ لِلتَّصَرُّفِ بِهَا وَالتَّأْثِيرِ بِقُوَّةِ نَفْسَانِيَّةٍ أَوْ شَيْطَانِيَّةٍ . فَأَمَّا تَأْثِيرُ الْأَنْبِيَاءِ ، فَمَبْدِدِ
 إِلَهِيٍّ وَخَاصِّيَّةِ رَبَّائِيَّةٍ . وَنفُوسُ الْكَهَنَةِ لَهَا خَاصِّيَّةُ الاِطِّلاعِ عَلَى الْمَغْشِيَّاتِ بِقُوَّةِ
 شَيْطَانِيَّةٍ ، وَهَكَذَا كُلُّ صِنْفٍ مَخْتَصٌّ بِخَاصِّيَّةٍ لَا تَوْجَدُ فِي الْآخَرِ .

15

وَالنَّفُوسُ السَّاحِرَةُ عَلَى مَرَاتِبَ ثَلَاثَةٍ يَأْتِي شَرْحُهَا :
 فَأَوَّلُهَا الْمُؤَثَّرَةُ بِالْهَمَّةِ فَقَطْ ، مِنْ غَيْرِ آلَةٍ وَلَا مُعِينٍ . وَهَذَا هُوَ الَّذِي تُسَمِّيهِ
 الْفَلَاسِيفَةُ السَّخَرُ .

(أ) سقط حرف العطف من ج (ب) في ع ي: منها (ج) من ع ج ي، وسقط من ظ .

والتَّائِي بِمَعِينٍ مِنْ [مِزَاجٍ] ^(أ) الْأَفْلَاقِ أَوْ الْعُنَاصِرِ أَوْ خَوَاصِّ الْأَعْدَادِ، وَيُسَمُّونَهُ
الطَّلْسُمَاتِ. وَهُوَ أَوْعَفُ رَتَبَةً مِنَ الْأَوَّلِ.

وَالثَّالِثُ تَأْثِيرُ فِي الْقُوَى الْمُتَخَيَّلَةِ . [يَعْمَدُ] ^(ب) صَاحِبُ هَذَا التَّأْثِيرِ إِلَى الْقُوَى
الْمُتَخَيَّلَةِ، فَيَتَصَرَّفُ فِيهَا بِنَوْعٍ مِنَ التَّصَرُّفِ، وَيُلْقِي فِيهَا أَنْوَاعاً مِنَ الْخِيَالَاتِ / وَالْمُحَاكَاةِ [339ب]
5 وَصُوراً تَمَّا يَقْصِدُهُ ^(ج) مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ يُنْزِلُهَا إِلَى الْحِسِّ مِنَ الرَّائِيْنَ بِقُوَّةِ نَفْسِهِ الْمُؤَثَّرَةِ فِيهِ.
فَيَنْظُرُ الرَّاعُونَ كَأَنَّهَا فِي الْخَارِجِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ، كَمَا يُحْكِي عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ يُرَى
الْبَسَاتِينَ وَالْأَنْهَارَ وَالْقُصُورَ، وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ. وَيُسَمَّى هَذَا عِنْدَ الْفَلَاسِيفَةِ
السَّعْوَذَةَ، أَوْ السَّعْبَذَةَ. هَذَا تَفْصِيلُ مَرَاتِبِهِ.

ثُمَّ هَذِهِ الْخَاصِيَّةُ تَكُونُ فِي السَّاحِرِ بِالْقُوَّةِ ، شَأْنُ الْقُوَى الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا ، وَإِنَّمَا
10 تَخْرُجُ إِلَى الْفِعْلِ بِالرِّيَاضَةِ . وَرِيَاضَةُ السَّخْرِ كُلُّهَا إِنَّمَا تَكُونُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْأَفْلَاقِ
وَالْكَوَاكِبِ وَالْعَوَالِمِ الْعُلُويَّةِ وَالشَّيَاطِينِ بِأَنْوَاعِ التَّعْظِيمِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ.
فَهِيَ لِذَلِكَ وَجْهَةٌ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَسُجُودٌ لَهُ. وَالْوِجْهَةُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ كُفْرٌ. فَلِهَذَا كَانَ
السَّخَرُ كُفْراً، وَالْكُفْرُ مِنْ مَوَادِّهِ وَأَسْبَابِهِ، كَمَا رَأَيْتَ. وَلِهَذَا اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي قَتْلِ
السَّاحِرِ، هَلْ هُوَ لِكُفْرِهِ السَّابِقِ عَلَى فِعْلِهِ، أَوْ لِتَصَرُّفِهِ بِالْإِفْسَادِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنْ
15 الْفَسَادِ فِي الْأَكْوَانِ؟ وَالْكُلُّ حَاصِلٌ مِنْهُ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَتِ الْمَرْتَبَتَانِ الْأُولَيَانِ مِنَ السَّخْرِ لَهَا حَقِيقَةٌ فِي الْخَارِجِ، وَالْمَرْتَبَةُ الْأُخْرَى
الثَّالِثَةُ لَا حَقِيقَةَ لَهَا، اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي السَّخْرِ، هَلْ لَهُ حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّمَا هُوَ تَخْيِيلٌ؟

(أ) مِنْ ع ج ي. وَفِي ظ: سِرَاج (ب) مِنْ ع ج ي، وَفِي ظ: يَعْمَل (ج) ي: يَقْصِدُهُ .

فالقائلون بأن له حقيقة، نظروا إلى المرتبتين الأوليتين؛ والقائلون بأنه لا حقيقة له، نظروا إلى الرتبة الثالثة الأخيرة. فليس بينهم اختلاف في نفس الأمر، بل إنما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب. والله أعلم.

واعلم أن وجود السحر لا مزية فيه بين العقلاء، من أجل التأثير الذي ذكرناه. وقد نطق به القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ 5 النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ / وَرَوْحِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة، من الآية 102].

10 وسُحِرَ^(١) رسول الله ﷺ، حتى كان يُخِيلُ إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله، وجعل سحره في مُشْطٍ مُشَاقَّةٍ^(١) وَجُفٍّ طُلْعَةٍ. وَدُفِنَ فِي بئرِ ذُرْوَانَ^(٢)، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ [عليه]^(ب) فِي الْمَعْوِذَتَيْنِ ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [سورة الفلق، الآية 4]. قالت عائشة رضي الله عنها: فكان لا يقرأ على عُقْدَةٍ مِنْ تِلْكَ الْعُقَدِ الَّتِي سُحِرَ فِيهَا إِلَّا انْحَلَّتْ.

(أ) في ع: وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ سُحِرَ (ب) سقط من ظ.

(1) وفي رواية: ومُشَاطَةٌ.

(2) إلى هذا الموضع، الحديث معروف في البخاري 4: 123 و 148 و 7: 176 و 177 و 178 و 8: 22 و 103 ومسلم (2189). أما قول عائشة فليس في الصحيح؛ إنما أورده ابن كثير في تفسيره (8: 538) وعزاه للثعلبي، وذكر أنه أورده بغير إسناد.

وأما وجود السّخر في أهل بابل، وهم الكلدانيّون من النّبط والسّريانيّين، فكثيرٌ ، نطقٌ به القرآن ، وجاءت به الأخبار . وكان للسّخر في بابل ومصر أزمان يَغْتة موسى عليه السّلام سوقُ نافقة . ولهذا كانت مُعْجَزَتُهُ من جنس ما يَدْعُونَ وَيَتَنَاجُونَ فيه. وبقي من آثار ذلك في البرابي بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك. 5

ورأينا بالعيان من يَصُوِّرُ صورة الشّخص المسحورِ بخواصّ أشياء مقابلة لما نَوَاهُ وحاولَهُ، موجودة بالمسحور، أمثال تلك المعاني من أسماء وصفاتٍ في التّأليف والتّفريق، ثم يتكلّم على تلك الصّورة الّتي أقامها مقام الشّخص المسحور عيّناً أو مَعْنَى، ثم ينفث من ريقه بعد اجتماعه في فيه بتكرارٍ مَخارج حروف ذلك الكلام السّوء ، ويُعْقِدُ على ذلك المَعْنَى في سبب أعدّه لذلك تفاولاً بالعقد والّلزام وأخذ العهد على من أشرك به من الجنّ في نفثه في فعله ذلك، استِشعاراً للعزيمة بالعزم. 10 ولتلك البنية والأسماء السيّئة روحٌ خبيثة [تخرج منه مع النّفث متعلّقة بريقه الخارج من فيه بالنّفث، فتنزّل عنها أرواحٌ خبيثة⁽¹⁾]، ويقع عن ذلك بالمسحور ما يُحاوله السّاجِرُ.

15 وشاهدنا أيضاً من المتّجّلين للسّخر وعمليّه من يُشيرُ إلى كِسَاءٍ أو جِلْدٍ ويتكلّم عليه في سرّه، فإذا هو مَقْطُوعٌ مَتَخَرِّقٌ^(ب). ويشيرُ إلى بَطون الغنم كذلك في مراعيها بالبُغج، فإذا معاًها ساقطة من بَطونها على الأرض.

(1) من ع ج ي، وسقط من ظ (ب) ي: مخرق .

وسمِعنا أنَّ بأرض الهند لهذا العهد/ من يُشير إلى إنسان، فيُنخَبُ قلبه ويقع
مَيِّتاً، ويُثَقَّبُ عن قلبه فلا يُوجدُ في حِشاه. ويشيرُ إلى الرُّمَّانة، وتُفْتَحُ، فلا يوجدُ
من حُبوبها شيءٌ.

وكذلك سمِعنا أنَّ بأرض السودان وأرض التُّرك من يسحَرُ السحابَ فيمطرُ⁽¹⁾

5

الأرض المخصوصة.

وكذلك رأينا من عمل الطَّلسمات عجائب في الأعداد المتحابَّة، وهي ر ك، ر
ق د، أحد العددين مائتان وعشرون والآخر مائتان وأربعة وثلاثون. ومعنى المتحابَّة:
أنَّ أجزاء كلِّ واحدٍ التي فيه من نصف، وزُرع، وسُدس، وخُمس، وأمثالها إذا
جُمِعَ كان مُساوياً للعدد الآخر صاحبه. فتُسمَّى لأجل ذلك المتحابَّة. ونقل أصحاب
الطَّلسمات أنَّ لتلك الأعداد أثراً في الألفه بين المتحابين واجتماعهما إذا وُضع لهما
10 تمثالان^(ب)، أحدهما بطالع الزُّهرة، وهي في بيتها أو شرفها ناضرة إلى القمر نظر مودَّة
وقبول، ويجعلُ طالع الثاني سابع الأول، ويوضع على أحد التمثالين أحد العددين
والآخر على الآخر، ويقصدُ بالأكثر: الذي يُرادُ ائتلافه، أعني المحبوب، ما أدري،
الأكثر كميَّةً أو الأكثر أجزاءً، فيكونُ لذلك من التَّأليف العظيم بين المتحابين ما لا
يكادُ ينفكُ أحدهما عن الآخر. قاله صاحبُ الغاية⁽¹⁾ وغيره من أئمة الشَّان،
15 وشهدت له التجربة.

(1) ظ: فمطر (ب) في ي: مثالان .

(1) الجريطي : غاية الحكم 32، 33، 278 .

وكذا طابع الأسد، ويُسمى أيضاً طابع الحصى. وهو أن يُرسم في قالب^(أ) هندی
إصبع^(ب) صورة أسد شائلاً ذنبه، عاضاً على حصاة قد قسمها بنصفين، وبين يديه
صورة حيّة مُنسابة من رجلته إلى قبالة وجهه، فاعرة فاهاً إلى فيه، وعلى ظهره
صورة عُرب تدب. ويتَّحَيَّن لرسمة حلول الشمس بالوجه الأول أو الثالث من
5 الأسد، بشرط صلاح التَّيَرَيْن وسلامتهما من التَّحْوِس. فإذا وُجِدَ ذلك وعُثِرَ عليه،
طُبع في ذلك الوقت في مقدار المِثْقَال فيما دونه من الذهب، وغُمِس من بعد في
الرَّغَفَران / مخلولاً بماء الورد، وزُفِع في خِزْقَة حرير صَفراء. فإنَّهم يزعمون أن
لِمُنْسِكِهِ من العز على السلاطين في مُباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له ما لا يُعْبَر
عنه. وكذلك للسلاطين فيه من القوَّة والعز على من تحت أيديهم. ذكر ذلك أيضاً
10 أهل هذا الشأن في الغاية⁽¹⁾ وغيرها، وشهدت له التَّجَرِبَةُ.

وكذلك وَفَّق المسدس المختص بالشمس، ذكروا أنه يوضَع عند حلول
الشمس في شرفها وسلامتها من التحوس، وسلامة القمر بطالع مُلوَكِي يُعْتَبَر فيه
نظر صاحب العاشر لصاحب الطالع نَظَر مَوَدَّة وقبول، ويصلح فيه ما يكون
[في]^(ج) مواليد الملوك من الأدلة الشريفة، ويُزَفَع في خِزْقَة حرير صَفراء بعد أن
15 [يُغَمَس]^(د) في الطيب. فزعموا أن له أثراً في صحابة الملوك وخدمتهم ومُعاشرتهم.
وأمثال ذلك كثير.

(أ) في ج: طالع (ب) كذا ولم تبيئه (ج) من ع، وفي ظ: من (د) من ع، وفي ظ: انتمس .

(1) المجريطي : غاية الحكم 35 - 36 .

وكتابُ الغايةِ لِمسلمَ بن أحمد المَرجِطِيّ، هو مَدَوْنَة هذه الصَّنَاعَة، وفيه استيفاءُها وكَمالُ مسائلها.

وذكرَ لنا أَنَّ الإمامَ الفخرَ ابنَ الخطيب وضعَ كتاباً في ذلك سَمَّاهُ السِّرَّ المَكْتُومَ، وأَنَّهُ بالمشرق يتداولُهُ أَهلُهُ ؛ ونحنُ لم نَقِفْ عَلَيْهِ ، والإمامُ لم يَكُنْ من أَيْمَة هذا الشَّأنِ فيما يُظَنُّ. ولعلَّ الأمرُ بخلاف ذلك.

وبالمغرب صَنَّفَ من هؤلاء المنتحلين لهذه الأعمالِ السَّحرِيَّة، يُعرفونَ بالبُعَّاجين، وهم الَّذِينَ ذكرْتُ أَوَّلاً أَنَّهُم يُشيرون إلى الكِساءِ أو الجُلْدِ فيتَخَرَّقُ، ويُشيرونَ إلى بَطونِ الغَنَمِ بالبُعْجِ فَتَنبَعِج. [ويَسَمَّى⁽¹⁾ أَحَدُهُم لهذا العَهْدِ بِاسمِ البُعَّاج، لأنَّ أَكثَرَ ما يَنْتَحِلُ من السَّحَرِ بَعْجُ الأَنْعَامِ، يُرهبُ بِذلك أَهلها لِيُعْطَوْهُ من فَضْلِها. وهم مُتَسَتِّرونَ بِذلك في الغايةِ خوفاً على أَنفُسِهِم من الحُكَّام. لَقِيتُ منهم جَماعَةً، وشاهدْتُ من 10 أَفعالهم هذه، وأخبروني أَنَّ لَهُم وَجْهَةً ورياضَةً بِدَعَوَاتِ كُفْرِيَّةٍ وإِشْرَافٍ / لروحانيَّاتِ الجِنِّ والكواكِبِ، سَطَّرتُ فيها صَحيْفَةً عِندَهُم تُسَمَّى الحِزْزِيَّةَ يَتَدَارِسُونَهَا، وأنَّ بِهذه الرِّياضَةِ والوَجْهَةِ يَصِلُونَ إلى حُصولِ هذه الأَفْعَالِ، وأنَّ التَّأثيرَ الَّذِي لَهُم إِنَّمَا هو في سِوَى الإنسانِ^(ب) الحَرَّ من الأُمْتِعَةِ والحَيواناتِ والرَّقِيقِ. وَيَعْبَرُونَ عن ذلك بِما يَمْشِي فيهِ الدَّزَهُمُ ، أي ما يُفْلَكُ وَيُبَاعُ وَيُشْتَرَى من سائِرِ المُتَمَلِّكاتِ . هذا ما زَعَمُوهُ، 15 وساءَلْتُ بَعْضَهُم فَأخْبَرَنِي^(ج) بِهِ. وَأَمَّا أَفعالُهُم فَظاهِرَةٌ مَوْجُودَةٌ، وَقَفْنَا على الكَثيرِ منها وَعائِناها من غَيْرِ رِيبةٍ في ذلك. هذا شَأْنُ السَّحَرِ والطَّلَسَماتِ * وآثارُها في العالَمِ.

(1) سقط من ظ (ب) سقط من ي ، وفي ع: الإنسان (كنا) (ج) في ج: وأخبرني .

فأما الفلاسفة، ففرّقوا بين السّحر والطلّسمات^(أ)، بعد أن أثبتوا أنّها جميعاً
أثّر للنفس الإنسانيّة. واستدلّوا على وجود الأثر للنفس الإنسانيّة بأنّها لها^(ب) آثاراً
في بدنها على غير المجزئ الطبيعيّ وأسبابه الجسديّة، بل آثار عارضة من كميّات
الأرواح تارة، كالسخونة الحادثة من الفرح والسرور، ومن جهة التّصورات النفسانيّة
5 أخرى، كالذي يقع من قبل التّوهم. فإنّ الماشي على خرف حائطٍ أو على حبلٍ
منتصبٍ إذا قويّ عنده توهم السّقوط، سقط بلا شكّ. ولهذا نجد كثيراً من الناس
يعودون أنفسهم ذلك [بالدربة عليه]^(ج) حتّى يذهب عنهم هذا الوهم، فتجدّهم يمشون
على خرف الحائط والحبل المنتصب ولا يخافون السّقوط. فثبت أنّ ذلك من آثار
النفس الإنسانيّة، وتصورها للسّقوط من أجل الوهم. وإذا كان ذلك أثراً للنفس في
10 بدنها من غير الأسباب الجسديّة الطبيعيّة، فحائز أن يكون لها مثل هذا الأثر في
غير بدنها، إذ نسبتها إلى الأبدان في ذلك النوع من التأثير واحدة، لأنها غير حالة في
البدن ولا منطبعة فيه. فثبت أنّها مؤثّرة في / سائر الأجسام.

[342 أ]

وأما التّفريق عندهم بين السّحر والطلّسمات، فهو أنّ السّحر لا يحتاج
السّاحر فيه إلى مُعين، وصاحب الطّلمسات يستعين بروحانيّات الكواكب وأسرار
15 الأعداد وخواصّ الموجودات وأوضاع الفلك المؤثّرة في عالم العناصر، كما يقوله
المتّجمون. ويقولون: السّحر اتّحاد روح بروح، والطلّسم اتّحاد روح بجسم. ومعناه
عندهم ربط الطّبائع العلويّة السماويّة بالطّبائع السفليّة. والطّبائع العلويّة هي روحانيّات
الكواكب. ولذلك يستعين صاحبه في غالب الأمر بالتّجامة. والسّاحر عندهم غير

(أ) سقط ما بين النجمين من ج (ب) ي: لها (ج) حاشية بخطه في ع وحدها .

مَكْتَسِبٍ لِسِحْرِهِ، بل هو مَفْطُورٌ عندهم^(١) على تلك الجِبِلَّةِ الْمُخْتَصَّةِ بِذَلِكَ النَّوعِ مِنَ التَّأثيرِ. والفرقُ عندهم بين المَعْجِزَةِ والسَّحْرِ أَنَّ المَعْجِزَةَ قُوَّةُ إلهيَّةٌ تَبْعُثُ فِي النَّفْسِ ذَلِكَ التَّأثيرَ . فهو مؤيَّدٌ بروح الله على فِعْله ذلك . والسَّاحِرُ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ وَبِقُوَّتِهِ النَّفْسَانِيَّةِ، وبإمدادِ الشَّيَاطِينِ فِي بَعْضِ الْأَحْوالِ. فبينهُمَا الفَرْقُ فِي المَعْقُولِيَّةِ والحَقِيقَةِ وَالذَّاتِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ.

5

وإِنَّمَا نَسْتَدِلُّ نَحْنُ عَلَى التَّفْرِقَةِ بِالْعَلَامَاتِ الظَّاهِرَةِ، وَهِيَ وَجُودُ المَعْجِزَةِ لِصَاحِبِ الْخَيْرِ وَفِي مَقَاصِدِ الْخَيْرِ، وَلِلنَّفُوسِ الْمُتَخَصِّصَةِ لِلْخَيْرِ. وَالتَّحَدِّيُّ بِهَا عَلَى دَعْوَى النَّبَوَّةِ، وَالسَّحْرِ إِنَّمَا يَوْجَدُ فِي صَاحِبِ الشَّرِّ وَفِي أفعالِ الشَّرِّ فِي الْغَالِبِ، مِنْ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الزُّوجَيْنِ، وَضَرَرِ الْأَعْدَاءِ، وَأَمْثالِ ذَلِكَ، وَلِلنَّفُوسِ الْمُتَخَصِّصَةِ لِلشَّرِّ. هَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا عِنْدَ الْحُكَمَاءِ الْإلهِيِّينَ.

10

وَقَدْ يَوْجَدُ لِبَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ أَصْحَابِ الْكِرَامَاتِ تَأثيرٌ أَيْضاً فِي أَحْوالِ الْعَالَمِ، وَلَيْسَ مَعْدُوداً مِنْ جِنْسِ السَّحْرِ . وَإِنَّمَا هُوَ بِالْإِمْدَادِ الْإلهِيِّ ، لِأَنَّهُ نَحَلَّتْهُمْ وَطَرِيقَتَهُمْ مِنْ آثَارِ النَّبَوَّةِ وَتَوَابِعِهَا . وَلَهُمْ فِي الْمَدَدِ / الْإلهِيِّ حِظٌّ عَلَى قَدْرِ حَالِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ اللَّهِ. وَإِذَا اقْتَدَرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أفعالِ الشَّرِّ لَا يَأْتِيهَا لِأَنَّهُ مُتَّقِيْدٌ فِيمَا يَأْتِيهِ وَيَذَرُهُ لِلْأَمْرِ الْإلهِيِّ. فَمَا لَا يَقَعُ لَهُمْ [فِيهِ الْإِذْنُ لَا يَأْتُوهُ بِوَجْهِهِ، وَمِنْ أَتَاهُ مِنْهُمْ فَقَدْ عَدَلَ عَنْ طَرِيقِ] ^(ب) الْحَقِّ، وَرُبَّمَا سُلِبَ حَالُهُ.

15

(١) كَذَا جَاءَتْ فِي ط ج ي، وَكَانَتْ فِي الْأَصْلِ ع ثُمَّ شَطِبَتْ (ب) وَرَدَ هَذَا النَّصُّ مَرْتَبَةً فِي ط بِسَبَبِ تَقْلِهِ الْخَاطِئُ مِنْ حَاشِيَةِ عِ الْخُرُجَيْنِ مُتَبَاعِدِينَ فِي الْمَكَانِ، لَجَمْعِ بَيْنِهِمَا. عَلَى حِينِ ثَلَاثِ ج يِ النَّصِّ سَلْباً .

ولما كانت المعجزة بإمداد روح الله والقوى الإلهية، فلذلك لا يعارضها شيء من السحر. وانظر شأن سحرة فرعون مع موسى في معجزة العصا، كيف ﴿تَلْقَفُ﴾⁽¹⁾ مَا يَأْفِكُونَ ﴿[سورة الأعراف، من الآية 117] وذهب سحرهم واضمحَلَّ كأن لم يكن.

وكذلك لما نزل على النبي ﷺ في المعوذتين ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [سورة الفلق، من الآية 4]. قالت عائشة⁽¹⁾ [رضي الله عنها]^(ب): فكان لا يقرأها على عقدة من العقدة التي سحر فيها إلا انحلت. فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره [بالهمة الإيمانية]^(ج).

وقد نقل المؤرخون أن ذرفش كاتيان⁽²⁾، وهي راية كسرى كان فيها الوفق المينيّ العدديّ منسوجاً بالذهب في طوالع^(د) فلکیّة رُصدت لوضع^(هـ) ذلك الوفق. فوجدت الزاية يوم قتل رستم بالقادسية واقعة على الأرض، بعد انهزام أهل فارس وشتاتهم. وهو فيما يزعم أهل الطلسمات والأوقاف مخصوص بالغلب في الحروب، وأن الزاية التي يكون فيها أو معها فلا تنهزم أضلاً. إلا أن هذه عارضها المدد الإلهي من إيمان أصحاب النبي وتمسكهم بكلمة الله. فانحلَّ معها كل عقد سحريّ، ولم يثبت. ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية 118].

(1) في ع: تلقفت ما كانوا يأفكون (ب) من ي (ج) حاشية بخطه من ع (د) كذا في ع، وفي ط ج ي: أوضاع (هـ) من حاشية ع، وسقط من ط ج ي.

(1) تشدّم القول فيه في صفحة 327.

(2) كذا ضبطت بالحركات في ع، وعند المسعودي: ذرفش كايان أو ذرفش. مروج الذهب 3: 51 (1531)، 63 (1556) وانظر تعريف CH. pellat في الفهارس 6: 319.

- وأما الشريعة، فلم تُفرّق بين السّحر والطلّسمات والشّعْبذة⁽¹⁾، وجعلته كلّ باباً [واحداً]⁽¹⁾ محظوراً. لأنّ الأفعال إنّما أباح لنا الشارع منها ما يهّمنا في ديننا الذي فيه صلاح آخِرَتنا، أو في معاشنا الذي فيه صلاح دُنْيانا. وما لا يهّمنا في شيء منها، فإن كان فيه ضررٌ أو نوعٌ ضررٍ، كالسّحر الحاصل ضرره بالوقوع، وتُلحق به الطّلسمات، لأنّ أثرهما واحدٌ، كاللّجامة التي فيها نوعٌ ضررٍ باعتقاد التأثير، فتفسدُ العقيدة الإيمانيّة برّد الأمور إلى غير الله، فيكون حينئذٍ ذلك الفعل محظوراً على نسبته^(ب) في الضرر. وإن لم يكن مُهمّاً علينا ولا فيه ضررٌ، فلا أقلّ من تركه، قريةً إلى الله. فإن من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. فجعلت الشريعة باب السّحر والطلّسمات والشّعْبذة⁽¹⁾ باباً واحداً، لما فيها من الضرر، وخَصّته بالخطر والتّحريم.
- وأما الفرقُ عندهم بين المعجزة والسّحر، فالذي ذكره المتكلّمون أنّه راجعٌ إلى التّحدّي، وهو دَعْوَى وقوعها على وفق مُدّعاء. قالوا: ووقوع المعجزة على وفق دَعْوَى الكاذب غير مقدور. لأنّ دَلالة المعجزة على الصّديق عَقْلِيّة، لأنّ صفة نفسها التّصديق. فلو وقعت مع الكذب لاستحال الصّادق كاذباً، وهو مُحالٌ. فإذن، لا تقع^(ج) المعجزة مع الكذب بإطلاق.
- وأما الحكماء فالفرق بينهما عندهم، كما ذكرناه، فرّق ما بين الخير والشرّ في نهاية الطّرفين. فالسّاحر لا يصدُرُ منه الخير ولا يُستعملُ في أسباب الخير. وصاحبُ

(1) من ع ج ي، وسقط من ط (ب) ع: نسبة (ج) في ع: ولا تقع.

(1) استعمل الكلمتين لمعنى واحد، انظر الصفحة 326 المتقدمة.

المُعْجِزَةُ لَا يَصْدُرُ مِنْهُ الشَّرُّ وَلَا يُسْتَعْمَلُ فِي أَسْبَابِ الشَّرِّ. وَكَأْتَهَا عَلَى طَرَفِي
التَّقْيِضِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي أَصْلِ فِطْرَتِهَا. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة،
من الآية 213] .

1. فَضْلٌ^(أ)

5 ومن قَبِيلِ هذه التَّأثيرَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ، الإِصَابَةُ بِالْعَيْنِ. وهو تَأثيرٌ من نَفْسِ
الْمُعَيَّنِ عِنْدَمَا يَحْسُنُ بَعَيْنُهُ مُدْرِكٌ مِنَ الذَّوَاتِ أَوْ الْأَحْوَالِ، وَيُفْرِطُ فِي اسْتِحْسَانِهِ.
و[يَلْشَأُ]^(ب) عَنْ ذَلِكَ الْاِسْتِحْسَانِ حَسَدٌ يَرُومُ مَعَهُ سَلْبَ ذَلِكَ الشَّيْءِ عَمَّنْ اتَّصَفَ
بِهِ، فَيُؤَثِّرُ فِسَادَهُ.

[343ب] وهو جِبِلَّةٌ فِطْرِيَّةٌ، أَغْنَى هذه الإِصَابَةُ بِالْعَيْنِ. / وَالْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ التَّأثيرَاتِ
النَّفْسَانِيَّةِ، أَنَّ صُدُورَهُ فِطْرِيٌّ جِبِلِّيٌّ، لَا يَتَخَلَّفُ وَلَا يَرْجِعُ إِلَى اخْتِيَارِ صَاحِبِهِ، وَلَا
يَكْتَسِبُهُ. وَسَائِرُ التَّأثيرَاتِ، وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مَا لَا يَكْتَسِبُ، فَصُدُورُهَا رَاجِعٌ إِلَى
اخْتِيَارِ فَاعِلِهَا. وَالْفِطْرِيُّ مِنْهَا قُوَّةُ صُدُورِهَا، لَا نَفْسُ صُدُورِهَا. وَلِهَذَا فَإِنَّ [الْقَاتِلَ]^(ج)
بِالسَّخَرِ أَوْ بِالْكَرَامَةِ يُقْتَلُ، وَالْقَاتِلُ^(ج) بِالْعَيْنِ لَا يُقْتَلُ. وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا
يُرِيدُهُ وَيَقْصِدُهُ أَوْ يَتَرَكُّهُ، وَإِنَّمَا هُوَ مُجْبُورٌ فِي صُدُورِهِ عَنْهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(أ) ألحق هذا الفصل بخطه في حاشية ع، ونقلته ط ج ي (ب) من ع، وفي ط: ونشأ (ج) في ط: القاتل، ووردت مفعلة في ي .

29 • عِلْمُ أَسْرَارِ الْحُرُوفِ

وهو المسمّى لهذا العهد بالسمياء، نُقِلَ وَضْعُهُ مِنَ الطَّلَسْمَاتِ إِلَيْهِ فِي اصطلاح أهل التصرف من المتصوّفة، فاستُعْمِلَ العامُّ في الخاصِّ.

وحدّث هذا العلم في المِلَّة بعد صَدْرِهَا ، وعندَ ظُهورِ العُلَاةِ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ وَجُنُوحِهِمْ إِلَى كَشْفِ حِجَابِ الْحِسِّ ، وظُهورِ⁽¹⁾ الخوارق على أيديهم والتّصَرّفاتِ فِي 5 عالمِ العناصرِ، وتَدْوِينِ الكُتُبِ وَالِاصْطِلَاحَاتِ، وَمَزَاجِهِمْ فِي تَنْزِيلِ الْوُجُودِ عَنِ الْوَاحِدِ وَتَرْتِيبِهِ. وَزَعَمُوا أَنَّ الْكَمَالَ الْأَسْمَاءِيَّ مَظَاهِرُهُ أَرْوَاحُ الْأَفْلَاقِ وَالْكَوَاكِبِ، وَأَنَّ طِبَاعَ الْحُرُوفِ وَأَسْرَارَهَا سَارِيَّةٌ فِي الْأَسْمَاءِ. فَهِيَ سَارِيَّةٌ فِي الْأَكْوَانِ عَلَى هَذَا النِّظَامِ، وَالْأَكْوَانُ مِنْ لَدُنِ الْإِبْدَاعِ الْأَوَّلِ تَنْتَقِلُ فِي أَطْوَارِهِ وَتُعْرَبُ عَنْ أَسْرَارِهِ؛ فَحَدَّثَ 10 لَذَلِكَ عِلْمُ أَسْرَارِ الْحُرُوفِ . وَهُوَ مِنْ تَفَارِيعِ عُلُومِ السَّمِيَاءِ ، لَا يَوْقِفُ عَلَى مَوْضُوعِهِ 10 وَلَا تُحَاطُ بِالْعَدَدِ مَسَائِلُهُ. تَعَدَّدَتْ فِيهِ تَوَالِيفُ الْبُوتِيِّ وَابْنِ الْعَرَبِيِّ وَغَيْرُهُمَا مِمَّنْ اتَّبَعَ آثَارَهُمَا.

وَحَاصِلُهُ عِنْدَهُمْ وَثَرَتُهُ : تَصَرُّفُ الْقُفُوسِ الرِّبَائِيَّةِ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالْكَلماتِ الْإِلَهِيَّةِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْحُرُوفِ الْمُحِيطَةِ بِالْأَسْرَارِ السَّارِيَّةِ فِي الْأَكْوَانِ.

15

(أ) سقط من ج .

ثم اختلفوا في سِرِّ التَّصْرُفِ [الذي في الحُرُوف بما هو. فمنهم من جَعَلَهُ لِلْمِزَاجِ
الَّذِي فِيهِ، وَقَسَّمَ الحُرُوفَ] ^(أ) بِقِسْمَةِ الطَّبَائِعِ إِلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ كَمَا لِلْعُنَاصِرِ،
وَاخْتَصَّتْ كُلُّ طَبِيعَةٍ ^(ب) بِصِنْفٍ مِنَ الحُرُوفِ يَقَعُ [التَّصْرُفُ] ^(ج) فِي طَبِيعَتِهَا فَعَلَاءً
وَإِنْفَعَالاً بِذَلِكَ الصَّنْفِ. / فَتَنَوَّعَتِ الحُرُوفُ بِقَانُونٍ صِنَاعِيٍّ يُسَمُّونَهُ التَّكْسِيرَ، إِلَى
5 نَارِيَّةٍ وَهَوَائِيَّةٍ وَمَائِيَّةٍ وَتُرَابِيَّةٍ عَلَى حَسَبِ تَنَوُّعِ العُنَاصِرِ. فَلِأَلْفٍ لِلنَّارِ، وَلِبَاءٍ لِلْهَوَاءِ،
وَالْجِيمُ لِلْمَاءِ، وَالدَّالُّ لِلتُّرَابِ. ثُمَّ تَرْجِعُ كَذَلِكَ عَلَى التَّوَالِي مِنَ الحُرُوفِ وَالْعُنَاصِرِ إِلَى
أَنْ تَنْفَدَ، فَتَعَيَّنَ لِعُنْصَرِ النَّارِ حُرُوفٌ سَبْعَةٌ: الْأَلْفُ وَالْهَاءُ وَالطَّاءُ وَالْمِيمُ وَالْفَاءُ
وَالشَّيْنُ ^(د) وَالدَّالُّ. وَتَعَيَّنَ لِعُنْصَرِ الْهَوَاءِ سَبْعَةٌ أَيْضاً: الْبَاءُ وَالْوَاوُ وَالْيَاءُ وَالتَّوْنُ
وَالضَّادُ وَالتَّاءُ وَالطَّاءُ. وَتَعَيَّنَ لِعُنْصَرِ الْمَاءِ سَبْعَةٌ أَيْضاً: الْجِيمُ وَالزَّايُ وَالْكَافُ وَالضَّادُ ^(هـ)
10 وَالْقَافُ وَالتَّاءُ وَالغَيْنُ ^(و). وَتَعَيَّنَ لِعُنْصَرِ التُّرَابِ سَبْعَةٌ أَيْضاً: الدَّالُّ وَالْحَاءُ وَاللَّامُ
وَالغَيْنُ وَالرَّاءُ وَالخَاءُ وَالشَّيْنُ ^(ز).

فالحُرُوفُ النَّارِيَّةُ لِدَفْعِ الْأَمْرَاضِ الْبَارِدَةِ، وَلِمُضَاعَفَةِ قُوَّةِ الْحَرَارَةِ حَيْثُ تُطْلَبُ
مُضَاعَفَتُهَا إِمَّا جِسّاً أَوْ حُكْماً، كَمَا فِي تَضْعِيفِ قُوَّةِ الْمَرِيخِ فِي الْحُرُوبِ وَالْقَتْلِ
وَالْفَتْكِ. وَالْمَائِيَّةُ أَيْضاً لِدَفْعِ الْأَمْرَاضِ [الْحَارَةِ] ^(ح) مِنْ حُمَيَاتٍ وَغَيْرِهَا، وَلِتَضْعِيفِ
15 الْقُوَى الْبَارِدَةِ حَيْثُ تُطْلَبُ مُضَاعَفَتُهَا جِسّاً أَوْ حُكْماً كِتَضْعِيفِ قُوَّةِ الْقَمَرِ، وَأَمْثَالِ
ذَلِكَ.

(أ) من: ع ج ي، وسقط من ظ (ب) في ظ: طبيعة لها (ج) سقط من ظ (د) في ي: الشين (هـ) كذا في ي، وفي ع:
الضاد وفوقها الشين تعويضاً (و) كذا في ظ، وفي ع شطبت الغين وفوقها القاء (ز) في ع: الغين (ح) سقط من ظ.

ومنهم من جعل سرَّ التَّصْرِيفِ الَّذِي فِي الْحُرُوفِ لِلنَّسْبَةِ الْعَدَدِيَّةِ. فَإِنَّ حُرُوفَ أَبْجَدِ دَالَّةٍ عَلَى أَعْدَادِهَا الْمُتَعَارِفَةِ وَضِعاً وَطَبْعاً. فَبَيْنَهَا مِنْ أَجْلِ تَنَاسُبِ الأَعْدَادِ تَنَاسُبٌ فِي نَفْسِهَا أَيْضاً، كَمَا بَيَّنَّ الْبَاءَ وَالْكَافَ وَالرَّاءَ، لِدَلَالَتِهَا كُلِّهَا عَلَى الْاِثْنَيْنِ، كُلٌّ فِي مَرْتَبَتِهِ. فَالْبَاءُ عَلَى اِثْنَيْنِ فِي مَرْتَبَةِ الْآحَادِ، وَالْكَافُ عَلَى اِثْنَيْنِ فِي مَرْتَبَةِ الْعَشَرَاتِ، وَالرَّاءُ عَلَى اِثْنَيْنِ فِي مَرْتَبَةِ الْمِائِينَ. وَكَالَّذِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ الدَّالِّ وَالْمِيمِ 5 وَالتَّاءِ لِدَلَالَتِهَا عَلَى الْأَرْبَعَةِ، وَبَيْنَ الْأَرْبَعَةِ وَالْاِثْنَيْنِ نِسْبَةُ الضَّعْفِ. وَخَرَجَ لِلْأَسْمَاءِ أَوْفَاقٌ كَمَا لِلْأَعْدَادِ، يَخْتَصُّ كُلُّ صَنِيفٍ مِنَ الْحُرُوفِ بِصَنِيفٍ مِنَ الْأَوْفَاقِ الَّذِي تُنَاسِبُهُ مِنْ حَيْثُ عَدَدُ الشَّكْلِ أَوْ عَدَدُ الْحُرُوفِ. وَامْتَرَجَ التَّصْرِيفُ مِنَ السَّرِّ الْحَرْفِيِّ وَالسَّرِّ الْعَدَدِيِّ لِأَجْلِ التَّنَاسُبِ الَّذِي بَيْنَهُمَا.

[344ب] فَأَمَّا سِرُّ هَذَا التَّنَاسُبِ الَّذِي بَيْنَ الْحُرُوفِ وَأَمْرِجَةِ الطَّبَائِعِ، أَوْ بَيْنَ / الْحُرُوفِ وَالْأَعْدَادِ، فَأَمَرَ عَسِيرٌ^(أ) عَلَى الْفَهْمِ، إِذْ لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الْعُلُومِ وَالْقِيَاسَاتِ، وَإِنَّمَا مُسْتَنْدُهُ عِنْدَهُمُ الذَّوْقُ^(ب) وَالْكَشْفُ. قَالَ الْبُونِيُّ⁽¹⁾: وَلَا تَطُنُّ أَنْ سِرَّ الْحُرُوفِ مِمَّا يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالْقِيَاسِ الْعَقْلِيِّ، وَإِنَّمَا هُوَ بِطَرِيقِ الْمَشَاهِدَةِ وَالتَّوْفِيقِ الْإِلَهِيِّ.

وَأَمَّا التَّصْرِيفُ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ وَالْأَسْمَاءِ الْمُرَكَّبَةِ فِيهَا، وَتَأَثُّرُ الْاِكْوَانِ عَنْ ذَلِكَ، فَأَمَرَ لَا يُنْكَرُ، لِشُبُوتِهِ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ تَوَاضَعاً. وَقَدْ يُظَنُّ أَنْ تَصْرِيفَ 15

(أ) ج: غسِر (ب) في ع: الذَّوَا .

(1) شمس المعارف الكبرى 216 - 217 (في الفصل 17 في خواص كهيعص) .

هؤلاء وتصرف أصحاب الطلسمات واحد، وليس كذلك. فإن حقيقة الطلسم وتأثيره، على ما حققه أهله، أنه قوى روحانية من جوهر القهر، تفعل فيما له ركب فعل غلبة وقهر بأسرار فلكية ونسب عددية وبخورات جالبة لروحانية ذلك الطلسم، مشدودة فيه بالهمة، فائدتها ربط الطبايع العلوية بالطبايع السفلية. وهو 5 عندهم كالحميرة المركبة من أرضية وهوائية ومائية ونارية، حاصلة في جملتها، تحيل وتصرف ما حصلت فيه إلى ذاتها، وتقلبه إلى صورتها. وكذلك الأكسير للأجسام المعدنية خيرة تقلب المعين الذي تسري فيه إلى نفسها بالإحالة. ولذلك يقولون: موضوع الكيمياء جسد في جسد، لأن الأكسير أجزاءه كلها جسدانية. ويقولون: موضوع الطلسم روح في جسد، لأنه ربط الطبايع العلوية بالطبايع السفلية؛ والطبايع السفلية جسد، والطبايع العلوية روحانية. 10

وتحقيق الفرق بين تصرف أهل الطلسمات وأهل الأسماء، بعد أن تعلم أن التصرف في عالم الطبيعة كله إنما هو للنفس الإنسانية والهمم البشرية. لأن النفس الإنسانية مُحيطَةٌ بالطبيعة وحاکمةٌ عليها بالذات، إلا أن تصرف أهل الطلسمات إنما هو في استئصال⁽¹⁾ روحانية الأفلاك وربطها بالصُّور أو بالنسب العددية^(ب) حتى يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الإحالة والقلب بطبيعته، فعل الحميرة فيما حصلت فيه. 15

وتصرف أصحاب الأسماء إنما / هو بما حصل لهم بالمجاهدة والكشف من [345]

(أ) في ي: اشتراك (ب) في ي ج: العادية.

التور الإلهي والإمداد الرباني. فتُسَخَّرُ^(أ) الطبيعة لذلك طاعة غير مُستَغْفِيَةٍ، ولا يحتاج إلى مددٍ من القوى الفلكية ولا غيرها، لأنَّ مددَهُ أَعْلَى منها.

ويحتاج أهلُ الطَّلسماتِ إلى قليلٍ من الرياضة تُقَيِّدُ النَّفْسَ قُوَّةً على استِئْزَالِ^(ب) روحانية الأفلاكِ ، وأَهْوُونُهَا وَجْهَةٌ ورياضةٌ . بخلاف أهل الأسماء، فإنَّ رياضَتَهُم هي الرياضة الكبرى ، وليست لِقْصْدِ التَّصَرُّفِ في الأكوانِ ، إذ هو 5 حجابٌ، وإِنَّمَا التَّصَرُّفُ حَاصِلٌ لَهُم بِالْعَرَضِ كَرَامَةٍ من كراماتِ اللَّهِ بِهِمْ. فإنَّ حَلاَ صاحب الأسماء عن مَعْرِفَةِ أَسْرَارِ اللَّهِ وحقائقِ الْمَلَكُوتِ، الَّذِي هُوَ نَتِيجَةُ الْمَشَاهِدَةِ وَالْكَشْفِ ، واقتصر على مُناسباتِ الأسماء وطبائعِ الحُرُوفِ والكلماتِ، وتَصَرَّفَ بِهَا من هذه الْحَيْثِيَّةِ، وهؤلاء هم أهلُ السِّمَاءِ في المشهور ، كان إِذْنُ لَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَصْحَابِ الطَّلسماتِ، بل صاحبُ الطَّلسماتِ أَوْثَقُ مِنْهُ، لِأَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى أَصُولٍ طَبِيعِيَّةٍ 10 عِلْمِيَّةٍ وَقَوَانِينٍ مَرْتَبَةٍ. وَأَمَّا صَاحِبُ أَسْرَارِ الْأَسْمَاءِ إِذَا فَاتَهُ الْكَشْفُ الَّذِي يَطَّلِعُ بِهِ عَلَى حَقَائِقِ الْكَلِمَاتِ وَآثَارِ الْمُنَاسَبَاتِ بِقُوَّاتِ الْخُلُوصِ فِي الْوَجْهَةِ، وَلَيْسَ لَهُ فِي الْعُلُومِ الْإِصْطِلَاحِيَّةِ قَانُونٌ بَرَهَانِيٌّ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ حَالُهُ أَوْضَعُ رَتَبَةً.

وقد يَفْزَحُ صاحبُ الأسماء قُوَى الْكَلِمَاتِ وَالْأَسْمَاءِ بِقُوَى الْكَوَاكِبِ ، فَيُعَيِّنُ لَذِكْرِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى أَوْ مَا يَرْسُمُ مِنْ أَوْفَاقِهَا، بل ولسائر الأسماء ، أَوْقَاتًا^(ج) تكون 15 مِنْ خُطُوطِ الْكَوَكِبِ الَّذِي يُنَاسِبُ ذَلِكَ الْاسْمَ، كَمَا فَعَلَهُ الْبُونِي فِي *كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ*^(د) الْأَنْطَاطَ. وهذه الْمُنَاسَبَةُ عِنْدَهُمْ هِيَ مِنْ لَدُنِ الْخِطْرَةِ الْعَمَاقِيَّةِ، وَهِيَ بَرَزْخِيَّةٌ

(أ) ع: فَيُسَخَّرُ (ب) فِي ي: اشْتَرَاكَ (ج) فِي ي: أَوْفَاقًا (د) سَقَطَ مَا بَيْنَ النَّجْمَيْنِ مِنْ ج .

[الكَمال] ⁽¹⁾ الأسمائي، وإنّا نَزَّلَ تفصيلُها في الحقائق على ما هي عليه من المناسبة. وإثبات هذه الكلمات عندهم إنّما هو بحُكم المشاهدة. فإذا خلا صاحبُ الأسماء عن تلك المشاهدة، وتلقّى تلك المناسبة تقليداً، كان عمله بمثابة [عمل] ^(ب) صاحب الطَّلسم، بل هو أوثق منه، كما قلناهُ.

- 5 وكذلك قد يمزج أيضاً صاحبُ / الطَّلسماتِ عمله وقوى كواكبِهِ بقوى الدَّعواتِ [345ب] المؤلَّفة من الكلماتِ المخصوصة المناسبة بين الكلمات والكواكبِ، إلّا أنّ مُناسبة الكلمات عندهم ليس كما هي عند أصحاب الأسماء من الاطلاع في حال المشاهدة، وإنّا يرجع إلى ما اقتضته أصولُ طريقَتهم السَّحرية من اقتسام الكواكب لجميع ما في عالم المكوّنات من جواهر وأعراض وذوات ومعاني؛ والحروف والأسماء من جُملة ما فيه، فلكلّ واحدٍ من الكواكب قسمٌ منها يَخُصّه.
- 10

ويبنون على ذلك مباني غريبة مُنكرة من تقسيم سُور القرآن وآيهِ على هذا النحو، كما فعله مَسَلمةُ الجَرِيطي في كتاب ^(ج) الغاية ⁽¹⁾. والظاهر من حال البُوني في أنماطه أنّه اعتَبَر طريقَتهم. فإنّ تلك الأنماط إذا تَصَفَّحَتْها وتَصَفَّحَتْ الدَّعوات التي تَضَمَّنَتْها، وتقسيمها على ساعاتِ الكواكب السَّبعة، ثم وَقَفَتْ على الغاية، وتَصَفَّحَتْ قِياماتِ الكواكب التي فيها، وهي الدَّعوات التي تَخْتَصُّ بكلّ كوكبٍ يُسمونها قِياماتِ

15

(1) سقط من ط (ب) من ع ج ، وسقط من ط (ج) من حاشية ع وسقط من ي ج .

(1) غاية الحكيم 169 – 175، وينقل الجريطي عن "الكتاب المخزون" لجعفر البصري الذي أخفاه مخافة التطلع على سرّه، وفيه قسم البصريّ آي القرآن على الكواكب السبعة .

الكواكب، أي الدعوة التي يُقامُ له بها، شهد لك ذلك إما بآته من مادّتها، أو بأنَّ
التَّناسُبَ الَّذِي كان في أَضَلِّ الإِبداعِ وَبَزَخِ العِلْمِ قَضَى بِذلك كُلِّهِ. ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ
مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية 85].

وليس كلُّ ما حَرَّمَهُ الشَّرْعُ مِنَ العُلُومِ بِمُنْكَرِ الثُّبُوتِ . فقد ثَبَتَ أَنَّ السَّحَرَ
حَقٌّ مَعَ حَظَرِهِ، لَكِنْ حَسَبْنَا مِنَ العِلْمِ ما عَلَّمَنَاهُ اللَّهُ.

تحقيق^(١)

وَنُكْتُهُ [هذه] ^(ب) السَّيِّئَاءِ كَمَا تَحَقَّقَ لَكَ، أَنَّهَا ضَرَبٌ مِنَ السَّخَرِ، يَحْصُلُ
 بِرِیَاضَاتٍ شَرِيعَةٍ خَاصَّةٍ. وَذَلِكَ أَنَّا قَدَّمْنَا لَكَ ^(ج) أَنَّ التَّصَرُّفَ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ ^(د)
 لِصِنْفَيْنِ مِنَ الْبَشَرِ، هُمَا الْأَنْبِيَاءُ، بِالْقُوَّةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا، وَالسَّحَرَةُ،
 5 بِالْقُوَّةِ التَّفْسَائِيَّةِ الَّتِي جُبِلُوا عَلَيْهَا.

وَقَدْ يَحْصُلُ لِلْأَوْلِيَاءِ تَصَرُّفٌ [يَكْتَسِبُونَهُ] ^(هـ) بِالْكَلِمَةِ الْإِيمَانِيَّةِ. وَهُوَ مِنْ نَتَائِجِ
 التَّجْرِيدِ وَاکْتِسَابِهِ ^(و)، وَلَا يَقْصِدُونَ [إِلَى] ^(ز) تَحْصِيلِهِ، وَإِنَّمَا يَأْتِيهِمْ عَفْوَاً. وَالْمُتَمَكِّنُونَ

(١) الحق ابن خلدون هذا التحقيق في بطاقة منفصلة بخطه، في نسخة ع. وكتب بخطه مثلها مُخرجاً في نسخة ط. وأدرجه نسخة
 ج في سياق النص متساوفاً إلى الآخر مع نسخة ط. إلا أن الأصلين ع ط [المحرر هذا الملحق فيها بخط المؤلف] اختلف نصهما
 في الأثناء، فواصلنا عرض نص ط في المتن ومعها ج، وقلنا بقية نص ع في هذه الحاشية:

إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الرِّیَاضَةَ السَّحَرِيَّةَ الَّتِي لِلْأَوَّلِينَ مَشْحُونَةٌ بِالْكَفَرِيَّاتِ، كَالْتَوَجِّهَاتِ لِلْكَوَاكِبِ وَالدَّعَوَاتِ
 لَهَا، الَّتِي يُسْتَوْنَهَا قِيَامَاتٍ لاسْتِجْلَاءٍ رُوحَانِيَّتِهَا، وَكَاغْتِقَادِ التَّأْثِيرِ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ فِي زِنطِ الْفِعْلِ بِالطَّوَابِعِ
 التَّجْوِمِيَّةِ، وَمَنَاظَرَةِ الْكَوَاكِبِ فِي الْبُرُوجِ لِتَحْصِيلِ الْأَثَرِ الْمَطْلُوبِ.

فَاعْتَمَدَ لِذَلِكَ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَرُومُ التَّصَرُّفَ فِي عَالَمِ الْكَائِنَاتِ، وَقَصَدُوا طَرِيقَ تَحْصِيلِهِ عَلَى وَجْهِ تَبَعْدٍ
 مِنْ مُلَابَسَةِ الْكُفْرِ وَائْتِحَالِهِ، وَقَلَّبُوا تِلْكَ الرِّیَاضَاتِ شَرِيعَةً بِأَذْكَارٍ وَتَشْبِيحَاتٍ مِنَ الشَّرَآنِ وَالْأَحَادِيثِ
 التَّبَوِّيَّةِ، هَدَاهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ الْمُنَاسِبِ مِنْهَا لِلْحَاجَةِ - مَا قَدَّمْنَاهُ - انْقِسَامُ الْعَالَمِ بِمَا فِيهِ مِنْ ذَوَاتٍ وَصِفَاتٍ
 وَأَفْعَالٍ بِأَثَارِ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ. وَيَتَحَرَّزُونَ فِي ذَلِكَ الْأَيَّامِ وَالسَّاعَاتِ الْمُنَاسِبَةِ لِانْقِسَامِهَا كَذَلِكَ.
 وَيَسْتَشْرُونَ بِتِلْكَ الرِّیَاضَةِ الشَّرِيعَةِ مَخْرَجاً مِنَ السَّحَرِ الْمَعْهُودِ الَّذِي هُوَ كَفَرٌ أَوْ يَدْعُو إِلَيْهِ. وَيَتَمَسَّكُونَ
 بِالْوُجْهِ الشَّرِيعَةِ لِعُمُومِهَا وَخُلُوصِهَا، كَمَا فَعَلَهُ الْبُتُونِيُّ فِي كِتَابِ الْأَنْهَاطِ وَغَيْرِهِ مِنْ كُتُبِهِ، وَقَعَلَهُ غَيْرُهُ.
 وَسَمَّوْا هَذِهِ الطَّرِيقَةَ بِالسَّيِّئَاءِ، تَوَعَّلَّأَ فِي الْفِرَارِ مِنْ اسْمِ السَّخَرِ، وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ وَاقِعُونَ فِي مَعْنَاهُ. =

(ب) ط: علم (ج) سقط من ع (د) من ط ج، وفي ع: الأكوآن (هـ) من ع ج، وسقط من ط (و) من ط، وسقط
 من ع ج (ز) من ع ج.

منهم إذا عَرَضَ لهم أَعْرَضُوا عنه، واستَعَاذُوا بِاللَّهِ منه، *وَعَدُّهُ مِحْنَةً^(أ)، كما يُحْكِي عن أبي يزيد [البسطامي]^(ب) أنه وافى شاطئ دجلة عشاءً منحفراً، فالتقى [له]^(ج) طرفاً الوادي؛ فاستعاذ بالله وقال: لا أبيع حظي من الله بدانيق. وركب السفينة [عابراً]^(د) مع الملاحين.

وأما السحر، فلا بُدَّ في الجبليّ منه من الرياضة ليخرج من القوة^(هـ) إلى 5 الفعل. وقد يحصل ضرب^(و) منه بالاكْتِسَاب، وهو دون الأول^(ز)، فتُعاني فيه الرياضة كما تُعاني في الأول.

وهذه الرياضة السحرية معروفة؛ وقد ذكر أنواعها وإكفيتها^(ح) مسلمة المجريطي في كتاب الغاية⁽¹⁾، وجابر بن حيان في بعض رسائله، وغيرهما. وقد^(ط) يستعملها كثير ممن يقصد اكتساب السحر وتعلّمه على قوانينها وشروطها. 10 وكثير من الناس يقصد الحصول على التصرف، ويتحرّج من مُلابسة السحر

وإن كانت الوجهة الشرعية حاصلة لهم، فلم يبعدوا كل البعد عن اعتقاد التأثير لغير الله. ثم إنهم يقصدون التصرف في عالم الكائنات، وهو محظور عند الشارع، وما وقع منه للأنبياء في المعجزات، فأمر الله وأقداره. وما وقع للأولياء، فبإذن يحصل لهم بخلق العلم الضروري إلهاماً أو غيره، ولا تعتمدوه [في الأصل ع بخطه: ولا تعتمدونه] من دون إذن. فلا تيقن بما يُمَوّه به هؤلاء في هذه السيمياء، فإنما هي، كما قررته لك، من فنون السحر وضروبه. والله الهادي إلى الحق بمّنه.

(أ) سقط ما بين النجمين من ج (ب) من ع، وسقط من ط ج (ج) من: ع ج (د) من ع، وفي ج: للثور، وسقط من ط (هـ) من: ط ج، وفي ع: القول (و) كذا في ط ج، وفي ع: وقد يحصل غير الجبليّ منه... (ز) ع: الجبليّ (ح) من ع (ط) سقط من ع.

(1) الغاية 6 - 11 المقالة الأولى، الفصل الثاني.

[وَأَسْمِهِ وَوَضْعِهِ]^(أ)، فَيَتَّخِذُ لِنَظَرِ رِيَاضَةٍ خَاصَّةٍ شَرْعِيَّةٍ، مِنْ سُبُحَاتٍ وَأَذْكَارٍ
 مَنَاسِبَةٍ لِلرِّيَاضَةِ السَّحَرِيَّةِ بَنُوعِ التَّوَجُّهِ وَجِئْسِ الْكَلِمَاتِ، وَيَتَحَيَّنُ الطَّوَالِعَ، وَيَتَجَافَى
 عَنْ قَصْدِ الضَّرَرِ فِي وَجْهِهِ لِيَبْعَدَ بِذَلِكَ عَنِ السَّحْرِ. وَهَيْهَاتَ لَهُ ذَلِكَ. وَنَفْسُ الْوِجْهَةِ
 بِقَصْدِ التَّصَرُّفِ هِيَ عَيْنُ السَّحْرِ. مَعَ أَنَّ رِيَاضَةَ هَؤُلَاءِ إِذَا تَأَمَّلْتَهَا نَبَعَتْ رِيَاضَةُ السَّحْرِ
 5 مِنْ بَيْنِ كَلِمَاتِهَا كَمَا فِي أَثْنَاءِ الْبُؤْيِ، بَلْ وَفِي سَائِرِ كُتُبِهِ. [وَأَمَّا إِنْ كَانَ غَالِطاً فِي
 مَشْرُوعِيَّةِ ذَلِكَ]^(ب) لِحَصُولِ التَّصَرُّفِ، فَلْيَتَخَذَرِ ذَلِكَ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ التَّصَرُّفَ مِنْ أَصْلِهِ^(ج)
 غَيْرُ مَشْرُوعٍ، وَأَنَّ أَكْبَرَ الْأَوْلِيَاءِ مُجَانِبُونَ لَهُ. وَمَنْ أَزْتَكَبَهُ مِنْهُمْ فَإِنَّمَا يَرْتَكِبُهُ بِإِذْنٍ مِنْ
 إِلَهَامٍ [أَوْ غَيْرِهِ]^(د) أَوْ حَدِيثٍ نَفْسٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، عَلَى مَا عَلَيْهِ عَادَتُهُمْ فِي الْاسْتِفْلَاءِ
 مِنْ قُلُوبِهِمُ الْمُنُورَةِ^(هـ). مَعَ أَنَّ تَصَرُّفَ الْأَوْلِيَاءِ بِالْكَلِمَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، لَا بِالْقُوَّةِ النَّفْسَانِيَّةِ.
 10 هَذَا هُوَ تَحْقِيقُ عِلْمِ السَّمِيَاءِ، وَهُوَ كَمَا تَرَاهُ، مِنْ فُنُونِ السَّحْرِ وَضُرُوبِهِ.
 وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الْحَقِّ بَمَنِّهِ.

1. فَضْلٌ^(و)

وَمِنْ فُرُوعِ عِلْمِ السَّمِيَاءِ عِنْدَهُمْ اسْتِخْرَاجُ الْأَجُوبَةِ مِنَ الْأَسْئَلَةِ بِازْتِبَاطَاتٍ
 بَيْنَ الْكَلِمَاتِ حَزْفِيَّةٍ، يُوهَمُونَ أَنَّهَا أَصْلٌ فِي مَعْرِفَةِ مَا يُحَاوِلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْكَائِنَاتِ
 15 الْاسْتِشْبَالِيَّةِ. وَإِنَّمَا هِيَ شَبْهُ الْمُعَايَاةِ وَالْمَسَائِلِ السَّيِّئَةِ. وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ كَلَامٌ كَثِيرٌ، مِنْ
 أَوْعِيهِ وَأَعْجَبِهِ زَايِرُجَةُ الْعَالَمِ لِلْسَّبْتِيِّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا⁽¹⁾.

(أ) مِنْ ج (ب) فِي ج : وَإِنْ كَانَ غَالِطاً فِي ظَنِّ أَنَّ ذَلِكَ مَشْرُوعٌ (ج) ج : أَوَّلُهُ (د) مِنْ : ج (هـ) سَقَطَ مَا بَيْنَ النُّجُومِ
 مِنْ ج (و) الْعِنَانُ مِنْ ع، وَسَقَطَ فِي ظ ي .

(1) كِتَابُ الْعَبْرِ 1: 208 .

وُثِّنَ هنا ما ذكره في كَيْفِيَّةِ الْعَمَلِ بِتِلْكَ الزَّائِرَةِ، ونَسَرْدُ الْقَصِيدَةَ الْمُنْسُوبَةَ
لِلسَّبْتِيِّ بَرَعِهِمْ فِي ذَلِكَ، وَبَعْدَهَا صِفَةُ الزَّائِرَةِ بِدَائِرَتِهَا وَجَدُولِهَا الْمَكْتُوبِ بِمَحْوِلِهَا. ثُمَّ
نَكْشِفُ عَنِ الْحَقِّ/ فِيهَا، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْغَيْبِ، وَإِنَّمَا هِيَ مُطَابَقَةٌ بَيْنَ مَسْأَلَةٍ^(أ) وَجَوَابِهَا
فِي الْإِفَادَةِ [الْخَطَائِيَّةِ]^(ب) فَقَطْ. [وَهِيَ مُلَحَّةٌ مِنَ الْمُلْحِ، غَرِيبَةٌ فِي اسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مِنَ
السُّؤَالِ بِالصَّنَاعَةِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا صَنَاعَةَ التَّكْسِيرِ]^(ج). وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ قَبْلُ. 5
وَلَيْسَ عِنْدَنَا رَوَايَةٌ نَعُولُ عَلَيْهَا فِي صِحَّةِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ، إِلَّا أَنَا تَحَرَّيْنَا أَصَحَّ
النُّسَخِ مِنْهَا فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ^(١). وَهِيَ هَذِهِ:

(١) كَذَا فِي ظ ج ي، وَفِي ع: الْمَسْأَلَةُ (ب) مِنْ ع ج ي، وَسَقَطَ مِنْ ظ (ج) مِنْ ع ج، وَسَقَطَ مِنْ ظ ي.

(١) اِعْتَبَرَ ابْنُ خَلْدُونِ هَذِهِ الْمَنْظُومَةَ الْمَعْرُوفَةَ "بَزَائِرَةِ الْعَالَمِ"، مِنْ أَوْعَبٍ وَأَعْجَبَ مَا اشْتَمَلَ عَلَى عِلْمِ
السَّمِيَاءِ، وَيَرَى نَسَبَهَا إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ جَعْفَرِ السَّبْتِيِّ مِنَ الْمَزَاعِمِ. وَالسَّبْتِيُّ هَذَا صُوفِيٌّ مِنْ
رِجَالِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ، كَانَتْ وَفَاتِهِ بِمَرَاكَشَ.

وَالْغَرِيبُ أَنَّ يَجْتَهِدُ ابْنُ خَلْدُونِ فِي تَحَرِّيِ أَصَحِّ نَسَخِ هَذَا النَّصِّ، وَهُوَ الَّذِي اسْتَقَامَتْ لَهُ مَعَايِيرُ
الشَّعْرِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ جَاءَ النَّصُّ الَّذِي أَثْبَتَهُ سَقِيًّا لَا يُمْكِنُ حَصْرُ مَعَانِيهِ الظَّاهِرَةِ مِنْ خِلَالِ صِيَاقِهِ
الْمُفَكَّكَةِ الْمُتَنَافِرَةِ، وَإِشَارَاتِهِ الْمُتَبَاعِدَةِ، مَعَ مَا يَشِيعُ فِيهِ مِنْ أَخْطَاءِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالْعُيُوبِ الْعَرُوضِيَّةِ.

وَالنُّسَخُ الْمَعْتَمَدَةُ مُطَابَقَةٌ فِي عُيُوبِهَا، وَتَكَثَّرَ الْخَلَلُ نَفْسَهُ، لِذَلِكَ اضْطَرَّتْ لِلِاسْتِعَانَةِ بِنَسَخَةٍ
لِلْمَنْظُومَةِ مُحْفُوظَةٍ بِالْخَزَانَةِ الْحُسْنِيَّةِ الْمَلِكِيَّةِ بِالْمَغْرِبِ، فَأَثْبَتَ مِنْهَا بَعْضُ فُرُوقِ الْقِرَاءَةِ الَّتِي رَأَيْتُ إِفَادَتَهَا
فِي تَعْدِيلِ النَّصِّ وَتَوْضِيحِهِ، وَرَمَزْتُ لَهَا بِالْحَرْفِ (ح).

وَأَشِيرُ إِلَى أَنَّ بَآخِرَ الْمَنْظُومَةِ إِشَارَةٌ لِعَدَدِ أَيْاتِهَا التَّسْعِينَ، وَأَنَّ نَسَخَةَ الْمَكْتَبَةِ الْحُسْنِيَّةِ تَشْتَمِلُ
عَلَى اثْنَيْنِ وَمِائَةٍ مِنَ الْأَيْاتِ، الَّتِي جَاءَتْ مُتَوَاصِلَةً وَتَحْلُو مِنَ الْعُنَاوِينَ الدَّاخِلِيَّةِ، وَتَخْتَلِفُ فِي تَرْتِيبِهَا عَنِ
رَوَايَةِ ابْنِ خَلْدُونِ الَّتِي وَرَدَتْ هُنَا، وَهِيَ فِي مِائَةٍ وَأَرْبَعَةٍ عَشَرَ بَيْتًا.

وَيَتَصَلُّ بِفِكَ رَمُوزُهَا وَالْأَجُوبَةُ عَنْ أَسْئَلَتِهَا رِسَالَةٌ فِي الْخَزَانَةِ الْحُسْنِيَّةِ ضَمَّنَ مَجْمُوعِ رَقْمِهِ 10154 لِلْجَهُولِ،
اسْمُهَا: [نَكْت] السَّرَائِرُ فِي إِخْرَاجِ الضَّمَائِرِ.

يقولُ سُبَيْتِي وَيَحْمَدُ رَبَّهُ	مُصَلٍّ عَلَى هَادٍ إِلَى النَّاسِ أَرْسِلَا
مُحَمَّدِ الْمَبْعُوثِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَا	وَيَرْضَى عَنِ الصَّحْبِ وَمَنْ لَهُمْ ثَلَا
أَلَا هَذِهِ زَايِرَةُ الْعَالَمِ الَّذِي	تَرَاهُ بِحِسْمِكَ ^(أ) وَبِالْعَقْلِ قَدْ جَلَا
فَمَنْ أَحْكَمَ الْوَضْعِ ^(ب) فَيُحْكَمَ جِسْمَهُ	وَيَدْرِكُ أَحْكَاماً تَوَثَّرَهَا ^(ج) الْغُلَا
وَمَنْ أَحْكَمَ التَّرْنِيطَ ^(د) فَيُدْرِكُ قُوَّةَ	وَيُدْرِكُ لِلتَّقْوَى وَلِلْكَلِّ حَصْلًا ^(هـ)
وَفِي عَالَمِ الْأَمْرِ تَرَاهُ ^(و) مُحَقَّقًا	وَهَذَا مَقَامٌ مِنْ بِالْأَذْكَارِ ^(ز) كَمَلًا
فَهْذِي ^(ح) سَرَائِرُ عَلَيْكُمْ بِكُنْهِيهَا	أَقْفَهَا دَوَائِرًا ^(ط) وَبِالْحَاءِ عَدَلًا
وِطَاءٌ لَهَا عِزٌّ وَفِيهِ نَقُوشُهَا	بِنَظْمٍ ^(ي) وَتَثَرِ وَتَرَاهُ مُجَدُّولًا
وَنَسَبٌ دَوَائِرَ كِنَسْبَةِ فُلْكِهَا	وَارْسُمْ كَوَاكِبَ لِأَذْرَاجِهَا الْغُلَا
وَاخْرِجْ لِأَوْتَارِهِ وَارْسُمْ حُرُوفَهَا	وَكَرِّرْ بِمَثْلَيْهَا ^(ك) عَلَى حَدٍّ مِنْ خَلَا ^(ل)
أَقِمِ شَكْلَ زِيْرِهِمْ ^(م) وَسُوِّ بَيُوتَهُ	وَحَقِّقْ بَيْمَ حَيْثُ نَوْرُهُمْ جَلَا
وَحَصِّلْ عُلُومًا لِلطَّبَاعِ ^(ن) مُهَنْدِسًا	وَعِلْمًا بَهِيَّتَاتٍ وَالْأَزْبَاعَ مَثَلًا
وَسُوِّ لِمُوسِيقَى وَعِلْمِ حُرُوفِهِمْ ^(س)	وَعِلْمٌ بِآلَةٍ ^(س) فَحَقِّقْ وَحَصِّلَا
وَسُوِّ دَوَائِرَ وَنَسَبَ حُرُوفَهَا	وَعَالَمَهَا أَطْلِقْ ^(ع) وَالْأَقَالِيمَ جَدُّولَا
أَمِيرٌ لَنَا يَحْوِي ^(ف) بِجَايَةِ دَوْلَةٍ	زَنَاتِيَّةً أَتَتْ ^(س) وَحَكْمٌ لَهَا جَلَا

(أ) خ: بجسم (ب) في الحسنية، وفي ج: الوضعي (ج) في ن: تديرها (د) ح: الرطبي فيحكم قوة.. وقد يدرك التقوى (هـ) ظ: حلا (و) ح: يكون (ز) ح: بالإدراك (ح) ح: فهذه أسرار (ط) كذا، وصوابه دوائر (ي) بنظم وترتل تراه مجدولا (ك) في ي: بمثلها (ل) ح: ما جلا (م) خ: دائرة (ن) ح: بالطباع (س) ح: حروفها.. وعلم لئاليه (ع) ح: اطلب (ف) كذا في ج، وتحتها بالخط نفسه: يحوى، وهو ما في ي ع. وسقط هذا البيت في ح (س) وفي ن: فهو نهاية دولة.. زناية آبت وحكم لها خلا.

- وَقَطَرٌ لَأَنْدَلُسٍ^(أ) فابن لَهْودِهِم
 مُلُوكٌ وَفُزْسانٌ وَأَهْلُ لِحْكَمَةٍ
 وَمَهْدِي مُوَحَّدٌ^(ج) بَتُونِسَ حَكْمُهُمْ
 وَاقْسِمُ عَلَى الْقَطَرِ^(د) وَكُنْ مُعْتَقِدًا^(هـ)
 / فَفُتْنُشُ وَيَرْشُلُونُ^(ز) وَالرَّاءُ حَرْفُهُ^(ح)
 مَلُوكُ كَسَاوَةٍ^(ح) * وَذَلُّو لِقَاقِهِمْ^(ح)
 فَهَنْدٌ حَبَاشِيٌّ^(ط) وَسَنْدٌ فَهْرُمُسُ
 [فَقِصْرُهُمْ]^(ك) حَسَاءٌ وَيَزْدَجِرُهُمْ
 وَعَبَّاشٌ كُلَّهُمُ شَرِيفٌ مُعْظَمٌ
 فَإِنْ شِئْتَ تَدْقِيقُ الْمُلُوكِ وَحَلَّاهُمْ
 عَلَى حُكْمِ قَانُونِ الْحُرُوفِ وَعَلِمُهَا^(م)
 فَمَنْ عَلِمَ الْعُلُومَ يَعْلَمُ عَلَمَنَا
 فَيَرْسُخُ عِلْمُهُ وَيَعْرِفُ رَبَّهُ
 وَحَيْثُ أَتَى اسْمٌ وَالْعَرُوضُ يَشَقُّهُ^(ع)
 وَتَأْتِيكَ أَحْرُفٌ فَسَوْ لَضَرُّهَا
 وَجَاءَ بَنُو نَصْرِ وَظَفَرُهُمْ تَلَا
 فَإِنْ شِئْتَ نَصَّهُمْ^(ب) فَقَطَرُهُمْ حَلَا
 مُلُوكُ [الْمَشْرِقِ]^(د) بِالْأَوْفَاقِ^(هـ) نَزَلَا
 فَإِنْ شِئْتَ بِالرُّومِ بِلَا لَحْنٍ^(و) شَكَلَا
 5 وَإِفْرَنْسُهُمْ ذَاكَ وَالطَّاءُ كَمَلَا
 وَأَعْرَابُ قَوْمِنَا بِتَرْقِيْقِ انْغِمَلَا
 وَفُرسَ ظَطْرِي^(ي) وَمَا بَغْدَهُمْ طَلَا
 لَكَافٌ وَقَبْطُهُمْ بِلَامِهِ طَوَلَا
 وَلَكِنْ ثُرْكِي إِذَا الْفِغْلُ عَطَّلَا
 10 فَخَيْمٌ^(ل) بُيُوتًا ثُمَّ نَسَبٌ وَجَذُولَا
 وَعِلْمُ طِبَاعِهَا وَكَلِّهِ [مُثْلًا]^(ن)
 وَيَعْلَمُ أَسْرَارَ الْوُجُودِ وَأَكْمَلَا
 وَعِلْمٌ مَلَا حِيْمٌ^(س) بِجَامِيْمٍ فَضَّلَا
 فَحُكْمُ الْحَكِيمِ فِيهِ قَطْعًا [لِيُقْبَلَا]^(ف)
 15 وَأَحْرُفٌ سَيَبُوءِيهِ تَأْتِيكَ فَيُضَلَا

(أ) في ظ: الأندلس، ولا يستقيم (ب) ن: نصهم (ج) ن: توحيد (د) في ظ: لشرق. ن: وبالشرق (هـ) ج: بالآفاق (و) ح: قطر وكى متفقا .. فإن شئت للرومي فيا البحر. ن: متفقدًا... فإن شئت للروم فيالحز (ز) ح: يرشولون بالراء حرفهم (ح) ح: ملوك قناوة وذلوا لقافهم (ط) سقط ما بين النجمين من ي (ي) ح: ططاري (ك) في ظ قيصر حاء، وهو يطابق ما في ح (الحسنية) (ل) من ظ، وفي ع: فخم، وفي الحسنية: فخم بيوتهم وختم. ن: وكلهم .. فخم (م) ح: وحقها (ن) من ج ع ي، وفي ظ: ميلا (س) ح: ملام (ع) ن: يشقه (ف) من خ، وفي ح: ليعملا، وفي ع: ليقنلا.

فَمَكَّنْ بِتَنْكِيرٍ^(أ) وَقَابِلْ وَعَوَّضْ
وَفِي الْعَقْدِ وَالْمَجْدُورِ^(ب) يُعْرِفُ غَالِباً
وَاخْتَرِ الْمَطْلَعِ وَسَوْ يُبَوِّثُهُ
وَيَدْرِكُهَا الْمَرْءُ فَيَبْلُغُ قَصْدَهُ
إِذَا كَانَ سَعْدٌ وَالْكَوَاكِبُ أَسْعَدَتْ
وَإِبْقَاعُ دَالِهِمْ بِمَزْمُومٍ بَمَّه
وَأَوْتَارُ زِيرِهِمْ فَلِلْحَاءِ بَمُّهُمْ
وَأَدْخِلْ بِأَفْلَاكِ وَعَدْلٌ بِجَدُولِ
وَجُوزٍ^(ج) شَدُودٍ^(ط) الْبَحْرُ يَجْرِي وَمِثْلُهُ
فَأُضِلَّ لِدِينِنَا وَأُضِلَّ لِفِقْهِنَا
فَادْخُلْ لِقُسْطَاطٍ^(ك) عَلَى الْوَفْقِ جَذْرُهُ
/ فَتُخْرِجْ آيَاتاً أَوْ^(م) فِي كُلِّ مَطْلَبٍ
[وَبُقْيَا فُحْصَرُ هَكَذَا]^(ن) حَكْمُ عَدِّهِمْ
فَتُخْرِجْ آيَاتاً وَعِشْرُونَ ضَعَّفَتْ^(ع)

بَزَيْمِكَ الْغَالِي لِلْأَجْزَاءِ خُلْجَلَا
وَرَدُّ لَمْخٍ وَضَفِينِهِ فِي الْعَقْلِ فَلَا^(ح)
وَاعْكَسْ بِجَذْرِهِ وَبِالْدَّوْرِ عَدَلَا
وَيُعْطِي حُرُوفَهَا وَفِي نَظْمِهَا الْجَلَا
فَحَسْبُكَ فِي الْمَلِكِ وَتَيْلَ سُهَى الْعَلَا
فَنَسَبَ دَنَادِنَا تَجَدُّ فِيهِ مِنْهَا
وَمُتَشَاهِمُ [الْمَثَلُثُ]^(د) بِجَمِّهِ^(هـ) قَدْ جَلَا^(و)
وَارْسُمِ أَبَا جَادٍ وَبَاقِيَهُ^(ز) جُمَلَا
أَتَى فِي عَرُوضِ الشَّعْرِ عَنْ جَمَلَةٍ مَلَا^(ط)
وَعَلِمَ^(ي) لِنَحْوِنَا فَاحْفَظْ^(ي) وَحَصَلَا
وَسَبَّخْ لِاسْمِهِ^(ل) وَكَبِّرْ وَهَلَلَا
بِنَظْمٍ طَبِيعِيٍّ وَسِرٍّ مِنْ الْعَلَا [347]
فَعَلِمَ الْفَوَاتِحَ تَرَى فِيهِ سَهْبَلَا^(س)
مِنَ الْأَلْفِ طَبْعاً فَيَا صَاحِبَ جَدُولَا

5

10

(أ) ح: بتكين (ب) في ن: المجزور (ج) ح: فانسب دنادنا تجد فيه منها (د) ط: المثلث (هـ) خ: بخشمه (و) ح: حلا (ز) ح: وثله (ح) ع: جوز (ط) ع: شدود، وفي الحسنية: شدود البحر تجوز كله .. ومثله في العروض عن خله الملا (ي) ح: وأضل لنحونا فحق (ك) خ: لقسطاس (ل) ح: إلى الأسما (م) من ع ج (ن) كذا في ي، وفي ع ط ج: فحصرها كذا. وفي الحسنية: فتنى بخصر. وفي ن: وتنى بحصرها كذا حكم عدم .. منها (س) في حاشية ط من القاموس: السهيل، الجريء، الجسور. وفي الحسنية: منهل (ع) ح: ضعفه .

[ثريك] ^(أ) صنائعاً من الضرب أكلت فصَحَّ لك المني وصَحَّ لك الغلا
وسجَّع بزيرهم وأنن ^(ب) بنقرة أقمها دوائر ^(ج) لزير وحصلا
أقمها بأوفاق وأصل لعدّها من اسرار خرفهم فعُدّ ^(د) به سلسلاً

الكلام على استخراج نسبة الأوزمان، وكيفيتها، ومقادير المقابل منها، وقوة
الدرجة [المميزة]^(٥) بالنسبة إلى موضع المعلق، من امتزاج طبائع، وعلم طب،
أو صناعة الكيمياء

أَيَا طَالِباً لِلطَّبِّ مَعَ عِلْمِ جَابِرٍ وَعَالِمِ مَقْدَارِ الْمُقَادِيرِ^(١) بِالْوَلَا
إِذَا شَتَّتَ عِلْمَ الطَّبِّ لِابْتِدَءِ نَسَبَةٍ لِأَحْكَامِ^(٢) مِيزَانِ تَصَادُفٍ مُنْهَلَا
فَيَتَشَفَّى عَلَيْكُمْ وَالْأَكْسِيرُ مُخَكَّمٌ وَأَمْزَاجِ^(٣) وَضَعَكُمْ بِتَضَحِيحِ انْجَلَى

الطَّبُّ الرُّوحَانِيُّ

وشيت^(ط) إيلاش 868 م وذهنه نجلا^(ط) لهرام برجس وسبعة اكلا
لتخليل أوجاع البوارد صمحو
كذلك والتركب حيث تنقلا

(أ) من ع ج ي، وفي ط: تريد، وفي الحسنية: تريك عجائباً (ب) ح: وثق وهو الضوَاب (ج) من: ع ج (د) ح: فن سرّ
 حرفهم شرّه سلسلا - (ه) من ع ج ي، وفي ط: الحميرة (و) ج المقادر (ز) ح: لصحة (ح) ح: وإخراج (ط) ح: وشيت
 أيا أو شر ودهنهم جلا .. لبهرام برجيس .

مطالع الشعاعات في مواليد الملوك وبنيتهم

[347ب]

10 اختَصَّ هـ صَحَّحْ هـ سَحَّحْ هـ هذا العملُ هنا بالملوك ، والقانونُ يَطرِدُ عمله (ح) ولم يَرَّ أعجَبْ منه.

مَقَامَاتُ الْمُلُوكِ:

المقام الأول

المقام الثاني $\frac{2}{7}$ من $\frac{2}{7}$

(أ) خ: خلع (ب) في ن: بدال (ج) من ع، وفي ظ: بين (د) في ي: أدركه (ه) البيت في ح: بهاء مراكر وبين ضلوعها .. وعرضا فمن أراد شيئاً توصلأ. وفي ن: فمن أدرك المعنى علا ثم فوضلا (و) ح: وثلاثيه مسقط / يتشد يسهم (ز) ح: جلا (ح) ظ: علمه .

المقام الثالث ع ٥

المقام الرابع ٧٧

المقام الخامس

المقام السادس ٢٤

المقام السَّابِعُ عَرَبِي

خط الاتصال والانفصال

خط الاتصال لحد احم لم

خط الاتصال ~~محتاج دونه~~

الزَّيْرُ للجميع وتابع الجذر التَّام

الانصال والانفصال

الواجب التَّامُّ في الاتصالات

إقامة الأنوار

الجذر المجيب في العمل صح اسم هـ ع

إقامة السؤال عن الملوك ٥٥١٤ ٤١٤٢٨

مقام الأولاد مقام نور عمه مقام بها 8 ح 8

الانفعال الروحاني والالتقياد [التراباني]^(١)

أيا طالب السرّ لتَهْلِيلِ رَبِّهِ لَدَى اسْمَائِهِ الْحُسْنَى تُصَادِفُ مَنْهَلًا
يَطِيعُكَ ^(ب) أَخْيَارُ ^(ج) الْأَنَامِ بِقُلُوبِهِمْ [كَذَاكَ] ^(د) رُئُوسُهُمْ وَفِي الشَّمْسِ أَعْمَلًا
تَرَى عَامَّةَ النَّاسِ إِلَيْكَ تَقَيَّدُوا ^(هـ) وَمَا قَبْلَهُ ^(و) حَقًّا مَتَى الْغَيْرُ أَهْمَلًا
طَرِيقُكَ هَذَا [السَّبِيلُ] ^(ز) وَ[السَّبِيلُ] ^(ح) الَّذِي 5
إِذَا شِئْتَ تَحْيَا فِي الْوُجُودِ مَعَ التَّقَى
/ كَذِي الثُّونِ وَالْجُنَيْدِ مَعَ سِرِّ صِغَةٍ
وَفِي الْعَالَمِ الْغُلُوبِيِّ تَكُونُ مُحَدَّثًا
طَرِيقُ رَسُولِ اللَّهِ بِالْحَقِّ سَاطِعٌ
فَنَبْطُشُكَ ^(ط) تَهْلِيلٌ وَقَوْسُكَ مَطْلَعٌ ^(ي) 10
وَفِي جَمْعِهِ أَيْضًا بِالْأَسْمَاءِ مِثْلَهُ
وَفِي طَائِفِهِ سِرٌّ وَفِي هَائِهِ إِذَا
وَسَاعَةٌ سَعْدٍ شَرَطُهُمْ فِي نُقُوشِهَا ^(٢)
وَيُثَلَّى عَلَيْهَا آخِرَ الْحَشْرِ دَعْوَةٌ
وَالْإِخْلَاصُ وَالسَّبْعُ الْمِثَالِي مَرْتَلَا

[348]

(١) ظ: السَّرياني (ب) ظ: تطيعك (ج) ع: أجبار (د) ظ: لذلك، أو كذلك، والبيت في الحسنية: تطيعك كسل الناس طرًا بأَسْرِهِمْ كذا رؤسَاهُمْ وَفِي الشَّمْسِ أَعْمَلًا (هـ) ح: تغيروا (و) خ: قلته (ز) ظ: السبيل، ورواية الحسنية: طريقك هذا وهي السبيل التي أقرت بغيركم ونصركم جلا (ح) العجز في ح: بأوتارك العليا يحيط بها الغلا (ط) ح: فنطشك، وفي خ: فنبطشك (ي) سقط ما بين النجمين من ج (ك) ع البدء، والعجز في ح: ويومك برجيس وبالأحد أنجلا (ل) العجز في ح: أدت فداءك تكون معطلا (م) في ح: ... نقوشهم وفي عود مصطكى بخور تجتلا .

اتصال أنوار الكواكب السماوي (کذا) لا ۲۴۵۳ مع ن م ه و ف ل ق ر س

وفي يدك اليمنى حديد وخاتم
وآية حشر فاجعل القلب لونها^(١)
هي السر في الاكوان لاشيء غيرها
تكون بها قطباً إذا جذت خدمة
سري بها ناجى ومعروف بغده^(ب)
وكان بها الشبلي يذاب^(ج) دائماً
فصف^(د) من الأذناس قلبك جاهداً
فإنال سر القوم إلا محقق
5
وكل براسك وفي دعوة فلا
واثل إذا نام الأنام ورثلا
هي الآية العظمى فحق وحصلا
وتدرك أسراراً من العالم العلا
وباح بها الحلج جهمراً فقتلا^(ب)
إلى أن رقى فوق المريدن واغتنلى
ولازم لأذكار وضم وثقللا
علم بأسرار العلوم مخلصلا
10
في شرحه

[illegible]

مَقَامُ الْحُبِّ، وَمِيلُ النَّفْسِ، وَالْمُجَاهِدَةُ، وَالطَّاعَةُ، وَالْعِبَادَةُ، وَحُبُّ، وَتَعَشُّقُ،
وَفَنَاءُ الْفَنَاءِ، وَتَوَجُّهُ، وَمِرَاقِبَةٌ، وَخَلَّةٌ^(هـ) دَائِمَةُ الْأَنْفَعَالِ الطَّبِيعِيِّ

لبرجيس في المحبة الوفق صرّفوا
وقيل بفضة صحيحاً رأيته
/ توح^(ط) به زيادة النور للقمز
بقدير^(و) أو نحاس^(و) الخلط أعيلاً^(ز)
فجعلك طالعاً خطوطه^(ح) ما علا
وجعلك للقبول شمسه أصلاً

(أ) في ن: ونجها (ب) ح: قبله. فأعفلا (ج) ح: يراقب (د) ح: فنظف (هـ) من ي، وجاءت مضملة في النسخ الأخرى (و) ح: بقدر أو حديد (ز) ن: أكلا (ح) من ط ع، وفي ج ي: حظوظه (ط) ح: شرب .

ويؤمّه والبخورُ عودٌ لهنديهم ووقّت لساعةٍ ودعوته إلى
ودعوته لغاية فهي أعملت وعن طيسمان دعوة ولها حلى
وقيل بدعوة حروف لوضعها بحرّ هواءٍ أو مطالب أهلاً
فتنقشُ أخرفاً بدالٍ ولايمها وذلك وفقّ للمربع حصلاً
5 إذا لم يكن يهوى هواك دلالتها فذاك ليندو واو زرنب^(أ) معطلا^(١)
فحسن لبائيه وبائهم إلى هواك وباقيهم قلبه جملاً
ونقش^(ب) مشاكل بشرطٍ لبغضهم^(ج) وما زدت نسبة لفعلك عدلاً^(د)
ومفتاح مزيم وفعلها سواً فنودي^(هـ) وبسطامي سورتها تلا
وجعلك بالعصد^(و) وكن متفقداً أدلةً وخشي لنصّه مثلاً
10 فاعكس بيوتها باليف وتيف بباطنها سرّ وفي سرّها انجلاً^(ز)

فصل في المقامات للتهاية

لك الغيب صورة من العالم العلأ ويوجد لها داراً وملبسها الحلى^(ح)
ويوسف في الحسنين وهذا شبيهة بسر^(ط) وترتيل حقيقة أنزلا
وفي يده طول وفي الغيب ناطق فيخكي إلى عود^(ي) يجاذب بلبلأ
15 وقد جنّ بهلول بعشق جمالها وعند تجلّيا لبسطام أخذلاً

(أ) ح: واو زرنب مبطلاً (ب) ح: ونقش (ج) ن: لوضعهم (د) ح: ككلا (هـ) ن: فبوري (و) ح: للعضو (ز) ح: انجلى .
(ح) البيت في الحسنية: إلى الغيب صورة من العالم الملا وتترك بها الدار [أو منزلها] العلأ (ط) من طه، ونقرأ في ي: ينثر،
وفي ج: ينثر. وجاء في العجز في الحسنية: بنظم وترتيب تراه مجذلاً (ي) في ح: فيخكي يعود بجارب بلبلأ .

ومات احله^(١) وأُشْرِبَ حُبَّهَا جُنَيْدٌ وَبَضْرِيٌّ وَالْجِسْمُ أَهْمَلًا^(١)
 فيطلبُ في التَّهْلِيلِ غَايَتَهُ وَمَنْ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى^(ب) بِلا نِسْبَةٍ خَلَا^(ب)
 وَمَنْ صَاحَبَ^(ج) الْحُسْنَى لَهُ الْقَوْرُ [بِالْمُنَى]^(د) وَيُسْهِمُ^(هـ) بِالزُّلْفَى لَدَى^(و) حِيرَةِ الْعَلَا
 وَتُخْبِرُ^(ز) بِالْغَيْبِ إِذَا جَدَتْ^(ز) خِدْمَةَ تُرِيكَ^(ز) عَجَائِباً لِمَنْ كَانَ مَوْئِلاً
 فَهَذَا هُوَ الْقَوْرُ وَحَسَنَ يَنَالُهُ وَمِنْهَا زِيَادَاتٌ لَتُفْسِرُهَا تَلَا⁵

الوصية، والتختم، والإيمان، والإسلام، والتَّحْرِيمُ، والأَهْلِيَّةُ

[1349] / فهذا قصيدتنا، وتسعونَ عَدُّهُ وما زادَ خطبَةً وختماً وجذولاً
 عَجِبْتُ لِأَيَاتٍ وَتَسْعُونَ عَدُّهَا تَوَلَّدَ أَيْبَاتاً وَمَا حَضَرَهَا انْجَلَى
 فَمَنْ فَهَمَ السِّرَّ فَيَفْهَمُ نَفْسَهُ وَيَفْهَمُ تَفْسِيراً مِتَشَابِهَا^(ح) أَشْكَلا
 حَرَامٌ وَشَرْعِيٌّ لِإِظْهَارِ^(ط) سِرِّنَا لِنَائِسٍ وَإِنْ خُصَّوْا وَكَانَ التَّاهُلَا^(ي)
 فَإِنْ شَتَّتْ أَهْلَهُ^(ك) فَغَلَّظُ يَمِينِهِمْ وَتَفْهَمُ بِرُجُلَةٍ^(ك) وَدِينٍ تَطْوُلَا
 لَعَلَّكَ أَنْ تَنْجُو وَسَامِعَ سِرَّهُمْ مِنْ الْقَطْعِ بِالْإِفْشَا فَتَرَأْسُ بِالْعَلَا^(ل)
 [فَتَجَلَّ]^(م) لِعَبَّاسٍ لِسِرِّهِ كَاتَمٌ فَنَالَ سَعَادَاتٍ وَتَابَعَهُ عَلَا^(ن)

(١) كلمة مَهْمَلَةٌ فِي كُلِّ الْأَصُولِ، وَفِي ح: خُوَيْلِدٌ، وَبَقِيَّةُ الْعَجْرِ فِيهَا: حَقِيقَتُهُ مَهْدٌ [فَهُوَ] لِذِي الْجِسْمِ أَشْمَلًا (ب) ح: مَنَاسِبَةٌ جَلَا (ج) ح: صَحْبٌ (د) مَن ع، وَفِي الْأَصُولِ الْأُخْرَى: بِالنَّهْيِ، وَفِي خ: بِالنَّهْيِ (هـ) ح: أُرْجِحُ قِرَاءَةَ الْكَلِمَةِ: يَسْعَدُ (و) ي وَ الْحُسْنِيَّةُ: لَدَى (ز) ح: يَخْبِرُ - جَاد - ثَرِيه (ح) كَذَا فِي الْأَصُولِ وَلَا يَصِحُّ، وَفِي ح: يُشَابِهُ (ط) كَذَا وَفِي ح: حَرَامٌ عَلَى مَنْ رَامَ إِظْهَارَ سِرِّنَا (ي) ح: وَإِنْ خُصَّوْا بِعِلْمٍ تَأْصِلًا (ك) ح: ... فَقَاضَ عَلَيْهِمْ وَتَفْهَمُ بِرَحْمَةٍ وَدِينٍ تَطْوُلَا (ل) ح: لَعَلَّكُمْ تَنْجُوا وَيَبْلُغُ سِرَّكُمْ مِنْ الْقَطْعِ بِالْأَسَا تَرَى سِرَّ الْعَلَا (م) مَن ج ي، وَمِثْلُهَا فِي ظ مَهْمَلَةٌ، وَفِي ع: فَعَمِلَ، وَفِي الْحُسْنِيَّةِ: فَحَلَّ (ن) فِي الْعَجْزِ فِي ح: يَنَالُ سَعَادَةً وَتَأَلَّفَهُ عَلَا (وَرَيْنَا: وَتَابَعَهُ عَلَا).

وقام رسول الله في الناس خاطباً فمن [رأس عشرة]^(أ) فذلك أكبلا^(ب)
 وقد ركب الأرواح أجساد مظهر فنالت لقتلهم بدق تطولا
 إلى العالم العلوي يفتنى فناؤنا ونلبس أثواب الوجود على النوا
 فقد تم نظمنا وصلّى إلينا على خاتم الرّسل صلاة بها العلا
 وصلّى إله العرش ذو المجد والعلّى على سيّد ساد الأنام وكّلا
 محمّد الهادي الشّفيع إمامنا وأصحابه أهل المكارم والعلا

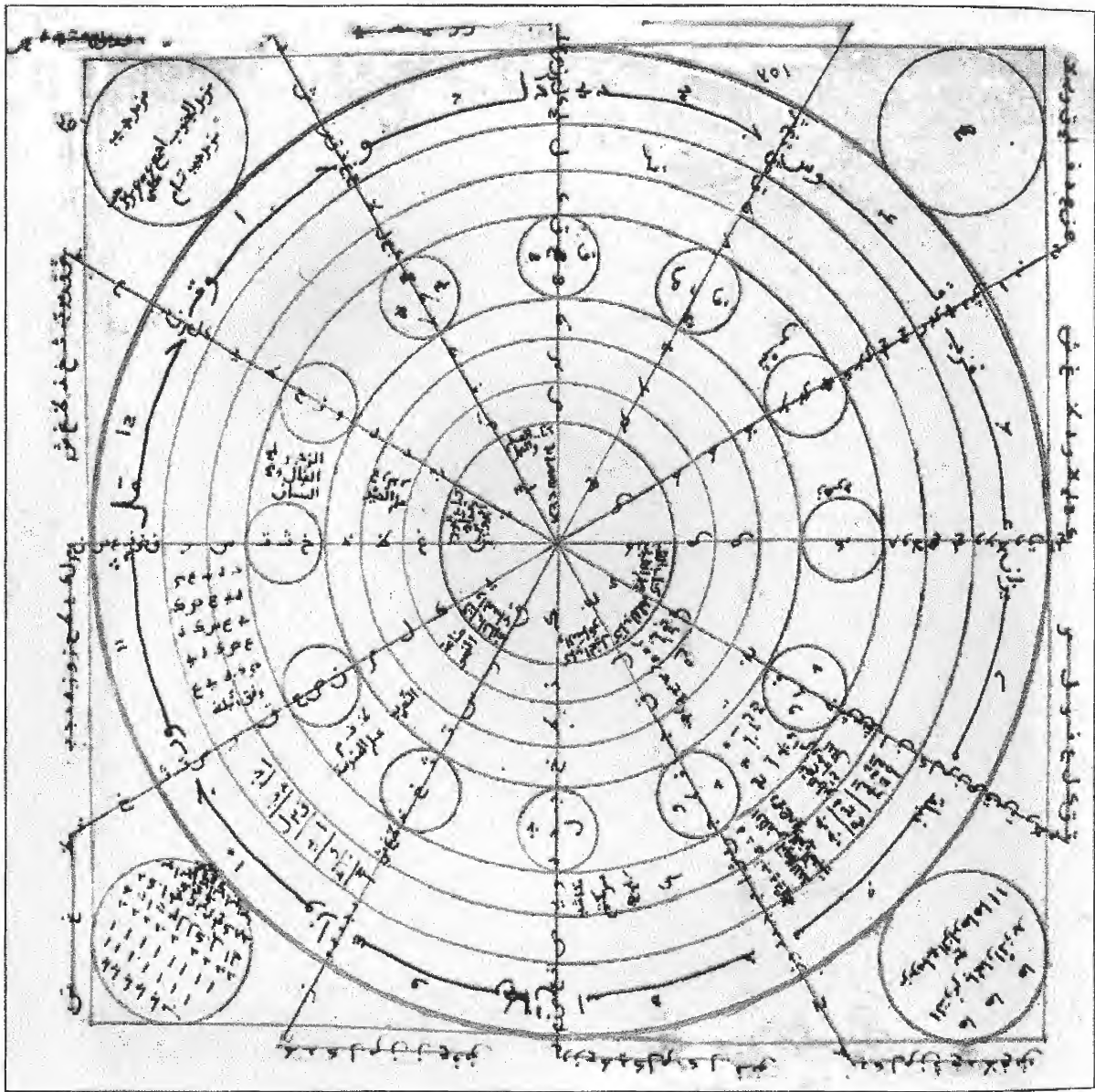
مَرْتَبَةٌ نَاشِئَةٌ عَنِ الْخَلَّةِ تَرْخِ اسع ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠

تصحيح التّيرين وتعديل الكواكب عند كلّ تاريخ مَطلوب

ماركلط ووه ٨ لو طرح الاونارالكبه
 الاول برع برع برع برع برع محله عا برع برع برع برع برع
 من من

[كملت الزّايّجة]^(ج) 10

(أ) في ن: برأس عرشاً فذلك أكبلا (ب) ح: أكبلا (ج) من ع ج ي، وسقطت من ط .



تنبیه:

ومنها حروف برشم الزّمام كذلك، غير أنّ رشم الزّمام يُعْطَى نسبةً ثانيةً^(د). فهي بمنزلة واحد ألف وبمنزلة عشرة، ولها نسبة من خمسة بالعربي. فاستحقّ البَيْتُ من الجدول أن توضع فيه ثلاثة حروف في هذا الرّشم، وحر[فان]^(هـ) في الرّشم. فاختصروا من الجدول يُوتاً خالية، فمَتى كانت أصول الأدوار زائدة على أربعة، حُسِبَتْ في العدَدِ في طول الجدول. وإن لم تَزِدْ عن أربعة، لم يُحَسَبْ إلّا العايمُ منها.

362

والعمل في السؤال يُفْتَقَر إلى [سبعة]^(أ) أصول، عدّة حُرُوف الأوتار وحفظ

أدوارها بعد طَرَحها، اثنا عشر؛ وهي ثمانية أدوار في الكامل، وستّة في الناقص
أبدأ. ومعرفة دَرَج الطّالع، وسُلطان البُرج، والدَّور الأكبر الأصلي، وهو واحدٌ أبدأ.

وما يخرج من إضافة الطّالع للدَّور الأصلي، وما يخرج من ضَرْب الطّالع والدَّور في

سُلطان البُرج، وإضافة سُلطان البُرج للطّالع. والعمل جميعه ينتج على ثلاثة أدوار 5

مضروبة في أربعة، تكن [اثني]^(ب) عشر دَوْرًا. ونسبة هذه الثلاثة أدوار التي هي

كلّ دَوْر من أربعة....^(ج) ثلاثة، كلّ نشأة لها ابتداء. ثمّ إنّها تُضرب أدواراً رباعيّة

[...] ^(د) أيضاً ثلاثيّة. ثمّ إنّها / من ضَرْب ستّة في اثنين، فكان لها نشأة، [...] ^(هـ) [353]

يظهر ذلك في العمل.

وتتبع هذه الأدوار نتائج، وهي [...] ^(و) الأدوار، إمّا أن تكون نتيجة أو أكثر 10

إلى ستّة.

فأول ذلك نفرض سؤال سائل عن التّيزجة^(ز): هل هي علمٌ مُحدَث أم

قديم؟ بطالع أول دَرَج من القُوس. فوضعنا حروف وتّر رأس القُوس، ونظيره من

رأس الجوزاء، وثالثيّة وتّر رأس الدّلُو إلى حدّ المزكّر. وأضفنا إليه حروف السؤال.

ونظرنا عدّتها، وأقلّ ما تكون ثمانية وثمانين، وأكثر ما تكون ستّة وتسعين، وهو 15

جُملة دَوْر صحيح. فكانت في سؤالنا ثلاثة وتسعين. ويختصر السؤال إن زاد على

(أ) في الأصول: سبع (ب) في الأصول: اثنا (ج) بين الكلمتين في ط ع ج ي فراغ لكلمة (د) في حاشية ع مخرج به كلمة:

بياض، وترك هذا البياض في ط ج ي (هـ) بياض بقدر كلمتين في الأصول الأربعة (و) وضع بياض بقدر كلمة في الأصول

(ز) هكذا جاءت هنا بحذف حرف المدّ بعد الزاي.

ستة وتسعين، كما تسقط جميع أدوارهِ [الاثني] ^(أ) عشريّة، ويُحفظ ما خرج منها وما بقي؛ فكانت في سؤالنا سبعة أدوار، الباقي تسعة، أثبتّها في الحروف ما لم يبلغ الطّالع [اثني] ^(ب) عشر درجاً. فإن بلغها ^(ج) لم تثبت لها عدّة ولا دَوْر. ثم تثبت أعدادها أيضاً، إن زاد الطّالع عن أربعة وعشرين في الوجه الثالث.

5 ثم تثبت الطّالع، وهو واحد، وسُلطان الطّالع، وهو أربعة، والدّور الأكبر، وهو واحد. واجمع ما بين الطّالع والدّور، وهو اثنان في هذا السؤال، واضرب ما خرج منها في سلطان البرج، يبلغ ثمانية. وأضف السلطان للطّالع، [يكن] ^(د) خمسة. فهذه سبعة أصول.

10 فما خرج من ضرب الطّالع والدّور الأكبر في سلطان القوس، ما لم يبلغ [اثني] ^(هـ) عشر فيه ^(و)، تدخل في ضلع ثمانية من أسفل الجدول صاعداً. وإن زاد على [اثني] ^(هـ) عشر، طرح أدواراً. وتدخل بالباقي في ضلع ثمانية، وتعلم على مُتَشَي العدد. والخمسة المُستخرجة من السلطان والطّالع، يكون [المُدخل] ^(ز) في ضلع السطح المبسوط الأعلى من الجدول. وتعدّ متواليات خمس أدواراً وتحفظها إلى أن يقف العدد في مُقابلة البيوت العامرة بالعدد من الجدول. وإن وقف في مُقابلة

15 الخالي من بيوت / الجدول على أحدهما فلا تغتبر، وتستمر على أدوارك على [353ب] حَرف من أربعة، وهو ألف أو باء أو جيم أو زاي. فوق العدد في عمِلنا على حَرف ألف وخلف ثلاثة أدوار. فضرنا ثلاثة في ثلاثة، كانت تسعة، فهو عدد الدّور

(أ) في الأصول: اثنا (ب) في الأصول: اثنا (ج) في ي: بلغ (د) في الأصول: يكون (هـ) في الأصول: اثنا (و) ع: ج: به (ز) من ع، وفي ط ج ي: الطّالع .

الأول، فأثبتته، واجمع ما بين الصلغين القائم والمبسوط [يكن] ^(أ) في بيت ثمانية.

وادخل بعدد ما في الدور الأول، وذلك تسعة في صدر الجدول مما يلي البيت الذي اجتمعا فيه، ماراً إلى جهة اليسار، وهو ثمانية. فوق على حرف لام ألف، ولا يخرج أبداً منها حرف مركب، وإنما هو إذن حرف تاء، أربعمائة برشم الزمام. فعلم عليها بعد نقلها من بيت القصيدة.

5

واجمع عدد الدور للسلطان، يبلغ ثلاثة عشر، ادخل بها في حرف الأوتار، وأثبت ما وقع عليه العدد، وعلم عليه من بيت القصيدة.

ومن هذا القانون، تذري كم تدور الحروف في التنظيم الطبيعي. وذلك أن تجمع حرف الدور الأول، وهو تسعة لسلطان البرج، وهو أربعة، يبلغ ثلاثة عشر. أضفها لمثلها، تكن ستة وعشرين. أسقط منه درج الطالع، وذلك واحد في هذا السؤال، الباقي خمسة وعشرون.

10

فعلى ذلك يكون نظم الحرف الأول، ثم ثلاثة وعشرون مرتين، ثم اثنان وعشرون مرتين، على حسب هذا الطرح، إلى أن تنتهي إلى الواحد من آخر البيت المنظوم. ولا تقف على أربعة وعشرين لطرح ذلك الواحد أولاً [.....] ^(ب).

ثم صاع الدور الثاني، و[أضف] ^(ج) حروف الدور الأول إلى ثمانية، الخارجة من ضرب الطالع والدور في السلطان، [يكن] ^(د) سبعة عشر، الباقي خمسة.

15

(أ) في ظ: يكون (ب) كلمة مشطوبة في ع، وفي ظ ج ي بياض (ج) في ع ج ي: وصف، وفي ظ: وضفت والمؤلف يستعمل "ضف" في أكثر مواقع ورودها القادمة، فعدّلناها بفعل الأمر من الرباعي "أضف" (د) ظ: يكون.

فاصعد في ضلع ثمانية بخمسة من حيث انتهت في الدور الأول، وعلم عليه. وادخل في صدر الجدول بسبعة عشر، ثم بخمسة، ولا تعدد الحالي^(أ). والدور عشري، فوجدنا / حرف ثاء، خمسمائة. وإنما هو ن، لأن دورنا في مرتبة العشرات. وكانت الخمسمائة بخمسين، لأن دورها سبعة عشر. فلو لم تكن سبعة وعشرين لكان مئيتاً. 5 فأثبت نون. ثم ادخل بخمسة أيضاً من أوله، وانظر ما حاذى ذلك من السطح تجد واحداً. فتهير العدد واحداً، يقع على خمسة. أضف لها واحد السطح [يكن] (ب) ستة. أثبت واو، وعلم عليها من بيت القصيد أربعة، وأضفها (ج) للثمانية الخارجة من ضرب الطالع مع الدور في السلطان، يبلغ [اثني] (د) عشر، أضف لها الباقي من الدور الثاني، وهو خمسة، يبلغ سبعة عشر، وهو ما للدور الثاني، فدخلنا بسبعة عشر في حروف الأوتار، فوق العدد على واحد، أثبت ألف وعلم عليها 10 من بيت القصيد، وأسقط من حروف الأوتار ثلاثة حروف، عدة الخارجة من الدور الثاني.

وضع الدور الثالث، وأضف (هـ) خمسة إلى ثمانية يكن ثلاثة عشر، الباقي واحداً. انقل الدور في ضلع ثمانية بواحد، وادخل في بيت القصيد بثلاثة عشر. 15 *وخذ ما وقع عليه العدد، وهو ق. وعلم عليه، وادخل بثلاثة عشر* (و) في حروف الأوتار، وأثبت ما خرج، وهو س. وعلم عليه من بيت القصيد. ثم ادخل تما يلي

(أ) ي: الحال (ب) في الأصول: يكون (ج) ي ج: وضفها (د) في الأصول: اثنا (هـ) ط ج ي: ضف (و) سقط ما بين النجمين من ي .

السين الخارجة بالباقي من دَوْر ثلاثة عشر، وذلك واحد. فخذ ما يلي حرف سين من الأوتار، فكان ب، أثبتّها وعلم عليها من يئت القصيد. وهذا يقال له: الدَوْر المَعطوف، وميزانه صحيح؛ وهو أن تضعف ثلاثة عشر بمثلها إليها و[تضيف] ^(أ) إليها الواحد الباقي من الدَوْر، تبلغ ^(ب) سبعة وعشرين. وهو حرف بَاء المستخرج من الأوتار من يئت القصيد. وادخل في صدر الجدول بثلاثة عشر، وانظر ما قبله 5 من السطح، وأضعفه ^(ج) بمثله، وزد عليه الواحد الباقي من ثلاثة عشر. فكان حرف جيم. فكانت الجملة سبعة * . فذلك حرف زاي. فأثبتناه، وعلمنا عليه من يئت القصيد. وميزانه أن تضعف / سبعة * ^(د) بمثلها، وزد عليها الواحد الباقي من ثلاثة عشر، [يكن] ^(هـ) خمسة عشر. وهو الخامس عشر من بيت القصيد. وهذا آخر أذوار الثلاثيات.

10

وضع الدَوْر الرابع، وله من العدد تسعة، بإضافة الباقي من الدَوْر السابق، فاضرب الطالع مع الدَوْر في السلطان؛ وهذا الدَوْر آخر العمل في البيت الأول من الرباعيات.

فاضرب على حرفين من الأوتار، واصعد بتسعة في ضلع ثمانية، وادخل بتسعة من دَوْر الحرف الذي أخذته آخراً من يئت القصيد؛ فالتاسع حرف راء، 15 فأثبتّه وعلم عليه. وادخل في صدر الجدول بتسعة، وانظر ما قبلها من السطح [يكن] ^(هـ) جيم. فهقر العدد واحداً، [يكن] ^(هـ) ألف. [وهو الثاني من حرف الراء من

(أ) ط: تضعف (ب) ع ج ي: يبلغ (ج) في ج: وأضفه (د) سقط ما بين النجمين من ي (هـ) في الأصول: يكون.

يَبْتَ الْقَصِيد؛ فَأُثْنَتْهُ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ ، وَعَدَّ مِمَّا يَلِي الثَّانِي تِسْعَةً يَكُنْ ^(أ) [أَلِف] ^(ب) أَيْضاً
أُثْنَتْهُ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ، وَاضْرَبَ عَلَى حَرْفٍ مِنَ الْأَوْتَارِ ، وَأَضِفَ تِسْعَةً لِمِثْلِهَا ^(ج) ، تَبْلُغُ
ثَمَانِيَةَ عَشَرَ. وَادْخُلْ بِهَا فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ ، تَقِفْ عَلَى حَرْفِ رَاءٍ ، أُثْنَتْهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا
مَنْ يَبْتَ الْقَصِيدَ ثَمَانِيَةَ وَأَرْبَعَةَ . وَادْخُلْ بِثَمَانِيَةَ عَشَرَ فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ ، تَقِفْ عَلَى
س ^(د) . أُثْنَتْهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا اثْنَيْنِ . وَأَضِفَ اثْنَيْنِ إِلَى تِسْعَةٍ تَكُنْ أَحَدَ عَشَرَ . ادْخُلْ فِي
5 صَدْرِ الْجَدُولِ بِأَحَدِ عَشَرَ ، فَقَابِلْهَا مِنَ السَّطْحِ أَلِفَ . أُثْنَتْهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا سِتَّةَ .

وَضَعَ الدَّوْرَ الْخَامِسَ ، وَعَدَّتْهُ سَبْعَةَ عَشَرَ ، الْبَاقِي خَمْسَةٌ ، اصْعَدَ بِخَمْسَةِ فِي
ضِلْعِ ثَمَانِيَةٍ ، وَاضْرَبَ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأَوْتَارِ ، وَأَضِغْفُ خَمْسَةً بِمِثْلِهَا ، وَأَضِفْهَا إِلَى
سَبْعَةِ عَشَرَ ، عَدَدَ دَوْرِهَا . الْجُمْلَةُ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ . ادْخُلْ بِهَا فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ
10 فَتَقَعْ عَلَى تَ . أُثْنَتْهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا اثْنَيْنِ وَثَلَاثَيْنِ ، وَاطْرَحْ مِنْ سَبْعَةِ عَشَرَ اثْنَيْنِ الَّتِي هِيَ
فِي أَسْ اثْنَيْنِ وَثَلَاثَيْنِ ، الْبَاقِي خَمْسَةُ عَشَرَ . ادْخُلْ بِهَا فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَقِفْ عَلَى
قَافٍ ، أُثْنَتْهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا سِتَّةَ وَعِشْرِينَ . وَادْخُلْ فِي صَدْرِ الْجَدُولِ بِسِتَّةَ وَعِشْرِينَ ،
تَقِفْ عَلَى اثْنَيْنِ بِالْعُبَارِ . وَذَلِكَ / حَرْفُ بَاءٍ . أُثْنَتْهُ ، وَعَلَّمَ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ وَخَمْسِينَ .

[355]

وَاضْرَبَ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأَوْتَارِ ، وَضَعَ الدَّوْرَ السَّادِسَ وَعَدَّتْهُ ثَلَاثَةَ عَشَرَ .
15 الْبَاقِي مِنْهُ وَاحِدٌ . فَتَبَيَّنَ إِذْ ذَاكَ أَنَّ دَوْرَ النَّظْمِ مِنْ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ ، فَإِنَّ الْأَدْوَارَ
خَمْسَةً وَتِسْعُونَ ، وَسَبْعَةَ عَشَرَ ، وَخَمْسَةَ ، وَثَلَاثَةَ عَشَرَ ، وَوَاحِدٌ . فَاضْرَبْ خَمْسَةَ
فِي خَمْسَةِ تَكُنْ خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ ، وَهُوَ الدَّوْرُ فِي نَظْمِ الْبَيْتِ . فَانْقَلِبِ الدَّوْرَ فِي ضِلْعِ

(أ) فِي الْأَصُولِ: يَكُونُ (ب) مِنْ ع ج ي ، وَسَقَطَ مِنْ ظ (ج) مِنْ ع ج ي ، وَفِي ظ: بِمِثْلِهَا (د) كَذَا فِي ظ ي ، وَفِي حَاشِيَةِ
ع وَحَاشِيَةِ ج: صَوَابُهُ عَلَى رَاءٍ .

ثمانية بواحد. ولكن لم يُدْخِلُوا في بَيْتِ القصيد ثلاثة عشر كما قَدَّمْنَاهُ، لأنَّه دَوْرٌ ثاني من نَشْأَةِ تَرْكِيبِيَّةٍ ثَانِيَةٍ؛ بل أَضَفْنَا الأربعةَ الَّتِي من أَرْبَعَةٍ وَخَمْسِينَ الخَارِجَةَ على حرف بَاءٍ من بَيْتِ القصيد إلى الواحدِ، يكون خمسة. فَأَضَفْ خَمْسَةً إلى ثَلَاثَةِ عَشَرَ الَّتِي للدَّوْرِ، تبلغ ثمانية عشر. ادْخُلْ في صدرِ الجدولِ بها، وَخُذْ ما قَبْلَهَا من السَّطْحِ، وهو ألف. أَثْبَتْنَاهُ وَعَلَّمْ عليه من بَيْتِ القصيد اثني عشر^(١). واضربْ عليه 5 حرفين من الأوتار.

ومن هذا الحدِّ تنظرُ أحرفَ السُّؤالِ، فما خَرَجَ منها زُدَّه مع بَيْتِ القصيد من آخره، وَعَلَّمْ عليه من^(ب) حُرُوفِ السُّؤالِ ليكون داخِلاً في العدد في بيت القصيد، وكذلك تفعل بكلِّ حَرْفٍ خرج بعد ذلك مُناسِباً لحروفِ السُّؤالِ، فما 10 خرج منها زُدَّه إلى بيتِ القصيد من آخره وَعَلَّمْ عليه. وكذلك تفعل بكلِّ حرفٍ خرج بعد ذلك مُناسِباً لحروفِ السُّؤالِ.

ثمَّ أَضَفْ إلى ثمانية عشر ما عَلَّمْتَهُ على حَرْفِ الألف من الآحاد، فكان اثنين، تبلغُ الجملةُ عشرين. ادْخُلْ بها في حُرُوفِ الأوتار، تَقِفْ على حَرْفِ راء. أَثْبَتْنَاهُ وَعَلَّمْ عليه من بَيْتِ القصيد سِتَّةً وَتِسْعِينَ، وهو نهايةُ الدَّوْرِ في الحَرْفِ الوترِيِّ.

15 فاضربْ على حرفين من الأوتار، وضع الدَّوْرَ السَّابِعَ، وهو ابتداءُ المخترع ثاني ينتشي من الاختراعين^(ج). وبهذا الدَّوْر من العدد تسعة، تضيف لها واحداً يكن [عشرة]^(د) [للنشأة]^(هـ) الثَّانِيَةِ.

(١) كذا بخطه في حاشية ع، لم يعربها، كما كررها سابقاً (ب) سقط من ع (ج) كذا في ع ظ ج ي، وهو غير واضح المعنى (د) كذا في ع، وفي ظ ج ي: عشرين (هـ) في ظ: للنشأة.

/ وهذا الواحد تزيده بعد إلى [اثني]^(١) عشر دَوْرًا إذا كان من هذه النسبة، [355ب]
أو تُنْقِصُه من الأَصل. تبلغ الجملة عشرة. فاصعد في ضلع ثمانية وتسعين، وادخل في
صدر الجدول بعشرة، تقف على خمسين. وإنما هي خمسون، نون، مضاعفة بمثلها،
وتلك ق. فأثبتها وعلم عليها من يئت القصيد اثني وخمسين. وأسقط من اثني
5 وخمسين اثني، وأسقط تسعة التي للدور الباقي أحد وأربعون. فادخل بها حروف
الأوتار، تقف على واحد، أثبتته. وكذلك ادخل بها في يئت القصيد *تجد واحداً.
فهذا ميزان هذه النشأة الثانية، تعلم عليه من يئت القصيد *^(ب) علامتين، علامة
في الألف الأخير الميزاني، وأخرى على الألف الأولى فقط؛ والثانية أربعة
وعشرون. واضرب على حرفين من الأوتار، وضع الدور الثاني وعدده سبعة
10 عشر. الباقي خمسة. ادخل في ضلع ثمانية وخمسين، وادخل في يئت القصيد
بخمسة تقع على ع، سبعين، أثبتها وعلم عليها. وادخل في الجدول بخمسة، وخذ ما
قابلها من السطح، وذلك واحد، أثبتته وعلم عليه من البيت ثمانية وأربعين. وأسقط
واحداً من ثمانية وأربعين للأش الثاني، وأضف لها خمسة الدور. الجملة اثني
وخمسون. ادخل بها في صدر الجدول، تقف على حرف اثني غبارية. وهي مرتبة
15 ميثية لتزايد العدد، فتكون مائتين، وهي حرف راء. أثبتها وعلم عليها من يئت
القصيد أربعة وعشرين. فانتقل الأمر من ستة وتسعين إلى الابتداء، وهو أربعة
وعشرون، فأضف إلى أربعة وعشرين خمسة الدور، وأسقط واحداً، تكن الجملة

(١) في الأصول: اثنا (ب) سقط ما بين النجمين من ج.

ثمانية وعشرين. ادخل بالتصنيف منها في بيت القصيد، تقف على ثمانية. أثبت ح وعلم عليها.

[356] وضع الدور التاسع ، وعدده ثلاثة عشر ، الباقي واحد . / اصعد في ضلع ثمانية بواحد . وليست نسبة العمل هنا كنسبتها في الدور السادس ، لتضاعف العدد ، ولأنه من النشأة الثانية ، ولأنه أول الثلث الثالث من مربعات البروج، 5 وآخر النسبة الرابعة من المثلثات.

فاضرب ثلاثة عشر التي للدور في أربعة التي هي مثلثات البروج السابقة. الجملة اثنان وخمسون. ادخل بها في صدر الجدول، تقف على حرف اثنين غبارية. وإنما هي مئينية لتجاوزها في العدد عن مرتبتي الاحاد والعشرات . فأثبت مائتين، 10 راء ، وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين . وأضف إلى ثلاثة عشر الدور واحد الأس، وادخل بأربعة عشر في بيت القصيد، تبلغ ح، فعلم عليها ثمانية وعشرين. واطرخ من أربعة عشر سبعة، تبقي سبعة.

اضرب على حرفين من الأوتار، وادخل بسبعة تقف على حرف لام، أثبت وعلم عليه من البيت.

15 وضع الدور العاشر ، وعدده تسعة . وهذا ابتداء المثلثة الرابعة . واصعد في ضلع ثمانية بتسعة يكن خلاء. فاضعد بتسعة ثانية تصير في السابع من الابتداء؛ اضرب تسعة في أربعة لصعودنا بتسعتين، وإنما كانت تضرب في اثنين. ادخل في الجدول ستة وثلاثين، تقف على أربعة زمامية . وهي عشريئة، فأخذناها أحادية

لقلّة الأدوار. فأثبت حرف دال. وإن أضفت إلى ستة وثلاثين واحد الأس، كان
 حدّها من يئت القصيد، فعلم عليها. ولو دخلت بتسعة، لا غير، من غير ضرب في
 صدر الجدول، لوقف على ثمانية، فاطرح من ثمانية وأربعين، الباقي أربعة، وهو
 المقصود. ولو دخلت في صدر الجدول بثمانية عشر التي هي تسعة في اثنين، لوقف
 5 على واحد زمامي، وهو عشري. فاطرح منه اثنين تكرر التسعة، الباقي ثمانية،
 نصفها المطلوب. ولو تدخل في صدر الجدول بسبعة وعشرين، ضربها / في ثلاثة، [356ب]
 لوقف على عشرة زمامية، والعمل واحد.

ثم ادخل بتسعة في يئت القصيد، وأثبت ما خرج، وهو ألف، ثم اضرب
 تسعة في ثلاثة التي هي مركب تسعة الماضية، وأسقط واحداً، وادخل في صدر
 10 الجدول بستة وعشرين، وأثبت ما خرج، وهو مائتان بحرف راء، وعلم عليه من
 يئت القصيد بستة وتسعين.

واضرب على حرفين من الأوتار، وضع الدور الحادي عشر، وله سبعة
 عشر، الباقي خمسة. اصعد في ضلع ثمانية بخمسة، وتحسب ما تكرر عليه المشي في
 الدور الأول. وادخل في صدر الجدول بأربعة، تقف على [حاء]⁽¹⁾، فخذ ما قبله من
 15 السطح، وهو واحد. فادخل بواحد في يئت القصيد [تكن]^(ب) س^(ج). أثبتّه وعلم
 عليه أربعة. ولو يكون الوقوف في الجدول على يئت عامر لأثبتنا الواحد ثلاثة.
 وأضعف سبعة عشر بمثلها، وأسقط واحدًا، وزدّها أربعة، تبلغ سبعة وثلاثين.

(1) من ع، وفي ط ج ي: خال (ب) في الأصول: تكون (ج) ط ج ي: راء س .

ادخلُ بها في الأوتار تقف على هـ، أثبتّها وعلم عليها خمسة، وأضعفها بمثلها، وادخل في البيت تقف على ل، أثبتّها وعلم عليها عشرين، واضرب على حرفين من الأوتار، وضع الدور الثاني عشر، أوله ثلاثة عشر، الباقي واحد. اصعد في ضلع ثمانية بواحد، وهذا الدور آخر الأدوار، وآخر الاختراعتين. وآخر المربعات الثلاثية، وآخر المثلثات الرباعية.

5

فالواحد في صدر الجدول يقع على ثمانين زمامية. وإنما هي آحاد ثمانية، وليس معنا في الأدوار إلا واحد. فلو زاد على أربعة من مربعات اثني عشر أو ثلاثة من مثلثات اثني عشر كانت ⁽¹⁾ ح. وإنما هي دال، فأثبتّها وعلم عليها من بيت القصيد أربعة وسبعين. ثم انظر ما ناسبها من السطح يكن خمسة. أضعفها بمثلها للأُس تبلغ عشرة، أثبت تي وعلم عليها. وانظر في أي المراتب وقعت، وجدناها في السابعة، فدخلنا بسبعة/ في حروف الأوتار. وهذا المدخل يُسمى التوليد الحرفي. فكانت ق. أثبتّها وأضف إلى سبعة واحد الدور، الجملة ثمانية. ادخل بها في الأوتار تبلغ س، أثبتّها وعلم عليها ثمانية، واضرب ثمانية في ثلاثة الزائدة على عشرة الدور، فإنها آخر مربعات الأدوار بالمثلثات، تبلغ أربعة وعشرين. ادخل بها في بيت القصيد، وعلم على ما يخرج منها، وهو مائتان، وعلامتها ستة وتسعون، وهو نهاية الدور الثاني في الأدوار الحرفية.

10

[1357]

15

واضرب على حرفين من الأوتار، وضع النتيجة الأولى لها تسعة، وهذا العدد يناسب أبدأ الباقي من حروف الأوتار بعد طرحها أدواراً، وذلك تسعة.

(1) ع ج ي: لكانت .

فاضرب تسعة في ثلاثة التي هي زائدة على تسعين من حروف الأوتار،
وأضف لها واحداً الباقي من الدور الثاني عشر، يبلغ ثمانية وعشرين. فادخل بها في
حروف الأوتار تبلغ ألف، أثنته وعلم عليه ستة وتسعين. وإن ضربت تسعة التي
هي أدوار الحروف التسعينية في أربعة، وهي الثلاثة الزائدة على تسعين، والواحد
5 الباقي من الدور الثاني عشر كذلك.

واصعد في ضلع ثمانية بتسعة، وادخل في الجدول بتسعة تبلغ اثنين زمامية.
واضرب تسعة في ما ناسب من السطح، وذلك ثلاثة. وأضف لذلك سبعة^(أ)،
عدد الأدوار الحرفية، وأطرح واحداً، الباقي من دور اثنين عشر يبلغ ثلاثة وثلاثين.
ادخل بها في البيت تبلغ خمسة، فأضعفها وأضعف تسعة بمثلها، وادخل في صدر
الجدول بثمانية عشر، وخذ ما في السطوح، وهو واحد. ادخل [به]^(ب) في حروف
10 الأوتار تبلغ م. أثنته وعلم عليه.

واضرب على حرفين من الأوتار، وضع النتيجة الثانية ولها سبعة عشر،
الباقي خمسة. فاصعد في ضلع ثمانية وخمسين، واضرب خمسة في ثلاثة الزائدة على
تسعين، تبلغ خمسة عشر. أضف لها واحداً^(ج)، الباقي من الدور الثاني عشر، تكن
15 تسعة. / وادخل بستة عشر في البيت تبلغ ثاء، أثنته وعلم عليه أربعة وستين؛ [357ب]
وأضف إلى خمسة الثلاثة الزائدة على تسعين، وزد واحداً^(ج) الباقي من الدور الثاني
عشر، يكن تسعة وثلاثين. ادخل بها في صدر الجدول تبلغ ثلاثين زمامية. وانظر

(أ) في الأصول: واحد (ب) في ظ: بها (ج) في الأصول: واحد، حيث ذكرت أكثر الأرقام بغير إعراب، فأعربنا بعضها لتوضيح
سياق النص.

ما في السّطح تجذّ واحداً، أثبتّه وعلمّ عليه من بيت القصيد، وهو التاسع أيضاً من البيت. وادخل بتسعة في صدر الجدول تقف على ثلاثة، وهو عشرات، فأثبت لام. وعلمّ عليه.

وضع النتيجة الثالثة، وعدّها ثلاثة عشر، الباقي واحد. فانقل في ضلع ثمانية
بواحد، وضف إلى ثلاثة عشر الثلاثة الزائدة على تسعين وواحداً⁽¹⁾، الباقي من 5
الدور الثاني عشر، تبلغ سبعة عشر وواحداً. النتيجة تكون ثمانية عشر. ادخل بها
في حروف الأوتار تكن لام. أثبتّها. فهذا آخر العمل.

المثال في هذا السؤال السابق:

أردنا أن نعلم [هل] ^(ب) هذه الزايرة علم محدث أم قديم، بطالع أول درج
من القوس، حروف الأوتار، ثم حروف السؤال، ثم الأصول، وهي عدّة الحروف 10
ثلاثة وتسعون، أدوارها سبعة، الباقي منها تسعة، الطالع واحد، سلطان القوس
أربعة، الدور الأكبر واحد، درج الطالع مع الدور اثنان، ضرب الطالع مع الدور في
السلطان ثمانية، إضافة السلطان للطالع خمسة.

بيت القصيد:

سؤال عظيم الخلق حُزّت فُصن إذن غرائب شكّ ضبطه الجدُّ مثلاً⁽¹⁾ 15

(1) في الأصول: واحد، حيث ذكرت أكثر الأرقام بغير إعراب، فأعرنا بعضها لتوضيح سياق النص (ب) من ع ج، وفي ظ: على، وفي ي: أن.

(1) البوني: شمس المعارف الكبرى 367 وفيه كيفية العمل.

حروف^(١) الأوتار:

ص ط د ظ ه نر^(ب) ث كه م ر ض ص و ن ث ه ش^(ج) ا ب ل م ن
ص ع ف ض ق ر س ي ك ل م ن ص ع ف ق ر س ن^(د) ث خ^(ه) ذ
ظ غ ش ط ك ن ع ح ص ن ر و ح ل ص ك ل م ن ص ا ب ج د ه و ن ر ح ط ي

السؤال

ال نري مرج ت ع ل م ر ح د ث ا م ق د ي م^(و)

5

[358]

التَّوْرُ الأوَّلُ /	تسعة	
التَّوْرُ الثَّانِي	سبعة وعشرون	الباقى خمسة
التَّوْرُ الثَّالِث	ثلاثة عشر	الباقى واحد
التَّوْرُ الرَّابِع	تسعة	
التَّوْرُ الْخَامِس	تسعة عشر	الباقى خمسة
التَّوْرُ السَّادِس	ثلاثة عشر	الباقى واحد
التَّوْرُ السَّابِع	تسعة	
التَّوْرُ الثَّامِن	سبعة عشر	الباقى خمسة

10

(١) جاءت جميع الحروف المعجمة في ي ملة (ب) في ج: ن، في ع: د (ج) من ع، وفي ظ ج ي ملة (د) في ع نون مبتدئة، وفي ظ ج: ت، وفي ي ملة (ه) فراغ في ظ (و) تُقرأ: الزَّيْجَةُ علمٌ مُحدثٌ أم قديم.

الدور التاسع ثلاثة عشر الباقي واحد
 $\frac{1}{1}$

الدور العاشر تسعة

الدور الحادي عشر سبعة عشر الباقي خمسة
 $\frac{2}{2}$
 $\frac{8}{2}$
 $\frac{1}{2}$

الدور الثاني عشر ثلاثة عشر الباقي واحد

النتيجة الأولى تسعة

النتيجة الثانية سبعة عشر الباقي خمسة

٨٠٤٤٤٤

النتيجة الثالثة ثلاثة عشر الباقي واحد

$\frac{8}{8}$
 $\frac{4}{4}$

س	1	ا	غ	23	ح
و	2	2	ر	24	ع
ا	3	ح	ا	25	ع
ل	4	ع	ي	26	ك
ع	5	ع	ب	27	و
ظ	6	ر	ش	28	8
ي	7	و	ك	29	و
م	8	8	ض	30	9
ا	9	و	ب	31	ا
ل	10	ه	ط	32	2
خ	11	ا	ه	33	3
ل	12	ا	ا	34	ع
ق	13	ح	ل	35	ع
ح	14	ع	ج	36	
ن	15	ع	د	37	
ت	16	ك	م	38	
ف	17	ف	ث	39	
ص	18	ا	ل	40	
ن	19	و	ا	41	
ا	20	ع			
ذ	21	ا			
ن	22	ع			

[358ب]

/ ت و ن ا ق س ب ن ر ا ا ر س ا ت ق ب ا ر ق ا ع ا ر م ح ر ج
ل د ا ر س ه ل ل د ي ف س ر ا ه م ت ا ل ل

دَوْرُهَا عَلَى خَمْسَةِ وَعَشْرِينَ، ثُمَّ عَلَى ثَلَاثَةِ وَعَشْرِينَ، مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ عَلَى أَحَدٍ وَعَشْرِينَ، مَرَّتَيْنِ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ الْوَاحِدُ مِنْ آخِرِ الْبَيْتِ، وَتَنْقُلُ الْحُرُوفُ جَمِيعُهَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(1) ت م ر و ح ن م ر و ح ا ل ق د س ا ب م ر ن م س م ر ه ا

5 ل ا د م ر ي م س ف ا س ت م ر ق ا ب ه ا م م ر ت ق ا ا ل ع ل ا

هذا آخر الكلام في استخراج الأجوبة من "زائرجة العالم"، منظومة. وللقوم طرائق أخر من غير الزائرجة، يستخرجون بها أجوبة المسائل غير منظومة.

وعندي، أنّ السرّ في خروج الجواب منظوماً من الزائرجة، إنّما هو مزجهم بين مالك بن وهيب، وهو: سؤال عظيم الخلق... البيت. ولذلك يخرج الجواب على رؤيه.

وأما الطرق الأخرى، فيخرج منها الجواب غير منظوم. فمن طرائقهم في استخراج الأجوبة ما ننقله. قال بعض المحققين منهم:

(1) يقرأ هذا البيت :

تروحن روح القدس أبرز سرّها لإدريس فاسترقى بها مُزَتَّقِي الغلا

1 • فصل، في الاطلاع على الأسرار الخفية من جهة الامرتباطات الحرفية

اعلم أرشدنا الله وإياك، أن هذه الحروف أصل الأسئلة في كل قضية،
وإنما تستنتج الأجوبة على تجزئته بالكلية. وهي ثلاثة وأربعون حرفاً كما ترى:

اول اع ظ س ا ل م خ ي د ل ن ر ق ت ا ف ذ ص م ر ن غ ش
م ر ا ك ي ب م ر ض ب ج ط ل ح ه د ث ل ث ا

5

وقد نظمها بعض الفضلاء في بيت جعل فيه كل حرف مشدد من حرفين،
وسماه القطب، فقال:

سؤال عظيم الخلق حزت فضن إذن غرائب شك ضبطه الجد مثلاً

فإذا أردت استنتاج المسألة، فاحذف ما تكرر من حروفها، وأثبت ما
فصل منها، ثم احذف من الأصل وهو القطب، لكل حرف فصل من المسألة

10

/ حرفاً يماثلها، وأثبت ما فصل منه. ثم امزج الفضلين في سطر واحد، تبدأ بالأول [359]

من فضلة الأصل، والثاني من فضلة المسألة، وكذلك إلى أن تتم الفضلين أو يتفد
أحدهما قبل الآخر، فتضع البقية على ترتيبها. فإن كان عدد الحروف الخارجة بعد
المرج موافقاً لعدد حروف الأصل قبل الحذف، فالعمل صحيح. فحينئذ تضاف إليها

خمس نونات لتغدير بها الموازين الموسيقية⁽¹⁾ وتكمل الحروف ثمانية وأربعين حرفاً.

15

فتعمر بها جدولاً مرتباً يكون آخر ما في السطر الأول [منه] أول ما في السطر

(1) جاءت هكذا في الأصول، وترد في مواقع أخرى بياء بعد السين: الموسيقية.

/ ثُمَّ تَأْخُذُ وَتَرُكُ كُلَّ حَرْفٍ بَعْدَ ضَرْبِهِ فِي أُسُوسِ أَوْتَادِ الْقَلَكِ الْأَرْبَعَةِ. [359ب]

واحدَ ما يلي الأوتاد؛ وكذلك السَّوَابِقُ، فَإِنَّ نَسَبَتَهَا مضطربة. وهذا الخارج هو أول رُتَب السَّريان. ثُمَّ تَأْخُذُ بِمَجْمُوعِ الْعُنَاصِرِ وَتَحْطُّ مِنْهَا أُسُوسَ الْمَوْلِدَاتِ، تَبْقَى أُسُوسُ عَالَمِ الْخَلْقِ بَعْدَ عَرُوضِهِ لِلْمَدَدِ الْكَوْنِيَّةِ. فَتَحْمَلُ عَلَيْهِ بَعْضَ الْمَجْرَدَاتِ عَنِ الْمَوَادِّ، وَهِيَ عُنَاصِرُ الْإِمْدَادِ، يَخْرُجُ أَفْقُ النَّفْسِ الْأَوْسَطِ. وَتَطْرَحُ أَوَّلَ رُتَبِ السَّريانِ مِنْ مَجْمُوعِ الْعُنَاصِرِ، يَبْقَى^(أ) عَالَمُ التَّوَسُّطِ. وَهَذَا مَخْصُوصٌ بِعَالَمِ الْأَكْوَانِ مِنَ الْبَسِيطَةِ، لَا الْمُرَكَّبَةِ.

وَتَضْرِبُ عَالَمَ التَّوَسُّطِ فِي أَفْقِ النَّفْسِ الْأَوْسَطِ، يَخْرُجُ الْأَفْقُ الْأَعْلَى. فَتَحْمَلُ عَلَيْهِ أَوَّلَ رُتَبِ السَّريان. ثُمَّ تَطْرَحُ مِنَ الرَّابِعِ^(ب) أَوَّلَ عُنَاصِرِ الْإِمْدَادِ الْأَصْلِيِّ، يَبْقَى ثَلَاثُ رُتَبِ السَّريان. فَتَضْرِبُ مَجْمُوعَ أَجْزَاءِ الْعُنَاصِرِ أَبْدَأَ فِي رَابِعِ مَرْتَبَةِ السَّريانِ، يَخْرُجُ أَوَّلَ عَالَمِ التَّفْصِيلِ. وَالثَّانِي فِي الثَّانِي يَخْرُجُ ثَانِي عَالَمِ التَّفْصِيلِ، وَالثَّلَاثُ فِي الثَّلَاثِ يَخْرُجُ ثَالِثُ عَالَمِ التَّفْصِيلِ^(ج)، وَالرَّابِعُ فِي الرَّابِعِ يَخْرُجُ رَابِعُ عَالَمِ التَّفْصِيلِ^(ج). فَتَجْمَعُ عَوَالِمُ التَّفْصِيلِ^(ج) وَتَحْطُّ مِنْ عَالَمِ الْكُلِّ، تَبْقَى الْعَوَالِمُ الْمُجْرَدَةُ. فَتُنْقَسَمُ عَلَى الْأَفْقِ الْأَعْلَى يَخْرُجُ الْجُزْءُ الْأَوَّلُ، وَتُنْقَسَمُ^(د) الْمُنْكَسِرَ عَلَى الْأَفْقِ الْأَوْسَطِ يَخْرُجُ الْجُزْءُ الثَّانِي، وَمَا انْكَسَرَ فَهُوَ الثَّلَاثُ. وَيَتَعَيَّنُ الرَّابِعُ؛ هَذَا فِي الرَّابِعِ؛ وَإِنْ شِئْتَ أَكْثَرَ مِنَ الرَّابِعِ فَتَشْتَكِرْ مِنْ عَوَالِمِ التَّفْصِيلِ^(ج) وَمِنْ رُتَبِ السَّريانِ وَمِنْ الْأَوْفَاقِ بَعْدَ الْحُرُوفِ. وَاللَّهُ يُرْشِدُنَا وَإِيَّاكَ.

(أ) ع ط ج: يبقَى (ب) ج: الربيع (ج) ج: التفصيل (د) ج: وينقسم .

وكذلك إذا قُسمَ عالم التجريد على أول رُتب السَّريان، خرَّج الجزء / الأول من عالم التَّركيب، وكذلك إلى نهاية الرُّتبة الأخيرة من عالم الكون. فافهم وتدبّر، واللَّه المرشدُ المعين.

ومن طرائقهم أيضاً في استخراج الجواب

5

قال بعض المحقِّقين منهم:

اعلم، أيُّدنا الله وإياك بروحٍ منه، أنَّ علمَ الحُرُوفِ علمٌ جليلٌ يتَّوَصَّلُ العالمُ به لما لا يتَّوَصَّلُ بغيره من العلوم المتداوِّلة بين العالم. وللعَمَلِ به شرائطٌ تُلتزم. وقد يستخرج العالمُ به أسرار الخليقة وسرائر الطبيعة، فيطلعُ بذلك على نَتيجَتِي الفَلَسَفَةِ، أغني السَّمِيَاءَ، وأختها، ويرفعُ له حجابُ المجهولاتِ، وبطلعُ بذلك على مَكْنُونِ خَفَايَا⁽¹⁾ القُلُوبِ. وقد شهد جماعةٌ بأرض المغربِ ممَّن اتَّصلَ بذلك، فأظهَرَ 10 العجائبَ، وخرقَ العوائِدَ، وتصرَّفَ في الوجودِ بتأييدِ الله. واعلم أنَّ مِلاكَ كُلِّ فضيلةٍ الاجتهادُ، وحُسْنُ المَلَكَةِ مع الصَّبْرِ مفتاحُ كُلِّ خَيْر. كما أنَّ الخُرْقَ والعجلةَ رأسُ الحِزْمَانِ.

فأقول: إذا أردتَ أن تعلمَ قوَّةَ كُلِّ حَرْفٍ من حُرُوفِ القافيطوس، أغني أبجد إلى آخرِ العدد، وهذا أوَّلُ مَدْخَلٍ من عِلْمِ الحُرُوفِ، فانظر ما لذلك الحرف 15 من الأعداد. فتلك الدَّرَجَةُ الَّتِي هي مناسبةٌ للحَرْفِ هي قُوَّتُهُ في الجِسْمَانِيَّاتِ. ثمَّ

(1) كذا في ظ، وفي ع ج: خبايا.

اضرب العدد في مثله، تخرج لك قوته في الروحانيات، وهي وتره. وهذا في الحروف المنقوطة لا يتم، بل يتم في الغير منقوطة. لأن المنقوط منها مراتب لمعان يأتي عليها البيان فيما بعد.

واعلم أن لكل شكل من أشكال الحروف شكلاً في العالم العلوي، أغني الكرسي. 5 ومنها المتحرك والسكن، والعلوي والسفلي، كما هو مرقوم في أماكنه من الجداول الموضوعة في الزيارج.

واعلم أن قوى الحروف ثلاثة أقسام:

الأول، وهو أقلها: قوة، تظهر بعد كتابتها؛ فتكون كتابته لعالم روحاني مخصوص بذلك الحرف المرسوم. فتمت خراج ذلك الحرف بقوة نفسانية وجمع همة، 10 كانت قوى الحروف مؤثرة في عالم الأجسام.

الثاني، قوتها في الهيئة⁽¹⁾ الفكرية؛ وذلك / ما يصدر عن تصرف [360ب] الروحانيات لها، فهي قوة في الروحانيات العلويات، وقوة شكلية في عالم الجسمانيات.

الثالث، هو ما يجمع الباطن، أعني القوة النفسانية على تكوينه. فيكون^(ب) قبل التطق به صورة في النفس، وبعد التطق به صورة في الحروف، وقوة في التطق.

وأما طبائعها، فهي الطبيعيات المنسوبات للمتولدات. وهي الحرارة واليبوسة، 15 والحرارة والبرودة، والبرودة والرطوبة، والبرودة واليبوسة. فهذا سر العدد الثماني. والحرارة جامعة للهواء والنار، وهما: آه ط م ق ش ذ ح ز ك س ق ت ظ^(ج).

(1) ج: الهبة (ب) ج: فتكون (ج) في ع ج: ط م عملة.

والبرودة جامعة للأرض والماء: د ح ل ع ر خ غ ب و ي ن ص ت ض. والرطوبة
جامعة للهواء والماء ح ز ك س ق^(أ) ث ط د ح ل ع ر خ ع جامعة للشار
والأرض: آ ه ط م ق ف ش ذ^(ج) ب و ي ن ص ت ض. فهذه نسبة حروف
الطبائع وتداخل أجزاء بعضها في بعض، وتداخل أجزاء العالم فيها، علوياً وسفلياً،
بأسباب الأمتات الأول، أغني الطبائع الأربع المفردة.

5

1. فصل

فمئى أردت استخراج مجهول من مسألة ما، فحقق طالع السائل أو طالع
مسأله، واستنطق بحروف أوتادها الأربعة آو ع و ح وه آ مستوية مرتبة،
واستخرج أعداد القوى والأوتاد، كما سنبتن. وأجمل ونسب واستفتح الجواب،
يخرج لك المطلوب، إما بصريح اللفظ أو بالمعنى. وكذلك في كل مسألة تقع لك.
بيانه: إذا أردت أن تستخرج قوى حروف الطالع مع اسم السائل والحاجة،
فاجمع أعدادها بالجميل الكبير، فكان الطالع الحمل، رابعه السرطان، سابعه الميزان،
عاشره الجنى، وهو أقوى هذه الأوتاد. فأسقط من كل برج حرفي التعريف، وانظر
ما يخص كل برج من الأعداد المنطقة الموضوعة في دائرتها^(د)، واحذف [أجزاء الكثير]^(هـ)
في النسب الاستنطاقية كلها، وأثبت تحت كل حرف ما يخصه من ذلك، ثم أعداد
حروف العناصر الأربعة / وما يخصها كالأول. وارسم ذلك كله أحرفاً، ورتب الأوتاد
والقوى والعرايز سطرًا مفترجاً. وكسر واضرب ما يضرب لاستخراج الموازين، واجمع
واستفتح الجواب، يخرج لك الضمير^(و) وجوابه.

15

[1361]

(أ) في ج: ف (ب) من ج ع، وفي ط: ت (ج) في ج: د مملعة (د) ج: دارتها (ه) ج: آخر الكبير (و) ج: الضهر.

مثال ذلك: افرض أنّ الطالع الحمل، كما تقدّم، ترسم ح م ل؛ فللحاء من العدد ثمانية، لها النصف والرّبع والثّمن. د ب آ، الميم لها من العدد أربعون، لها النصف والرّبع والثّمن والعُشر، ونصف العُشر إن أردت التدقيق. م ك ي ه د ب، اللّام لها من العدد ثلاثون، لها النصف والثّلاثون والثّلت والخمّس والسدّس والعُشرية. 5 ك ي و ه ج. وهكذا تفعل بسائر حروف المسألة والاسم من كلّ لفظ يقع لك.

وأما استخراج الأوتار، فهو أن تقسم مربع كلّ حرف على أعظم جزء يوجد له. مثاله حرف دال، له من الأعداد أربعة، مُربّعها ستّة عشر، اقسّمها على أعظم جزء يوجد لها، وهو اثنان، يخرج وتر الدال ثمانية. ثمّ تضع كلّ وترٍ مقابلاً لحرفه، ثمّ تستخرج النّسب العنصريّة كما تقدّم في شرح الاستنطاق. ولها قاعدة تطرّد في استخراجها من طبع الحرف وطبع البنت الذي تحلّ فيه من الجدول، كما ذكر الشيخ 10 لمن عرّف الاضطلاح.

2 • فصل، في الاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفيّة

وذلك لو سأل سائل عن عليل ما، لم يعرف مُمرّضه ما علّته وما الموافق لبرئها من الأدوية، فمرّ السائل أن يُسمّي شيئاً من الأشياء على اسم العلّة المجهولة 15 ليُجعل ذلك الاسم قاعدة لك. ثمّ استنطق الاسم مع اسم الطالع والعناصر والسائل واليوم والساعة إن أردت التدقيق في المسألة، وإلاّ اقتصرّت على الاسم الذي سمّاه السائل، وفعلت به كما بُيّن.

فأقول مثلاً: سَمِيَ السَّائِلُ فِرْساً؛ فَأُثِبَتِ الحُرُوفُ الثَّلَاثَةُ مَعَ أَعْدَادِهَا المنطقية.

[361ب] بيانه: إن للفاء من العدد ثمانين، ولها مَ لَ كَ يَ حَ دَ. ثم الراء / لها من العدد مائتان، ولها قَ قَ ظَ كَ كَ يَ. ثم السين لها من العدد ستون، ولها مَ لَ كَ يَ وَ جَ*. فالواو عددٌ تامٌّ، له دَ جَ بَ، والسين مثله، لها مَ لَ كَ يَ*⁽¹⁾. فإذا بسطت حروف الأسماء فوجدت عنصرين متساويين، فاحكم لأكثرهما حروفاً [بالغلبة على 5 الآخر، ثم اجمل عدد حروف عناصر اسم المطلوب وحروفه]^(ب) دون بسط، وكذلك اسم الطالب، واحكم للأكثر والأقوى بالغلبة.

وصفة استخراج قوى العناصر

ماء	هواء	تراب	نار
	ج	و	
ح	ك ك ك ك	ي ي ي ي	ه ه ه
ل	ق	ن	م م

فتكون الغلبة هنا للتراب. وطبعه، البرد واليبوسة، طبع السوداء. فتحكم على المرض بالسوداء. فإذا ألفت من حروف الاستنطاق كلاماً على نسبة تقريبية، 10 خرج موضع الوجع في الخلق، ويوافقه من الأدوية حُقنة، ومن الأشربة شراب الليمون. هذا ما خرج من قوى أعداد حروف اسم قريس، وهو مثالٌ تقريبيٌّ مختصر.

(أ) سقط ما بين النجمين من ج (ب) ما بين الحاصرتين من: ع ط ج .

وأما استخراج قوى العناصر من الأسماء العلمية، فهو أن تُسمَّى مثلاً محمداً،
 فترسم أحرفه مقطّعةً، ثمّ تَضَعُ أسماء العناصر الأربعة على تركيب الفلّك، يخرج لك
 ما في كلّ عنصرٍ من الحروف والعَدَدِ. ومثاله:

ماء	هواء	تراب	نار
أجناسه ستة	أجناسه ستة	أجناسه ثلاثة	أجناسه ثلاثة
د د د د	ج ج	ب ب ب	أ أ أ
ح ح ح	ز ز	و و و	ه ه ه
ل ل ل	ك ك ك	ن ن ن	م م م
ع ع ع ع	س س س		
ر ر ر	ق ق ق		
ح ح ح	ن ن ن		

فتجد أقوى هذه العناصر من هذا الاسم المذكور عنصر الماء، لأنّ عددَ
 / حروفه عشرون حرفاً. فجعلت له القلبُ على بقية عناصر الاسم المذكور. وهكذا [1362]
 تفعل بجميع الأسماء. حينئذٍ، تُضاف إلى أوتارها، أو للوتر المنسوب للطلّاع في
 الزّيرجة⁽¹⁾، أو لوتر البتّ المنسوب لمالك بن وهيب، الذي جعله قاعدةً لمنح
 الأسئلة، وهو:

(1) ج: الزّيرجة .

سؤال عظيم الخلق حرت فُصْنُ إِذْنٍ غرائب شك ضبطه الجد مثلاً

وهو وتر مشهور لاستخراج المجهولات، وعليه كان يعتمد ابن الرقام وأصحابه. وهو عمل تام قائم بنفسه في المثالات الوضعية.

- وصفة العمل بهذا الوتر المذكور، أن ترسمه مقطعاً، ممتزجاً بألفاظ السؤال على قانون صيغة^(أ) التفسير. وعدة حروف هذا الوتر، أعني التبت، ثلاثة وأربعون 5 حزفاً. لأن كل حرف مشدد من حرفين، ثم تحذف ما يتكرر عند المزج من الحروف ومن الأصل، لكل حرف فصل من المسألة حرف^(ب) يائله، وتثبت الفضلين سطرًا ممتزجاً بعضه ببعض. الحرف الأول من فضلة القطب، والثاني من فضلة السؤال، حتى تتم الفضلتان جميعاً، فتكون ثلاثة وأربعين. فتضيف إليها خمس نونات لتكون ثمانية وأربعين، وتعديل بها الموازين [الموسيقية] ^(ج). ثم تضع الفضلة 10 على ترتيبها، فإن كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج يوافق العدد الأصلي قبل الحذف، فالعمل صحيح. ثم عمّر بما مزجت جدولاً مرتباً يكون آخر ما في السطر الأول أول ما في السطر الثاني، وعلى هذا النسق، حتى يعود السطر الأول بعينه؛ وتتوالى الحروف في القطر على نسبة الحركة. ثم تخرج وتر كل حرف كما تقدم، وتضعه مقابلاً لحزفه، ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية، لتعرف 15 قوتها الطبيعية، وموازنها الروحانية، وغرائزها النفسانية، / وأسوسها الأصلية [362ب]
- من الجدول الموضوع لذلك.

(أ) في ظي مملعة (ب) في الأصول: حرفاً (ج) كذا في ج ع ي، وفي ظ: الموسيقية .

وصفة استخراج النسب العنصرية

هو أن تنظر الحرف الأول من الجدول، ما طبيعته وطبيعة البنت الذي حل فيه، فإن اتفقا، فحسن، وإلا، فاستخرج بين الحرفين نسبة. ويتسع هذا القانون في جميع الحروف الجدولية. وتحقيق ذلك سهل على من عرف قوانينه كما هي مقررة في 5 دائرتها الموسيقية.

ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه في أسوس أوتاد الفلك الأربعة، كما تقدم. واحذر ما يلي الأوتاد، وكذلك السواقط، لأن نسبها مضطربة. وهذا الذي يخرج لك هو أول رتب السريان. ثم تأخذ مجموع العناصر وتخط منها أسس المولدات، يبقى أس عالم الخلق بعد عروضه للمدد الكونية. فتحمل عليه بعض المجردات 10 عن المواد، وهي عناصر الإمداد، يخرج أفق النفس الأوسط. وتطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر، يبقى عالم التوسط. وهذا مخصوص بعالم الأكوان البسيطة، لا المركبة. ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الأوسط، يخرج الأفق الأعلى، فتحمل عليه أول رتب السريان. ثم تطرح من الرابع أول عناصر الإمداد الأصلي، يبقى ثالث رتبة السريان. فتضرب مجموع أجزاء العناصر أبداً في 15 رابع رتبة السريان، يخرج عالم التفصيل، والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل، وكذلك الثالث والرابع؛ فتجمع عوالم التفصيل، وتخط من عالم الكل، تبقى العوالم المجردة. فتقسم على الأفق الأعلى، يخرج الجزء الأول.

ومن هنا يطرّد^(١) العملُ لتأيمه. وله مقدّماتٌ في كُتُبِ ابنِ وَحْشِيَّةَ والبُورِيّ وغيرهما. وهذا التدبيرُ يجري على القانونِ الطَّبِيعِيِّ الحَكَمِيِّ [في]^(ب) هذا الفنّ وغيره من فُنُونِ الحِكْمَةِ الإلهِيَّةِ، وعليه مدارُ وضعِ الزِيَارِحِ الحَرْفِيَّةِ، والصَّنْعَةِ الإلهِيَّةِ، والتَّيْرِجَاتِ الفَلَسَفِيَّةِ.

- 5 [واعلم أنّ هذه الأعمالُ كلّها إنّما يوصلُ^(ج) بها إلى حُصُولِ جوابٍ مُطابِقٍ للسَّوَالِ في المَعْنَى فَقَطْ، لا أَنَّهُ يُعْتَرِ بها على غَيْبٍ. وإنّما هي من قَبِيلِ المُلْحِ، كما تقدّمَ لنا أوّلَ الكتابِ. وكذلك لَيسَتْ من عِلْمِ السَّمِيَاءِ، كما يَتَنَاهَا^(د). / واللّهُ [المُلهِمُ]^(هـ)، وبه المُسْتَعَانُ، وعليه التَّكْلَانُ. وحسبنا اللّهُ ونعم الوكيلُ.] [363]

30 • عِلْمُ الكِيمِيَاءِ

- 10 وهو عِلْمٌ يَنْظُرُ في المادَّةَ الَّتِي يَتِمُّ بها كَوْنُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بالصَّنَاعَةِ، وَيُشْرَحُ العملَ الَّذِي يَوْصِلُ إلى ذلك. فَيَتَصَفَّحُونَ المَكُونَاتِ كُلَّهَا بعدَ مَعْرِفَةِ أُمُورِهَا وَقُوَّاهَا، لَعَلَّهُمْ يَغْتَرُونَ على المادَّةِ المُسْتَعِدَّةِ لذلك، حَتَّى من الفَضَلَاتِ الحَيَوَانِيَّةِ، كالعِظَامِ والرِّيشِ والشَّعْرِ والْبَيْضِ والعَذِرَاتِ، فَضْلاً عن المعادِنِ.
- ثمَّ يشرحُ الأعمالَ الَّتِي تَخْرُجُ بها تِلْكَ المادَّةُ من القُوَّةِ إلى الفِعْلِ، مِثْلَ حَلِّ
- 15 الأَجْسَامِ إلى أَجْزَائِهَا الطَّبِيعِيَّةِ بالتَّضْعِيدِ والتَّقْطِيرِ، وَجَمْدِ الذَّائِبِ منها بالتَّكْلِيسِ، وإِنْمَاءِ الصُّلْبِ بالفِهْرِ والصَّلَايَةِ، وَأَمْثَالِ ذلك.

(١) ج: تَطَرَّد (ب) ظ: و (ج) ج: توصل (د) من حاشية ع، ومذكورة في ج، وسقطت من ط ي (هـ) ظ: المُتَمِّ.

وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعي يُسمونه الأكسير،
 وأنه يلقي على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد
 القريب من الفعل، مثل الرصاص والقصدير والنيحاس، بعد أن يُحمى بالنار، فيعود
 ذهباً إبريزاً. ويكتون عن ذلك الأكسير إذا لغزوا اصطلاحاتهم بالروح، وعن الجسم
 الذي يلقي عليه بالجسد. فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي
 5 الذي يُقَلَّب هذه الأجساد المستعدة إلى صورة الذهب والفضة، هو علم الكيمياء.

وما زال الناس يؤثفون فيها قديماً وحديثاً. وربما يُعزى فيها الكلام إلى من
 ليس من أهلها. وإمام المدونين فيها عندهم جابر بن حيان، حتى إنهم يخصونها به،
 فيُسمونها علم جابر. وله فيها سبعون رسالة، كلها شبيهة بالألغاز. وزعم أنه لا يفتح
 10 مُقفلها إلا من أحاط علماً بجميع ما فيها.

والطغرائي، من حكماء المشرق المتأخرين، له فيها دواوين ومناظرات مع أهلها
 وغيرهم من الحكماء. وكتب فيها منسلة المجريطي، من حكماء الأندلس، كتابه الذي
 سماه رتبة الحكيم، وجعله قريناً / لكتابة الآخر في السخر والطلسمات، الذي سماه
 غاية الحكيم. وزعم أن هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة، وثمرتان للعلوم، ومن
 15 لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة أجمع⁽¹⁾.

وكلامه في ذلك الكتاب، وكلامهم أجمع في تواليهم، هي ألغاز يتعذر فهمها
 على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك. ونحن نذكر سبب عدولهم إلى هذه الرموز

(1) غاية الحكيم 6.

والألغاز. ولابن المغيرة، من أئمة هذا الشأن، كلمات شغريّة، رويها على حروف
المعجم، من أبدع ما يجيء في الشعر، ملغوزة كلها لغز الأحاجي والمعاية، فلا تكاد
تفهم.

وقد ينسبون للغزالي [رحمه الله] ^(أ) بعض التواليف فيها. وليس ذلك بصحيح،
لأن الرجل لم تكن مداركه العالية لتقف عن ^(ب) خطأ ما يذهبون إليه حتى يتشجله. 5
وربما نسبوا بعض المذاهب والأقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية، ربيب مروان
ابن الحكم. ومن المعلوم البين أن خالداً من الجيل العربي، والبداءة إليه أقرب،
فهو بعيد عن العلوم والصناعات بالجملة، فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على
معرفة طبائع المركبات وأمزجتها؛ وكثب التأظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم
تظهر بعد ولم تترجم. اللهم إلا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك 10
الصناعية تشبهه ^(ج) باسمه، فممكن.

وأنا أثقل لك هاهنا رسالة ⁽¹⁾ أبي بكر بن بشرون لابن السّمح في هذه

(أ) من ي (ب) ج: على (ج) هنا يابض بقدر كلمة في ع .

(1) كتب أبو بكر محمد بن بشرون المخرطي كتاباً أو رسالة "سير الصنعة" - كما سماه - في الكيمياء لتلميذه
موسى (?). وسماه حاجي خليفة: "سير الكيمياء" وذكر مستهلّه المطابق (2: 989). وليس في الرسالة
المحفوزة بتركيا في مكتبة بشير آغا 505 ذكر لأبي القاسم أصبغ بن السّمح المهندس الغزنائي الذي ذكر
ابن خلدون أنّه وضعها له. ولم يؤثر عن ابن السّمح أنّه اشتغل بغير الهندسة وعلم العدد والفلك ووضع
الأرياح.

ويبدأ التطابق الجزئي بين هذا النص والرسالة المشار إليها، من فصل التدبير (ص: 396) مع
تصرف في النقل بالاختيار وإعادة الصياغة. فأشرنا للفروق ورمزنا لها بحرف "ش".

الصَّنَاعَة، وكلاهما من تَلْمِيزٍ مَسْلُومَةٍ، فَتَسْتَدِلُّ مِنْ كَلَامِهِ فِيهَا عَلَى مَا أَذْهَبَ إِلَيْهِ فِي شَأْنِهَا إِذَا أُعْطِيَتْهُ حَقُّهُ مِنَ التَّأْمُلِ.

قال ابنُ بِشْرُونَ، بعدَ صُدْرِ مِنَ الرِّسَالَةِ خَارِجٍ عَنِ الْغَرَضِ:

والمَقْدَمَاتُ الَّتِي لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْكَرِيمَةِ قَدْ ذَكَرَهَا الْأَوَّلُونَ، وَاقْتَصَصَ جَمِيعُهَا أَهْلُ
5 الْفَلَسَفَةِ مِنْ مَعْرِفَةِ تَكْوِينِ الْمَعَادِنِ وَتَخَلُّقِ الْأَخْجَارِ وَالْجَوَاهِرِ، وَطَبَاعِ الْبِقَاعِ
وَالْأَمَاكِينِ، فَمَتَعْنَا اشْتِهَارَهَا مِنْ / ذِكْرِهَا. وَلَكِنْ أُبَيِّنُ لَكَ مِنْ هَذِهِ الصَّنِيعَةِ ⁽¹⁾ مَا يَحْتَاجُ
إِلَيْهِ، فَتَبْدَأُ بِمَعْرِفَتِهِ.

[364]

فَقَدْ قَالُوا: يَنْبَغِي لِطُلَّابِ هَذَا الْعِلْمِ أَنْ يَعْلَمُوا [أَوَّلًا] ^(ب) ثَلَاثَ خِصَالٍ. أَوَّلُهَا:
هَلْ تَكُونُ؟ وَالثَّانِيَةُ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَكُونُ؟ وَالثَّلَاثَةُ: كَيْفَ تَكُونُ؟ فَإِذَا عَرَفَ هَذِهِ
10 الثَّلَاثَ وَأَحْكَمَهَا، فَقَدْ ظَفِرَ بِمَطْلُوبِهِ، وَبَلَغَ نَهَائَتَهُ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ.
فَأَمَّا الْبَحْثُ عَنْ وُجُودِهَا وَالْاِسْتِدْلَالُ عَلَى مَكُونِهَا، فَقَدْ كَفَيْتَاكَ بِمَا بَعْثْنَا بِهِ
إِلَيْكَ مِنَ الْإِكْسِيرِ.

وَأَمَّا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَكُونُ؟، فَإِنَّمَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ الْبَحْثَ عَنْ الْحَجَرِ الَّذِي
يُمْكِنُهُ الْعَقْلُ، وَإِنْ كَانَ الْعَمَلُ مَوْجُوداً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِالْقُوَّةِ، لِأَنَّهَا مِنَ الصَّبْغِ الْأَزْبَعِ،
15 مِنْهَا تَرَكَّبَتْ ابْتِدَاءً وَإِلَيْهَا تَرْجَعُ انْتِهَاءً. وَلَكِنْ مِنَ الْأَشْيَاءِ مِنْ تَكُونُ فِيهِ بِالْقُوَّةِ وَلَا
تَكُونُ بِالْفِعْلِ. وَذَلِكَ أَنَّ مِنْهَا مَا يُمَكِّنُ تَفْصِيلَهَا، وَمِنْهَا مَا لَا يُمَكِّنُ تَفْصِيلَهَا. فَالَّتِي
يُمْكِنُ تَفْصِيلُهَا تُعَالِجُ وَتُدَبِّرُ، وَهِيَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ. وَالَّتِي لَا يُمَكِّنُ

(1) ج: الصَّنَاعَةُ (ب) سَقَطَ مِنْ ظ.

تفصيلها لا تُعالج ولا تُجبر، لأنها فيها بالقوة فقط. وإنما لم يمكن تفصيلها لاستغراق بعض طبائعها في بعض، وفُضِّلَ قُوَّةُ الكبير منها على الصغير. فينبغي لك، وفقك الله، أن تعرف أوفق الأجزاء المنفصلة التي يمكن منها العمل، وجنسه، وقوته، وعمله، وما يُدبّر من الحن والعقد والتنقية والتكليس والتنشيف والتقليب. فإن من لم يعرف هذه الأصوار التي هي عماد هذه الصنعة، لم ينجح ولم يظفر بخير أبدًا. 5

وينبغي لك أن تعلم: هل يمكن أن يُستعان عليه بغيره، أم يُكتفى به وحده؟ وهل هو واحد في الابتداء، أم شاركة غيره، فصار في التذير واحداً، فيُسمى حَجَرًا.

وينبغي لك أن تعلم كيفية عمله، وكمية أوزانه، وأزمانه، وكيف تركيب الروح فيه، وإدخال النفس عليه، وهل تُقدر التآزر على تفصيلها منه بعد تركيبها؟ فإن لم تُقدر فلائي / علة، وما السبب الموجب لذلك؟ فإن هذا هو المطلوب، فافهم. [364ب]

واعلم، أن الفلاسفة كلهم مدحت النفس، وزعمت أنها المدبرة للجسد والحاملة له والدافعة عنه وإعالة فيه. وذلك أن الجسد إذا خرجت النفس منه مات وبَرَدَ، فلم يُقدِر على الحركة والامتناع من غيره، لأنه لا حياة فيه ولا نور. وإنما ذكرت الجسد والنفس، لأن هذه الصنعة شبيهة بجسد الإنسان الذي تركيبه 15 على الغذاء والعشاء. وفوائمه وقوامه بالنفس الحية الثورانية التي بها يفعل العظام والأشياء المتقابلة التي لا يقدر عليها غيرها بالقوة الحية التي فيها. وإنما انفعل الإنسان لاختلاف تركيب طبيعته. ولو اتفقت طبائعه وسلمت من الأغراض والتضاد، لم

تُدر النفس على الخروج من جسده، ولكن خالداً باقياً. فسبحان مُدبّر الأشياء
تعالى!

واعلم، أن الطباع التي يحدث عنها هذا العمل، كيفية دافعة في الابتداء،
فيضيتها، محتاجة إلى الانتهاء. وليس لها إذا صارت في هذا الجسد⁽¹⁾ أن تستحيل
5 إلى ما منه تركبت، كما قلنا آنفاً في الإنسان. لأن طباع هذا الجوهر قد لزم بعضها
بعضاً وصارت شيئاً واحداً شبيهاً بالنفس في قوتها وفعلها، وبالجسد في تركيبه
ومجسسته، بعد أن كانت طباع مفردة بأغياها. فها عجباً من أفاعيل الطباع أن القوة
للضعيف الذي يقوى على تفصيل الأشياء وتركيبها وتأميها. فلذلك قلت: قوي
ضعيف. وإنما وقع التغيير والفناء في التركيب الأول للاختلاف، وعدم ذلك في
10 الثاني للاتفاق.

وقد قال بعض الأولين: التفصيل والتقطيع في هذا العمل حياة وبقاء،
والتركيب موت وفناء. وهذا الكلام دقيق المعنى، لأن الحكيم أراد بقوله: حياة
وبقاء، بخروجه من الغدم إلى الوجود، لأنه ما دام / على تركيبه الأول فهو فان لا
[365] محالة. فإذا ركب التركيب الثاني عدم الفناء. والتركيب الثاني لا يكون إلا بعد
15 التفصيل والتقطيع. فإذن، التفصيل والتقطيع في هذا العمل خاصة. فإذا لقي الجسد
المحلول انبسط فيه بعدم الصورة، لأنه قد صار في الجسد بمنزلة النفس التي لا
صورة لها. وذلك أنه لا وزن له فيه، وسترى ذلك إن شاء الله تعالى.

(1) ج ي: الحد.

وقد ينبغي لك أن تعلم، أن اختلاط اللطيف باللطيف، أهون من اختلاط الغليظ بالغليظ. وإنما أريد بذلك التّشاكل في الأرواح والأجساد، لأن الأشياء تتصل بأشكالها. وذكرت لك ذلك لتعلم أن العمل أوفق وأيسر من الطّباع اللطائف الروحانية منها من الغليظة الجنسية. وقد يتصور في العقل أن الأحجار أقوى وأصبر على النار من الأرواح، كما ترى الذهب والحديد والنحاس أصبر على النار من 5 الكبريت والزّبقي وغيرها من الأرواح. فأقول: إن الأجساد قد كانت أزواجا في بدنها، فلما أصابها حرّ الكيان قلبها أجساداً لرجة غليظة، فلم تقدر النار على أكْلِها، لإفراط غلظها وتلّزجها. فإذا أفرطت النار عليها صيرتها أزواجا كما كانت أول خلقها. وأن تلك الأرواح اللطيفة إن أصابها النار أبقت ولم تقدر على البقاء عليها. فينبغي لك أن تعلم ما صير الأجساد في هذه الحالة، وصير الأرواح في هذه الحال⁽¹⁾. فهو 10 أجل ما تعرفه.

أقول: إنما أبقت تلك الأرواح واحترقت لاشتعالها ولطافتها. وإنما اشتعلت لكثرة رطوبتها، ولأن النار إذا أحست بالرطوبة تعلقت بها، لأنها هوائية تُشاكل النار. ولا تزال [تعتديها]^(ب) إلى أن تنفّى. وكذلك الأجساد إذا أبقت بوصول النار إليها / بقلّة تلّزجها وغلظها. وإنما صارت تلك الأجساد لا تشتعل لأنها مركّبة من 15 أرض وماء صابر على النار بلطيفه، متحد بكثيفه بطول الطّبخ اللّين المازج الأشياء. وذلك أن كلّ متلاشٍ إنما يتلاشى بالنار لمفارقة لطيفه من كثيفه، ودخول بغضه في

(أ) ج: الحالة (ب) كذا في ط، وفي ع ج: تغلب، وفي ي: تغذي به.

بغضٍ على غير التحليل والموافقة. فصار ذلك الانضمام والتدخل مجاورة لا مُمازجة،
فسهل بذلك افتراقهما، كالماء والدَّهن وما أشبههما. وإنَّما وصفت ذلك للتستدلَّ به على
تركيب الطبائع وتثابُلها. فإذا علمت ذلك علماً شافياً فقد أخذت حظك منها.

ويُنبغي لك أن تعلم، أنَّ الأخلاط التي هي طبائع هذه الصنعة موافقة بعضها
5 لبعض، مفضلة من جوهر واحد، يجمعها نظام واحد بتدبير واحد، لا يدخل عليه
غريب في الجزء منه، ولا في الكل، كما قال الفيلسوف: إنَّك إنَّ أحكمت تدبير
الطبائع وتألّفها، ولم تدخل عليها غريباً^(١)، فقد زاع عنها ووقع الخطأ.

واعلم، أنَّ هذه الطبيعة إذا حلَّ لها جسد من قرابتها على ما ينبغي في الحلِّ
حتى يشاكلها في الرقة واللطف، انبسطت فيه وجرت معه حيث ما جرى. لأنَّ
10 الأجساد ما دامت غليظة جافية لا تنبسط ولا تتراوَج. وحلُّ الأجساد لا يكون
بغير الأزواج. فافهم، هذالك الله، هذا القول. واعلم، هذالك الله، أنَّ هذا الحلَّ في
جسد الحيوان هو الحقُّ الذي لا يضمحل ولا ينتقض، وهو الذي يقلب الطبائع
ويُمسكها ويظهر لها ألواناً وأزهاراً عجيبة. وليس كلَّ جسدٍ يحلُّ خلاف هذا هو
الحلُّ التامُّ لأنَّه مخالفٌ للحياة. وإنَّما حلُّه بما يوافقُه ويدفعُ عنه حرق النار، حتى
15 يزول عن الغلظ، وتتقلب الطبائع عن حالاتها إلى ما لها أن تتقلب من اللطف
والغلظ. فإذا بلغت الأجساد نهايتها من التحليل والتلطيف، ظهرت لها هناك قوَّة

(١) وردت هذه الفقرة كذا في ط ع ج ي، والتمورية (الورقة 263)، ونشرة كاترمير (3: 198). وفي نسخة د. عبد الواحد وافي (3: 1202) إضافة لم ترد في أصولنا فأثبتناها في هذه الحاشية، وهي: ولم تدخل عليها غريباً [فقد أحكمت ما أردت إحكمه وقوامه، إذ الطبيعة واحدة لا غريب فيها، فمن أدخل عليها غريباً فقد زاع عنها ووقع [في] الخطأ].

[366] ثَمْسِكَ وَتَغْوُصُ / وَتَقْلِبُ وَتَنْقُذُ . وَكُلُّ عَمَلٍ لَا يَرَى لَهُ مُصَدِّقٌ فِي أَوَّلِهِ فَلَا خَيْرَ

فيه .

وَاعْلَمْ ، أَنَّ الْبَارِدَ مِنَ الطَّبَائِعِ هُوَ لِيُتَبَسَّ الْأَشْيَاءُ وَيَعْقِدَ رَطوبَتَهَا ، وَالْحَارُّ مِنْهَا يُظْهِرُ رَطوبَتَهَا وَيَعْقِدُ يُبْسَهَا . وَإِنَّمَا أَفْرَدْتُ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ ، لِأَنَّهَا فَاعِلَانِ ، وَالرَّطوبَةُ وَالْيُبْسُ مُنْفَعِلَانِ ، وَعَنْ أِنْفِعَالِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ تَحْدُثُ الْأَجْسَامُ وَتَكُونُ . 5 وَإِنْ كَانَ الْحَرُّ أَكْثَرَ فِعْلاً فِي ذَلِكَ مِنَ الْبَرْدِ ، لِأَنَّ الْبَرْدَ لَيْسَ لَهُ ثَقُلُ الْأَشْيَاءِ وَلَا تَحَرُّكُهَا ، وَالْحَرُّ هُوَ عِلَّةُ الْحَرَكَةِ ، وَمَتَى ضَعُفَتْ عِلَّةُ الْكَوْنِ ، وَهِيَ الْحَرَارَةُ ، لَمْ يَتِمَّ مِنْهَا شَيْءٌ أَبَدًا . كَمَا أَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَتِ الْحَرَارَةُ عَلَى شَيْءٍ وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّ بَرْدٌ أَحْرَقَتْهُ وَأَهْلَكَتْهُ . فَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْعِلَّةِ ، اخْتِيجَ إِلَى الْبَارِدِ فِي هَذِهِ الْأَعْمَالِ ، لِيَقْوَى بِهِ ⁽¹⁾ كُلُّ ضِدٍّ عَلَى ضِدِّهِ ، وَيُدْفَعَ عَنْهُ حَرُّ النَّارِ . 10

وَلَمْ تَحْذَرِ الْفَلَاسِيفَةُ أَكْثَرَ شَيْءٍ إِلَّا مِنَ النَّارِ الْمُحْرِقَةِ . وَأَمَرْتُ بِتَظْهِيرِ الطَّبَائِعِ وَالْأَنْفَاسِ وَإِخْرَاجِ دَنَسِهَا وَرُطوبَتِهَا وَنَقْيِ آفَاتِهَا وَأَوْسَاحِهَا عَنْهَا . عَلَى ذَلِكَ اسْتِقَامَ رَأْيُهُمْ وَتَذْيِيرُهُمْ . فَإِنَّ عَمَلَهُمْ إِنَّمَا هُوَ مَعَ النَّارِ أَوَّلًا ، وَإِلَيْهَا يَصِيرُ آخِرًا ، فَلِذَلِكَ قَالُوا : إِنَّا كُمْ وَالنَّارُ الْمُحْرِقَاتِ . وَإِنَّمَا أَرَادُوا بِذَلِكَ نَفْيَ الْآفَاتِ الَّتِي مَعَهَا ، فَتَجْمَعُ عَلَى الْجَسَدِ آفَتَيْنِ ، فَيَكُونُ أَسْرَعُ لِهَلَاكِهِ . وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّمَا يَتَلَاشَى وَيَفْسُدُ لِتَضَادِّ 15 طَبَائِعِهِ وَاخْتِلَافِهِ . فَيَتَوَسَّطُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ ، فَلَمْ يَجِدْ مَا يَقْوِيهِ وَيُعِينُهُ إِلَّا قَهْرَتَهُ الْآفَةُ وَأَهْلَكَتْهُ .

(1) ظ : بها .

واعلم أن الحكماء ذكرت تزداد الأزواج على الأجساد مراراً، ليكون الزم إليها وأقوى على قتال النار إذا هي باشرتها [عند^(١) الألفة، أعني بذلك النار العنصرية، فاعلمه.

ولنقل الآن على الحجر الذي يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة، وقد
5 اختلّفوا فيه، فمنهم من زعم أنه في الحيوان، ومنهم من زعم أنه في النبات، ومنهم من
زعم أنه في المعادن، ومنهم من / زعم أنه في الجميع. وهذه الدعوى^(ب) ليست بنا
حاجة إلى استقصائها ومناظرة أهلها عليها، لأن الكلام يطول جداً. وقد قلت فيما
تقدم: إن العمل من كل شيء بالقوة، لأن الطبايع موجودة في كل شيء، فهو
كذلك.

10 فريد أن تعلم من أي شيء يكون العمل بالقوة والفعل، فنقصد إلى ما قاله
الحراشي، أن الصنغ كله أحد صبغين، إما صبغ جسد، كالزعفران في الثوب الأبيض
حتى يحول فيه، وهو مضمحل منتقض التركيب، والصبغ الثاني ثقلب الجوهر من
جوهر نفسه إلى جوهر غيره ولونه، كتقلب الشجر التراب إلى نفسه^(ج)، وقلب
الحيوان النبات إلى نفسه، حتى يصير التراب نباتاً ويصير النبات حيواناً، ولا
15 يكون إلا بالروح الحي والكيان الفاعل الذي له توليد الأجرام وقلب الأعيان.

فإذا كان هذا هكذا، فأقول: إن العمل لا بد أن يكون إما في الحيوان، وإما
في النبات. وبزهان ذلك، أنهما مطبوعان على الغذاء، وبه قوامهما وثمّهما.

(١) ط: عنه (ب) في ع ج ي: الدعاوى (ج) من ع ج ي، وسقط من ط.

فأما التّبات، فليس فيه ما في الحيوان من اللّطافة والقوّة. ولذلك قلّ خوضُ
الحكماء فيه. وأما الحيوان، فهو آخر الاستحالات الثلاثة ونهايتها. وذلك أنّ المعدن
يسْتَحِيلُ نباتاً، والتّبات يَسْتَحِيلُ حَيَواناً، والحيوان لا يَسْتَحِيلُ إلى شيءٍ هو
أَلْطَفُ منه، إلّا أن يَنْعَكِسَ راجعاً إلى الغِلْظ، وأنّه أيضاً لا يوجد في العالم شيءٌ
تتعلّق به الرّوح الحيّة غيرُه. والرّوح أَلْطَفُ ما في العالم، ولم تتعلّق الرّوح بالحيوان 5
إلّا بمشاكلته إيّاها. فأما الرّوح التي في التّبات فإنّها يسيرة، فيها غِلْظٌ وكثافة، وهي
مع ذلك مستغرقةٌ كامنةٌ فيه، لِيُغْلِظَها وِغْلَظُ جَسَدِ التّبات. فلم يُقَدِّرْ على الحركةِ
لِيُغْلِظَها وِغْلَظُ رُوحِه. والرّوح المتحرّكة أَلْطَفُ من الرّوح الكامنة كثيراً. وذلك أنّ
المتحرّكة لها قبولُ الغذاء والتّثَنُّلِ والتّثَنِّيسِ، وليس للكامنة غيرُ قبولِ الغداء وحده،
ولا تجري إذا قيسَت بالرّوح الحيّة إلّا كالأرض عند الماء. كذلك / التّبات عند 10
الحيوان. فالعملُ في الحيوان أَعْلَى وأَرْفَعُ وأَهْوَنُ وأَيْسَرُ. فينبغي للعاقل إذا عَرَفَ
ذلك أن يُجَرِّبَ ما كان سهلاً ويترك ما يَخْشَى فيه عُسْراً.

واعلم أنّ الحيوان عند الحكماء يَنْقَسِمُ أَقْساماً: من الأمّهات التي هي الطّبايعُ،
والحديثة التي هي المواليدُ. وهذا معروفٌ بيسير الفهم. فلذلك قَسَمَتِ الحكماءُ
العناصرَ والمواليدَ أَقْساماً حَيَّةً، وأَقْساماً مَيِّتَةً. فَجَعَلُوا كُلَّ مُتَحَرِّكٍ فاعِلاً حَيّاً، وكلَّ 15
ساكنٍ مَفْعُولاً مَيِّتاً. وقَسَمُوا ذلك في جميع الأشياء، وفي الأجساد الدّائِية^(١)، وفي
العقاقير المعدّية. فَسَمَّوْا كُلَّ شيءٍ يذوبُ في النارِ وَيَطِيرُ وَيَسْتَعِيلُ، حَيّاً، وما كان

(١) في ي: الدائية، وأصلها في ع بخطه: الدائيه .

على خلاف ذلك سَمَّوْهُ مَيْتًا. فَأَمَّا الْحَيَوَانُ وَالنَّبَاتُ، فَسَمَّوْهُ كُلَّ مَا انْفَصَلَ مِنْهَا⁽¹⁾
طَبَائِعَ أَرْبَعًا، حَيًّا، وَمَا لَمْ يَنْفَصِلْ سَمَّوْهُ مَيْتًا.

ثُمَّ إِنَّهُمْ طَلَبُوا جَمِيعَ الْأَقْسَامِ الْحَيَّةِ، فَلَمْ يَجِدُوا لَوْفِقِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مِمَّا يَنْفَصِلُ
فَصُولًا أَرْبَعَةً ظَاهِرَةً لِلْعِيَانِ ، وَلَمْ يَجِدُوا غَيْرَ الْحَجَرِ الَّذِي فِي الْحَيَوَانِ . فَبَحْثُوا عَنْ
5 جَنْسِهِ حَتَّى عَرَفُوهُ وَأَخَذُوهُ وَدَبَّرُوهُ، فَتَكَيَّفَ لَهُمْ مِنْهُ الَّذِي أَرَادُوا.

وَقَدْ يَتَكَيَّفُ مِثْلُ هَذَا فِي الْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ بَعْدَ جَمْعِ الْعَقَاقِيرِ وَخَلْطِهَا، ثُمَّ
تُفَصَّلُ بَعْدَ ذَلِكَ. فَأَمَّا النَّبَاتُ، فَهُنَا مَا يَنْفَصِلُ بِيَعْضِ هَذِهِ الْفُصُولِ، مِثْلُ الْأَشْنَانِ.
وَأَمَّا الْمَعَادِنُ، فَفِيهَا أَجْسَادٌ وَأَرْوَاحٌ وَأَنْفَاسٌ إِذَا مُزِجَتْ وَدُبِّرَتْ كَانَ مِنْهَا مَا لَهُ تَأْثِيرٌ.
وَقَدْ دَبَّرْنَا كُلَّ ذَلِكَ، فَكَانَ الْحَيَوَانُ مِنْهَا أَعْلَى وَأَرْقَعَ، وَتَدْبِيرُهُ أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ. فَيَتَّبِعُنِي
10 أَنْ تَعْلَمَ مَا هُوَ الْحَجَرُ الْمَوْجُودُ فِي الْحَيَوَانِ، وَطَرِيقُ وَجُودِهِ أَنَّا بَيِّنَّا أَنَّ الْحَيَوَانَ أَرْفَعُ
الْمَوَالِيدِ، وَكَذَلِكَ مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ، فَهُوَ أَلْطَفُ مِنْهُ، كَالنَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ، إِنَّمَا كَانَ
النَّبَاتُ أَلْطَفَ مِنَ الْأَرْضِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ جَوْهَرِهِ الصَّافِي وَجَسَدِهِ اللَّطِيفِ،
فَوَجَبَ لَهُ بِذَلِكَ اللَّطَافَةُ وَالرَّقَّةُ. وَكَذَلِكَ هَذَا الْحَجَرُ الْحَيَوَانِيُّ بِمَنْزِلَةِ النَّبَاتِ فِي التَّرَابِ.
/ وَبِالْجُمْلَةِ ، إِنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَيَوَانِ شَيْءٌ يَنْفَصِلُ طَبَائِعَ أَرْبَعًا غَيْرُهُ. فَافْهَمْ هَذَا الْقَوْلَ،
15 فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يَخْفَى إِلَّا عَلَى جَاهِلٍ بَيْنَ الْجَهَالَةِ، وَمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ.

فَقَدْ أَخْبَرْتُكَ مَا هِيَ هَذِهِ الْحَجَرِ، وَأَعْلَمْتُكَ جَنْسَهُ، وَأَنَا أُبَيِّنُ لَكَ وَجْهَ تَدَابِيرِهِ
حَتَّى يَكْمَلَ لَكَ الَّذِي شَرَطْنَاهُ عَلَى أَنْفُسِنَا مِنَ الْإِنْصَافِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ .

(1) ي: منه .

التدبيرُ على بركة الله تعالى:

حُذِ الْحَجَرُ الْكَرِيمَ، فَأُوْدِعْهُ الْقِرْعَةَ وَالْإِنْبِيقَ، وَفَضِّلْ طِبَائِعَهُ الْأَرْبَعَ الَّتِي هِيَ: الماء والهواء والأرض والنَّارُ، وَهِيَ: الْجَسَدُ وَالرُّوحُ وَالتَّنَفُّسُ وَالصَّنْعُ. فَإِذَا عَزَلْتَ [الماء] ^(أ) عَنْ ^(ب) التُّرَابِ، وَالْهَوَاءَ عَنْ ^(ب) النَّارِ، فَارْفَعْ كُلَّ وَاحِدٍ فِي إِنَائِهِ عَلَى حِدَةٍ. وَخُذِ الْهَابِطَ أَسْفَلَ الْإِنَاءِ، وَهُوَ الثُّقُلُ، فَاغْسِلْهُ بِالنَّارِ الْحَارَّةِ ^(ج) حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ 5 سَوَادُهُ وَيَزُولَ غِلْظُهُ وَجَفَاؤُهُ، وَتَبَيُّضُهُ تَبَيُّضاً مُحْكَمًا، وَطَيَّرْ عَنْهُ فُضُولَ الرِّطوباتِ الْمُسْتَحِجَّةِ فِيهِ، فَإِنَّهُ يَصِيرُ عِنْدَ ذَلِكَ مَاءً ^(د) أَبْيَضَ لَا ظُلْمَةَ فِيهِ وَلَا وَسَخَ وَلَا تَضَادًا. ثُمَّ اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الطَّبَائِعِ الْأُولِ ^(هـ) الصَّاعِدَةِ مِنْهُ، فَطَهِّرْهَا أَيْضًا مِنَ السَّوَادِ وَالتَّضَادِ، وَكَرِّرْ عَلَيْهَا الْغَسْلَ ^(و) وَالتَّضَعِيدَ حَتَّى تَلْطَفَ وَتَرِقَّ وَتَضْفُو. فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ، فَقَدْ 10 فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ ^(ز).

فابداً بالتركيب الذي هو مدار العمل؛ وذلك أَنَّ التَّرْكِيبَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالتَّزْوِيجِ وَالتَّعْفِينِ: فَأَمَّا التَّزْوِيجُ، فَهُوَ اخْتِلَاطُ اللَّطِيفِ بِالْغَلِيظِ. وَأَمَّا التَّعْفِينُ: فَهُوَ التَّمْشِيقُ وَالسَّخْقُ حَتَّى يَخْتَلَطَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ وَيَصِيرَ شَيْئاً وَاحِداً لَا اخْتِلَاطَ فِيهِ ^(ح) وَلَا نَقْصَانٌ ^(ط)، بِمَنْزِلَةِ الْإِمْتِزَاجِ بِالْمَاءِ ^(ي). فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقْوَى الْغَلِيظُ عَلَى إِمْسَاكِ اللَّطِيفِ، وَيَقْوَى الرُّوحُ عَلَى مُقَابَلَةِ النَّارِ وَبَصِيرُ عَلَيْهَا، وَتَقْوَى النَّفْسُ عَلَى الْغَوْصِ فِي الْأَجْسَادِ 15 وَاللَّدَيْبِ فِيهَا.

(أ) من ع، وسقط من ظ (ب) في ش (١٨٩): من (ج) ش: فاعسله بالنار والمياه (د) ش: كلساً (هـ) ش: الأولى (و) ش: الغسل مراراً (ز) ش: فتح الله لك وعليك (ح) ش: لا خلاف فيها (ط) ش: ولا انفصال (ي) ش: بمنزلة الماء مزج بالماء.

وإنما وُجد^(أ) ذلك بعد التركيب ، لأنَّ الجسدَ المخلولَ لما اُزدوج بالروح [مازجَه]^(ب) بجميع أجزائه ، ودخلَ بعضها في بعضٍ لتشاكلها ، فصارَ شيئاً / واحداً. [368]

ووجبَ من ذلك أن يعرضَ للروح من الصِّلاح والفسادِ والبقاء والثبوتِ ، ما يعرضُ للجسدِ لموضعِ الافتراج . وكذلك النفسُ إذا امتزجتَ بهما ودخلتَ فيهما بخدمة التدبير ، اختلطتَ^(ج) أجزاءُهما بجميع أجزاء^(د) الآخرين ، أعني الروح والجسدَ^(هـ) ، وصارت هي وهما شيئاً واحداً لا اختلافَ فيه ، بمنزلةِ الجزءِ الكلِّي^(و) الذي سلِمَتْ طبائعُه وانفقتَ أجزاءُه.

فإذا لقيَ هذا المركَّبُ الجسدَ المحلولَ ، وألحَّ عليه النارُ^(ز) ، وأظهرَ ما فيه من الرطوبةِ على وجهه ، فذاب^(ح) في الجسدِ المحلولِ .^(ح) ومن شأنِ الرطوبةِ^(ح) الاشتعالُ^(ط) وتعلقُ النارِ بها ، فإذا أرادتِ النارُ التعلُّقَ بها ، منعها^(ي) من الاتحادِ بالنفسِ ممازجةَ الماءِ لها ، فإنَّ النارَ لا تتحدُّ بالدهنِ حتَّى يكونَ خالصاً . وكذلك الماءُ من شأنه التَّقوُّرُ من النارِ . فإذا ألحَّت عليه النارُ وأرادتِ تطهيره ، حبسهُ الجسدُ^(ك) اليابسُ الممازجُ له في جوفه ، فمنعه من الطَّيرانِ . فكان الجسدُ علَّةً لإمساكِ الماءِ ، والماءُ علَّةً لبقاء^(ل) الدهنِ ، والدهنُ علَّةً لثباتِ الصَّبغِ . وكان الصَّبغُ علَّةً لظهورِ اللونِ ، وإظهارِ الذَّهبيَّةِ في الأشياءِ^(م) المظلمةِ التي لا نورَ لها ولا حياةَ فيها. 15

(أ) ش: وجب (ب) من ع ر ، وفي ظ: مازجة (ج) ش: واختلطت (د) فراغ في متن ع ، وكُتب ما بين حرفي الدال في الحاشية بخط مغاير مغربي قديم ، ونقلتها في مكانها بقية النسخ (هـ) ش: الجوهر الكلِّي (و) ش: الحر (ز) ش: فدب (ح) التعليق المتقدم نفسه على نسخة ع (ط) ش: الاشتعال بالنار (ي) ش: منعها (ك) ش: حبسه في جوف الجسد (ل) ش: لإمساك (م) ش: الأجساد .

فهذا هو الجسدُ المستقيمُ، وهكذا يكونُ العملُ.

وهذه البيضةُ التي سألتَ عنها، وهي التي سَمَّتها الحكماءُ بيضةً، وإياها يَغْنُون، لا يَبْيضُ الدَّجاجة.

واعلم^(١) أَنَّ الحكماءَ لم^(ب) تُسَمِّها بهذا الاسمِ لغيرِ مَعْنَى، بل أَشَبَّهَها . * ولَقَدْ سَأَلْتُ مَسَلَمَةَ عَنْ ذَلِكَ يَوْمًا وَلَيْسَ عِنْدَهُ غَيْرِي ، فَقُلْتُ لَهُ : أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ، 5 أَخْبِرْنِي: لِأَيِّ شَيْءٍ سَمَّيْتَ الْحَكَمَاءَ مَرْكَبَ الْحَيَوَانِ بِيضَةً، أَخْتِيَارًا مِنْهُمْ لِذَلِكَ أَمْ لِمَعْنَى دَعَاهُمْ إِلَيْهِ ؟ فَقَالَ : بَلْ لِمَعْنَى غَامِضٍ . فَقُلْتُ: أَيُّهَا الْحَكِيمُ، وَمَا ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْمُنْفَعَةِ وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَى الصَّنَاعَةِ حَتَّى شَبَّهُوهَا وَسَمَّوْهَا بِيضَةً ؟ فَقَالَ : لِشَبَّهِهَا وَقَرَابَتِهَا مِنَ الْمَرْكَبِ، فَفَكَّرْتُ فِيهِ، فَإِنَّهُ سَيُظْهِرُ لَكَ مَعْنَاهُ. / فَبَقِيتُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَتَفَكِّرًا

[368ب]

10 لَا أَقْدِرُ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى مَعْنَاهُ. فَلَمَّا رَأَى مَا بِي مِنَ الْفِكْرِ، وَأَنَّ نَفْسِي قَدْ مَضَتْ فِيهَا، أَخَذَ بَعْضُدي وَهَرَّني هَزَّةً خَفِيفَةً، وَقَالَ لِي: يَا أَبَا بَكْرَ، ذَلِكَ لِلنَّسَبَةِ الَّتِي بَيْنَهُمَا فِي كَيْتَةِ الْأَلْوَانِ عِنْدَ امْتِزَاجِ الطَّبَائِعِ وَتَأْلِيفِهَا. فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ، انْجَلَى عَنِّي الظُّلْمَةُ، وَأَضَاءَ لِي نُورٌ قَلْبِي، وَقَوِيَ عَقْلِي عَلَى فَهْمِهِ. فَهَضْتُ شَاكِرًا لِلَّهِ عَلَيْهِ إِلَى مَنْزِلِي، وَأَقَمْتُ عَلَيْهِ شَكْلًا هَنْدَسِيًّا يَتَبَرَّهَرُنْ بِهِ صِحَّةٌ مَا قَالَهُ مَسَلَمَةُ. وَأَنَا وَاضِعُهُ لَكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ * (ج).

15

مثال ذلك^(٣)، أَنَّ الْمَرْكَبَ إِذَا تَمَّ وَكَمَّلَ كَانَ [نَسَبَةً]^(هـ) مَا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ إِلَى مَا فِي الْبَيْضَةِ مِنْ طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ، كَنَسَبَةِ^(و) مَا فِي الْمَرْكَبِ مِنْ طَبِيعَةِ النَّارِ إِلَى

(١) سقط من ج (ب) سقط من ظ (ج) ما بين التجميعين لا يوجد في الرسالة ش (د) سقط من ج (هـ) من ج ي ر وحاشية ع، وفي ظ ومتن ع قبل التعديل: طبيعة (و) ش: ونسبة .

ما في ^(أ) البيضة من طبيعة ^(ب) النار. وكذلك الطبعتان الأخريان ^(ج)، الأرض والماء، فأقول: إنَّ كلَّ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ على هذه الصِّفة، فهما مُتَشَابِهَانِ ^(د).

ومثال ذلك، أن تجعل سطح البيضة هَرَزَ وَح ^(هـ). فإذا أردنا ذلك، فإنَّا نأخذُ أقلَّ الطبائع، المركَّب ^(و)، وهي طبيعة اليبوسة، ونُضِيفُ إليها مثلها من طبيعة الرُّطوبة، ونُدَبِّرُهما حتى تُنَشَّفَ طبيعة اليبوسة طبيعة الرُّطوبة وتقبل ^(ز) قُوَّتِها. وكأنَّ 5 في هذا الكلام رمزاً، ولكنه لا يخفى عليك. ثم تحمل ^(ح) [عليها جميعاً مثلثيها ^(ط) من الروح وهو الماء، فيكون الجميع ^(ي) ستة أمثال ^(ك)؛ ثم تحمل ^(ل) على الجميع بعد التدبير مثلاً من طبيعة الهواء التي هي النفس، وذلك ثلاثة أجزاء. فيكون الجميع ^(م) تسعة أمثال اليبوسة بالقوة. وتجعل تحت كلِّ ضلعين من هذا المركَّب 10 الذي طبيعته مُحِيطَةٌ بـ سطح المركَّب طبيعتين، فتجعل أولاً الضلعين المحيطين بسطحه طبيعة الماء وطبيعة الهواء، وهما ضلعان آخ ^(ن)، وسطح أبجد ^(س). وكذلك الضلعان المحيطان بـ سطح البيضة اللذان هما الماء والهواء ضلعان هَرَزَ وَح ^(ع). فأقول: إنَّ أبجد يُشَبِّهُ سطح هَرَزَ وَح ^(ف) طبيعة الهواء التي تُسمى نفساً، وكذلك بَ ج ^(س) من سطح المركَّب. والحكماء لم تسم شيئاً باسم شيء إلا 15 لشيء به.

(أ) ش: كنسبة ما في (ب) من ع ر، وسقط من ظ (ج) ش: الطبعتين الأخريين (د) ش: وكل شَيْئَيْنِ متشابهين فهما متناسبان (هـ) ش: هَرَزَ وَح (و) ش: أقل طبائع المركَّب (ز) ش: وتأخذ (ح) ش: 91ب: تحمل (ط) ش: مثلي وزنها (ي) ج: الجميع منه (ك) ش: أمثال اليبوسة (ل) من ع (م) ظ: الجمع (ن) في ظ: آخ د ج، وفي ي ج: آخ جـ، وفي ش: آ ب ج (س) ش: آ ب ج د (ع) ي: هَرَزَ وَح (ف) ي: هَرَزَ وَح (س) ع ج ي متصلة: بج.

*والكلمات التي سألت عن شرحها: الأرض المقدسة هي المنعقدة من الطبائع

[٣٦٩] العلوية والسفلية . / والتحاس، هو الذي أخرج سواده وقُطِعَ حتى صار هباءً ، ثم

حُمِرَ بالزجاج فصار نحاساً . والمغنيسيا حجرهم الذي تجمّد فيه الأزواح وتُخرّجه الطبيعة

العلوية التي تُسجّن فيها الأرواح لتقاتل عليها النار . والفزفرة لونٌ أحمرّ قانٍ يحدثه

للكيان^(١) . والرصاص حجر له ثلاث قوى مختلفة الشخص ، ولكنها متشاكلة⁵

متجانسة . فالواحدة روحانية نيرة صافية ، وهي الفاعلة . والثانية نفسانية ، وهي

متحركة حساسة ، غير أنها أغلظ من الأولى ومركزها دون مركز الأولى . والثالثة

قوة أرضية جاسية قابضة منعكسة إلى مركز الأرض لثقلها . وهي الماسكة الروحانية

والنفسانية جميعاً والمحيطة بهما . وأما سائر الباقية ، فمبتدعة ومخترة ، إلباساً على

الجاهل . ومن عرّف المقدمات استغنى عن غيرها . فهذا جميع ما سألتني عنه قد¹⁰

بعثت به إليك مفسراً؛ ونزجو بتوفيق الله أن تبلّغ أملك . والسلام* (ب).

انتهى كلام ابن بشرن . وهو من كبار تلميذ مَسْلَمَةَ المَحرِيطي ، شيخ

الأندلس في علوم الكيمياء والسمياء^(ج) والسحر في القرن الثالث وما بعده .

وأنت ترى ، كيف صرف ألفاظهم كلها في الصناعة إلى الزمر والألغاز التي لا

تكاد تبين ولا تُعرف؛ وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية¹⁵ .

والذي يجب أن يُعتَقَد في أمر الكيمياء ، وهو الحق الذي يُعضّده الواقع ،

أنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرّفها في عالم الطبيعة ، إمّا من

(١) ظ: الكيان (ب) ما بين التجمين لم يرد في الرسالة ش (ج) سقط من ج .

نُوع الكرامة إن كانت النفوس خَيْرَةً، أو من نوع السَّحَر، إن كانت شَرِّيةً فاجرةً.

فأما الكرامة، فظاهرة؛ وأما السَّحَر، فلأنَّ السَّاحِرَ كما ثبت في مكان تحقيقه، يَقلِبُ الأعيانَ المادِّيَّةَ بِقُوَّتِهِ السَّحَرِيَّةِ، ولا بُدَّ له مع ذلك عندهم من مادةٍ يقع فعله السَّحَرِيُّ فيها؛ كتخليق بغض الحيوانات من مادة التراب أو الشَّعر 5 والنبات، وبالجملة من غير / مادَّتها المخصوصة بها، كما وقع لسحرة فزعون في الجبال والعصي، وكما يُنقل عن سحرة السودان والهنود في قاصية الجنوب، والتُّرك في قاصية الشمال، أنهم يَسحرون الجوّ للأمطار، وغير ذلك.

[369ب]

ولما كانت هذه تَخْلِيقاً للذهب في غير مادَّته الخاصَّة به، كان من قبيل السَّحَر. والمتكلِّمون فيه من أعلام الحكماء، مثل جابر ومسلمة ومن كان قبلهم من حُكَّاء 10 الأمم، إنَّما نَحَوْا هذا المنحَى. ولهذا كان كلامهم فيه إلغازاً، حَدَرًا عليها من إنكار الشرائع على السَّحَر وأنواعه، لا أنَّ ذلك يرجع إلى الضَّناتِ بها، كما هو رأي من لم يذهب إلى التَّحقيق في ذلك.

وانظر كيف سَمَّى مسلمة كتابه فيها رُتْبَةً الحَكيم، وسَمَّى كتابه في السَّحَر 15 والطَّلسمات غاية الحَكيم، إشارةً إلى عُموم مَوْضوع الغاية وخُصوص مَوْضوع هذه. لأنَّ الغاية أعلى من الرُّتْبَةِ. وكأنَّ مسائل الرُّتْبَةِ بعض من مسائل الغاية، أو تشاركهما في الموضوعات. ومن كلامه في الفَتَنِ يَتَبَيَّن ما قلناه.

ونحنُ نُبَيِّنُ [فيما]^(١) بعدَ هذا غلطَ مَنْ يزعمُ أنَّ مداركَ هذا الأمرِ بالصَّناعةِ الطَّبيعيةِ. واللهُ العليمُ الخبيرُ.

31 • فَصْلٌ ، فِي إِبْطَالِ الْفَلَسَفَةِ وَفْسَادِ مُنْتَحِلِهَا

هذا الفصلُ وما بعدهُ مهمٌّ ، لأنَّ هذه العلومَ عارضةٌ في العمرانِ ، كثيرةٌ في المَدَنِ ، وضررها في الدينِ كبيرٌ. فوجبَ أنْ نصدَعَ بشأنها ونكشِفَ عن المُعْتَقَدِ 5 الحقِّ فيها.

وذلك أنَّ قوماً من عُقلاءِ النَّوعِ الإنسانيِّ زعموا أنَّ الوجودَ كُلَّهُ، الحِسِّيَّ منه وما وراءَ الحِسِّ، تُدركُ ذواته وأحواله بأسبابها وعِلَلها بالأنظارِ الفكريَّةِ والأقيسةِ العقليةِ، وأنَّ تصحيحَ العقائدِ الإيمانيَّةِ من قِبَلِ النَّظَرِ لا من جَهَةِ السَّمْعِ، فإنَّها بعضُ 10 من مداركِ العقلِ. وهؤلاءُ يُسمَّونَ بالفلاسفةِ^(ب)، جمعُ فيلسوفٍ، وهو باللسانِ اليونانيِّ: محبُّ الحكمةِ.

فبحثوا عن ذلك وشتموا له، وحوَّموا على / إصابَةِ الغَرَضِ منه، ووَضَعُوا [370] قانوناً يَهْتَدِي به العقلُ في نَظَرِهِ إلى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وسمَّوه بالمنطِقِ. ومُحَصَّلُ ذلك ، أنَّ النَّظَرَ الَّذِي يُقَيِّدُ تَمْيِيزَ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ ، إِنَّمَا هُوَ لِلذَّهْنِ فِي المعانيِ المنتزعةِ من الموجوداتِ الشَّخصيَّةِ، فيتجرَّدُ أولاً منها صُورٌ منطبقَةٌ على جميعِ 15 الأشخاصِ، كما ينطبقُ الطابعُ^(ج) على جميعِ النقوشِ التي يَرُسُمُها في طينٍ أو شمعٍ.

(١) من: ع ج ي (ب) ج: الفلاسفة (ج) ج: الطبايع .

وهذه المجردة من المحسوسات تُسمى المعقولات الأوائل. ثم تجرد من تلك المعاني الكلية إذا كانت مشتركة مع معانٍ⁽¹⁾ أخرى وقد تميزت عنها في الذهن، فتجرد منها معانٍ⁽¹⁾ أخرى، هي التي اشتركت بها. ثم تجرد ثانياً إن شاركها غيرها، وثالثاً، إلى أن ينتهي التجريد إلى المعاني البسيطة الكلية المنطقية على جميع المعاني والأشخاص، ولا يكون منها تجريد بعد هذا، وهي الأجناس العالية. وهذه المجردات كلها من غير 5 المحسوسات، هي من حيث تأليفها بعضها مع بعض لتخصيل العلوم منها، تُسمى المعقولات الثواني. فإذا نظر الفكر في هذه المعقولات المجردة، وطلب منها تصوّر الوجود كما هو، فلا بُدَّ للذهن من إضافة بعضها إلى بعض، ونقي بعضها عن بعض بالبرهان العقليّ اليقيني، لتخصيل تصوّر الوجود صحيحاً مطابقاً إذا كان ذلك بقانون صحيح، كما مرّ. 10

وصنف التصديق، الذي هو تلك الإضافة والحكم، متقدّم عندهم على صنف التّصوّر في النهاية، والتّصوّر متقدّم عليه في البداية والتّعليم؛ لأنّ التّصوّر التّام عندهم هو غاية الطّلب الإدراكيّ، وإنّما التصديق وسيلة له. وما تسمّعه في كتب المنطقيّين من تقدّم التّصور وتوقّف التصديق عليه، فيمغنى الشّعور، لا بمغنى العلم 15 التّام. وهذا هو مذهب كبيرهم أرسطو.

ثم يزعمون أنّ السّعادة في إدراك / الموجودات كلّها، ما في الحسّ وما وراء [370] الحسّ، بهذا النظر وتلك البراهين. وحاصل مداركهم في الوجود على الجفلة ما آلت

(1) في الأصول كلها: معاني .

إليه، وهو الذي فرّعوا عليه قضايا أنظارهم، أنهم عثروا أولاً على الجسم السفلي بحكم الشهود والجس، ثم ترقى إدراكهم قليلاً فشعروا [بوجود]^(أ) النفس من قبل الحركة والجس في الحيوانات، ثم أحسّوا من قوى النفس بسُلطان العقل، ووقف إدراكهم. فقصّوا على الجسم العالي السماوي بنحو من القضاء على أمر الذات الإنسانية، ووجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كما للإنسان. ثم أنهوا ذلك نهاية عدد 5 الآحاد، وهي العشر، تسع مفصلة ذواتها جمل، وواحد أول مفرد، وهو العاشر.

ويزعمون أن السعادة في إدراك الوجود على هذا النحو من القضاء، مع تهذيب النفس وتخلّتها بالفضائل، وأن ذلك ممكن للإنسان ولو لم يرد شرع، لتمييزه بين الفضيلة والزديلة من الأفعال بمقتضى عقله ونظره، و[مثله]^(ب) إلى المحمود منها، واجتنابه للمذموم بفطرته. وأن ذلك إذا حصل للنفس، حصلت لها البهجة واللذة، 10 وأن الجهل بذلك هو الشقاء السرمذ؛ وهذا عندهم هو معنى التعم والعذاب في الآخرة، إلى خباط لهم في [تفاصيل]^(ج) ذلك معروف من كلماتهم.

وإمام هذه المذاهب الذي حصل مسائلها، ودوّن علمها، وسطر حجاجها فيما بلغنا في هذه الأحقاب، هو أرسطو المقدوني، من أهل مقدونية من بلاد الروم، من تلميذ أفلاطون. وهو معلم الإسكندر، ويسمونه المعلم الأول على الإطلاق. 15 يغنون معلم صناعة المنطق، إذ لم تكن قبله مهذبة. وهو أول من رتب قانونها،

(أ) ط ج ي: بوجود (ب) ط: مثله (ج) سقط من ط، وفي ع: تفصيل ثم شطبها وكتب ما أبتناه في الحاشية بخطه، ومثله

في ح ي

واستوفى مسائلها، وأحسن بسطها. ولقد أحسن في ⁽¹⁾ ذلك القانون ما شاء، لو تكفل له بقضدهم في الإلهيات.

/ ثم كان من بعده في الإسلام من أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه خذو [371] التعل بالتعل إلا في القليل. وذلك أن كُتِبَ أولئك المتقدمين، لما تَرَجَّحَ الخلفاء من بني العباس من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي، تَصَفَّحَها كثير من أهل الملة، وأخذ بمذاهبهم من أضله الله من مُنتَحلي العلوم، وجادلوا عنها، واختلفوا في مسائل من تَفَاريعها. وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابي في المائة الرابعة لعهد سيف الدولة، وأبو علي ابن سينا في المائة الخامسة لعهد بني بُوَيَهِ بأصبهان، وغيرهما.

واعلم أن هذا الرأي الذي ذهبوا إليه باطل بجميع وجوهه ؛ فأما إسنادهم 10 الموجودات كلها إلى العقل الأول، واكتفاؤهم به في الترقى إلى الواجب، فهو قصور عما وراء ذلك من رُبَّ خَلَقَ الله. فالوجود أوسع نطاقاً من ذلك، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية 8]. وكأنهم في اقتصارهم على إثبات العقل فقط والغفلة عما وراءه، بمثابة الطبيعيين المقتصرين على إثبات الأجسام خاصة، المعرضين عن النفس والعقل، المعتقدين أنه ليس وراء الجسم في حكمة الوجود 15 شيء.

وأما البراهين التي يزعمونها على مدعياتهم في الموجودات، ويغرضونها على مِغْيَارِ المنطق وقانونه، فهي قاصرة وغير وافية بالغرض.

(1) سقط من ع .

أما ما كان منها في الموجودات الجسمانية، ويُسمونه العلم الطبيعي، فوجه قصوره أن المطابقة بين تلك النتائج الذهنية التي تُستخرج بالحدود والأفيسة، كما في زعمهم، وبين ما في الخارج، غير يقيني. لأن تلك أحكام ذهنية كلها عامة، والموجودات الخارجية متشخصة بموادها. ولعل في المواد ما [يمنع]^(أ) من مطابقة الذهني الكلي للخارجي الشخصي. اللهم إلا ما يشهد [له الحس]^(ب) من ذلك، 5 فدليله شهوده، لا تلك البراهين. فأتين اليقين الذي يجدونه / فيها؟ [371ب]

وربما يكون تصرف الذهن أيضاً في المعقولات الأول، المطابقة للشخصيات بالصور الخيالية التي تجرّدها في الرتبة الثانية، فيكون الحكم حينئذ يقينياً بمثابة المحسوسات، إذ المعقولات الأول أقرب إلى مطابقة الخارج لكمال الانطباق فيها، فسلم لهم حينئذ دعاويهم في ذلك. إلا أنه ينبغي لنا الإغراض عن النظر فيها، 10 إذ هو من ترك المسلم لما لا يعنيه. فإن مسائل الطبيعيات لا تهتمنا في ديننا ولا معاشنا. فوجب علينا تركها.

وأما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحس، وهي الروحانية، ويُسمونه العلم^(ج) الإلهي، وعلم ما بعد الطبيعة، فإن ذواتها مجهولة رأساً، ولا يمكن التوصل إليها ولا البرهان عليها. لأن تجريد المعقولات من الموجودات الخارجية الشخصية إنما هو ممكن فيما هو مدرك لنا بالحس، فنتزع منه الكليات. ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى نجرد منها ماهيات أخرى، لحجاب الحس بيننا وبينها. فلا يتأتى لنا

(أ) كذا في ع ج ي، وفي ظ: يصنع (ب) سقط الأول من ظ، وأبدل فيه الحس بالحسنى (ج) سقط من ج .

برهانٍ عليها، ولا مُدركٌ لنا في إثبات وجودها على الجملة إلا ما نَجِدُهُ بين جَنَيْنَا من أمر النَّفس الإنسانيَّة وأحوالِ مدارِكها، وخصوصاً في الرؤيا الَّتِي هي وجدانيَّة لكلِّ أحدٍ. وما وراء ذلك من حقيقتها وِصفاتها، فأمرٌ غامِضٌ لا سبيلَ إلى الوقوف عليه. ولقد صرَّح بذلك مُحَقِّقوهم، حيثُ ذهبوا إلى أنَّ ما لا مادَّةَ له، فلا يُمكن البُرْهانُ عليه، لأنَّ مقدِّمات البُرْهان من شَرطها أن تكونَ ذاتيَّة. وقال كبيرُهم أفلاطون:

5 إنَّ الإلهيات لا يوصلُ فيها إلى يقينٍ، وإنَّما يُقال فيها بالأخلق والأولى، يَغني الظنَّ. وإذا كنَّا إنَّما⁽¹⁾ نَحْصُل بعد التعب والتَّصب على الظنِّ فقط، فيكفيها الظنُّ الَّذي كان أولاً، فأَيُّ فائدةٍ لهذه العلوم والاشتغالِ بها؟ ونَحْنُ إنَّما عِنايتُنا / بتَخْصِيل اليقينِ فيما وراء الحِسِّ من الموجوداتِ، وهذه هي غايةُ الأفكار الإنسانيَّة عندهم.

10 وأما قولهم: إنَّ السَّعادة في إدراك الوجودِ على ما هو عليه بتلك البراهينِ، فَقَوْلٌ مزيَّفٌ مَرْدودٌ. وتفسيرُهُ أنَّ الإنسانَ مركَّبٌ من جُزئين، أحدهما جِسمانيٌّ، والآخرُ روحانيٌّ مُمتزجٌ به. ولكلِّ واحدٍ من الجزئين مداركٌ مَحْتَصَّةٌ به. والمُدركُ فيهما واحدٌ، وهو الجزءُ الروحانيُّ، يُدرك تارةً مداركَ روحانيَّة، وتارةً مداركَ جِسمانيَّة. إلا أنَّ المداركَ الروحانيَّة يُدركها بذاته بغيرِ واسطة، والمداركُ الجِسمانيَّة بواسطةِ آلاتِ الجِسم، من الدِّماغِ والحواسِّ.

وكلُّ مُدركٍ فَلَهُ ابتهاجٌ بما يُدركه. واعتبرُهُ بحالِ الصَّبيِّ في أوَّلِ مدارِكِهِ الجِسمانيَّة الَّتِي هي بواسطة، كيف يَنْتَهجُ بما يُبْصِرُهُ من الصَّوِّ، وما يَسْمَعُهُ من

(1) فوقها في ع كلمة ضرب .

الأضواء. فلا شك أن الابتهاج بالإدراك الذي للنفس من ذاتها بغير واسطة يكون أشدَّ وألذَّ^(١). فالتنفس الروحانيَّة إذا شعرت بإدراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذَّة لا يُعبَّر عنها. وهذا الإدراك لا يحصلُ بنظرٍ ولا علم، وإنما يحصلُ بكشفِ حجابِ الجسِّ ونسيانِ المداركِ الجسديَّةِ بالجملة.

5 والمتصوِّفة كثيراً ما يغنون بحصول هذا الإدراك للنفس بحصول هذه البهجة، فيحاولون بالرياضة إماتة القوى الجسديَّة ومداركها، حتى الفكر من الدماغ، ليحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها عند زوال الشواغِبِ والموانع الجسديَّة، فتحصل لهم بهجة ولذَّة لا يعبر عنها. وهذا الذي زعموه، بتقدير صحته، مُستلَّم لهم. وهو مع ذلك غير وافٍ بمقصودهم.

10 فأما قولهم: إن البراهين والأدلة العقلية محصلة لهذا النوع من الإدراك والابتهاج عنه، فباطل، كما رأيته. إذ البراهين والأدلة/ من جملة المدارك الجسديَّة، [372ب] لأنها بالقوى الدماغية من الخيال والفكر والذكر. ونحن أول شيء نعتي به في تحصيل هذا الإدراك إماتة هذه القوى الدماغية كلها، لأنها منازعة له، قاذرة فيه. وتجذ الماهر منهم عاكفاً على كتاب الشفاء، والإشارات، والتجاة، وتلاخيص ابن رُشدٍ للقص، من تأليف أرسطو، وغيره، يغيث أوراقها ويتوثق من براهينها ويلتمس 15 هذا القسط من السعادة بينها، ولا يعلم أنه يشتكر بذلك من الموانع عنها. ومُستندهم في ذلك ما ينقلونه عن أرسطو والفارابي وابن سينا: أن من حصل له

(١) ج: وآكد.

إدراك العقل الفعّال [والتّصل به في حياته الدّنيا، فقد حصل على حظه من السّعادة. والعقل الفعّال^(أ) عندهم عبارة عن أوّل رُتبة ينكشف عنها الجسّ من رُتب الروحانيّات. ويحملون الاتّصال بالعقل الفعّال على الإدراك العِلْمِيّ، وقد رأيت فسادَه. وإنّما يعني أرسطو وأصحابه - بذلك الاتّصال والإدراك - إدراك النّفس الّذي لها من ذاتها وبغير واسطة. وهو لا يَحْصُل إلّا بكشف حجاب الجسّ.

وأما قولهم: إنّ البهجة النّاشئة عن هذا الإدراك هي عين السّعادة الموعود بها، فباطل أيضاً، لأنّنا إنّما تبيّن لنا بما قرّروه، أنّ وراء الجسّ مدركاً آخر للنّفس من غير واسطة، وأنّها^(ب) تتبّج بإدراكها ذلك ابتهاجاً شديداً. وذلك لا يَعيّن لنا أنّه عين السّعادة الأخرى ولا بُدّ، بل هي من جملة الملائد الّتي لتلك السّعادة. 10
وأما قولهم: إنّ السّعادة في إدراك هذه الموجودات على ما هي عليه، فقولٌ باطل، [مبني^(ج) على ما كنا قدّمناه في أصل التّوحيد من الأوهام^(د) والأغلاط في أنّ الوجود عند كلّ مدرك مُنحصِر في مداركه، ويتّنا فساد ذلك، وأنّ الوجود أوسع من أن يُحاط به أو يُستوفى إدراكه بمُفْلَته روحانيّاً أو جسّميّاً.

والّذي يحصل من جميع ما قرّناه من مذاهبهم، أنّ الجزء الرّوحانيّ إذا فارق القوى الجسّميّة، أدرك إدراكاً ذاتياً له مُختصّاً بصنّف من / المدارك، وهي 15
الموجودات الّتي أحاط بها علّمنا، وليس بعامّ الإدراك في الموجودات كلّها، إذ لم تنحصّر، وأنّه يتتبّج بذلك التّحوّل من الإدراك ابتهاجاً شديداً كما يتتبّج الصّبيّ بمدركه

(أ) سقط من ظ (ب) من ع ي، وفي ظ ج: وإنّما (ج) سقط من ظ (د) ظ: الإلهام.

الجسدية في أول نشوئه⁽¹⁾. ومن لنا بعد ذلك بإدراك جميع الموجودات أو بحصول السعادة التي وعدنا بها الشارع إن لم نعمل لها؟ ﴿هَيَّاتْ هَيَّاتْ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية 36].

وأما قولهم: إن الإنسان مستقلٌ بهتدب نفسه وإصلاحها بملازمة المحمود من الخلق ومُجَانِبَةُ المذموم، فأمرٌ مَبْنِيٌّ على أَنَّ اتِّهَاجَ النَّفْسِ بِإِدْرَاكِهَا الَّذِي لَهَا مِنْ 5 ذَاتِهَا هُوَ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْمُوعودِ بِهَا. لَأَنَّ الرِّذَائِلَ عَائِقَةٌ لِلنَّفْسِ عَنْ تِمَامِ إِدْرَاكِهَا ذَلِكَ بِمَا يَحْصُلُ لَهَا مِنَ الْمَلَكَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَالْوَانِيَا.

وقد يَبَيِّنُ أَنَّ أَثَرَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ مِنْ وَرَاءِ الإِدْرَاكِاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَالرُّوحَانِيَّةِ. فهذا التَّهْدِيبُ الَّذِي تَوَصَّلُوا إِلَى مَعْرِفَتِهِ، إِنَّمَا نَفَعُهُ فِي الْبَهْجَةِ النَّاشِئَةِ عَنْ الإِدْرَاكِ 10 الرُّوحَانِيَّ فَقَطْ، الَّذِي هُوَ عَلَى مَقَاسٍ وَقَوَانِينٍ. وأما ما وراء ذلك من السَّعَادَةِ الَّتِي وَعَدَ بِهَا الشَّارِعُ عَلَى امْتِثَالِ مَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ، فَأَمْرٌ لَا تُحِيطُ بِهِ مَدَارِكُ الْمَذْكُورِينَ.

وقد تَبَيَّنَ لَدُنْكَ زَعْمُهُمْ أَبُو عَلِيٍّ سِينَا، فَقَالَ فِي كِتَابِ الْمَبْدِ وَالْمَعَادِ⁽¹⁾، 15 لَهُ^(ب)، مَا مَعْنَاهُ: إِنَّ الْمَعَادَ الرُّوحَانِيَّ وَأَحْوَالَهُ هُوَ مِمَّا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْمَقَاسِيسِ، لِأَنَّهُ عَلَى نِسْبَةِ طَبِيعِيَّةٍ مُحْفُوظَةٍ وَوَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَلَنَا فِي الْبَرَاهِينِ عَلَيْهِ سَعَةً. وَأَمَّا الْمَعَادُ الْجِسْمَانِيُّ وَأَحْوَالُهُ، فَلَا يُمْكِنُ إِدْرَاكُهُ بِالْبُرْهَانِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ عَلَى نِسْبَةِ

(1) ع: نشوه (ب) من ع، وسقط من ظ ج ي.

(1) رسالة أخصوية في أمر المعاد 36 -

واحدة. وقد بَسَطْته لنا الشريعة الحقّة المحمّديّة ، فليُنظر فيها وليُزجَع في أحواله إليها.

5 فهذا العلم، كما رأيته، غير وافٍ بمقاصدهم التي حوّموا عليها، مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها. وليس له فيما علّمنا إلا * ثمرة واحدة، وهي شحذُ الذهن في ترتيب الأدلّة / والحجاج، لتُحصَل *^(أ) [ملكة الجودة والصواب في البراهين]^(ب). [373ب]

وذلك أنّ نَظَمَ المقاييس وتركيبها على وجه الإحكام والإتقان، هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقيّة. وهم كثيراً ما يستعملونها في علومهم الحكميّة من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها^(ج)، فيستولي الناظر فيها بكثرة استعمال^(د) البراهين بشروطها على ملكة الإتقان والصواب في الحجاج والاستدلالات ، لأنّها ، وإن كانت غير وافية بمقصودهم، فهي أصحّ ما علّمناه من قوانين الأنظار [هذه]^(هـ).

10

هذه هي ثمرة هذه الصناعة، مع الاطلاع على مذاهب أهل العالم وآرائهم؛ ومضارّها ما علمت. فليكن الناظر فيها متحرّراً مُجَهّده من معاطيها، وليكن نظراً من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيّات والاطلاع على التفسير والفقه. ولا يكبّن أحدٌ عليها وهو خلوّ من علوم المِلَّة، فقلّ أن يسلم كذلك^(و) من معاطيها.

15 والله الموفق للحقّ والهادي إليه ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [سورة الأعراف، من الآية 43].

(أ) سقط ما بين النجمين من ي (ب) وردت هذه الفقرة في ي مضطربة ومتداخلة حسب ما يلي، وبها تقديم وتأخير وتكرار: "إلا ملكة الجودة، والصواب في البراهين في ترتيب الأدلّة والحجاج لتُحصَل ملكة الجودة والصواب في البراهين وذلك" (ج) ج ي: بعدها (د) سقط من ي (هـ) من، ع ج ي (و) ي: لذلك .

32 • فَضْلٌ ، فِي إِبْطَالِ صِنَاعَةِ النُّجُومِ وَضَعْفِ مَدَامِكِهَا وَفَسَادِ غَايَتِهَا

هذه الصّناعة يزعم أصحابها أنّهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها، من قبل معرفة قوَى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصريّة، مفردة ومُجمّعة. فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع نوع من أنواع الكائنات الكلّيّة والشخصيّة.

5

فالمتقدّمون منهم يرون أنّ معرفة قوَى الكواكب وتأثيرها بالتّجربة، وهو أمرٌ تقصّر الأعمار كلّها عن تحصيله لو اجتمعت. إذ التّجربة إنّما تحصل في المرات المتعدّدة بالتّكرار ليحصل عنها العلم أو الظّن. وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزّمن، فيحتاج تكرّره إلى آماذٍ وأحقابٍ متطاولة تتقاصر عنها أعمار العالم.

10 وربما ذهب ضعفاء منهم إلى أنّ معرفة قوَى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي،

وهو / رأيٌ فائلٌ ، وقد كفونا مؤوّنهُ إبطاله . ومن أوضح الأدلّة فيه ، أن تعلم أنّ [1374]

الأنبياء، عليهم السّلام، أبعّد النّاس عن الصّنائع، وأنّهم لا يتعرّضون للإخبار بالغيب إلّا أن يكون عن الله، فكيف يدعون استنباطه بالصّناعة، ويشرعون ذلك لمُتتبعيهم من الخلق؟

15 وأما بطلانيوس ومن تبعه من المتأخّرين، فيرون أنّ دلالّة الكواكب على ذلك

دلالّة طبيعيّة من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصريّة. قال: لأنّ فعل النّيرين وأثرهما في العنصريّات ظاهر لا يسع أحداً جحدّه، مثل فعل الشّمس في

تَبْدُلُ الْفُصُولِ وَأَمْزَجَتْهَا، وَنَضَجَ الثَّمَارَ وَالزَّرْعَ، وَغَيَّرَ ذَلِكَ، وَفَعَلَ الْقَمَرَ فِي الرُّطُوبَاتِ وَالْمَاءِ، وَإِنْضَاجَ الْمَوَادِّ الْمَتَعَفِّتَةِ وَفَوَاكِهَ الْفِتَاءِ، وَسَائِرَ أَفْعَالِهِ.

ثُمَّ قَالَ: وَلَنَا فِيمَا بَعْدَهُمَا مِنَ الْكَوَاكِبِ طَرِيقَانِ، الْأَوَّلَى: التَّقْلِيدُ لِمَنْ ثَقُلَ ذَلِكَ عَنْهُ مِنْ أَيْمَةِ الصَّنَاعَةِ، إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مَقْنَعٍ لِلنَّفْسِ. الثَّانِيَةُ: الْحَدُسُ وَالتَّجَرُّبَةُ بِقِيَاسِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى التَّيَرِّ الْأَعْظَمِ الَّذِي عَرَفْنَا طَبِيعَتَهُ وَأَثَرَهُ مَعْرِفَةً ظَاهِرَةً. فَنَنْظُرُ: هَلْ يَرِيدُ 5 ذَلِكَ الْكَوْكَبُ عِنْدَ الْقِرَانِ فِي قُوَّتِهِ وَمِزَاجِهِ، فَنَعْرِفَ مُوَافَقَتَهُ فِي الطَّبِيعَةِ، أَوْ يَنْقُصُ مِنْهَا، فَنَعْرِفَ مُضَادَّتَهُ؟ ثُمَّ إِذَا عَرَفْنَا قُوَّاهَا مَفْرَدَةً، عَرَفْنَاها مُرَكَّبَةً. وَذَلِكَ عِنْدَ تَنَاظُرِهَا بِأَشْكَالِ التَّثْلِيثِ وَالتَّرْيِيعِ وَغَيْرِهِمَا، وَمَعْرِفَةِ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ طَبَائِعِ الْبُرُوجِ بِالْقِيَاسِ أَيْضاً إِلَى التَّيَرِّ الْأَعْظَمِ.

وَإِذَا عَرَفْنَا قُوَى الْكَوَاكِبِ كُلِّهَا، فَهِيَ مُؤَثَّرَةٌ فِي الْهَوَاءِ، وَذَلِكَ ظَاهِرٌ. وَالْمِزَاجُ 10 الَّذِي يَحْصُلُ مِنْهَا لِلْهَوَاءِ يَحْصُلُ لِمَا تَحْتَهُ مِنَ الْمَوْلِدَاتِ، وَتَتَخَلَّقُ بِهِ التُّطْفُ وَالْبِرْزُ، فَيَصِيرُ حَالاً لِلْبَدَنِ الْمُتَكَوِّنِ عَنْهَا، وَلِلنَّفْسِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهِ، الْفَائِضَةُ عَلَيْهِ، الْمُتَكَسِّبَةُ كَمَا لَهَا مِنْهُ، وَلَمَّا يَتَّبِعُ النَّفْسَ وَالْبَدَنَ مِنَ الْأَحْوَالِ. لِأَنَّ كَيْفِيَّاتِ الْبِرْزَةِ وَالتُّطْفَةِ كَيْفِيَّاتٌ لَمَّا يَتَوَلَّدُ عَنْهَا وَيَنْشَأُ مِنْهَا.

قَالَ: وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ / ظَنِّي، وَلَيْسَ مِنَ الْيَقِينِ فِي شَيْءٍ، وَلَيْسَ هُوَ أَيْضاً مِنْ 15 الْقَضَاءِ الْإِلَهِيِّ، يَعْنِي الْقَدَرَ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَسْبَابِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْكَائِنِ، وَالْقَضَاءُ الْإِلَهِيُّ سَابِقٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

هَذَا مُحْصَلُ كَلَامِ بَطْلَمَيْوسَ وَأَصْحَابِهِ. وَهُوَ مَنْصُوصٌ فِي كِتَابِهِ الْأَرْبَعِ وَغَيْرِهِ.

ومنه تَبَيَّنَ ضَعْفُ مُدْرِكِ هذه الصَّنَاعَةِ؛ وذلك أَنَّ العِلْمَ بالكائن^(أ) أو الظَّنَّ به
 إِنَّمَا يَحْصُلُ عن العِلْمِ بِجُمْلَةِ أَسْبَابِهِ من الفَاعِلِ والقَابِلِ والصُّورَةِ والغَايَةِ، على مَا تَبَيَّنَ
 فِي مَوْضِعِهِ. والقُوَى التَّجْوِمِيَّةُ، على مَا قَرَّرُوهُ، إِنَّمَا هِيَ فَاعِلَةٌ فَقَطْ. والجزءُ العُنْصُرِيُّ
 هو القَابِلُ. ثُمَّ إِنَّ القُوَى التَّجْوِمِيَّةَ لَيْسَتْ هِيَ الفَاعِلُ بِجُمْلَتِهِ، بَلْ هُنَاكَ قُوَى أُخْرَى
 فَاعِلَةٌ مَعَهَا فِي الجزءِ المَادِّيِّ، مِثْلُ قُوَّةِ التَّوْلِيدِ لِلْأَبِ، والنَّوْعِ الَّتِي فِي النُّطْفَةِ، وقُوَى
 5 الخَاصَّةِ الَّتِي تُمَيِّزُ بِهَا صِنْفٌ [صِنْفٌ]^(ب) من النَّوْعِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ. فَالقُوَى التَّجْوِمِيَّةُ إِذَا
 حَصَلَتْ على كَمَالِهَا وَحَصَلَ العِلْمُ بِهَا إِنَّمَا هِيَ فَاعِلٌ وَاحِدٌ من جُمْلَةِ الأَسْبَابِ الفَاعِلَةِ
 لِلْكَائِنِ.

ثُمَّ إِنَّهُ يُشْتَرَطُ، معَ العِلْمِ بِقُوَى النُّجُومِ وتأثيراتها، مَزِيدٌ حَدِيثٌ وَتَحْمِينٌ، حِينَئِذٍ
 يَحْصُلُ عنده الظَّنُّ بِوُقُوعِ الكَائِنِ. والحدُسُ والتَّحْمِينُ قُوَى لِلنَّظَرِ فِي فِكْرِهِ، وَلَيْسَ
 10 من عِلَلِ الكَائِنِ وَلَا من أَسْبَابِهِ. فَإِذَا فَقِدَ هذا الحدُسُ والتَّحْمِينُ، رَجَعَتْ أَذْرَاجُهَا
 عن الظَّنِّ إِلَى الشَّكِّ.

هذا إِذَا حَصَلَ العِلْمُ بِالْقُوَى التَّجْوِمِيَّةِ على سَدَادِهِ، وَلَمْ تَغْتَرِضْهُ آفَةٌ. وَهَذَا
 مُعَوِّزٌ لِمَا فِيهِ من مَعْرِفَةِ حُسْبَانَاتِ الكَوَاكِبِ فِي سَيْرِهَا لَتَتَعَرَّفَ بِهِ أَوْضَاعُهَا، وَلِمَا
 15 أَنَّ اخْتِصَاصَ كُلِّ كَوْكَبٍ بِقُوَّةٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ. وَمُدْرِكُ بَطْلَانِيُوسِ فِي إِثْبَاتِ القُوَى
 لِلْكَوَائِبِ الخَمْسَةِ بِقِيَاسِهَا إِلَى الشَّمْسِ مُدْرِكٌ ضَعِيفٌ، لِأَنَّ قُوَّةَ الشَّمْسِ غَالِبَةٌ لِجَمِيعِ
 القُوَى من الكَوَاكِبِ وَمُسْتَوَلِيَّةٌ عَلَيْهَا. فَقُلْ أَنَّ يُشْعَرُ بِالزِّيَادَةِ فِيهَا أَوْ النِّقْصَانِ مِنْهَا

(أ) ي: الكائن (ب) من ع ج ي، وسقط من ظ .

عند المقارنة كما قال. وهذه كلها قاذحة في تعرف الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصنعة.

ثم إن تأثير الكواكب فيما تحته باطل ، إذ قد تبين في باب التوحيد أن لا فاعل إلا الله ، بطريق استدلال ، كما رأيته ، واحتج / له⁽¹⁾ أهل علم الكلام بما هو غني عن البيان ، من أن إسناد الأسباب إلى المسببات مجهول الكيفية ، والعقل متهم على ما يقضي به فيما يظهر بادئ الرأي من التأثير . فلعل استنادها على غير صورة بالتأثير^(ب) المتعارف . والقدرة الإلهية رابطة بينهما كما ربطت جميع الكائنات علواً وسفلاً ، سيما والشرع يردّ الحوادث كلها إلى قُدرة الله تعالى ، ويبرأ مما سوى ذلك .

والتبوات أيضاً مثيرة لشأن التجوم وتأثيراتها ، واستقراء الشرعيات شاهد بذلك ، في مثل قوله⁽¹⁾ : "إنّ الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته" . وفي قوله⁽²⁾ : "أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ بي . فأما من قال : مُطرنا بفضل الله وبرحمته ، فذلك مؤمنٌ بي" ^(ج) كافرٌ بالكوكب ؛ وأما من قال : مُطرنا بنوء كذا ، فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب" . الحديث الصحيح .

(1) سقط من ج (ب) ط ي : التأثير ، ج : صور التأثير (ج) سقط ما بين النجمين من ي .

(1) من حديث ابن عمر ، رواه البخاري في صلاة الكسوف 2 : 42 حديث (1042) وفي بدء الخلق 4 : 131 حديث (3201) ومسلم في الصلاة (914) وله طرق أخرى من حديث عُقبة بن عامر والمغيرة بن شعبة وعائشة وغيرهم .

(2) أخرجه البخاري في عدة مواضع من صحيحه 1 : 214 حديث (846) و 2 : 41 حديث (1038) و 5 : 155 (4147) و 9 : 177 حديث (7503) ومسلم في الإيمان من صحيحه (71) .

فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع، وضغف مداركها مع ذلك من طريق العقل، مع ^(١) ما لها من المضار في العمران الإنساني بما تبعث في عقائد العوام من الفساد، إذا اتفق الصدق من أحكامها في بعض الأحيان اتفاقاً لا يرجع إلى تغليل ولا تحقيق، فيلهج بذلك من لا معرفة له، ويظن اطراد الصدق في سائر أحكامها. وليس كذلك. فيقع في رد الأشياء إلى غير خالقها.

5

ثم ما ينشأ عنها كثيراً في الدول من توقع القواطع، وما يبعث عليه ذلك التوقع من تناول الأعداء والمتربصين بالدولة إلى الفتك والثورة، وقد شاهدنا من ذلك كثيراً، فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران، لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول.

ولا يقدح في ذلك كون وجودها طبيعياً للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم. ¹⁰
فالخير والشر طبيعتان في العالم، موجودتان، لا يمكن نزعهما. وإنما يتعلق التكليف [375ب] / بأسباب حصولها، فيتعين السعي في اكتساب الخير بأسبابه، ودفع أسباب الشر والمضار. وهذا هو الواجب على من عرف مفسد هذا العلم ومضاره.

ولتعلم من ذلك، أنها وإن كانت صحيحة في نفسها، فلا يمكن أحداً من أهل الأمة تحصيل علمها ولا ملكتها، بل إن نظر فيها ناظر وظن بها الإحاطة فهو في غاية ¹⁵
القصور في نفس الأمر. فإن الشريعة لما حظرت النظر فيها فبقي الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتخليق لتعليمها، وصار المولع بها من الناس، وهم الأقل وأقل من

(١) سقط من ج .

الأقل، إنما يطالع كتبها ومقالاتها في كسر يئنه، مُستَتراً عن الناس، وتحت رقبة من الجمهور، مع تشبُّب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم؛ فكيف يحصل منها على طائل؟! ونحن نجد الفقه الذي عم نفعه ديناً ودنياً، وسهلت مآخذه من الكتاب والسنة المتداولة، وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه، ثم بعد التخليق والتجميع 5 وطول المدارس وكثرة المجالس وتعددها، فإننا نحذق فيه الواحد بعد الواحد في الأعصار والأخبال. فكيف بعلم مهجور للشريعة، مضروب دونه سد الحظر والتحریم، مكتوم عن الجمهور، صعب المآخذ، محتاج بعد الممارسة والتحصیل لأصوله وفروعه إلى مزيد حذس وتخمين يكتنفان به من الناظر، فأين التّحصیل والحذق فيه مع هذه كلها؟ ومدعي ذلك من الناس مردود على عقبيه، ولا شاهد له 10 يقوم بذلك، لغرابة الفن بين أهل الملة وقلة حملته. فاعتبر ذلك تبيين صحة ما ذهبنا إليه. والله ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن، الآية 26].

ومما وقع في هذا المعنى لبعض أصحابنا من أهل العصر، عندما غلب العرب عساكر السلطان أبي الحسن، وحاصروه بالقيروان، وكثر إرجاف الفريقين، الأولياء والأعداء، فقال / في ذلك أبو القاسم الرّحوي، من شعراء أهل تونس: [من مُخلع البسيط] [1376]

أستغفر الله كل حين قد ذهب العيش والهناء
أصبح في تونس وأمسي والصُّبح لله والمساء
الخوف والجوع والمنايا يحثها الهزج والسوباء

15

والناس في مِزِيَّةٍ وَحَرْبٍ
فَأَحْمَدِي يَسْرَى عَلِيًّا
وَأَخَّرَ قَالَ سَوْفَ تَأْتِي
وَاللَّهُ مِنْ فَوْقِ ذَا وَهَذَا
يَا رَاصِدِي الْخُنُوسِ الْجَوَارِي
مَظَلَّتُمُونَا وَقَدْ زَعَمْتُمْ
مَرَّ خَمِيسَ عَلَى خَمِيسٍ
وَنَصْفَ شَهْرٍ وَعِشْرُ ثَانٍ
وَلَا تَرَى غَيْرَ زُورٍ قَوْلٍ
إِنَّا إِلَى اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا
رَضِيَتْ بِاللَّهِ لِي إِلَهًا
مَا هَذِهِ الْأَنْجُمُ السَّوَارِي
يَقْضَى عَلَيْهَا وَلَيْسَ تَقْضِي
ضَلَّتْ عُقُولٌ تَرَى قَدِيمًا
وَحَكَمَتْ فِي الْوُجُودِ طَبْعًا
لَمْ تَرَ خُلُوعًا إِزَاءَ مُرٍّ
اللَّهُ رَبِّي وَلَيْسْتُ أَذْرِي
وَلَا الْهَيُولَى الَّتِي تُنَادِي

وَمَا عَسَى يَنْفَعُ الْمِرَاءُ؟
حَلٌّ بِهِ الْهَلْكَ وَالتَّوَاءُ
بِهِ إِلَيْكُمْ صَبًا رُخَاءُ
يَقْضِي لِعَبْدِيهِ مَا يَشَاءُ
5 مَا فَعَلْتَ هَذِهِ السَّيِّئَاتِ؟
أَنْتُمْ الْيَوْمَ أَمْلِيَاءُ!
وَجَاءَ سَبَبٌ وَأَرْبَعَاءُ
وَتَالَتْ ضَمَّهُ الْقَضَاءُ^(١)
أَذَاكَ جَهْلٌ أَمْ اذِيرَاءُ؟
10 أَنْ لَيْسَ يُسْتَدْفَعُ الْقَضَاءُ
حَسْبُكُمْ الْبَدْرُ أَوْ دُكَّاءُ
إِلَّا عِبَادِيدُ أَوْ إِمَاءُ
وَمَا لَهَا فِي الْوَرَى افْتِزَاءُ
مَا شَأْنُهُ الْحَزْمُ وَالْفَنَاءُ
15 يُجَدِّثُهُ الْمَاءُ وَالْهَوَاءُ
يَغْذُوهُمَا تَرْبَةٌ وَمَاءُ
مَا الْجَوْهَرُ الْقَزْدُ وَالْخَلَاءُ
مَا لِي عَنْ صُورَةِ عَرَاءُ

(١) ي: الفضاء .

/ ولا وُجُودٌ ولا انْعِدَامٌ
 ولست أذري ما الكَسْبُ إِلَّا
 وإنَّما مَذْهَبِي وَدِينِي
 إِذْ لَا [فُضُولٌ] ^(١) وَلَا أُضُولُ
 مَا تَبِعَ الصَّدْرُ وَالْبَقَايَا
 5 كَانُوا كَمَا تَعْلَمُونَ مِنْهُمْ
 يَا أَشْعَرِي الزَّمَانِ إِنِّي
 أَنِّي أَجْزَى بِالشَّرِّ شَرًّا
 وَأَنِّي إِنْ أَكُنْ مُطِيعًا
 وَأَنِّي تَحْتَ حُكْمِ بَارٍ
 10 لَيْسَ بِأَسْطَارِكُمْ وَلَكِنْ
 لَوْ حَدَّثَ الْأَشْعَرِي عَمَّنْ
 لَقَالَ: أَخْبِرْهُمْ بِأَنِّي
 وَلَا تُبُوتٌ وَلَا انْتِفَاءُ
 مَا جَلَبَ الْبَيْعُ وَالشَّرَاءُ
 مَا كَانَ وَالنَّاسُ أَوْلِيَاءُ
 وَلَا جِدَالٌ وَلَا اِزْتِيَاءُ
 يَا حَبَّذَا ذَاكَ الْاِقْتِفَاءُ
 وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْهُرَاءُ
 أَشْعَرِي الصَّيْفُ وَالشِّتَاءُ
 وَالْخَيْرُ عَنْ مِثْلِهِ جَزَاءُ
 فُزْتُ، وَأَعْصِي وَلِي رَجَاءُ
 أَطَاعَهُ الْعَرْشُ وَالْبَرَاءُ
 أَتَاخَهُ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ
 لَهُ إِلَى رَأْيِهِ انْتِمَاءُ
 مِمَّا يَقُولُونَهُ بَرَاءُ

(١) ظ: فضول .

33 • فَضْلٌ ، فِي إِنْكَارِ ثَمَرَةِ الْكِيمْيَاءِ وَاسْتِحَالَةِ وُجُودِهَا ، وَمَا يَنْشَأُ
مِنَ الْمَفَاسِدِ عَنِ انْتِحَالِهَا

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَاجِزِينَ عَنْ مَعَاشِهِمْ ، تَحْمِلُهُمُ الْمَطَامِعُ عَلَى انْتِحَالِ هَذِهِ
الصَّنَاعَةِ ، وَيَرَوْنَ أَنَّهَا أَحَدُ مَذَاهِبِ الْمَعَاشِ وَوُجُوهِهِ ، وَأَنَّ اقْتِنَاءَ الْمَالِ مِنْهَا أَيْسَرُ
وَأَسْهَلُ عَلَى مُبْتَغِيهِ . فَيَزْتَكِبُونَ فِيهَا مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالْمَشَاقِّ وَمُعَانَاةِ الصَّعَابِ وَعُسْفِ 5
الْحُكَّامِ وَخَسَارَةِ الْأَمْوَالِ فِي التَّفَقُّاتِ ، زِيَادَةً إِلَى النِّيلِ مِنْ عِزْضِهِ وَالْقَطْبِ آخِرًا إِنْ
ظَهَرَ عَلَى خَبْئِهِ .

﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْيِيُونَ صُنْعًا ﴾ [سورة الكهف، من الآية 104] . وَإِنَّمَا
أَطْمَعَهُمْ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ ^(أ) رَأَوْا الْمَعَادِنَ تَسْتَحِيلُ وَتَتَقَلَّبُ - بِالصَّنْعَةِ - بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ
لِلْمَادَّةِ الْمَشْتَرَكَةِ ، فَيُحَاوِلُونَ بِالْعِلَاجِ صَيْرُورَةَ الْفِضَّةِ ذَهَبًا / وَالتَّحَاسِ وَالْقَصْدِيرِ فِضَّةً ، 10
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهَا مِنْ مُمْكِنَاتِ عَالَمِ الطَّبِيعَةِ .

وَلَهُمْ فِي عِلَاجِ ذَلِكَ طُرُقٌ مُخْتَلِفَةٌ لِاخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ فِي التَّنْدِيرِ وَصُورَتِهِ ، وَفِي
الْمَادَّةِ الْمَوْضُوعَةِ عِنْدَهُمُ لِلْعِلَاجِ ، الْمُسَمَّاةِ عِنْدَهُمْ ^(ب) بِالْحَجَرِ الْمَكْرَمِ ، هَلْ هِيَ الْعَذِرَةُ أَوْ
الدَّمُ أَوْ الشَّعْرُ أَوْ الْبَيْضُ أَوْ كَذَا أَوْ كَذَا مِمَّا سِوَى ذَلِكَ ؟

وَجُمْلَةُ التَّنْدِيرِ عِنْدَهُمْ ، بَعْدَ تَعْيِينِ الْمَادَّةِ ، أَنْ تُنْهَى بِالْفَهْرِ عَلَى حَجَرٍ صَلْدٍ 15
أَمْلَسَ ، وَتُسْقَى أَثْنَاءَ [إِمْهَائِهَا] ^(ج) بِالْمَاءِ بَعْدَ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهَا مِنَ الْعَقَاقِيرِ وَالْأَدْوِيَةِ مَا
يُنَاسِبُ الْقَصْدَ مِنْهَا وَيُؤَثِّرُ فِي انْقِلَابِهَا إِلَى الْمَعْدَنِ الْمَطْلُوبِ ، ثُمَّ تُجَفَّفُ بِالشَّمْسِ مِنْ

(أ) مِنْ ع ج ي ، وَفِي ط : أَنْ (ب) مِنْ ج ي ، وَشَطِبَتْ فِي ع (ج) ع : إِمْهَائِهَا ، ط : عَنْهَا .

بعد السقي، أو تُطبخ بالنار، أو تُصعد، أو تُكلس لاستخراج ماؤها أو ثرايها. فإذا رضي ذلك كله من علاجها، وتم تدبيره على ما اقتضته أصول صناعته، حصل من ذلك تراب أو ما يُسمونه الأكسير. ويزعمون أنه إذا أُلقي على الفضة الحمأة بالنار عادت ذهباً، أو التحاس المحتمى بالنار عاد فضة، على حسب ما قصد به في عمله.

5 ويزعم المحققون منهم أن ذلك الأكسير مادة مركبة من العناصر الأربعة، حصل فيها بذلك العلاج الخاص والتدبير مزاج وقوى طبيعية تصرف ما حصلت فيه إليها وثقلته إلى صورتها ومزاجها، وتبث فيه ما حصل فيها⁽¹⁾ من الكيفيات والقوى، كالخيرة للخبز، تقلب العجين إلى ذاتها، وتعمل فيه ما حصل لها من الانقشاش والهشاشة ليحسن هضمه في المعدة ويستحيل سريعاً إلى الغذاء. وكذا 10 إكسير الذهب والفضة فيما يحصل فيه من المعادن، يصرفه إليهما ويقلبه إلى صورتها. هذا حصل زعمهم على الجملة.

فتجدهم عاكفين على هذا العلاج، يبتغون الرزق والمعاش فيه، ويتناقلون أحكامه وقواعده من كتب أئمة الصناعة من قبلهم، / يتداولونها بينهم ويتناظرون في [377ب] فهم لغوزها وكشف أسرارها، إذ هي في الأكثر تشبه المعنى، كتوالي جابر بن حيان في رسائله السبعين، ومسلمة المجريطي في كتاب رتبة الحكيم، والطبراني، 15 والمُعَيرِي في قصائده العريفة في إجادة النظم، وأمثالها، ولا يحلون من بعد هذا كله بطائل منها.

(1) سقط من ي .

فأَوْضَتْ يوماً شيخنا أبا البركات البلقيني، كبير مشيخة الأندلس، في مثل ذلك، ووقفته على بعض التواليف فيها، فتصّفحه طويلاً، ثم رَدّه إليّ وقال لي: وأنا الضّامين [له]^(١) أن لا يعودَ إلى نيّته إلّا بالحنّة.

ثمّ منهم من يقتصرُ في ذلك على الدُّلّسة فقط، إمّا الظّاهرة، كتمويه الفضة بالذهب، أو التُّحاس بالفضّة، أو خلطهما على نسبة جزء وجزءين أو ثلاثة، أو 5 الحفّية، كالقاء الشّبّه بين المعادين، بالصّناعة مثل تبييض التّحاس وتليينه بالزّبّق^(ب) المصعّد، فيجيءُ جسماً معدّياً شبيهاً بالفضّة، ويخفى، إلّا على النّقاد المهرة.

فيقدّر أصحاب هذه الدُّلس من دُلستهم هذه سكةً يُسرّبونها في التّاس ويطبعونها بطابع السّلطان تقوياً على الجفهور بالخلّاص من الغش. وهؤلاء أخسّ 10 التّاس حِرقةً، وأسوأهم عاقبةً، لتلبّسهم بِسرقة أموال التّاس. فإنّ صاحب هذه الدُّلّسة إنّما هو يَدفعُ نحاساً في الفضة وفضّة في الذهب، ليستغلّصها لنفسه. فهو سارقٌ أو أشْرُج^(ج) من السّارق.

ومُعظمُ هذا الصّنف لدينا بالمغرب من طلبة البرّزّ المنتبذين بأطراف البقاع ومساكن الأغمار، يأوونَ إلى مساجد البادية، ويُمَوّهونَ على الأغبياء^(د) منهم بأنّ بأيديهم صناعةَ الذهب والفضّة. والتّفوسُ مولعةٌ [بحبّها]^(هـ) [أو]^(و) الاستهلاك في 15 [طلبيها]^(ز)، فيحصلونَ من ذلك على معاش. ثمّ يبتغى ذلك عندهم تحت الخوف

(١) سقط من ظ (ب) من ط ي ج، وفي ع: بالنوق (ج) في ج: أشدّ (د) ج: الأغبياء (هـ) من ع ج ي، وفي ط: بحبّها (و) زيادة يقتضها الترط (ز) في ط: طلبها.

والزُّفَّة إلى أن يظهر العجز وتقع الفضيحة ، فيفرُّ إلى مكانٍ / آخر ، ويستجِدُّ حالاً [1378]
أخرى في استهواء بعض أهل الدنيا بإطماعهم فيما لديه. ولا يزالون كذلك في ابتغاء
معاشهم.

وهذا الصَّنْف لا كلامَ معهم، لأنَّهم بلغوا الغاية من الجهل والزَّداة والاختراف
5 بالسرقة، ولا حاسِمَ لعلَّتِهم إلاَّ اشتدادُ الحُكَّام عليهم، وتناوُلُهم من حيث كانوا، وقطعُ
أيديهم متى ظهَرَ على شأنهم. لأنَّ فيه إفساداً للسَّكة التي تُعْمُّ بها البلوى، وهي
مُتَمَوِّلُ النَّاس كافة؛ والسُّلطانُ مكَلَّفٌ بإصلاحها والاختياط عليها والاشتداد على
مُفسِدِها.

وأما من انتحلَ هذه الصَّناعة ولم يرضَ بحالِ الدُّلسة، بل استنكف عنها ونزَّه
10 نفسه عن إفساد سبكة المسلمين ونُفُودهم ، وإنَّما يطلبُ إحالة الفضة إلى الذهب،
والترصاص والتحاس والقصدير إلى الفضة، بذلك النُّخو من العلاج وبالإكسير
الحاصلِ عنه ^(١)، فلنا مع هؤلاء مُتَكَلِّمٌ وبحثٍّ في مدارِكهم لذلك. مع أنَّنا لا نعلمُ أنَّ ^(ب)
أحداً من أهل العالم تَمَّ له هذا الغرضُ أو خَصَلَ منه على بُغْيَةٍ. إنَّما تذهبُ أعمارهم
في التدبير والفهر والصلايا والتَّضعيد والتَّكليس واعتِتام الأخطار لجمع العقاقير
15 والبحث عنها، ويتناقلون في ذلك حكاياتٍ وقعت لغيرهم ممَّن تَمَّ له الغرضُ منها، أو
وَقَفَ على الوصول، يثْنَعُونَ باستماعها والمفاوضة فيها، ولا يَسْتَرَبُونَ في تصديقها،
شأن الكلفين المُغْرَمين بوساوس الأخبار فيما يَكْلَفون به . فإذا سُئلوا عن تحقيق

(١) ي : عنده (ب) سقط من ج .

ذلك بالمعاينة ، أنكروه ، وقالوا : إنما سمعنا ولم نر . هكذا شأنهم في كل عصر وجيل .

واعلم أن اتّيحال هذه الصّناعة قديم في العالم ، وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين والمتأخّرين . فلتنقل مذاهبهم في ذلك ، ثم تلوّه بما يظهر لنا فيها من التحقيق الذي عليه الأمر في نفسه . * والله الموفق للصواب *⁽¹⁾ .

[378 ب] / فنقول : إنّ مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المتطرّقة ، وهي : الذهب ، والفضّة ، والرّصاص ، والقصدير ، والنحاس ، والحديد ، والخاصيني ، هل هي مُختلفات بالفصول ، وكلّها أنواع قائمة بأنفسها ، أو إنّها هي مختلفة بخواص من الكيفيات ، وهي كلّها أصناف لنوع واحد ؟ فالذي ذهب إليه أبو نصر الفارابي ، وتابّعه عليه حكماء الأندلس ، أنّها نوع واحد ، وأنّ اختلافها بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة ، واللين ، والصلابة ، والألوان ، من الصّفرة والبياض والسواد . وهي كلّها أصناف لذلك النوع الواحد .

والذي ذهب إليه ابن سينا ، وتابّعه عليه حكماء المشرق ، أنّها مختلفة بالفصول ، وأنّها أنواع متباينة ، كلّ واحد منها قائم بنفسه ، مُتحقّق بحقيقته ، له فصل وجنس ، شأن سائر الأنواع .

وبنى أبو نصر الفارابي على مذهبه في اتّفاقها بالتّوع ، إمكان اتّقلاب بعضها إلى بعض ، لإمكان تبدّل الأغراض حينئذٍ وعلاجها بالصّناعة . فمن هذا الوجه ، كانت

(1) سقط ما بين التّجيين من ي .

صناعة الكيمياء عنده ممكنة سهلة^(١) المأخذ. وبنى أبو علي ابن سينا على مذهبه في اختلافها بالتنوع إنكار هذه الصنعة واستحالة وجودها، بناءً على أن الفصل لا سبيل بالصناعة إليه، وإنما يخلقه خالق الأشياء ومقدّرها، وهو الله عز وجل. والفصول مجهولة الحقائق رأساً بالتصوّر، فكيف يُحاول انقلابها بالصنعة؟ وغلّطه الطّغرائي، من أكبر أهل هذه الصنعة، في هذا القول، وردّ عليه بأن التدبير والعلاج ليس في 5 تخليق الفصل وإبداعه، وإنما هو في إعداد المادّة لقبوله خاصّة. والفصل يأتي من بعد الإعداد من لدن خالقه وباريه، كما يفيض النور على الأجسام بالصقل والإمهاء، ولا حاجة بنا في ذلك إلى تصوّره ومعرفة.

قال: وإذا كتّا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها، مثل 10 العُرب من التراب والتّبن، ومثل الحيات المتكوّنة من الشّعر، ومثل ما ذكره أصحاب الفلاحة في تكوين النّحل إذا فُقدت من عجائيل البقر، وتكوين / القصب [379] من قرون ذوات الظّلف وتصويره سُكريّاً بحشو القرون بالعسل بين يدي ذلك الفلح للقرون، فما المانع إذن من العثور على مثل ذلك في * المعادين؟ وهذا كلّ بالصنعة، وهي إنّما موضوعها المادّة. فيُعدها التدبير والعلاج إلى قبول تلك الفصول، لا أكثر.

15 قال: فنحن نحاول مثل ذلك في *^(ب) الذهب والفيضة، فننخذ مادّة نضعها للتدبير، بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفيضة، ثم نحاولها بالعلاج على أن يتم فيها الاستعداد لقبول فضلها. انتهى كلام الطّغرائي بمعناه.

(١) سقط من ج (ب) سقط ما بين النجمين من ي .

وهذا الذي ذكره في الردّ على ابن سينا صحيح، لكن لنا في الردّ على أهل الصنّاعة مأخذ آخر يتّبين منه استحالة وجودها وبطلان مزعمهم أجمعين، لا الطّغرائيّ ولا ابن سينا.

وذلك أنّ حاصل علاجهم ، أنّهم بعد الوقوف على المادّة المستعِدّة بالاستعداد الأول، يجعلونها موضوعاً، ويحاذون في تديرها وعلاجها تدير الطّبيعة للجسم في المعدن 5 حتّى إحالته ذهباً أو فضّة، ويضاعفون القوَى الفاعلة والمنفّعة ليتمّ في زمانٍ أقصر. لأنّه تبيّن في موضعه أنّ مضاعفة قوّة الفاعل تنقص من زمن فعله، وتبيّن أنّ الذهب إنّما يتمّ كونه في معدّنه بعد ألف وثمانين من السنين، دورة الشّمس الكُبرى. فإذا تضاعفت القوَى والكيفيّات^(أ) في العلاج، كان زمان كونه أقصر من ذلك ضرورة، على ما قلناه. [أو]^(ب) يتحرّون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجيّة لتلك المادّة 10 يصيرها كالحميرة، فتفعل في الجسم المعالج الأفاعيل المطلوبة في إحالته. وذلك هو الأكسير، على ما تقدّم.

واعلم أنّ كلّ متكوّن من المولّدات العنصريّة، فلا بدّ فيه من اجتماع العناصر الأربعة وعلى نسبة متفاوتة، إذ لو كانت متكافئة في النسبة لما تمّ امتزاجها. فلا بدّ من الجزء الغالب على الكلّ. ولا بدّ في كلّ ممتزج من المولّدات من حرارة غريزيّة هي 15 الفاعلة لكوّنه، الحافظّة / لصورته. ثمّ كلّ متكوّن في زمان، فلا بدّ من [اختلاف]^(ج) أطواره واثقاله في زمن التّكوين من^(ج) طور^(د) إلى طور، حتّى ينتهي إلى غايته.

(أ) ج: الطّبيعيّات (ب) ط: و (ج) سقط من ط (د) سقط من ي .

وانظر شأن الإنسان في طور النطفة، ثم العلقه، ثم المضغة، ثم التصوير، ثم الجنين، ثم المولود، ثم الرضيع، ثم، ثم، إلى نهايته. ونسب الأجزاء في كل طور تختلف مقاديرها وكيفياتها. وإلا لكان الطور بعينه الأول هو الآخر. وكذا الحرارة الغريزية في كل طور، مخالفة لها في الطور الآخر.

- 5 فانظر إلى الذهب ما يكون له في مغنيه من الأطوار منذ ألف سنة وثمانين، وما ينتقل فيه من الأحوال، فيحتاج صاحب الكيمياء أن يساوق فعل الطبيعة في المعدين ويجاذبه بتدبيره وعلاجه إلى أن تتم. ومن شرط الصناعة أبداً تصوّر ما يقصد إليه بالصنعة. فن الأمثال السائرة في ذلك للحكماء: أول العمل آخر الفكرة، وآخر الفكرة أول العمل. فلا بد من تصوّر هذه الحالات للذهب في أحواله المتعددة ونسبها المتفاوتة في كل طور، واختلاف الحار الغريزي عند اختلافها، ومقدار الزمان في كل طور، وما ينوب عنه من مقدار القوى المضاعفة ويقوم مقامه، حتى يجاذبي بذلك كله فعل الطبيعة في المعدين، أو تعدد لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الخميرة للخبز، وتعمل في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها. وهذه كلها إنما يحصرها العلم المحيط، والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك. وإنما حال من يدعي 15 حصوله على الذهب بهذه الصنعة، بمثابة من يدعي - بالصنعة - تخليق إنسان من المني. ونحن إذا سلّمنا له الإحاطة بأجزائه ونسبه وأطواره، وكيفية تخليقه في رحم، وعلم ذلك علماً محصلاً بتفاصيله حتى لا يشذ منه شيء عن علمه، سلّمنا له تخليق هذا الإنسان. وأنى له ذلك؟!

ولنقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه، فنقول: حاصل صناعة الكيمياء [380] وما يدعونه بهذا التدبير، أنه مساوقة الطبيعة المعدية بالفعل / الصناعي ومحاذاتها به، إلى أن يتم كون الجسم المعدني، أو تخليق مادة بقوى وأفعال وصورة مزاجية تفعل في الجسم فعلاً طبيعياً فتصيره وتقليه إلى صورتها. والفعل الصناعي مسبق بتصورات أحوال الطبيعة المعدية التي يقصد مساوقتها ومحاذاتها، أو فعل المادة ذات القوى فيها، تصوراً مفصلاً واحدة بعد أخرى. وتلك الأحوال لا نهاية لها، والعلم البشري عاجز عن الإحاطة بما دونها، وهو بمثابة من يقصد تخليق إنسان أو حيوان أو نبات. هذا محصل هذا البرهان، وهو أوثق ما علمته. وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول، كما رأيته، ولا من الطبيعة، إنما هو من تعدد الإحاطة وقصور البشر عنها. وما ذكره ابن سينا بمغزل عن ذلك.

وله وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته؛ وذلك أن حكمة الله في الجبرين وتدورهما، أنهما قيم لمكاسب الناس ومتمولاتهم. فلو حصل عليها بالصناعة لبطلت حكمة الله في ذلك، وكثر وجودها حتى لا يحصل أحد من اقتنائها على شيء.

وله وجه آخر من الاستحالة أيضاً، وهو أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأعوص والأبعد. فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح، وأنه أقرب من طريق الطبيعة في معديها وأقل زماناً لما تركته الطبيعة إلى طريقها الذي سلكته في كون الفضة والذهب وتخليقها.

وأما تشبيه الطَّغْرَائِيِّ هذا التَّدييرَ بما عَثَرَ عليه من مُفرداتِ لأمثاله في الطَّبيعَةِ، كالْعُقْرِبِ والتَّحُلِّ والحَيَّةِ وتخليقها ، فأمرٌ صحيحٌ في هذه ، أدَّى إليه العُشُورُ كما زعم . وأما الكيمياءُ ، فلم يُنْقَلْ عن أحدٍ من أهل العالم أنَّه عَثَرَ عليها ولا على طريقها . وما زالَ مُتَحِلِّوها يُخِطُّونَ فيها عِشْواءً إلى هَلَمَّ ، ولا يَظْفَرُونَ إلَّا 5 بالحكايات الكاذبة . ولو صحَّ ذلك لأحدٍ منهم لَحَفِظَهُ عنه ولَدَّهُ أو تَلْمِذُهُ أو أَصْحَابُهُ / وتَوَقَّلَ في الأَصْدِقَاءِ ، وَضَمَّنَ تَصَدِيقَهُ صَحَّةَ العَمَلِ بَعْدَهُ إلى أن يَنْتَشِرَ وَيَبْلُغَ إلينا أو إلى غَيْرِنَا . [380ب]

وأما قولهم: إِنَّ الإكْسِيرَ بِمَثَابَةِ الحَمِيرَةِ ، وَإِنَّهُ مُرَكَّبٌ يَحِيلُ مَا حَصَلَ فِيهِ وَيَقْلِبُهُ إلى ذَاتِهِ ، فاعْلَمْ أَنَّ الحَمِيرَةَ إِنَّمَا تَقْلِبُ العَجِينَ وَتَعْدُّهُ لِلْهَضْمِ ، وَهُوَ فَسَادٌ . وَالْفَسَادُ فِي 10 المَوَادِّ سَهْلٌ ، يَقَعُ بِأَيْسَرِ شَيْءٍ مِنَ الأَفْعَالِ وَالطَّبَائِعِ ^(أ) . وَالْمَطْلُوبُ بِالْإكْسِيرِ قَلْبُ المَعْدِنِ إلى مَا هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ وَأَعْلَى ، فَهُوَ تَكْوِينٌ وَصَلَاحٌ . وَالتَّكْوِينُ أَصْعَبُ مِنَ الْفَسَادِ . فَلَا يُقَاسُ الْإكْسِيرُ عَلَى الحَمِيرَةِ ^(ب) .

وَتَحْقِيقُ الأَمْرِ فِي ذَلِكَ ، أَنَّ الكيمياءَ ، إِنْ صَحَّ وجودُها كما يزعمُ الحكماءُ المتكلمونَ فيها ، مِثْلَ جَابِرِ بنِ حَيَّانَ ، وَمَسْلَمَةَ بنِ أَحْمَدَ المَجْرِيَّيِّ ، وَأَمْثَالِهِمْ ، فَلَيْسَ 15 مِنْ بَابِ الصَّنَائِعِ الطَّبِيعِيَّةِ ، وَلَا تَتِمُّ بِأَمْرِ صِنَاعِيٍّ . وَلَيْسَ كَلَامُهُمْ فِيهَا مِنْ مَنَحَى الطَّبِيعِيَّاتِ ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ مَنَحَى كَلَامِهِمْ فِي الأُمُورِ السَّحَرِيَّةِ وَسَائِرِ الخَوَارِقِ ، وَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ لِلحَلَاجِ وَغَيْرِهِ . وَقَدْ ذَكَرَ مَسْلَمَةُ فِي كِتَابِ الغَايَةِ مَا يُشْبِهُ ذَلِكَ . وَكَلَامُهُ

(أ) سقط من ج (ب) ي: بالحيرة .

فيها في كتاب رُتبة الحكيم من هذا المنحى، وكذا كلام جابر في رسائله. ونحو كلامهم فيه معروف، ولا حاجة بنا إلى شرحه.

وبالجُملة، فأمرها عندهم من كليات الموالد الخارجة عن حُكم الصنائع. فكما لا يتدبّر ما منه الخشب والحيوان في يوم أو شهر خشب أو حيوان فيما عدا مجزى تخلّيقه، كذلك لا يتدبّر ذهب من مادة الذهب في يوم ولا شهر، ولا يتغيّر طريق عادته 5 إلا بإزفادٍ مما وراء عالم الطّباع وعمل الصنائع. فلذلك من طلب الكيمياء طلباً صناعياً ضيع ماله وعمله، ويقال لهذا التدبير الصناعي: التدبير العقيم، لأنّ ثيلها إن كان صحيحاً فهو واقعٌ مما وراء الطّباع والصنائع. فهو كالمشي على الماء، وامتناء الهواء، والتفوذ في كثائف الأجساد، ونحو ذلك من كرامات الأولياء الخارقة للعادة، أو مثل تخلّيق الطّير، ونحوها من مُعجزات الأنبياء. قال تعالى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ 10 الطَّيْرِ فَانْفُخْ فيهَ فيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية 49].

[381]

وعلى ذلك، فسيبلُ تيسيرها مُختلفٌ بحسب حال من يؤتاها. فربما أُوتِيها الصالح، ولم يؤتِها غيره فتكون عنده مُعارة. وربما أُوتِيها الطّالِح، ولا يملك إيتاءها فلا يتم في يد غيره. ومن هذا الباب يكون عملها سحرياً.

(1) فقد تبين أنّها إنما تقع بتأثيرات النفّس وخوارق العادة، إمّا معجزة أو كرامة 15 أو سحراً. ولهذا كان كلام الحكماء فيها إلغازاً، لا يظفر بتخقيقه إلا من خاض لُجّة من علوم السّحرة، واطّلع على تصرفات النفّس في عالم الطّبيعة (1).

(1) حاشية علّقها بخطه في نسخة ع.

وأَمُورُ خَزَقِ الْعَادَةِ غَيْرُ مَنْحَصَرَةٍ، وَلَا يَقْصِدُ أَحَدٌ إِلَى تَحْصِيلِهَا. ﴿وَاللَّهُ بِمَا
يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [سورة الأنفال، من الآية 17].

وَأَكْثَرُ مَا يَحْمِلُ عَلَى التَّمَسُّكِ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ وَاتِّحَالُهَا، هُوَ، كَمَا قُلْنَا، الْعَجْزُ عَنِ
الطَّرِيقِ الطَّبِيعِيِّ لِلْمَعَاشِ، وَابْتِغَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ وُجُوهِ الطَّبِيعِيَّةِ، كَالْفِلَاحَةِ وَالتَّجَارَةِ
5 وَالصَّنَاعَةِ، فَيَسْتَضَعِبُ الْعَاجِزُ ابْتِغَاءَهُ مِنْ هَذِهِ، وَيَرُومُ الْحَصُولَ عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ
الْمَالِ دَفْعَةً لِبُجُودِ غَيْرِ طَبِيعِيَّةٍ مِنَ الْكِيمْيَاءِ وَغَيْرِهَا. وَأَكْثَرُ مَنْ يُغْنِي بِذَلِكَ، الْفُقَرَاءُ مِنَ
أَهْلِ الْعُمُرَانِ، حَتَّى فِي الْحُكَمَاءِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي إِمْكَانِهَا وَاسْتِحَالَتِهَا. فَإِنَّ ابْنَ سِينَا،
الْقَائِلَ بِاسْتِحَالَتِهَا، كَانَ مِنْ عَلِيَّةِ الْوُزَرَاءِ، فَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى وَالثَّرْوَةِ، وَالْفَارَابِيِّ،
الْقَائِلَ بِإِمْكَانِهَا، كَانَ مِنْ أَهْلِ الْفَقْرِ الَّذِينَ يُعَوِّزُهُمْ أَدْنَى بُلْغَةٍ مِنَ الْمَعَاشِ وَأَسْبَابِهِ.
10 وَهَذِهِ تَهْمَةٌ ظَاهِرَةٌ فِي أَنْظَارِ التَّفُوسِ الْمَوْلَعَةِ بِطَرَفِهَا^(١) وَاتِّحَالِهَا. وَاللَّهُ ﴿الرَّزَاقُ ذُو
الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ [سورة النّار، من الآية 58].

34 ﴿فَصُلِّ (ب)﴾، فِي الْمَقَاصِدِ الَّتِي يَتَّبِعِي اعْتِمَادُهَا بِالتَّأْلِيفِ وَالْغَاءِ مَا سِوَاهَا

اعْلَمْ أَنَّ الْعُلُومَ الْبَشَرِيَّةَ خِزَانَتُهَا النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ، بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ
الْإِدْرَاكِ الَّذِي يُفِيدُهَا ذَلِكَ بِالْفِكْرِ الْمُحْصَلِ لَهَا ذَلِكَ بِالتَّصَوُّرِ لِلْحَقَائِقِ أَوَّلًا، ثُمَّ بِإِبْثَاتِ
15 الْعَوَارِضِ الدَّائِيَّةِ لَهَا أَوْ نَفْيِهَا عَنْهَا ثَانِيًا، إِمَّا بِغَيْرِ وَسْطٍ أَوْ بَوْسَطٍ، حَتَّى يَسْتَنْتِجَ

(١) ع: طَرَفُهَا (ب) وَرَدَ هَذَا الْفَصْلُ فِي ع وَحْدَهَا تَالِيًا لِلْفَصْلِ بَعْدَهُ، عَنْ "أَنَّ كَثْرَةَ التَّأْلِيفِ فِي الْعُلُومِ عَاقِبَةٌ عَنِ التَّحْصِيلِ"، وَقَدْ
كَتَبَ عَلَيْهَا بِحَظٍ دَقِيقٍ: "مَنْ هُنَا يُعْبَزُ إِلَى الصَّفْحَةِ الْيُسْرَى، فَصْلُ فِي الْمَقَاصِدِ الَّتِي، إلخ" وَسَقَطَ هَذَا الْفَصْلُ أَصْلًا مِنْ ظ ج ي .

الفكر بذلك مطالبته التي يُعنى بإثباتها أو نفيها. فإذا استقرت من ذلك صورة علمية في الضمير، فلا بُدَّ من بيانها لآخر، إما على وجه التعليم، أو على وجه المفاوضة لصفاء الأفكار في تصحيحها.

وذلك البيان إنما يكون بالعبارة، وهي الكلام المركب من الألفاظ التوظيفية التي خلقها الله في عضو اللسان مركبة من الحروف؛ وهي كيفيات الأصوات المقطعة 5 بعضلة اللهاة واللسان، ليتبين بها ضمائر المتكلمين بعضهم لبعض في مخاطباتهم. وهذه رتبة أولى في البيان عما في الضمائر، وإن كان معظمها وأشرفها العلوم، فهي شاملة لكل ما يتدرج في الضمير من خبر أو إنشاء على العموم.

وبعد هذه الرتبة الأولى من البيان رتبة ثانية يؤدي بها ما في الضمير لمن توارى أو غاب شخصه وبعده، أو لمن يأتي بعد ولم يعاصره ولا لقيه. وهذا البيان منحصر في 10 الكتابة؛ وهي رقوم باليد، تدل أشكالها وصورها بالتواضع على الألفاظ التوظيفية حروفاً بحروف، وكلمات بكلمات. فصار البيان فيها على ما في الضمائر بواسطة الكلام التوظيفية؛ فلهذا كانت في الرتبة الثانية.

وأحد قسمي هذا البيان يدل على ما في الضمائر من العلوم والمعارف، فهو 15 أرفعها. وأهل الفنون معتنون بإيداع ما يخلص في ضمائرهم من ذلك في بطون الأوراق بهذه الكتابة، لتعم الفائدة في حصوله للغائب والمتأخر. وهؤلاء هم المؤلفون. والتواليف بين العوالم البشرية والأمم الإنسانية كثير، ومنقلة في الأجيال والأعصار، وتختلف باختلاف الشرائع والمثل والأخبار عن الأمم والشعوب. وأما

العلوم الفلسفية فلا اختلاف فيها، لأنها إنما تأتي على نهج واحد فيما تقتضيه الطبيعة الفكرية في تصوّر الموجودات على ما هي عليه، جسمانيها وروحانيها، وفلكيها وعنصريها، ومجردها ومادتها. فإنّ هذه العلوم لا تختلف، وإنما يقع الاختلاف في العلوم الشرعية لاختلاف الملل، أو التاريخية لاختلاف خارج الخبر.

5 ثمّ الكتابة مختلفة باضطلاحات البشر في رسومها وأشكالها، ويسمى ذلك قلماً وخطاً. فمنها: الخط الحُميري، ويسمى المسند، وهو كتابة حمير وأهل اليمن الأقدمين. وهو يخالف كتابة العرب المتأخرين من مضر، كما يخالف لغتهم وإن كان الكلّ عربيّاً، إلا أنّ ملكة هؤلاء في اللسان والعبارة غير ملكة أولئك، ولكلّ منها قوانين كثيرة مستقراة من عباراتهم غير قوانين الآخرين. وربما يغلط في ذلك من لا يعرف ملكات العبارة. 10

ومنها: الخط السرياني، وهو كتابة النبط والكلدانيين. وربما يزعم بعض أهل الجهل أنّه الخط الطبيعي، لقدمه، فإنهم كانوا أقدر الأمم. وهذا وهم ومذهب عامي، لأنّ الأفعال الاختيارية كلّها ليس شيء منها بالطبع، وإنما هو يستمرّ بالقدم والميران حتى يصير ملكة راسخة، فيطّنها المشاهد طبيعة، كما هو رأس⁽¹⁾ كبير من البلداء في اللغات العربية، فيقولون: العرب كانت تُعرب بالطبع وتنتطق بالطبع، وهذا وهم. 15

ومنها: الخط العبراني الذي هو كتابة بني عابر بن شالخ، من بني إسرائيل وغيرهم.

(1) كنا، وربما أرادها التاسع: رأي كثير.

ومنها: الخطُّ اللَّطِينِيّ، خط اللَّطِينِيِّينَ مِنَ الرُّومِ. ولهم أيضاً لسانٌ مختَصٌّ بهم.

ونكَلُ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ اضْطِلَاحٌ فِي الْكِتَابِ يُعْزَى إِلَيْهَا وَيَخْتَصُّ بِهَا، مِثْلُ التُّرْكِ
وَالْفَرَنْجِ وَالْهِنْدِ وَغَيْرِهِمْ. وَإِنَّمَا وَقَعَتِ الْعِنَايَةُ بِالْأَقْلَامِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى. أَمَّا السُّرْيَانِيُّ،
فَلِقَدَمِهِ، كَمَا ذَكَرْنَا. وَأَمَّا الْعَرَبِيُّ [وَالْعَبْرِيُّ] ^(١)، فَلِتَنَزُّلِ الْقُرْآنِ وَالتَّوْرَةِ بِهِمَا، بِلِسَانِهِمَا.

وَكَانَ هَذَانِ الْخَطَّانِ بَيَانًا لِمَثَلَوْهُمَا؛ فَوَقَعَتِ الْعِنَايَةُ بِمَنْظُومِهِمَا أَوَّلًا، وَابْتَسَطَتْ قَوَانِينُ 5
لَا طَرَادِ الْعِبَارَةِ فِي تِلْكَ اللَّغَةِ عَلَى أَسْلُوبِهَا، لِتُفْهَمَ الشَّرَائِعُ التَّكْلِيفِيَّةُ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ
الرَّبَّانِيِّ. وَأَمَّا اللَّطِينِيُّ، فَكَانَ الرُّومُ، وَهُمْ أَهْلُ ذَلِكَ اللَّسَانِ، لَمَّا أَخَذُوا بِدِينِ
النَّصْرَانِيَّةِ، وَهُوَ كُلُّهُ مِنَ التَّوْرَةِ، كَمَا سَبَقَ فِي أَوَّلِ الْكِتَابَةِ، تَرْجُمُوا التَّوْرَةَ وَكُتِبَ
الْأَنْبِيَاءُ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ إِلَى لُغَتِهِمْ، لِيَقْتَنِصُوا مِنْهَا الْأَحْكَامَ عَلَى أَسْهَلِ الطُّرُقِ. وَصَارَتْ
عِنَايَتُهُمْ بِلُغَتِهِمْ وَكِتَابَتِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ سِوَاهَا. وَأَمَّا الْخَطُوطُ الْآخَرَى، فَلَمْ تَقَعْ بِهَا عِنَايَةٌ، 10
وَإِنَّمَا هِيَ لِكُلِّ أُمَّةٍ بِحَسَبِ اضْطِلَاحِهَا.

ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ حَصَرُوا مَقَاصِدَ التَّأْلِيفِ الَّتِي يَنْبَغِي اعْتِمَادُهَا وَإِلْغَاءُ مَا سِوَاهَا،
فَعَدَّوْهَا سَبْعَةً.

أَوَّلُهَا: اسْتِنْبَاطُ الْعِلْمِ بِمَوْضُوعِهِ، وَتَقْسِيمُ أَبْوَابِهِ وَفُصُولِهِ، وَتَتَبُّعُ مَسَائِلِهِ، أَوْ
اسْتِنْبَاطُ مَسَائِلَ وَمُبَاحَثَ تَغْرِضُ لِلْعَالِمِ الْحَقِّقِ، وَيَخْرُصُ عَلَى إِصَالِهِ لَغَايَتِهِ لِنَعْمِ 15
الْمَنْفَعَةِ بِهِ. فَيُودَعُ ذَلِكَ بِالْكِتَابِ فِي الْمَضْحَفِ، لَعَلَّ الْمَتَأَخَّرَ يَظْهَرُ عَلَى تِلْكَ الْفَائِدَةِ،
كَمَا وَقَعَ فِي أَصُولِ الْفِقْهِ. تَكَلَّمَ الشَّافِعِيُّ أَوَّلًا فِي الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ اللَّفْظِيَّةِ وَلَحْظِهَا، ثُمَّ

(١) لم ترد في الأصل، ويشخصها السياق.

جاء الحقيقة، فاستنبطوا مسائل القياس واستوعبوها، وانتفع بذلك من بعدهم إلى الآن.

وثانيها: أن يقف على كلام الأولين وتوابعهم فيجدها مستغلقة على الأفهام، ويفتح الله له في فهمها، فيحرص على إيانة ذلك لغيرة ممن عساه يستغلق عليه،
5 لتصل الفائدة لمستحقيها. وهذه طريقة البيان لكتب المعقول والمنقول، وهو فصل شريف.

وثالثها: أن يغتر المتأخر على غلط أو خطأ في كلام المتقدمين ممن اشتهر فضله وبعد في الإفادة صيته، ويستوثق في ذلك بالبرهان الواضح الذي لا مدخل للشك فيه، فيحرص على إيصال ذلك لمن بعده، إذ قد تعذر محوه ونزعه بانتشار
10 التأليف في الآفاق والأعصار، وشهرة المؤلف ووثوق الناس بمعارفه. فيودع ذلك الكتاب ليقف الناظر على بيان ذلك.

ورابعها: أن يكون الفن الواحد قد نُقِصَتْ منه مسائل أو فصول بحسب انقسام موضوعه، فيقصد المطلع على ذلك أن يتم ما نُقِصَ من تلك المسائل ليكمل
الفن بكمال مسائله وفصوله، ولا يبقى للنقص فيه مجال.

15 وخامسها: أن تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة في أبوابها ولا منتظمة، فيقصد المطلع على ذلك أن يرتبها ويهذبها ويجعل كل مسألة في بابها، كما وقع في المدونة من رواية سحنون عن ابن القاسم؛ وفي العنينة من رواية العنبي عن أصحاب مالك. فإن مسائل كثيرة من أبواب الفقه منها قد وقعت في غير بابها، فهذب ابن

أبي زَيْدِ المَدَوْنَةِ، وبقيت العُتْبِيَّةُ غيرَ مُهَدَّبةٍ، فنجدُ في كلِّ بابٍ مسائلَ من غِيره، واستغنَوْا بالمَدَوْنَةِ وما فعَلَهُ ابنُ أبي زَيْدٍ فيها والبراذعِيُّ من بَعْدِهِ.

وسادسها : أن تكونَ مسائلُ العِلْمِ مَفْرَقَةً في أبوابها من عُلُومٍ أُخْرَى، فيتنبَّه بعضُ الفضلاءِ إلى مَوْضوعِ ذلكَ الفنِّ وجمعِ مسائلِهِ ، فيفعلُ ذلكَ ، ويظهرُ به فنٌّ ينظمُهُ في جُمْلَةِ العُلُومِ الَّتِي يَتَنَحَّلُهَا البَشَرُ بأفكارِهِم ، كما وَقَعَ في عِلْمِ البَيَانِ ؛ فَإِنَّ 5 عبدَ القاهرِ الجُرْجَانِيَّ، وأبا يوسفَ السَّكَّاكِيَّ، وَجَدُوا مَسَائِلَهُ مُسْتَقَرَّةً في كُتُبِ التَّحْوِ، وقد جَمَعَ مِنْهَا الجَا حِظُّ في كِتَابِ البَيَانِ والتَّبْيِينِ مَسَائِلَ كَثِيرَةً تَنَبَّه النَّاسُ مِنْهَا لمَوْضوعِ ذَلِكَ العِلْمِ وانفَرَدَ عَنْ سَائِرِ العُلُومِ. فَكَتَبْنَا في ذَلِكَ تَوَالِيْفَهُمُ المَشْهُورَةَ، وصارتُ أَصُولاً لَفَنِّ البَيَانِ، وَلَقَنَّا المَتَأَخَّرُونَ فَأَرَبُوا فِيهَا عَلَى كُلِّ مُتَقَدِّمٍ.

وسابعها: أن يكونَ شَيْءٌ مِنَ التَّوَالِيْفِ الَّتِي هِيَ أَمَهَاتٌ لِلْفُنُونِ مَطْوَلًا مُسَهَّبًا، 10 فيُقَصَّدَ بالتَّأْلِيفِ تَلْخِيصُ ذَلِكَ بِالِاخْتِصَارِ والإيجازِ وحَذْفِ المَتَكَرِّرِ إنْ وَقَعَ، معَ الحَذْرِ من حَذْفِ الضَّرُورِيِّ، لئلاَّ يُخِلَّ بِمَقْصِدِ المَوْءَلَّفِ الأوَّلِ.

فهذه جَمَاعُ المقاصِدِ الَّتِي يَنْبَغِي اعْتِمَادُهَا فِي التَّأْلِيفِ ومِراعاتُهَا. وما سِوَى ذَلِكَ ففِعْلٌ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِ، وَخَطَأٌ عَنِ الجَادَّةِ الَّتِي يَتَّبَعْنَ سُلُوكُهَا فِي نَظَرِ العُقُلَاءِ، مِثْلُ انتِحَالِ مَا تَقَدَّمَ لغيرِهِ مِنَ التَّوَالِيْفِ ، أن يُنْسَبَ إِلَى نَفْسِهِ بَعْضُ تَلْبِيسٍ مِنْ تَبْدِيلِ 15 الأَلْفَاظِ وتَقْدِيمِ المَتَأَخَّرِ وَعَكْسِهِ، أو يَحْذَفَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الفَنِّ، أو يَأْتِي بِمَا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، أو يُبَدِّلُ الصَّوَابَ بِالْخَطَأِ، أو يَأْتِي بِمَا لَا فَايْدَةَ فِيهِ. فهذا شَأْنُ الجَهْلِ وَالقِحَّةِ. ولهذا قال أَرِسْطُو لما عَدَدَ هَذِهِ المقاصِدَ وانتهى إلى آخِرِهَا، فقال: وما سِوَى

ذلك فَفَضْلٌ أَوْ شَرٌّ. يَغْنِي بِذَلِكَ الْجَهْلَ وَالْقِحَّةَ. نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعَمَلِ فِيهَا لَا يَتَّبِعِي
لِلْعَاقِلِ سُلُوكُهُ. وَاللَّهُ ﴿يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ ^(١) [سورة الإسراء، من الآية 9].

35 • فَضْلٌ، فِي أَنْ كَثْرَةَ التَّوَالِيفِ فِي الْعُلُومِ عَائِقَةٌ عَنِ التَّحْصِيلِ

اعْلَمْ أَنَّهُ مِمَّا أَضَرَّ بِالنَّاسِ فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالْوُقُوفِ عَلَى غَايَاتِهِ، كَثْرَةُ التَّوَالِيفِ
5 واختلاف الاضطرابات في التعليم وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ
باستحضار ذلك، وحينئذ يُسَلَّمُ لَهُ مَنْصِبُ التَّحْصِيلِ. فَيَحْتَاجُ الْمُتَعَلِّمُ إِلَى حِفْظِهَا
كُلِّهَا أَوْ أَكْثَرِهَا وَمِرَاعَاةِ طَرَفِهَا، وَلَا يَبْقَى عُمُرُهُ بِمَا كُتِبَ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ إِذَا تَجَرَّدَ لَهَا،
فَيَقَعُ الْقُصُورُ - وَلَا بُدَّ - دُونَ رُتْبَةِ التَّحْصِيلِ.

- / وَتَمَثَّلُ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِ الْفِقْهِ فِي الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ بِكِتَابِ الْمَدُونَةِ مِثْلًا وَمَا [381ب]
- 10 كُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الشُّرُوحَاتِ الْفِقْهِيَّةِ، مِثْلَ كِتَابِ ابْنِ يُونُسَ، وَاللَّخْمِيِّ، وَابْنِ بَشِيرَ،
والتنبيهات، والمقدمات، وكذلك كتاب الغنئية، أختها، والبيان والتحصيل الذي
كُتِبَ عَلَيْهَا، وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كُتِبَ عَلَيْهِ. ثُمَّ إِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى
تَمْيِيزِ الطَّرِيقَةِ الْقَيْرَوَانِيَّةِ مِنَ الْقُرْطُوبِيَّةِ وَالبُغْدَادِيَّةِ وَالْمِصْرِيَّةِ، وَطُرُقِ الْمُتَأَخِّرِينَ عَنْهُمْ،
وَالْإِحَاطَةِ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَحِينَئِذٍ يُسَلَّمُ لَهُ مَنْصِبُ الْفُتْيَا. وَهِيَ كُلُّهَا مُتَكَرِّرَةٌ وَالْمَعْنَى
15 وَاحِدٌ. وَالْمُتَعَلِّمُ مُطَالِبٌ بِاسْتِحْضَارِ جَمِيعِهَا وَتَمْيِيزِ مَا بَيْنَهَا، وَالْعُمْرُ يَنْقُضِي فِي وَاحِدٍ

(١) كُتِبَ فِي ع بَعْدَ هَذِهِ الْخَاتَمَةِ بِحُطٍّ مِمَّاثِلٍ لِمَا وَرَدَ فِي الْحَاشِيَةِ (؟ كُنَّا) مَا يَلِي: وَرَجَعَ إِلَى مَا قَبْلَهُ بِوَرَقَتَيْنِ وَهُوَ قَوْلُهُ: فَضْلٌ فِي أَنْ
كَثْرَةَ التَّوَالِيفِ فِي الْعُلُومِ عَائِقَةٌ عَنِ التَّحْصِيلِ.

منها. ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط، لكان الأمر دون ذلك بكثير، وكان التعليم سهلاً ومأخذه قريباً، ولكنه داء لا يرتفع، لاستقرار العوائد [عليه] ⁽¹⁾، فصارت كالطبيعة التي لا يمكن ثقلها ولا تحويلها.

- وقمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه، وجميع ما كتبت عليه، وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم، وطرق المتقدمين والمتأخرين، مثل 5 ابن الحاجب، وابن مالك، وجميع ما كتبت في ذلك، وكيف يطالب به المتعلم، وينتضي عمره دونه. ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر، مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تواليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر، يعرف بابن هشام، ظهر من كلامه فيه أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل إلا لسيبويه وابن جني وأهل طبقتها، لعظيم ملكته وما أحاط به من أصول 10 ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه. ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصراً في المتقدمين، سيما مع ما قررناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتواليف. ولكن ﴿فَضَّلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [سورة المائدة، من الآية 54]، وهذا نادر من / نوادر الوجود. وإلا فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله [فلا] ^(ب) [1382]
- يقي له بتحصيل علم العربية مثلاً، الذي هو آلة من الآلات ووسيلة. فكيف يكون 15 في المقصود الذي هو من ^(ج) الثمرة؟ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة، من الآية 272 و سورة القصص، من الآية 56].

(1) سقط من ظ (ب) من ع ج ي، وفي ظ: ولا (ج) من ظ وحدها، وفي ع ج ي: الذي هو القمرة .

36 • فصل، في أن كثرة الاختصارات الموضوعية في العلوم مخلّة بالتعليم

ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم، يؤلّعون بها ويدوّنون منها بزناجماً مختصراً في كلّ علم، يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار 5 في الألفاظ، وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفنّ، فصار ذلك مخلّلاً بالبلاغة وعسيراً على الفهم [...] ^(أ). وربّما عمّدوا إلى الكتب الأمّهات المطوّلة في الفنون [...] ^(ب) والبيان، فاختصروها تقريباً للحفظ، كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه، وابن مالك في العربية، والخونجّي في المنطق، وأمثالهم. وهو فساد من التعليم، وفيه إخلال بالتحصيل.

10 وذلك لأنّ فيه تخلّطاً على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعدّ لقبولها بعد. وهو من سوء التعليم كما سيأتي. ثمّ فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلّم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم، لتراحم المعاني عليها واستخراج المسائل من بينها. لأنّ ألفاظ المختصرات نجدها لذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهمها حظّ صالح من الوقت. ثمّ بعد ذلك كلّها، فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات 15 إذا تمّ على سدايده ولم تعقبه آفة، فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطوّلة، لكثرة ما يقع في تلك من التكرار والإطالة المفيدتين لحصول الملكة الثّابتة. وإذا اقتصر عن التكرار قصرت الملكة بقلّته، كشأن هذه

(أ) بياض في ط ج ي، وسقط من ع (ب) في ي فراغ لكلمة أثبت منها حرفين .

الموضوعات المختصرة؛ فقصّوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلّمين، فأزكّوهم صعباً
بقطعهم عن تحصيل الملكات الثافعة وتمكّنها. / ومن يهد الله فلا مضلّ له، ﴿مَنْ
يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ [فكلاً هادى له، ﴿سورة الأعراف، من الآية 186]].

[382ب]

37 • فصل، في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته

اعلم أنّ تلقين [العلوم للمتعلّمين]⁽¹⁾ إنّما يكون مفيداً إذا كان على التدرّج شيئاً
5 شيئاً وقليلًا قليلًا، يلقي عليه أولاً مسائل في كلّ باب من الفنّ، هي أصول ذلك
الباب، ويقرّب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعى في ذلك قوّة عقله
واستغداؤه لقبول ما يورّد عليه، حتّى ينتهي إلى آخر الفنّ، وعند ذلك تحصل
له ملكة في ذلك العلم. إلّا أنها قريبة وضعيفة، وغايها أنّها هيئته لفهم الفنّ وتحصيل
10 مسائله.

ثمّ يرجع به إلى الفنّ ثانية، فيرفّعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها،
ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف
ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفنّ، فتجود ملكته.

ثمّ يرجع به وقد شدّا، فلا يترك عويصاً ولا مبهمًا ولا مُنغلقاً إلّا أوضّحه وفتح
15 له مُقفلّه، فيخلص من الفنّ وقد استوّلى على ملكته.

(1) ع: المتعلّمين للعلوم.

هذا وجهُ التَّعليمِ المفيد. وهو كما رأيتَ، إنّما يحصلُ في ثلاثِ تَكَرُّراتٍ. وقد يحصلُ للبَنَصِ في أَقلِّ من ذلك بحسَبِ ما يُخلَقُ [له] ^(أ) ويتيسَّرُ عليه.

وقد شاهدنا كثيراً من [المُعَلِّمين] ^(ب) لهذا العهد الذي أدركنا ، يجهلون طريقَ هذا التَّعليمِ وإفادته، ويُحضِّرونَ المتعلِّمَ في أوَّلِ تعلِّيمه المسائلَ المُقلَّلةَ من العلمِ، يُطالِبونه بإخضارِ ذهنه في حلِّها ، ويحسبونَ ذلك مراناً على التَّعليمِ وصواباً فيه، ويكلفونه وَعْيَ ذلك وتَحْصِيلَه. فيخلُطونَ عليه بما يلقونَ له من غاياتِ الفنونِ في مبادئها وقبلَ أن يَسْتَعِدَّ لفهمها، فإنَّ قبولَ العلمِ والاستعداداتِ لفهمه تنشأُ تدريجاً.

ويكونُ المتعلِّمُ أوَّلَ الأمرِ عاجزاً عن الفهمِ بالجُمْلَةِ، إلَّا في الأقلِّ وعلى سبيل

التَّقريبِ والإجمالِ وبالمثلِ الحِسِّيَّةِ. ثمَّ لا يزالُ الاستعدادُ فيه يتدرَّجُ قليلاً / قليلاً [383] بمخالطةِ مسائلِ ذلك الفنِّ وتكرارها عليه، والانتقالِ فيها من التَّقريبِ إلى الاستيعابِ الذي فوقه، حتَّى تَمَّ الملكةُ في الاستعدادِ، ثمَّ في التَّحصيلِ، ويحيطُ بمسائلِ الفنِّ.

وإذا أُلْقِيَتْ عليه الغاياتُ في البداية وهو حينئذٍ عاجزٌ عن الفهمِ والوعْيِ، وبعيدٌ عن الاستعدادِ له، كلَّ ذهنه عنها، وحسِبَ ذلك من صُعوبةِ العلمِ في نفسه، فتكاسلَ عنه ، وانحرفَ عن قبوله ، وتمادى في هجرانه . وإنَّما أتى في ذلك من سوءِ التَّعليمِ. 15

وَلَا يَنْبَغِي [للمُعَلِّم] ^(ج) أَنْ يَزِيدَ مُتَعَلِّمَهُ عَلَى فَهْمِ كِتَابِهِ الَّذِي أَكَبَّ عَلَى التَّعْلِيمِ مِنْهُ، بِحَسَبِ طَبَقَتِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ قَبُولِهِ لِلتَّعْلِيمِ، مُبْتَدِئاً كَانَ أَوْ مُنْتَهِياً. وَلَا يَخْلُطُ

(أ) من ع ج ي، وسقط من ظ (ب) في الأصول: المتعلمين، والأصوب ما أثبتنا والسياق يؤيدُه (ج) في ظ: لمتعلم .

مسائل الكتاب بغيرها حتى يعينه من أوله إلى آخره، ويحصل أغراضه، ويستولي منه على ملكة بها يتفقد في غيره. لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي، وحصل له نشاط في طلب المزيد، والنهوض إلى ما فوق، حتى يستولي على غايات العلم. وإذا خلط عليه الأمر، عجز عن الفهم وأدركه الكلال، وانطمس فكره، ويئس من التحصيل، وهجر العلم والتعلم. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي 5 مَنِ يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة، من الآية 213، وسورة النور، من الآية 46].

^(أ) وكذلك ينبغي أن لا يطول على المتعلم في الفن الواحد أو الكتاب الواحد بتطعيم المجالس وتفریق ما بينها، لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها عن بعض، فيفسر حصول الملكة بتفريقها. وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكر، مجابة للنسيان، كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب صبغة [.....] ^(ب)، لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكرره. وإذا توسيى الفعل، توسيى الملكة الناشئة عنه؛ والله ﴿عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ^(ج) [سورة البقرة، من الآية 239].

ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم، أن لا يخلط على المتعلم علماً معاً، فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منها، لما فيه من تقسّم / البالي وانصرافه عن 15 كل واحد منها إلى تفهم الآخر، فيستغلان معاً ويستصعبان، ويعود منها بالخبثية.

(أ) هذه الفقرة أحققها ابن خلدون في حاشية ع بخطه. وأدرجتها ط ج ي في مثنها (ب) كلمتان مشطوبتان في حاشية ع

(ج) آخر الفقرة التي وردت في حاشية ع .

وَإِذَا تَفَرَّغَ الْفَكْرُ لَتَعْلَمَ مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ مُقْتَصِرًا عَلَيْهِ، فَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ أَجْدَرَ بِتَخْصِيلِهِ.
وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ⁽¹⁾.

1. * فَصْلٌ

وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمَتَعْلَمُ، أَنِّي أَتُحِفُّكَ بِفَائِدَةٍ فِي تَعْلَمِكَ، إِنْ تَلَقَّيْتَهَا بِالْقَبُولِ وَأَمْسَكْتَهَا
5 بِيدِ الصَّنَاعَةِ ظَفَرَتْ بِكَزْرِ عَظِيمٍ وَذَخِيرَةٍ شَرِيفَةٍ. وَأَقْدَمُ لَكَ مَقْدَمَةٌ تَعِينُكَ عَلَى فَهْمِهَا.
وَذَلِكَ أَنَّ الْفَكْرَ الْإِنْسَانِيَّ طَبِيعَةٌ مَخْصُوصَةٌ فَطَرَهَا اللَّهُ كَمَا فَطَرَ سَائِرَ
مَبْدَعَاتِهِ. وَهُوَ فِعْلٌ وَحَرَكَةٌ فِي التَّنَفُّسِ بِقُوَّةٍ فِي الْبَطْنِ الْأَوْسَطِ مِنَ الدِّمَاغِ. وَتَارَةٌ
يَكُونُ مَبْدَأٌ لِلْأَفْعَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ، وَتَارَةٌ يَكُونُ مَبْدَأٌ لِعِلْمٍ مَا لَا يَكُونُ
حَاصِلًا، بَأَن يَتَوَجَّهَ إِلَى الْمَطْلُوبِ، وَقَدْ تَصَوَّرَ طَرَفَيْهِ، وَيَرُومُ نَفْيَهُ أَوْ إِثْبَاتَهُ، فَيَلْوُحُ
10 لَهُ الْوَسْطُ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا أَسْرَعَ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ إِنْ كَانَ وَاحِدًا، وَيَنْتَقِلُ إِلَى
تَخْصِيلِ وَسْطٍ آخَرَ إِنْ كَانَ مُتَعَدِّدًا، وَيَبْصُرُ إِلَى الظَّفَرِ بِمَطْلُوبِهِ. هَذَا شَأْنُ هَذِهِ
الطَّبِيعَةِ الْفَكْرِيَّةِ الَّتِي تَمَيَّزُ بِهَا الْبَشَرُ مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانِ.

ثُمَّ الصَّنَاعَةُ الْمُنْطِقِيَّةُ هِيَ كَيْفِيَّةُ فِعْلٍ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْفَكْرِيَّةِ النَّظَرِيَّةِ، تَصِفُهُ لِيَعْلَمَ
سَدَادُهُ مِنْ خَطِئِهِ. لِأَنَّهَا وَإِنْ كَانَ الصَّوَابُ لَهَا ذَاتِيًّا، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَعْزِضُ لَهَا الْخَطَأُ فِي
15 الْأَقْل، وَغَالِيهِ^(ب) مِنْ تَصَوُّرِ الطَّرْفَيْنِ عَلَى غَيْرِ صَوْرَتَيْهِمَا، وَمِنْ اشْتِبَاهِ الْهَيْئَاتِ فِي
[نَظْمِ]^(ج) الْقَضَايَا وَتَرْتِيبِهَا لِلنَّتَائِجِ، فَيُعِينُ الْمُنْطِقُ عَلَى التَّخْلُصِ مِنْ وَزْطَةِ هَذَا الْقَسَادِ

(أ) فِي الْأَصْلِ عِشْرَةُ مُخْرَجٍ إِلَى الْعَيْنِ، قَدْ يَكُونُ كَتَبُهُ فِي بِلَاقَةِ تَمْ سَقَطَتْ. وَعَنْهَا قُلْتُ ظ ج هَذَا الْفَصْلُ قَبْلَ ضِيَاعِهِ، وَهُوَ
التَّالِي بَيْنَ النِّجْمَيْنِ (ص 450-453)، وَلَمْ يَرَدْ فِي ي (ب) مِنْ ظ، وَسَقَطَ مِنْ ج (ج) مِنْ ج، وَسَقَطَ مِنْ ظ.

إن عَرَض. فالمنطقُ إذاً أمرٌ صناعيٌّ مساوٍ للطبيعة الفكرية، ومُنطبقٌ على صورة فعلها.

ولكونه أمراً صناعياً استُغني عنه في الأكثر؛ ولذلك نجد كثيراً من فحول النُّظار في الحليقة يخلصون على المطالب في العلوم دون علم صناعة المنطق، ولا سيما مع صدق النية والتعرض لرحمة الله، فإن ذلك أعظم / معين. ويسلكون بالطبيعة 384] 5 الفكرية على سدادها، فتقضي بهم بالطبع إلى حصول الوسط والعلم بالمطلوب، كما قَطَرها الله عليه.

ثم من دون هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق، مقدمة أخرى من التَّعلم، وهي معرفة الألفاظ ودلالاتها^(أ) على المعاني الذهنية، تؤدِّيها من مُشافهة الرسوم بالكتاب، أو مُشافهة باللسان النطق^(ب) بالخطاب. فلا بدَّ أيها المتعلم من تجاوزك 10 هذه الحُجب كلها إلى الفكر في مَطْلُوبك. فأولاً دَلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المَقُولَة، وهي أَحَقُّها، ثم دَلالة الألفاظ المَقُولَة على المعاني المَطْلُوبَة، ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قَوَالِهَا المعروفة في صناعة المنطق، ثم تلك المعاني مُجَرَّدَة في الفكر اشتراكاً يُقْتَنَصُّ بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله ومواهبه. 15 وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة، ولا يقطع هذه الحُجب في التَّعلم بسهولة؛ بل ربَّما وَقَفَ الذَّهْنُ في حُجْب الألفاظ بالمناقشات، أو عَثَرَ في اشتراك^(ج) الأدلة بشغب الجدال والشبهات ففقد عن تحصيل المطلوب. ولم يكذ

(أ) ج: دلالتها (ب) كذا جاءت في ظ غير مشكولة بمعنى الناطق (ج) ج: إشراك .

يُخْلَصُ مِنْ تِلْكَ الْعَمْرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ مِمَّنْ هَدَاهُ اللَّهُ. فَإِذَا ابْتُلِيتَ بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَعَرَّضَ لَكَ
 ارْتِيَاكَ فِي فَهْمِكَ أَوْ تَشْغِيبَ الشُّبُهَاتِ فِي ذَهْنِكَ، فَاطْرَحْ ذَلِكَ، وَانْبِذْ حُجُبَ
 الْأَلْفَاظِ وَعَوَائِقَ الشُّبُهَاتِ، وَاتْرِكْ الْأَمْرَ الصَّنَاعِيَّ جَمْلَةً، وَاخْلُصْ إِلَى قَضَاءِ الْفِكْرِ
 الطَّبِيعِيِّ الَّذِي فُطِرْتَ عَلَيْهِ، وَسَرِّحْ نَظْرَكَ فِيهِ، وَفَرِّغْ ذَهْنَكَ لِلْغَوْصِ عَلَى مَرَامِكَ
 5 مِنْهُ، وَاضْعاً قَدَمَكَ حَيْثُ وَضَعَهَا أَكْبَرُ النَّظَّارِ قَبْلَكَ، مُتَعَرِّضاً لِلْفَتْحِ مِنَ اللَّهِ كَمَا فَتَحَ
 [عَلَيْهِمْ] ^(١) مِنْ رَحْمَتِهِ وَعَلَّمَهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ. فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ، أَشْرَقَتْ عَلَيْكَ
 أَنْوَارُ الْفَتْحِ مِنَ اللَّهِ بِالظَّفَرِ بِمَطْلُوبِكَ، وَحَصَلَ الْإِلْهَامُ الْوَسْطُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ مِنْ
 مُقْتَضِيَاتِ هَذَا الْفِكْرِ وَقَطَرُهُ عَلَيْهِ، كَمَا قُلْنَا. / وَحِينَئِذٍ، فَارْجِعْ بِهِ إِلَى قَوَالِبِ الْأَدِلَّةِ
 وَصُورِهَا، فَأَفْرِغْ فِيهَا وَوَقِّهِ حَقَّهُ مِنَ الْقَانُونِ الصَّنَاعِيِّ، ثُمَّ اكْسُهُ صُورَ الْأَلْفَاظِ،
 10 وَأَبْرِزْهُ إِلَى عَالَمِ الْخِطَابِ وَالْمُشَافَهَةِ وَثِيقِ الْعَرَى صَحِيحِ الْبُنْيَانِ.

وَأَمَّا إِنْ وَقَفْتَ عِنْدَ الْمُنَاقَشَةِ فِي الْأَلْفَاظِ وَالشُّبُهَةِ فِي الْأَدِلَّةِ الصَّنَاعِيَّةِ،
 وَتَحْصِيسِ صَوَابِهَا مِنْ خَطئِهَا - وَهَذِهِ أُمُورٌ صِنَاعِيَّةٌ وَضَعِيَّةٌ تَسْتَوِي جِهَاتُهَا الْمُتَعَدِّدَةُ،
 وَتَشَابَهُهُ لِأَجْلِ الْوَضْعِ وَالِاصْطِلَاحِ - فَلَا تَتَمَيَّزُ جِهَةٌ الْحَقِّ مِنْهَا، إِذْ جِهَةُ الْحَقِّ إِنَّمَا
 تَتَمَيَّزُ إِذَا كَانَتْ بِالطَّبْعِ. فَيَسْتَمِرُّ مَا حَصَلَ مِنَ الشَّكِّ وَالِازْتِيَابِ، وَتُسَدِّلُ الْحُجُبُ
 15 عَلَى الْمَطْلُوبِ، وَتَقْعُدُ بِالنَّظَرِ عَنْ تَحْصِيلِهِ. وَهَذَا شَأْنُ الْأَكْثَرِينَ مِنَ النَّظَّارِ الْمُتَأَخِّرِينَ،
 سَيِّمًا مَنْ سَبَقَتْ لَهُ عُجْمَةٌ فِي لِسَانِهِ فَرِيطَتْ عَلَى ذِهْنِهِ، أَوْ مَنْ حَصَلَ لَهُ شَقَفٌ
 بِالْقَانُونِ الْمُنْطَلِقِيِّ ^(ب) وَتَعْصَبَ لَهُ، فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ الذَّرِيعَةُ بِالطَّبْعِ إِلَى دَرْكِ الْحَقِّ، فَيَقْعُ فِي

(١) مِنْ ج. وَ فِي ظ: عَلَيْهِ (ب) كَذَا فِي ظ ج.

الحيرة بين شبه الأدلة وشكوكها ولا يكاد يخلص منها. والذريعة إلى ذلك الحق بالطبع، إنما هو الفكر الطبيعي، كما قلناه، إذا جرد عن جميع الأوهام، وتعرض التأخر فيه لرحمة الله. وأما المنطق، فإنما هو واصف لفعل هذا الفكر، فيساوئه لذلك في الأكثر .

- 5 فاعتبر ذلك ، واستمطر رحمة الله متى أغورك فهم المسائل ، تشرق عليك أنواره بالإلهام إلى الصواب، والله الهادي برحمته، وما العلم إلا من عند الله . ❁

❁ انتهى المستدرك الناقط من ع ي .

38 ﴿١﴾ فصل، في أن العلوم الآلية لا توسع فيها الأنظار ولا تفرع فيها﴾ (ب) المسائل

اعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين: علوم مقصودة بالذات، كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، والطبيعيات والإلهيات من الفلسفة. وعلوم هي آلة ووسيلة لهذه العلوم، كالعربية والحساب وغيرها للشرعيات، 5
والمناطق للفلسفة، وربما كان آلة / لعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين. [385]
فأما العلوم التي هي مقاصد، فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفرع المسائل، واستكشاف الأدلة والأنظار. فإن ذلك يزيد طالبها تمكناً في ملكته وإيضاحاً لمعانيها المقصودة (ج).

(أ) سقط هذا الفصل من ع، ولا شك أنه كان متصلاً بنص البطاقة المخرجة التي كان بها الفصل السابق الذي أنحف به المتعلم. وقد قلته ط ج ي قبل اختفائه (ب) من ج (ج) اختلفت نسخة "ي" عن النسختين ط ج في صياغة هذه الفقرة من الفصل، وقد رأيت أن أفردها في قسم الفروق حتى لا أقوم بتكوين نص تأليفي من كل النسخ على غير ما أراده المؤلف. وكثيراً ما يعتمد ابن خلدون إلى هذه المراجعات التي لا يختلف محتواها عن بعضه في شيء. وفي بقية الفصل فروق خفيفة بينها عليها مقطعة، تجنباً لإعادة كامل فصل ي في الحاشية:

• فصل، في أن العلوم الآلية لا توسع فيها المسائل والأنظار

اعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين؛ منها ما هو مقصود لذاته كعلوم الشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، ومن العلوم الحكيمية الطبيعية والإلهيات والتعاليم، ومنها ما هو آلة ووسيلة لهذه العلوم، كالعربية والحساب وأصول الفقه وغيرها للشرعيات، والمنطق للحكمة. وربما كان آلة لعلم الكلام على طريقة المتأخرين ولأصول الفقه. وأما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها، وتفرع المسائل وتدقيق النظر واستكشاف الأصناف، فإنه يزيد بها تمكناً في الملكة وإيضاحاً [وإنضاجاً] في المعاني المقصودة منها.

وأما العلوم التي هي آلة لغيرها، مثل العربية والمنطق وأمثالها، فلا ينبغي أن يُنظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط، ولا يوسع فيها الكلام، ولا تُفرع المسائل، لأن ذلك يخرج بها عن المقصود، إذ المقصود منها ما هي آلة له، لا غير. فكلما خرجت عن ذلك، خرجت عن المقصود، وصار الاشتغال بها لغواً^(أ)، مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكيتها بطولها وكثرة فروعها. وربما يكون ذلك عائقاً عن 5 تحصيل العلوم المقصودة^(ب) بالذات *لطول وسائلها*^(ج)، مع أن شأنها أهم، والعمر يُقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة^(د)، فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية [على هذا النحو]^(هـ) تضييعاً للعمر وشغلاً بما لا يعني.

وهذا كما فعله المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق، لا بل وأصول الفقه، لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها *نقلاً واستدلالاً*^(و)، وأكثروا من التفاريع 10 والمسائل^(ز) بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها مقصودة بذاتها^(ح). وربما يقع فيها لذلك أنظار ومسائل لا حاجة بها في العلوم المقصودة بالذات^(ط)، فتكون لأجل ذلك لغواً*^(ي) وتُضِرُّ [بالمُتعلِّم]^(ك) على الإطلاق، لاهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من هذه الآلات والوسائل. فإذا قطعوا العمر في هذه^(ل) الوسائل، فمتى يظفرون 15 بالمتصيد؟

(أ) في ي: غشاً ولغواً (ب) ي: التي هي مقصودة (ج) سقط من ي (د) ي: على ما يجب (هـ) من ي (و) سقط من ي (ز) ي: والاستدلالات (ح) ي: وصبروها من المقاصد (ط) سقط من ي (ي) ي: وهي من نوع اللغو (ك) ظ: بالمُتعلِّمين (ل) في ي: تحصيل .

فلهذا يجبُ على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا* فيها ولا
يَشْكُرُوا من مسائلها، ويأخذُوا بالمتعلّم في الغرض منها*^(١) ويَقِفُوا به عنده. ومن
نَزَعَتْ [به]^(ب) هِمَّتُهُ بعد ذلك إلى شيءٍ من التَّوَعُّلِ، ورأى من نفسه قياماً بذلك
وكفايةً [به]^(ج)، فليَخْتَرْ لنفسه. وكلّ مُيسَّر لما خُلِقَ له^(د).

5 39 • / فصل، في تعليم الولدان، واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه

اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعارٌ من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة
ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلى القلوب من رُسوخ الإيمان
وعقائده من آيات القرآن ونغض مُتون الأحاديث. وصار القرآن أصل التعليم الذي
يُنْبَتِي عليه ما يَحْضُلُ بعده من الملكات. وسبب ذلك أن تعليم الصَّغَرِ أشدَّ رُسوخاً،
وهو أصل لما بعده. لأنَّ السابقَ الأوَّلَ إلى القلوب كالأساس للملكات، وعلى
حَسَبِ الأساس وأساليبه يكونُ حالُ ما يَنْبَتِي عليه.

واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم في اعتبار ما يَنْشَأُ عن
ذلك التعليم من الملكات.

(١) في ي: شأنها وبشوا المتعلّم على الغرض منها (ب) من ي (ج) ظ: له (د) في ي حول هذا المعنى: فليُرق له ما شاء من المرامي صعباً أو سهلاً، وكلّ مُيسَّر لما خُلِقَ له.

فأما أهل المغرب، فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدايسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب، إلى أن يجذق في ذلك أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة. وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قراء 5 البربر أمم المغرب في ولدانهم، إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة. وكذا في الكبير إذا راجع مدايسة القرآن بعد طائفة من عمره. فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم.

وأما أهل الأندلس، فمذهبهم تعليم القراءة والكتاب من حيث هو. وهذا هو الذي يراعونه في التعليم؛ إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه، ومنبع الدين والعلوم، 10 جعلوه أضلاً في التعليم. فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب، والترسيل، وأخذهم بقوانين العربية وحفظها، وتجويد الخط والكتاب. [386] / الخط والكتاب.

ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها، إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء 15 في العربية والشعر والبصر بهما، وبرز في الخط والكتاب، وتعلق بأذبال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم. لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم، ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول. وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى، واستعداد إذا وجد المعلم.

وأما أهل إفريقية، فيخيطون⁽¹⁾ في تعليم الولدان القرآن بالحديث في الغالب، ومدرسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها. إلا أن عنايتهم بالقرآن، واستظهار الولدان إياه، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه، وعنايتهم بالخط تبع لذلك. وبالجملة، فطريقتهم في تعليم الولدان أقرب إلى طريقة أهل الأندلس، لأنَّ سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا 5 عند تغلب التصاري على شرق الأندلس واستقروا بتونس، وعندهم أخذ ولدانهم من بعد ذلك.

وأما أهل المشرق، فيخيطون في التعليم كذلك على ما يتلغنا، ولا أذري بم عنايتهم منها. والذي يُنقل لنا، أنَّ عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشيعة، ولا يخيطونه بتعليم الخط، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له 10 على انفرادهم كما تتعلم سائر الصنائع، ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان، وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجادة. ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يستخ له بعد ذلك من الهمة في طلبه ويبتغيه من أهل صنعته.

[فأما]⁽¹⁾ أهل إفريقية والمغرب، فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن 15 ملكة اللسان جملة. وذلك أنَّ القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة، لما أنَّ البشر مضروفون عن الإثيان / بمثله. فهم مضروفون كذلك عن الاستعمال على أساليبه،

[386ب]

(1) ظ: وأما .

(1) انظر محمد بن سحنون : آداب المعلمين : 102 .

والاختناء بها، وليس لهم ملكة في غير أساليبه، فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي، وحظّه الجمود في العبارات، وقلة التصرف في الكلام.

وربما كان أهل إفريقية في ذلك أخف من أهل المغرب، لما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها، كما قلناه. فيقتديرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل. إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة، لما أن أكثر 5 مَحْفُوظِهِمْ عبارات العلوم النازلة عن البلاغة، كما سيأتي في فضله.

وأما أهل الأندلس، فأفادهم التقن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسيل ومدرسة العربية من أول العمر، حصول ملكة صاروا بها أعرق في اللسان العربي، وقصروا في سائر العلوم لبغدهم عن مدارس القرآن والحديث، الذي هو أصل 10 العلوم وأساسها. فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر، على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا.

ولقد ذهب القاضي أبو بكر ابن العربي في كتاب رخلته⁽¹⁾، إلى غيبة في وجه التعليم، وأعاد في ذلك وأبدى، وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم، كما هو مذهب أهل الأندلس. قال: لأن الشعر ديوان العرب. ويدعو إلى تقديمه وتقديم العربية في التعليم، ضرورة فساد اللغة؛ ثم تنتقل منه إلى الحساب، فتمرر فيه 15 حتى ترى القوانين. ثم تنتقل إلى درس القرآن، فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة. ثم قال: ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الطفل بكتاب الله في أول أمره، يقرأ

(1) قانون التأويل 346 .

ما لا يفهم ، وينصب في أمر غيره أهم عليه منه . قال : ثم ينظر في أصول الدين ، ثم أصول الفقه ، ثم الجدل ، ثم الحديث وعلومه . ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علان ، إلا أن يكون المتعلم / قابلاً لذلك بجودة الذهن والنشاط .

[387 أ]

هذا ما أشار إليه القاضي أبو بكر رحمه الله . وهو لقنري مذهب حسن ،
5 إلا أن العوائد لا تساعد عليه ، وهي أملك بالأحوال . ووجه ما اختصت به العوائد من تقديم دراسة القرآن إيثار التبرك والثواب ، وخشية ما يعترض الولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن ؛ لأنه - ما دام في الحجر - منقاد للحكم ، فإذا تجاوز البلوغ وانحل من رتبة القهر ، فربما عصفت به رياح الشبهة فألقته بساحل البطالة . فيغتنمون في زمان الحجر ورتبة الحكم تحصيل القرآن له ،
10 لئلا يذهب خلواً منه . ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبول التعليم ، لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق . لكن الله يحكم ما يشاء ، ﴿ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [سورة الرعد ، من الآية 41] .

40 • فصل ، في أن الشدة على المتعلمين مضرّة بهم

وذلك أن إرهاف الحد في التأديب مضرّ بالمتعلم ، سيما في أصاغر الولد ،
15 لأنه من سوء الملكة . ومن كان مزياه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم ، سطا به القهر ، وضيق على النفس في انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعا إلى الكسل ، وحل على الكذب والخبث ؛ وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً

من انبساط الأيدي بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادة وخلقا ، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتقدم ، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه أو منزله ، وصار عيالا على غيره في ذلك ، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل ، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها ، فازتكس وعاد في أسفل سافلين.

5

وهكذا وقع لكل أمة حصلة في قبضة القهر ونال منها العسف. واعتبره في كل / من يملك أمره عليه ، ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به ، تجذ ذلك فيهم [387ب] استقراء. وانظره في اليهود وما حصل فيهم بذلك من خلق السوء ، حتى إنهم يوصفون في كل أفي وعصر بالخرج ، ومغناه في الاصطلاح المشهور: التخابث والكيد. وسببه ما قلناه.

10

فلذلك ينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يشتدوا عليهم في التأديب. وقد قال أبو محمد ابن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين⁽¹⁾ ، فقال: لا ينبغي للمؤدب للصبيان أن يزيد في ضرهم - إذا احتاجوا إليه - على ثلاثة أسواط شيئا. ومن كلام عمر رضي الله عنه: من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله ، حرصا على صون النفوس عن مذلة التأديب ، وعلمًا بأن المقدار الذي عيَّنه الشرع لذلك أملك له ، فإنه أعلم بمصلحته.

15

(1) تقدم في 1: 226 ، ولعله لمحمد بن سحنون ، انظر آداب المعلمين 89 ، 92 ، وفيه: "أدب الصبي ثلاث درر ، فما زاد عليه قوصص به يوم القيامة". واعتبر ح.ج عبد الوهاب نسبة الكتاب لابن أبي زيد مخض اشتباه. (آداب المعلمين ، التصدير 1: 30).

ومن أحسن مَذهبِ التَّعليمِ، ما تَقَدَّمَ به الرِّشيدُ لمعلِّمٍ وَلَدِهِ؛ قال خَلَفَ
 الأَخَرُ: بعثَ إلى الرِّشيدِ لتأديب وَلَدِهِ مُحَمَّدِ الأَمِينِ، فقال ⁽¹⁾: يا أَخَرُ، إِنَّ أَمِيرَ
 المؤمنينَ قد دَفَعَ إليك مَهْجَةً نَفْسِهِ، وَثَمَرَةً قَلْبِهِ، فَصَيِّرْ يَدَكَ عَلَيْهِ مَبْسُوطَةً، وَطَاعَتَهُ
 لكَ واجِبَةً. فَكَانَ لَهُ بِحَيْثُ وَضَعَكَ أَمِيرُ المؤمنينَ: أَقْرَبُهُ الْقُرْآنَ ، وَعَرَفَهُ الْأَخْبَارَ،
 5 وَرَوَّهَ الْأَشْعَارَ، وَعَلَّمَهُ السُّنَنَ، وَبَصَّرَهُ بِمَوَاقِعِ الْكَلَامِ وَبَذِيئِهِ، وَامْتَنَعَهُ مِنَ الضَّحْكِ إِلَّا
 فِي أَوْقَاتِهِ، وَخُذَهُ بِتَعْظِيمِ مَشَايِخِ بَنِي هَاشِمٍ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ، وَرَفَعَ مَجَالِسِ الْقَوَادِ إِذَا
 حَضَرُوا مَجْلِسَهُ. وَلَا تَمَرَّنْ بِكَ سَاعَةً إِلَّا وَأَنْتَ مَغْتَمٌّ فَائِدَةً تُفِيدُهُ إِيَّاهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ
 تُخْزِنَهُ فْتُمِيتَ ذِهْنَهُ. وَلَا تُثَمِّنْ فِي مُسَامَحَتِهِ، فَيَسْتَحْلِي الْفِرَاعَ وَيَأْلَفُهُ. وَقَوْمُهُ مَا
 اسْتَطَعْتَ بِالْقُرْبِ وَالْمَلَايَنَةِ، فَإِنْ أَبَاهُمَا فَعَلَيْكَ بِالشَّدَّةِ وَالْغِلْظَةِ.

10 41 • فَصْلٌ، فِي أَنَّ الرِّحْلَةَ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ وَلِقَاءِ الْمَشِيخَةِ مَزِيدُ كَمَالٍ فِي التَّعْلِيمِ

/ والسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، أَنَّ الْبَشَرَ يَأْخُذُونَ مَعَارِفَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ وَمَا يَنْتَحِلُونَهُ مِنْ
 [388] الْمَذَاهِبِ وَالْفَضَائِلِ، تَارَةً عِلْماً وَتَعْلِيماً وَإِقَاءً، وَتَارَةً مُحَاكَاةً وَتَلْقِيناً بِالْمُبَاشَرَةِ. إِلَّا أَنَّ
 حُصُولَ الْمَلَكَاتِ عَنِ الْمُبَاشَرَةِ وَالتَّلْقِينِ أَشَدُّ اسْتِحْكَاماً وَأَقْوَى رُسُوخاً ، فَعَلَى قَدْرِ
 15 كَثْرَةِ الشُّيُوخِ يَكُونُ حُصُولُ الْمَلَكَاتِ وَرُسُوخُهَا.

(1) البيهقي : المحاسن والمساوي 2: 402 .

والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مُخَلَّطَة على المُتَعَلِّم، حتَّى لقد يَظُنُّ كثيرٌ منهم أنَّها جزءٌ من العِلْم، ولا يَدْفَع عنه ذلك إلَّا مباشرته لاختلاف الطُّرُق فيها من المُعَلِّمين. فلِقَاء أَهْلِ العُلُوم وتَعَدُّ المشايخ يُفِيدُه تَمييزُ الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طُرُقهم فيها، فيَجَرِّد العِلْمَ عنها، ويعَلِّمُ أنَّها أنْحَاءُ تَعْلِيم وطُرُق توصيل. وتهضُّ قُوَاهُ إلى الرُّسُوخ والاستِخْكام في المَلَكات، ويَصْخَحُ معارفه ويميِّزها عن سواها، مع 5 ثَقُوبَةٍ مَلَكَاتِهِ بِالْمُبَاشَرَةِ والتَّلْقِينِ وكَثْرَتِهِ^(١) من المَشِيخَةِ عند تَعَدُّهم وتَنَوُّعهم. وهذا لمن يَسِّرَ اللهُ عليه طُرُقَ العِلْمِ والهِدَايَةِ.

فَالرَّحْلَةُ لا بُدَّ مِنْهَا فِي طَلَبِ العِلْمِ لاكتساب الفَوَائِدِ وَالْكَمَالِ بِلِقَاءِ المشايخ ومُبَاشَرَةِ الرِّجَالِ . وَاللَّهُ ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة البقرة، من

10

[الآية 142].

42 ﴿ فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الْعُلَمَاءَ مِنْ بَيْنِ الْبَشَرِ أَبْعَدُ عَنِ السِّيَاسَةِ وَمَذَاهِبِهَا

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ ، أَنَّهُمْ مُعْتَادُونَ لِلنَّظَرِ^(ب) الْفِكْرِيِّ ، وَالْفَوْضِ عَلَى الْمَعَانِي وَاتِّزَاعِهَا مِنَ الْمَخْسُوسَاتِ ، وَتَجَرِيدِهَا فِي الذَّهْنِ أُمُورًا كَلِيَّةً عَامَّةً لِيَحْكَمَ عَلَيْهَا بِأَمْرِ عَلَى الْعُمُومِ ، لَا بِمُخْصِصِ مَادَّةٍ وَلَا شَخْصٍ وَلَا جِيلٍ وَلَا أُمَّةٍ وَلَا صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ ، وَيُطَبِّقُونَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْكَلِمَاتِ عَلَى الْخَارِجِيَّاتِ . وَأَيْضًا يَقْيِسُونَ الْأُمُورَ عَلَى أَشْبَاهِهَا 15 وَأَمْثَالِهَا بِمَا اعْتَادُوهُ مِنَ الْقِيَاسِ الْفِقْهِيِّ ، فَلَا تَزَالُ أَحْكَامُهُمْ وَأَنْظَارُهُمْ كُلُّهَا فِي الذَّهْنِ ،

(١) ج: كثرتها (ب) ج: النظر .

ولا تصيرُ إلى المطابقة / إلا بعد الفراغ من البحث والنظر، أو لا تصيرُ بالجملة إلى [388ب] مطابقة، وإنما يتفرّع^(أ) ما في الخارج عما في الذهن من ذلك، كالأحكام الشرعية، فإنها فروعٌ عما في المحفوظ من أدلة الكتاب والسنة، فيطلبُ مطابقة ما في الخارج لها، عكسَ الأنظار في العلوم العقلية التي يُطلبُ في صحتها مطابقتها لما في الخارج. 5 فهم مُتَعَوِّدون في سائر أنظاريهم الأمور الذهنية والأنظار الفكرية، لا يعرفون سواها.

والسياسة، يحتاجُ صاحبها إلى مُراعاة ما في الخارج، وما يلحقها من الأحوال ويتبعها، فإنها خفيةٌ، ولعلَّ أن يكونَ فيها ما يمنعُ من إلحاقها بشئٍ أو مثالٍ ويُنافي الكلِّي الذي يُحاول تطبيقه عليها. ولا يُقاس شيءٌ من أحوال العمران على الآخر، إذ كما اشتهى في أمرٍ واحدٍ، فلعلها اختلفا في أمورٍ. فيكونُ العلماءُ لأجل ما تَعَوَّدوه من 10 تعميم الأحكام، وقياس الأمور بعضها على بعضٍ، إذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب أنظاريهم وتوع استدلالاتهم، فيقعون في [الغلط]^(ب) الكثير، أو لا يؤمنُ عليهم.

ويلحقُ بهم أهلُ الذكاء والكَيْس من أهلِ العمران، لأنهم يترعون بشقوب أذهانهم إلى مثل شأن الفقهاء من الغوص على المعاني والقياس والمحاكاة، فيقعون في الغلط.

والعامي السليم الطبع، المتوسط الكَيْس، بقصور فكره عن ذلك، وعدم 15 اعتياده إياه، يقتصر^(ج) لكل مادة على حكمها في كل صنف من الأحوال أو الأشخاص على ما اختصَّ به، ولا يُعدِّي الحكم بقياس ولا تعميم، ولا يفارق في أكثر

(أ) ي: يتفرع (ب) سقط من ط (ج) في حاشية ع وأمام الشطر الذي اشتملت عليه هذه الكلمة، كلمة: فتصير، بخطه. ولا مكان لها في كامل الصفحة، ولا توجد علامة مُخرج تحدد موقعها.

نَظَرَهُ الْمَوَادَّ الْمَحْسُوسَةَ، وَلَا يُجَاوِزُهَا فِي ذِهْنِهِ، كَالسَّابِحِ لَا يَفَارِقُ الْمَوْجَ عِنْدَ الْبَرِّ،
قال⁽¹⁾: [من المتقارب]

وَلَا تَوَغَّلَنَّ إِذَا مَا سَبَحْتَ فَإِنَّ السَّلَامَةَ فِي السَّاحِلِ

فَيَكُونُ مَأْمُونًا مِنَ النَّظَرِ فِي سِيَاسَتِهِ، مُسْتَقِيمَ النَّظَرِ فِي مُعَامَلَةِ أَبْنَاءِ جَنْسِهِ.
[389] فَيَحْسُنَ مَعَاشُهُ، وَتَنْدَفِعَ آفَاتُهُ وَمَضَارُّهُ بِاسْتِقَامَةِ نَظَرِهِ. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ 5
عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف، من الآية 76].

وَمِنْ هُنَا تَعْلَمُ⁽¹⁾ أَنَّ صِنَاعَةَ الْمُنْطِقِ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ الْقَلْطِ لِكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ
الِاتِّزَاعِ، وَبُعْدِهَا عَنِ الْمَحْسُوسِ. فَإِنَّهَا نَظَرٌ فِي الْمَعْقُولَاتِ الثَّوَانِي، وَلَعَلَّ الْمَوَادَّ فِيهَا
مَا يُنَائِغُ تِلْكَ الْأَحْكَامَ وَيُنَافِيهَا عِنْدَ مُرَاعَاةِ التَّطْبِيقِ الْيَقِينِيِّ. وَأَمَّا النَّظَرُ فِي الْمَعْقُولَاتِ
الْأُولَى، وَهِيَ الَّتِي تَجَرِّدُهَا قَرِيبٌ، فَلَيْسَتْ كَذَلِكَ، لِأَنَّهَا خَيَالِيَّةٌ، وَصُورُ الْمَحْسُوسِ 10
حَافِظَةٌ مُؤَدَّةٌ بِتَضَدِّيقِ انْطِبَاقِهِ.

43 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ حَمَلَةَ الْعِلْمِ فِي الْإِسْلَامِ أَكْثَرُهُمُ الْعَجَمُ

مِنَ الْغَرِيبِ الْوَاقِعِ أَنَّ حَمَلَةَ الْعِلْمِ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَكْثَرُهُمُ الْعَجَمُ، لَا مِنْ
الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلَا مِنْ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ، إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ. وَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ الْعَرَبِيُّ

(1) سقط من ي .

(1) البيت للحري، أورده في المقامة المغربية . (المقامات 135 - صادر 1978) .

في نسبه، فهو أعجمي في لغته ومزبأه ومشيوخه. مع أن الملة عريضة، وصاحب شريعته عربي.

والسبب في ذلك، أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السداجة والبداءة. وإنما أحكام الشريعة، التي هي أوامر الله ونواهيه، كان الرجال ينقلونها في صدورهم، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه. والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين، ولا دفعوا إليه، ولا دعتهم إليه حاجة.

وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين؛ وكانوا يسْمُونَ المختصين بحمل ذلك ونقله القراء، أي الذين يقرأون الكتاب وليسوا أميين، لما أن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عرباً، فقليل لحملة القرآن يومئذ: قراء، إشارة إلى هذا. فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن [رسول] ⁽¹⁾ الله، لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه، ومن الحديث الذي هو في غالب موارد تفسير له وشرح. قال عليه السلام ⁽¹⁾: "تركتم فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله، وسنتي".

فلما بعد الثقل / من لدن دولة الرشيد فما بعد، احتيج إلى وضع التفسير القرآنية [389ب] وثقييد الحديث مخافة ضياعه. ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الرواة للتمييز بين

(1) زيادة بقضها السياق .

(1) أخرجه مالك في الموطأ بلاغاً (2618 برواية الليثي)، وقال ابن عبد البر: وهذا محفوظ معروف مشهور عن النبي ﷺ عند أهل العلم شهرة يكاد يستغنى بها عن الإسناد (التمهيد 24: 331).

الصحيح من الإسناد وما دونه. ثم كثر استخراج أحكام الواقعات من الكتاب والسنة،
وفسد مع ذلك اللسان، فاحتيج إلى وضع القوانين التحوّية، وصارت العلوم الشرعية كلها
ملكات في الاستنباط والاستخراج والتنظير والقياس. واحتاجت إلى علوم أخرى
هي وسائل لها، من معرفة قوانين العربية، وقوانين ذلك الاستنباط والقياس، والذّب
عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثرة البدع والإلحاد. فصارت هذه الأمور كلها علوماً ذات
5 ملكات محتاجة إلى التعليم، فاندرجت في جملة الصنائع. وقد كنّا قدّمنا أنّ الصنائع من
منتحل الحضرة، وأنّ العرب أبعد الناس عنها، فصارت العلوم لذلك حضرة، وبعد
العرب عنها وعن سوقها. والحضر لذلك العهد هم العجم أو من في مغناهم من الموالي
وأهل الحواضر، الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف،
لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس. فكان صاحب صناعة
10 النخوسيين، والفارسي من بعده، والزجاج من بعدهما. وكلهم عجم في أنسابهم. وإنما رتبوا
في اللسان العربي فاكتمسبوه بالمرتب ومخالطة العرب، وصيروه قوانين وفناً لمن بعدهم.
وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه على أهل الإسلام، أكثرهم عجم أو مستعجمون
باللغة والمرتب، لاتساع الفن بالعراق وما بعده⁽¹⁾. وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً، كما
تعرّف، وكذا حملة [علم]^(ب) الكلام، وكذا أكثر المفسرين. ولم يثم بحفظ العلم وتدوينه إلا
15 الأعاجم. وظهر مصداق قوله ﷺ⁽¹⁾: "لو تعلّق العلم بأغناق السماء لناله قوم من فارس".

(1) ما بين النجمين حاشية من ع، وسقطت من ط ج ي (ب) في ط ج ي: أهل .

(1) في الصحيحين بالفاظ مقاربة: البخاري 6: 188 حديث رقم (4897) وليس فيه ذكر فارس، ومسلم
(2546).

/ وأما العربُ الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها، وخرجوا إليها عن البداوة، [390]
 فشغلتهم الرياسة في الدولة العباسية وما دُفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم
 والنظر فيه، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميها وأولي سياستها، مع ما يلحقهم من
 الأنفة [من] ⁽¹⁾ انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع. والرؤساء أبدأ يستنكفون
 5 عن الصنائع والمهن وما يجزئ إليها. ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين،
 وما زالوا يرون لهم حق القيام به، فإنه دينهم وعلومهم، ولا يجتقرون حملتها كل
 الاختيار.

حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم، صارت العلوم الشرعية
 غريبة النسب عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبها. وامتنعت حملتها بما
 10 يرون أنهم بعداء عنهم، مشغولون بما لا يجدي عليهم في الملك والسياسة، كما ذكرناه
 في فصل المراتب الدينية. فهذا الذي قررناه هو السبب في أن [كان] ^(ب) حملة
 الشريعة أو عامتهم عجماً.

وأما العلوم العقلية أيضاً، فلم تظهر في الملة إلا بعد أن تميز حملة العلم
 ومؤلفوه، واستقر العلم كله صناعة، فاختصت بالعجم، وتركها العرب وانصرفوا عن
 15 انتحالها، فلم يحملها إلا المعربون من العجم، شأن الصنائع، كما قلناه أولاً. ولم يزل
 ذلك في الأمصار الإسلامية ^(ج) ما دامت الحضارة في العجم وببلادهم من العراق
 وخراسان وما وراء النهر. فلما خربت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة التي هي

(أ) في ط ج ي: عن (ب) من ع، وسقط من ط ج ي (ج) زيادة بخطه من حاشية ع، ولم تذكر في ط ج ي.

سرُّ الله في حُصول العلوم والصنائع، ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من
البداءة، واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة.

ولا أوفر اليوم حضارة من مصر، فهي أمُّ العالم، وإيوان الإسلام، ويُسبوع
العلوم والصنائع. وبقي / بعض الحضارة في ما وراء النهر، لما هنالك من الحضارة [390ب]
بالدولة التي فيها، فلهم بذلك حصّة من العلوم والصنائع لا تُنكر. وقد دلّنا [على
ذلك] ⁽¹⁾ كلام بعض علمائهم في تواليّف وصلت إلينا، إلى هذه البلاد، وهو سغد
الدين التفتازاني. وأمّا غيره من العجم، فلم نر لهم - من بعد الإمام ابن الخطيب،
ونصير الدين الطوسي - كلاماً يعول على نهايته في الإجابة.

فاعتبر ذلك وتأمّله ترّ عجباً في أحوال الخليقة. والله يخلق ما يشاء، ﴿لَا

إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة البقرة، من الآية 163].

10

44 ﴿ب﴾ فصل، في أن العجمة إذا سبقت إلى اللسان، قصرت بصاحبها في
تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي

والسرُّ في ذلك، أن مباحث العلوم كلّها إنّما هي في المعاني الذهنية والخيالية
من بين العلوم الشرعية التي أكثر مباحثها في الألفاظ، وموادّها من الأحكام المتلقاة

(1) من ع ج ي، وسقط من ظ (ب) أصل عنوان هذا الفصل في فهرس نسخة ع وحدها: "في أن الأنعام من علماء الجلة
قاصرون عن ملكات العلوم من علماء العرب" تم شطب واستبدل في الحاشية بخطه بما أثبتناه. وهو ما نقله ظ ح. وسقط الفصل
كله من ي، والفصل كله مدرج في بطاقة مفتحة بخطه في أصله ع.

من الكتاب والسنة، ولُغاتها المؤدية لها⁽¹⁾، وهي كلها في الخيال؛ وبين العلوم العقلية، وهي في الدّهن.

واللّغات إنّما هي تُرجمانّ عَمّا في الضّمائر من تلك المعاني، يؤدّيها بعض إلى بعض بالمشافهة في المناظرة والتعليم، وممارسة البحث في العلوم لتخصّيل ملكاتها بطول المِران على ذلك. والألفاظ واللّغات وسائطٌ وحُجُبٌ بين الضّمائر، وروابطٌ 5 وخِتَامٌ على المعاني. ولا بُدّ في اقتناص تلك المعاني من ألفاظها بمعرفة دلاليتها اللّغوية عليها، وجودة الملكة للتأظر فيها، وإلا فيقتاض عليه اقتناصها، زيادةً على ما يكون في مباحثها الدّهنية من الاعتياص.

وإذا كانت ملكته في تلك الدّلالات راسخة، بحيث تتبادر المعاني إلى ذهنه 10 من تلك الألفاظ عند استعمالها، شأن البديهيّ والحَبليّ، زال ذاك الحجاب بالجملة بين المعاني والفهم، أو خَفّ، ولم يَبْقَ إلّا مُعَانَاةٌ ما في المعاني من المباحث فقط. هذا كلّهُ إذا كان التعليم تلقيناً وبالخطاب والعبارة. وأمّا إن احتاج المتعلّم إلى المداينة والتقييد بالكتاب ومُشافهة / الرّسوم الخطيّة من الدّواوين بمسائل العلوم، كان 15 هنالك حجاب آخر يَبْنِي الخطّ ورُسومه في الكتاب، ويَبْنِي الألفاظ المَقُولَة في الخيال؛ لأنّ رسوم الكتابة لها دلالة خاصّة على الألفاظ المَقُولَة، وما لم تُعرف تلك الدّلالة تعذرَتْ معرفة العبارة. وإن عُرِفَتْ بملكّة قاصرة كانت معرفتها [منها]^(ب) أيضاً قاصرة. ويزدادُ على التأظر والمتعلّم بذلك حجاب آخر يَبْنِيه وبين مَطْلوبه من تحصيل مَلَكَاتِ

(1) ج: إليها (ب) من: ج ع .

العلوم أعوض من الحجاب الأول. وإذا كانت ملكته في الدلالة اللَّفْظِيَّة والحِطِّيَّة مستحكمة، ارتفعت الحُجُبُ بينه وبين المعاني، وصارَ إنما يعاني فهمَ مباحثها فقط. هذا شأنُ المعاني مع الألفاظ والخطِّ بالنسبة إلى كُلِّ لغة. والمتعلِّمون لذلك في الصغر أشدُّ استِحكاماً لملكاتهم.

- 5 ثمَّ إنَّ المِلَّةَ الإسلاميَّةَ لما اتَّسع مُلكُها، واندرجتِ الأُمَمُ في طيِّها، ودُرست علومُ الأولين بنبؤتها وكتابتها، وكانت أُمِّيَّةُ التَّزَعَةِ والشَّعار، فأخذها المُلْكُ والعِزَّة، وسُخِّرَتِ^(١) الأُمَمُ لهم بالحضارة والتَّهذيب، وصيَّروا علومهم الشرعيَّةَ صناعةً بعد أن كانت ثَقْلاً، فحدَّثت فيهم^(ب) المملكات، وكثُرَتِ الدَّواوينُ والتَّوَالِيفُ، وتَشَوَّفُوا إلى علومِ الأُمَمِ، فنقلوها بالترجمة إلى علومهم، وأفرغوها في قَالِبِ أنظارهم، وجَرَدوها من تلك اللغات الأعجميَّة إلى لسانهم، وأزبنوا فيها على مدارِكهم، وبقيت تلك الدَّفَائِرُ¹⁰ التي بلغتهم [الأعجميَّة]^(ج) نَسِياً مَنْسِياً وظُلُلاً مَهْجوراً وهَبَاءً مَثُوراً. وأصبحت العلومُ كُلُّها بلغة العرب، ودَّواوينها المسطَّرة بخطهم. واحتاج القارئون بالعلوم إلى مَعْرِفَةِ الدَّلالاتِ اللَّفْظِيَّةِ والحِطِّيَّةِ في لسانهم دون ما سواه من الألسن، لدروسها وذهاب العناية بها.

- 15 وقد تقدَّم لنا أنَّ اللغةَ ملكةٌ في اللسان، وكذا الخطُّ: صناعةٌ ملكُها في اليد. فإذا / تقدَّمت في اللسان ملكةُ العُجْمَةِ، صارَ مُقَصِّراً في اللغة العربية، لما قَدَّمناه [391ب] من أن الملكة إذا تقدَّمت في صناعةٍ بمحلٍّ، فقلَّ أن يُجيدَ صاحبها ملكةً في صناعةٍ

(١) في ج ح ط: وسخرت (ب) ع ج: فيها (ج) سقط من ط.

أخرى، وهو ظاهرٌ. وإذا كان مقصراً في اللغة العربية ودلالتها اللغوية والخطية اعتناص عليه فهم المعاني منها، كما مرَّ. إلا أن تكون^(١) ملكة العجمة السابقة لم تستخيم حين انتقل منها إلى العربية كأصاغر أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن تستخيم عجمتهم، فتكون^(١) اللغة العربية كأثها السابقة لهم، ولا يكون عندهم تقصير في فهم المعاني من اللغة العربية. وكذا أيضاً شأن من سبق له تعلم الخط الأعجمي قبل العربي.

ولهذا نجد الكثير من علماء الأعاجم^(ب) في دروسهم ومجالس تعليمهم يغدلون عن نقل التفسير من الكتب إلى قراءتها ظاهراً، يُحقّقون بذلك عن أنفسهم مؤونة بغض الحجب، ليقرّب عليهم تناول المعاني. وصاحب الملكة في العبارة والخط مستغني عن ذلك لتام ملكته، وأنه صار له فهم الأقوال من الخط والمعاني من الأقوال، كالجيلة الراسيعة، وارتفعت الحجب بينه وبين المعاني.

وربما يكون الثؤوب على التعلم، والمران على اللغة وممارسة الخط، يُفضيان بصاحبهما إلى تمكّن الملكة، كما نجده في الكثير من علماء الأعاجم^(ب). إلا أنه في النادر. وإذا قورن بنظيره من علماء العرب وأهل طبقته منهم، كان باع العربي أطول، وملكته أقوى، لما عند المستعجم من الفتور بالعجمة السابقة التي تؤثر القصور بالضرورة.

ولا يعترض ذلك بما تقدّم [بأن]^(ج) علماء الإسلام أكثرهم العجم، لأن المراد بالعجم هنالك عجم النسب، لتداول الحضارة فيهم التي قرّزنا أنها سبب لانتحال الصنائع والملكات، ومن جملتها العلوم. وأما عجمة اللغة فليست من ذلك،

(١) بخطه في ع: يكون، فيكون (ب) من ظ، وفي ع ج: الأعجم (ج) في ج ع: من أن، وفي ظ: مع.

[392] وهي المرادة هنا . ولا يُعترض ذلك أيضاً [بما] ⁽¹⁾ كان لليونانيين في علومهم / من رسوخ القدم ، فإنهم إنما تعلّموها من لغتهم السابقة لهم وخطّهم المتعارف بينهم . والأعجمي المتعلّم للعلم في الملة الإسلامية يأخذ العلم بغير لسانه الذي سبق إليه ، ومن غير خطّه الذي يعرف ملكته ؛ فلهذا يكون له ذلك حجاباً ، كما قلناه . وهذا عام في جميع أصناف أهل اللسان الأعجمي ، من الفرس ، والروم ، والتürk ، 5 والبربر ، والفرنج ، وسائر من ليس من أهل اللسان العربي . وفي ذلك آيات للمتوسمين ^(ب) .

45 • فصل ، في علوم اللسان العربي

وأركانها أربعة ، وهي : اللغة ، والنحو ، والبيان ، والأدب . ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة ، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلّها من الكتاب والسنة ، وهما ^(ج) بلغة 10 العرب ، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ، وشرح مشكلها من لغتهم . فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة . وتتفاوت في التأكد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام ، حسبما يتبين في الكلام عليها فتاً فتاً . والذي يتحصّل ، أن الأهمّ المقدم منها هو النحو ، إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة ، فيعرف 15 الفاعل من المفعول ، والمبتدأ من الخبر ؛ ولولاه لجهل أضلّ الإفادة .

(1) من ج ع ، وفي ظ : تما (ب) كذا أوردها تضيئاً ، والآية ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [سورة الحجر ، الآية 75] (ج) ظ ج ي : وهي .

وكان من حَقِّ عِلْمٍ^(١) اللّغة التّقديم، لولا أن أكثر الأوضّاع باقية في مَوْضوعاتها لم تتغيّر، بخلاف الإغراب الدّالّ على الإسناد والمُسندِ والمُسندِ إليه، فإنّه تغيّر بالجملة، ولم يبقَ له أثر. فلذلك^(ب) كان عِلْمُ النّحو أهمّ من اللّغة، إذ في جملة الإخلال بالتّفاهم جملة. وليس كذلك اللّغة، والله أعلم.

• النّحو

5

اعلم أنّ اللّغة في المتعارف، هي عبارة المتكلّم عن [مقصوده]^(ج). وتلك العبارة فعلٌ لسانيّ [ناشئٌ عن القصد بإفادة الكلام]^(د). فلا بُدَّ أن تصوّر ملكةً متقرّرة في العضو الفاعل لها، وهو اللّسان. وهو في كلّ أمةٍ بحسب اضطرّاجهم.

وكانت الملكة الحاصلة من ذلك للعرب أحسن الملكات وأوضحها إبانة

10

/ عن المقاصد، لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، مثل الحركات التي تُعيّن الفاعل من المفعول من المجرور، أعني المضاف، ومثل الحروف التي تُقضي بالأفعال، أي الحركات، إلى النّوات من غير تكلف ألفاظٍ أخرى. وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب. وأمّا غيرها من اللّغات، فكلّ معنى أو حالٍ لا بُدَّ له من ألفاظٍ تخصّه بالدلالة. ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول ممّا تقدّره بكلام العرب.

15

(١) سقط من: ج ي (ب) ي: فكذاك (ج) ج ط ي: قصوده، وفي أصل ع: قصوده، تمّ أضاف لها الميم (د) إضافة بخطه في حاشية ع، وسقطت من ط ج ي.

وهذا هو معنى قوله ﷺ⁽¹⁾: "أوتيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصاراً". فصار للحروف في لغتهم، والحركات والأوضاع، أي الهيئات، اعتبار في الدلالة على المقصود، غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها، إنما هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر من الأول، كما يأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا.

- 5 فلما جاء الإسلام، وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالقات التي للمتغيرين من العجم. والسمع أبو الملكة اللسانية؛ ففسدت بما ألقى إليها مما يغيرها، لجنوحها إليه باعتياد السمع، وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة⁽¹⁾ رأساً، ويطول العهد فينقل القرآن والحديث على [الفهوم]^(ب). فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة، شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه منها بالأشباه، مثل: أن الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، والمبتدأ مرفوع. ثم رأوا تغير الدلالة بتغير هذه الحركات، فاضطلحوا على تسميته إعراباً، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملاً، وأمثال ذلك. وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم، فقيدها بالكتاب^(ج)، وجعلوها صناعة لهم^(د) مخصوصة، واضطلحوا على تسميتها بعلم النحو.
- 10
- 15

(1) ظي: الملة (ب) من ع، وفي ظ ج ي: المفهوم (ج) ج: بالكليات (د) في ع مشطوبة.

(1) عبارة: "أوتيت جوامع الكلم" جاءت من حديث أبي هريرة عند البخاري (2977) و (7013) ومسلم (523). أما عبارة: "واختصر لي الكلام اختصاراً" فقد أوردها ابن حجر في فتح الباري 13: 525 وعزاها إلى أبي يعلى، وفي سندها عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي، وهو ضعيف.

/ وأوّل من كتب فيها أبو الأسود الدؤليّ، من بني كِنانة ، ويُقال: بإشارة [393]

عليّ ، رضي الله عنه . لأنّه رأى تغيّر الملكة فأشار عليه بحِفْظها ، ففرّع إلى ضبطها بالقوانين الحاصرة المستقرّة. ثمّ كتب فيها التّاس من بعده، إلى أن انتهت إلى الخليل ابن أحمد الفراهيديّ، أيّام الرّشيد ، أحوج ما كان التّاس إليها ، لذهاب تلك الملكة 5 من العرب، فهذب الصّناعة وكمل أبوابها. وأخذها عنه سيبويه، فكمّل تفاريقها، واستكثر من أدلّتها وشواهدِها ، ووضع فيها كتابه المشهور الذي كان إماماً لكلّ ما كتب فيها من بعده . ثمّ وضع أبو عليّ الفارسيّ [أو⁽¹⁾] أبو القاسم الرّجّاجيّ كتاباً مختصرةً للمتعلّمين، يَحذونَ فيها حَذو الإمام في كتابه.

ثمّ طال الكلامُ في هذه الصّناعة، وحَدث الخلافُ بين أهلها في الكوفة 10 والبصرة، المضريّين القديّمين للعرب. وكثرت^(ب) الأدلّة والحجّاجُ بينهم، وتباينت الطُّرُق في التّعليم، وكثُر الاختلافُ في إغراب كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد، وطالَ ذلك على المتعلّمين. وجاء المتأخّرون بمذاهبهم في الاختصار، فاختصّروا كثيراً من ذلك الطّول، مع استيعابهم لجميع ما نُقِل، كما فعله ابنُ مالك في كتاب التّسهيل، وأمثاله، أو اقتصارهم على المبادئ للمتعلّمين، وكما فعله الرّمخسريّ 15 في المفصل، وابنُ الحاجب في المقدّمة له . وربّما نظّموا ذلك نظماً، مثل ابنِ مالك في الأزجوزتين: الكبّرى والصّغرى، وابنُ مُعطي في الأزجوزة الألفيّة.

(1) سقط من ط ج ي (ب) في ط ج ي: كثر .

وبالجملة، فالتواليْف في هذا الفن أكثر من أن تُحصَى أو يُحاطَ بها، وطُرق
التَّعليم فيها مُختلفة. فطريقةُ المتقدِّمين مغايرةٌ لطريقة المتأخِّرين، والكوفيُّون والبصريُّون
والبغدادِيُّون والأندلسيُّون مختلفَةٌ طرُقهم كذلك^(١).

[393ب] وقد كادت هذه الصَّناعةُ أن تُوذِنَ بالذَّهاب، / لما رأينا من التَّقْص في سائر
العلوم والصَّنائع بتناقُص العُمران.

5 ووصل إلينا بالمغرب لهذه العُصور، ديوانٌ من مِصرَ، منسوبٌ إلى جمال
الدين بن هشام، من علمائها، استوفى فيه أحكام الإعرابِ مُجملةً ومفصلةً، وتكلَّم
على الحروف والمُفرداتِ والجُمْل، وحَذَف ما في الصَّناعة من المتكرِّر في أكثر أُنوابهـا،
وسَمَّاه بالمُغني في الإعراب. وأشار إلى نُكتِ إعرابِ القرآن كُلِّها، وضبطها بأبواب
وفصولٍ وقواعدٍ انتظمت سائرَها؛ فوقَفنا منه على عِلْمٍ جَمٍّ يشهدُ بعلوِّ قدره في هذه
10 الصَّناعةِ ووُفُور بضاعتِه منها، وكأنَّه يَنحُو في طريقتِه مَنحَى نَحاةِ أَهلِ المؤَصِّل،
اقتَفُوا أثرَ ابنِ جَنِّي واتبَعُوا مُصْطَلَحَ تَعلِيمِه؛ فأتى من ذلك بشيءٍ عَجيبٍ دالٍّ على قُوَّةِ
مَلَكَتِه واضْطِلاعِه^(ب). واللَّهِ ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة فاطر، من الآية 1].

• عِلْمُ اللُّغَةِ

15 وهذا العِلْمُ هو بَيانُ الموضوعاتِ اللُّغَوِيَّة. وذلك أَنَّهُ لما فَسَدَت ملكةُ اللِّسانِ
العربيِّ في الحركاتِ المسمَّاة عند أَهلِ النَّحوِ بالإِعرابِ، واستثْبِطَتِ القَوائِنُ لِحَفْظِها

(١) ج ي : لذلك (ب) ي : اطلّاعه .

كما قُلْنَاهُ، ثُمَّ اسْتَمَرَ ذَلِكَ الْفَسَادُ بِمِلَابَسَةِ الْعَجَمِ وَمُخَالَطَتِهِمْ، حَتَّى تَأْدَى الْفَسَادُ إِلَى
مَوْضُوعَاتِ الْأَلْفَاظِ، فَاسْتُعْمِلَ كَثِيرٌ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ فِي غَيْرِ مَوْضُوعِهِ عِنْدَهُمْ، مِثْلًا
مَعَ هُجْنَةِ الْمُتَعَرِّبِينَ فِي اضْطِلَاحَاتِهِمُ الْخَالَفَةِ لَصَرِيحِ الْعَرَبِيَّةِ، فَاخْتَبَجَ إِلَى حِفْظِ
الْمَوْضُوعَاتِ اللَّغَوِيَّةِ بِالْكِتَابِ وَالتَّدْوِينِ خَشْيَةً [الدرس] ^(أ) وَمَا يَنْشَأُ [عنه] ^(ب) مِنْ
5 الْجَهْلِ بِالْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ.

فَشَمَّرَ كَثِيرٌ مِنْ أَيْمَةِ اللِّسَانِ لِنَدِكَ، وَأَمَلُوا فِيهِ التَّوَاوِينَ. وَكَانَ سَابِقَ الْحُلْبَةِ
فِي ذَلِكَ الْحَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيِّ، أَلَفَ فِيهَا كِتَابَ الْعَيْنِ، فَخَصَرَ فِيهِ مَرْكَبَاتِ
حُرُوفِ الْمُعْجَمِ كُلِّهَا، مِنَ الثَّنَائِيِّ، وَالثَّلَاثِيِّ، وَالرَّبَاعِيِّ، وَالْخَمَاسِيِّ، وَهُوَ غَايَةُ مَا
يَنْتَهِي إِلَيْهِ التَّرْكِيبُ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ.

- 10 وَتَأْتَى لَهُ حَصْرُ ذَلِكَ بِوُجُوهِ عَدَدِيَّةٍ حَاصِرَةٍ . وَذَلِكَ أَنَّ / جُمْلَةَ الْكَلِمَاتِ [i394]
الْثَّنَائِيَّةِ تَخْرُجُ مِنْ [جمع] ^(ج) الْأَعْدَادِ عَلَى التَّوَالِي، مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ وَعِشْرِينَ .
وَهُوَ دُونَ نَهَايَةِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ بِوَاحِدٍ . لِأَنَّ الْحَرْفَ الْوَاحِدَ مِنْهَا يُؤْخَذُ ^(د) مَعَ كُلِّ
وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعَةِ وَالْعِشْرِينَ، فَيَكُونُ سَبْعًا وَعِشْرِينَ كَلِمَةً ثَنَائِيَّةً. ثُمَّ يُؤْخَذُ الثَّانِي مَعَ
السَّتَّةِ وَالْعِشْرِينَ كَذَلِكَ، ثُمَّ الثَّلَاثُ ، وَالرَّابِعُ. ثُمَّ يُؤْخَذُ السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ مَعَ الثَّامِنِ
15 وَالْعِشْرِينَ، فَيَكُونُ وَاحِدًا. فَتَكُونُ كُلُّهَا أَعْدَادًا عَلَى تَوَالِي الْعَدَدِ، مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ
وَعِشْرِينَ. فَتَجْمَعُ كَمَا هِيَ [بِالْعَمَلِ الْمَعْرُوفِ] ^(هـ) عِنْدَ أَهْلِ الْحِسَابِ، [وَهُوَ أَنْ تَجْمَعَ
الْأَوَّلَ مَعَ الْآخِرِ، ثُمَّ تَضْرِبَ الْمَجْمُوعَ فِي نِصْفِ الْعِدَّةِ] ^(و)، ثُمَّ تُضَاعِفُ لِأَجْلِ قَلْبِ

(أ) مِنْ ع، وَفِي ظ ج ي: الدَّرْس (ب) مِنْ ع، وَفِي ظ ج ي: عِنَّا (ج) مِنْ ع، وَفِي ظ ج ي: جَمِيع (د) مِنْ ع، وَفِي ظ
ج ي: مِنْ (هـ) مِنْ ع ج، وَسَقَطَ مِنْ ظ (و) مِنْ ع وَحْدَهَا فِي حَاشِيَةِ أَضِيْفَتْ بِخَطِّهِ .

الثَّنَائِيّ، لأنّ التّقديم والتّأخير بين الحروف معتبر في التّركيب، فيكون الخارج جملة الثَّنَائِيَّات.

وتخرج الثلاثيات من ضرب عدّد الثَّنَائِيَّات فيما يَجْتَمِعُ من واحدٍ إلى سِتَّةٍ وعشرين على توالي العدّد ، لأنّ كلّ ثنائِيَّةٍ تزيد عليها حرفاً فتكون ثَلَاثِيَّةً. فتكون الثَّنَائِيَّةُ بمنزلة الحرف الواحد مع كلّ واحدٍ من الحروف الباقية، وهي ستّة وعشرون 5 حرفاً بعد الثَّنَائِيَّةِ. فتَجْمَعُ من واحدٍ إلى سِتَّةٍ وعشرين على توالي العدّد، وتضرب فيه جملة الثَّنَائِيَّات؛ ثمّ تضرب الخارج في سِتَّةٍ، جملة مقلوبات⁽¹⁾ الكلمة الثلاثيّة، فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم. وكذلك في الرّباعي والخماسي؛ فانحصرت له التّراكيب بهذا الوجه.

ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف، واعتمد فيه ترتيب 10 المخارج؛ فبدأ بحروف الحلق، ثمّ ما بعده من حروف الحنك، ثمّ الأضراس، ثمّ الشّفة. وجعل حروف العلة آخرًا، وهي الحروف الهوائيّة. وبدأ من حروف الحلق بالعين، لأنّه الأقصى منها، فلذاك سُمّي الكتاب بالعين، لأنّ المتقدّمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم إلى مثل هذا ، وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ. 15

ثمّ بيّن المهمّل منها والمستغمل. / وكان المهمّل في الخماسي والرّباعي أكثر، لقلة استعمال العرب له لثقله. ولحقّ به الثَّنَائِيُّ لقلة دَوْرَانِهِ. وكان الاستعمال في

[394ب]

(1) في حاشية ع بخطه: تقاليد .

الثلاثي أغلب، فكانت أوضاعه أكثر لدورانه. وضمن الخليل ذلك كله كتاب العين، واستوعبه أحسن استيعاب وأوفاه.

وجاء أبو بكر الزبيدي، مكّتب هشام المؤيد بالأندلس في المائة الرابعة، فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب، وحذف منه المهمل كله وكثيراً من شواهد المستعمل، ولخصه للحفظ أحسن تلخيص. 5

وآلف الجوهرى، من المشاركة، كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف المفجّم؛ فجعل البداية منها بالهمزة، وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة، لا اضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم. [فيجعل ذلك باباً، ثم يأتي بالحروف أول الكلمة على ترتيب حروف المفجّم أيضاً ويترجم عليها بالفصول، إلى آخرها] ⁽¹⁾. وحصر اللغة اقتداءً بحصر الخليل. 10

ثم آلف فيها من الأندلسيين ^(ب) ابن سيده، من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد، كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب، وعلى نحو ترتيب كتاب العين، وزاد فيه التعرّض لاشتقاقات الكلم وتصريفها، فجاء من أحسن الدواوين. ولخصه محمد بن أبي الحسين، [حاجب] ^(ج) المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس، وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح في اعتبار أواخر الكلم ونفى التراجم عليها، فكانا توأمي رجم وسلياني أبوة. [ولكراع، من أئمة اللغة، كتاب المنجد، ولابن دُرَيْد كتاب الجفّهرة، ولابن الأثير كتاب الزاهر] ^(د). 15

(1) من خطه بخطه ع وحدها (ب) ج: الأندلس (ج) من ع ي، وفي ط ج: صاحب (د) سقط من ط ج ي.

هذه أصولُ كتب اللغة فيما عِلِمناه. وهناك مختصراتُ أخرى مختصةٌ بصنف من الكلمات، ومُستوعبةٌ لبعض الأبواب أو لكُلِّها^(١). إلا أن وَجْهَ الحِصْر فيها خَفِيٌّ، ووَجْهُ الحِصْر في تلك جَلِيٌّ من قِبَل التراكيب، كما رأيت.

ومن الكتبِ الموضوعية أيضاً في اللغة، كتابُ الرَّمْخُسِيِّ في الجازِ ، [وسمَّاهُ أساسُ البلاغة] ^(ب)، يَبَيِّن فيه كلَّ ما تجوَّزَتْ به العَرَب من الألفاظ، وفيما تجوَّزَتْ به 5 من المذلولات. وهو كتابٌ شريفُ الإفادة.

[395] ثمَّ لما كانت العَرَبُ تَضَعُ / الشَّيْءَ لمَعْنَى عَلَى ^(ج) العُموْم ، ثمَّ تستعملُ في الأمورِ الخاصَّةِ ألفاظاً أخرى خاصَّةً بها، فَتَرَقُّ ذلكَ عِنْدنا بَيْنَ الوَضْعِ والاستعمالِ، واحتاجَ إلى فَهْمِهِ في اللغةِ عَزِيزُ المَأْخِذِ . كما وُضِعَ الأَبْيَضُ لكلِّ ما فيه بَيَاضٌ ، ثمَّ اخْتُصَّ [ما فيه البَيَاض] ^(د) ؛ من الخيلِ بالأشهبِ ، ومن الإنسانِ بالأزهرِ، ومن 10 الغَمِّ بالأَمْلَحِ، حتَّى صارَ استعمالُ الأَبْيَضِ في هذه كُلِّها لِحْناً وخُرُوجاً عن لسانِ العَرَبِ.

واخْتُصَّ بالتَّأليفِ في هذا المَنْحَى الشَّعَالِيُّ ، وأَفْرَدَهُ في كتابٍ له سَمَّاهُ فَهْمَ اللغةِ. وهو من أَكْبَدِ ما يَأْخُذُ به اللُّغَوِيُّ نَفْسَهُ، أنْ يَحَرِّفَ استعمالَ العَرَبِ عن مواضعِهِ. فَلَيْسَ مَعْرِفَةُ الوَضْعِ الأوَّلِ [بكافية] ^(هـ) في التَّركيبِ حتَّى يَشْهَدَ له استعمالُ 15 العَرَبِ. وأَكْثَرُ ما يَحْتَاجُ إلى ذلكِ الأديبُ في فَتْنِي نَظْمِهِ وَثَرِّهِ حَذَرٌ ^(و) أنْ يَكْثُرَ لِحْنُهُ

(١) ع: لَكَلِّهَا (ب) من ع وحدها (ج) سقط من ج (د) ع: الأبيض (هـ) في الأصول: بكاف (و) في ع ج: حذراً.

في الموضوعات اللغوية في مُفرداتها وتراكيبها، وهو أَشْرُ^(أ) من اللَّحْن في الإعراب
وأَفْحَشُ.

[وكذلك]^(ب) أَلْفُ بعض المتأخرين في الألفاظ المشتركة، وتكفَّل بحضرها؛
وإن لم يبلغ إلى النهاية في ذلك فهو مُسْتَوْعِبٌ للأكثر.

5 وأما المختصرات الموجودة في هذا الفنّ المخصوصة بالمتداول^(ج) من اللغة
الكثير الاستعمال، تسهياً لحفظها على الطالب، فكثيرة، مثل الألفاظ لابن
السكيت، والفصيح لِثَعْلَب، وغيرها. وبعضها أقلُّ لغة من بعض لاختلاف^(د) نظرهم
في الأهم على الطالب للحفظ. والله الخلاق العليم.

1. [فصل^(هـ)]

10 واعلم أنَّ الثقل الذي تَنَبَّثُ به اللغة، إنّما هو الثقل عن العرب أنّهم استعملوا
هذه الألفاظ لهذه المعاني، لا ثقل: إنّهم وضعوها، لأنّه متعذّر وبعيد، ولم نعرف لأحد
منهم.

وكذلك لا تَنَبَّثُ اللغات بقياس ما لم يُعرَف استعماله على ما عُرف
استعماله بجامع يشهدُ باعتباره في الأول، شأن القياسات الفقهيّة، فيثبتُ الخبر للنبذ
15 باستعماله في ماء العنب، باعتبار الإسكار الجامع. لأنّ شهادة الاعتبار في باب

(أ) ج: أَشَدَّ (ب) ط ع: ولذلك (ج) من ع، وسقط من بقية النسخ ألف المذ (د) ع: باختلاف (هـ) هذا الفصل من ع،
وسقط من بقية النسخ المعتمدة ط ج ي.

القياس، إِنَّمَا مَذَرُكُهَا الشَّرْعُ الدَّالُّ عَلَى صِحَّةِ الْقِيَاسِ مِنْ أَصْلِهِ، وَلَيْسَ لَنَا مِثْلُهُ فِي
اللُّغَةِ إِلَّا بِالْعَقْلِ، وَهُوَ تَحَكُّمٌ، وَعَلَى هَذَا جُمْهُورُ الْأَيْمَةِ؛ وَإِنْ مَالَ إِلَى الْقِيَاسِ فِيهَا
الْقَاضِي، وَابْنُ سُرَيْجٍ، وَغَيْرُهُمْ، لَكِنَّ الْقَوْلَ بِنَفْيِهِ أَرْجَحُ. وَلَا تَتَوَهَّمَنَّ أَنَّ إِثْبَاتَ اللُّغَةِ
مِنْ بَابِ الْحُدُودِ اللَّفْظِيَّةِ، لِأَنَّ الْحَدَّ رَاجِعٌ إِلَى الْمَعَانِي بَيَانُ أَنَّ مَدْلُولَ اللَّفْظِ الْمَجْهُولِ
الْحَفِيِّ هُوَ مَدْلُولُهُ الْوَاضِحُ الْمَشْهُورُ، وَاللُّغَةُ إِثْبَاتُ أَنَّ لَفْظًا كَذَا لِمَعْنَى كَذَا، وَالْفَرْقُ فِي 5
غَايَةِ الظَّاهِرِ^(١).

• عِلْمُ الْبَيَانِ

هَذَا الْعِلْمُ حَادِثٌ فِي الْمِلَّةِ بَعْدَ عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ وَاللُّغَةِ. وَهُوَ مِنَ الْعُلُومِ اللَّسَانِيَّةِ،
لِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْأَلْفَاظِ وَمَا تُقِيْدُهُ، وَيُقْصَدُ بِهَا الدَّلَالَةُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي. وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمُورَ
الَّتِي يَقْصَدُ بِهَا الْمُتَكَلِّمُ إِفَادَةَ السَّمَاعِ مِنْ كَلَامِهِ، هِيَ إِمَّا تَصَوُّرٌ [فِي] ^(ب) مُفْرَدَاتٍ تُسْنَدُ 10
وَيُسْنَدُ إِلَيْهَا، وَيُقْضَى بِتَغْضِئِهَا إِلَى بَعْضٍ، وَالدَّلَالَةُ عَلَى هَذِهِ هِيَ الْمَفْرَدَاتُ مِنَ الْأَسْمَاءِ
وَالْأَفْعَالِ وَالْحُرُوفِ، وَإِمَّا تَمْيِيزُ الْمُسْنَدَاتِ / مِنَ الْمُسْنَدِ إِلَيْهَا وَالْأَزْمَنَةِ، وَيُبْدَلُ عَلَيْهَا [395ب]
بِتَغْيِيرِ الْحَرَكَاتِ، وَهُوَ الْإِغْرَابُ وَأَبْنِيَةُ الْكَلِمَاتِ. وَهَذِهِ كُلُّهَا هِيَ صِنَاعَةُ التَّخْوِ.

وَيَبْقَى مِنَ الْأُمُورِ الْمَكْتَنَفَةِ بِالْوَاقِعَاتِ الْمُحْتَاجَةِ لِلدَّلَالَةِ، أَحْوَالُ الْمُتَخَاطِبِينَ
و^(ج) الْفَاعِلِينَ، وَمَا يَقْتَضِيهِ حَالُ الْفِعْلِ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ مِنْ تِمَامِ 15
الْإِفَادَةِ. وَإِذَا حَصَلَتْ لِلْمُتَكَلِّمِ، فَقَدْ بَلَغَ غَايَةَ الْإِفَادَةِ فِي كَلَامِهِ. وَإِذَا لَمْ يَشْتَمَلْ مِنْهَا

(١) نهاية الفصل الذي جاء في ع وحدها (ب) من ع وحدها (ج) في ع : أو .

على شيء، فليس من جنس كلام القرب؛ فإنّ كلامهم واسع، ولكلّ مقام عندهم مقال يختصّ به، بعد كمال الإغراب والإبانة.

ألا ترى أنّ قولهم: زيد جاءني، مُغاير لقولهم: جاءني^(أ) زيد، من قبل أنّ المقدمّ منها هو الأهمّ عند المتكلم. فمن قال: جاءني زيد [أفاد أنّ اهتمامه بالحيّ قبل الشخص المسند إليه، ومن قال: زيد جاءني]^(ب) أفاد أنّ اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند. وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يُناسب المقام من موصول أو مُبهم أو معرفة.

وكذا تأكيد الإسناد في الجملة، كقولهم: زيد قائم، وإنّ زيدا قائم، وإنّ زيدا قائم، متغايرة كلّها في الدلالة. وإن استوث من طريق الإغراب، فإنّ الأوّل العاري عن التأكيد إنّما يفيد الخالي الذهن، والثاني المؤكّد بأنّ، يفيد [المرتدّد]^(ج)، والثالث يفيد المنكير؛ فهي مختلفة.

وكذلك تقول: جاءني الرجل. ثمّ تقول مكانه بعينه: جاءني رجل، إذا قصدت بذلك التنكير تعظيمة، وأنّه رجل لا يُعادله أحد من الرجال.

ثمّ الجملة الإسناديّة تكون خبريّة، وهي التي لها خارج تطابقه أو لا، وإنشائيّة، وهي التي لا خارج لها، كالطلب وأنواعه.

ثمّ قد يتعيّن تركّ العاطف بين الجملتين إذا كان للثانية محلّ من الإغراب،

(أ) ي ج: جاء (ب) سقط من ظ ج ي (ج) من ع، وفي ظ ج ي: التردّد.

فَيَنْزِلُ بِذَلِكَ مَنْزِلَةَ التَّابِعِ الْمُفْرَدِ نَعْتاً [أو] ^(١) تَوْكِيداً أَوْ بَدَلاً، فَلَا عَطْفَ. أَوْ يَتَعَيَّنُ
العطف إذا لم يكن للثانية محلٌّ من الإعراب.

ثمَّ قد يقتضي المحلُّ الإطناب أو الإيجاز، فيوردُ الكلامُ عليهما ^(ب).

ثمَّ قد تدلُّ باللفظ ولا تريدُ منطوقه، / وتريدُ لازمه إن كان مفرداً، كما

[396]

تقول: زيدٌ أسدٌ، فلا تريدُ حقيقة الأسد المنطوقة، وإنما تريدُ شجاعته اللازمة، وتُسَمِّيها ⁵
إلى زَيْدٍ. وتسمى هذه استعارة.

وقد تريدُ باللفظ المركَّب الدلالة على ملزومه، كما تقول: زيدٌ كثيرُ رُمادٍ
القُدورِ ^(ج)، وتريدُ به ما لزمَ ذلك عنه من الجودِ وقَرَى الصُّيُوفِ، لأنَّ كثرةَ الرُمادِ
ناشئةٌ عنها، فهي دالةٌ عليهما. وهذه كلّها دلالاتٌ زائدةٌ على دلالاتِ الألفاظِ المفردِ
والمركَّبِ. وإنما هي هيئاتٌ وأحوالٌ للواقعاتِ، جُعِلَتْ للدلالةِ عليها أحوالٌ وهيئاتٌ في ¹⁰
الألفاظِ، كلٌّ بحسبِ ما يقتضيه مقامه.

فاشتملَ هذا العلمُ المسمَّى بالبيان على البحثِ عن هذه الدلالةِ التي للهيئاتِ
والأحوالِ في ^(د) المقاماتِ، وجعل على ثلاثةِ أصنافٍ:

الصَّنْفُ الأوَّلُ: يُبْحَثُ فيه عن هذه الهيئاتِ والأحوالِ حتَّى يُطابِقَ باللفظِ

جميعَ مُقتضياتِ الحالِ؛ ويسمَّى: علمُ البلاغةِ. ¹⁵

والصَّنْفُ الثاني: يُبْحَثُ فيه عن الدلالةِ على لازمِ اللفظِ أو ملزومه، وهي

الاستعارةُ والكنيئةُ، كما قلنا، ويسمَّى: علمُ البيانِ.

(١) ج ظ ي: و (ب) ج: عليها (ج) ع: التَّنْزِيلُ (د) ي: و .

وَأَلْحَقُوا بِهِمَا صَنَافَ آخَرَ، وَهُوَ النَّظَرُ فِي تَزْيِينِ الْكَلَامِ وَتَحْسِينِهِ بِنَوْعٍ مِنَ التَّنْمِيقِ، إِمَّا بِسَجْعٍ يُفَضِّلُهُ، أَوْ تَجْنِيسٍ يُشَابِهُهُ بَيْنَ أَلْفَاظِهِ، أَوْ تَرْصِيعٍ يُقَطِّعُ أَوْزَانَهُ، أَوْ تَوْرِيَةٍ عَنِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ بِإِيْهَامٍ مَعْنَى أَخْفَى مِنْهُ، لِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِ بَيْنَهُمَا، [أَوْ طِبَاقٍ بِالتَّقَابِلِ بَيْنَ الْأَضْدَادِ] ⁽¹⁾، وَأَمْثَالٍ ذَلِكَ. وَتَسَمَّى عِنْدَهُمْ: [عِلْمٌ] ^(ب) الْبَدِيعِ.

5 وَأُطْلِقَ عَلَى الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ اسْمُ الْبَيَانِ؛ وَهُوَ اسْمُ الصَّنَفِ الثَّانِي، لِأَنَّ الْأَقْدَمِينَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمُوا فِيهِ.

ثُمَّ تَلَا حَقَّتْ مَسَائِلُ الْفَنِّ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى، وَكُتِبَ فِيهَا جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى، وَالْجَاحِظُ، وَقُدَامَةُ، وَأَمْثَالُهُمْ، إِمْلَاءَاتٍ غَيْرَ وَافِيَةٍ بِهَا. ثُمَّ لَمْ تَزَلْ مَسَائِلُ الْفَنِّ تَكْمُلُ شَيْئًا فَشَيْئًا، إِلَى أَنْ مَخَضَ السَّكَّاكِيُّ زُبْدَتَهُ، وَهَذَبَ مَسَائِلَهُ، وَرَثَبَ أَبْوَابَهُ عَلَى نَحْوِ 10 مَا ذَكَرْنَاهُ آتِفًا مِنَ التَّرْتِيبِ، وَأَلَّفَ كِتَابَهُ الْمُسَمَّى بِالْمِفْتَاحِ فِي النَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ وَالبَيَانِ، / فَجَعَلَ هَذَا الْفَنَّ مِنْ بَعْضِ أَجْزَائِهِ. وَأَخَذَهُ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْ كِتَابِهِ، وَلَخَّصُوا مِنْهُ أَمَهَاتٍ هِيَ الْمَتَادَوَلَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ، كَمَا فَعَلَهُ السَّكَّاكِيُّ ^(ج) فِي كِتَابِ التَّيْنَانِ، وَابْنُ مَالِكٍ فِي كِتَابِ الْمِضْبَاحِ، وَجَلَالُ الدِّينِ الْقَزْوِينِيُّ فِي كِتَابِ الْإِيضَاحِ ^(د) وَكِتَابِ التَّلْخِصِ، وَهُوَ أَصْغَرُ حَجْمًا مِنَ الْإِيضَاحِ. وَالْعَنَائَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَشْرِقِ 15 فِي الشَّرْحِ وَالتَّعْلِيمِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِ.

وَبِالْجُمْلَةِ، فَلِمُشَارِقَتِهِ عَلَى هَذَا الْفَنِّ أَقْوَمُ مِنَ الْمَغَارِبَةِ. وَسَبِّبَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُ كَمَا لِي فِي الْعُلُومِ اللَّسَانِيَّةِ، وَالصَّنَائِعِ الْكِمَالِيَّةِ تَوَجَّدَ فِي وَفُورِ الْعُمُرَانِ، وَالْمَشْرِقِ أَوْفَرُ

(1) من حاشية ع، وسقط من ظ ي (ب) من حاشية ع وحدها بخطه (ج) ع: السماكي، خطأ (د) ع: وفي .

عُمَرَانَا مِنَ الْمَغْرِبِ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ. أَوْ نَقُولُ: لِعِنَايَةِ الْعَجَمِ، وَهُمْ مُعْظَمُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ،
 بِتَفْسِيرِ الزَّمَخْشَرِيِّ، وَهُوَ كُلُّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى هَذَا الْقَنْ، [بل] ^(أ) هُوَ أَصْلُهُ. وَإِنَّمَا اخْتَصَّ
 بِأَهْلِ الْمَغْرِبِ مِنْ أَصْنَافِهِ عِلْمُ الْبَدِيعِ خَاصَّةً، وَجَعَلُوهُ مِنْ جُمْلَةِ عُلُومِ الْأَدَبِ الشَّعْرِيَّةِ،
 وَفَرَعُوا لَهُ الْقَبَا، وَعَدَّدُوا أَبْوَاباً، وَتَوَعَّوْا أَنْوَاعاً، زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَحْصَوْهَا مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ.
 وَإِنَّمَا حَلَمَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْوُلُوعُ بِتَرْيِينِ الْأَلْفَاظِ، وَأَنَّ عِلْمَ الْبَدِيعِ سَهْلُ الْمَأْخُذِ. وَصَعُبَتْ 5
 عَلَيْهِمْ مَأْخُذُ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ * لِدَقَّةِ أَنْظَارِهِمَا * ^(ب) وَغُمُوضِ مَعَانِيهَا، فَتَجَافَوْا عَنْهَا.
 وَمَنْ أَلَّفَ فِي الْبَدِيعِ مِنْ أَهْلِ إِفْرِيقِيَّةِ ابْنُ رَشِيقٍ، وَكَتَابُ الْعُمْدَةِ لَهُ مَشْهُورٌ. وَجَرَى
 كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ إِفْرِيقِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِ عَلَى مَنَحَاهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ ثَمَرَةَ هَذَا الْقَنْ إِنَّمَا هِيَ فِي فَهْمِ الْإِعْجَازِ مِنَ الْقُرْآنِ، لِأَنَّ إِعْجَازَهُ فِي
 وِفَاءِ الدَّلَالَةِ مِنْهُ ^(ج) بِجَمِيعِ مُقْتَضِيَاتِ الْأَحْوَالِ مَنْطُوقَةٍ وَمَفْهُومَةٍ. وَهِيَ أَعْلَى مَرَاتِبِ 10
 الْكَمَالِ مَعَ الْكَلَامِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِالْأَلْفَاظِ فِي اتِّبَاقِهَا وَجُودَةِ [رَضْفِهَا] ^(د) وَتَرْكِيبِهَا. وَهَذَا
 هُوَ الْإِعْجَازُ الَّذِي تَقْصُرُ الْأَفْهَامُ عَنْ دَرْكِهِ. وَإِنَّمَا يَدْرِكُ بَعْضُ الشَّيْءِ مِنْهُ مَنْ كَانَ لَهُ
 ذَوْقٌ بِمَخَالَطَةِ اللَّسَانِ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ، فَيَدْرِكُ مِنْ إِعْجَازِهِ عَلَى / قَدَرِ ذَوْقِهِ. فَلِهَذَا [397]
 كَانَتْ مَدَارِكُ الْعَرَبِ الَّذِينَ سَمِعُوهُ مِنْ مُبَلِّغِهِ أَعْلَى مَقَاماً فِي ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ فُرْسَانُ الْكَلَامِ
 وَجَاهِدَتُهُ، وَالذَّوْقُ عِنْدَهُمْ مَوْجُودٌ بِأَوْفَرِ مَا يَكُونُ وَأَصَحُّه. 15

وَأُحَوِّجُ مَا يَكُونُ إِلَى هَذَا الْقَنْ الْمَفْسُورِ. وَأَكْثَرُ تَفَاسِيرِ الْمُتَقَدِّمِينَ غُفْلٌ
 مِنْهُ، حَتَّى ظَهَرَ جَارُ اللَّهِ الزَّمَخْشَرِيُّ وَوَضَعَ كِتَابَهُ فِي التَّفْسِيرِ، وَتَبَعَ آيَ الْقُرْآنِ

(أ) مِنْ ع وَحْدَهَا (ب) سَقَطَ مَا بَيْنَ النَّجْمَيْنِ مِنْ ج (ج) ج : مِنْهَا (د) ظ ج ي : وَضَفَهَا .

بأحكام هذا الفن بما يُندي البعض من إعجازه، فانفرد بهذا الفضل على جميع
التفاسير، لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة.
ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة، مع وفور بضائعه من البلاغة. فمن أحكم
عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من
جنس كلامه، أو يعلم أنها بدعة فيغرض عنها ولا تضره في معتقده، فإنه يتعين عليه
التنظر في هذا الكتاب للظفر بشيء من غرائب⁽¹⁾ الإعجاز، مع السلامة من البدع
والأهواء. والله الهادي من يشاء إلى سواء السبيل.

❦ علمُ الأدب

هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نقيها، وإنما المقصود منه
عند أهل اللسان ❦ ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب
ومناحيهم. فيجمعون لذلك ❦^(ب) من حفظ كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة،
من شعر عالي الطبقة، وسجع مُساوٍ في الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة
أثناء ذلك، متفرقة يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العريضة، مع ذكر
بعض من أيام العرب، يفهم به ما يقع في أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهم من الأنساب
الشهيرة والأخبار العامة. والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من
كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه، لأنه لا تحصل الملكة من حفظه
إلا بعد فهمه، / فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه.

[397ب]

(أ) من حاشية ع، ومسقط من ظ ح ي (ب) ما بين النجمين حاشية بخطه في ع، ومسقط من ظ ي .

ثم إنهم إذا أرادوا حَدَّ هذا الفنِّ ، قالوا : الأدب هو حفظُ أشعارِ العربِ وأخبارِها ، والأخذُ من كلِّ عِلْمٍ بطَرَفٍ ، يُريدونَ من علوم اللِّسان ، أو العلوم الشرعيَّة من حيثُ مُتُونُها فَقَطْ ، وهي القرآنُ والحديثُ ، إذ لا مدخلَ لغير ذلك من العلوم في كلام العربِ إلَّا ما ذهبَ إليه المتأخرونَ عند [كَلْفِهِمْ]^(أ) بصناعة البديع ، من التَّورية في أشعارهم وتزسيْلهم بالاضطِّلاحات العِلْميَّة . فاحتاجُ 5 صاحبُ^(ب) هذا الفنِّ حينئذٍ إلى مَعْرِفَةِ اصطِلاحاتِ العلوم ليكوُن قائماً^(ج) على فَهْمِها.

وسمِعنا من شيوخنا في مجالِس التَّعليم ، أنَّ أصولَ هذا الفنِّ وأركانُه أربعة دواوينَ ، وهي : أدبُ الكُتَّاب لابن قُتَيْبَة ، وكتابُ الكاملِ للمُبَرِّد ، وكتابُ البيانِ والتبيينِ للجاحِظ^(د) ، وكتابُ التَّوَادِرِ لأبي عَلِيٍّ القَالِي البَغْدَادِي . وما سِوَى هذه 10 الأربعة ، فتَبَعُ لها وفروعٌ عنها . وكُتِبَ المحدثينَ في ذلك كثيرةٌ.

وقد كان الغناءُ في الصِّدْرِ الأوَّل من أجزاء هذا الفنِّ لما هو تابعٌ للشَّعرِ ، إذ الغناءُ إنَّما هو تَلْحِينُهُ . وقد كان الكُتَّابُ والفُضلاءُ من الخواصِّ في الدَّولة العبَّاسيَّة ، يأخذونَ أنفُسَهُم به حِرْصاً على تحصيلِ أساليبِ [الشَّعْرِ وفنونه]^(هـ) ، فلم يَكُنِ انتحالُهُ قَادِحاً في العَدالةِ والمروءةِ . [وكان سَلَفُ أَهْلِ الحِجازِ بالمدينةِ وغيرها يَنْتَحِلُونَ ذلك ، 15 وَهُمْ الحُجَّةُ على مَنْ سِوَاهُمْ]^(و) .

(أ) ي: ط: كلامهم (ب) سقط من ج (ج) ط: قائمة (د) سقط من ج (هـ) ع: ج: العرب وفنونهم (و) حاشية من ع وحدها .

وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصفهاني، وهو ما هو، كتابه في الأغاني. جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم، وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيدي، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه. ولعمري، إنه ديوان العرب، وجامع أشات المحاسن التي سلفت لهم * في كل فن⁽¹⁾

5 من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال، / ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما تعلمه؛ وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقيم عندها، وأنى له بها.

ونحن الآن نرجع بالتحقيق على الإجمال فيما تكلفنا عليه من علوم اللسان. والله الهادي للصواب.

46 * فصل، في أن اللغة ملكة صناعية

10 اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة، للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده 15 للسامع. وهذا هو معنى البلاغة.

(1) سقط من ج .

والمملكات لا تحضل إلا بتكرار الأفعال، لأنَّ الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة، ثم يتكرّر. فيكون حالاً. ومعنى الحال أنه صفة غير راسخة. ثم [يزيد]^(١) التكرار، فيكون ملكة، أي صفة راسخة.

فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام أهل جيله وأساليهم في مخاطبتهم وكيفية تغييرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات [في معانيها]^(ب) فيلقنها [أولاً]^(ب). ثم يسمع التراكيب بعدها، فيلقنها كذلك. ثم لا يزال سماعهم [لذلك]^(ج) يتجدد في كل لحظة ومن كل مثكلهم، واستعماله يتكرّر، إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة، ويكون كأخدهم.

هكذا تَصَيَّرَت الألسنُ واللُّغَاتُ من جيلٍ إلى جيلٍ، وتعلَّمَهَا العَجَمُ والأَطْفَالُ. وهذا معنى ما يقوله العامة من أنَّ اللغة للعرب بالطَّبع، أي بالملكة الأولى التي أخذت عنهم ولم يأخذوها عن^(د) غيرهم.

ثم إنَّه لما فسدت هذه الملكة لُضِرَ بمخالطتهم الأعاجم، وسبَّبَ فسادها أنَّ الناشئ من الجيل صار يستمع في العبارة عن المقاصد كصفات أخرى غير الكيفيات [التي كانت]^(هـ) للعرب، / فيعبّر بها عن مقصوده لكثرة [المخالطين]^(و) للعرب من غيرهم، ويسمع كصفات العرب أيضاً، فاحتلَّط عليه الأمر، وأخذ من هذه وهذه. فاستحدثت ملكة وكانت ناقصة عن الأولى. وهذا معنى فساد اللسان العربي.

(١) ظ: يكون (ب) من حاشية ع، وسقط من ط ج ي (ج) ج ظ: كذلك (د) ع: من (هـ) من حاشية ع (و) من ع، وفي ط ج ي: المخاطبين، وكانت كذلك في ع ثم أصلحت.

ولهذا كانت لغة قُرَيْشٍ أفصح اللُّغاتِ العربيَّةِ وأَصْرَحَها، لبُعْدِهِمْ عن بلادِ
العَجَمِ من جميعِ جهاتِهِمْ، ثُمَّ من اكْتَنَفَهُمْ من ثَقِيفٍ، وَهَذِيلٍ، وَخُزَاعَةَ، وَبَنِي كِنَانَةَ،
وَعَطْفَانَ، وَبَنِي أَسَدٍ، وَبَنِي تَمِيمٍ. وَأما من بَعَدَ عَنْهُمْ من رَبِيعَةَ، وَلُخَمٍ، وَجُدَامٍ،
وَعَسَّانٍ، وَإِيَادٍ، وَقُضَاعَةَ، وَعَرَبِ اليَمَنِ المجاورِينَ لِأُمَمِ الفُرسِ والرومِ^(١) والحَبَشَةِ،
5 فلم تَكُنْ لُغَتُهُمْ تَامَةً الْمَلَكَةَ بِمُخَالَطَةِ الْأَعَاجِمِ. وَعَلَى نِسْبَةِ بُعْدِهِمْ عَنْ قُرَيْشٍ، كَانَ
الاحتِجَاجُ بِلُغَاتِهِمْ فِي الصَّحَّةِ وَالْفَسَادِ عِنْدَ أَهْلِ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

47 * فَضْلٌ، فِي أَنَّ لُغَةَ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ، لُغَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ مُغَايِرَةٌ لِلُّغَةِ مُضَرٍّ وَلُغَةِ حَمِيرٍ

وذلك أَنَا نَجِدُهَا فِي بَيَانِ الْمَقَاصِدِ وَالْوَفَاءِ بِالذَّلَالَةِ عَلَى سَنَنِ اللِّسَانِ الْمُضَرِّيِّ،
10 وَلَمْ يُفَقَدْ مِنْهَا إِلَّا ذَلَالَةُ الْحَرَكَاتِ عَلَى تَعْيِينِ الْفَاعِلِ مِنَ [الْمَفْعُولِ]^(ب)؛ فَاعْتَصَبُوا مِنْهَا
بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، وَبِقِرَائِنٍ تُدَلُّ عَلَى خُصُوصِيَّاتِ الْمَقَاصِدِ. إِلَّا أَنَّ الْبَيَانَ وَالْبَلَاغَةَ
فِي اللِّسَانِ [الْمُضَرِّيِّ]^(ج) أَكْثَرُ وَأَعْرَقُ، لِأَنَّ الْأَلْفَاظَ بِأَعْيَانِهَا ذَالَّةٌ عَلَى الْمَعَانِي
بِأَعْيَانِهَا؛ وَيَبْقَى مَا تَقْتَضِيهِ الْأَحْوَالُ، وَيُسَمَّى بِسَاطِ الْحَالِ، مُحْتَاجاً إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.
وَكُلُّ مَعْنَى لَا بُدَّ وَأَنْ تَكْتَنِفَهُ أَحْوَالٌ تَخُصُّهُ، فَيَجِبُ أَنْ تُعْتَبَرَ تِلْكَ الْأَحْوَالُ فِي تَأْدِيَةِ
15 الْمَقْصُودِ، لِأَنَّهَا صِفَاتُهُ. وَتِلْكَ الْأَحْوَالُ فِي جَمِيعِ الْأَلْسُنِ أَكْثَرُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهَا بِالْفَظِ
تَخُصُّهَا بِالْوَضْعِ.

(١) شطبت في ع (ب) من ع، وفي ط ج ي: المفعول (ج) ط ج ي: العربي.

وأما في اللسان العربي، فإنما يُدَلَّ عليها بأحوالٍ وكيفياتٍ في تراكيب الألفاظ وتأليفها، من تقديم، وتأخير، أو حذف، أو حركة إغراب. وقد يُدَلَّ عليها بالحروف غير المستقلة.

[ولذلك]⁽¹⁾ تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك / الكيفيات، كما قدّمناه. فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقلّ ألفاظاً 5 وعبارة من جميع الألسن. وهذا معنى قوله ﷺ⁽¹⁾: "أوتيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصاراً".

واعْتَبِرْ ذلك بما يُحْكِي عن عيسى بن عمر وقد قال له بَطْنُ الثُّحَاة: إني أجدُ في كلام العرب تَكَرُّراً في قولهم: زيدٌ قائمٌ، وإنَّ زَيْداً قائمٌ، وإنَّ زَيْداً قائمٌ، والمعنى واحدٌ. فقال له: إنَّ معانيها مختلفةٌ. والأوّلُ: إفادته لخالي الذّهن عن قيام زيد، 10 والثاني: لمن سَمِعَهُ فَأَنْكَرَهُ، والثالثُ: لمن عُرِفَ بالإضرار على إنكاره. فاختلّفت الدّلالة باختلاف الأحوال.

وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد. ولا تَلْتَفِتَنَّ في ذلك إلى خَرْفَشَةٍ⁽²⁾ الثُّحَاة، أهل صناعة الإغراب، القاصرة

(أ) ط: وكذلك .

(1) تقدّم تخريجه في صفحة 476 .

(2) في الناج عن الصاغاني: هو التخليط. ويفسره قول ابن عمر - وذكرت بالخاء بدل الخاء - : "هذه حرفشة في العلم وطريقة يسلكها القاصرون فيه" تهذيب ابن قيم الجوزية على مختصر سنن أبي داود 2: 427 .

مداركهم عن التحقيق، حيث يزعمون أنَّ البلاغة لهذا العهد ذهبت، وأنَّ
 اللسان العربيَّ فسَدَ، اعتباراً بما وقع أواخرَ الكلام من فسادِ الإغراب الذي
 يتدارسون قواعده. وهي مقالةٌ دَسَّها التشيُّع في طبائعهم، وألقاها القُصُور في أفئدتهم.
 وإلاَّ فنحنُ نجدُ اليومَ الكثيرَ من ألفاظِ العربِ لم تزلْ في موضوعاتها الأولى، والتعبيرُ
 5 عن المقاصد والتفاوتُ فيه بتفاوتِ الإبانةِ موجودٌ في كلامهم لهذا العهد. وأساليبُ
 اللسانِ [وفنونه] ^(١) من التظمِ والتثَرُّ موجودٌ في مخاطباتهم؛ وفيهم الخطيبُ المضقُّعُ في
 محافلهِم ومجاميعهم، والشاعرُ المفلقُ على أساليبِ لغتهم، والتوقُّ الصحيحُ والطبعُ
 السليمُ شاهدانِ بذلك. ولم يفقدْ من أحوالِ اللسانِ المدوَّنِ إلاَّ حركاتُ الإغراب
 في أواخرِ الكلامِ فقط، الذي لزمَ في لسانِ مُضَرَّ طريقةٍ واحدةٍ ومهيئاً مغروفاً، وهو
 10 الإغرابُ؛ وهو بغضٌ من أحكامِ اللسانِ.

وإنما وقعت العنايةُ بلسانِ مُضَرَّ، لما فسَدَ / بمخالطتهم الأعاجِمَ حين استولوا [399ب]
 على ممالكِ العراقِ والشَّامِ ومُضَرَّ والمَغْرِبِ، وصارتْ ملكته على غيرِ الصورةِ التي
 كانت أولاً، فانقلبَ لغةُ أخرى. وكان القرآنُ مُتَنَزِّلاً به، والحديثُ النبويُّ منقولاً
 بلغته، وهما أصلُ الدينِ والمِلَّةِ، فَخشيَ تناسيها وانغلاقُ الأفهامِ عنها بفقدانِ اللسانِ
 15 الذي تنزَّلَا به. فاحتجَّ إلى تدوينِ أحكامِهِ ووضعِ مقاييسِهِ واستنباطِ قواعديه، وصارَ
 علماً ذا فصولٍ وأبوابٍ ومقدماتٍ ومسائلٍ، سمَّاه أهله بعلمِ النحْوِ وصناعةِ العَرَبِيَّةِ.
 فأصبح ^(ب) فتناً محفوظاً وعلماً مكتوباً وسُلماً إلى فهمِ كتابِ الله وسُنَّةِ رسوله راقياً.

(١) من ع، وفي ط ج ي: وقوته (ب) ع: وأصبح .

ولعلنا لو اغتنيننا بهذا اللسان العربي لهذا العهد، واستقرينا أحكامه، نعتاض
عن الحركات الإغرائية التي فسدت [في دلالتها بأمور أخرى، وكيفيات^(أ)] موجودة
فيه، وتكون لها قوانين تخصها، و^(ب) لعلها تكون في أواخره، على غير المنهاج الأول
في لغة مضر، فليست اللغات وملكاتهما مجانا.

- ولقد كان اللسان المضرّي مع اللسان الحميريّ بهذه المثابة، وتغيّرت عند
مُضَر كثير من موضوعات اللسان الحميريّ وتصريف^(ج) كلياته، يشهد بذلك الأتقال
الموجودة لدينا، خلافاً لمن يحمّله القصور على أنها لغة واحدة، ويلتمس إجراء اللغة
الحميريّة على مقاييس اللغة المضرّية وقوانينها، كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في
اللسان الحميريّ من القول، وكثير من أشباه هذا. وليس ذلك بصحيح. ولغة حمير
لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركاتها، كما هي لغة
العرب لعهدنا مع لغة مضر. إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة، كما قلناه،
حمل على ذلك الاستقراء والاستنباط، وليس عندنا [نحن]^(د) لهذا العهد ما يحملنا
على مثل ذلك ويدعونا إليه.

- [400] وما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد / حيث كانوا من الأقطار،
شأنهم في النطق بالقاف، فإنهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الأنصار،
كما هو مذكور في كتب العريّة أنه من أقصى اللسان [وما فوقه]^(هـ) من الحنك
الأعلى، [ولا ينطقون بها أيضاً من مخرج الكاف، وإن كان أسفل من موضع القاف

(أ) حاشية من ع وحدها بخطه (ب) ع: أو (ج) ع: تصريف (د) حاشية من ع وحدها (هـ) ي: ومالوفه، خطأ.

وما يليه من الحنك الأعلى^(أ) كما هي، بل يَحْيُونَهَا مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ الكاف والقاف. [وهذا]^(ب) موجودٌ للجيل أجمع حيث كانوا من غربٍ أو شرقٍ، حتى صار ذلك علامةً عليهم من بين الأمم والأجيال، ومُختَصّاً بهم لا يشاركهم فيه غيرُهم. حتى أن من يُريد التَّعَرُّبَ والانتسابَ إلى الجيل والدخولَ فيه، يحاكمهم في النطق بها. وعندهم 5 أنه إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ الْعَرَبِيُّ الصَّرِيحُ مِنَ الدَّخِيلِ فِي الْعَرُوبِيَّةِ [أو]^(ج) الحَضْرِيُّ، بالنطق بهذه القاف. ويظهرُ من ذلك أَنَّهَا لُغَةٌ مُضَرَّ بَعَيْنِهَا. فَإِنَّ هَذَا الْجِيلَ الْبَاقِيْنَ مَعْظَمَهُمْ وَرِياسَتَهُمْ شَرْقاً وَعَرْباً فِي وَلَدٍ مَنْصُورٍ بِنِ عِكْرِمَةَ بِنِ خَصْفَةَ^(د) بِنِ قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ ابْنِ سُلَيْمٍ بِنِ مَنْصُورٍ، وَمِنْ بَنِي عَامِرٍ بِنِ صَفْصَعَةَ بِنِ مُعَاوِيَةَ بِنِ بَكْرِ بْنِ هَوَازِنَ بِنِ مَنْصُورٍ. وَهَمْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَكْثَرُ الْأُمَمِ فِي الْمَغْمُورِ وَأَغْلَبُهُمْ؛ وَهَمْ مِنْ أَغْقَابِ مُضَرٍّ وَسَائِرِ الْجِيلِ مَعَهُمْ [مِنْ بَنِي كَهْلَانَ]^(هـ) فِي النَّطْقِ بِهَذِهِ الْقَافِ، أُسُودٌ. 10

وهذه اللُّغة لم يَتَدَيَّعْهَا هَذَا الْجِيلُ، بَلْ هِيَ مُتَوَارِثَةٌ فِيهِمْ مُتَعَايِنَةٌ. وَيُظْهَرُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا لُغَةٌ مُضَرَّ الْأَوَّلِينَ، وَ^(و) لَعَلَّهَا لُغَةُ النَّبِيِّ ﷺ بَعَيْنِهَا، وَقَدْ ادَّعَى ذَلِكَ فَقُهَاءُ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَرَزَعَمُوا أَنَّ مِنْ قَرَأَ فِي أُمِّ الْقُرْآنِ: ﴿الْصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة، مِنْ الْآيَةِ 6] بِغَيْرِ الْقَافِ الَّذِي لِهَذَا الْجِيلِ، فَقَدْ لَحَنَ وَأَفْسَدَ صَلَاتَهُ. وَمَا أَدْرِي مِنْ 15 أَيْنَ جَاءَ هَذَا؟ فَإِنَّ لُغَةَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَيْضاً لَمْ يَسْتَحْدِثْهَا، وَإِنَّمَا تَنَاقَلُوهَا مِنْ لَدُنْ سَلَفِهِمْ، وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ مُضَرٍّ بِمَا نَزَلُوا الْأَمْصَارَ مِنْ لَدُنْ الْفَتْحِ. وَأَهْلُ الْجِيلِ أَيْضاً لَمْ يَسْتَحْدِثْهَا، إِلَّا أَنَّهُمْ أَبْعَدُ عَنْ مُخَالَطَةِ الْأَعَاجِمِ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ. فَهَذَا^(ز) يُرْجَّحُ فِيمَا

(أ) حاشية من ع وحدها بخطه (ب) ط ج ي: وهو (ج) من ع ج، وسقط من ط ي (د) سقط من ي (هـ) من حاشية ع، ومن ج، وسقط من ط ي (و) ع: أو (ز) ع: فهذا

[400ب] يوجد من اللغة لديهم أنه من / لغة سلفهم . وهذا مع اتفاق أهل الجيل كلهم شرقاً

وغرباً في النطق بها، وأنها الخاصية التي يميّز بها العربي من الهجين والحضري.

*(¹) والظاهر أن هذه القاف التي ينطق بها أهل (^ب) الجيل العربي البدوي،

هي (^ج) من مخرج القاف عند أولهم من أهل اللغة. وإن مخرج القاف متسع، فأوله

من أعلى الحنك، وآخره مما يلي الكاف. فالتنطق بها من أعلى الحنك هو لغة 5

الأمصار، والتنطق بها مما يلي الكاف هي لغة هذا الجيل البدوي. وهذا يندفع ما قاله

أهل البيت [عن] (^د) فساد الصلاة بتركها في أم القرآن؛ فإن فقهاء الأمصار كلهم على

خلاف ذلك، وبعيد أن يكونوا أهملوا ذلك؛ فوجهه ما قلناه.

نعم، نقول: إن الأرجح والأولى ما ينطق به أهل الجيل البدوي، لأن تواترها

فيهم - كما قد قدمناه - شاهد بأنها لغة الجيل الأول من سلفهم، وأنها لغة النبي ﷺ. 10

ويرجح ذلك أيضاً إدغامهم لها في الكاف، لتقارب المخرجين. ولو كانت كما

ينطق بها أهل الأمصار من أصل الحنك، لما كانت قريبة المخرج من الكاف ولم تدغم.

ثم إن أهل العربية قد ذكروا هذه القاف القريبة من الكاف، وهي التي

ينطق بها أهل الجيل البدوي من العرب لهذا العهد، وجعلوها (^ه) متوسطة بين

مخرجي القاف والكاف على أنها حرف مستقل، وهو بعيد. والظاهر أنها من آخر 15

مخرج القاف، لا تساعيه كما قلناه.

(1) ما بين النجمين (من هنا إلى آخر الفصل) ملحوظ في بطاقة ملصقة في ع، وثقلها عنها ط ج، ولم يرد في ي (ب) سقط من

ج (ج) في ع بخطه: هو، وعدلناه بما هو الأصوب (د) ط: من (ه) كذلك كانت في ع، ثم كتبت فوقها: وزعموا، ثم عاد إلى

الأولى بكلمة صح فوقها .

ثم إنهم يُصرّحون باستهجانِه واستفجائه، كأنهم لم يصحّ عندهم أنّها لغة الجيل الأول. وفيما ذكرناه من اتصال نُطقهم بها، لأنهم إنّما ورثوها من سلفهم جيلاً بعد جيل، وأنّها شعارهم الخاصّ بهم، دليلٌ على أنّها لغة ذلك الجيل الأول، ولغة النبي ﷺ، كما تقدّم ذلك كلّهُ.

- 5 وقد يزعم زاعم / أنّ هذه القاف التي يتطوّل بها أهل الأمصار ليست من هذا الحرف، وأنّها إنّما جاءت من مخالطتهم للعجم، وأنهم يتطوّلون بها كذلك، فليست من لغة العرب. لكنّ الأقيس ما قدّمناه من أنّها حرف واحد، مُتّسع المخرج. فتفهّم ذلك. والله الهادي المبين*^(١).

48 • فصل، في أنّ لغة^(ب) الحضّر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر

10

اعلم أنّ عُزف التّخاطب في الأمصار وبين الحضّر، ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجبل، بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها، بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربيّ الذي لعهدنا. وهي عن لغة مضر أبعد.

فأمّا أنّها لغة قائمة بنفسها، فهو ظاهر، يشهد له ما فيها من التّغاير الذي يُعَدُّ عند أهل صناعة النّحو لحناً. وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في

15

(١) آخر الملحق في البطاقة الملتصقة في ع، ونقلها عنها ط ج، ولم يرد في ي (ب) في ع: لغة أهل الحضّر.

اضطلاحاتهم. فلغة أهل المشرق مُباينةٌ بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس معها. وكلُّ منهم متوصِّلٌ بلغته إلى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه. وهذا معنى اللسان واللغة. وفقدان الإعراب ليس بضائرٍ لهم، كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد.

5 وأما أنها أبعدُ عن اللسان [الأول من لغة هذا الجيل، فلأنَّ البُعْدَ عن اللسان] ^(أ) إنما هو بمخالطة العجم ^(ب). فمن [خالط] ^(ج) العجم أكثر كانت لغته عن ذلك ^(د) اللسان الأصلي أبعد. لأنَّ الملكة إنما تحصل بالتعليم، كما قلناه. وهذه ملكة مُفترجةٌ من الملكة الأولى التي كانت للعرب، والملكة الثانية التي للعجم. فعلى مقدار ما يسمعونَه من العجمة ويُربُّونَ عليه، يبتعدونَ عن الملكة الأولى.

10 واعتبر ذلك في أمصار إفريقية والمغرب والأندلس والمشرق. أمّا إفريقية والمغرب، فخالط ^(هـ) العرب فيها البرابرة من العجم لوفور عمرانها بهم، ولم يكذ يخلو عنها مضرٌ ولا جيلٌ. فغلبت العجمة على اللسان العربي الذي كان لهم، وصارت لغة أخرى ممتزجة. والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه، فهي عن اللسان / الأول أبعد. وكذا [المشرق لما غلب] ^(و) العرب على أممِهِ من فارس والتُّرك، فخالطوهم وتداولت ^(ز) بينهم لغاتهم في الأكرة والفلاحين والسَّبي الذين اتَّخذوهم خولاً وداياتٍ وأطاراً ومراضع، 15 ففسدت لغتهم بفساد الملكة، حتَّى انقلبت لغة أخرى. وكذا أهل الأندلس مع عجم الجلالة والإفرتجة. وصار أهل الأمصار كلهم من هذه الأقاليم أهل لغة أخرى مخصوصة

(أ) من حاشية ع وحدها (ب) ع: العجمة (ج) من ع، وفي ط ح ي: خالطه العجم (د) من ع، وفي ط ح ي: هذا (هـ) ط ح ي: مخالطه (و) من حاشية ع وحدها (ز) من ع ج، وفي ط ي: وتداولت، خطأ.

بهم، تُخَالِفُ لُغَةً مُضَرَّ، وَيُخَالِفُ أَيْضاً بَعْضُهَا بَعْضاً كَمَا نَذَكُرُهُ. وَكَأَنَّهَا لُغَةٌ أُخْرَى لَاسْتِحْكَامِ مَلَكَّتِهَا فِي أَجْيَالِهِمْ. ﴿وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية 47].

49 • فَصْلٌ، فِي تَعْلُمِ اللِّسَانِ الْمُضَرِّيِّ

اعْلَمْ أَنَّ مَلَكَةَ اللِّسَانِ الْمُضَرِّيِّ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ ذَهَبَتْ وَفَسَدَتْ. وَلُغَةُ أَهْلِ الْجِيلِ كُلِّهِمْ مُعَايِرَةٌ لِلُّغَةِ مُضَرَّ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ. وَإِنَّمَا هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى مِنْ امْتِزَاجِ الْعُجْمَةِ بِهَا، كَمَا قَدَمْنَاهُ. إِلَّا أَنَّ اللِّغَاتِ لَمَّا كَانَتْ مَلَكَاتٍ، كَمَا مَرَّ، كَانَ تَعْلُمُهَا مُمَكِّناً، شَأْنَ سَائِرِ الْمَلَكَاتِ.

وَوَجْهُ التَّعْلِيمِ لِمَنْ يَبْتَغِي هَذِهِ الْمَلَكَةَ وَيَرُومُ تَحْصِيلَهَا، أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِحِفْظِ كَلَامِهِمُ الْقَدِيمِ الْجَارِي عَلَى أَسَالِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ، وَكَلَامِ السَّلَفِ، وَمُخَاطَبَاتِ فُحُولِ الْعَرَبِ فِي أَشْجَاعِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ، وَكَلَامِ⁽¹⁾ الْمَوْلَدِينَ أَيْضاً فِي سَائِرِ فُنُونِهِمْ، حَتَّى يَتَنَزَّلَ لِكَثْرَةِ حِفْظِهِ لِكَلَامِهِمْ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ مَنَزِلَةً مِنْ نَشْأَ بَيْنَهُمْ وَلَقِنَ الْعِبَارَةَ عَنِ الْمَقَاصِدِ مِنْهُمْ. ثُمَّ يَتَصَرَّفُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي التَّعْبِيرِ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ، عَلَى حَسَبِ عِبَارَاتِهِمْ وَتَأْلِيفِ كَلِمَاتِهِمْ وَمَا وَعَاهُ وَحَفِظَهُ مِنْ أَسَالِيهِمْ وَتَرْتِيبِ أَلْفَاظِهِمْ. فَتَحْصُلُ لَهُ هَذِهِ الْمَلَكَةُ بِهَذَا الْحِفْظِ وَالِاسْتِعْمَالِ، وَتَزْدَادُ بِكَثْرَتِهَا رُسُخاً وَقُوَّةً.

وَيَحْتَاجُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى سَلَامَةِ الطَّبَعِ، وَالتَّقَهُمِ الْحَسَنِ لِمَنَازِعِ الْعَرَبِ وَأَسَالِيهِمْ فِي التَّرَاكِبِ، وَمُرَاعَاةِ التَّطْبِيقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُقْتَضِيَاتِ الْأَحْوَالِ. / وَالذُّوقُ يَشْهَدُ لَذَلِكَ.

[402]

(1) ع: كلمات .

وهو ينشأ من هذه الملكة والطبع السليم فيها، كما نذكر بعد. وعلى قدر الحفظ وكثرة الاستعمال تكون جودة القول المؤلف⁽¹⁾ نظماً ونثراً. ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر، وهو التأقّد البصير بالبلاغة فيها؛ وهكذا ينبغي أن يكون تعلمها. ﴿وَاللّٰهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة، من الآية 213].

50 • فصل، في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية، ومستغنية عنها في التعليم

والسبب في ذلك، أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علم بكيفية، لا نفس كيفية. فليست نفس الملكة، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً ولا يحكمها عملاً، مثل أن يقول بصير بالخياطة غير مُحكم لملكها في التعبير عن بعض أنواعها: الخياطة هي أن تدخل الخيط في خرب الإبرة، ثم تمررها في لفقي الثوب مجتمعين، وتخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا، ثم تردّها إلى حيث ابتدأت، وتخرجها قدام منفذها الأول بمطرح ما بين الثبنتين الأوليين. ثم يتأدى على وصفه إلى آخر العمل، ويُغطي صورة الحُبك والثني^(ب) والتفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها؛ وهو إذا طوّل أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئاً.

وكذا لو سُئِلَ عالمٌ بالتجارة عن تفصيل الخشب، فيقول: هو أن تَضَعَ المنشَارَ

(1) ج ي: المصنوع، وكذلك كانت في ع، ثم شطبت واستبدلت بما أثبتناه (ب) كذا في الأصول، ولعلها: الثبيت.

على رأس الخشبة، وتُمسك بطرفه، وآخر قبالتك نمسك بطرفه الآخر، وتُعاقبانه
بينكما، وأطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرّت عليه ذاهبةً وجائيةً، إلى أن تنتهي
إلى أسفل الخشبة. وهو لو طوّل بهذا العمل أو شيء منه، لم يُحْكَم.

وهكذا⁽¹⁾ هو العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها، فإن العلم
5 بقوانين الإعراب إنّما هو علمٌ بكيفية العمل [و] ^(ب) ليس هو نفس العمل. / ولذلك [402ب]
نجد كثيراً من جهالة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين، إذا
سئل في كتاب سطرين إلى أخيه أو ذي مودته، أو شكوى ظلامه أو قضد من
قصوده، أخطأ فيها الصواب، وأكثر من اللحن، ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة
عن المقصود فيه على أساليب اللسان العربي.

وكذا نجد كثيراً ممن يُحسّن هذه الملكة، ويُجيدُ الفنين من المنظوم والمنثور،
10 وهو لا يُحسّن إعراب الفاعل من المفعول، ولا المرفوع من المجرور، ولا شيئاً من
قوانين صناعة العربية. فمن هنا تعلم أنّ تلك الملكة هي غير صناعة العربية، وأنها
مُسْتَعْنِيَةٌ عنها بالجملة.

وقد نجد بعض المهرة في صناعة الإعراب، بصيراً بحال هذه الملكة، وهو
15 قليلٌ واتّفاقي. وأكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه، فإنه لم يقتصر على قوانين
الإعراب فقط، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم؛ فكان
فيه جزءٌ صالحٌ من تعليم هذه الملكة، فتجد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على

(1) ي: وهنا (ب) من ع وحدها.

حظاً من كلام العرب، واندرج في محفوظه في أماكنه ومفاصل حاجاته، وتنبه [به]^(أ) لشأن الملكة فاستوفى تعليمها، فكان أبلغ في الإفادة.

ومن هؤلاء المخالطين لكتاب سينويته، من يغفل عن التفطن لهذا، فيحصل على علم اللسان [صناعة]^(ب)، ولا يحصل عليه ملكة.

وأما المخالطون لكتب المتأخرين، العارية من ذلك، إلا من القوانين النحوية 5 مجردة عن أشعار العرب وكلامهم، فقل ما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو يتنبهون لشأنها. فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب، وهم أبعد الناس عنه.

وأهل صناعة العريّة بالاندلس ومعلموها، أقرب إلى تحصيل هذه الملكة [403] وتعلمها من ^(ج) سيواهم، لقيامهم فيها / على شواهد العرب وأمثالهم، والتفقه في الكثير 10 من التراكيب في مجالس تعليمهم. فيسبق إلى المبتدئ كثير من الملكة أثناء التعليم، فتتطبع النفس بها وتستعد إلى تحصيلها وقبولها.

وأما من ^(د) سيواهم من أهل المغرب وإفريقية وغيرهم، فأجروا صناعة العريّة مجزى العلوم بحثاً، وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب، إلا إن أغربوا 15 شاهداً، أو رجّحوا [معنى]^(هـ) من جهة الاقتضاء الذهني، لا من جهة محايل اللسان وتراكيبه. فأصبحت صناعة العريّة [عندهم]^(د) كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية

(أ) سقط من ظ (ب) في ط ج ي: ملكة، وكانت كذلك في أصل ع، ثم استبدلها في الحاشية بخطه: صناعة (ج) كذا في ع، وفي ط ج ي: ممن (د) مقحمة في نسخة ع، وسقطت من البقية (هـ) من ع، وفي بقية الأصول: ذهناً (و) مقحمة في ع، وسقطت من بقية الأصول.

والجَدَلِ، وتُعدت عن مناحي اللسان وملكنه. وأفاد ذلك حملتها في هذه الآفاق
وأمصارها البُعْدَ عن الملكة بالكَلْبِيَّة؛ وكأنهم لا ينظرون في كلام العرب، وما ذلك إلا
لعدوهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه، وغفلتهم عن المِزَانِ
في ذلك للمُتَعَلِّم. فهو أحسن ما يفيدُه الملكة في اللسان؛ وتلك القوانين، إنما هي
5 وسائل للتعليم؛ لكنهم أجروها على غير ما قصد بها، وأصاروها علماً بَحْتاً، وعدوا
عن ثمرتها.

وتعلم بما قرزناه في هذا الباب، أن حصول ملكة اللسان العربي، إنما هو
بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يزتسيم في خياله المثنوَال الذي نسجوا عليه
تراكيبهم، فيتسج هو عليه، ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في
10 كلامهم، حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم.
والله مقدر [الأمر]^(١).

51 فصل، في تفسير لفظة^(ب) الذوق في مصطلح أهل البيان، وتحقيق
معناها، وبيان أنها لا تحصل غالباً للمستعربين من العجم

اعلم أن لفظة الذوق، يتداولها المعنيون بفنون البيان، ومعناها حصول
15 ملكة البلاغة للسان. وقد مرّ تفسير البلاغة، / وأنها مطابقة الكلام للمعنى من
جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في إفادة ذلك. فالتكلم بلسان العرب والبلغ فيه،

(١) ط: الليل والنهار (ب) سقط من ي .

يتحرى الهيئة^(١) المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم، وينظم الكلام على ذلك الوجه مجده. فإذا اتصلت معاناته لذلك بمخالطة كلام العرب، حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه، وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد يخطئ فيه عن منحى البلاغة التي للعرب. وإن سمع تركيباً غير جارٍ على ذلك المنحى مجده ونبا عنه سمعه بأذى فكر، بل وبغير فكر، إلا بما استفادته من حصول هذه الملكة. 5 فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها، ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل. ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات، أن الصواب للعرب في لغتهم إغراباً وبلاغة أمر طبيعي، ويقول: كانت العرب تتطرق بالطبع، وليس كذلك. وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت، فظهر في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع.

10

وهذه الملكة، كما تقدم، إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع، والتفطن لخواص تراكيبه. وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة البيان، فإن هذه القوانين إنما تُفيد علماً بذلك اللسان، ولا تُفيد حصول الملكة بالفعل في محلها. وقد مر ذلك.

وإذا تقرر ذلك، فملكة البلاغة في اللسان، تُهدي البليغ إلى وجوه النظم 15 وحسن التركيب، الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم. ولو رام صاحب هذه الملكة حيناً عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه، ولا وافقه

(١) ي : الفنة .

عليه لسانه؛ لأنه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده. وإذا عُرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وتلاغتهم في نظم كلامهم؛ أعرض عنه / ومجّه، [1404] وعلم أنه ليس من كلام القرب الذين مارس كلامهم. وربما يعجز عن الاختجاج لذلك، كما يصنع أهل القوانين التحوية والبياتية، فإن ذلك استدلالٌ بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء، وهذا أمرٌ وجدانيٌ حاصلٌ بممارسة كلام العرب، حتى يصير كواحدٍ منهم.

ومثاله: لو فرضنا صبيّاً من صبيانهم، نشأ وربّي في جيلهم، فإنه يتعلّم لغتهم ويُحكّم شأن الإغراب والبلاغة فيها حتى يستولي على غايتها، وليس من العلم القانوني في شيء، وإنما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه. وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الحيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك، 10 بحيث تحصل الملكة ويصير كواحدٍ ممن نشأ في جيلهم وربّي بين [أخياهم]⁽¹⁾. والقوانين بمعزل عن هذا.

واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق، الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان. والذوق إنما هو موضوع لإدراك الطعوم، لكن لما كان محلّ هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام، كما هو محلّ لإدراك الطعوم، 15 استعير لها اسمه. وأيضاً فهو وجدانيٌّ للسان، كما أنّ الطعوم محسوسة له. ف قيل له: ذوق.

(1) من ع، وفي ط ج ي: أحيالهم.

وإذا تبين لك ذلك، عَلِمْتَ منه أَنَّ الأعاجمَ الدّاخلين في اللّسان العربيّ، الطّارئين عليه، المضطّرين إلى التّطّيق به لمخالطة أهليه، كالفرّس والرّوم والتّرك بالمشرق، وكالبزّير بالمغرب، فإنّه لا يَحْضِلُ لهم هذا الدّوق، لقصور حَظّهم في هذه المملّكة الّتي قَرَرنا أمرها. لأنّ قُصَارَاهُمْ بعد طائفة من العُمر، وسبق ملكة أخرى إلى [لسانهم]⁽¹⁾، وهي لغائهم، أن يَغْتَنُوا بما يَتَدَاوَلُهُ أهلُ المِصرَ بينهم في المحاورَة من 5 مفرد ومركّب، لما يُضْطَرُّونَ إليه من ذلك.

[404ب] وهذه المملّكة قد ذهبَت لأهلِ الأمصارِ ويَعُدُّوا عنها، / كما تَقَدَّم. وإنّا لهم في ذلك مَلَكَةٌ أُخْرَى، وليست هي مَلَكَةُ اللّسان المطلوبة. ومن عَرَفَ أَحْكَامَ تلك المملّكة من القَوَانِين [المُسْتَطَرَّة]^(ب) في الكُتُب، فليُس من تَحْصِيلِ المملّكة في شيء، 10 إنّما حَصَلَ أَحْكَامُهَا، كما عَرَفْتَ. وإنّا تَحْصُلُ هذه المملّكة بالممارسة والاعتیاد والتّكرّر لكلام العرب. فإن عَرَضَ لك ما تَسْمَعُهُ من أَنَّ سَيِّئِيهِ والفارسيّ والزّمخشریّ وأمثالهم من فُزسانِ الكلام كانوا أعْجَاماً مع حُصول هذه المملّكة لهم، فاعْلَمْ أَنَّ أولئك القوم الذين تَسْمَعُ عنهم، إنّما كانوا عَجْماً في نَسَبهم فقط، وأمّا المَرْبِي والنَّشْأَةُ، فكانت يَبْنِ أَهْلُ هذه المملّكة من العرب ومن تَعَلَّمُوا منها. فاسْتَوْلُوا بذلك من الكلام على 15 غاية لا وراءها، وكانهم في أوّل نَشَأَتِهِمْ بمنزلة الأصاغر من العرب الذين نَشَأُوا في [أخْيائِهِمْ]^(ج)، حتّى أدركوا كُنْهَ اللّغة وصاروا من أهلها. فهم وإن كانوا عَجْماً في النّسب، فليُتَسَّوا بأعْجَامٍ في اللّغة والكلام؛ لأنّهم أدركوا المِلَّةَ في عُتُقُونِهَا، واللّغَةَ في

(1) من ع، وفي ط ج ي: اللسان (ب) ط: المسطرة (ج) ج: أجيالهم.

شبابها، ولم تذهب آثارُ الملكة [منها]^(١) ولا من أهل الأمصار. ثم عكفوا على المدارس والممارسة لكلام العرب، حتى استولوا على غايته.

والواحد اليوم من العجم إذا خالط أهل اللسان العربي بالأمصار، فأول ما تجد تلك الملكة المقصودة من اللسان العربي مُتَجَيِّة الآثار، وتجد ملكتهم الخاصة بهم ملكة أخرى مخالفة لملكة اللسان العربي. ثم إذا فرضنا أنه أقبل على الممارسة 5 لكلام العرب وأشعارهم بالمدارس والحفظ ليستفيد تحصيلها، فقل أن تحصل له، لما قدّمناه من أن الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في المحل، فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة^(ب). وإن فرضنا عجمياً^(ج) في النسب سليم من مخالطة اللسان الأعجمي بالكلية، وذهب إلى تعلم هذه الملكة بالحفظ والمدارس، فربما يحصل له ذلك، لكنه 10 من التدوير بحيث لا يخفى عليك بما تقرر.

وربما يدعي كثير ممن ينظر في هذه القوانين البياتية / حصول هذا الذوق له [405] بها، وهو غلط أو مغالطة؛ وإنا حصلنا له الملكة، إن حصلت، في تلك^(د) القوانين البياتية. وليست من ملكة العبارة في شيء. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة البقرة، من الآية 213].

(١) ألحقت في ع، ولم تنبها بقية النسخ (ب) ع: مخدوجة (ج) ع: أعجمياً (د) ع: تلك .

52 ﴿ فَضَّلْ ، فِي أَنْ أَهْلَ الْأُمُصَارِ عَلَى الْإِطْلَاقِ قَاصِرُونَ فِي تَحْصِيلِ هَذِهِ
الْمَلَكَةِ اللَّسَانِيَّةِ الَّتِي تُسْتَفَادُ بِالتَّعْلِيمِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ أَبْعَدَ عَنِ
اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، كَانَ حُصُولُهَا عَلَيْهِ أَصْعَبَ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ : مَا سَبَقَ ^(أ) إِلَى الْمُتَعَلِّمِ مِنْ حُصُولِ مَلَكَةِ مُنَافِيَةٍ لِلْمَلَكَةِ
الْمَطْلُوبَةِ ، بِمَا سَبَقَ ^(ب) إِلَيْهِ مِنَ اللِّسَانِ الْحَضَرِيِّ الَّذِي أَفَادَتْهُ الْعُجْمَةُ ، حَتَّى نَزَلَ بِهَا
5 اللِّسَانُ عَنْ مَلَكِيَّتِهِ الْأُولَى إِلَى مَلَكَةِ أُخْرَى ، هِيَ لُغَةُ الْحَضَرِ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَلِهَذَا نَجِدُ
الْمُعَلِّمِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى الْمُسَابَقَةِ بِتَعْلِيمِ اللِّسَانِ لِلْوِلْدَانِ ، وَيَعْتَقِدُ النَّحَاةُ أَنَّ هَذِهِ الْمُسَابَقَةَ
بِصَنَاعَتِهِمْ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ . وَإِنَّمَا هِيَ بِتَعْلِيمِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِمُخَالَطَةِ اللِّسَانِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ .
نَعَمْ ، صِنَاعَةُ التَّحْوِ أَقْرَبُ إِلَى مُخَالَطَةِ ذَلِكَ .

10 وَمَا كَانَ مِنْ لُغَاتِ أَهْلِ ^(ج) الْأُمُصَارِ أَعْرَقَ فِي الْعُجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنِ لِسَانِ
مُضَرَ ، قَصَرَ بِصَاحِبِهِ عَنْ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْمُضَرِّيَّةِ وَحُصُولِ مَلَكِيَّتِهَا ، لِتَمَكُّنِ الْمُنَافَاةِ حِينَئِذٍ .
وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الْأَقْطَارِ ؛ فَأَهْلُ إِفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ لَمَّا كَانُوا أَعْرَقَ فِي
الْعُجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنِ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ ، كَانَ لَهُمْ قُصُورٌ تَامٌّ فِي تَحْصِيلِ مَلَكِيَّتِهِ بِالتَّعْلِيمِ .
وَلَقَدْ نَقَلَ ابْنُ الرَّفِيقِ أَنَّ ^(د) بَعْضَ كُتَّابِ الْقَيْرَوَانِ كَتَبَ إِلَى صَاحِبِهِ لَهُ :

15 " يَا أَخِي وَمَنْ لَا عَدِمْتُ فَقَدَهُ ، أَعَلَمَنِي أَبُو سَعِيدٍ كَلَاماً أَنَّكَ كُنْتَ
ذَكَرْتَ أَنَّكَ تَكُنْ مَعَ الزَّيْتِ تَأْتِي ، وَعَاقَبْنَا الْيَوْمَ فَلَمْ يَتَّيَّأْ لَنَا الْخُرُوجُ . وَأَمَّا أَهْلُ الْمَنْزِلِ

(أ) ع : يسبق (ب) ي : ميق (ج) في ع ط (د) سقط من ج ي .

الكلاب من أمر التبن، فقد كذبوا، هذا باطلاً ليس من هذا حرفاً واحداً . وكتابي إليك وأنا مشتاق إليك". وهكذا كانت ملكتهم في اللسان المضري ، وسببه ما ذكرناه.

وكذلك أشعارهم ، كانت بعيدة من الملكة، نازلة عن الطبقة . ولم تنزل
5 كذلك ولهذا العهد . وما كان / بإفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيقي وابن
شرف. وأكثر ما يكون فيها الشعراء طائرين عليها. ولم تنزل طبقتهم في البلاغة حتى
الآن مائلة إلى القصور. وأهل الأندلس أقرب منهم إلى تحصيل هذه الملكة بكثرة
معانيتها وامتلأهم من المخفوظات اللغوية نظماً ونثراً. وكان فيهم ابن حيّان المؤرخ،
إمام أهل الصناعة في هذه الملكة ورافع الزاية لهم فيها، وابن عبد ربّه، والقسطلّي،
10 وأمثالهم من شعراء ملوك الطوائف، لما زخرت فيها بحار اللسان والأدب، وتداول
ذلك فيهم مئين من السنين، حتى كان الانقراض والجلأ أئام تغلب النصرانية،
وشغلوا عن تعلّم ذلك، وتناقص العمران، فتناقص ذلك، شأن الصنائع كلها. فقُصرت
الملكة فيهم عن شأنها حتى بلغت الحضيض.

وكان من آخرهم صالح بن شريف، ومالك بن المرحّل، من تلميذ الطبقة
15 الإشبيلية بسبته. وكانت دولة بني الأحمر في أولها، وألقت الأندلس أفلاذ كبدِها
من أهل تلك الملكة بالجلأ إلى العدو من إشبيلية إلى سبته، ومن شرق الأندلس
إلى إفريقية. [ثم⁽¹⁾ لم يلبثوا أن ائرضوا، وانقطع^(ب) سند تعليمهم في هذه الصناعة،

(1) من حاشية ع، وفي النسخ الأخرى: ولم (ب) ظ: وانقرض .

لِعُسْرِ قَبُولِ أَهْلِ الْعُدُوَّةِ لَهَا، وَصُعُوبَتِهَا عَلَيْهِمْ بِعَوَجِ أَلْسِنَتِهِمْ وَرُسُوخِهِمْ فِي الْعُجْمَةِ
الْبَرْبَرِيَّةِ، وَهِيَ مُنَافِيَّةٌ، لِمَا قُلْنَا.

ثُمَّ عَادَتِ الْمَلَكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ كَمَا كَانَتْ، وَنَجَّمَ بِهَا ابْنُ شَبْرِينَ،
وَإِبْنُ جَابِرٍ، وَابْنُ الْجِيَّابِ، وَطَبَقَتْهُمْ، ثُمَّ إِبْرَاهِيمُ السَّاحِلِيُّ الطَّوَيْجِنِيُّ وَطَبَقَتْهُ. وَقَفَّاهُمْ
ابْنُ الْخَطِيبِ مِنْ بَعْدِهِمْ، هَالِكًا لِهَذَا الْعَهْدِ شَهِيدًا بِسِعَايَةِ أَعْدَائِهِ، وَكَانَ لَهُ فِي اللِّسَانِ 5
مَلَكَةٌ لَا تُدْرِكُ. وَاتَّبَعَ أَثَرُهُ تَلْمِيزُهُ مِنْ بَعْدِهِ. وَبِالْجُمْلَةِ، فَشَأْنُ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِالْأَنْدَلُسِ
أَكْثَرُ، وَتَعْلِيمُهَا أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ، بِمَا هُمْ عَلَيْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ، مِنْ مُعَانَاةِ عُلُومِ
اللِّسَانِ وَمُحَافَظَتِهِمْ عَلَيْهَا، وَعَلَى عُلُومِ الْأَدَبِ وَسَنَدِ / تَعْلِيمِهَا، وَلَئِنْ أَهْلَ اللِّسَانِ [1406]
الْعَجَمِيِّ الَّذِي يُفْسِدُ مَلَكَتَهُمْ إِنَّمَا هُمْ طَارِئُونَ عَلَيْهِمْ، وَلَيْسَتْ عَجْمَتُهُمْ أَصْلًا لِلْعَةِ أَهْلِ
الْأَنْدَلُسِ. وَالْبَرْبَرِيُّ فِي هَذِهِ الْعُدُوَّةِ هُمْ أَهْلُهَا، وَلِسَانُهُمْ لِسَانُهَا، إِلَّا فِي الْأُمُصَارِ فَقَطْ، 10
وَهُوَ فِيهَا مَنْعَمَسٌ فِي بَحْرِ عَجْمَتِهِمْ وَرَطَابَتِهِمْ الْبَرْبَرِيَّةِ. فَيَصْعُبُ عَلَيْهِمْ تَحْصِيلُ الْمَلَكَةِ
اللسانيَّةِ بالتَّعْلِيمِ، بِخِلَافِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ.

وَأَمَّا الْمَشْرِقُ لِعَهْدِ الْأُمَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ، فَكَانَ شَأْنُهُ شَأْنَ الْأَنْدَلُسِ فِي تَمَامِ
هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَإِجَادَتِهَا، لِبُعْدِهِمْ لَذَلِكَ الْعَهْدِ * عَنِ الْأَعَاجِمِ وَمُخَالَطَتِهِمْ، إِلَّا فِي الْقَلِيلِ.
فَكَانَ أَمْرُ هَذِهِ الْمَلَكَةِ لَذَلِكَ الْعَهْدِ * (1) أَقْوَمَ، وَكَانَ فُحُولُ الشُّعْرَاءِ وَالْكِتَابُ لِعَهْدِهِمْ 15
أَوْفَرَ، لِتَوَقُّرِ الْعَرَبِ وَأَبْنَائِهِمْ بِالْمَشْرِقِ.

وَانْظُرْ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ الْأَغَانِي مِنْ نَظْمِهِمْ وَثَرِّهِمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ

(1) سَنَطَ مَا بَيْنَ النَّجْمَيْنِ مِنْ ح .

هو كتابُ العَرَبِ وديوانُهم، فيه لغَتُهُم وأخبارُهُم وأيامُهُم ومِلَّتُهُم العَرَبِيَّةُ وَسِيَرُ نَبِيِّهِمْ
وآثَارُ خُلَفَائِهِمْ ومُلُوكِهِمْ وأشعارُهُم وغِنَاؤُهُم وسائِرُ أحوالِهِمْ^(أ). فلا كتابَ أَوْعَبُ منه
لأحوالِ العَرَبِ. وبقي أمرُ هذه المَلَكَةِ مُسْتَحْكَمًا بِالمَشْرِقِ فِي الدَّوْلَتَيْنِ. وَرَبَّمَا كَانَتْ
فِيهِمْ أبلَغُ من سِوَاهُمْ مَن كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، كما نَذَرَهُ بَعْدَ. حَتَّى تَلَا شَى أَمْرُ العَرَبِ،
5 وَدَرَسَتْ لَغَتُهُمْ، وَفَسَدَ كَلَامُهُمْ، وَانْقَضَى أَمْرُهُمْ وَدَوْلَتُهُمْ، وَصَارَ الْأَمْرُ لِلْأَعَاجِمِ وَالْمُلُوكِ
فِي أَيْدِيهِمْ وَالتَّغَلُّبُ لَهُمْ، وَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ الدَّيْلَمِ وَالشَّلْجُوقِيَّةِ. وَخَالَطُوا أَهْلَ الْأُمُصَارِ
[وَكَثَرُوا، فَامْتَلَأَتِ الْأَرْضُ بِلُغَاتِهِمْ، وَاسْتَوَلَتِ الْعُجْمَةُ عَلَى أَهْلِ الْأُمُصَارِ]^(ب)
وَالْحَوَاضِرِ حَتَّى [بَعْدُوا]^(ج) عَنِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَمَلَكِيَّتِهِ، وَصَارَ مَتَعَلِّمُهَا مِنْهُمْ مُقْصَرًّا
عَنِ تَحْصِيلِهَا. وَعَلَى ذَلِكَ نَجِدُ لِسَانَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي قَتِي الْمَنْظُومِ وَالْمَنْشُورِ، وَإِنْ كَانُوا
10 مَكْتَرِينَ مِنْهُ. وَاللَّهُ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [سورة القصص، من الآية 68].

53 • فَضْلٌ، فِي انْقِسَامِ الْكَلَامِ إِلَى فَنِّي النَّظْمِ وَالنَّشْرِ

[406ب] اعْلَمْ أَنَّ لِسَانَ الْعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَيْنِ، فِي الشَّعْرِ وَالْمَنْظُومِ، / وَهُوَ
الْكَلَامُ الْمَوْزُونُ الْمُقَفَّى، وَمَعْنَاهُ، الَّذِي تَكُونُ أَوْرَاقُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ، وَهُوَ
الْقَافِيَّةُ، وَفِي النَّثْرِ، وَهُوَ الْكَلَامُ غَيْرُ الْمَوْزُونِ. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَنَيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى
15 فَنُونٍ [وَمَذَاهِبٍ]^(د) فِي الْكَلَامِ.

فَأَمَّا الشَّعْرُ، فَهُوَ الْمَدْحُ، وَالشَّجَاعَةُ، وَالرِّثَاءُ.

(أ) فِي ظ ج ي: مَعَانِيهِمْ لَهُمْ (ب) مِنْ حَاشِيَةِ ع بَخْطِهِ، وَلَمْ تُقَلَّ فِي بَقِيَةِ النُّسخ (ج) مِنْ ع، وَفِي ظ ج ي: بَعْدَ (د) كَذَا
فِي ع ج ي، وَفِي ظ: وَسَائِلُ

وأما التثنية، فمنه المسجع، وهو الذي يؤتى به قطعاً قطعاً ويلتزم [فيه، أو]^(١) في كل كلمتين منه، قافية واحدة تسمى سجعاً. ومنه المرسل، وهو الذي يُطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يُقطع أجزاء، بل يُرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها. ويُستعمل في الخطب والدعاء، وترغيب الجمهور وترهيبهم.

وأما القرآن، وإن كان من المنثور، إلا أنه خارج عن الوصفين. وليس 5 يُسمى مُرسلاً مُطلقاً ولا مُسجعاً، بل هو مفضل^(ب) آيات تنتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها، ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها، ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية. وهو معنى قوله تعالى: ﴿نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [سورة الزمر، من الآية 23]. وقال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ [سورة الأنعام، من الآية 97]. وسُمي آخر 10 الآيات^(ج) فيه فواصل، إذ ليست أسجاعاً ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع، ولا هي أيضاً قواف. وأطلق اسم المثنى على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه. واختص بأم القرآن، للعلبة فيها، كالتجمل للثريا. ولهذا سُميت السبع المثاني. وانظر هذا مع ما قاله المفسرون في تعليل تسميتها بالمثاني يشهد لك الحق برُجحان ما قلناه.

واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون [الشعرية]^(د) أساليب تختص به عند 15 أهله ولا تصلح للقرن الآخر، ولا تُستعمل فيه، مثل النسيب المختص بالشعر، والحمد والدعاء المختص [بالخطب، والدعاء المختص]^(هـ) بالمخاطبات، وأمثال ذلك.

(١) حاشية من ع لم تكتبها عنها بقية النسخ (ب) ي : تفضيل (ج) سقط ما بين النجمين من ج (د) من حاشية ع، وسقط من ط ج ي (هـ) من ع، وسقط من ط .

وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر ومنازعه في المنشور من كثرة

[1407]

الأسجاع، والتزام التقيية، وتقديم النسيب / بين يدي الأغراض. وصار هذا المنشور إذا تأملته، من باب الشعر وفنه، ولم يفرقاً إلا في الوزن. واستمر المتأخرون من الكتاب

على هذه الطريقة، واستعملوها في المخاطبات السلطانية، وقصروا الاستعمال في المنشور

كله على هذا الفن الذي ارتضوه، وخلطوا الأساليب فيه، وهجروا المرسل وتناشوه، 5

وخصوصاً أهل المشرق. وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل،

جارية على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه، وهو غير صواب من جهة البلاغة، لما

يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب. وهذا

الفن المنشور المتقى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر، فوجب أن تثره المخاطبات

السلطانية عنه، إذ أساليب الشعر تُباح فيها اللوذة، وخلط الجذ بالهزل، والإطناب 10

في الأوصاف، وضرب الأمثال، وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو لذلك

كله⁽¹⁾ ضرورة في الخطاب. والتزام التقيية أيضاً من اللوذة والتزيين؛ وجلال الملك

والسلطان، وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب، ينافي ذلك ويؤاينيه.

والحمود في المخاطبات السلطانية الترسيل. وهو إطلاق الكلام وإرساله من

غير تسجيع إلا في الأقل النادر، وحيث ترسله الملكة إرسالاً من غير تكلف له، ثم 15

إعطاء الكلام حقه في مطابقتها لمقتضى الحال. فإن المقامات مختلفة، ولكل مقام

أسلوب يخصه، من إطناب، أو^(ب) إيجاز، أو حذف، أو إثبات، أو تصريح، أو

(1) من ع وحدها (ب) ط ج ي : و .

[407ب] إشارة ، أو كناية ، أو استعارة . وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشَّعر ، فمذمومٌ . وما حَمَلَ عليه أهلُ العَصْرِ إلا استيلاءُ / العُجْمَةِ على ألسنتهم وقُصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقَّه في مطابقته لمقتضى الحال . فعجزوا عن الكلام المُرسل لبُعدِ أمدِه في البلاغةِ وانفساحِ خُطوته . وولَّعوا بهذا المُسجَّع ، يلقَّون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ، 5 ويخبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية⁽¹⁾ ، ويفعلون عمَّا سِوَى^(ب) ذلك . وأكثر من أخذ بهذا المذهب وبائع فيه في سائر أنحاء كلامهم ، كُتَّابُ المشرق وشعراؤه لهذا العهد ، حتَّى إنهم ليُخلُّون بالإغراب في الكلمات والتَّصريف إذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة لا يسعان معها ، فيرجحون ذلك الصَّنْف من التجنيس ويدعون الإغراب . ويُفسدون بنية الكلمة ، عساها تصادف التَّجنيس . 10 فتأمل ذلك وانتقِدْ بما قدَّمنا لك ، تقف على صحَّة ما ذكرناه . والله الموفق .

54 • فصلٌ ، في أنَّه لا تتفقُ الإِجادةُ في فَنِّي المنظومِ والمُشومِ معاً إلاَّ للأقلِّ

والسَّببُ في ذلك ، كما بيَّناه ، ملكةٌ في اللسانِ ، فإذا سبَّقت إلى محلِّه ملكةٌ أخرى قصَّرت بالمحلِّ عن تمام الملكة اللاَّحقة ، لأنَّ قبولَ الملكات وحصولها للطَّباع 15 التي على الفِطْرة الأولى أسهلُّ وأيسرُ . وإذا تقدَّمتها ملكاتٌ أخرى كانت منازعةٌ لها

(1) من ع ، وفي ظج ي : البديعة (ب) ع : وراء .

في المادّة القابلة، وعائقة عن سُرعَةِ القَبول، فوقَّت المنافاة، وتعدّر الثَّامُ في المَلَكَة. وهذا مَوْجودٌ في الملكاتِ الصَّنَاعِيَّةِ كُلِّها على الإطلاق، وقد بَرَهتْنا عليه في مَوْضِعِهِ بَنَحْوِ من هذا البُرْهانِ.

فاعتَبِرْ مثله في اللُّغات ، فإنَّها ملكاتُ اللِّسانِ ، وهي بمنزلة الصَّناعة ؛ وانظر
 5 من تقدّم له شيءٌ من العُجْمَةِ كيف يكونُ قاصِراً في اللِّسانِ العربيّ أبداً. فالأعجميّ
 الَّذي سبَقَتْ له اللُّغة الفارسيَّةُ، لا يَسْتَوِي / على مَلَكَةِ اللِّسانِ العربيّ، ولا يزالُ قاصِراً [1408]
 فيه، ولو تعلَّمه وتعلَّمه. وكذا البربريّ والروميّ والإفرنجيّ، قلَّ أن تجد أحداً منهم
 [مُحكِماً]⁽¹⁾ لِمَلَكَةِ اللِّسانِ العربيّ. وما ذلك إلا لما سبقَ إلى ألسِنَتِهِم من مَلَكَةِ اللِّسانِ
 الآخرِ، حتّى إنّ طالبَ العِلْمِ من أهل هذه الألسنِ، إذا طَلَبَهُ بين أهل اللِّسانِ العربيّ
 10 ومن كُثْبِهِم، جاء مُقَصِّراً في معارفه عن الغايةِ والتَّخصيلِ. وما أوتيَ إلا من قِبَلِ اللِّسانِ.
 وقد تقدّم لك [من قِبَلِ أن الألسنَ واللُّغاتِ شبيهةٌ بالصَّنائعِ]^(ب)، و[قد]^(ج) تقدّم لك أنّ
 الصَّنائعَ وملكاتِها لا تزدحمُ، وأنّ من سبَقَتْ له إجادَةُ مَلَكَةِ فَقَلَّ أن يُجيدَ أخرى أو
 يستولي فيها على الغايةِ. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات، من الآية 96].

55 • فَضْلٌ، فِي صِنَاعَةِ الشَّعْرِ وَوَجْهِ تَعَلِّمِهِ

هذا الفنُّ من فنونِ كلامِ الغربِ ، وهو المُسمَّى بالشَّعرِ عندهم ، ويوجدُ
 15 في سائر اللُّغاتِ، إلاّ أنّها تتكلَّمُ الآن في الشَّعر الَّذي للغرب. فإن أمكَّن أن يجِدَ

(أ) سقط من ظ (ب) جاءت مضطربة في ظ والجل في غير مواضعها (ج) سقط من ع .

[فيه] ^(أ) أهل الألسن الأخرى مقصودهم من [كلامنا] ^(ب)، وإلا فلكل لسان أحكام في البلاغة تخصه.

وهو في لسان العرب غريب النزعة، عزيز المنحى، إذ هو كلام يفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن، متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة. وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتاً، ويسمى الحرف الأخير الذي تنفق فيه رويّاً 5 وقافية، وتسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدة وكلمة.

وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه، حتى كانه كلام وحده، مستقل عما قبله وبعده، وإذا أفرد كان تاماً في بابه، في مدح أو نسيب أو رثاء. فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقل به ^(ج) في إفادته. ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر كذلك، ويستطرد للخروج من فن إلى فن، / ومن مقصود إلى 10 مقصود، بأن [يوطئ] ^(د) المقصود الأول ومعانيه إلى أن تناسب المقصود الثاني ويبعد الكلام عن التناثر، كما يستطرد من النسيب إلى المدح، ومن وصف البتداء والطلول إلى وصف الركاب أو الخيل أو الطيف، ومن وصف الممدوح إلى وصف قومه وعساكره، ومن التفتع والعزاء في الرثاء إلى التأيين، وأمثال ذلك.

ويراعى فيه، اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذراً من أن يتساهل 15 الطبع في الخروج من وزن إلى وزن يقاربه، فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على كثير من الناس. ولهذه الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض. وليس كل

(أ) شطب في ع (ب) من ع، وفي النسخ الأخرى: كلامهم (ج) سقط من ظ (د) ظ: يقصد .

وَزُنْ يَتَّفَقُ فِي الطَّبْعِ اسْتَعْمَلْتَهُ الْعَرَبُ فِي هَذَا الْفَنِّ، وَإِنَّمَا هِيَ أَوْزَانٌ مَخْصُوصَةٌ
يُسَمِّيَهَا أَهْلُ تِلْكَ الصَّنَاعَةِ الْبُحُورَ. وَقَدْ حَصَرُوهَا فِي خَمْسَةِ عَشَرَ بَحْرًا، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ لَمْ
يَجِدُوا لِلْعَرَبِ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْمَوَازِينِ الطَّبِيعِيَّةِ نَظْمًا.

وَأَعْلَمُ أَنَّ فَنَّ الشَّعْرِ مِنْ بَيْنِ الْكَلَامِ كَانَ شَرِيفًا عِنْدَ الْعَرَبِ. وَلِذَلِكَ جَعَلُوهُ
5 دِيْوَانَ عُلُومِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ، وَشَاهِدَ صَوَابِهِمْ وَخَطِّئِهِمْ، وَأَصْلًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الْكَثِيرِ
مِنْ عُلُومِهِمْ وَحِكْمِهِمْ. وَكَانَتْ مَلَكَتُهُ مَسْتَحْكِمَةً فِيهِمْ، شَأْنُ مَلَكَاتِهِمْ كُلِّهَا. وَالْمَلَكَاتُ
اللِّسَانِيَّةُ كُلُّهَا إِنَّمَا تُكْتَسَبُ بِالصَّنَاعَةِ وَالْإِزْتِيَاضِ فِي [الْكَلَامِ] ⁽¹⁾ حَتَّى يَحْصُلَ شَبَهُ فِي
تِلْكَ الْمَلَكَاتِ.

وَالشَّعْرُ مِنْ بَيْنِ فُنُونِ الْكَلَامِ صَعْبُ الْمَأْخِذِ عَلَى مَنْ يُرِيدُ اكْتِسَابَ مَلَكَتِهِ
10 بِالصَّنْعَةِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، لِاسْتِقْلَالِ كُلِّ بَيْتٍ مِنْهُ بِأَنَّهُ كَلَامٌ تَامٌّ فِي مَقْصُودِهِ، وَيَصْلَحُ
أَنْ يَنْفَرِدَ دُونَ مَا سِوَاهُ؛ فَيُحْتَاجُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى تَوْعٍ تَلَطُّفٍ فِي تِلْكَ الْمَلَكَاتِ حَتَّى
يُفْرَغَ الْكَلَامُ الشَّعْرِيُّ فِي قَوَائِلِهِ الَّتِي عُرِفَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ الْمُنْحَى مِنْ شِعْرِ الْعَرَبِ،
وَيُبْرَزَ مُسْتَقِلًّا / بِنَفْسِهِ، ثُمَّ يَأْتِي بَيْتٌ آخَرَ كَذَلِكَ، ثُمَّ بَيْتٌ آخَرَ، وَيَسْتَكْمِلُ
[409] الْفُنُونِ الْوَاقِفَةِ بِمَقْصُودِهِ، ثُمَّ يُنَاسِبُ بَيْنَ الْبُيُوتِ فِي مَوَالِيقِهَا مَعَ بَعْضٍ بِحَسَبِ
15 اخْتِلَافِ الْفُنُونِ الَّتِي فِي الْقَصِيدَةِ.

وَلِصُعُوبَةِ مَنْحَاهُ وَغَرَابَةِ فَنِّهِ، كَانَ مَحْكَمًا لِلْقَرَائِحِ فِي اسْتِجَادَةِ أَسَالِيْبِهِ،
وَشَحَذِ الْأَفْكَارِ فِي تَنْزِيلِ الْكَلَامِ فِي قَوَائِلِهِ. وَلَا تَكْفِي فِيهِ مَلَكََةُ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ عَلَى

(1) مِنْ ع، وَفِي ظ ج ي: كَلَامِهِمْ.

الإطلاق، بل يحتاج بخصوصه إلى تَلَطُّف ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصَّته العربُ بها وباستعمالها [فيه] ^(١).

ولنذكر هنا مدلول [لفظة] ^(ب) الأسلوب عند أهل هذه الصناعة، وما يريدون بها في إطلاقهم. فاعلم أنَّها عبارة عندهم عن المُنوال الذي تُنسَج فيه التراكيب، أو القالب الذي تُرص فيه. ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته [أصل المعنى الذي هو وظيفة الإغراب، ولا باعتبار إفادته] ^(ج) كمال المعنى من خواص التركيب ^(د) الذي هو وظيفة البلاغة والبيان، ولا باعتبار الوزن كما استعملته العرب فيه، الذي هو وظيفة العروض. فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية. وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كهيئة باعتبار انطباقها على كل ^(هـ) تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها، ويصيرها في الخيال كالقالب ^(١٠) أو المُنوال. ثم يلتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإغراب والبيان، فيرصها فيه رصاً كما يفعل البنا في القالب، أو النساج في المُنوال، حتى يتسع القالب لحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه. فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة.

فسؤال الطُّلول في الشعر، يكون بخطاب الطُّلول، / كقوله ^(١): [من البسيط] [409ب]

(١) من ع، وسقط من ط ج ي (ب) من حاشية ع، وسقطت من بقية النسخ (ج) قلبت ظ سياق هذه الجملة فقدّمت كمال المعنى عن أصلها (د) في ع: التراكيب (هـ) في حاشية ع، وحدها.

(١) للناطقة الديبائي يمدح فيها التعمان بن المنذر، ويعتذر في أمر المنجّدة، وعجز البيت: أقوت وطال عليها سأل الأمّ. الأغاني 11: 22، الديوان 14، (دار المعارف - القاهرة)، ابن قتيبة: الشعر والشعراء 1: 167.

يا دارَ مَيَّةَ بالعلياءِ فالسَّندِ

ويكونُ باستِداءِ الصَّخبِ للوقوفِ والسَّؤالِ، كقولهِ⁽¹⁾: [من الطَّويل]
قفا نَسْأَلُ الدَّارَ الَّتِي خَفَّ أَهْلُهَا

أو باستِباءِ الصَّخبِ على الطَّلَلِ، كقولهِ⁽²⁾: [من الطَّويل]
قفا نَبِّكُ من ذِكْرِي حبيبٍ ومَنْزِلِ

أو بالاستِفْهامِ عن الجوابِ لمُخاطِبٍ غيرِ معيَّنٍ، كقولهِ⁽³⁾: [من الوافر]
أَلَمْ تَسْأَلْ فَتُخْبِرْكَ الرُّسُومُ

ومثل تحيَّةِ الطَّلُولِ بالأمرِ لمُخاطِبٍ غيرِ مُعيَّنٍ بِتَحْيِيَّتِهَا، كقولهِ⁽⁴⁾: [من الكامل الأَحَدَ]
حَيِّ الدِّيَارِ بِجَانِبِ العَزْلِ

(1) يدغبل الخزاعي في أهل البيت، من قصيدة قصد بها علي بن موسى الرضا بخراسان. وعجز البيت: متى عهدتها بالصوم والصلوات. الديوان 210 (مجمع اللغة العربية - دمشق 1983)، ياقوت: معجم الأدباء 3: 128، وقال: نسخ هذه القصيدة مختلفة، في بعضها زيادات يُظن أنها مصنوعة ألحقها بها أناس من الشيعة. وأورد ما صحَّ عنده منها.

(2) لامرئ القيس، وعجز البيت: بسقط اللوى بين الدخول فوملي. الديوان: 8، (أبو الفضل إبراهيم- القاهرة) الأغاني: 9: 54، الشعر والشعراء 1: 107، 113 .

(3) لعمر بن شأس الأسدي، وعجزه: على فرتاج والطلل القديم، ابن المبارك: متهى الطلب 8: 76 (بيروت 1999) .

(4) لامرئ القيس، ورواية الديوان للبيت: حي المحول بجانب العزل إذ لا يلائم شكلها شكلي الديوان 214 .

أو بالدعاء لها بالسُّقْيَا، كَقَوْلِهِ⁽¹⁾: [من الكامل]

أَسْقَى طَلُولَهُمْ أَجْشَ هَزِيمٍ وَغَدَتْ عَلَيْهِمَ رَوْضَةٌ وَنَعِيمٌ

أو بِسُؤَالِ السُّقْيَا لَهَا مِنَ الْبَرْقِ، كَقَوْلِهِ⁽²⁾: [من الكامل]

يَا بَرْقُ طَالِعْ مَنْزِلًا بِالْأَبْرِقِ وَاخْذُ السَّحَابَ لَهُ حُذَاءَ الْأَيْتُقِ

ومثل التَّفَجُّعِ فِي الرِّثَاءِ بِاسْتِدْعَاءِ الْبُكَاءِ، كَقَوْلِهِ⁽³⁾: [من الطويل]

كَذَا فَلْيَجِلَّ⁽¹⁾ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ وَلَيْسَ لَعَيْنٍ لَمْ يَقْضِ مَاؤُهَا عُذْرُ

أو بِاسْتِعْظَامِ الْحَادِثِ، كَقَوْلِهِ⁽⁴⁾: [من الكامل]

أَرَأَيْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَغْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ حَبَا ضِيَاءُ النَّادِي^(ب)

أو بِالتَّسْجِيلِ عَلَى الْأَكْوَانِ بِالمُصِيبَةِ لَفَقْدِهِ، كَقَوْلِهِ⁽⁵⁾: [من البسيط]

مَنَابِتُ الْعُشْبِ لَا حَامٍ وَلَا رَاعٍ مَضَى الرَّذَى بِطَوِيلِ الزَّمْعِ وَالبَّاعِ

(أ) ع: فليخلُ (ب) ي: الوادي .

(1) لأبي تمام، الأغاني 16: 274، الديوان 264، وفيه: نَضْرَةٌ وَنَعِيمٌ

(2) لأبي تمام في مدح الحسن بن وهب، الديوان 391 .

(3) لأبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي، الديوان 670، الأغاني 10: 152، نهاية الأرب 5: 208.

(4) للشريف الرضي في رثاء إبراهيم بن هلال الصابي، الديوان 1: 381- (طهران 1986)، معجم الأدباء 4: 1599، ابن خلكان: وفيات الأعيان 1: 53 .

(5) للشريف الرضي يرثي أحد أمراء بني عقيل، الديوان 1: 627 .

أو بالإنكار على من لم يتضجّع له من الجهادِ، كقول الخارجيّة⁽¹⁾: [من الطويل]
أيا شجرَ الخابورِ ما لك مُورِقاً كأنك لم تجزع على ابنِ طريف

أو بتهنئة قريعه بالراحة من ثقلِ وطأته، كقوله⁽²⁾: [من الكامل]
ألّى الرّماحَ ربعةً بنُ نزارٍ أودى الرّدى بقريةِ المغوارِ

5 وأمثال ذلك كثيرٌ في سائر فنون الكلام ومذاهبه . وتنتظم التراكيب فيه
بالجمل وغير الجمل، إنشائية وخبرية، اسمية أو فعلية، مُتبعة وغير مُتبعة، مفصولة
ومُوصولة، على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي. [و]⁽¹⁾ مكان كل كلمة من
الأخرى يُعرفك به ما تستفيذه بالازتياض في / أشعار العرب من القالب الكلي
المجرد في الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها. فإن مؤلف
10 الكلام هو كالبنتاء أو كالنساج، والصورة الذهنية المنطقية كالقالب الذي يُبنى فيه،
أو المنوال الذي يُنسج عليه، فإن خرج عن القالب في بنائه أو عن المنوال في
نسجه؛ كان فاسداً.

ولا تقولن: إن معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك، لأننا نقول: قوانين
البلاغة إنما هي قواعدٌ علمية قياسية، تُقيد جواز استعمال التراكيب على هئيتها

(1) من ع. وفي ط ج ي: في .

(1) هي الفارعة ترضي أخاها الوليد بن طريف الذي قتله يزيد بن مزيّد الشيباني بأمر الرشيد. الطبري: تاريخ
الرسل والملوك 8: 261 (حوادث سنة 179) الأغاني 12: 63، 65، ابن عبد ربه: العقد الفريد 3: 269 .

(2) للشريف الرضي في رثاء أبي طاهر بن ناصر الدولة . الديوان 1: 490 .

الخاصة بالقياس، وهو قياس علمي صحيح مُطَرَّد كما هو قياس القوانين الإغريقية، وهذه الأساليب التي نحن نُقرُّها، ليست من القياس في شيء. إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبُّع التراكيب في شعر العرب بجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها، فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب تركيب⁽¹⁾ من الشعر، كما قدّمنا ذلك في الكلام بإطلاق، وإنَّ القوانين العلمية، من الإغراب 5 [أو]^(ب) البيان، لا تُفيد تعلُّمه بوجه.

وليس كل ما يصح في قياس كلام العرب وقوانينه العلمية استعملوه، وإنما المستعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة يطلع عليها الحافظون لكلامهم وتدرج صورها تحت تلك القوانين القياسية. فإذا نُظر في شعر العرب على هذا النحو، وهذه الأساليب الذهنية التي تصير كالقوالب، كان نظراً في المستعمل من تراكيبهم 10 لا فيما يقتضيه القياس. ولهذا قلنا: إنَّ المُحصِّل لهذه القوالب في الذهن إنما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم.

وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المثنوي. فإنَّ العرب استعملوا كلامهم في كلا الفئتين، وجاءوا به مفضلاً في التوعين. ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيَّدة واستثلال الكلام في كل قطعة. وفي / المثنوي يعتبرون الموازنة 15 [410ب] والتشابة بين القطع غالباً. وقد يُقَيِّدونه بالأشجاع، وقد يُرْسِلُونَهُ. وقوالب كل واحد من هذه معروفة في لسان العرب. والمستعمل منها عندهم هو الذي يئني مؤلف

(1) سقط المكرر من ي (ب) ط ج ي : و .

الكلام عليه تأليفه ، ولا يعرفه إلا من حفظ كلامهم حتى يتجرّد [له] ⁽¹⁾ في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قالب كلّ مطلق ، يخذو حذوه في التأليف ، كما يخذو البناء على القالب ، والنساج على المنوال. فلهذا كان فنّ تأليف الكلام منفرداً عن نظر التحوّي والبيانيّ والعروضي . نعم ، إنّ مراعاة قوانين هذه العلوم شرط فيه لا يتمّ بدونها . فإذا تحصّلت هذه الصفات كلّها في الكلام ، اختصّ بنوع من النظر لطيف في هذه القوالب التي يُسمّونها أساليب. ولا يُفيده إلا حفظ كلام العرب نظماً ونثراً.

وإذا تقرر معنى الأسلوب ما هو ، فلندكر بعده حدّاً أو رسماً للشعر يفهمنا حقيقته على صعوبة هذا الغرض ، فإنّا لم نقف عليه لأحد من المتقدمين فيما رأيناه. 10

وقول العروضيّين في حده: إنّ الكلام الموزون المقتضى. ليس بحدّ لهذا الشعر الذي نحن بصدده ولا رسم له. وصناعتهم إنّما تنظر في الشعر من حيث اتّفاق أبياته في عدد المتحرّكات والسواكن على التوالي، ومماثلة عروض أبيات الشعر لضربها، وذلك نظر في وزن مجرّد عن الألفاظ ودلالاتها، فناسب أن يكون حدّاً عندهم. ونحن هنا ننظر في الشعر باعتبار ما فيه من الإغراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة، 15 فلا جرم أنّ حدّهم ذلك لا يصلح له عندنا. فلا بدّ من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية.

(1) من حاشية ع، وسقط في النسخ المعتمدة .

فَنَقُولُ: الشَّعْرُ هُوَ الْكَلَامُ الْبَلِيغُ، الْمَبْنِي عَلَى الْاسْتِعَارَةِ وَالْأَوْصَافِ، الْمَفْصَّلُ
بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةٍ فِي الْوِزْنِ وَالرَّوْيِ، مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ
وَبَعْدَهُ، الْجَارِي عَلَى أَسَالِيْبِ الْعَرَبِ الْمُخْصُوصَةِ بِهِ.

فَقَوْلُنَا : الْكَلَامُ / الْبَلِيغُ؛ كَالْجِنْسِ. [411]

وَقَوْلُنَا: الْمَبْنِي عَلَى الْاسْتِعَارَةِ وَالْأَوْصَافِ؛ فَضَّلْ [له] ^(أ) عَمَّا يَخْلُو مِنْ هَذِهِ، 5
فَائَتَهُ - فِي الْغَالِبِ - لَيْسَ بِشَعْرٍ.

وَقَوْلُنَا: الْمَفْصَّلُ بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةٍ فِي الْوِزْنِ وَالرَّوْيِ؛ فَضَّلْ لَهُ عَنِ الْكَلَامِ
الْمُنْثَوْرِ الَّذِي لَيْسَ بِشَعْرٍ عِنْدَ الْكُلِّ.

وَقَوْلُنَا : مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ ؛ بَيَانٌ
لِلْحَقِيقَةِ، لِأَنَّ الشَّعْرَ لَا تَكُونُ آيَاتُهُ إِلَّا كَذَلِكَ، وَلَمْ يُفْضَلْ بِهِ شَيْءٌ. 10

وَقَوْلُنَا: الْجَارِي عَلَى الْأَسَالِيْبِ الْمُخْصُوصَةِ بِهِ؛ فَضَّلْ لَهُ عَمَّا لَمْ يَجْرِ مِنْهُ عَلَى
أَسَالِيْبِ الشَّعْرِ الْمَعْرُوفَةِ. فَائَتَهُ حِينَئِذٍ لَا يَكُونُ شَعْرًا، إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ مَنْظُومٌ. لِأَنَّ الشَّعْرَ
لَهُ أَسَالِيْبُ تَخُصُّهُ، لَا تَكُونُ لِلْمُنْثَوْرِ، وَكَذَا لِلْمُنْثَوْرِ أَسَالِيْبُ ^(ب) لَا تَكُونُ لِلشَّعْرِ .
فَمَا كَانَ مِنَ الْكَلَامِ مَنْظُومًا وَلَيْسَ عَلَى تِلْكَ الْأَسَالِيْبِ ، فَلَا يُسَمَّى ^(ج) شَعْرًا . وَهَذَا
الِاعْتِبَارُ، كَانَ الْكَثِيرُ مِّنْ لِّقِينَاهُ مِنْ شُبُوحِنَا فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْأَدَبِيَّةِ، يَرَوْنَ أَنَّ نَظْمَ 15
الْمُنْتَبِيِّ وَالْمَعْرِيِّ لَيْسَ مِنَ الشَّعْرِ فِي شَيْءٍ، لِأَنَّهُمَا لَمْ يَجْرِيَا عَلَى أَسَالِيْبِ الْعَرَبِ فِيهِ.

(أ) مِنْ ع وَحْدَهَا (ب) حَاشِيَةٌ مِنْ ع، وَسَقَطَ مِنْ ظ ح ي (ج) ظ ح ي : يَكُونُ .

وقولنا^(أ) في الحدّ: الجاري على أساليب العرب؛ فصل له عن شعر غير العرب من الأمم ، عند من يرى أنّ الشعر يوجد للعرب ولغيرهم . ومن يرى أنّه لا يوجد لغيرهم فلا يحتاج إلى ذلك ، ويقول مكانه : الجاري على الأساليب المخصوصة به .

5 وإذ فرغنا من الكلام على حقيقة الشعر، فلنرجع إلى الكلام في كيفية عمله، فنقول: اعلم^(ب) أنّ لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً، أولها الحفظ من جنسه، أي من جنس شعر العرب ، حتّى تنشأ في النفس ملكة يئسج على منوالها، ويتخيّر المحفوظ من الحرّ التقيّ الكثير الأساليب . وهذا المحفوظ المختار أقلّ ما يكفي منه شعر شاعر من الفحول الإسلاميين ، مثل ابن أبي ربيعة ، وكثير ، وذو الرّمة^(ج) ، وجبر ، وأبي نؤاس ، وحبيب ، والبخريّ ، والرّضيّ ، وأبي فراس . وأكثره 10 شعر كتاب الأغاني، لأنّه جمع شعر أهل الطبقة الإسلاميّة / كلّه، والمختار من شعر الجاهليّة. ومن كان خالياً من المحفوظ فنظّمه قاصر رديء، ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلاّ كثرة المحفوظ. فمن قلّ حفظه أو عُدِمَ، لم يكن له شعر، وإنّما هو نظم ساقط، واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ.

ثمّ بعد الامتلاء من المحفوظ ، وشحن القريحة للنسج على المنوال ، يُشَلُّ على التّظّم، وبالإكثار منه تستحكّم ملكته وترسخ.

وربّما يقال: إنّ من شرطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحيّ رسومه الحرفيّة الظاهرة،

(أ) ط ج ي: وقلنا (ب) سقط من ج (ج) كذا في ع، وصوابه ذي الرّمة .

إذ هي صَادَّةٌ عن استعمالها بعَيْنِها، فإذا نَسِيَتْها وقد تَكَيَّفَتِ النَّفْسُ^(١) بها، انتَفَشَ
الأسلوبُ فيها كأنه مَنوَالٌ يأخُذُ في النَّسْجِ عليه بِأَمْثَالِها من كَلِمَاتٍ أُخْرَى ضرورةً.

ثم لا بُدَّ له من الخَلْوَةِ واستِجَادَةِ المَكَانِ المُنْظُورِ فيه من المِياهِ والأزْهَرِ،
وكذلك [من]^(ب) المسموعِ لاسْتِثْارَةِ القَرِيحَةِ باستِجْماعِها وتَنْشِيطِها بِمِلَاحِ الشُّرُورِ.

5 ثم مع هذا كُلُّه، فشرَطُه أن يَكُونَ على جَمَامٍ ونَشَاطٍ، فذلك أَجْمَعُ له وأَجْدَرُ
للقَرِيحَةِ أن تَأْتِيَ بِمِثْلِ ذلك المِنوَالِ الَّذِي فِي حِفْظِهِ . قالوا: وخَيْرُ الأَوَاقَاتِ لَذلك
أَوَاقَاتُ البُكْرِ، عِنْدَ الهُبُوبِ مِنَ التَّوَمِ، وفِرَاحِ المَعْدَةِ، ونَشَاطِ الفِكْرِ، وفي هَوَاءِ
الحَمَامِ.

وربَّما قالوا: إِنَّ من بَوَاعِيهِ العَشْقِ والاثْتِشاءِ. ذَكَرَ ذلك ابنُ رَشِيقٍ في كِتَابِ
10 العُمْدَةِ^(١)، وَهُوَ الكِتَابُ الَّذِي انْفَرَدَ بِهذه الصَّنَاعَةِ وأَعْطَى حَقَّها، وَلَمْ يَكْتُبْ أَحَدٌ فِيها
قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ. قالوا: فَإِنْ اسْتَضَعَبَ عَلَيْهِ بَعْدَ هذا كُلُّه، فَلْيَتْرَكْهُ إِلَى وَقْتٍ آخَرَ، وَلَا
يُكْرِهْ نَفْسَهُ عَلَيْهِ.

ولِيَكُنْ بِنَاءُ البَيْتِ عَلَى القَافِيَةِ من أَوَّلِ صَوْعِهِ وَنَسْجِهِ، يَضَعُها وَيُنْثِي الكَلَامَ
عَلَيْها إِلَى آخِرِهِ، لِأَنَّهُ إِنْ غَقَلَ عَن بِنَاءِ البَيْتِ عَلَى القَافِيَةِ صُعَبَ عَلَيْهِ وَضَعُها فِي
15 مَحَلِّها، فَرُبَّما تَحِيءُ نَافِرَةً قَلِقَةً. وَإِذَا سَمِعَ الخَاطِرُ بالبَيْتِ وَلَمْ يُنَاسِبِ الَّذِي عِنْدَهُ، فَلْيَتْرَكْهُ

(١) جاءت مكررة في ع ظ (ب) سقط من ظ ي .

(١) العمدۃ: 1: 331، 340 يقول: "من أراد أن يقول الشعر فليعشق، فإنه يرق، ولينزو، فإنه يدل، وليطمع، فإنه يصنع".

إلى موضعه الأليق به. فإنَّ كلَّ بَيْتٍ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ، ولم يَبْقَ إِلَّا الْمُنَاسَبَةُ، فليُتَخَيَّرَ فيها كما يَشَاءُ.

[412] وليُراجِعْ شِعْرَهُ بعد الخِلاصِ منه بالتَّنْقِيحِ والتَّنْقِذِ، ولا / يَضُرُّ به على التَّرْكِ إذا لم يَتَلَفِ الإِجَادَةُ. فإنَّ الإنسانَ مُفْتَوٍّ بِشِعْرِهِ، إذ هو بِنَاتُ فِكْرِهِ واختِرَاعُ قَرِيحَتِهِ.

5 ولا يَسْتَعْمِلُ فيه من الكلامِ إِلَّا الْأَفْضَحَ من التَّرَاكِبِ والخَالِصَ من الضَّرُورَاتِ اللَّسَائِيَّةِ، [إذ هو قَصُورٌ في المَلَكَةِ اللَّسَائِيَّةِ] ^(١). فَلْيَهْجُزْهَا، فَإِنَّهَا تَنْزِلُ بالكلامِ من طَبَقَةِ الْبَلَاغَةِ. وقد حَظَرَ أَيْمَةُ الشَّأْنِ على المَوْلَدِ ارتِكَابَ الضَّرُورَةِ، إذ هو في سَعَةِ منها بِالْعُدُولِ عنها إلى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى مِنَ الْمَلَكَةِ.

ولِيُتَجَنَّبَ أَيْضاً الْمُعَقَّدُ من التَّرَاكِبِ جَمْعُهُ، وَإِنَّمَا يَقْصِدُ منها ما كانت معانيه تُسَابِقُ أَلْفَاظَهُ إلى الفَهْمِ. وكذلك كَثْرَةُ المعاني في الْبَيْتِ الْوَاحِدِ، فَإِنَّ فيه نوعَ تَعْقِيدٍ 10 على الفَهْمِ. وَإِنَّمَا الْمُخْتَارُ منه ما كانت أَلْفَاظُهُ طَبَقاً على معانيه أو أَوْفَى [منها] ^(ب). فَإِنْ كانت المعاني كَثِيرَةً كان حَشْوًا، واشتغلَ الذَّهْنُ بِالغَوْصِ عَلَيْهَا، فمَنَعَ الذَّوْقَ عن اسْتِيفَاءِ مُذَرِكِهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ.

ولا يَكُونُ الشَّعْرُ سَهْلاً إِلَّا إِذَا كانت معانيه تُسَبِّقُ ^(ج) أَلْفَاظَهُ إِلَى الذَّهْنِ. 15 ولهذا ^(د) كان شَيْوُخُنَا، رَجَمَهُمُ اللَّهُ، يَعْيُونَ شِعْرَ أَبِي بَكْرٍ ^(هـ) ابْنِ خَفَّاجَةَ، شَاعِرِ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ، لكَثْرَةِ معانيه وازْدِحَامِهَا فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ، كما كانوا يَعْيُونَ شِعْرَ الْمُتَنَبِّيِّ وَالْمَعَرِّيِّ بَعْدَ النَّسْجِ على الْأَسَالِيبِ الْعَرَبِيَّةِ كما مَرَّ. فَكَأَنَّ شِعْرَهُمَا كَلَامَ

(١) من حاشية ع (ب) من ع، وسقط في بقية النسخ (ج) ع: تسابق (د) ع: وهذا (هـ) من ط ج ي، وفي ع بياض.

منظوم نازل عن طبقة الشعّر. والحاكم في ذلك هو الذوق.

وليُجْتَنَبِ الشّاعِرُ أيضاً الحُوشِيَّ من الألفاظ والمقَرَّر، وكذلك الشّوقيّ
المبتدل بالتداول في الاستعمال، فإنّه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة. وكذلك المعاني
المبتدلة بالشّهرة، فإنّ الكلام ينزل بها عن البلاغة أيضاً، فيصير مُبتدلاً ويقرب من
عَدَم الإفادة. كقولهم: النار حارّة، والسّماء فوقنا. ومقدار ما يقرب من طبقة عَدَم
الإفادة يتعد عن رتبة البلاغة، إذ هما طرفان. ولهذا كان الشّعْر / في الرّبّاتيات
والتّبرّيات قليل الإفادة في الغالب، ولا يُجيد [فيها] ⁽¹⁾ إلاّ الفحول، وفي القليل على
العسر؛ لأنّ معانيها متداولة بين الجمهور، فتصير مبتدلة لذلك.

وإذا تعذّر الشعْر بعد هذه كلّها، فليُرَاضْهُ ويُعاوِذْهُ، فإنّ القريحة مثل
الضّرْع، يَدِيرُ بالامتراء، ويَجْفُ [ويغرّر] ^(ب) بالترك والإهمال.

وبالجُمْلَة، فهذه الصّناعة وتعلّمها مُستوفى في كتاب العُمدة لابن رَشِيْق. وقد
ذكرنا منها ما حَصَرْنَا بحسب الجُهد. ومن أراد استيفاء ذلك، فعليه بذلك الكتاب،
ففيه البُعْية من ذلك؛ وهذه بُنْدة كافية، والله المَعِينُ.

وقد نظّم النَّاسُ في أمر هذه الصّناعة الشّعريّة وما يَجِبُ فيها؛ ومن أَحْسَنِ
ما قيل في ذلك، وأَظْهُ ⁽¹⁾ لابن رَشِيْق: [من الخفيف]

(أ) من ع، وفي ظ ج ي: فيه (ب) من حاشية ع وحدها.

(1) يبدو أنّ ابن خلدون أثبت ما حفظه من هذه القصيدة على عهد بعيد بها، وحسب أنّها لابن رَشِيْق،
لأنّه يتذكر مصدرها منه. وهي لأبي العباس التاشي، كتب بها لأبي الصقر إسماعيل الشّيباني. (العُمدة
2: 769).

لَعَنَ اللَّهُ صِنْعَةَ الشَّعْرِ مَاذَا	5
يُؤْثِرُونَ الْغَرِيبَ مِنْهُ عَلَى مَا	
وَيَرْوُونَ الْمُحَالَ مَعْنَى صَحِيحاً	
يَجْهَلُونَ الصَّوَابَ مِنْهُ وَلَا يَذْ	
فَهُمْ عِنْدَ مَنْ سِوَانَا يُلَامُونَ	
إِنَّمَا الشَّعْرُ مَا تَنَاسَبَ فِي التَّنْظَرِ	
فَأَتَى بَعْضُهُ يُشَاكِلُ بَعْضاً	
كُلُّ مَعْنَى أَتَاكَ مِنْهُ عَلَى مَا	
فَتَنَاهَى مِنَ الْبَيَانِ إِلَى أَنْ	
فَكَأَنَّ الْأَلْفَاظَ مِنْهُ وَجُوهٌ	10
قَائِماً ^(ب) فِي الْمَرَامِ حَسَبَ الْأَمَانِيِّ	
فَإِذَا مَا مَدَحْتَ بِالشَّعْرِ حُرّاً	
فَجَعَلْتَ النَّسِيبَ سَهْلاً قَرِيباً	
/ وَتَكَبَّتَ مَا تَهَجَّنَ ^(د) فِي السَّمِّ	
وَإِذَا مَا قَرَضْتَهُ بِهِجَاءٍ	15
فَجَعَلْتَ التَّصْرِيحَ مِنْهُ دَوَاءً	
وَإِذَا مَا بَكَيْتَ فِيهِ عَلَى الْغَا	
مِنْ صُنُوفِ الْجَهَّالِ فِيهَا لَقِينَا	
كَانَ سَهْلاً لِلْسَّامِعِينَ مُبِينَا	
وَحَسِيسَ الْكَلَامِ ^(أ) شَيْئاً ثَمِينَا	
رُونَ لِلْجَهْلِ أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَا	
نَ وَفِي الْحَقِّ عِنْدَنَا يُغْذَرُونَا	
مَ وَإِنْ كَانَ فِي الصِّفَاتِ فُنُونَا	
وَأَقَامَتْ لَهُ الصَّدُورُ الْمُتُونَا	
تَتَمَنَّى لَوْ لَمْ يَكُنْ أَنْ يَكُونَا	
كَأَدَّ حُسناً يَبِينُ لِلنَّاظِرِينَ	
وَالْمَعَانِي زُكَّيْنِ فِيهِ عُيُونَا	
يَتَحَلَّى بِحُسْنِهِ الْمُتَشِدُّونَا	
زُفَّتْ فِيهِ مَذَاهِبُ ^(ج) الْمُسْتَهِينَا	
وَجَعَلْتَ الْمَدْحَ صِدْقاً مُبِينَا	
سَعِ وَإِنْ كَانَ لَفْظُهُ مَوْزُونَا	[413]
عِبَتْ ^(هـ) فِيهِ مَذَاهِبُ الْمُزْفِينَا	
وَجَعَلْتَ التَّعْرِيزَ دَاءً دَفِينَا	
دِينَ يَوْمَ اللَّيْنِ وَالطَّاعِنِينَ	

(أ) العمدة: المقال (ب) العمدة: قائماً (ج) من ع، وفي النسخ محرفة: مذاهيب (د) العمدة: يُهَجَّن (هـ) العمدة: عفت.

حُلَّتْ دُونَ الْأَسَى وَذَلَّلَتْ مَا كَا
ثَمَّ إِنْ كُنْتَ عَاتِيًا شَبْتِ بِالْوَعْدِ
فَتَرَكْتَ الَّذِي عَثَبْتَ عَلَيْهِ
وَأَصْحُ الْقَرِيضِ مَا فَاتَ فِي التَّنْظُرِ
فَإِذَا قِيلَ، أَطْمَعَ النَّاسَ طُرًّا
وَإِذَا رِيمٌ^(١)، أَعْجَزَ الْمُعْجِزِينَ 5

ومن ذلك أيضاً قولُ ^(١) النَّاشِئِ ^(ب): [من الكامل]

^(ج) الشَّعْرُ مَا قَوَّمَتْ زَيْغَ صُدُورِهِ ^(د)
وَرَأَيْتُ بِالْإِطْنَابِ شَعْبَ صُدُوعِهِ
وَجَمَعْتُ بَيْنَ قَرِيْبِهِ وَبَعِيدِهِ
وَإِذَا ^(و) مَدَحْتَ بِهِ جَوَادًا مَاجِدًا
أَصْفَيْتُهُ بِنَفِيسِهِ وَرَصَّيْنِهِ
فَيَكُونُ جَزَلًا فِي مَسَاقٍ ^(ح) صُنُوفِهِ
وَإِذَا بَكَيْتَ بِهِ الدِّيَارَ وَأَهْلَهَا
وَشَدَدْتَ بِالْتَهْذِيبِ أَسْرَ مُتُونِهِ
وَفَتَحْتَ بِالْإِيْجَازِ غُورَ ^(هـ) عُيُونِهِ
وَوَصَلْتَ بَيْنَ مَجْمَعِهِ وَمَعِينِهِ
وَقَضَيْتَهُ ^(ز) فِي الشُّكْرِ حَقَّ دُيُونِهِ 10
وَخَصَصْتُهُ بِخَطِيرِهِ وَثَمِينِهِ
وَيَكُونُ سَهْلًا فِي اتِّسَاقِ فُنُونِهِ
أَجْرَيْتَ لِلْمَخْزُونِ مَاءَ شُؤُونِهِ

(أ) ج: رام (ب) في الأصول: بعضهم، وزاد على نسخة ع: الناشئ (ج) ترتب الأبيات مغاير لما في زهر الآداب والعمدة، وقد كُتِبَتِ الأبيات التي لم تقلها النسخ في حاشية ع متداخلة (د) في ط ج ي: حدوده (هـ) في زهر الآداب: غور عيونه (و) في العمدة: فإذا (ز) العمدة: وقَيْتَهُ (ح) العمدة: اتِّسَاقٌ، وفي زهر الآداب: ويكون سهلاً في اتِّسَاقٍ.

(١) العمدة 2: 772، وذكر إبراهيم الحصري في زهر الآداب 3: 685 فصلاً من كتاب الشعر لأبي العباس عبد الله بن محمد الأنباري، الناشئ الأكبر (-293/906م)، وفي سياقهِ نسب القصيدة لنفسه يقول: وقد قلْتُ في الشعر قولاً جعلته مثلاً لقائلِهِ وأسلوباً لسانكِيهِ. وعدد أبيات القصيدة فيه 18 بيتاً.

وإذا أردت كنايةً عن رينة^(أ) بايئت بين ظهوره وبطونه
فجعلت سامعة يشوب شكوكه بئبائه^(ب) وظنونه بيقينه
^(ج) [وإذا عتبت على أخ في زلة فتركته مستأنساً بدمائه
وإذا نبذت إلى التي غلقها إذ صار مثك بفاتيات شؤونه
تسيئتها بلطيفه ورقيقه^(هـ) وشغقتها بخيئه وكينه
وإذا اعتذرت لسقطة أسقطتها^(د) واشكت بين مخيله^(ز) ومبينه
فيحول ذنبك عند من يعتده عثاً عليه مطالباً بيمينه]

5

56 • فصل، في أن صناعة النظم والتشريح إنما هي في الألفاظ لا في المعاني

اعلم أن صناعة الكلام ، نظماً ونثراً ، إنما هي في الألفاظ لا في المعاني ، وإنما
المعاني تبع لها وهي أصل . فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم / والنثر ، إنما
يحاولها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ، ليكثر استعماله وجزئه على لسانه
حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ، ويتخلص من العجمة التي ربي عليها
في جيله ، ويفرض نفسه ، مثل وليد ينشأ في جيل العرب ويلقن لغتهم^(ح) كما يلقنها
الصبي حتى يصير كأنه واحد منهم في لسانهم ذلك.

10

15

(أ) العمدة: رينة (ب) العمدة: بيانه (ج) من هنا إلى آخر الأبيات الستة ، لم ترد إلا في حاشية ع بخطه (د) في حاشية ع
قدم الحزون على السهول . وفي العمدة وزهر الآداب: لوعوته وحزونه (هـ) العمدة: دقيقه ، وفي زهر الآداب: شغقتها بخيئه
(و) العمدة: إلى أخ في زلة ، وهو نص زهر الآداب (ز) العمدة: مخيله (ح) ج : بلغتهم .

وذلك أَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ اللِّسَانَ مَلَكَةٌ مِنَ المَمْلَكَاتِ فِي التَّنْطِقِ، يُحَاوِلُ تَحْصِيلَهَا
بِتَكَرُّرِهَا عَلَى اللِّسَانِ حَتَّى تَحْصَلَ، [شَأْنُ المَمْلَكَاتِ] ^(١). وَالَّذِي فِي اللِّسَانِ وَالتَّنْطِقِ إِنَّمَا
هُوَ الْأَلْفَاظُ، وَإِنَّمَا المَعَانِي فِي الضَّمَائِرِ.

- وأيضاً، فالمعاني موجودة عند كلٍّ [أحد] ^(ب)، وفي طَوَّعِ كُلِّ فِكْرٍ مِنْهَا مَا
يَشَاءُ وَيَرْضَى، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى [تَكْلِيفٍ] ^(ج) صِنَاعَةٍ [فِي تَأْلِيفِهَا] ^(ج). وَتَأْلِيفُ الكَلَامِ 5
لِلْعِبَارَةِ عَنْهَا هُوَ الْمَحْتَاجُ لِلصَّنَاعَةِ، كَمَا قُلْنَا، وَهُوَ بِمَثَابَةِ الْقَوَالِبِ لِلْمَعَانِي. فَكَمَا أَنَّ
الْأَوَانِي الَّتِي يُعْتَرَفُ بِهَا الْمَاءُ مِنَ الْبَحْرِ مِنْهَا آتِيَةُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالصَّدْفِ وَالزُّجَاجِ
وَالْحَزَفِ، وَالْمَاءُ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ، وَتَخْتَلِفُ الْجُودَةُ فِي الْأَوَانِي الْمَمْلُوءَةِ بِالْمَاءِ بِاخْتِلَافِ
جَنْسِهَا لَا بِاخْتِلَافِ الْمَاءِ، كَذَلِكَ جُودَةُ اللَّغَةِ وَبِلَاغَتُهَا فِي الِاسْتِعْمَالِ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ
طَبَقَاتِ الكَلَامِ فِي تَأْلِيفِهِ بِاغْتِبَارِ تَطْبِيقِهِ عَلَى الْمَقَاصِدِ، وَالْمَعَانِي وَاحِدَةٌ فِي نَفْسِهَا. 10
وَإِنَّمَا الْجَاهِلُ بِتَأْلِيفِ الكَلَامِ وَأَسَالِيهِ عَلَى مُقْتَضَى مَلَكَةِ اللِّسَانِ، إِذَا حَاوَلَ
الْعِبَارَةَ عَنْ مَقْصُودِهِ وَلَمْ يُحْسِنْ؛ بِمَثَابَةِ الْمُقْعَدِ الَّذِي يَرُومُ النَّهْوضَ وَلَا يَسْتَطِيعُهُ
لِفَقْدَانِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ. وَاللَّهُ ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، من
الآية 151].

(١) مخرج في حاشية ع، لم تنقله ط ج ي (ب) ط ج ي: واحد (ج) مقحمة في ع، وأغفلتها بقية النسخ.

57 • فصل ، في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ، وجودتها بجودة المحفوظ

قد قدمنا [أنه]^(أ) لا بد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي، وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه، وكثرته من قلته، تكون جودة الملكة الحاصلة [عنه للمحافظ]^(ب). فمن كان محفوظه [من أشعار العرب الإسلاميين، أو]^(ج) شعر حبيب، أو العتائي، أو ابن المعتز، أو ابن هاني، أو الشريف الرضي، / أو رسائل [414] ابن المقفع، أو سهل بن هارون، أو ابن الزيات، أو البديع، أو الصابي، تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة ممن يحفظ [أشعار المتأخرين، مثل]^(ج) شعر ابن سهل من المتأخرين أو ابن النبیه، أو ترسيل النيساني، أو العماد الأصبهاني، 10 لزول طبقة هؤلاء عن أولئك، يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق. وعلى مقدار جودة المسموع [أو]^(د) المحفوظ تكون جودة الاستعمال من بعده، ثم إجادة الملكة من بعدها. فبازتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترقى الطبقة الحاصلة، لأن الطبع إنما ينسج على منوالها، وتتمو قوى الملكة بتغذيتها.

15 وذلك أن النفس وإن كانت في جبلتها واحدة بالتوع، فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الإدراكات. واختلافها إنما هو باختلاف ما يرد عليها من الإدراكات والملكات والألوان التي تكتيفها من خارج. فهذه يتم وجودها وتخرج من

(أ) ط: أن (ب) كذا في ع، وفي ط ج ي: عند الحفاظ (ج) من حاشية ع (د) من ع، وفي ط ج ي: و.

القُوَّة إلى الفعل صورَتها. والملكاتُ التي تحصلُ لها إنّما تحصلُ على التدرّج، كما قدّمناه. فالملكةُ الشعريّةُ تنشأُ بحفظِ الشعرِ، وملكةُ الكتابةِ بحفظِ الأسجاعِ والتّرسيلِ، والعلميّةُ بمخالطةِ العلومِ والإذراكاتِ والأبحاثِ والأنظارِ، والفهميّةُ بمخالطةِ الفقهِ وتّظهيرِ المسائلِ و[تفريعها]^(أ) وتخرجُ الفروعُ على الأصولِ، والتّصوّفيّةُ الرّبابيّةُ بالعباداتِ والأذكارِ وتعطيلِ الحواسِّ الظّاهرةِ بالخلوةِ والافترادِ عن الخلقِ ما استطاعَ، 5 حتّى تحصلَ له ملكةُ الرجوعِ إلى حِسِّهِ الباطنِ وروحه، وينقلِبَ ربّانيّاً؛ وكذا سائرُها. وللتّنفّسِ [من]^(ب) كلّ واحدٍ منها لونٌ تتكيّفُ به، وعلى حسبِ ما نشأتِ الملكةُ عليه من جَوْدَةٍ أو رداءَةٍ تكونُ تلكِ الملكةُ في نَفْسِها. فملكةُ البلاغةِ العاليةِ الطّبقَةِ في جِنْسِها إنّما تحصلُ بحفظِ العاليِ في طبَقَتِهِ من الكلامِ. ولهذا كان الفقهاءُ وأهلُ العلمِ كلّهم قاصرينَ في البلاغةِ، وما ذلكِ إلّا لما يَسْبِقُ / إلى^(ج) مَحْضُوظِهِمْ، 10 وتمتلئُ به من القوانينِ العلميّةِ والعباراتِ الفقهيّةِ الخارجةِ عن أُسْلُوبِ البلاغةِ والنّازلةِ عن الطّبقَةِ، لأنّ العباراتِ عن القوانينِ والعلومِ لا حَظَّ فيها للبلاغةِ. فإذا سَبَقَ ذلكِ المحفوظُ إلى الفِكرِ وكَثُرَ وتلوّنتِ^(د) به النّفسُ، جاءتِ الملكةُ النّاشئةُ عنه في غايَةِ القُصورِ، وانحرَفَتْ عباراتُه عن أساليبِ العربِ في كلامِهِمْ. وهكذا نَجِدُ شعرَ الفقهاءِ والنّحاةِ والمتكلّمينِ والنّظّاريِّ وغيرِهِمْ مِمَّنْ لا يَمْتَلئُ من حِفْظِ التّقْيِ الحُرِّ من كلامِ 15 العربِ.

أخبرني صاحبنا الفاضل ، أبو القاسم بن رِضْوَان ، كاتبُ العلامةِ بالدّولةِ

(أ) ط ج: تفرّيقها (ب) ط ج ي: في (ج) ي: من (د) ع: تلوّنت .

المريئية، قال: ذكرت يوماً صاحبنا أبا العباس بن شُعَيْب، كاتب السلطان أبي الحسن، وكان المقدم في البصر باللسان لعُهدِه، فأنشدته مطلع قصيدة ابن التَّحَوِّي، ولم أنسبها له، وهو: [من الكامل]

لم أذر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين جديدها والبال

5 فقال لي على البديه: هذا شعر فقيهِ. فقلت له: ومن أين لك ذلك؟ قال: من قوله: ما الفرق، إذ هي من عبارات الفقهاء، وليست من أساليب كلام العرب، فقلت له: لله أبوك، إنه ابن التَّحَوِّي.

وأما الكتاب والشعراء، فليسوا كذلك، لتخيرهم في محفوظهم، ومخالطتهم كلام العرب وأساليبهم في الترسل، وانتقائهم له الجيد من الكلام.

10 ذكرت يوماً أبا عبد الله ابن الخطيب، وزير الملوك بالأندلس، وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة، فقلت له: أجد استيعاباً علي في نظم الشعر متى رُمته، مع بصري به وحفظي للجيد من الكلام، من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب، وإن كان محفوظي قليلاً. وإنما أتيت، والله أعلم، من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية، فإني حفظت قصيدتي الشاطبي:

15 الكبرى والصغرى في [القراءات والرسم]⁽¹⁾ واستظهرتهما، / وتدارست كتابي ابن

(i) من حافية ع .

الحاجب في الفقه والأصول، وجمل الخونجي في المنطق، وكثيراً من قوانين التعليم في المجالس، فامتلاً مخفوظي من ذلك، وخدش وجه الملكة التي استعديت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب، فعاق القريحة عن بلوغها. فنظر إلي ساعة مُعجباً، ثم قال: لله أنت، [و] ⁽¹⁾ هل يقول هذا إلا مثلك!

- ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه، سر آخر، وهو إعطاء السبب 5 في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة - في البلاغة وأدواقيها - من كلام الجاهلية في منشورهم ومنظومهم. فإننا نجد شاعر حسان بن ثابت، وعمر بن أبي ربيعة، والحطيئة، وجربير، والفرزدق، ونصيب، وغيلان ذي الرمة، والأخوص، وبشار، ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية، وصدر من الدولة العباسية 10 في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك، أرفع طبقة في البلاغة بكثير من شاعر التابعين، وعنترة، وابن كثوم، وزهير، وعلقمة بن عبدة، وطرفة بن العبد، ومن كلام الجاهلية في منشورهم ومحاوراتهم. والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك للتأقيد البصير بالبلاغة.

- والسبب في ذلك، أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام، سمعوا الطبقة العالية 15 من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلها، لكنها ولجت قلوبهم، ونشأت على أساليبها نفوسهم، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها،

(1) من ع .

فكان كلامهم - في نظمهم ونثرهم - أحسن ديباجة وأضفى رونقاً من أولئك،
وأرصف مباني وأعدل تنقيفاً، بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة. وتأمل ذلك
يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل / الذوق والبصر بالبلاغة.

[415ب]

ولقد سألت يوماً شيخنا الشريف أبا القاسم، قاضي غزناطة لعهدنا، وكان
5 شيخ هذه الصناعة، أخذ بسبته عن مشيختها من تلميذ الشلّوين، واستبحر في علم
اللسان، وجاء من وراء الغاية فيه. فسأله يوماً: ما بال العرب الإسلاميين أعلى
طبقة من الجاهليين؟ ولم يكن يستنكر ذلك بذوقه. فسكت طويلاً، ثم قال^(أ):
والله ما^(ب) أدري. فقلت: أعرض عليك شيئاً ظهر لي في ذلك، ولعله السبب فيه.
وذكرت له هذا الذي كتبت، فسكت مُعجباً، ثم قال: يا فقيه، هذا كلام من حقه
10 أن يكتب بالذهب. وكان من بعدها يُؤثر محلي، ويصيخ في مجالس التعليم إلى قولي،
ويشهد لي بالتباهة في العلوم^(ج). والله ﴿خَلَقَ^(د) الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾
[سورة الرحمن، الآيتان 3، 4].

(أ) ع: قال لي (ب) ي: لا (ج) سقط من ي (د) ط ج ي: خالق.

58 • [^(١) فصلٌ ، في بيانِ المطبوعِ من الكلامِ والمصنوعِ ، وكيفَ جودةُ المصنوعِ أو قصوره

اعلم أن الكلام الذي هو العبارة والخطابُ، إنما سرُّه وروحُه في إفادة
المعنى. وأمّا إذا كان مُهْمَلًا فهو كالمَوَاتِ الذي لا عِبرة به. وكما الإفادةُ، هو البلاغةُ
على ما عرفت من حدّها عند أهل البيان ^(ب). لأنّهم يقولون: هي مُطابَقَةُ الكلامِ
لمقتضى الحالِ، ومعرفةُ الشُّروطِ والأحكامِ التي بها تُطابِقُ التّراكيبُ اللَّفْظِيَّةُ مقتضى
الحالِ، هو فنُّ البلاغةِ. وتلك الشُّروطُ والأحكامُ للتّراكيبِ في المطابقةِ استُفْرِيت من
لُغة العربِ، وصارت كالقوانينِ. فالتركيبُ بوضعها تُفيدُ الإسنادَ بين المستندين
بشروطٍ وأحكامٍ هي جُلُّ قوانينِ العريّةِ، وأحوالُ هذه التّراكيبِ من تقدّمٍ وتأخيرٍ،
وتعريفٍ وتنكيرٍ، وإضمارٍ وإظهارٍ، وتقييدٍ وإطلاقٍ، وغيرها، يفيدُ الأحوالَ المكتنفةَ
من خارجِ الإسنادِ، وبالمتخاطبين حالَ التّخاطبِ بشروطٍ وأحكامٍ هي قوانينُ لفنِّ
سمّوه علمُ المعاني من فنونِ البلاغةِ. فتندرجُ قوانينُ العريّةِ لذلك في قوانينِ ^(ج) علمِ
المعاني، لأنّ إفادتها للإسنادِ جزءٌ من إفادتها للأحوالِ المكتنفةِ بالإسنادِ. وما قَصَرَ
من ^(د) هذه التّراكيبِ عن إفادةِ مقتضى الحالِ لخللٍ في قَوَانِينِ الإغرابِ أو قَوَانِينِ
المعاني، كان قاصراً عن المطابقةِ لمقتضى الحالِ، ولحقَّ بالمُهْمَلِ الذي هو في عِدَادِ
المَوَاتِ.

(١) سقط هذا الفصل من ط ي، وأوردته ع ج. وجاء عنوانه في ج مغايراً، كما يلي: فصلٌ، في أن الكلام المطبوع، أو نُقِ
مبنى وأعلى مرتبة في البلاغة من الكلام المصنوع (ب) ج: اللسان (ج) سقط من ج (د) ج: عن .

ثم يتبع هذه الإفادَة لمقتضى الحال، التَّفَقُّنُ في انْتِقَالِ الذَّهْنِ بَيْنَ المعاني بأصنافِ الدَّلالاتِ، لأنَّ التَّرْكيبَ يَدُلُّ بالوضع على مَعْنَى، ثمَّ يَنْتَقِلُ الذَّهْنُ إلى لازِمِهِ أو مَلْزومِهِ أو شَبْهِهِ، فيكونُ فيها مجازاً، إمَّا باستعارة أو كِنَايَة، كما هو مَقَرَّرٌ في مواضعِهِ. ويحصلُ للفكرِ بذلك الانتقال لَدَّةً كما تحصلُ من الإفادَة وأشدَّ، لأنَّ في جميعها ظُفراً بالمذلولِ من دليْلِهِ، والظَّفَرُ من أسبابِ اللَّدَّةِ، كما علمت.

ثمَّ لهذه الانتقالات أيضاً شروطٌ وأحكامٌ كالقوانين^(أ)، صَيَّرَها صناعةً وسَمَّوها بالبيان. وهي شقيقةُ عِلْمِ المعاني، المفيدِ لمقتضى الحال، لأنها راجعةٌ إلى معاني التَّرَاكيبِ ومَذْلُولَاتِهَا، وقوانينُ عِلْمِ المعاني راجعةٌ إلى أحوالِ التَّرَاكيبِ أَنْفُسِهَا من حَيْثُ الدَّلَالَةُ. واللفظُ والمعنى متلازمان متضايقان^(ب) كما علمت. فإذا عِلْمُ المعاني وعِلْمُ البيانِ هما جزءا البلاغة، وبهما كمالُ الإفادَة والمطابقة لمقتضى الحال. فما قَصَرَ من هذه التَّرَاكيبِ عن المطابقة وكمالِ الإفادَة فهو مُقَصَّرٌ عن البلاغة، ويلتحق عند البُلْغَاءِ بأصوات الحيواناتِ العُجَمِ. وأجدرُ به أن لا يكون عَرَبِيّاً، لأنَّ العَرَبِيَّ هو الَّذِي يُطَابِقُ بإفادَتِهِ مَقْتَضَى الحال. فالبلاغةُ - على هذا - هي أصلُ الكلامِ العَرَبِيِّ، وسَجِيَّتُهُ، وروحه، وصيغَتُهُ^(ج).

ثمَّ اعْلَمْ أَنَّهُمْ إِذَا قالوا الكلامَ المطبوعَ، فإنَّهم يعنونَ به الكلامَ الَّذِي كُمِّلَتْ طبيعَتُهُ وسَجِيَّتُهُ من إفادَة مَذْلُولِهِ المَقْصودَ مِنْهُ، لأنَّه عبارةٌ وخطابٌ ليس المقصودُ مِنْهُ النطقُ فقط، بل المتكلمُ يقصدُ به أن يُفِيدَ سامِعَهُ ما في ضميره إفادَة تامَّةً،

(أ) ج : بالقوانين (ب) ج : متطابقان (ج) ج : طبيعته .

ويدلُّ به عليه دلالة وثيقة، ثم يتبع تراكيب الكلام في هذه السجّية التي له بالأصالة
 ضروب من التحسين والتزيين بعد كمال الإفادة، وكأنّها تعطى رونق الفصاحة من
 تَمَيُّق الأسجاع، والموازنة بين^(١) [جَمَل الكلام، وتقسيمه بالأقسام المختلفة الأحكام]^(ب)،
 والتّورية باللفظ المشترك عن الحقي من معانيه، والمطابقة بين المتضادات^(ج)، ليقع
 التجانس بين الألفاظ أو المعاني، فيحصل للكلام رونق ولذّة في الأسجاع، وحلاوة⁵
 وجمال، كلّها زائد على الإفادة.

(١) في ج : بين الفصول، وهي مذكورة في ع أيضاً، ثم ألغاهَا وعوّضها بالجملة المحصورة (ب) الفقرة التالية كانت مدرجة في متن
 ع، في هذا الموقع، ثم ألغاهَا، وربط الكلام كما أورده، وقد شكّلتها عنها نسخة ج قبل الإلغاء. وهي: "وغير ذلك من الألقاب التي
 صنّتها وأخصّوها، وجعلوا لها شروطاً وأحكاماً، وسوّها فنّ البديع. واختلفوا في تحديد صنوفها وأقسامها، المتقدّمون [من أهل
 هذا الفنّ (ج)] منهم والمتأخرون، والمشاركة [منهم (ج)] والمغاربة. كما اختلفوا في غدها من البلاغة أو خروجها عنها، وهو رأي
 المغاربة، وأنا المشاركة وإن عدّوها من فنّ البلاغة، فليس على أنّها أصلية في الكلام". (ج) من هنا إلى آخر الفصل يفترق
 التقصان (ع) و (ج) في صياغة الموضوع، وقد حافظنا أن يكون المتن فوقه من الأصل ع. وبليه صيغة ما كتبه في نسخة ج، المختلفة
 صياغة والمتفقة في أغلب الدلالات التي أرادها. وهذا نصّه:

"وإنّا اعتبروها بتعد رعاية تطليق الكلام على مُقتضى الحال تُقيده رونقاً وزينة، وتكسيبه
 حلاوة وجمالاً. لأنّ الكلام من دون هذه المطابقة غير عربيّ كما قدّمناه. وليس التحسين بمغني عنها
 فيه، وهي مع ذلك مُستفادة من لغة الغرب بمداولتها واستقراء تراكيبها، فبعضها مسموع وشاهده
 موجود، وبعضها مقيس مكتسب على ما عُرف في كتب الشّوم. وإذا قالوا الكلام المصنوع،
 فيريدون بهذه التراكيب التي فيها فنون البديع وألقابه وصنوفه، ويدلّ ذلك من قولهم فيها أيضاً في
 الكلام المطبوع، إنّه الذي له كمال الإفادة - وهما متقابلان - [و] إنّ هذه الصناعة مقابلة للبلاغة.
 وقد كان الأدباء قديماً يعدّونها في الفنون الأدبية، ويُدرجونها في كتبها، إذ لا موضوع لها، فليست
 من العلوم. وقد فعل ذلك ابنُ رشيق في كتاب العُفدة الذي تكلم فيه في صناعة الشّعر وكيفية
 عمله بما لم يُسبق إليه، ثم عَقِب ذلك بالكلام في ألقاب البديع. وكذلك غيره من أدباء
 الأندلسيين. ويُقال: إن أوّل من تعاطى هذه الصّناعة، أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، فشحن =

وهذه الصُّنعة موجودة في الكلام المعجز في مواضع متعدّدة، مثل:
﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَىٰ وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [سورة الليل ، الآيتان 1 ، 2]، ومثل: ﴿فَأَمَّا مَنْ

شعره بألقابها وحذا الناس بعده حذوه في ذلك، بعد أن كان الشعر خلواً منها. وكان الشعراء من الجاهليّة وفحول الإسلاميين لا يتعاطونها في أشعارهم ولا يستكثرون منها، وإن وقعت لهم فإنما تقع عفواً تسمَحُ بها القريحة من غير مُمارسة ولا مُعانة، فيحسن مذاقها عند أهل الطّباع السليمة، وإنما حصل فيها ذلك من كمال المطابقة والوفاء بحقوق البلاغة، والبراءة من عبث التّكليف لهذه الألقاب، وحُشونة المُعانة والمُمارسة، فيقرب التحسين فيها من الفطرة الأولى. وأمّا الكلام المنشور أيضاً، فكان عند الجاهليّة وفحول الإسلاميين، مُرسلاً مفصّل المقاطع من غير سجع ولا وزن، حتّى تبع إبراهيم بن هلال الصّافي كاتب بني بُويه، فتعاطى السجع في الكلام، والتزمها في المخاطبات السلطانيّة تشبيهاً بالقوافي الشعرية، وأجرّ رَسَنَهُ في ذلك ما كان عليه ملوكه من العُجْمة، وما كان هو عليه من السّوقة البعيدة عن منازع الملوك، وضوالة الخلافّة النّازعة إلى ضوالة البلاغة، فكان له في خضيض الكلام المتّسق بالصّناعة سوقٌ يعقّد نفاقها شأن الإخواتيات، فشالت يومئذ نعامته بها، وارتفع صيته، وانتشرت الصّناعة بعده في كلام المتأخّرين، ونُسبي عهد التّرسيل وصولة البلاغة فيه، وتشابهت السلطانيّات بالإخواتيات، والعريّيات بالسوقيّات، واختلط المزعّي بالهمل، وقصّرت الطّباع عن البلاغة الأصليّة في الكلام لقلّة مُعاناتها، ولم يبق إلّا الكلفُ بفنون هذه الصّناعة وضروبها في النّظم والنثر، وتعاطيها في كلّ صنف من أصنافها. وأساطين البلاغة في كلّ عصر ينسخرون من ذلك ويُنكرون تعاطيه وضيق العطن عن سيّواه.

ولقد أدركتُ شيوخنا - رحمهم الله - يعبثون على من يتعاطى ذلك من أهل فنون الكلام ويغضّون منه.

سمعت شيخنا الأستاذ أبا البركات البلقينيّ، وكان من أهل البصر باللسان والثرية في ذوقه، يقول: إنّ من أعزّ ما تُقترحه عليّ نفسي، أن أشاهد يوماً بعض من ينتحل شيئاً من ضروب هذه الصّناعة في نظمه أو نثره، وقد امتحن بأشدّ العقوبة ونودي عليه. يدفع بذلك تلميذه عن تعاطي هذه الصّناعة، حذراً أن يخلق بها جدّة البلاغة، فيذهل عنها. =

أَعْطَى وَأَنْقَى وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى ﴿ [سورة الليل، الآيتان 5، 6]، إلى آخر التّقسيم في الآية. وكذا: ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [سورة النازعات، الآيتان 37، 38] إلى آخر الآية. وكذا: ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [سورة الكهف، من الآية 104]، وأمثاله كثير. وذلك بعد كمال الإفادّة في أضل⁽¹⁾ هذه التراكيب قبل وقوع هذا البديع فيها. وكذا وقع في كلام الجاهليّة منه، لكن عَفَواً من غير قَصْدٍ ولا تَعَمُّدٍ؛ 5 ويُقال: إنّه وقع في شِعْرِ زُهَيْرٍ.

وأما الإسلاميون، فوقع لهم عَفَواً وقَصْداً، وأتوا منه بالعجائب. وأوّل من أحكم طريقته حبيب بن أوس، والبُخَيْرِيُّ، ومُسلمُ بنُ الوليد، فقد كانوا مولعين بالصُّنعة، ويأتون منها بالعَجَبِ. وقيل: إنّ أوّل من ذهب إلى مُعاناتها بَشَّارُ بن بُزْدٍ، وابنُ هَزْمَةَ، وكنا آخر من يُسْتَشْهَدُ بشعره في اللّسان العربي. ثم 10 اتَّبَعَهُمَا كَثُومُ بن عمرو العَتَّابِيُّ، ومنصورُ التَّمِيمِيِّ، ومُسلمُ بنُ الوليد، وأبو

° وكان شيخنا القاضي أبو القاسم الشّريف السّنبّغِيّ، مُنْفِقُ أسواق اللّسان العربي ورافع رأيته، يقول: هذه الفنون البديعيّة وإن وقعت عَفَواً للشّاعر أو للكاتب، فإنّه يُقْبَحُ له أن يعاود شيئاً منها، لأنّها من مُحَسَّنات الكلام وحِماله، فهي بمثابة الخيلان في الوجه، تحسّن بالواحد منها والآخرين، وتُفْجِحُ بتعدادها. وهذا كلّ من هؤلاء الفضلاء استهجاناً لتعاطي هذه الصّناعة وألقائها البديعيّة، أن تَزِلَّ بالكلام عن مرقاته في البلاغة. ويُدَلّ ذلك من كلامهم على أنّ الكلام المصنوع نازلٌ عن الكلام المطبوع كما أرىناك سيره وحقيقته، والحاكم في ذلك النّوْق، وقد مرّ تفسيره، والله أعلم، و ﴿ عَلَّمَكُمْ مَائِمَةً تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة، من الآية 239].

(1) كانت في أصل ع: في مطبوع، ثم ألغيت واستبدلت.

نُؤاس. وجاء على أثرهم حبيبُ والبُخترِي . ثم ظهر ابنُ المعتزّ ، فحتم علمُ البديع والصناعة أجمع.

ولنذكر مثلاً من المطبوع الخالي من الصنعة لتنفهه، مثل قولِ قيس بن ذريح⁽¹⁾: [من الطويل]

5 وأُخرجُ من بين البيوتِ لعلني أحدثُ عنك النَّفسَ في السرِّ خالياً

وقول كثير⁽²⁾: [من الطويل]

وإني وتيمامي بعزة بعد ما تخلّيتُ عما بيننا وتخلّيت
لكلّزنجي ظلّ الغمامة ، كلّما ثبّوا منها للمقبل، اضمحلّت

فتأمل هذا المطبوع الفقيذ الصنعة في إحكام تأليفه ، وثقافته تراكيبه . فلو
10 جاءث فيه الصنعة من بعد هذا الأصل، زادتْه حسناً.

وأما المصنوع فكثير من⁽¹⁾ بشار، ثم حبيب، وطبقتهما، ثم ابن المعتز، خاتم الصنعة، الذين جرى المتأخرون بعدهم في مبدائهم، ونسجوا على منوالهم.

(1) فراغ بمقدار كلمة في ع، قد يكون لفظ: مثل .

(1) ديوان قيس بن ذريح 122، الحاسة البصرية 2: 100، وعنه، الشعر والشعراء 2: 628، والأغاني 9: 133-162، وفيات الأعيان 4: 106-113 .

(2) ديوان كثير عزة : 71، الشعر والشعراء 1: 515، وفيه: تخلّيتُ ممّا بيننا. وفيه ترجمته (503-517) ، الأغاني 9: 30-5.

وقد تعدّدت أصناف هذه الصنعة عند أهلها، واختلفت اصطلاحاتهم في ألقابها، وكثير منهم يجعلها مندرجة في البلاغة، على أنها غير داخلة في الإفادة، وإنّما هي تُغطي التحسين والترويق. وأمّا المتقدمون من أهل البديع، فهي عندهم خارجة عن البلاغة، ولذلك يذكرونها في الفنون الأدبية التي لا موضوع لها. وهو رأي ابن رشيقي في كتاب العمدة⁽¹⁾ له، وأدباء الأندلس. وذكروا في استعمال هذه الصنعة 5 شروطاً، منها أن تقع من غير تكلف ولا اكتراث فيما يُقصد منها.

وأما الغنوّ؛ فلا كلام فيه، لأنها إذا برّرت من التكلف، سلّم الكلام من عيب الاستهجان. لأنّ تكلفها ومعاناتها يُصيّرُ إلى الغفلة عن التراكيب الأصلية للكلام، فتخلُ بالإفادة من أضلها، وتذهبُ بالبلاغة رأساً، ولا يبقى في الكلام إلا تلك التحسينات. وهذا هو الغالبُ اليومَ على أهل العصر. وأصحاب الأذواق في 10 البلاغة يسخرون من كلّهم بهذه الفنون، ويعدون ذلك من القصور عن سواه.

وسمعتُ شيخنا الأستاذ أبا البركات البليّقي، كان من أهل البصر باللسان والقريحة في ذوقه، يقول: إنّ من أشهى ما تقرّحه عليّ نفسي، أن أشاهد في بعض الأيام من يتحلّ فنون هذا البديع في نظمه أو نثره وقد عوقب بأشدّ العقوبة ونودي عليه. يحذر بذلك تلميذه أن يتعاطوا هذه الصنعة، فيكلّفوا بها ويتناسوا 15 البلاغة.

ثمّ من شروط استعمالها عندهم الإقلال منها، وأن تكون في بيّتين أو ثلاثة

(1) العمدة 1: 208.

من القصيدة، فتكفي في زينة الشعر ورؤيته. والإكثار منها عيب. قاله ابن رشيقي⁽¹⁾
وغيره.

وكان شيخنا أبو القاسم الشريف السبتي، منفق اللسان العربي بالأندلس
لوقته، يقول هذا القول: البديعة إذا وقعت للشاعر أو الكاتب، فينبح أن يستكثر
5 منها ، لأنها من محسنات الكلام ومزيّناته ، فهي بمثابة الخيلان في الوجه ، يحسن
بالواحد والاثنين منها، وينبح بتعدادها.

وعلى نسبة الكلام المنظوم هو الكلام المنشور في الجاهلية والإسلام. كان
أولاً مرسلاً، معتبر الموازنة بين جملة وتراكيبه، شاهدة موازنته بقواصله من غير
التزام سجع ولا اكتراث بصنعة، حتى نبغ إبراهيم بن هلال الصابي، كاتب بني بويه،
10 فتعاطى الصنعة والتفتية، وأتى من ذلك بالعجب، وعاب الناس عليه كلفه بذلك في
المخاطبات السلطانية. وإنما حمّله عليه ما كان في ملوكه من العجمة والبعد عن صولة
الخلافة المتفتة لسوق البلاغة. ثم انتشرت الصناعة بعده في منشور المتأخرين، ونسي
عهد الترسيل، وتشابهت السلطانيات بالإخوانيات، والعريثات بالسوقيات، واختلط
المزعي بالهمل.

15 وهذا كله يدلّك على أنّ الكلام المصنوع بالمعانة والتكلف قاصر عن الكلام
المطبوع، لقلّة الاكتراث فيه بأصل البلاغة، والحام في ذلك الذوق. والله خلقكم
و﴿عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية 239].

(1) العمدة 1: 210 .

59 • فَصْلٌ ، فِي تَرْفَعِ أَهْلِ الْمَرَاتِبِ عَنْ اتِّحَالِ الشَّعْرِ

اعْلَمْ أَنَّ الشَّعْرَ كَانَ دِيواناً لِلْعَرَبِ ، فِيهِ عُلُومُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَحِكْمَتُهُمْ . وَكَانَ
رُؤَسَاءُ الْعَرَبِ مُتَنَافِسِينَ فِيهِ ، وَكَانُوا يَقْفُونَ بِسُوقِ عَكَاظٍ لِإِنْشَادِهِ وَعَرْضِ كُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهُمْ دِيبَاجَتَهُ عَلَى فُحُولِ الشَّأْنِ وَأَهْلِ الْبَصَرِ لَتَمْيِيزِ حَوَكِهِ ، حَتَّى اتَّهَوْا إِلَى الْمُنَاغَاةِ
فِي تَعْلِيقِ أَشْعَارِهِمْ بِأَرْكَانِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، مَوْضِعِ حُجَّتِهِمْ وَبَيْتِ إِبْرَاهِيمَ ، كَمَا فَعَلَ 5
أَمْرُؤُ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ ، وَالنَّابِغَةُ الدُّبَيَّاتِي ، وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ ، وَعَنْتَرَةُ بْنُ شَدَّادٍ ،
وَطَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ ، وَعَلَقَمَةُ بْنُ عَبْدَةَ ، وَالْأَعَشَى ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْمَعْلَقَاتِ التَّنْعِ .
فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَتَوَصَّلُ إِلَى تَعْلِيقِ الشَّعْرِ بِهَا مِنْ كَانَ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْمِهِ وَعَصِيَّتِهِ
وَمَكَانِهِ فِي مُصَرٍّ ، عَلَى مَا قِيلَ فِي سَبَبِ تَسْمِيَتِهَا بِالْمَعْلَقَاتِ .

ثُمَّ انْصَرَفَ الْعَرَبُ عَنْ ذَلِكَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ بِمَا شَغَلَهُمْ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَالثَّبُوءِ 10
وَالْوَحْيِ ، وَمَا أَذْهَشَهُمْ مِنْ أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ وَنَظْمِهِ ، فَأُخْرِسُوا عَنْ ذَلِكَ ، وَسَكَتُوا عَنْ
الْحَوْضِ فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ / زَمَاناً . ثُمَّ اسْتَقَرَّ ذَلِكَ ، رَأْسُ الرُّشْدِ مِنَ الْمِلَّةِ ، وَلَمْ يَنْزِلِ [1416]
الْوَحْيُ فِي تَحْرِيمِ الشَّعْرِ وَحَظَرِهِ ، [بَلْ] ⁽¹⁾ سَمِعَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَثَابَ عَلَيْهِ ، فَرَجَعُوا
حِينَئِذٍ إِلَى دِيْنِهِمْ مِنْهُ . وَكَانَ لِعَمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ ، كَبِيرِ قُرَيْشٍ لَذَلِكَ الْعَهْدِ ، مَقَامَاتٌ
فِيهِ عَالِيَةٌ وَطَبَقَةٌ مَرْتَبَعَةٌ ، وَكَانَ كَثِيراً مَا يَعْرِضُ شَعْرَهُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ، فَيَقْفُ 15

(1) من ع ، وفي بقية الأصول : و .

(1) يُنْظَرُ الْبُخَارِيُّ (3212) وَمُسْلِمٌ (2485) فِي قَوْلِهِ لِحَسَانٍ : "اللَّهُمَّ أَتَيْدُهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ" . وَقَدْ أَلْقَى بِرُودِهِ عَلَى
كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ وَهُوَ يَلْقَى قَصِيدَتَهُ الشَّهِيرَةَ : بَانَتْ سَعَادُ .

لاستماعه مُعْجَباً به. ثم جاء من بعد ذلك الملكُ الفُخْل والدولةُ العزِيزَةُ، فتَقَرَّبَ إليهم العربُ بأشعارهم يمتدِّحونهم بها، ويُحِيزُهم الخلفاءُ بأعظمِ الجوائزِ، على نسبةِ الجودةِ في أشعارهم ومكانهم من قَوْمهم، ويَحْرِصُونَ على استهداءِ أشعارهم، يَطْلَعُونَ منها على الآثارِ والأخبارِ واللُّغَةِ وشَرَفِ اللِّسانِ والعربِ، ويُطالبُونَ وليدَهم بِحِفْظِها. ولم يزلِ الشأنُ هذا أيامَ بني أميَّةٍ وصُدراً من دولةِ بني العباسِ.

وانظر ما نقله صاحبُ العقدِ⁽¹⁾ في مُسامرةِ الرِّشيدِ للأُصمعيّ في باب الشَّعرِ والشُّعراءِ، تجدُ ما كان عليه الرِّشيدُ من المعرفةِ بذلك والرُّسوخِ فيه، والعنايةِ بانْتِحالِه، والبصرِ بِحَيْدِ الكلامِ ورَدِيئِه، وكثرةِ مُحْفَوظِه منه.

ثم جاء خَلْفٌ من بَعْدِهِم لم يكن اللِّسانُ لسانَهم من أَجْلِ العُجْمَةِ وتَقْصِيرِها باللسانِ، وإنَّا تعلَّمُوهُ صناعةً. ثم مدَحُوا بأشعارهم أمراءَ العَجَمِ الَّذِينَ لَيْسَ اللِّسانُ [شأنهم]⁽¹⁾، طالبينَ معروفهم فقط، لا سِوَى ذلك من الأغراضِ، كما فعله حَبِيبُ والبُخْترِيُّ والمُتَنَبِّي وابنُ هانِي ومن بَعْدَهُم إلى هَلَمْ جَرّاً. فصار قَرَضُ الشَّعرِ في الغالبِ إنَّما هو للكُذْيَةِ والاستِجْداءِ، لذهابِ المنافعِ الَّتِي كانت فيه للأوَّلِينَ، كما ذكرناه. وأَيْفَ منه لذلك أَهلُ الهِمَمِ والمراتبِ من المتأخِّرينَ، و[تَقَلَّبَ]^(ب) الحالُ فيه، وأَصْبَحَ تَعاطِيهِ هُجْنَةً في الرِّياسَةِ ومَذْمَةً لأهلِ المناصبِ الكُبَرَى. والله مقلبُ اللَّيْلِ والنَّهارِ.

(أ) ط ج ي : لهم، وكانت كذلك في ع، ثم غُذِلَتْ (ب) كانت في الأصل ع: ونَقِيَ، وعنها نقلت بقية النسخ، ثم غُيِّرَتْ في ع إلى ما أثبتناه .

(1) العقد الفريد 5 : 309 - 317 .

[416ب] 60 / (1) فصل، في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد

اعلم أن الشعر لا يختص باللسان العربي فقط، بل هو موجود في كل لغة، سواء كانت عربية أو عجمية. وقد كان في الفرس شعراء، وفي يونان كذلك، ذكر منهم أرسطو في كتاب المنطق، له، أومتيش⁽¹⁾ الشاعر، وأثنى عليه. وكان في خير أيضاً شعراء مقدّمون.

5

ولما فسد لسان مضر ولغتهم التي دوت مقاييسها وقوانين إغرابها، واختلفت اللغات من بعدهم بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة؛ فكانت لجيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الإغراب جملة، [و]^(ب) في كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات. وكذلك الحضرة، أهل الأمصار، نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الإغراب وأكثر الأوضاع والتعاريف، وخالفت أيضاً لغة الجيل من العرب لهذا العهد. واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق؛ فلاهل المشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره، وتخالفت أيضاً لغة أهل الأندلس وأمصاره.

ثم لما كان الشعر موجوداً بالطبع في أهل كل لسان، لأن الموازين على نسبة واحدة في أعداد المتحرّكات والسواكن وتقابلها، موجودة في طباع البشر، فلم يهجر

15

(1) سقطت من ج (ب) سقط من ط ج ي .

(1) ابن رشد : تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الجدل: 408، منطق أرسطو 3: 698، فن الشعر، لأرسطو، ترجمة إبراهيم حمادة 65 .

الشَّعْرُ بِفَقْدَانِ لُغَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ لُغَةُ مُضَرَّ الَّذِينَ كَانُوا خِوَلَهُ، وَفَرَسَانِ مَيْدَانِهِ، حَسْبَمَا
اشْتَهَرَ بَيْنَ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ، بَلْ كُلُّ جَيْلٍ وَأَهْلُ كُلِّ لُغَةٍ مِنَ الْعَرَبِ الْمُسْتَعْجِمِينَ وَالْحَضَرَ
أَهْلِي الْأَمْصَارِ، يَتَعَاطُونَ مِنْهُ مَا يُطَاوِعُهُمْ فِي اشْتِحَالِهِ وَرَضْفِ بِنَائِهِ عَلَى مَهْنَعِ كَلَامِهِمْ.
فَأَمَّا الْعَرَبُ، أَهْلُ هَذَا الْجَيْلِ الْمُسْتَعْجِمِينَ عَنْ لُغَةِ سَلَفِهِمْ مِنْ مُضَرَّ،

5 فيَقْرِضُونَ الشَّعْرَ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي سَائِرِ الْأَعَارِضِ / عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ لِسَلَفِهِمْ الْمُسْتَعْرِبِينَ، [1417]

وَيَأْتُونَ مِنْهَا بِالْمَطَوَّلَاتِ، مُشْتَمِلَةً عَلَى مَذَاهِبِ الشَّعْرِ وَأَغْرَاضِهِ،^(أ) مِنَ النَّسِيبِ
وَالْمَدْحِ وَالرِّثَاءِ وَالْهَجَاءِ، وَيَسْتَطْرِدُونَ فِي الْخُرُوجِ مِنْ فَنٍّ إِلَى فَنٍّ فِي الْكَلَامِ. وَرُبَّمَا هَجَمُوا
عَلَى الْمَقْصُودِ لِأَوَّلِ كَلَامِهِمْ. وَأَكْثَرُ انْتِدَائِهِمْ فِي قِصَائِدِهِمْ بِاسْمِ الشَّاعِرِ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ يَنْسُبُونَ. وَأَهْلُ الْمَغْرِبِ مِنَ الْعَرَبِ يُسَمُّونَ هَذِهِ الْقِصَائِدَ بِالْأَضْمَعِيَّاتِ، نِسْبَةً
إِلَى الْأَضْمَعِيِّ، رَاوِيَةَ الْعَرَبِ فِي أَشْعَارِهِمْ. وَأَهْلُ الْمَشْرِقِ مِنَ الْعَرَبِ يُسَمُّونَ أَيْضاً
10 هَذَا النَّوعَ مِنَ الشَّعْرِ بِالْبَدَاوِيِّ^(ب). وَرُبَّمَا يَلْحَنُونَ فِيهِ الْحَنَانُ بِسِيطَةٍ لَا عَلَى طَرِيقِ
الصَّنْعَةِ الْمَوْسِيقَارِيَّةِ، ثُمَّ يَعْتَوْنَ بِهِ. وَيُسَمُّونَ الْغِنَاءَ بِاسْمِ الْحَوْرَانِيِّ، نِسْبَةً إِلَى حَوْرَانَ:
مِنْ أَطْرَافِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ، وَهِيَ مِنْ مَنَازِلِ الْعَرَبِ الْبَادِيَةِ وَمَسَاكِينِهِمْ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ.
وَلَهُمْ فَنٌّ آخَرٌ، كَثِيرُ التَّدَاوُلِ فِي نَظْمِهِمْ، وَيَجِيئُونَ بِهِ مُعْضِناً عَلَى أَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ،
يُخَالَفُ آخِرُهَا الثَّلَاثَةَ الْأُولَى فِي رَوِيَّةِ، وَيَلْتَزِمُونَ الْقَافِيَةَ الرَّابِعَةَ فِي كُلِّ بَيْتٍ إِلَى آخِرِ
15 الْقَصِيدَةِ، شَبِيهاً بِالْمَرْبَعِ وَالْمُخَمَّسِ الَّذِي أَحَدَثَهُ الْمَوْلَدُونَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ. وَلِهَؤُلَاءِ الْعَرَبِ
فِي هَذَا الشَّعْرِ بِلَاغَةٌ فَائِقَةٌ، وَفِيهِمُ الْفُحُولُ وَالْمُتَأَخَّرُونَ عَنْ ذَلِكَ.

(أ) إِلَى هُنَا تَوَقَّفَ نَسْخَةُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ "ع" (عَاطِفُ أَفْنَدِي) لَضِياعِ الْكَرَاسِ الْأَخِيرِ مِنْهَا. انْظُرْ مَقْدَمَتَنَا لِلْعَبْرِ 1: 48، وَتَسْتَمِرُّ
الْمُقَابَلَةُ عَلَى ثَلَاثِ نَسَخٍ فَقَطْ، هِيَ ط ج ي (ب) ج: الْبَدَاوِيُّ.

والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد، وخصوصاً علوم⁽¹⁾ اللسان العربي،
 [يستنكر]^(ب) هذه الفنون التي لهم إذا سمعها، ويمجّ نظمهم إذا أنشد، ويعتقد أن
 ذوقه إنما نبأ عنها لاستهجانها وفقدان الإغراب منها. وهذا إنما أتى من فقدان الملكة
 في لغتهم. فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم، لشهد له ذوقه وطبعه ببلاغتها إن كان
 سليماً من الآفات في فطرته ونظره. وإلا فالإغراب لا مدخل له في البلاغة، إنما
 5 البلاغة: مطابقة الكلام للمقصود ومقتضى الحال / من الوجود فيه، سواء كان الرفع
 دالاً على الفاعل، والتصبُّ دالاً على المفعول، أو بالعكس. وإنما يدلُّ على ذلك
 قرائن الكلام، كما هو في لغتهم هذه؛ فالدلالة بحسب ما يضطلع عليه أهل الملكة.
 وإذا عُرف اصطلاح في ملكة واشتهر، صحت الدلالة، وإذا طابقت تلك الدلالة
 للمقصود ومقتضى الحال، صحت البلاغة، ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك.
 10 وأساليب الشّعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه، ما عدا حركات
 الإغراب في أواخر الكلمات، فإنَّ غالب كلماتهم موقوفة الآخر؛ ويتميّز عندهم الفاعل
 من المفعول، والمبتدأ عن الخبر بقرائن الكلام، لا بحركات الإغراب.
 فمن أشعارهم⁽¹⁾ على لسان الشّريف ابن هاشم، ينيكي الجازية بنت سرحان،
 15 يذكر ظنّها مع قومها إلى المغرب:

(أ) ج: علم (ب) طي: يستنكرون

(1) التزمنا في كتابة هذه الأشعار غير المعربة التي أوردها المؤلف في هذا الفصل، الرّسم الذي كتبت به،
 والتقيّد بالحركات التي ثبتت عليها في الأصول.

..... الشريف ابن هاشم على

نَقَرَ لِلْإِعْلَامِ أَيْنَ مَا رَأَتْ حَاطِرُ

وَمَاذَا شَكَاتِ الرُّوحُ مِمَّا طَرَا لَهَا

تَحْسُ أَنْ قِطَاعاً مَازِي ضَهْرَهَا

5 وعادت كما خواره في يد غاسل

يَجَابِدُوهَا^(أ) اثْنَيْنِ وَالْفَرْعَ بَيْنَهُم

وَجَاتِ دُمُوعِي ذَارِفَاتٍ لَكِنَهَا

تَدَارِكُ مِنْهَا الْجَمَّ حَذَرًا وَزَادَهَا

نَضَبُ مِنَ الْقِيَعَانِ مِنْ جَانِبِ الصِّفَا

10 هذا الغنى مني تسابيت غزوة

وَنَادَى الْمُنَادِي بِالرَّحِيلِ وَشَوَّزُوا

وَسَدًّا لَهَا [الْأَزْبَادُ يَا بَنُ غَانِمٍ]^(ب)

/ وَقَالَ لَهُمْ حَسَنُ بْنُ سِرْحَانَ غَزُّوا

وَيَرْكُضُ وَبِنْدَهُ بَيْنَهَا بِالشَّابِجِ

15 عذرنِي^(ج) زِيَّانُ السَّمِيخِ ابْنُ عَابَسَ

عَذَرَنِي وَهُوَ زَعْمًا صَدِيقِي وَصَاحِبِي

وَزَجَّعَ يَقُولُ لَهُمْ بِلَادُ ابْنِ هَاشِمَ

إلى طرا كبد شكّت من زفيرها

يَرِدُ غَلَامُ الْبَدْوِ يَلُوى عَصِيرَهَا

غَدَاتُ وَزَايِعُ تَلَفَ اللَّهُ جَبِيرَهَا

بَشَّرَطُوا هَذَا وَصَافِي ذَكِيرَهَا

على مثل شوك الطلح عَنَقُوا نَشِيرَهَا

على شوكو لَعَدُوا بَقَايَا حَرِيرَهَا

يَسِدَيْنِ دَوَارِ السَّوَانِي يَسِيرَهَا

مُزُونِ تَجِي مَثْرَكِبًا مِنْ صَبِيرَهَا

عُوفًا وَتَحْجَازُ الْبَرْقِ فِي غَزِيرَهَا

نَاصَتْ مِنْ بَغْدَادِ حَتَّى فَقِيرَهَا

وَعَرَجَ عَارِهَا عَلَى مُسْتَعِيرَهَا

على ائِدَيْنِ مَاضِي بِنِ مَقَرَّبَ يَتِيرَهَا

[1418] ^(ج) وَسَوَّقُوا التَّجْوَعُ إِنْ كَانَ أَنَا هُوَ غَفِيرَهَا

وَبِاللَّيْنِ لَا تَحْجُزُوا فِي مُغِيرَهَا

وَمَا كَانَ يَرْضَى زَيْنَ جَمِيرٍ وَمِيرَهَا

وَأَنَا لِيَهْ مَا مَنَ دَرَقَتِي مَا نَدِيرَهَا

بَخْبَرِ الْبِلَادِ الْمُغَطَّشَا مَا نَجِيرَهَا

(أ) ي : يجابذوها (ب) من ظ ي، وفي ج: الآن يا ديار ابن غانم (ج) سقط حرف العطف من ج (د) الإجماع من ج، وأهملت في ظ ي .

حراماً عليّا باب بغداد وارضها داخل ولا عاود ركيزي نقيرها
نصدق روجي عن بلاد ابن هاشم على الشمس أو نزل القضا من هجيرها
وباتت نيران العدارى قوادخ يلوذو بحرجان يَشُدُّوا أسيرها

ومن قَوْلهم في رثاء أمير زَناتة ، أبي سُعدى اليُفْرَنيّ ، مُقارِعهم بإفريقيّة

5 وأَرْض الزَّاب. وورثاؤهم له على طريق التَّهْكُم:

تقول نَقاة الخد سُعدى وهاضها لما⁽¹⁾ في البُطعون الباركين عويل
يا سائل عن قَبْرِ الزَّناتي خليفه خُذْ النِّغْت مني لا تكون هبيل
أراه بَعـالي واذران وفوقه من الرِّيط عيساوي بناء طويل
أراه بميل الغور من شارع النِّقا به الواد شرقا واليراغ دليل
يا لهف كبده الزَّناتي خليفه 10 وقد كان لاغقاب الجياد شليل
قتيل فتى الهيجا ذياب بن غانم جراحاً كأفواه المزاذ تسيل
أيا جازياً مات الزَّناتي خليفه لا ترحل إلا أن تَريد رحيل
ألا واش رَحَلناكَ ثلاثين مرّة وعشراً وستاً في النهار قليل

ومن قَوْلهم على لسان الشَّريف ، يذكُر عتاباً وقع بَيْنه وبين ماضي بن مُقَرَّب:

تبدا ماضي الخيـار وقال لي 15 أَشكر ما نحنا عليك رضاش
أشكرا غدا لا تزيد ملامه لحد^(ب) ومن عَمَز بلادَه عاش

(1) ج: لها (ب) ج: لنجد .

باعَدتنا يا^(أ) شُكر ودانيت غيرنا وقربت عُزبا لبشين^(ب) قماش
/ نحن غدينا نصدّوا ما قضا لنا كما صادف طعم الزباد طشاش [418ب]
إن كان بنت الشّول تلقح بارضكم ^(ج) هنا العرب ما ردنا لهن ضناش^(ج)

ومن قولهم في ذكر رختهم إلى المغرب، وعَلَّهم زَناتة عليه:

5 وأيُّ جميلٍ ضاع لي في ابن هاشم وأي رجال ضاع قبلي جميلها
لقد كنت أنا^(د) وإياه في زهو بيننا عناني بحجه ما [غباني]^(ه) دليلها
وعدت لکني شارباً من مدامه من الخمر قهوا ما قدر من ميلها
أو مثل شمطا مات مضمون كبدها غريبا وهي مدوخاً عن قبيلها
أتاها زمان السوء حتّى تدوخت وهي بين غربا غافلا عن نزيلها
10 لذلك^(و) أنا ممّا لجالي^(ز) من الوجا شاكي بكبداً باذيهما زعيلها
وامرئٌ قومي بالرحيل وبكروا وقواؤ شداد^(ح) الحوايا حميلها
قعَدنا^(ط) سبعةَ يّامٍ مَخِيوش نَجَعنا والبدو^(ي) ما ترفع عموداً بقي لها
تظل على اخدابِ الشايا نوازي تظل الجرا فوق النضا واتصيلها

ومن شعر سلطان بن مظفر بن يحيى، من الدّواودة، إحدى بطون رياح
15 وأهل الرّياسة فيهم، يقولها وهو معتقلاً بالمهدية، في سجن الأمير أبي زكرياء ابن أبي
حفص، أول ملوك إفريقية من الموحّدين:

(أ) ج: باعلك شايا (ب) ي: لبشين (ج) ج: هنا العرب ما ردنا لهن ضناش (د) ج: ناوياه (ه) ج: غباني (و) ج: كذلك
(ز) ج: لجالي (ح) ي: سداد (ط) ي: فعدنا سبعة يام (ي) ي: اليه وما ترفع عموداً بقي لها .

تقول وفي بَوح الدجا بعدَ وَهْنه
يا من [القلبا] ^(أ) حالف الوجد والأسى
حجازيه بدوييه عرييه
مولعة بالبدو لا تألف القرى
غياث ومشتاها بها كل شتوة
ومرباعها غُشِب الاراضي من الحيا
نشوق تشوق ^(ب) العين مما تداركت
[1419] / وماذا بكث بالما وما ذا تناخطت
كأن العروس البكر لاحت ثيابها
فلاة ودَهْنها واتساع ونيه
ومشروها من محض ألبان شؤلها
تغانت عن الابواب والموقف الذي
سقا الله ألواذ المسيجد بالحيا
مكافئها بالود متني وليتني
ليالي اقواس الصبا في سواعدي
وفرسي عديدا تحت سرجي مشاقه
وكم من رداحا اسهرثي ولم ارى

حراماً على أجفان عيني منامها
وروحاً هيامي طال ما بي سقامها
غداوية ولها بعيداً مرامها
سوا عانك الوغسا يواقي خيامها
محمونة يها ويها غرامها 5
يواقي من الخور الخلايا جسامها
عليها من السحب السواري غمامها
عيون غزار المزن عذبا حمامها
عليها ومن نور الاقاحي خزامها
ومزعا سواماً في مراعي نعامها 10
عتم ومن لحم الجوازي طغامها
يشيب الفتى مما يقاسي زحامها
وتالا ^(ج) ويحيي ما بلا ^(د) من زمامها
ظفرت بأياما مضت في زكامها
إذا قمت لم تخطي من ايدي سهامها 15
زمان الصبي شرخا ويدي لجامها
من الخلق ابي من نظام ابتسامها

(أ) من ج، وفي ط: لبا (ب) التاء محملة في ج (ج) كذا يعني: وتالي (د) كذا يعني: ما بلن .

ومك غيرها من كاعباً مرجئة
 وصفقت من وجدي عليها طريجة
 وناراً بحطب^(ب) الوجد توهج في الحشا
 أبا من^(ج) هذا إلى متى
 5 ولكن ريت الشمس تكسف ساعة
 بنود ورايات من السعد اقبلت
 الا واعلي بالعين اطعان عزوتي
 بجرعا عيّاث الفرق من فوق شامس
 إلى منزل بالجعفرية للوى
 10 ونلقى سراة من هلال بن عامر
 بهم تضرب الامثال غرب ومشرق
 عليهم ومن هو في جباهم^(هـ) تحية
 / أدع ذا ولا تأسف على سالفاً مضى
 في ذي الدنيا ما دام لاحد دوامها [419ب]

15 ومن أشعار المتأخرين منهم، قول خالد بن حمزة بن عمر، شيخ الكُعُوبِ،
 من أولاد أبي الليل، يعاتب أقتالهم^(د) أولاد مهلهل، ويُجيبُ شاعرهم شبل بن
 منكيانة بن مهلهل، عن أبياتٍ فخرَ عليهم فيها بقومه:

يقول وذا قول المصاب الذي نشأ قسوارع قيفان يُعاني صعابها

(أ) ج: دماها (ب) ظ: بحطب (ج) يفاض في ج ي، وكبت متضلة في ظ (د) قرأ في ج: حشامها (هـ) ج: جباهم
 (و) ي: لغنيا (ز) جاءت معلقة في ظ ي، ويمكن أن قرأ: أقبالهم .

يرج بها جأؤ المصاب إلا انتقا
 محبرة مختارة من نشادنا
 مغرلة عن ناقدأ في غصونها
 هيض^(١) تذكاري بها يا ذوي الندى
 أشبل جثثا من حباك طرايف
 فزت ولم تقصّر ولا انت بعام
 لقولك في أمّ [الميتين]^(ب) بن حمزة
 أما تعلم أنّه قامها بعدما لقا
 شهاباً من اهل الأمر يا شبل خارق
 سواهر طفاها وضرمّت بعد طقيّة
 وضرمّت بعد الطفتين إلّ صحّ
 كما كان هو يطلب على ذا تجنّب
 وبان لوالي الراي في ذا انشباخها

ومنها في العتاب:

وليدًا تفانئتوا أنا أغنى لانني
 عليّ ونا ندفع بها كل مبضع
 فإن كانت الأملاك نغت عرايش

فنونا من انشاد القوافي عداها
 تجدني ليا نام الوشا ملتها بها
 محكمة القيفان دابي وذائبها
 قوارع من شبل وهذي جوابها
 5 قراخ يرج الموجهين الغنا بها
 سوا قلت في جمهورها ما اعلمها
 حامي حماها عاد باني خرابها
 رصاص بين يحيى وعلاق داهها
 وهل زيت من جا للفلق واصطلاها
 10 وأثنا طفاها جاسراً لا يهابها
 لفاس الي بيت المنا يقتدا بها
 رجال بني كعب الذي يتقا بها
 قصارا وهي عن كبر الاشيا يهابها

15 غنيت بلاق الثنا واعتصاها
 بلشيف تثشاش العدا من رقاها
 علينا بأطراف الثني اختطابها^(ج)

(١) ي : هيض (ب) من ج. وفي ي: الميتين (ج) ج ي: القني احتطابها .

/ ولا يقيدها إلا رهاف وذُبُلُ
بني عمّنا ما نرتضي الذلّ غلّمه
وهي علما بأن المنايا تغيلها
ومنها في وُصفِ الطعائن:

5 بَطْنٌ قَطُوعَ البِيدِ لَا نَخْتَشِي الْعِدَا
تَرَى الْعَيْنُ بَيْنَهَا قُلَّ لَشْبِلٍ عَرَايِفُ
تَرَى أَهْلَهَا غَطَا الصَّبَاحِ أَنْ يَفْلَهَا
لَهَا كُلُّ يَوْمٍ فِي الْأَرَامَةِ قَتَايِلُ

ومن قَوْلهم في الأمثالِ الحِكْمِيَّة:

10 وَطَلَبُكَ فِي الْمَنْعُوعِ مِنْكَ سَفَاهَةٌ
إِلَّا رَأَيْتَ نَاسًا يَغْلِقُوا عَنْكَ بَابَهُمْ
وَصَدَّكَ عَمَّنْ صَدَّ عَنْكَ صَوَابُ
ظَهْوَرِ الْمَطَايَا يَفْتَحُ اللَّهُ بَابَ

ومن قول شبّل يذكر انتساب الكعوبِ إلى تَرْجَمَ:

لَشَيْبٍ وَشُبَّانٍ مِنْ أَوْلَادِ تَرْجَمَ
جَمِيعِ الْبَرَايَا تَشْتَكِي مِنْ ضُهَاذِهَا

15 ومن قوله^(١) يعاتب إخوانه في مَوالاةِ شَيْخِ الْمُؤَحِّدِينَ، أَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ تَافَرَاكِينَ
الْمُسْتَبَدِّ بْنِ تَوْسٍ عَلَى سُلْطَانِهَا، مَكْفُولُهُ أَبِي إِسْحَاقَ بْنِ السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى، وَذَلِكَ فِيهَا
قَرَّبَ مِنْ عَصْرِنَا:

(١) العائد لخالد بن حمزة بن عمر -

يقول بلا جمل فتى الجود خالد
مقالة خبر ذات ذهن ولم يكن
تهجست معنى قافها لا الحاجة
وكت بها كندي^(١) وهي نعم صاحبة^(ب)
تقوّهت بادي شرحها عن مآرب
بني كعب ادنى الأقربين لدننا
/ جرى عند فتح الوطن منا لبعضهم
وبعضهم ملنا له عن خصمه
وبعضهم موهوب من بعض ملكنا
وبعضهم جانا حويج تسمحت
وبعضهم بطار فينا بسوة
رُجع ينتهي ما تفهنا قبيحة
وبعضهم شاكى من اوغاد قاذر
فصنناه عنه واقتضا منه مؤرد
ونحن على ذا في مدى نطلب العلى
وحزنا حياء وطن ترشيش بعد ما
ومهد من الأملاك ما كان خارج
برذع قروم من قروم قبيلنا

[420ب]

مقالة قوال وقال صواب
هريجا ولا فيما يقول ذهاب
ولا هزجا ينقاد منه معاب
حزينة فكر والحزين يصاب
جرت من رجال في القبيل قراب^(ج)
5 بني عم منهم شايب وشباب
مُصافاة ود وانسياغ جناب
كما تعلموا قولي بعينه صاب
جرا بمرنا^(د) وخذ الظهير كتاب
10 خواطر منا للجزيل وهاب
نفهنا^(ه) حتى ما عنا به ساب
مرارا وفي بعض المزارع يهاب
غلق عنه في احكام السقايف باب
على كزه مولى [اليالقي ورباب]^(و)
15 لهم ما حططنا للفجور^(ز) نقاب^(ح)
نفقنا عليها سبقا ورقاب
عن احكام والى امرها له ناب
بني كعب لاواها الغريم وطاب

(١) في حاشية ج ويخط النسخ ابن الفخار: أي يستخرج الكثر (ب) ي: ضائفة (ج) في الحاشية: أقارب (د) من ظي ، وفي ج: بمرنا (ه) ج: لفهنا (و) حاشية ج ي: رجلان من أكابر دولة تراكين (ز) ي ج: الفخور (ح) ج: النقاب: اللثام .

جزينا بهم عن كل تاليف في العدى
 إلن عاد من لا كان منهم بهمة
 وركبوا السبايا المثنات من اهلها
 وساقوا المطايا بالشر لا نسؤله^(١)
 5 وكبسوا من اصناف السعيا دخاذ
 وعادوا نظير البرمكيين قبل ذا
 وكانوا لنا دزعا لكل مهمة
 خلوا النار في جنح الظلام ولا اتقوا
 كسوا الحي جلباب البهيم لستره
 10 كذلك منهم حابس ما درا النبا
 / يظن ظنونا ليس نحن من اهلها
 خطا هو ومن واتاه في سوء ظنة
 نوؤا غزوتي ان الفتا بو محمد
 وبرجت الاوغاد منه ويحسبوا
 15 جزوا يطلبوا تحت السحاب شرايع
 وهو لو عطا ما كان للراي عارف
 وان نحن ما نستاملوا عنه راحة
 وأن وطا ترشيش يضيق وسعها

(١) ي : نسؤله (ب) ظ : يعلوها .

وقمنا بهم عن كل قيد مناب
 رفهما وخيرائو عليه خصاب
 ولبسوا من انواع الحرير ثياب
 جماهير ما [يغلو بها]^(ب) بحلاب
 ضخم لحزات الزمان تصاب
 والاهلالا في زمان دياب
 إلن بان من نار العدو شهاب
 ملامه ولا دار الكرام عتاب
 وهم لو دروا لبسوا قبيح جباب
 وذهل حكمي له ان عقله غاب
 421] تمنى يكن له في السماح شعاب
 بالاثبات من ظن القبايح عاب
 وهوب للاف بغير حساب
 بروجة يا يحيى بروج سحاب
 لقوا كل ما يستاملوه سراپ
 ولكن في قلّة عطاه صواب
 وأئة بسهام التلاف مصاب
 عليه وتمسى بالفزوع كراب

وأثمة منها عن قريب مُفاصل
 وعن فانتات الطرف غيد غوانج
 يتيه إذا تاهوا ويصبوا إذا صبوا
 يضلوه من عدم اليقين وربما
 بهم جاز له زمناً وطوع أوامر
 حرام على بن تافراكين ما مضى
 وإن كان له عقلاً رجيح وفطنة
 وما البدا لا بعدها من مباعل
 ويحمر بها سوق علينا سلاعه
 يمسي غلام طالب ربح ملكنا
 يا وأكلين الخبز تبغوا إدامه
 خروج عنا زهو لها وقباب
 ربوا خلف استار وخلف حجاب
 بحسن قوائين وصوت رباب
 يطارح حتى مالكته شاب
 ولذة مأكول وطيب شراب⁵
 من الودّ إلا ما بُدِل بخراب^(أ)
 يلجح في اليم الغريق غراب
 كبار الّن تبقا الرجال كباب
 ويحمار^(ب) مغصوب القنا وجعاب
 ندوما ولا يمسي صحيح بناب¹⁰
 غلظتوا^(ج) ادمتوا في السموم لباب

ومن شجر عليّ بن عمر بن إبراهيم، من رؤساء بني عامر لهذا العهد،
 إحدى بطون زُغبة، يُعَاتَب بني عَمّه المتطاولين إلى رياسة يثته:
 ابابات (كذا) عذبة من قريض كلام⁽¹⁾

(أ) ج ي: بحراب (ب) كذا في ط ج، وفي ي: ويحي ... (ج) في ط: وغلظتو.

(1) كذا وضع هذا العجز (؟) - ولا صدر له - في أصول المؤلف الثلاثة: ط ج ي، وذلك على آته من القصيدة التالية له. ويظهر آته في الأصل استمرار ثري للفقرة السابقة، حصل فيه بعض التحريف من النسخ الأول، وربما كان يُقرأ: يُعَاتَب بني عمّه... إلى رياسة يثته، بآيات عذبة من قريض الكلام. ثم بدأ القصيدة التي استأثرت - دون غيرها - بعناية ابن خلدون، فشرح بعض كلماتها الغامضة في حواشيه، كما ذكره. وقد أوردت هذه الإفادات اللغوية سُختا ج ي وسقطت من ط، فأثبتناها في فروق النسخ.

/ محبّة كالدر في يدين^(أ) صانع
 انا جبهها مني تسايت^(ج) ما طرا
 غدا منه لام الحي حيّين وانشطت
 لكن ضميري يوم بان بهم النيا
 وإلا كما ابراض البهامي^(د) قوادح 5
 وإلا لكنّ القلب في يدين قابض
 ليا^(و) قلت نعفا من شقا البين زارني
 الا يا ربوعا كان بالامس عامر
 وغيداً تداني للخطى في ملاعب
 ونعم تشوق الناظرين التامة 10
 وعذف^(ط) دياستها يروعوا مريها
 واليوم ما بيها سوى البوم حولها
 وقفت بها طورا طويل نسالها
 ولا صحّ لي منها سوى وحش خاطري
 ومن بعد ذا تدي^(ل) لمنصور بو علي 15
 وقولوا لوي يا بُو الوفا كلح راكم

ليا^(ب) كان في سلك الحرير نظام [421ب]
 ويئنا بذا تركّ الظعون قسام
 عصاها ولا صبنا عليه حكام
 تبرم على شوك القتاد برام
 لهم بين عوج الكففات ضرام
 اتاهم بمنشار القطيع غشام^(ه)
 إذاه ينادي بالفراق وحام
 بحبي وجلّة والقطين لمام
 دجا الليل فيهم ساهراً وينام
 ليا ما بدا من مُهزّق^(ز) وكظام^(ح)
 وأطلاؤ^(ي) من سرب المها ونعام
 يتوخوا على اطلال لها وحتم^(ك)
 بعين سخيّفا والدموع جام
 وسقي من اسباب عرفت وهام
 سلام ومن بعد السلام سلام
 دخلتوا بحور غامقات دهام

(أ) كذا في ط ج، وفي ي: يدي، وشرحت في حاشية ج: يذني (ب) في حاشية ج: إذا (ج) في حاشية ج: أسباب
 (د) في حاشية ج: شرر الحداد (ه) في حاشية ج: جاهل (و) في حاشية ج: إذا (ز) في حاشية ج: السهل (ح) في
 حاشية ج: الثنايا (ط) في حاشية ج: غراب (ي) في حاشية ج: جماعات (ك) في حاشية ج: الكذى المستندة (ل) في
 حاشية ج: أي تحمل .

زواجر ما توقاس بالعود وانما
ولا تستوا فيها قياساً يذلكم^(أ)
وعانوا على هلكاتكم في ورودها
يا غزوتا^(ب) ركبوا الصللا ولا لهم
الا عناهم لو ترى كيف رايم
خلوا^(د) الغبا ونغاؤ في مرقب العلا
/ وحق النبي والبيت واركانه الذي [422]
لبد الليالي بيه إن طالت الحيا
وان بدّها تبلى البوادي عكايف
وكل مشاقا^(ز) كالشداياة^(ح) عابر^(ط)
وكل كيتي^(ي) مكنفض^(ك) عَضّ نابه
وتحبّل بنا الارض العقيمة مُدّة
بالابطال والقود الهجان وبالقنى
نحجزها وانا عقيد^(م) نقودها
وحنا كما اضراش^(ن) البزا في اثر نجعكم
متى كان بوم^(س) الفحص يا مير بو علي

لها سيلات على الفضا والاكام
وليس البحور الطاميات تُقام
من الناس عُدمان العقول ليام
قرار ولا دنيا لهـن دوام
مثل سَدَوْ زَفَلًا^(ج) ما لهـن تمام 5
مواضع ما هيا لهم بمقام
وما زارها في كل دهر وعام
تذوقون من خُط^(هـ) الشكاع^(و) مدام
بكل رديني مطرباً وحسام
عليها من اولاد الكرام غُلام 10
يَظَلُّ يصارع في العنان لجام
وتولدنا من كل ضيق كظام^(ل)
لها وقت وجبات العدو زحام
وفي سنّ رمحي للحروب عَلام
حتى تقاضوا من ديون غرام 15
يلقي سغابا صايدين قُرام^(ع)

(أ) ج: بدلكم (ب) حاشية ج ي: أبني أبينا (ج) ج ي: خرقاً (د) ج: خلق (هـ) ج ي معناه: المر (و) ج ي بمعنى: الشراب (ز) ج ي: الفرس (ح) حاشية ج ي: الرياح (ط) ج ي: سابق (ي) ج ي: أحمر (ك) حاشية ج ي: مختوم (ل) حاشية ج ي: الشايبا (م) ج ي: عقيد القوم: أميرهم (ن) ج ي: شرار البراة (س) ج ي: طائر (ع) ج ي: شديد الشهوة إلى اللحم.

كذلك بوحمو^(١) اشترى بغت داخض
 وخلا رجالا لا يرى الضيم جازهم
 الا يقيموها وتقديو^(ج) شؤزهم^(د)
 كم ثار طعنهما على البدو سائق
 5 في اثار قطاع الصوا^(ز) بو مياعل
 وم ذابحيوا في اشره من غنيمه
 وان جاؤ يخفوه الملوكة ويتغوا
 عليكم سلام الله من لسن فاهم^(م)
 وخلي الجياد^(ب) الغاليات تسام
 ولا يخنعوا يرجى العدو دمام
 وهم عز زغبة^(ه) دايماً ودوام
 بين صحاصيح وبين حُتام^(و)
 ليا^(ح) ناض^(ط) ترك الظاعين رمام
 حليف الشا سجاج^(ي) كل غيام^(ك)
 غدا طعنه يحذى^(ل) عليه قتام
 ما غنت ورقا وناح حمام

ومن شفر عرب البرية بالشام، ثم نواحي^(ن) حوران، لامرأة قُتِلَ زوجها،
 10 وبعثت إلى أحلافه من قيس [تغريم]^(س) بطلب ثأره:

تقول فتاة الحي أم سلامة
 تبات طوال الليل ما تالف الكرى
 / على ما جرى في دارها وعيالها
 فقدتوا شهاب الدين يا قيس كلكم
 بعين اراع الله من لا رثا لها
 موجعه كن السفا في مجالها^(ع)
 بلحظة عين غير البين حالها [422ب]
 وغتوا عن اخذ الشار ماذا وفا لها

(١) حاشية ج ي: سلطانهم ملك تلمسان والمغرب الأوسط (ب) ج: العباد (ج) ج ي، القدا: الاستقامة (د) ج ي: الشؤز:
 الجهة المقصودة (ه) ج ي: قبيلة من بني هلال (و) ج ي: الكدى (ز) ج ي: جمع صوة وهي القصر (ح) ج ي: إذا
 (ط) ج ي: ركب للغزو (ي) ج: خارق السراب، وفي ي: خارقه (ك) ج ي: السراب (ل) ج ي: يسير (م) كذا في ظ
 ي، وفي ج: فاهم (ن) ي: بنواحي (س) من ج ي، وفي ظ: تغريم (ع) ج ي: مجالها.

أنا قلت إذا رد الكتاب يسرني وتبرد من نيران قلبي ذبالها
أيا حين تسريح الذوايب واللحا وبيض العذارى ما حميتوا جمالها

وأمثالُ هذا الشعرِ عندهم كثيرٌ، وبينهم متداولٌ. ومن أحيائهم من يُنتِجُهُ،
ومنهم من يَسْتَنكِفُ عنه، كما بَيَّنَّاهُ في فَضْلِ الشعرِ، مثل الكثير من رُؤساءِ رِياحِ
وَرُغْبَةِ وَسَلِّمْ لهذا العهدِ، وأمثالهم.

الموشحات والأنزجال للأندلس⁽¹⁾

وأما أهل الأندلس، فلما كثر الشَّعرُ في قُطْرهم وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التَّميُّقُ فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم قَتاً منه سَمَوْه بالمُوشَّح، ينظُمونه أشْباطاً أشْباطاً، وأَغْصَاناً أَغْصَاناً، يَكثُرُونَ منها ومن أَعَارِضِهَا الْمُخْتَلَفَةِ، وَيُسَمُّونَ الْمُتَعَدِّدَ مِنْهَا 5 بِنْتاً وَاحِداً، وَيَلْتَزِمُونَ عِدَدَ قَوَائِي تِلْكَ الْأَغْصَانِ وَأَوْزَانِهَا مُتتَالِياً فِيمَا بَعْدَ إِلَى آخِرِ الْقِطْعَةِ. وَكَثُرَ مَا يَنْتَهِي عِنْدَهُمْ إِلَى سَبْعَةِ آيَاتٍ. وَيَشْتَمِلُ كُلُّ بَيْتٍ عَلَى أَغْصَانٍ عِدْدُهَا بِحَسَبِ الْأَغْرَاضِ وَالْمَذَاهِبِ. وَيُنْسِبُونَ⁽²⁾ فِيهَا وَيَمْدَحُونَ، كَمَا يَفْعَلُ فِي الْقَصَائِدِ.

وتجاوزوا في ذلك إلى الغاية، واستنظفوه النَّاسَ، وَحَمَلَهُ الْخَاصَّةُ وَالْكَافَّةُ لِسَهُولَةِ تَنَاوُلِهِ وَقُرْبِ طَرِيقِهِ.

10 وكان المَخْتَرَعُ لَهَا بِجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ، مُقَدِّمُ بْنُ [مُعَاوِي الْقُبَيْرِي]⁽¹⁾ مِنْ شُعْرَاءِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَرْوَانِيِّ. وَأَخَذَ عَنْهُ ذَلِكَ [أَحْمَدُ]^(ب) بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ، صَاحِبُ

(1) في ظي: بن معاوية القُبَيْرِي، وفي ج: بن معاوية البربري، والتصويب من المقتطف 255 وجذوة الحميدي 333 (ب) في الأصول الثلاثة: عبد الله، وأصلح في حاشية ج وعليه صح.

(1) ينقل ابن خلدون أكثر مادة هذا الفصل من مقتطف ابن سعيد، انظر عن ذلك د. عبد العزيز الأهواني: المقتطف من أزهار الطرف، (مجلة الأندلس Al-Andalus المجلد 13 ص 19 - 33، مدريد 1948)؛ ابن خلدون وتاريخ فني التوشيح والزجل. (أعمال مهرجان ابن خلدون، 473 - 487، القاهرة 1962م)، مقدمة المقتطف 22-25، وفي خاتمة رسالة الطنجي للأهواني ص 274.

(2) يشبِّون بالمرأة في شعرهم.

كتاب العقد. ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر، وكسدت موشحاتهما. فكان أول من برع في هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز، شاعر المعتصم ابن ضمادح، صاحب المريعة. وقد ذكر الأعلام البطلوسي أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول: كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله⁽¹⁾:

بَذُرْتُمْ شمسُ ضُحَى غَصْنُ نَقَا مِسْكُ شَمِّ 5
/ مَا أَتَمَّ مَا أَوْضَعَا مَا أَوْرَقَا مَا أَتَمَّ
لَا جَرَمَ مِنْ لَمَحَا قَدْ عَشِقَا قَدْ حُرِمَ

[423]

ورَعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمن الطوائف. وجاء مصلياً خلفه منهم ابن أرفع رأسه، شاعر المأمون بن ذي النون، صاحب طليطلة. قالوا: وقد أحسن في ابتدائه في الموشحة التي طارث له، حيث يقول⁽²⁾:

العودُ قَدْ تَرَمَّ بِأَبَدِ تَلْحِينِ
وَشَقَّتِ الْمَذَانِبَ رِيَاضُ الْبَسَاتِينِ

(1) نصح الطيب 6: 7 (وهو ناقل عن مقدمة ابن خلدون)، ابن سناء الملك: دار الطراز 89 وبه النص التام للموشح.

(2) التفح 6: 7، أزهار الرياض 2: 208 (ونقله عن ابن خلدون)، المقطف 256، عدة الجليس 362 (241) وأورد نص الموشح كاملاً.

وفي انتهائه، حيث يقول:

تَخْطُرُ وَلِشَ تَسْلَمُ عَسَاكَ الْمَأْمُونُ
مَرْوَعُ الْكَتَائِبِ يَحْيَى بْنُ ذِي النَّوْنِ

ثم جاءت الحلبَةُ التي كانت في مُدَّةِ الْمُثَمِّينَ، فظهرت لهم البدائع. وفرسانُ
5 جَلْبَتِهِمُ الْأَعْمَى التُّطَيْلِيُّ، وَيَحْيَى بْنُ بَقِي. وَلِلتُّطَيْلِيِّ مِنَ الْمَوْشَحَاتِ الْمُدْهَبَةِ قَوْلُهُ⁽¹⁾:

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى صَبْرِي فِي الْمَعَالِمِ⁽¹⁾ أَشْجَانُ
وَالرَّكْبُ وَسَطُ الْفَلَاحِ بِالْحُرْدِ التَّوَاعِمِ قَدْ بَانُوا

وذكر غير واحد من المشايخ، أنَّ أهلَ هذا الشأنِ بالأنْدَلُسِ يذكرون أنَّ
جماعةً من الوشَّاحينَ اجْتَمَعُوا فِي مَجْلِسٍ بِإِشْبِيلِيَّةَ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدْ صَنَعَ
10 مَوْشَحَةً وَتَأَنَّقَ فِيهَا، فَتَقَدَّمَ الْأَعْمَى التُّطَيْلِيُّ لِلْإِنْشَادِ، فَلَمَّا افْتَتَحَ مَوْشَحَتَهُ^(ب) الْمَشْهُورَةَ
بِقَوْلِهِ⁽²⁾:

ضَاكٌ عَنْ جُمَانٍ سَافِرٌ عَنْ بَذْرِ
ضَاقَ عَنْهُ الزَّمَانُ وَحَوَاهُ صَدْرِي

(1) فِي الْأَزْهَارِ: الْعَالَمِ (ب) ي: مَوْشَحَهُ.

(1) دِيْوَانُ الْأَعْمَى التُّطَيْلِيِّ 272، التَّفْحُجُ 7: 7، أَزْهَارُ الرِّيَاضِ 2: 208.

(2) دَارُ الطَّرَازِ 32، أَزْهَارُ الرِّيَاضِ 2: 208، التَّفْحُجُ 3: 404، 4: 551، 7: 7.

خَرَّقَ ابْنُ بَقِيٍّ مَوْشَحَتَهُ، وَتَبِعَهُ الْبَاقُونَ.

وَذَكَرَ الْأَعْلَمُ الْبَطْلِيوسِيُّ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ زَهْرٍ يَقُولُ: مَا حَسَدْتُ قَطُّ وَشَّاحاً
عَلَى قَوْلِ إِلَّا ابْنَ بَقِيٍّ حِينَ وَقَعَ لَهُ⁽¹⁾:

أَمَّا تَرَى أَخَذَ فِي مَجْدِهِ الْعَالِي لَا يُلْحَقُ
أَطْلَعَهُ الْعَزْبُ فَأَرَانَا مِثْلَهُ يَا مَشْرِقُ 5

وَكَانَ فِي عَضْرِهِمَا مِنَ الْوَشَاحِينَ الْمَطْبُوعِينَ أَبُو بَكْرٍ الْأَيْبُضُ. وَكَانَ فِي عَضْرِهِم
[423ب] / أَيْضاً الْحَكِيمُ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ بَاجَةَ، صَاحِبُ التَّلَاحِينَ الْمَعْرُوفَةِ.

وَمِنَ الْحِكَايَاتِ الْمَشْهُورَةِ، أَنَّهُ حَضَرَ مَجْلِسَ مَخْدُومِهِ ابْنِ تَيْقَلُوتٍ، صَاحِبِ
سَرَقُشْطَةَ، فَأُلْقَى عَلَى بَغْضِ قَيْنَاتِهِ مَوْشَحَتَهُ الَّتِي أَوَّلُهَا⁽²⁾:

جَرَّرِ الدَّنِيلَ أَيَّاماً جَرّاً وَصَلِ الشُّكْرَ مِنْكَ بِالشُّكْرِ 10

فَطَرِبَ الْمَمْدُوحُ لَذَلِكَ، فَلَمَّا خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ:

عَقَدَ اللَّهُ رَايَةً⁽¹⁾ النَّصْرِ لِأَمِيرِ الْعُلَى أَبِي بَكْرٍ

(1) ج: آية .

(1) أَزْهَارُ الرِّيَاضِ 2: 209، التَّفْحُ 7: 7، وَالْمَوْشَحُ كُلُّهُ فِي دَارِ الطَّرَازِ 86-87، وَنُسِبَ لِلْأَعْمَى التَّطِيلِي،
دِيَوَانُهُ 270-272، وَيَرْجَحُ نَاشِرُ دَارِ الطَّرَازِ نُسْبَتَهُ لِابْنِ بَقِيٍّ، لِتَضَمُّنِهِ مَدْحَ بَنِي الْقَاسِمِ قِضَاءَ سَلَا، الَّذِينَ
اخْتَصَّ بِمَذْهَبِهِمْ .

(2) عِدَّةُ الْجَلِيسِ 161 (106) ، التَّفْحُ 7: 8، أَزْهَارُ الرِّيَاضِ 2: 209، وَأُورِدَ نَصُّهُ ابْنُ الْخَطِيبِ فِي جَيْشِ
التَّوَشِيحِ 123 (90) وَنُسِبَهُ لِيَحْيَى الصَّرِفِيِّ، وَعَلَيْهِ مُسْتَدْرَكُ 285 .

فلَمَّا^(١) طَرَقَ ذَلِكَ التَّلْحِينُ سَمِعَ ابْنُ تَيْفَلَوَيْتَ، صَاحَ: وَاطْرَبَاهُ! وَشَقَّ ثِيَابَهُ
وَقَالَ: مَا أَحْسَنَ مَا بَدَأْتُ وَمَا خَتَّمْتُ! وَحَلَفَ بِالْأَيْمَانِ الْمَغْلُظَةِ لَا يَمْشِي ابْنُ بَاجِهٍ
إِلَى دَارِهِ إِلَّا عَلَى الذَّهَبِ. فَخَافَ الْحَكِيمُ سُوءَ الْعَاقِبَةِ، فَاخْتَالَ بِأَنْ جَعَلَ ذَهَباً فِي
نَعْلِهِ وَمَشَى عَلَيْهِ.

5 وذكر أبو الخطاب بن زُهر^(١) أَنَّهُ جَرَى فِي مَجْلِسِ أَبِي بَكْرٍ بِنُ زُهرٍ ذِكْرُ
أَبِي بَكْرٍ الْأَيْضُ، الْوَشَّاحِ الْمُتَقَدِّمِ الذِّكْرِ، فَغَضَّ مِنْهُ أَحَدُ الْحَاضِرِينَ. فَقَالَ: كَيْفَ
تَغْضُ مِمَّنْ يَقُولُ^(٢):

مَا لَذِّي شُرْبُ رَاحٍ عَلَى رِيَاضِ الْأَقَاحِ

لَوْلَا هَضِيمُ الْوَشَّاحِ إِذَا انْتَشَى فِي الصَّبَاحِ

أَوْ فِي الْأَصِيلِ أَضْحَى يَقُولُ

مَا لِلشَّمُولِ لَطَمْتُ خَدِّي

وَلِلشَّيْءِ هَبَّتْ فَمَالُ

غَصْنُ اغْتِدَالٍ صَمَّهُ بُرْدِي

(١) ج : وطرق ذلك .

(1) كذا في الأصول، وفي المقتطف (مصدر ابن خلدون): أبو الخصيب بن زهر الذي روى عنه الخبر ابن
سعيد (ص 257). ويحيل روزنتال Rozenthal (مترجم المقدمة) 1: 444 (الحاشية 1802) على بحث أ.
هرتمان A. Hartmann (ص 7 الحاشية 1) الذي يرى فيه أن الاسم هو أبو الخطاب بن دحية. ولعله
الأصوب، فقد كان محمد بن عبد الملك بن زهر من شيوخ ابن دحية. وفيات الأعيان 4: 434 (672)،
الوافي بالوفيات 4: 39 .

(2) عُدَّة الجليس 109 (71) ، المقتطف 257 .

مَّا^(١) أَبَادَ الْقُلُوبَا يَمْشِي لَنَا مُسْتَرِيَا
يَا لَحْظُهُ زِدْ ذُنُوبَا وَيَا لَمَاءِ الشَّيْبَا

بَرِّدْ غَلِيلَ صَبِّ غَلِيلَ
لَا يَسْتَحِيلُ فِيهِ^(ب) عَنْ عَهْدِي
. وَلَا يَزَالُ فِي كُلِّ حَالٍ
يَرْجُو الْوَصَالَ وَهُوَ فِي الصَّدِّ

واشتهر بَعْدَ هَؤُلَاءِ فِي صَدْرِ دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ، مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْفَضْلِ بْنِ شَرْفٍ.
قال المس بن دَوْرِيذَةَ^(ج): رَأَيْتُ حَاتِمَ بْنَ سَعِيدٍ [يَقْبِلُ رَأْسَهُ]^(١) عَلَى هَذَا الْاِفْتِتَاحِ:

شَمْسٌ قَارَتْ بَدْرًا رَاحٌ وَنَدِيمٌ

وابن هزردوس⁽²⁾ الذي له:

(١) عَدَّةُ الْجَلِيسِ: لَمَّا بَدَأَ (ب) عَدَّةُ الْجَلِيسِ: فَيَكُ (ج) كَذَا فِي طَرَجِ ي. وفي الْمُقْتَطَفِ 258: الْمَسْنُ بْنُ دَوْرِيذَةَ. وَلَعَلَّهُ الْحَسَنَ.

(1) تَكْمَلَةُ مِنَ الْمُقْتَطَفِ 258، وَحَاتِمُ بْنُ سَعِيدٍ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ مَزْدَنِيشٍ، وَلَهُ شَعْرٌ ذَكَرَهُ صَاحِبُ الْمَغْرِبِ 2: 168، وَطَالَعَ الْمُوشِحَ فِي دَارِ الطَّرَازِ 34 غَيْرَ مَنْسُوبٍ، وَفِي الْوَائِي بِالْوَفَايَاتِ 4: 41، مَنْسُوبٌ لِابْنِ زَهْرٍ.

(2) هُوَ أَبُو الْحَكَمِ أَحْمَدُ بْنُ هَزْرَدُوسٍ (الْمُتَوَفَّى بِمَرَاكُشَ سَنَةَ 572 هـ/1176 م) بِتَقْدِيمِ الدَّالِ عَلَى الْوَاوِ، كَمَا فِي الْأَصُولِ، وَفِي الْمَغْرِبِ 2: 210، وَالْمُقْتَطَفِ 258: ابْنُ هَزْرَدُوسٍ بِتَقْدِيمِ الْوَاوِ، وَفِي التَّنْجِ 7: 8، الْحَاشِيَةُ 2 يَرْجِعُ إِ. عَبَّاسٌ: أَنَّ "هَزْرَدُوسَ" لَفْظَةٌ بَرِّيَّةٌ تَرْمِزُ إِلَى الْفَحْوَلَةِ، وَأَنَّ اسْمَهُ أَحْمَدُ، لِقَوْلِهِ يَخَاطَبُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنَ سَعِيدٍ: يَا سَمِيَّ (التَّنْجِ 4: 201). وَمَوْشَحْتُهُ هَذِهِ فِي مَلِكِ غَرْنَاطَةِ عَثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، أَوْرَدَهَا ابْنُ سَعِيدٍ فِي الْمَغْرِبِ 2: 215، وَجَاءَتْ فِي عَدَّةِ الْجَلِيسِ 113 (74) غَيْرَ مَنْسُوبَةٍ.

يا ليلة الوضل والسعود بالله غودي

وابن مؤهل⁽¹⁾ الذي له:

ما العيد في حلة وطاق وشم طيب

وانما العيد في التلاقي مع الحبيب

وأبو إسحاق الدؤي⁽²⁾، قال ابن سعيد: سمعت أبا الحسن، سهل بن مالك

يقول: إنه / دخل على ابن زهر وقد أسن، وعليه زي البادية، إذ كان يسكن بخصن [1424] إستبة، فلم يعرفه. فجلس حيث انتهى به المجلس، وجرت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيها⁽³⁾:

كحل الدجى يخري من مقلّة الفجر على الصباح

ومغصم النهر في حلل خضر من البطاح

فتحرّك ابن زهر وقال: أنت تقول هذا؟ قال: اختبر، قال: ومن تكون؟

فعرّفه. فقال: ازتفع، فوالله ما عزفتك.

قال ابن سعيد⁽⁴⁾: وسابق الحلبة التي أذكرت هؤلاء، أبو بكر بن

زهر، وقد شرقت موشحاته وغربت. قال: سمعت أبا الحسن سهل بن مالك

(1) المقتطف 258، أزهار الرياض 2: 210، التفع 8: 7.

(2) كذا في الأصول، وفي المقتطف 258: الزويلي.

(3) المقتطف 259، التفع 7: 9، أزهار الرياض 2: 210.

(4) المقتطف 259.

يقول: قيل لابن زُهْرٍ: لو قيل لك: ما أبدع ما وَقَعَ لك في التَّوْشِيحِ؟ قال: كَثُ
أَقُولُ⁽¹⁾:

ما لِلْمُؤَلَّةِ⁽¹⁾ من سُكْرِهِ لا يُفِيقُ يا لَهُ سَكْرَانُ
[مَنْ غَيْرُ خَمِرٍ ما لِلْكَيْبِ المشوقُ يَنْدُبُ الأوطانُ]⁽²⁾
هل تُسْتَعَادُ أَيْامنا بالخليج وليالينا 5
إِذْ يُسْتَفَادُ من النَّسيم الأريج مِسْك دارينا
وَإِذْ يَكَادُ حُسْن المكانِ البهيج أنْ يُحْيَيْنَا
نَهْرٌ أَظْلَهُ دَوَّخٌ عليه أنيق مورقُ فَيْنَانِ
والماءُ يَجْرِي وعائِمٌ وغريقُ من جَنّا الرِّيحانِ

10 واشتَهَرَ بِغَدَه ابنُ حَيْثُون، الَّذِي لَهُ مِنَ الرَّجَلِ المشهور، وهو قوله⁽³⁾:

[يَقَوُّقُ سَهْمَ كُلِّ حَيْنٍ بما شئتُ من يدٍ وعَيْنٍ

وَتُنْشَدُ في القَضِيَّتَيْنِ]^(ب)

خُلِقْتُ مَلِيحٌ عُلِّمْتُ رَامِي فُلِشْ^(ج) نَحْلُ سَاعٍ مِنْ قِتَالٍ

(1) عَدَّةُ الْجَلِيسِ: مِنَ الْمُؤَلَّةِ (ب) سَقَطَ مِنْ ظ (ج) ج: فُلِشْ.

(1) تَمَكَّلَتْهُ مِنَ الْمُقْتَطَفِ: مِمَّا اسْتَحْسَنَهُ مِنْ قَوْلِي وَأَرْضِيهِ مِنْ نَظْمِي.

(2) تَرَكَ لِهَذَا الْبَيْتِ فَرَاغٌ فِي الْأَصُولِ الثَّلَاثَةِ، فَأَكَلْنَاهُ مِنْ عَدَّةِ الْجَلِيسِ 400 (267) وَفِيهِ الْمُوشَّحُ بِتَامِهِ. وَقَدْ ذَكَرَ الطَّالِعُ فَقَطْ فِي الْمَغْرِبِ 1: 271، وَقَالَ ابْنُ سَعِيدٍ: إِنَّمَا تَقَدَّمَتْ فِي الْمُنْتَزَهَاتِ، وَقَدْ سَقَطَ قِسْمُ مَنْصَةِ إِشْبِيلِيَّةٍ مِنْ نَسْخَةِ الْكِتَابِ.

(3) الْمُقْتَطَفُ 259. وَنَصُّ الْمُوشَّحِ فِي الْمَغْرِبِ 1: 281.

ونعمل بذي العينين متاعي ما تعمل يدي بالتبال
 واشتهر معها يومئذ بغرناطة المهز بن الفرس⁽¹⁾. قال ابن سعيد⁽²⁾: ولما سمع
 ابن زهر قوله:

لله ما كان من يوم بهيج بنهر حص على تلك المروج
 ثم انعطفنا على قم الحليج

5

/ نقض مسك الختام عن عسجدي المدام
 ورداء الأصيل يطويه كف الظلام

قال: أين كُتبا عن هذا الرداء؟

وكان معه في بلده مطرف. أخبر ابن سعيد عن والده ، أن مطرفاً هذا
 دخل على ابن الفرس ، فقام له وأكرمه. فقال : لا تفعل . فقال ابن الفرس : كيف لا
 أقوم لمن يقول⁽³⁾:

قلوب تصابث بالحاظ تُصيب فقل كيف تبقى بلا وجد
 وبعد هؤلاء ابن خزمون بمزسية . ذكر ابن الراس⁽⁴⁾ أن يحيى
 الخزرجي دخل عليه في مجلس ، فأشده موشحة لنفسه . فقال له ابن خزمون : ما

(1) المغرب 2: 111 واسمه عبد الرحيم، نعتة بالذكاء والتقدم في الفلسفة، وكانت له دعوة وانتحال للإمامة،
 انتهت بقتله. انظر العبر 6: 250 .

(2) المختطف 260 .

(3) المصدر نفسه.

(4) في المصدر نفسه: ابن التارس، وانظر حاشيته رقم 5 .

الموشَّحُ بموشَّحٍ حتَّى يكون عارياً عن التَّكَلُّفِ ، قال : مِثْلُ ماذا ؟ قال : على مِثْلِ
قولي⁽¹⁾ :

يا هاجري هل إلى الوصالِ منك سبيلُ
أو هل يرى عن هوائكَ سالي قلبُ العليلِ

وأبو الحسن سهلُ بن مالكٍ بغرناطةَ . قال ابنُ سَعِيدٍ⁽²⁾ : كان والدي يعجبُ
بقوله⁽³⁾ :

إنَّ سَيْلَ الصَّباحِ في الشَّرْقِ عادَ بجُرا في أجمعِ الأفقِ
فتداعَتْ نوادِبُ الوُزْقِ أتراها خافتُ من الفَرَقِ
فبَكَتْ سُحرةٌ على الوَرَقِ

10 واشتهر بإشبيليةَ لذلك العهدِ ، أبو الحسن ابنُ الفضلِ . قال ابنُ سَعِيدٍ⁽⁴⁾
عن والده : سمعتُ سهلَ بن مالكٍ يقولُ له : يا ابنَ الفضلِ ، لك على الوشَّاحينَ
الفضلُ بقولك⁽⁵⁾ :

أَوْ حَسْرَتًا لزمانٍ مضَى عَشِيَّةً بَانَ الهَوَى وانْقَضَى
وأُفِرْدْتُ بالرَّغْمِ لا بالرِّضَا وبِتُّ على جَمَرَاتِ الغُضَا

(1) المقتطف 260 .

(2) لم نجد هذه القولة في المقتطف .

(3) التفتح 7 : 10 .

(4) المقتطف 261 .

(5) المغرب 2 : 389 ، عدة الجليس 324 (216) .

أَعَانِقُ بِالْفِكْرِ تِلْكَ الطُّلُولَ وَأَلْتَمُّ بِالْوَهْمِ تِلْكَ الرُّسُومَ

قال: وسمعتُ أبا بكر بن الصَّائِغِ⁽¹⁾ يُنشدُ الأستاذَ أبا الحسنِ الدَّبَّاجَ
موشحاته غيرَ ما مرَّة، فما سمعته يقول: لله دُرُّكَ، إلَّا في قَوْلِهِ⁽²⁾:

قَسَمًا بِالْهَوَى لَذي حِجْرٍ ما لِلَّيْلِ الْمَشُوقِ مِنْ فَجْرِ
جَمَدِ الصَّبْحِ لَيْسَ يَطْرُدُ ما لِلَّيْلِ فِيمَا أَظُنُّ غَدُ
صَحَّ يَا لَيْلُ أَنْتَ الْأَبَدُ

5

/ أَوْ فَقَّصْتُ⁽¹⁾ قِوَادِمُ النَّسْرِ فَنَجُومُ السَّمَاءِ لَا تَسْرِي

[أ425]

ومن موشحات ابن الصَّائِغِ، قَوْلُهُ⁽³⁾:

ما حَالُ صَبٍّ ذِي ضَنْىٍ وَاكْتِنَابٍ أَمْرَضُهُ يَا وَيْلَتَاهُ الطَّيِّبِ
عَامَلَهُ مَحْبُوبُهُ بِاجْتِنَابٍ ثُمَّ اقْتَدَى فِيهِ الْكَرَى بِالْحَيِّبِ
جَفَا جُفُونِي النَّوْمُ لَكْتِنِي لَمْ أَبْكِهِ إِلَّا لَفَقْدِ الْحَيَالِ
وَذَا الْوِصَالِ الْيَوْمَ قَدْ عَزَّنِي^(ب) مِنْهُ كَمَا شَاءَ وَشَاءَ الْوِصَالِ
فَلَسْتُ بِاللَّائِمِ مِنْ صَدْنِي بِصُورَةِ الْحَقِّ وَلَا بِالْمُحَالِ

10

(أ) فِي التَّنْفِخِ : أَوْ تَهَضَّتْ (ب) سَقَطَتْ وَرَقَةً بِصَفْحِهَا مِنْ نَسْخَةٍ ج، وَهَذِهِ بَدَايَةُ مَحْتَوَاهَا إِلَى وَرُودِ النِّجَمِ .

(1) الْمُقْتَطَفُ 261 .

(2) عَدَّةُ الْجَلِيسِ 160 (105)، التَّنْفِخُ 7: 10 .

(3) عَدَّةُ الْجَلِيسِ 29 (19)، التَّنْفِخُ 7: 11، أَزْهَارُ الرِّيَاضِ 2: 212 .

واشتهر ببرّ العُدوة ابنُ خَلَفِ الجَزائِرِيِّ، صاحبُ الموشَّحةِ المشهُورةِ⁽¹⁾:

يَدُ الإصباحِ قدَحَتْ زنادَ الأنوارِ في مَجامِرِ الزَّهرِ
وابنُ خَزَرِ البِجائِيِّ، وله من موشَّحةٍ⁽²⁾:

نُفِرَ الزَّمانُ مُوافِقُ حَيَّاكَ مِنْهُ بِاتِّسَامِ

ومن مَحاسِنِ الموشَّحاتِ لِلْمُتَأَخِّرِينَ، مُوشَّحةُ ابنِ سَهْلٍ⁽³⁾، شاعرٍ إشبيلية 5
وسبَّته من بَعْدِها، قوله:

هَلْ دَرَى ظَنِّي الجِمْىَ أَنْ قَدْ حَمَى قَلْبَ صَبٍّ حَلَّاهُ عَنْ مَكْنَسِ
فهو في نارٍ وَخَفَقِي مِثْلَ ما لِعَبَثِ رِيحِ الصَّبَا بِالْقَبَسِ

وقد نَسَجَ على مَنواله فيها، صاحبنا الوَزيزُ أبو عبد الله ابنُ الخطيب،
شاعرُ الأندلسِ والمَغْرِبِ لَعَصْرَهُ، وقد مرَّ ذِكرُهُ، فقال⁽⁴⁾:

جاذكَ الغَيْثُ إِذْ⁽¹⁾ الغَيْثُ هَمَى يا زَمَانَ الوُضَلِ بالأنْدَلُسِ
لَمْ يَكُنْ وَضْلُكَ إِلَّا حُلْماً في الكَرى أَوْ خُلْسَةً المُخْتَلِسِ

(1) في ي: إذا

(1) نهاية الأرب 2: 287، عدة المجلس 164 (108)، أزهار الرياض 2: 212، النفع 7: 11.

(2) المقطف 262، النفع 7: 11، أزهار الرياض 2: 212، ولم يرد فيها جميعها غير المطلع. ونصّها الكامل أورده
م. عناني عن الروضة الغناء في محاسن الغناء من مخطوطات الخزنة العامة في الرباط، ديوان الموشَّحات
الأندلسية 56 (16)، مصر 1986.

(3) الديوان 283، نفع الطيب 7: 61.

(4) نفع الطيب 7: 11، أزهار الرياض 2: 213.

إِذْ يَقُودُ الدَّهْرُ أَشْتَاتَ الْمَنَى
زُمَرًا بَيْنَ فُرَادَى وَثُنَى
/ وَالْحَيَا قَدْ جَلَّلَ الرُّوْضَ سَنَا

وَرَوَى النُّعْمَانُ عَنْ مَاءِ السَّمَاءِ
فَكَسَاهُ الْحَسَنُ ثَوْبًا مُغْلَمًا

5

فِي لِيَالٍ كَتَمْتُ سِرَّ الْهَوَى
مَالَ نَجْمِ الْكَأْسِ فِيهَا وَهَوَى
وَطَرَّ مَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ سِوَى

حِينَ لَذَّ الْأَنْسُسُ شَيْئًا أَوْ كَمَا
غَارَتْ الشُّهُبُ بِنَاءً، أَوْ زُبْمًا

10

أَيُّ شَيْءٍ لِأَمْرِي قَدْ خَلَصَا
تَهَبُ الْأَزْهَارُ فِيهِ الْفُرْصَا
فَإِذَا الْمَاءُ تَتَاجَى وَالْحَصَى

تُبْصِرُ الْوَرْدَ غَيُورًا بَرِمًا
وَتَرَى الْآسَ لَبِيًّا فَهَمَّا

15

تَنْقُلُ الْخَطْوَ عَلَى مَا يَزُسُّمُ
مِثْلَ مَا يَدْعُو الْوَفُودَ الْمَوْسِمُ
فَسَنَا الْأَزْهَارِ فِيهِ تَبَسُّمُ

[425ب]

كَيْفَ يَزُوي مَالِكٌ عَنْ أَنْسٍ
يَزْدْهِي مِنْهُ بِأَنْهَى مَلْبَسٍ

بِالدُّجَى لَوْلَا شُمُوسُ الْغُرَى
مَسْتَقِيمَ السَّيْرِ سَعْدَ الْأَثَرِ
أَنَّهُ مَرَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ

هَجَمَ الصُّبْحُ [هَجُومٌ] ^(١) الْحَرَسِ
أَثَرْتُ فِينَا عُيُونُ النَّزْجِسِ

فَيَكُونُ الرُّوْضُ قَدْ مُكِّنَ فِيهِ
أَمِنْتُ مِنْ مَكْرِهِ مَا تَتَّقِيهِ
وَخَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِأَخِيهِ

يَكْتَسِي مِنْ غَيْظِهِ مَا يَكْتَسِي
يَسْرِقُ السَّمْعَ بِأُذُنِي فَرَسِ

(١) من النصح، وفي ظي: نجوم .

يا أَهْيَلِ الحَيِّ من وادي القَصَا
ضاقَ عن وَجْدِي بكم رَحْبُ القَصَا
فأَعِيدُوا عهدَ أنسٍ قد مَضَى

واتَّقُوا اللهَ وأُخِيُوا مُغْرَمًا
حَبَسَ القَلْبَ عليكم كَرَمًا

وبقَلْبِي منكمْ مَقْتَرِبُ
قَمَرٌ أَطْلَعَ مِنْهُ المَغْرِبُ
قد تَسَاوَى مُحْسِنٌ ومُذْنِبُ

ساحِرُ المُقْلَةِ معسولَ اللَّمَى
/ سَدَدَ السَّهْمِ وَسَمَى وَرَمَى

[426]

إن يَكُنْ جَارَ وخَابِ الأملِ
فهو لِلنَّفْسِ حَيِّبٌ أَوَّلُ
أمرُهُ مَعْتَمِلٌ مِمْتَلِ

حَكَمَ اللَّحْظَ بِهَا فَاخْتَكَمَا
مُنْصِفَ المَظْلُومِ مِمَّنْ ظَلَمَا

ما لِقَلْبِي كَلِمًا هَبَّتْ صَبَا

وبقَلْبِي مَسْكَنٌ أَنْتُمْ بِهِ
لا أَبَالِي شَرْقَهُ مِنْ غَرْبِهِ
تَعْتَقُوا عَانِيَكُمُ من كَرْبِهِ

يَتَلَاشَى نَفْسًا فِي نَفْسِ
أَفْتَرِضُونَ عَفَاءَ الحُبِّيسِ

بأَحَادِيثِ المُنَى وهو بَعِيدُ
شَقْوَةُ المَغْرَى بِهِ وهو سَعِيدُ
في هَوَاهُ بَيْنَ وَعْدٍ ووَعِيدُ

جَالَ فِي النَّفْسِ مَجَالَ النَّفْسِ
فَقُوَادِي نُهَيْتُهُ المَفْتَرِسِ

وفَوَادُ الصَّبِّ بالشَّوْقِ يَذُوبُ
لَيْسَ فِي الحُبِّ لِحُبِّوبٍ ذُنُوبُ
في ضُلُوعٍ قَدْ بَرَاها وَقُلُوبُ

لم يُرَاقِبْ فِي ضِعَافِ الأنْفُسِ
ومُجَازِي البَرِّ مِنْهَا والمُسِي

عَادَةُ عَيْدٍ مِنَ الشَّوْقِ جَدِيدُ

كان في اللّوح له مكتّبا
 جلب الهم له والوصبا
 قوله إنّ عذابي لشديد
 فهو للأشجان في جهدٍ حميد
 لا عَجَّ في أضلعي قد أضرمّا
 لم يدع في مُهجّتي إلّا الدّمّا⁽¹⁾
 سَلِمِي يا نفسُ في حُكم القضا
 واعمري الوقتَ برُجعى ومَتَاب
 دَعَاكَ من ذكرى زمان قد مَضَى
 بين عُثْبَى قد تَقَضَّتْ وعِتَاب
 واضرِفِ القولَ إلى المولى الرضا
 ملهم التوفيق في أمّ الكتاب
 الكريم المُتَنَهَى والمُنْتَمَى
 أسد السّرح وبذر المجلس
 ينزل النّضرُ عليه مثَلَمّا
 ينزل الوحي بروح القدس

5

وأما المشاركةُ فالتكلفُ ظاهرٌ على ما عاثوه من الموشحات. ومن أحسن ما
 وقع لهم في ذلك، موشحة⁽¹⁾ ابن سناء الملك المِصرِيِّ ، التي اشتهرت شرقاً وغرباً،
 أولها:

10

حبيبي ارفع حجاب النور عن العذاذ
 ننظر المسك على كافور في جُلّناز

(1) كذا في ظي، وفي النسخ: دما .

(1) نفع الطيب 7: 14، أزهار الرياض 2: 215 -

كَلْبِي يَا سُخْبُ تيجانَ الرُّبِّي بِالْحُلِي
واجعَلِي سوارها مُنْعَطَفَ الجَدُولِ*⁽¹⁾

[264] / ولما شاع التّوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور، لسلاسته وتَمييق
كلامه وتَضريع أجزائه، نَسَجَتِ العامّة من أهل الأمصار على مِثْواله، ونَظَمُوا في
طريقته بلُغَتهم الحَضَرِيّة، من غير أن يَلْتَزِمُوا فيه إعراباً، واستَحْدَثُوهُ فَناءً سَمَّوه 5
بالزَّجَل، والتَّزَمُوا النّظْم فيه على مَناحيم إلى هذا العَهد. فجاءوا فيه بالغرائب؛ واتَّسَعَ
فيه للبلاغة مجالٌ بحسب لغتهم المُستعجِمة.

وأوّل من أبدع في هذه الطّريقة الزّجليّة أبو بكر بن قُزّمان. وإن كانت
قيلت قبله بالأندلس، لكن لم تُظهر حلاها ولا انصبكت معانيها واشتهرت رشاقتها
إلا في زمانه، وكان لعَهد المُلثمين، وهو إمام الزّجالين على الإطلاق. 10

قال ابن سَعِيد⁽¹⁾: رأيت أزجاله مَزوَّيةً بِتَغْدَادٍ أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُهَا بِجَوَاضِرِ
المُغْرِب. قال: وسمعتُ أبا الحسن بن جَحْدَر الإشبيليّ، إمام الزّجالين في عَصْرنا
يقولُ: ما وَقَعَ لأحدٍ من أئمّة هذا الشّأن^(ب)، مثل ما وَقَعَ لابن قُزّمان، شيخ
الصّناعة، وقد خَرَجَ إلى مُتَنَزّهٍ مع بعض أَصْحابِهِ، فَجَلَسُوا تَحْتَ عَرِيشٍ وَأَمَامَهُمْ مِثَالُ
أَسَدٍ مِنْ رُخَامٍ يَصُبُّ المَاءَ مِنْ فِيهِ عَلَى صَفَائِحٍ مِنَ الحَجَرِ مُتَدَرِّجَةٍ، فَقَالَ⁽²⁾: 15

(1) انتهى محتوى الورقة الساقطة من نسخة ج (ب) ي: اللسان .

(1) المقتطف: 263 .

(2) المقتطف 263 ، أزهار الرياض 2: 216 ، نفع الطّيب 7: 15 .

وعريش قد قام على دُكَّانٍ بِحُجْرٍ رُواقٍ
 وأسَدٌ قد ابتلَعُ ثعبانٌ من غُلَظ ساقٍ
 وفتح فمّو بحالٍ إنسانٌ يبيهُ الفُـوواقِ
 وانطلق من تمّ على الصّفاح والقي الصّياح

5 وكان ابن قُزَمان⁽¹⁾، مع أنّه قُزطبيّ الدّار، كثيراً ما يتردّد إلى إشييلية ويتّابُ نهرها. فاتّفق أن اجتمع ذات يوم جماعةٌ من أعلام هذا الشّأن، وقد ركبوا في النّهر للنزهة، ومعهـم غلامٌ جميلُ الصّورة من ثروة⁽²⁾ أهل البلد ويوتهم. وكانوا مجتمعين في زُورقي للصّيد، / فنظّموا في وُصف الحالِ، وبدأ منهم عيسى البليد، فقال:

[أ 427]

يطمع بالخلّاص قلبي وقد فاتوا وقد ضمّو عشقو لشّهـماتو
 تراه قد حصل مسكين [في محاب]⁽³⁾ يقلق وكذلك أمرا عظيم صابو
 لوخس الجفون الكحل إن غابو وديك الجفون الكحل أبلاتو

ثمّ قال أبو عمرو بن الزّاهد الإشييلي:

نشَب والهوى من لج فيه ينشب تُرى اش كان دعاه يشقى ويتعذب
 مع العشق قام في بالو ان يلعب وخلق كثير من ذا اللعب ماتوا⁽¹⁾

(1) ظ ح: قد ماتوا .

(1) المقتطف : 263 .

(2) عبارة المقتطف: وقد جمعهم ابنُ حسيبٍ من حُسابئها وأغنيائها في زورقي برسم الصّيد .

(3) في الأصول، حملاتو، والتصويب من المقتطف 263، وفسرها د. الأهواني عن دوزي 1: 331 مادة حنب، أنها الفخّ، وقال: إنها جاءت بهذا المعنى في شعر ابن قُزَمان .

ثم قال أبو الحسن المقرئ الداني:

نهارٌ مليح يعجبني أوصافو شراب وملاح من حولي قد طافوا
والمقلين يقولُ فصفصافو^(١) والبوري [يقول]^(ب) أخرى فمقلاتو

ثم قال أبو بكر بن مزين:

الحق تريد، حديث بقا لي عاد في الواد بحمير^(ج) والثزة والصياد 5
لشيه حيتان ديك الذي يصطاد قلوب الوري هي في شيكاتو

ثم قال أبو بكر بن قزمان:

إذا شمر أكمامو ليرميها ترى البوري يرشق لك الجها
ولش مرادو أن يقع فيها إلا ان يقبل يدئدأتو

10 وكان في عصرهم بشرق الأندلس يخلف الأسود، وله محاسن من الزجل،

منها قوله:

قد كنت منشوب واحتسبت النشب وردني ذا العشق لامر صعب

يقول فيه^(١):

حين ننظر الخد الشريق البهي ينتهي في الحمرا لما ينتهي

(أ) ي : لصفصافو (ب) من المقتطف (ج) ج : تحمير، أو تجهير .

(١) المقتطف 264 .

يا طالب الكيمياء في عيني هي تنظر بها الفضّة وترجع ذهب

/ وجاءت من بعدهم حلبة كان سابقها مدغليس، وقعت له العجائب في [427ب]
هذه الطريقة. فمن قوله⁽¹⁾ في رَجَلِه المشهور:

ورذاذاً دقّ يــــنزلُ وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضّض وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر والغصون ترقص وتطرب
وتريد تجي إلينا ثم تستحي وترجع

ومن محاسن أزجاله قوله⁽²⁾:

لاح الضياء والتجوم حيازي فقم بنا نزع الكسل
شرب ممزوج من قراعا أحلى هي عندي من العسل
يا من يلمني كما تقلد قلّك الله بما تقول
تقول بأن الذنوب تولد وأنه يفسد العقول
لأرض الحجاز مور يكن لك ارشد أش ساقك معي فذا الفضول
مُر انت للحج والزيارا ودغن في الشرب نهمل
من لش لو قدره ولا استطاعه النيّة ابلغ من العمل

(1) المغرب 2: 220 ، المقتطف 264، فتح الطيب 7: 16، أزهار الرياض 2: 217 .

(2) لم نقف على مصدره .

وظهر بعد هؤلاء في إشبيلية، ابن جحدر، الذي فضل على الرجالين في
فتح ميوزقة بالرجل الذي أوله⁽¹⁾:

من عاند التوحيد بالسيف يمحى أنا بري ممن يعاند الحق

قال ابن سعيد⁽²⁾: لقيته ولقيت تلميذه اليغيع، صاحب الزجل المشهور،

أوله: 5

بالتبي إن ريت حبيبي أقبل اذنو بالرأسينلا

لش اخذ عنق الغزئل وسرق فم الحجيللا

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك، إمام الآداب، ثم من بعدهم

[428] / لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب، إمام النظم والنثر في الملة

الإسلامية غير مدافع. فمن محاسنه في هذه الطريقة⁽³⁾: 10

امرح الأكواس واملا لي نجد ما خلق المال إلا أن يند

ومن قوله⁽⁴⁾ على طريقة الصوفية، وينحو منحى الششتري منهم:

بين طلوع وبين نزول اختلطت الغزول

ومضى من لم يكن وبقي من لم يزول

(1) المقتطف 265 ، أزهار الرياض 2: 217 ، نفع الطيب 7: 16 .

(2) المقتطف : 265 ، نفع الطيب 7: 16 .

(3) أزهار الرياض 2: 218 ، نفع الطيب 7: 17 .

(4) المصدران نفسها .

ومن محاسنِه أيضاً قوله⁽¹⁾ في ذلك المغنى:

البغد عنك يا بُني أعظم مصائب
وحيث حصل لي قرينك سببت قاربي⁽¹⁾

وكان لغصر الوزير ابن الخطيب بالأندلس محمد بن عبد العظيم، من أهل
5 وادي آش . وكان إماماً في هذه الطريقة. وله من زجل يعارض به مدغليس^(ب) في
قوله: لاح الضيا والتجوم حيارى

بقوله⁽²⁾:

حلّ المجون يا اهلن الشطارا مذ حلت الشمس بالحمل
فجددوا كل يوم خلافا لا تجعلوا بينها ثمل
إليها تتخلعوا في شئيل على خضرة ديك الثبات
وخلّ بغداد وأخبار النيل احسن هي عندي ديك الجهات
وطا فيها اضلخ من أربعين ميل إن مرّت الريح عليه وجاث
لم تلتقي للغبار أمارا ولا بمقدار ما يكتحل
وكيف ولىش فيه موضع رقعا الا وتسرح فيه الثحل

10

(1) في أزهار الرياض: نسيث أقاري ، وفي فتح الطيب : سببت أقاري (ب) في ي : مدغليس .

(1) أزهار الرياض 2: 218 ، فتح الطيب 7: 17 .

(2) أزهار الرياض 2: 218 .

وهذه الطَّرِيقَةُ الرَّجَلِيَّةُ لهذا العهد، هي فنُّ العامَّةِ بالأندلس من الشَّعر،
وفيهما نُظِّمُهُم، حتَّى إنَّهم لينظُمونَ بها في سائر البحورِ الخَمسةَ عَشَرَ، لكنَّ بُلْغَتَهُم
العاميَّة. ويُسمَّونه الشَّعرَ الرَّجَلِيَّ، مثلَ قولِ شاعرهم: [على وزن الرَّمَل]

دَهْرُ لي نَعشِقُ جفونَكَ وسنينُ وانت لا شَفَقًا ولا قَلْبَ يَلينُ
[428ب] / جى ترى قلبي من أجلك كيف رَجَع صفة السَّكَّة ما بين الحدَّادين 5
الدموع ترشَّ والنار تلتهبُ والمطارقُ من شمال ومن يمينُ
خلق الله التَّصارى للغزو وانت تَغْزُو في قُلُوبِ العاشقينُ

وكان من المُجيدِينَ في هذه الطَّرِيقَةِ لأوَّل هذه المائة، الأديبُ أبو عبد الله
اللُّؤثي. وله ⁽¹⁾ من قصيدة فيها يمدح السُّلطانَ ابنَ الأَحرمر: [على وزن السَّريع]

طَلَّ الصَّباحُ قَم يا نديم نَشربوا ونَضْحَكوا من بعد ما نَظَرَبوا 10
سَيِّكة الفَجْر أَجَلَّتْ شَفَقُ في مَيَلَق اللَّيْلِ فقم قَلْبُو
ترى عياراً خالِصَ انبِضْ ثَقِي فِضْ هو لَكِنَّ الشَّفَقُ ذَهَبُو
فَتَنْتَفِقُ سَكَّتو عِنْد البَشَر نور الجفونَ من نورها يَكْسَبُو
فَهُوَ النَّهار يا صاحبي للمعاش عيش الغنى فَه يا الله ما أَطِيبُو
واللَّيْل يَضًا ^(ب) لِلقُبُلِ والعِناقِ على سَرِير الوَصْلِ ثَقَلَبُو 15
جاد الزَّمانُ بعد ما كان بَخِيلُ وَلِش كَيْفَلْت من يديه عَقَزَبو

(أ) ج: وله فيها من قصيدة يمدح (ب) من ظي، وفي ج: ايضاً.

كما جُرِعَ مَرُوفَمَا قَدْ مَضَى
 قَالِ الرَّقِيبُ يَا أَدْبَا أَشُّ ذَا
 وَاتَعَجَّبُوا عُذَالِي^(١) مَنْ ذَا الْخَبَرِ
 يَعِشُ مَلِيخَ إِلَّا رَقِيقَ الطَّبَاغِ
 لِيَشْ يَرْجِ الْحُسْنَ إِلَّا شَاعِرُ أَدِيبِ 5
 وَإِنَّمَا الْكَاشُ فَحَرَامٌ هُوَ حَرَامٌ
 وَاهْلُ الْعَقْلِ وَالْخَنَكِرَا وَالْمُجُونِ
 وَذَا الَّذِي يَخْلُبْنَ حَسَنُوا وَلَمْ
 صَبِيَّ هِيَ سُمَانَ تَطْفِي الْجَمَزِ
 / غَزَالٌ هِيَ تَنْظُرُ^(ب) قُلُوبَ الْأَسْوَدِ 10
 وَثُمَّ تَحِيْمُهُمْ إِذَا تَبَنَّتْ سَمَ
 فَمِمَّ كَالْخَاتَمِ وَثَغْرًا تَقِي
 جَوْهَرٍ فِي مَرْجَانٍ أَيْ عَقْدٍ يَا فُلَانُ
 وَشَارِبِينَ أَخْضَرَ يَرِيدُ لِيَشْ يَرِيدُ
 تَسْبِلُ دَلَالٍ مِثْلَ جَنَاحِ الْغُرَابِ 15
 عَلَى بَدَنِ أَبْيَضٍ فَلَوْنُ الْحَلِيبِ
 وَزُوجُ نُهَيْدَاتٍ عَلِمَتْ قَلْبَهَا

يُشْرَبُ بَيْنُهُ وَيُكَلِّ طَيِّبُو
 فِي الشَّرْبِ وَالْعَشْقِ نَرَى تَنْجُبُو
 فَقُلْتُ يَا قَوْمَ مَنْ ذَا تَتَعَجَّبُو
 عَلاشَ كُنْتُمْ رَوْ بِاللَّهِ أَوْ نَكْتَبُو
 يَفْتَضُّ يَكْرُوا وَيَدْعُ ثِيَبُو
 عَلَى الَّذِي لِيَشْ يَذَرُ كَيْفَ يَشْرِبُو
 تُغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ هَذَا إِنْ أَذْنِبُو
 تَقْدِرُ بِحَسَنِ الْقَاطِ أَنْ تَخْلِبُو
 وَقَلْبِي فِي جَمَرِ الْغَضَا تَلْهَبُو
 وَبِالْوَهْمِ قَبْلَ التَّنْظَرِ^(ب) يَذْهَبُو [١٤٢٩]
 فَيَضْحَكُوا مِنْ بَعْدِ مَا يَنْدَبُو
 خَطِيبِ [الْأُمَّةِ]^(ج) لِلْقُبْلِ يَخْطَبُو
 قَدْ صَقَفُوا التَّنَاضِمَ وَلَمْ يَتَّقَبُو
 مِنْ شَبَّهُو بِالْمُسْكِ قَدْ عَيَّبُو
 لِيَالِي هَجْرِي مَثُو يَسْتَغْرِبُو
 لَمْ قَطِ رَاعِي فِي الْغَنَمِ يَخْلُبُو
 دِيكَ الصَّلَابَا زَيْتٌ مَا أَضْلَبُو

(١) ج : عذالي (ب) من ج، وفي ط ي: تنظر (ج) من: ج ي، وفي ط: لئلا .

تَحْتَ الْعَاكِينَ مَغْهَا خِضْرًا رَقِيقًا
أَرْقَ هُوَ مِنْ دِينِي فِيمَا نَقُولُ
أَيُّ دِينَ بَقَا لِي مَعَكَ أَوْ أَيُّ عَقْلٍ
وَتَحْمَلُ ازْدَافًا ثَقَالًا كَالرَّقِيبِ
إِنْ لَمْ يَنْفَسْ غُرُزًا أَوْ يَنْقَشِعْ
قَصْرٌ يَصِيرُ لِيكَ الْمَكَانُ حِينَ تَجِي
مَحَاسِنُكَ مِثْلَ خِصَالِ الْأَمِيرِ
عِمَادُ الْأَمْصَارِ وَفَصِيحُ الْعَرَبِ
بِجَمَلَةِ الْعِلْمِ انْفِرَادًا وَالْعَمَلِ
فَفِي الصُّدُورِ بِالزَّمْحِ مَا أَطْعَنُوا
مِنْ السَّمَاءِ يَحْتَسِدُ فِي أَرْبَعِ صِفَاتٍ
الشَّمْسُ نَوُورًا وَالْقَمَرُ هَمَمًا
يَرْكَبُ جَوَادَ الْجُودِ وَيَطْلُقُ عَنَانًا
مَنْ خَلَعُوا ثَلَبَسَ فِي كُلِّ يَوْمٍ
[429ب] / نَعَمْتُوا تَظْهَرُ عَلَى مَنْ يَرْتَجِيهِ
قَدْ أَظْهَرَ الْحَقُّ وَكَانَ فِي حِجَابٍ
وَقَدْ بَنَى بِالْبَنَى رُكْنَ الثَّقَى
مَنْ رَقَّتْهُ يَخْفَى إِذَا تَطَلَّبُوا
خَذْ تَرَى عَبْدَكَ سَيِّئًا مَا أَكْذَبُوا
مَنْ يَتَّبِعُكَ مِنْ ذَا وَذَا⁽¹⁾ تَسْلُبُوا
حِينَ يَنْظُرُ الْعَاشِقُ وَحِينَ يَرْقُبُوا
5 فِي طَرَفِ دَيْسَا وَالتَّيِّبُ تَضَلُّبُوا
وَحِينَ تَغِيْبُ يَرْجَعُ فِي عَيْنِي قَبُّو
أَوْ الرَّمْلُ مَنْ هُوَ الَّذِي يَحْسَبُوا
فَمَنْ فَصَاحَةٌ لَفْظًا تَتَقَرَّبُوا
وَمَنْ بَدِيعُ الشَّعْرِ مَا أَكْتُبُوا
10 وَفِي الرِّقَابِ بِالسَّيْفِ مَا أَضْرَبُوا
مَنْ تُعَدُّوا قَلِيًّا أَوْ تَحْسَبُوا
وَالْغَيْثُ جُودًا وَ[الْبَحْرُ]^(ب) مَنْصِبُوا
الْإِعْتِنَا وَالْجَسَدُ حِينَ يَرْكَبُوا
بَطِيبُ ثَنَاءِ الْعَالِي نَظِّبُوا
15 قَاصِدٌ وَوَارِدٌ قَطْ مَا خَيَّبُوا
لِشْ يَقْدِرُ الْبَاطِلُ بَعْدَ يَحْجُبُوا
مَنْ بَعْدَ مَا كَانَ الزَّمَانُ خَرَّبُوا

(1) ج: من ذا ومن ذا ، خطأ (ب) ظ: التَّحْم .

تخافو حين تلقاه كما ترتجيه فمغ سباحة وجهو^(أ) ما أهيو
يلقا الحروب ضاحك وهي عابسا غالب هو لش في الدنيا من يغلبو
إذا جَبَذ سيفو ما بين الرَّدود فليس^(ب) يثني على من يضربو
وهو سمي المصطفى، والإله للسلطانا اختاروا واشتخبو
5 تراه خليفة أمير^(ج) المسلمين يقود جيوشوا ويزين موكبو
لذي الإمارة تنخضع [لو]^(د) الترووس نعم وفي تقبيل يديه يرغبو
بيتة بني نصر بدور الزمان يطلعو في المجد ولا يغربو
وفي المعالي والشرف يبعُدو وفي التواضع والحياء يقربو
فالله يقيم ما دار الفلك وأشرق شمسو ولاخ كوكبو
10 وما تغني ذا القصيد في عروض "يا شمس خدر ما لها مغرب"^(هـ)

ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فتأ آخر من الشعر، في أعاريص
مزدوجة كالموشح، ينظمون فيه بلغتهم الحضريّة أيضاً، وسموه عروض البلد. وكان أول
من استحدثه بينهم، رجل من أهل الأندلس نزل بفاس، يُعرف بابن عمير. فنظم
قطعة على طريقة الموشح، ولم يخرج فيها عن مذهب^(هـ) الإغراب، مطلعها⁽²⁾:

(أ) ج: وجه (ب) ج: فليس (ج) ي: أمير (د) زيادة يستقيم بها الوزن (هـ) ج: مذاهب .

(1) تضمن صدر طالع قصيدة لأبي الحسن علي بن إبراهيم، ابن الزقاق، عجزه: "أرامة دارك أم غرب".
انظر المغرب 2 : 325 .

(2) أزهار الرياض 2 : 219-

- أبكاني بشاطي النهار نوح الحمام / وأيدي الندى تخرق جيوب الكمام [430]
- وكف السحر يحوم مداد الظلام
- بأكرت الرياض والطل فيه افترق
- ودمغ التواعز تهرق انهرق
- لؤؤ بالغصون خلخال على كل ساق
- وتحمل نسيم المسك عنها رياح
- وجرّ النسيم ذئلو عليها وفاح
- قد ابتلت ارياشو بقطر الندى
- قد التف من (ب) ثوبو الجديد في ردا
- ولكن بفاه احمر وساق خضيب
- ينظم سلوكك جوهر ويتقلدا 10
- جلس بين الغصان جلسة المستهام
- وصار يشتكي ما في الفؤاد من غرام
- فقلت أحمام اخزمت عيني الهجوع
- قال لي قد (د) بكيت حتى صفت لي الدموع
- على فرخ طار لي لم يكن لو رجوع
- ألفيت البكا والحزن من عهد نوح 15
- على العُصن في البستان قريب الصباح
- وماء الندى يجري (1) بشعر الأقاخ
- كثر الجواهر في نُحور الجواز
- يحكي ثعابين حلقت بالثماز
- ودار الجميع بالروض دور السوار 5
- جناحاً توسّد والتوى في جناخ
- منها (ج) ضم منقارو لصذرو وصاخ
- أدى ما تزال تبكي بدمع سفوح
- بلا دمع نبقي طول حياتي نوح
- ألفيت البكا والحزن من عهد نوح 15

(1) سقط من ج (ب) ي: في (ج) كذا في ظ، ولعلها: وضّم، وفي ي أسقط هذا العجز، وأورد العجز الذي تحته (د) كذا، وهي زائدة، ويستقيم بدونها: قال لي بكيت حتى صفت لي الدموع.

كذا^(١) هو الوفا قل لِمَ كذا هو الدِّمَامُ انظر للجفون صارت بحال الجراح
وانتم من بُلا منكم إذا تَمَّ عامٌ يقول قد عياني ذا البُكا والنَّواح
فقلت أحمام لو خضت بحر الصَّنا كان تبكي وتزثي لي بدمع هتون
ولو كان في قلبك ما في^(ب) قلبي أنا رماد كان تصير تحتك فروع الغصون
اليوم لي نقاسي الهجر كم من سنا 5 حتى لا سبيل جُمْلَه تراني العيون

ومّا كسا جسمي التَّحول والسقام اخفاني نحولي عن عيون اللواح
لو جتني المنايا كان نموت في المقام ومن مات بعد يا قوم لقد استراح

قال لي لو زفرت الا وداب الرياض من خوفي عليه ردّت النفس (ج) للفؤاد
واتخضبت من دمعي وداك البياض طوق العهد في عنقي ليوم التناد
وأما طرف منقاري حديثو استفاض 10 بحال طرف^(د) والجسد صار رماد^(هـ)

فاستَحَسَنَه أهلُ فاس وولَّعوا به ، ونظَّموا على طَريقَتِه ، وتَرَكوا الإِغرابَ
الَّذي لَيْسَ من شَأْنِهِمْ ، وكثُرَ شِيعاءُ بَيْنَهُمْ ، واستَفْجَلَ [فيه]^(و) كثيرٌ منهم ، ونوَّعوه

(١) ي : كذلك (ب) ج : مثل ما هـ ولا يستقيم (ج) ي : النفوس (د) ظ ج ي : فراغ موقع لكلمة (هـ) فراغ سطرين
بعده في نسخة ي ، وأمام الفراغ في الحاشية جملة : لعلّه من عروض البلد . وفي طبعة كاترمير (باريس 3: 420) تنتهي القطعة
ببيتين ، هما :

وتبكي وترثي لي صنوف الحمام ومن ضاق بحال الصّد والهجر باخ
فيا بهجة الدنيا عليك السلام اذا لم نجد راحه فيك ولا مستراح

(و) من ج ي ، وسقط من ظ .

[430ب] أضافاً ، / إلى المزوج ، والكازي ، والملعبة ، والغزل . واختلفت أسماءها باختلاف
ازدواجها وأوزانها وملاحظاتهم فيها .

فمن المزوج^(١) ما قاله^(١) ابن شجاع ، من فحولهم ، وهو من أهل تازى :

المال زينة الدنيا وعزّ النفوس	يَهَيّ وجوهاً ليس هي باهيا
منها كل من هُؤا كثير الفلوس	إِلَوُه الكلام والرتبة العاليا 5
يكبر من كثر مالو ولو كان صغير	ويصغر عزيز القوم إذا يفتقر
من ذا ينطبق صدري ومن ذا نغير	وكان [ينفقع] ^(ب) لولا الرجوع للقدز
إدّي يلتجي من هو في قومو كبير	لمن لا أصل عندو ولا لو خطر
لقد ينبغي نحزن على دي العكوش	ونضبغ عله ثوبي فراس خايا
إدّي صارت الأذئاب أمام الرؤوس	وصار يستفيد الواذ من الساقيا 10
ضعف الناس عملٌ ذا أو فساد الزمان	ما ندر ^(ج) على من نكثرو ^(د) ذا العتاب
إدّي صر ^(هـ) فلان واليوم يضح بو فلان	ولو ريت وكف حتى يردّ الجواب
عشنا والسّلام حتى راينا عيان	انفاس السّلاطين في جلود الكلاب
كبار النفوس حدّا ضعاف الأسوس	هم في ناحيا والمجد في ناحيا
يَرَوْا انهم والنّاش يَروهم تيوش	وجوه البلد والعمدة الرّاسيا 15

(١) في أزهار الرياض : المزدوج (ب) من ج ي ، وفي ظ : ينقع (ج) ج : ما ندر (د) ج : نكثروا (هـ) ج : صار .

(1) أزهار الرياض 2 : 221-

ومن مذاهبهم قول ابن شُجاع، منهم، في بغض مزوجاته:

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان اهْمَكَ^(١) يا فلان لا يلعب الحسن بيك
ما منهم مليحاً عاهد إلا وخان قليل من عليه تحبس ويحبس عليك
يتيهوا على العشاق ويتمتعوا ويستعمدوا تقطيع قلوب الرجال
5 وإن واصلوا من حنهم يقطعوا وإن عاهدوا خانوا على كل حال
ملح كن هويت ونشبت قلبي معوا وصيرت من خدي لقدموا نعال
ومحدث لو من وسط قلبي مكان وقلت أكرم أ قلبي لمن حل بيك
وهون^(ب) عليك ما يعتريك من هوان فلابد من هول الهوى يغتريك
/ حكمشو عليا وارتضيت به أمير^(ج) فلو كان ترى حالي إذا تبصرو [431]
10 ترجع مثل دُر حولي فوجه الغدير نذر به ويستفطش بحال الجرو
وتعلمت من ساعا نثيق الضمير ونفهم مرادو قبل أن يذكرو
ويحتل في مطلوبو ولو أن كان عصر في الربيع أو في الليالي فريك
ونشي لسوقو [لو]^(د) يكن في اصفهان وأش ما يثل يحتاج ثل لو يبيك

حتى أتى على آخره. وكان منهم علي بن المؤذن بتلمسان.

(أ) ي: يمكن أن تقرأ: اهمل (ب) ج: وهو (ج) ترتيب الأبيات هو ما في ظي، وفي ج عجز هذا البيت، هو عجز البيت الذي يليه، ويرتبط عجزه بصدر البيت التالي (د) ظ: لم.

وكان لهذه العُصور القرية من فحولهم يَزْرهُون، من ضواحي مكناسة، رجلٌ يُعرف بالكفيف، أبدعَ في مذاهب هذا الفن. ومن أحسن ما علق له بمخفوطي، قوله في رحلة السلطان أبي الحسن وبني مَرين إلى إفريقية، يصفُ هزيمتهم بالقيروان ويُعزِّهم عنها، ويؤنسهم بما وَقَعَ لغيرهم، بعد أن عَثَبهم على غزاتهم إلى إفريقية، في مَلْعَبَةٍ⁽¹⁾ من فنون هذه الطريقة، يقولُ في مُفْتَتِحِها، وهو من أبدعِ مذاهب البلاغة 5 في الإشعارِ بالمقصدِ في مَطْلَعِ الكلامِ وافتتاحه، ويسمى براعة الاستهلال:

سبحان مالك خَواطِرِ الأُمَرَا بنواصيها في كلِّ حينٍ^(أ) وَزَمَانٍ
إن طعناه أعظم^(ب) لنا نُضْراً وإن عاصيناه^(ج) عاقب بكلِّ هَوَانٍ

إلى أن يقول في السؤالِ عن جيوش المغرب بعد التَّخَلُّص:

10 كن مُرعي قُلْ ولا تكن راعي فالراعي عن رعيِّتو مسؤول
واستفتح بالصلاة على الداعي للإسلام والرضا السني المكمول
للخلفا الراشدين والاتباعي واذكُرْ بَعْدَ إِذَا تحبُّ وقول
أَحْجَاجاً تَخَلَّلُوا الصُّخْرَا وَذَرُوا شرح البلاد مع السكَّان

(أ) ي : حن (ب) كنا في ظي، وفي ج: اعطفهم، وفي م: عطفم (ج) ج م: عصناه .

(1) اكتشف مَلْعَبَةُ الكفيف الزرهوني هذه العلامة محمد بن شريفة، وحققها وقَدَّمها وشرح لغتها، وعدد أبياتها 497 بيتاً. (المطبعة الملكية، الرباط 1987)، وبين النصين بعض الاختلاف في اللفظ والترتيب. وقد قابلناها واخترنا من القراءة ما اتضح به المعنى، ورمزنا للملعبه بحرف (م)، وحافظنا على الرسم والشكل الذي كتبت به.

عسكر فاس المنيرة الغرّا اين سارت به عزائم السلطان

أحجاج بالنبي الذي رُزِمَ وقطعتم لوكلاكل البيدا

عن جيش الغزب جيت نسالكم المثلوف في فريقا السوداء

/ ومن^(١) كان بالعطا يزودكم ويدع برّية الحجاز رعدا

[431ب]

قام [قل كالسد]^(ب) صاذف الحدرا وفجر شوط بعد ما تحقان^(ج)

5

ونزف كزدم^(د) وبهت في الغبرا ادّي صار [ازغر لهم سجان]^(هـ)

لو كان ما بين تونس القزبا^(و) وبلاد الغرب ردّ^(ز) لسكندر

يبنى من شرقها إلى غربا طبقا بخد وثانيا بصفر

لابد الطير كن يحيب نبا أويات الريح عتم^(ح) بفرد خبر

مغوضها من أمور وما شرّا لو تقرأ فالقؤول^(ط) مع الويدان

10

لجرت بالدم وانصدغ^(ي) حجرا وهوت لجراف وجفت القران^(ك)

ادري لي فعقلك^(ل) الفحاض وثقكر لي فحاطرك^(م) جمعا

إن كان تعلم حمام ولا رقاض عن السلطان شهر وقل^(ن) سبعا

(١) أزهار الرياض: وأمير (ب) أزهار الرياض: كل كلسد (ج) ط: بختان، وفي أزهار الرياض: لحيان (د) في م: ردوم وبهت: نهران بالمغرب من روافد وادي سبو، وفي أزهار الرياض: وتركوا دم ولهب.... (هـ) كذا، وفي م 42: أزغار بهم سيحان، وفي أزهار الرياض: أدّى صار إذ غار لهُ متبحان (و) أزهار الرياض: القزبا (ز) أزهار الرياض: سد (ح) بمعنى عنهم (ط) أزهار الرياض: كل يوم على الويدان (ي) م: وانصبغ (ك) م، وأزهار الرياض: الغدران (ل) أزهار الرياض: بعقلك (م) أزهار الرياض: بخاطرك (ن) ي، وأزهار الرياض: وقبله .

يُظْهِرُ^(أ) عبد المهيمن الغَوَاضِ^(ب) وَعَلَامَاتُ تَنْتَشِرُ عَلَى الصُّمَعَا

الْأَقْوَمُ عَارِيَيْنِ بِلَا سُرَا
مَآ يَدِيرُوا كَيْفَ يَصَوِّرُوا الْكُسْرَا
مَجْهُولِينَ لَا مَكَانَ وَلَا أَمَكَانَ
أَوْ كَيْفَ دَخَلُوا مَدِينَةَ الْقُرَوَانِ

أُمُوْلَايَ بُو الْحَسَنِ خَطِينَا الْبَابِ
فِيْغْنَا كَمَا عَنِ الْجَرِيْدِ وَالزَّابِ
فَقَضِيَّةٌ سَآيِرُنَا إِلَى تُونِسَ
وَإِشْ لَكَ فَاغْرَابَ فَرِيقِيَا الْغَوْبُسَ 5
مَا بَلَغَكَ عَنْ عَمَرٍ فَتَا^(ج) الْخَطَّابِ
الْفَارُوقُ فَاتِحُ الْقُرَى الْمَوْلَسِ

مَلِكِ الشَّامِ وَالْحِجَازِ وَتَاخُ كُسْرَا
[كَانَ ذَا ذُو كَرْتِ الْوَكْرَةِ]^(هـ) ذِكْرَا
وَفَتْحِ^(د) مِنْ فَرِيقِيَا ذُكَّانَ
وَيَقْلُ فِيهَا تَفَرَّقَ الْإِخْوَانُ

هَذَا الْفَارُوقُ زُمَرْدُ الْإِكْوَانِ
وَبَقْتُ [جَمِيْ] ^(و) إِلَى زَمَنِ عَثْمَانَ
صَرَّحَ فِي أَفْرِيقِيَا بِذَا التَّضْرِيحِ
وَفَتْحَهَا ابْنُ الزَّيْبِرِ عَنْ تَصْحِيحِ 10
لَمَنْ دَخَلَتْ غَنَائِمَا الدِّيَوَانِ
مَاتَ عَثْمَانُ وَانْقَلَبَ عَلَيْنَا الرِّيحُ

وَأَفْتَرَقَ النَّاسَ عَلَى ثَلَاثِ أُمُرَا
/ فَإِذَا كَانَ ذَا فِي مَدَةِ الْبَرَا
وَبَقَا مَا هُوَ السَّكُوتُ عَنَّا إِيْمَانُ
أَشْ نَعْمَلُ فِي أَوَاخِرِ الْإِزْمَانِ

[432]

وَصُحَابِ الْجَفْرِ فِي كَتَيْبَاتَا
وَفِي تَارِيخِ كَاتِبَا وَكَيْوَانَا

(أ) أزهار الرياض: بكتاب (ب) أزهار الرياض: القَوَاضِ (ج) أزهار الرياض: بن (د) أزهار الرياض: لم يفتح (هـ) أزهار الرياض: كلُّ إِذَا تَذَكَّرَ لَهُ كَرِهَ (و) في ط ج : جاء ، ولا وجه لها ، وأثرت قراءة (ي) و(م) .

تذكر في صُفْهَها وَائِياتا شِقٌّ وَسطيح وابن مُرَّانا
انَّ^(أ) مُرِين إذا اتكت بَراياتا لجدار تونس فقد سقط شانا

وذكرنا [ما]^(ب) قال لسَيِّد الوزرا عيسى بن لَحْسَن الرفيع الشَّان
قال لي رَيْنَا وانا بذا أدرا لكن ذَا جَا القَدْر^(ج) عَمَت الأَجْفاَن

ونقول لك ما رما المَريْتَا من حَضْرَة فَاش إلى عَرَب دَبَّاب
راد المولى يموت بويحيى سلطان تونس وصاحب العُتاب 5

ثم أَخَذَ في تَرْحِيل السُّلْطانِ وَجُيُوشِهِ إلى آخِرِ رَحْلَتِهِ وَمُنْتَهَى أَمْرِهِ مع
أَغْرابِ إِفْرِيقِيَّةٍ، وَأَتَى فيها بِكُلِّ غَرِيبَةٍ^(د) من الإِبْداعِ.

وَأَمَّا أَهْلُ تُونِسَ، فَاسْتَخْدَثُوا فَرْنَ الْمَلْعَبَةِ أَيْضاً على لُغَتِهِمِ الحَضْرِيَّةِ، إِلَّا أَنَّ
أَكْثَرَهُ رَدِيءٌ، ولم يعلُقْ بِمَحْفُوظِيٍّ مِنْهُ شَيْءٌ لِرَدَائِعَتِهِ. 10

وكان لعامة بغداد أيضاً فَرْنَ من الشَّعْر يُسَمُّونَهُ المَوالِيا، وَتَحْتَهُ فَنُونٌ كَثِيرَةٌ
يُسَمُّونَ مِنْهَا الحَوفِي، وكان وكان، وَدُو بَيْتَيْنِ، على اِخْتِلَافِ المَوازِينِ المُغْتَبَرَةِ عِنْدَهُمْ
في كُلِّ واحدٍ مِنْهَا، وَغالبُها مُزْدَوِجَةٌ مِنْ أَرْبَعَةِ أَغْصَانٍ.

وتبعهم في ذلك أَهْلُ مِصْرَ والقَاهِرَةِ، وَأَتَوْا فيها بِالْغُرَائِبِ، وَتَجَارَوْا فيها في
أَسَالِيبِ البَلَاغَةِ بِمَقْتَضَى لُغَتِهِمِ الحَضْرِيَّةِ، فَجَاءُوا بِالْعَجَائِبِ. 15

(أ) أزهار الرياض: ابن (ب) من أزهار الرياض (ج) أزهار الرياض: الفضل (د) ج: غريب .

* ورأيت في ديوان الصّفيّ الحليّ من كلامه⁽¹⁾: أنّ المواليا من بَحْر البسيط، وهو ذو أربعة أَعْصَانٍ وأربع قوافٍ، ويُسمّى صوتاً وَيَتَيْنٌ، وأنّه من مُخترعات أهل واسط، وأنّ كان وكان فهو قافية واحدة وأوزان مختلفة في أشطاريه. والشّطر الأوّل من البيت أطول من الشّطر الثّاني، ولا تكون قافيته إلا مُردفة بحرف العلة، وأنّه من مُخترعات البغاددة، وأنشد⁽¹⁾:

5

لنا بغمز الحواجب حديثٌ تُفسّرو منّو وأمّ الأخرس تعرف بلغة الخرسان⁽²⁾
انتهى كلام الصّفيّ* (ب).

/ ومن أعجب ما علّق بحفظي من المواليا، قولُ شاعرهم:

[432ب]

هذي جراحي طريّاً والدّما تنّصّح وقاتلي يا أخيّاً في الفلا يفرّخ
قالوا وتاخذ بشارك قلت ذا أفتّخ ادّي جرخني يداويني يكون أضلّخ

10

(أ) ج: وأنشد منه (ب) سقط ما بين النجمين من نسخة ي .

(1) ذكره الصّفيّ الحليّ بتصرّف في اللفظ في العاقل الحالي : 105 .

(2) عمد الحليّ إلى جمع عشرين بيتاً من قصائد للبغاددة في أغراض يتداولها الناس وتجري مجرى الأمثال، ولا يُعرف ناظمها. فضمّنها عشرين بيتاً من نظمه، وقدم لكل بيت منها بيتاً يناسبه. ومهد لهذا بقوله:

وقفت يوم لحبيبي حتّى اغتصو وأحاصمو فقلت وقال جواي بالغمز بالاجفان
لنا بغمز الحواجب كلامٌ تُفسّرو منّو وأمّ الأخرس تعرف بلغة الخرسان

وهذا مصتّف عند الحليّ في الكان كان وليس في المواليا (العاقل الحالي 117)، ابن حجة الحمويّ: بلوغ الأمل 140، وفيه: بلغوة الخرسان .

ولغيره:

طرقت باب الحبأ، قالت من الطارق فقلت مفتون لا ناهب ولا سارق
تبسمت لاح لي من ثغرها بارق رجعت حيران في بحر اذمعي غارق

ولغيره:

5 عهدي بها وهي لا تامن عليّ البين وإن شكوت الهوى قالت فدتك العين
لمن تعان لها غيري غلام زين ذكرتها العهد، قالت: لك عليا دين

ولغيره في وصف الحشيش:

خمرة سراوا التي عهدي بها باقي ثغني عن الخمر والخمار والساق
قحبا ومن قحها تعمل على اخراقي خبيثها في الحشا طلت من اخداقي

10 ولغيره:

يا من وصألو لأطفال المحبة^(أ) نخ كم توجع القلب بالهجران أوه أخ
أودعت قلبي حوخو^(ب) والتصبز بخ كل الوري كخ في عيني وشخصك دخ

ولغيره⁽¹⁾:

ناديتها ومشيني قد طواني طنى جودي عليا بقبله في الهوى يا مئى

(أ) ج ي: الحبا (ب) الشكل من ظه، وفي ج: حوخو، وفي ي محملة .

(1) أزهار الرياض 2 : 226 .

قالت وقد تركت داخل فؤادي كي
ما ظنّ ذا القطن يغشى فم من هو حي
ولغيره:

راني ابتسم، سبقت سحب ادمعي بَرَقوا
أسبل دُجى الشَّعر تاه القلب في طُرُقوا
ولغيره (1):

5

يا حادي العيس يزجر بالمطايا رَجِر
وصيح في حَيِّهم يا من يُريد الأجر
ومن الذي يسمّونه ذو بيتين (2):

قد أقسم من أحبه بالباري
يا نار تشوّقي به فاتّدي
ولغيره (3):

10

عيني التي كنت تنظركم بها باتت
/ وأسهم البين صابثتي ولا فاتت [433]
ترعى النجوم وبالتسهد اقتاتت
وسلوتي - أعظم الله أجركم - ماتت

(1) أزهار الرّياض 2 : 226 .

(2) المصدر نفسه 2 : 227 .

(3) المصدر نفسه 2 : 226 .

ولغيره:

هويت في قنطرتكم يا ملاح الجكز غزال يبلي الأسود الصّاريا بالفكز
غصن إذا ما اثنا ينسي النبات البكر وإذا تهلل فما للبذر عندو ذكر

واعلم أنّ الأذواق في معرفة البلاغة منها كلّها إنّما تحصل لمن خالط تلك
5 اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها حتى يحصل ملكتها، كما قلناه في اللغة
العربية. فلا يشعر الأندلسي بالبلاغة التي في شعر أهل المغرب، ولا المغربي
بالبلاغة التي في شعر أهل المشرق والأندلس، ولا المشرقيّ بالبلاغة التي في شعر
أهل الأندلس والمغرب، لأنّ اللسان الحضري وتراكيبه مختلف فيهم، وكلّ أحد
[منهم]⁽¹⁾ مدرك بلاغة لغته، وذائق محاسن الشعر من أهل جلدته.

10 وفي خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم آيات للعالمين (ب).

(1) من: ج ي، ونسقط من ظ (ب) تضمين لما في الآية 22 من سورة الروم .

وقد كِدْنَا أَنْ نَخْرِجَ عَنْ الْغَرَضِ، وَعَزَمْنَا أَنْ نَقْبِضَ الْعِنَانَ عَنِ الْقَوْلِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ طَبِيعَةُ الْعُمْرَانِ وَمَا يَغْرِضُ فِيهِ، فَقَدْ اسْتَوْفَيْنَا مِنْ مَسَائِلِهِ مَا حَسَبْنَا [هَذَا] ^(أ) كِفَاءً لَهُ. وَلَعَلَّ مَنْ يَأْتِي مِنْ بَعْدِنَا مِمَّنْ يُؤَيِّدُهُ اللَّهُ بِفِكْرٍ صَحِيحٍ، وَعِلْمٍ مَتِينٍ، يَغْوِضُ مِنْ مَسَائِلِهِ عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا كَتَبْنَاهُ؛ فَلَيْسَ عَلَى مُسْتَنْبِطِ الْفَنِّ إِحْصَاءُ مَسَائِلِهِ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِ تَعْيِينُ مَوْضُوعِ الْعِلْمِ وَتَنْوِيعُ ^(ب) فُصُولِهِ وَمَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ. وَالْمُتَأَخَّرُونَ 5 يُلْحِقُونَ الْمَسَائِلَ مِنْ بَعْدِهِ شَيْئاً شَيْئاً ^(ج) إِلَى أَنْ تَكْمَلَ ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة، من الآية 216].

قَالَ مُؤَلِّفُ الْكِتَابِ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: أَتَمَمْتُ هَذَا الْجُزْءَ الْمَشْتَمِلَ عَلَى الْمَقْدَمَةِ بِالْوَضْعِ وَالتَّأْلِيفِ قَبْلَ التَّنْقِيحِ وَالتَّهْدِيدِ، فِي مَدَّةِ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ، آخِرَهَا مُنْتَصَفُ عَامِ تِسْعَةِ وَسَبْعِينَ وَسُبْعِمِائَةٍ. ثُمَّ نَقَّحْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَهَدَّيْتُهُ، وَأَلْحَقْتُ بِهِ مِنْ تَوَارِيخِ 10 الْعَرَبِ [وَالْعَجَمِ] ^(د) وَالْبَرِّيرَ مَا اخْتَرْتُهُ.

[433ب] ثُمَّ اسْتَوْفَيْتُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْمُلَقَّبِ بِالظَّاهِرِيِّ خَبَرَ / الدُّوَلِ فِي الْخَلِيقَةِ وَالْعَالَمِ، وَاسْتَوْعَبْتُهُ حَسْبَ ذِكْرَتِهِ فِي أَوَّلِهِ وَشَرَطْتُهُ. وَمَا الْعِلْمُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

(أ) مِنْ ج ي (ب) ج : تَوْجَع (ج) ج : شَيْئاً فُشِيناً (د) إِضَافَةٌ يَقْتَضِيهَا النَّصُّ، انْظُرْ مَا بَعْدَهُ .

كُلَّ الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِ الظَّاهِرِيِّ فِي الْعَبَرِ، بِأَخْبَارِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالْبَرْزِ، وَبِكَمَالِهِ
كُلَّتِ الْمَقْدَمَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْمَذْكُورَةُ فِي أَوَّلِهِ.

يَتْلُوهُ فِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ الْكِتَابُ الثَّانِي، فِي أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَأَجْيَاهُمْ وَدُولِهِمْ، مُنْذُ مَبْدَأِ الْخَلِيقَةِ
وإِلَى هَذَا الْعَهْدِ، وَأَخْبَارِ مُعَاصِرِهِمْ مِنْ أُمَّمِ الْعَجَمِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَقُّ حَمْدِهِ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَعَبْدِهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ،
وَسَلَامُهُ.

خاتمة نسخة بي:

قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه: أتممت هذا الجزء الأول بالوضع والتأليف قبل التنقيح
والتهديب، في مدة خمسة أشهر، آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبع مائة، ثم نقحته بعد
ذلك وهذبته، وألحقت به من تواريخ الأمم كما ذكرته في أوله وشرطته. وما العلم إلا من عند الله
العزیز الحكيم.

خاتمة نسخة ج:

قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه: أتممت هذا الجزء الأول بالوضع والتأليف قبل التنقيح
والتهديب، في مدة خمسة أشهر، آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبع مائة، ثم نقحته بعد
ذلك وهذبته، وألحقت به من تواريخ الأمم كما ذكرته في أوله وشرطته، وما العلم إلا من عند الله
العزیز الحكيم.

وكتبه بيده الفانية أحوج الناس لرحمة ربه، عبد الله بن حسن الشهير بابن الفخار،
حامداً لله على نعمه، ومصلياً ومُسَلِّماً وَمُحْسِبِلاً. ونقلته من أضله المتوج بخط مؤلفه في بعض هامشه
وملحه وتخارجه، وكتبها جميعها وأحاط بما كتبت، وقرأ في غالبه، والله المسؤول أن يقيه ويمتعه
ببقائه، آمين.

وكتب في العاشر من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وسبعمائة.

اللهم صل على سيدنا محمد وآله وسلم.

المستند مرك

• فصل، في اتساع نطاق الدولة أولاً إلى نهايته، ثم تضايقه ثانياً⁽¹⁾ طوئراً بعد طوئراً إلى فناء الدولة واضمحلالها

تجزيته

هذا الفصل كان موجوداً في نسخة عاطف أفندي الأم، مثبتاً في بطاقة مُضافة استوعبته، وقد أخرج له ابن الفخار - الناسخ المتفرغ لابن خلدون، وكاتب النسخة "ع" - إشارة مُخرج متجهة إلى اليمين تدل على موقع الفصل، وأنه موجود خارج الحاشية كما اعتاد أن يفعل في الإضافات الكبيرة. وموقعه محدّد بين فضلي: كيفية طروق الحقل في الدول (الفصل 47، 1: 505) وحُدوث الدول وتجدها كيف يقع (الفصل 48، 1: 510).

طالب انتزعها من يدي القامتين بها ولا يقيت وهي تتلاشى إلى ان تفحم
كالذبال في السراج اذا فني نشته وطفي والله مالك الامور بعد
البركان لا اله الا هو
فصل في حدوث الدول
وتجدها كيف يقع اعلم ان نشأة الدول وبلداتها
اذا اخذت الدولة المستقرة في المهرم والانتقال يكون على نوعين اما

والمؤكد أن هذا الفصل تما زاده ابن خلدون بعد سنة 799هـ / 1395م لأن النسخ المعتمدة في هذه النشرة وعليها خطه وإضافاته وتصويباته، حُطّ آخرها في التاريخ المشار إليه؛ وهو سنة 799هـ بما في ذلك نسخة فاس المفقودة، التي أهداها في السنة نفسها لأبي فارس عبد العزيز المريني ونقلت عنها كل النسخ المغربية الشائعة، والتي اعتمد بعضها الشيخ نصر الهوريني لطبعته في بولاق، الحالية من هذا الفصل.

وقد كان الملحق موجوداً عندما آلت تلك النسخة الأم إلى عاطف أفندي، وطلب من الناسخ حسن بن أحمد أن يستخرج له نسخة يدخل فيها حواشي الأصل في مواقعها، ويهيئ نسخة موحدة تمثّل عمل ابن خلدون في المقدمة مبيّضاً كما أراد في آخر مراحل حياته. واستغرق الناسخ في هذا العمل مدة ما بين 1140هـ (1728م) - 1155هـ (1742م) كما نُصّ على ذلك.

(1) سقط من ب .

وقد آلت هذه النسخة إلى مجموعة العلامة أحمد تيمور باشا في مصر، واختفى بعدها هذا النص من أصله الملتصق به.

ونورده لصحة ارتباطه بالمرحلة الحديثة للكتاب، معتمدين في مقابلته على مخطوطة التيمورية ونشرة E. Quatremere للمقدمة (باريس 1858) 2: 114 - 117 .



قد كان تقدّم لنا في فضل الخلافة والمُلك، وهو الثالث من هذه المقدمة، أن كل دولة لها حصّة من الممالك والجمالات لا تزيد عليها. واعتبر^(أ) ذلك بتوزيع عصابة الدولة على حماية أقطارها وجهاتها. فحيث نقد^(ب) عددهم فالطرف الذي انتهى عنده هو الثغر؛ ويحيط بالدولة من سائر جهاتها كالنطاق. وقد تكون النهاية هي نطاق الدولة الأول. وقد يكون أوسع منه إذا كان عدد العصابة أوفر من الدولة قبلها. وهذا كله عندما تكون الدولة في شعار البداوة وخشونة البأس. فإذا استغفل العز والغلب، وتوفرت^(ج) النعم والأزراق بدور^(د) الجبايات، ورخر بحر الترف والحضارة، ونشأت الأجيال على اعتياد ذلك، لطفت أخلاق الحامية ورقت حواشيمهم، وعاد من ذلك على^(هـ) نفوسهم هيئات الجبن والكسل بما يعانونه^(و) من خنث^(ز) الحضارة المؤدي إلى الانسلاخ من شعار البأس والرجولة^(ح) بمفارقة البداوة وخشوتها، وبأخذهم^(ط) العز بالتطاؤل إلى الرياسة والتنازع فيها. ويفضي^(ي) إلى قتل بعضهم بعضاً^(ك) ويكبجهم السلطان عن ذلك بما يؤدي إلى قتل أكابرهم وإهلاك رؤسائهم. فيفقد^(ل) الأمراء والكبراء، ويكثر التابع والمرعوس، فيقل ذلك من حد^(م)

(أ) ت: واعتبار (ب) ب: فذ (ج) ت: وتعددت (د) ت: يدور (هـ) ب: إلى (و) ت: يعانيه (ز) ب: خنث

(ح) ب: الرجولية (ط) ب: وبأخذهم (ي) ب: فيفضي (ك) ب: بعضهم بعضهم (ل) ب: فتفقد (م) ت: حدود .

الدولة، ويكسر من شوكتها، ويقع الخلل الأول في الدولة، وهو الذي من جهة الجند والحامية كما تقدم.

ويساوي ذلك السرف في التفقات بما يغترهم من أبهة العز، وتجاوز الحدود في البذخ، بالمناعة في المطاعم والملابس، وتشييد القصور، واستجادة السلاخ وارتباط الخيول؛ فيقتصر دخل الدولة حينئذ عن^(ا) خزجها^(ب)، ويترك الخلل الثاني في الدولة وهو الذي من جهة المال والحباية. ويحصل العجز والانتقاض^(ج) بوجود الخللين. وربما تنافس رؤسائهم فتنازعوا، وعجزوا عن مغالبة^(د) المنازعين والمجاورين^(هـ) ومداقتهم. وربما اعتز أهل [الثغور]^(و) والأطراف بما يحسون من ضعف الدولة وراءهم، فيصرون إلى الاستقلال والاستبداد بما في أيديهم من العمالات، ويعجز صاحب الدولة عن حملهم على^(ز) الجادة، فيضيئ نطاق الدولة عما كانت انتهت إليه في أولها، وترجع العناية في تديرها^(ح) بنطاق دونه، إلى أن يحدث [في النطاق]^(ط) الثاني ما حدث في الأول بعينه من العجز والكسل في العصاة وقلة الأموال والحباية. فيذهب القائم بالدولة إلى تغيير القوانين التي كانت عليها سياسة الدولة من^(ي) قبل الجند والمال والولايات، ليجري حالها [على]^(ك) استقامة بتكافؤ^(ل) الدخل والخرج والحامية والعمالات وتوزيع الحباية على الأزواق، ومقايضة ذلك بأول الدولة في سائر الأحوال. والمفاسد مع ذلك متوقعة من كل جهة. فيحدث في هذا الطور من بعد ما حدث في الأول من قبل. ويعتبر صاحب الدولة أيضا^(م) ما اعتبره الأول، ويقايس بالوزان الأول أحوالها الثانية، يزوم دفع مفاسد الخلل^(ن)

(ا) ب: من (ب) ت: خروجها (ج) ب: والانتقاض (د) ت: من مبالغة (هـ) ب: المجاورين والمنازعين (و) سقط من ت (ز) ت: عن (ح) ب: تديرها (ط) سقط من ت (ي) ب: في (ك) سقط من ت (ل) ت: يتكافؤ (م) سقط من ب (ن) ت: الحال.

الذي يتجدد في كل طور، ويأخذ من كل طرف، حتى يضيق نطاقها الآخر إلى نطاقٍ دونه كذلك، ويقع فيه ما وقع^(أ) في الأول. وكل واحد من هؤلاء المغيّرين للقوانين قبلهم كأنهم مُنشئون دولة أخرى، ومجددون مُلكاً، حتى تنقرض الدولة، وتتطاوُل^(ب) الأمم حوّلها إلى التغلب عليها وإنشاء دولة أخرى لهم، فيقع من ذلك ما قدّر الله وقوّعه.

واعتبر ذلك في الدولة الإسلامية كيف اتسع نطاقها بالفتوحات والتغلب على الأمم، ثم تزايد^(ج) الحامية وتكاثر عددهم^(د) بما تحوّلوه من النعم والأزراق، إلى أن انقرض أمر بني أمية وغلب بنو العباس. ثم تزايد الترف ونشأت الحضارة، وطرق الخلل، فضاقت النطاق من الأندلس والمغرب بمحدث الدولة الأموية المروانية والعلوية^(هـ)، واقتطعوا ذئبك الثغرين عن نطاقها، إلى أن وقع الخلاف بين بني الرشيد، وظهر دعاة العلوية من^(و) كل جانب، وتمهدت لهم دول.

ثم قُتل المتوكل، واستبدّ الأمراء على الخلفاء وحجروهم، واستقلّ الولاية بالولايات^(ز) في الأطراف، وانقطع الخراج منها، وتزايد الترف. وجاء المعتضد فغير^(ح) قوانين الدولة إلى قانون^(ط) آخر من السياسة، أقطع فيه ولاية الأطراف ما غلبوا عليه، مثل بني سامان وراء النهر، وبني طاهر العراق وخراسان، وبني الصفار السند وفارس، وبني طولون مصر، وبني الأغلب إفريقية، إلى أن افترق أمر العرب وغلب العجم؛ واستبدّ بنو بويه والديلم بدولة الإسلام وحجروا الخلافة، و[بقي]^(ي)

(أ) ت: يقع (ب) ت: ويتطاوُل (ج) ت: كما يتزايد (د) ت: عدوهم (هـ) ت: بمحدث دولة المروانية والعلوية (و) ب: في (ز) ت: الولاية بالولايات (ح) ت: فيغير (ط) ت: ماثور (ي) سقط من ت .

بنو سامان [في استيادهم]^(أ) وراء النهر، وتطاول^(ب) الفاطميون من المغرب إلى مصر والشام فملكوه^(ج). ثم قامت الدولة السلجوقية من الترك فاستولوا على ممالك الإسلام؛ وأبقوا الخلفاء في حجرهم، إلى أن تلاشت دولهم.

واستبد الخلفاء منذ عهد التاصر في نطاق أضيق من هالة القمر، وهو عراق العرب إلى أذربهان وفارس والبحرين. وأقامت الدولة كذلك بعض الشيء، إلى أن انقرض أمر الخلفاء على يد هولاكو^(د) بن طولي بن دوشي خان^(هـ) ملك الططر والمغل حين غلبوا السلجوقية وملكوا ما كان في أيديهم^(و) من ممالك الإسلام. وهكذا يتضائق نطاق كل دولة على نسبة نطاقها الأول. ولا يزال طوراً بعد طور إلى أن تنقرض الدولة. واعتبر ذلك في كل دولة عظمت أو صغرت، فهكذا سنه [الله]^(ز) في التول، إلى أن يأتي ما قدر الله من الفناء على خلقه [و]^(ز). ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [سورة القصص، من الآية 88].

(أ) سقط من ت، وعوضها: بما (ب) ت: ويطاول (ج) ت: فملكوا (د) ت: هلاكوا (هـ) ت: حال (و) ت: بأيديهم (ز) سقط من ت .

❖ فصلٌ، في أنّ الرياسة لا تَرَالُ في نصابها المخصوص من أهل العصبية

تمهيدية

لم يرد هذا الفصل في الرواية الحديثة للنص، ولم نجد في النسخة الأم "ع" وبقية الأصول الموازية لها إشارة مُخرج بآخر الفصل الذي تقدّمه، وهو: "فصل في اختلاط الأنساب كيف يقع" يدلّ على أنه كان هناك بطاقة تضمّنث الإضافة، وسقطت بوجه من وجوه التلف، كما حدّث للفصل 48 من الفصل الثالث. كذلك لم يرد لهذا الفصل ذكر في النسخة التيمورية، وفي طبعة باريس.

وقد ظهر للمرة الأولى في نشرة الشيخ نصر الهوريني للمقدمة، التي نشرتها مطبعة بولاق في شهر صفر سنة 1274هـ / 1857م وعلّق إلى جانبه في الحاشية، "أن النص ساقط من النسخ المتداولة، وقد وجده في نسخة مضبوطة منقولة من نسخة المؤلف الأولى، قبل الزيادة عليها والحذف منها". وكتب هذا في جمادى سنة 1273هـ / يناير 1857م.

ويظهر أنّه كان موجوداً في نسخ صيغة المقدمة الأولى، ثم استبعد ابن خلدون في النسخة الحديثة، بعد أن ضمّن محتواه الفصل الحادي عشر (نشرتنا 1: 233): "في أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم"، وفيه يقرر محضلة "أنّه لا بدّ في الرياسة على القوم أن تكون من عصبية غالبية لعصبيّاتهم".

ورأينا إثبات هذا النصّ في المستدرك، لأنّه يُساعد على توضيح طريقة ابن خلدون في معالجة أفكاره ومراجعة صياغتها، للوصول إلى ما يكون أكثر وضوحاً وارتباطاً بالمضامين العامة والخاصة التي تستقرّ في ذهنه.

وقد اعتمدنا في استخراجها على ما أثبتته نصر الهوريني بخطه في حاشية مخطوطة دار الكتب المصرية (رقم 612 تاريخ تيمور) التي اعتمد عليها في نشره لطبعة بولاق الأولى للمقدمة سنة 1247، ص 64، والطبعة الثانية في بولاق أيضاً لكلّ كتاب العبر 1: 110، وعلى ما نشره د. علي عبد الواحد وافي 2: 488.



اعلم أنّ كلّ حيٍّ أو بطنٍ من القبائل وإن كانوا عصابةً واحدةً لنسبهم العام، ففهم أيضاً عصبيةً أخرى لأنسابٍ خاصّة هي أشدّ التّحاماً من النسب العامّ لهم،

مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد، أو إخوة بني أب واحد، لا مثل بني العمّ الأقرين أو الأبعدين. فهؤلاء أقعدُ بنسبهم المخصوص ويشاركون مَنْ سواهم من العصائب في النسب العام. والنّعة تقع من أهل نسبهم المخصوص، ومن أهل النسب العام؛ إلاّ أنّها في النسب الخاصّ أشدُّ لقرب اللّحمة. والرّياسة فيهم إنّما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكلّ. ولما كانت الرّياسة إنّما تكون بالغلب، وجب أن تكون عصبيّة ذلك النّصاب أقوى من سائر العصائب، ليقع الغلب بها ويتمّ الرّياسة لأهلها. فإذا وجب ذلك تعيّن أنّ الرّياسة عليهم لا تزال في ذلك النّصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم؛ إذ لو خرجت عنهم وصارت في العصائب الأخرى النّازلة عن عصابتهم في الغلب لما تمّت لهم الرّياسة. فلا تزال في ذلك النّصاب متناقلة من فرع منهم إلى فرع، ولا تنتقل إلاّ إلى الأقوى من فُروعه، لما قلنا من سرّ الغلب؛ لأنّ الاجتماع والعصبيّة بمثابة المزاج للمتكون؛ والمزاج في المتكوّن لا يصلح إذا تكافأت العناصر؛ فلا بُدّ من غلبة أحدها، وإلاّ لم يتمّ التكوين. فهذا هو سرّ اشتراط الغلب في العصبيّة. ومنه تعيّن استمرار الرّياسة في النّصاب المخصوص بها كما قرّرناه.

المصادر والمراجع

- آثار البلاد وأخبار العباد، زكرياء بن محمد القزويني، دار صادر، بيروت 1969م
- الآداب الشرعيّة والمنح المرعية، محمد بن مفلح المقدسيّ الحنبليّ، تحقيق عصام فارس الحرسانيّ، دار عمار، عمان (د.ت.)
- آداب المعلمين، محمد بن سُخْنُون، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، مراجعة محمد العروسيّ المطويّ، تونس 1972م
- إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، أحمد بن أبي الضياف، وزارة الثقافة، تونس، 1963م
- الإحاطة في أخبار غرناطة، محمد بن عبد الله، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجيّ، القاهرة 1973م
- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ترتب ابن بلبان الفارسيّ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة؛ بيروت 1991م
- الأحكام السلطانيّة والولايات الدينيّة، علي بن محمد بن حبيب الماورديّ، تحقيق محمد جاسم الحديثيّ، المجمع العلميّ، بغداد 2001م
- أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازيّ الجصاص، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت 1985م
- أخبار الدول المنقطعة، ابن ظافر الأزديّ، تحقيق عصام هزايمة، محمد محافظة، محمد طعاني، علي عبابنة، مؤسسة حمادة ودار الكنديّ للنشر، إربد (الأردن) 1999م
- أخبار القضاة، محمد بن خلف بن حيان، وكيع، عالم الكتب، بيروت (د.ت.)، (مصورة)

• أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقى، صححها وعلّق حواشيها رشدي الصالح ملحق، ط2، نشرها عبد المقصود خوجه، جدة 2005م

• أخبار ملوك بني عُبيد وسيرتهم، محمد بن علي بن حمّاد الصّنهاجي ، حققه وترجمه M. Vonderheyden نشریات کلیّة الآداب بالجزائر، الجزائر- باريس 1927م

• الأربعون حديثاً في المهديّ، أحمد بن عبد الله، أبو نعيم الأصفهانيّ، تحقيق علي باقر، تراثنا، طهران 1425هـ

إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب = معجم الأدباء

• أزهار الرياض في أخبار عياض، أحمد بن محمد المقرئ، صندوق إحياء التراث الإسلاميّ المشترك، الرباط 1978 - 1980م

• الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد بن خالد الناصريّ السلاويّ، تحقيق وتعليق جعفر الناصريّ ومحمد الناصريّ، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب 1956م

• الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البرّ النمريّ القرطبيّ، تحقيق علي محمد البجاويّ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة (د.ت.) (مصورة)

• أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين علي بن محمد بن الأثير، المكتبة الإسلامية، بيروت (د.ت.) (مصورة)

• الإشارات والتنبيهات، أبو علي بن سينا، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، مصر 1971م

- الاشتقاق، محمد بن الحسين بن دريد الأزدي، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط2، مكتبة المثنى، بغداد 1979م
- الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، ط6، دار العلم للملايين؛ بيروت، 1980م
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق فرانز روزنتال، ترجمة صالح أحمد العلي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت.)
- أعمال مهرجان ابن خلدون (2 - 6 يناير 1962)، المركز القومي للبحوث الاجتماعية، القاهرة 1962م
- أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، تحقيق حسن الأمين، ط5، دار التعارف للمطبوعات، بيروت 1983م
- الأغاني، علي بن الحسين، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، دار صادر؛ بيروت 2002م
- افتتاح الدعوة، النعمان بن محمد بن منصور، ابن حيون، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1975م
- الأمالي، إسماعيل بن القاسم القالي، دار الحديث للنشر؛ بيروت 1984م (مصورة)
- أمية بن أبي الصلت: حياته وشعره، بهجة عبد الغفور الحديثي، مطبعة العاني، بغداد 1975م
- إنباء الغمر بأبناء العمر، ابن حجر العسقلاني، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986م

- الإنباه على قبائل الرواه، يوسف بن عبد الله، ابن عبد البر، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1985م
- إنسان العيون = السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمؤمن
- الأوائل، الحسن بن عبد الله، أبو هلال العسكري، دار الكتب العلميّة، بيروت 1987م
- أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، محمد بن علي البروسوي، ابن سباهي زاده. تحقيق المهدي الرواضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2006م
- إيضاح المكنون، إسماعيل الباباني، دار الفكر، بيروت، 1982م (مصورة)
- كتاب الإيمان، محمد بن إسحاق بن يحيى بن مندة، تحقيق علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة 1981م
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، محمد بن أحمد بن إياس، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1982 - 1984م
- بدائع السلك في طبائع الملك، محمد بن علي ابن الأزرق، تحقيق علي سامي النشار، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، 1978م
- البداية والنهاية، ابن كثير القرشي، ط2، دار الفكر، بيروت 1978م (مصورة)
- بسط الأرض في الطول والعرض، علي بن موسى، ابن سعيد المغربي، تحقيق خوان قرنيط، معهد مولاي الحسن، تطوان 1958م
- كتاب بغداد، أحمد بن طاهر، ابن طيفور، مكتبة المثنى، بغداد، مكتبة المعارف، بيروت 1968م

- كتاب البلدان، أحمد بن إسحاق بن واضح اليعقوبي، مطبعة بريل، ليدن 1889م
- بلوغ الأمل في فن الزجل، أبو بكر بن حجة الحموي، تحقيق رضا محسن القريشي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1974م
- البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، ط4، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت (د.ت.)
- تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد مرتضى الزبيدي، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت 1966م
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، اغناطيوس كراتشكوفسكي، ترجمة صلاح الدين عثمان، جامعة الدول العربية، القاهرة 1983م
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2003م
- تاريخ ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت 1979م. (مصورة عن طبعة بولاق باعتناء نصر الهوريني)
- تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري، ط4، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة 1979م
- تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك
- تاريخ ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، نجلاء عز الدين، بيروت 1939م

- التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق عبد الرحمن المعلمي اليماني، حيدر آباد، 1358 - 1362هـ
- تاريخ مدينة السلام وذكر محدثيها وذكر قُطّانها العلماء من غير أهلها ووارديها، أحمد ابن علي الخطيب البغدادي، حققه وضبط نصّه وعلق عليه بشار عواد معروف؛ دار الغرب الإسلامي؛ بيروت 2001م
- تحرير تقريب التهذيب، بشار عواد معروف وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت 1997م
- تحفة القادِم، محمد بن عبد الله القضاعي، ابن الأَبار، تحقيق إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986م
- تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، محمد بن عبد الله اللواتي، ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط 1997م
- تذكرة الحفاظ، محمد بن أحمد الذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ت).
- التذكرة الحمدوتية، محمد بن الحسن، ابن حمدون، تحقيق إحسان عبّاس، معهد الإمام العربي، بيروت 1983م، وطبعه دار صادر؛ بيروت 1996م
- تذكرة الموضوعات، محمد طاهر بن علي الهندي الفتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1978م
- ترتب المدارك، وتقريب المسالك، لمعرفة أعلام مذهب مالك، القاضي عياض بن موسى اليحصبي، عارضه بأصوله وعلق حواشيه وقدم له محمد بن تاويت الطنجي، تحقيق عبد القادر الصحراوي.... ورفاقه، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط 1965 - 1983م

• التعريف بآبن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق محمد بن
تاويت الطنجي، القيروان للنشر، تونس 2006م

تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن

تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز

تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن

التفسير الكبير، محمد بن عمر الفخر الرازي. ط3، دار إحياء التراث العربي،
بيروت 1999

• تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عوامه، دار الرشيد، حلب،
1986م

• تقويم البلدان، إسماعيل بن محمد، أبو الفداء، اعتنى بتصحيحه وطبعه جوزيف
توسن رينود وماك كوكين ويسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس 1840م

• التكملة لكتاب الصلاة، محمد بن عبد الله القضاعي، ابن الأبار، تحقيق عبد السلام
الهراس، دار المعرفة، الدار البيضاء، 1993 - 1995م

• تلخيص الخطابة، أبو الوليد محمد بن أحمد، ابن رشد، تحقيق عبد الرحمن بدوي،
وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت (د.ت).

• تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الجدل، أبو الوليد بن رشد، تحقيق محمد سليم
سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1980م

• تلخيص منطق أرسطو، أبو الوليد ابن رشد، تحقيق جزار جهامي، المكتبة الشرفية،
بيروت 1982م

• التمهيد في الردّ على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، أبو بكر الباقلاني، تحقيق محمود محمد الحضيريّ، محمد عبد الهادي أبو ريّة، دار الفكر العربي، القاهرة 1947م

• التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق سعيد أحمد أعراب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، الرباط 1991م

• تنزيه الشريعة المرفوعة من الأخبار الشنيعة الموضوعة، علي بن محمد بن عراق الكناني، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، عبد الله محمد الصديق، دار الكتب العلميّة، بيروت 1979م

• تهافت الفلاسفة، محمد بن محمد، أبو حامد الغزالي، تحقيق سليمان دنيا، ط6، دار المعارف، القاهرة 1980م

• تهذيب الأسماء واللغات، محيي الدين بن شرف النووي، دار الكتب العلميّة، بيروت (د.ت.)

• تهذيب ابن قيم الجوزية على مختصر سنن أبي داود، تحقيق أحمد محمد شاكر، محمد حامد الفقي، دار المعرفة؛ بيروت 1367هـ

• تهذيب الكمال في أسماء الرجال، جمال الدين يوسف المزي، تحقيق بشار عواد معروف ط2، 3، دار الرسالة، بيروت 1983 - 1992م

• الثقات، محمد بن حبان بن معاذ البُسَتي، دار الفكر، بيروت 1973 - 1983م (مصورة عن طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر آباد)

- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، يوسف بن عبد الله، ابن عبد البر، المطبعة المنيرية، القاهرة
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، ضبط وتعليق محمود شاكر، تصحيح علي عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت 2001م
- الجامع الكبير، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1996م
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ط3، دار الکتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1967م
- جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس وأسماء رواة الحديث، وأهل الفقه والأدب، وذوي النباهة والشعر، محمد بن فتوح بن عبد الله الحافظ الحميدي الأزدي، تحقيق محمد بن تاووت الطنجي، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة 1952م
- الجرح والتعديل، عبد الرحمن بن محمد الرازي، ابن أبي حاتم، تحقيق عبد الرحمن المعلمي اليماني، حيدر آباد 1952 - 1956م
- المجلس الصالح الكافي والأئیس الناصح الشافي، المعافى بن زكرياء النهرواني.
- الجزء الأول والجزء الثاني، تحقيق محمد مرسي الخولي، عالم الكتب، بيروت 1981م
- الجزء الثالث والجزء الرابع، تحقيق إحسان عباس، عالم الكتب، بيروت 1993م
- الجماهر في معرفة الجواهر، محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني، عالم الكتب، بيروت (د.ت.)

- جبهة أنساب العرب، علي بن سعيد، ابن حزم الأندلسي، تحقيق عبد السلام هارون، ط4، دارالمعارف، القاهرة 1977م
- جيش التوشيح، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق هلال ناجي، أعدّ أصلاً من أصله: محمد ماضور، مطبعة المنار، تونس (د.ت.)
- الحاوي في الفتاوي، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مطبعة السعادة، القاهرة 1378هـ
- حدود العالم من المشرق إلى المغرب، لمجهول، تحقيق يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة 1999م
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبد الله، أبو نعيم الأصفهاني، القاهرة 1938م
- الحماسة البصريّة، علي بن أبي الفرج البصري، تحقيق مختار الدين أحمد، ط3، عالم الكتب، بيروت 1983م
- حي بن يقظان، تحقيق أحمد أمين، دار المعارف، القاهرة 1952م
- خريدة العجائب وفريدة الغرائب، سراج الدين عمر بن مظفر ابن الوردی، المكتبة الشعبية؛ بيروت (د.ت.)
- خلع النعلين واقتباس النور من موضع القدمين، أحمد بن قسي، تحقيق محمد الأمرائي، آسفي (المغرب) 1995م
- دار الطراز في عمل الموشحات، هبة الله بن جعفر ابن سناء الملك، تحقيق جودت الركابي، دار الفكر، بيروت 1980م

- دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، بإشراف كاظم الموسوي البجنوزي، طهران 1991م
- ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، شرح وتعليق محمد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة 1955م
- ديوان الأعمى التطيلي، أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1963م
- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، مصر 1964م
- ديوان أبي تمام، حبيب بن أوس الطائي، مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت 2000م
- ديوان أبي ذؤيب الهذلي، خويلد بن خالد، تحقيق انطونيوس بطرس، دار صادر، بيروت 2003م
- ديوان ابن سهل الأندلسي، تقديم إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1967م
- ديوان السيد الحميري، إسماعيل بن محمد، تحقيق شاكر هادي شكر، تقديم السيد محمد تقي الحكيم، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت.)
- ديوان الشريف الرضي، محمد بن الحسين العلوي، وزارة الإرشاد الإسلامي، طهران 1986م
- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري (التبيان في شرح الديوان) تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار الفكر، بيروت (د.ت.)
- ديوان قيس بن ذريح، تحقيق عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت 2003م
- ديوان كثير عزة، شرح قدري مايو، دار الجيل، بيروت 1995م

- * ديوان الموشحات الأندلسية، سيّد غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية 1979م
- * ديوان النابغة الذبياني، زياد بن معاوية، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر (د.ت.)
- * ديوان ابن نباته المصري، مطبعة التمدن، القاهرة 1323هـ
- * ديوان أبي نواس، الحسن بن هانيء، دار صادر، بيروت، 1962م
- * الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، علي بن بسام الشنتريني، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، بيروت 1975م
- * ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، محمود بن عمر، جاز الله الزمخشري، تحقيق سليم النعيمي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، 1976م
- رحلة ابن بطوطة = تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار
- * رسالة أضحوية في أمر المعاد، الشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا، ضبطها وحققها سليمان دنيا، دار الفكر العربي، القاهرة 1368هـ / 1949م
- * رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، أحمد ابن العباس، ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، ط3، دار صادر، بيروت 1993م
- * الرسالة القشيرية في علم التصوف، عبد الكريم بن هوازن القشيري، دار الكتاب العربي، بيروت 1957م
- * الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لأبن هشام، عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، تحقيق مجدي منصورين، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت.)

- الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م
- الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل، أبو شامة، مطبعة وادي النيل، القاهرة 1288هـ
- روضة التعريف بالحبّ الشريف، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الفكر العربي – القاهرة (د.ت.)
- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزية، ط8، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية، بيروت، 1985م
- زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، ط4، تحقيق زكي مبارك، بيروت، دار الجيل 1972م
- زهر الأكم من الأمثال والحكم، الحسن بن مسعود اليوسي، تحقيق محمد حجي، محمد الأخضر، معهد الأبحاث والدراسات والتعريب، الدار البيضاء 1981م
- الزهرة، محمد بن داود الأصفهاني، اعتنى بنشره لويس نيكل البوهيمي، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين 1932م
- سجل قديم لمكتبة جامع القيروان، إبراهيم شبوح، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الثاني، ج2، القاهرة 1956م
- سرّ الأسرار لأرسطو = السياسة في تدبير الرئاسة

- سراج الملوك، محمد بن الوليد الأندلسي الطرطوشي، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، تقديم شوقي ضيف، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1994م
- السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقرئ، تحقيق محمد مصطفى سعيد عبد الفتاح عاشور، وزارة الثقافة، القاهرة (1956 - 1973م)
- السنة لأبن أبي عاصم، أبو بكر أحمد بن عمرو، تحقيق ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت 1400هـ
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق يوسف الحوت، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987م
- سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، بعناية عبد الله هاشم، دار المحاسن، القاهرة 1966م
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق عزت الدعاس وعادل السيد، بيروت 1971م
- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق بشار عواد معروف، دار الجيل، بيروت 1998م
- السنن (المجتبى)، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، المطبعة المصرية بالأزهر، القاهرة 1348هـ
- السنن الكبرى، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، دار الكتب العلميّة، بيروت 1991م
- السنن الكبرى، أبو بكر، أحمد بن الحسين البيهقي، حيدر آباد 1344هـ

- سؤالات البرقاني للدارقطني، تحقيق عبد الرحيم محمد القشقرّي، كتب خانة جميلي، باكستان 1404هـ
- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، ط3، حققه وعلّق عليه شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت 1985م
- السير والمغازي، محمد بن إسحاق المطلبّي، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت 1978م
- السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمؤمن، علي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة، بيروت 1980م
- السيرة النبوية، لابن هشام، محمد بن عبد الملك، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1955م
- شرح أدب الكاتب، موهوب بن أحمد الجواليقي، تقديم السيد مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت)
- شرح أشعار الهذليين، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكّري، تحقيق عبد الستار فراج، راجعه محمود محمد شاكر، دار العروبة، القاهرة 1963 – 1965م
- شرح ديوان أبي تمام، ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليتا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1981م
- شرح ديوان لبید بن ربيعة العامري، تحقيق إحسان عباس، ط2، وزارة الإعلام، الكويت 1984م
- شرح فصوص الحكم، عبد الرزاق القاشاني، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة 1966م

- شرح القصائد السبع الطوال، محمد بن القاسم الأنباري، ط4، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة 1980م
- شرح مقامات الحريري، أحمد بن عبد المؤمن الشريشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة 1969م
- شرف أصحاب الحديث، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق محمد سعيد خطيب أوغلي، كلية الإلهيات، جامعة أنقرة 1972م
- شعر دعبل الخزاعي، صنعه عبد الكريم الأشر، ط2، مجمع اللغة العربية، دمشق 1983م
- شعر عمرو بن شأس الأسدي، جمعه يحيى الجبوري، المكتبة العصرية، بيروت 1992م
- الشعر والشعراء، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر 1966م
- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، محمد بن أحمد الفاسي المكي، نسخ الأصل وقابله أيمن فؤاد سيد، حققه وعلق عليه مصطفى محمد الذهبي، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة 1999م
- شمس المعارف الكبرى، أحمد بن علي البوني، المكتبة الثقافية، بيروت (د.ت.)
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء أحمد بن علي القلقشندي، دار الكتب الخديوية، القاهرة، 1913م
- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الطبعة السلطانية، بولاق 1311-1313هـ (وما أشير إليه برقم الحديث، فالإشارة إلى فتح الباري لابن

حجر العسقلاني، الطبعة السلفية بعناية محمد فؤاد عبد الباقي والشيخ عبد العزيز ابن باز)

صحيح ابن حبان = الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان

• صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة 1954م

• صورة الأرض، محمد بن حوقل النصيبي، دار صادر، بيروت 1938 - 1939م

• كتاب الضعفاء الكبير، محمد بن عمرو، أبو جعفر العقيلي، تحقيق عبد المعطي أمين قلعي، دار الكتب العلمية؛ بيروت 1984م

• الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت)

• طبقات الأطباء والحكماء، سليمان بن حسان، ابن جليل الأندلسي، حققه فؤاد سيد، المعهد الفرنسي، القاهرة 1955م

• طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي، تاج الدين السبكي، ط2، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر، القاهرة 1992م

• الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري، دار صادر، بيروت 1405هـ

• العاقل الحالي والمرخص الغالي، صفي الدين الحلبي، تحقيق حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1981م

العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر = تاريخ ابن خلدون

• عدّة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس، علي بن بشري الأغرناطي، عني بتصحيحه
ألن جونز (Alan Jones) طبعة أمّناء سلسلة جبّ التذكارية، كبردج - إنجلترا
1992م

• العقد الفريد، أحمد بن محمد، ابن عبد ربّه الأندلسي، تصحيح وضبط أحمد أمين،
أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، لجنة التّأليف والترجمة، القاهرة، 1965م

• العلامة ابن تاويت الطنجي، جوانب من حياته ونماذج من رسائله، محمد كون
الحسني (الكتاب التذكاري عن محمد بن تاويت الطنجي، منشورات مدرسة الملك
فهد العليا للترجمة، طنجة 1997م

• العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، عبد الرحمن بن علي، ابن الجوزي، قدّم له
وضبطه خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت 1983م

• العلل ومعرفة الرجال، أحمد بن حنبل، تحقيق طلعت بيكت وإسماعيل أوغلي،
إستانبول 1987م

• العمدة في صناعة الشعر ونقده، الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق النبوي عبد
الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة 2000م

• عنقاء مُغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب، محيي الدين محمد ابن علي، ابن
عربي الحاتمي، تحقيق بهنساوي الشريف، القاهرة 1998م

• عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، أحمد بن أحمد
الغبريني، حققه عادل نويّض، لجنة التّأليف والترجمة والنشر، بيروت 1969م

- العواصم من القواصم، محمد بن عبد الله، ابن العربي، تحقيق عمار الطالبي، مكتبة دار التراث، القاهرة 1997م
- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق مهدي المحزومي، إبراهيم السامرائي، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، بغداد 1981 - 1984م
- عيون الأخبار، عبد الله بن مسلم، ابن قتيبة الدينوري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة 1963م
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، أحمد بن القاسم، ابن أبي أصيبعة، تصحيح امرؤ القيس بن الطحان، أوغست مولر، المطبعة الوهبية، القاهرة 1882م
- غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم، المنسوب إلى أبي القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي، حققه هلموت ريتير H. Ritter هامبورغ ألمانيا 1927م
- غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سَلام، طبعة مصورة، دار الكتاب العربي، بيروت 1396هـ
- فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، حققه عبد العزيز بن عبد الله بن باز، أشرف على طبعه محيي الدين الخطيب، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض (د.ت.)
- فتوح البلدان، أبو الحسن البلاذري، راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م
- فتوح الشام، محمد بن عمر الواقدي، دار الجيل، بيروت (د.ت.)

- الفتوحات المكيّة، محيي الدين محمد بن علي، ابن العربيّ الحاتمي، دار صادر، بيروت (د.ت.)
- فضائل القرآن، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق فاروق حمادة، الدار البيضاء 1400هـ
- فن الشعر، أرسطو، ترجمة إبراهيم حمادة، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة 1982م
- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق عبد الرحمن المعلمي اليماني، القاهرة 1960م
- في تحقيق النصّ: أنظار تطبيقية نقدية في مناهج تحقيق المخطوطات العربية، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2004م
- قانون التأويل، محمد بن عبد الله بن العربي المعافري، دراسة وتحقيق محمد السليمان، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990م
- الكامل في التاريخ، عزّ الدين علي بن محمد، ابن الأثير الجزري، ط6، دار صادر، بيروت 1995م
- الكامل في ضعفاء الرجال، عبد الله بن عسكري الجرجاني، دار الفكر، بيروت 1984م
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمد بن عمر، جار الله الزمخشري، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1972م

- كشف الأستار عن زوائد البزّار، علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت 1399هـ
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل ابن محمد العجلوني، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1933م
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، دار الفكر، بيروت 1982م (مصورة)
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علي المتقي الهندي الهروي، تحقيق بكري حياني، تصحيح صفوت السقا، منشورات التراث الإسلامي، حلب 1971م
- لباب الآداب، عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق قطان رشيد صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1988م
- لباب المحصل، فخر الدين الرازي، تحقيق الأب لوسيانو روبيو، مطبوعات معهد مولاي الحسن، النصّ العربي - تطوان دار الطباعة المغربية، 1952م. بيروت، دار المشرق 1995م
- لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور، دار صادر، بيروت (د.ت)
- المجالس والمسايرات، أبو حنيفة بن محمد، القاضي النعمان، تحقيق الحبيب الفقي، إبراهيم شبوح، محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1997م
- كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، محمد بن حبان البُشْتِيّ، تحقيق محمد إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب 1976م

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت 2001م
- المحاسن والأضداد، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت 1969م
- المحاسن والمساوي، إبراهيم بن محمد البيهقي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبتها، القاهرة، 1961م
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت 2001م
- المحلى بالآثار، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، دار التراث، القاهرة (د.ت)
- مختارات من الجغرافيا الرياضية والكرتوغرافيا عند العرب والمسلمين واستمرارها في الغرب، فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت 2000م
- المخطوط، إبراهيم شيوخ، دار الكتب الوطنية، دار أليف- تونس 1989م
- المدونة الكبرى، الإمام مالك بن أنس الأصبحي، دار صادر؛ بيروت (د.ت)
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، طبعة بريين دي فينار وباتين دي كرتابي، نقحها وصححها شارل بلا، منشورات الجامعة اللبنانية - المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1979م

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، شهاب الدين ابن فضل الله العمري، نشره بالتصوير الفوتستاتي فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت 1989م
- المسالك والممالك، أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري، تحقيق أدريان فان ليفن وأندري فيري، بيت الحكمة، قرطاج 1992م
- المسالك والممالك، عبيد الله بن عبد الله، ابن خرداذبة، مطبعة بريل، ليدن 1889م
- المستجاد من فعلات الأجواد، المحسن بن علي التنوخي، غني بنشره وتحقيقه محمد كرد علي، مجمع اللغة العربية، دمشق 1970م
- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله، الحاكم النيسابوري، دار الفكر، بيروت 1978م، عن طبعة حيدر آباد 1335هـ
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الميمنية، القاهرة 1313هـ / 1896م
- المسند الجامع لأحاديث الكتب الستة ومؤلفات أصحابها الأخرى وموطأ مالك ومسانيد الحميدي وأحمد بن حنبل وعبد بن حميد وسنن الدارمي وصحيح ابن خزيمة، بشار عواد معروف وآخرون، دار الجيل، بيروت 1993م
- مسند الحميدي، عبد الله بن الزبير، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار عالم الكتب، بيروت (د.ت.)
- مسند أبي داود الطيالسي، سليمان بن داود الطيالسي، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد 1321م

- مسند أبي يعلى الموصلي، أحمد بن علي بن المثنى، تحقيق حسين سليم الأسد، دار المأمون للتراث، دمشق 1404هـ
- المشترك وضعاً والمفترق صقلاً، ياقوت بن عبد الله الحموي، مكتبة المثنى، بغداد (د.ت.)
- المصنف، أبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة، طبعة إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، باكستان 1987م
- المصنف، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت 1403هـ
- المصنوع في معرفة الحديث الموضوع، علي بن محمد القاري، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مؤسسة الرسالة، ط2؛ بيروت 1978م
- المطرب من أشعار أهل المغرب، أبو الخطاب عمر بن حسن ابن دحية، تحقيق إبراهيم الأبياري، حامد عبد الحميد، دار العلم للجميع، القاهرة 1954م
- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، عبد الرحمن بن محمد الدباغ، قاسم ابن عيسى، ابن ناجي، (الجزء الأول)، علق عليه إبراهيم شيوخ، مكتبة الخانجي، القاهرة 1968م
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد بن علي المراكشي، تحقيق محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة 1949م
- معجم الأدباء، ياقوت بن عبد الله الحموي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1993م

- المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض 1986م
- معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر، بيروت (د.ت.)
- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، وزارة الأوقاف العراقية، بغداد 1984م
- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، (د.ت.) (مصورة)
- معرفة الثقات، لأبي الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي، بترتيب الهيثمي والسبكي، تحقيق عبد العليم عبد العظيم البستوي، المدينة المنورة 1985م
- المعلم بفوائد مسلم، محمد بن علي المازري، تحقيق الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992م
- المعونة على مذهب عالم المدينة، عبد الوهاب علي بن نصر المالكي، تحقيق محمد حسن الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت 1998م
- المغرب في حلل المغرب، علي بن محمد، ابن سعيد المغربي، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة 1978م
- المغني، عبد الله بن أحمد الجماعلي، موفق الدين ابن قدامة، دار الفكر، بيروت 1985م

مفاتيح الغيب = التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي

- المقاصد الحسنة، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق عبد الله محمد الصديق، دار الكتب العلمية، بيروت 1979م
- مقامات الحريري، القاسم بن علي الحريري، دار صادر، بيروت 1978م
- المقتطف من أزاهر الطرف، علي بن محمد، ابن سعيد المغربي، تحقيق سيد حنفي حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1983م
- المقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد، عبد العزيز الأهواني، مجلة الأندلس، المجلد 13، مدريد 1948م
- مقدمة ابن خلدون, Prolegomenes D'Ebn Khaldoun تحقيق أ.م. كاترمير Etienne Quatremere، مكتبة لبنان، بيروت 1992م (مصورة)
- مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصلاح، عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، تحقيق عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة 1989م
- ملعبة الكفيف الزرهوني، تقديم وتعليق وتحقيق محمد بن شريفة، المطبعة الملكية، الرباط 1407هـ / 1987م
- الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة؛ بيروت 1980م
- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، عبد الرحمن بن علي، ابن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1992-1993م
- منتهى الطلب من أشعار العرب، محمد بن المبارك بن ميمون، تحقيق وشرح محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت 1999م

- منطق أرسطو، تحقيق عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1952م
- من مؤلفات ابن سينا الطبية، الحسين بن عبد الله، شرف الدين ابن سينا، دراسة وتحقيق محمد زهير البابا، منشورات جامعة حلب والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1984م
- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، يوسف بن تغرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن، تحقيق محمد محمد أمين، تقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985م
- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن 2002م
- كتاب الموسيقى الكبير، محمد بن محمد الفارابي، تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبه، مراجعة محمود أحمد الحفني، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة (د.ت.)
- الموطأ، الإمام مالك بن أنس، برواية الليثي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1998م
- مؤلفات ابن خلدون، عبد الرحمن بدوي، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، دار المعارف، مصر 1962م
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة 1963م
- نثر الجمان في شعر من نظمنا وإياه الزمان، أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر، تحقيق محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت 1976م

• النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الآتابكي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (نشرة مصورة عن طبعة دار الكتب)، القاهرة 1972م

• نخب الذخائر في أحوال الجواهر، محمد بن إبراهيم ابن الأكفاني، عالم الكتب، بيروت (د.ت)

• نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الشريف الإدريسي، عالم الكتب، بيروت، 1989م

• نسب معدّ واليمن الكبير، هشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق ناجي حسن، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، بيروت 1988م

• نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، المحسن بن علي التنوخي، ط2، تحقيق عبّود الشالحي، دار صادر؛ بيروت 1995م

• نصب الراية لأحاديث الهداية، عبد الله بن يوسف الزيلعي، دار المأمون، القاهرة 1357هـ

• نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد بن يحيى المقرئ، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م

• نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة 1954م

• هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل الباباني البغدادي، دار الفكر؛ بيروت 1982م (مصورة)

• الوافي بالوفيات، خليل بن أبيك الصفدي، المعهد الألمانيّ للأبحاث الشرقية، بيروت 1962 - 2004م

- الوزراء والكتاب، محمد بن عبدوس الجهشياريّ، تحقيق مصطفى السقا إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1938م
- وفيات الأعيان وأبناء الزمان، شمس الدين ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، دار صادر؛ بيروت (د.ت.)

- Catalogus Codicum manuscriptorum orientalium qui in museo Britannico London, 1846
- IBN Khaldung, The Muqaddimah, An Introduction to History, Translated from the Arabic by FRANZ Rosenthal, 3 Volumes, Routledge & Kegan Paul London 1958
- Islam Ansiklopedisi, Vol. 15, Istanbul, 1997
- Meydon Larousse, XX, Istanbul, 1992. V, Istanbul, 1993
- Supplément aux dictionnaires Arabes (تكملة المعاجم العربية) par Reinhart Dozy, Librairie du Liban, Beyrouth, 1968

المحنوى

الفصل الرابع من الكتاب الأول :

في البلدان والأَمْصار والمدُن وسائر العُمرانِ
الحَضريّ، وما يعرِضُ في ذلك من الأحوال؛
وفيه سوايقٌ ولواحقٌ

- 1 • فصلٌ، في أنَّ الدُّولَ أقدمُ من المدُن والأَمْصارِ،
وأنَّها إنَّما توجدُ ثانيةً عن الملكِ
- 2 • فصلٌ، في أنَّ الملكَ يَدْعُو إلى [نزولِ] الأَمْصارِ
- 3 • فصلٌ، في أنَّ المدُنَ العَظيمةَ والهِياكلَ المُزَيَّعةَ إنَّما
يُشَيِّدُها الملكُ الكبيرُ
- 4 • فصلٌ، في أنَّ الهياكلَ العَظيمةَ جِدًّا لا تَسْتَقِلُّ
ببنائها الدُّولةَ الواحدةَ
- 5 • فصلٌ، فيما تَجِبُ مُراعاهُ في أوضاعِ المدُنِ، وما
يَحْدُثُ إذا أُغْفِلَ عن المُراعاةِ
- فصل [فيما يراعى في البلاد السَّاحلية]

- 16 6 • فَضْلٌ، فِي الْمَسَاجِدِ وَالْبُيُوتِ الْمُعَظَّمَةِ فِي الْعَالَمِ
- 17 • [مَكَّة]
- 24 • [بَيْتِ الْمَقْدَسِ]
- 30 • [الْمَدِينَةِ]
- 32 7 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الْأَمْصَارَ وَالْمُدُنَ بِأَفْرِيقَتَيْهِ وَالْمَغْرِبَ
قَلِيلَةً
- 33 8 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الْمَبَانِي وَالْمَصَانِعَ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ
قَلِيلَةٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَى قُدْرَتِهَا وَمَنْ كَانَ قَبْلَهَا مِنْ
الدُّوَلِ
- 35 9 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الْمَبَانِي الَّتِي تَخْتَطُّهَا الْعَرَبُ يُسْرِعُ
إِلَيْهَا الْخَرَابُ، إِلَّا فِي الْأَقْلَى
- 36 10 • فَضْلٌ، فِي مَبَادِي الْخَرَابِ فِي الْأَمْصَارِ
- 37 11 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ تَقَاضَلَ الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنَ فِي كَثْرَةِ
الرَّفْرِهِ وَتَقَاقُ الْأَسْوَاقِ، إِنَّمَا هُوَ بِتَقَاضُلِ عُمْرَانِهَا
فِي الْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ
- 41 12 • فَضْلٌ، فِي أَسْعَارِ الْمُدُنِ
- 45 13 • فَضْلٌ، فِي قُصُورِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ عَنْ سُكْنَى
الْمِصْرِ الْكَثِيرِ الْعُمَرَانِ

- 46 • 14 فصل، في أنَّ الأقطارَ في اختلافِ أحوالها
بالرفه والفقر مثلُ الأمصارِ
- 49 • 15 فصل، في تأثُّلِ العقارِ والضَّياعِ في
الأمصارِ، وحالِ فوائدها ومُستقلَّاتها
- 50 • 16 فصل، في حاجةِ المُتموِّلين من أهلِ الأمصارِ
إلى الجاهِ والمدافعةِ
- 51 • 17 فصل، في أنَّ الحضارةَ في الأمصارِ من قَبْلِ
الدُّولِ، وأنها تَرسخُ باتِّصالِ الدُّولةِ وُرسوخها
- 56 • 18 فصل، في أنَّ الحضارةَ غايةٌ للعُمرانِ ونهايةُ
لعُمره، وأنها مُؤدَّنةٌ بِسَاده
- 61 • 19 فصل، في أنَّ الأمصارَ التي تكونُ كِراسِي
للملِكِ تَحْزُبُ بِحِرابِ الدُّولةِ وانْتِقاضِها
- 65 • 20 فصل، في اختِصاصِ بَعْضِ الأمصارِ بِبَعْضِ
الصَّنائعِ دونَ بَعْضِ
- 66 • 21 فصل، في وُجودِ العَصِيَّةِ في الأمصارِ وتَغَلُّبِ
بَعْضِهِمْ على بَعْضِ
- 68 • 22 فصل، في لغاتِ أهلِ الأمصارِ

الفصل الخامس من الكتاب الأول:

71

في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، وما
يغرض في ذلك كله من الأحوال، وفيه مسائل

73

1 • فضل، في حقيقة الرزق والكسب، وشرحهما.
وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية

77

2 • فضل، في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه

79

3 • فضل، في أن الخدمة ليست من المعاش
الطبيعي

81

4 • فضل، في أن ابتغاء الأموال من الدفائن
والكنوز ليس بمعاش طبيعي

87

5 • فضل، في أن الجاه مفيد للمال

89

6 • فضل، في أن السعادة والكسب إنما تحصل
غالباً لأهل الخُضوع والملق، وأن هذا الخلق
من أسباب السعادة

94

7 • فضل، في أن القائمين بأمور الدين من القضاء
والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان
ونحو ذلك، لا تعظم ثروتهم في الغالب

- 96 8 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الْفَلَاحَةَ مِنْ مَعَايِشِ
الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَهْلِ الْعَافِيَةِ مِنَ الْبَدْوِ
- 97 9 • فَضْلٌ ، فِي مَعْنَى التَّجَارَةِ وَمَذَاهِبِهَا وَأَصْنَافِهَا
- 98 10 • فَضْلٌ ، نَقْلُ التَّاجِرِ لِلسَّلْعِ
- 100 11 • فَضْلٌ ، فِي الْإِخْتِكَارِ
- 101 12 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ رُخْصَ الْأَشْعَارِ مُضِرٌّ
بِالْمُخْتَرَفِينَ بِالرَّخِصِ
- 103 13 • فَضْلٌ ، فِي أَيِّ أَصْنَافِ النَّاسِ يَنْتَفِعُ بِالتَّجَارَةِ ،
وَأَيُّهُمْ يَنْبَغِي لَهُ تَرْكُهَا
- 104 14 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ خُلُقَ التَّجَّارِ نَازِلَةٌ عَنْ خُلُقِ
الرُّؤَسَاءِ ، وَبَعِيدَةٌ عَنِ الْمُرُوءَةِ
- 106 15 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الصَّنَائِعَ لَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْمَعْلَمِ
- 107 16 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الصَّنَائِعَ إِنَّمَا تَتَكَمَّلُ بِكَمَالِ الْعُمَرَانِ
الْحَضَرِيِّ وَكَثْرَتِهِ
- 108 17 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ رُسُوخَ الصَّنَائِعِ فِي الْأُمُصَارِ
بِرُسُوخِ الْحَضَارَةِ وَطَوِيلِ أَمَدِهَا
- 110 18 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الصَّنَائِعَ إِنَّمَا تُسْتَجَادُ وَتَكْثُرُ إِذَا
كَثُرَ طَالِبُهَا

- 111 19• فَضْلٌ، فِي أَنَّ الْأَمْصَارَ إِذَا قَارَبَتِ الْحَرَابَ
انْتَقَصَتْ مِنْهَا الصَّنَائِعُ
- 112 20• فَضْلٌ، فِي أَنَّ الْعَرَبَ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنِ
الصَّنَائِعِ
- 113 21 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ مَنْ حَصَلَتْ لَهُ مَلَكَةٌ فِي
صِنَاعَةٍ، فَقَلَّ أَنْ يُجِيدَ بَعْدَهَا مَلَكَةً فِي أُخْرَى
- 114 22• فَضْلٌ، فِي الْإِشَارَةِ إِلَى أُمَمَاتِ الصَّنَائِعِ
- 115 23 • فَضْلٌ، فِي صِنَاعَةِ الْفِلَاحَةِ
- 116 24• فَضْلٌ، فِي صِنَاعَةِ الْبِنَاءِ
- 122 25 • فَضْلٌ، فِي صِنَاعَةِ النَّجَارَةِ
- 124 26• فَضْلٌ، فِي صِنَاعَةِ الْحَيَاكَةِ وَالْحِيَامَةِ
- 126 27• فَضْلٌ، فِي صِنَاعَةِ التَّوْلِيدِ
- 130 28 • فَضْلٌ، فِي صِنَاعَةِ الطَّبِّ، وَأَنَّهَا مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا
فِي الْحَوَاضِرِ وَالْأَمْصَارِ دُونَ الْبَادِيَةِ
- 135 29 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الْخَطَّ وَالْكِتَابَ مِنْ عِدَادِ
الصَّنَائِعِ الْإِنْسَانِيَّةِ
- 146 30• فَضْلٌ، فِي صِنَاعَةِ الْوَرَقَةِ

149 31 • قَصْلٌ، في صِنَاعَةِ الْغِنَاءِ

159 32 • قَصْلٌ، في أَنَّ الصَّنَاعَ تُكْسِبُ صَاحِبَهَا عَقْلاً
وْخُصُوصاً الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ

161 الفصل السادس من الكتاب الأول :

في العلوم وأصنافها، والتَّعْلِيمُ وطُرُقُهُ، وسَائِرُ
وُجُوهِهِ وَمَا يَعْغِزُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ الْأَحْوَالِ.
وفيه مُقَدِّمَةٌ وَلَوْاحِقُ:

163 1 • قَصْلٌ، في الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ

165 2 • قَصْلٌ، في أَنَّ عَوَالِمَ الْحَوَادِثِ الْفِعْلِيَّةِ إِنَّمَا تَسِمُ
بِالْفِكْرِ

167 3 • قَصْلٌ، في الْعَقْلِ التَّجْرِبِيِّ، وَكَيْفِيَّةَ خُذُوتهِ

169 4 • قَصْلٌ، في عُلُومِ الْبَشَرِ وَعُلُومِ الْمَلَائِكَةِ

172 5 • قَصْلٌ، في عُلُومِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

173 6 • قَصْلٌ، في أَنَّ الْإِنْسَانَ جَاهِلٌ بِالذَّاتِ، عَالِمٌ
بِالْكَسْبِ

175 7 • قَصْلٌ، في أَنَّ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ طَبِيعِيٌّ فِي
الْعُمُرَانِ الْبَشَرِيِّ

176 8 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ تَعَلَّمَ الْعِلْمُ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ

182 9 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الْعُلُومَ إِنَّمَا تَكْثُرُ حَيْثُ يَكْثُرُ
الْعُمَرَانُ وَتَعْظُمُ الْحَضَارَةُ

184 10 • فَضْلٌ، فِي أَصْنَافِ الْعُلُومِ الْوَاقِعَةِ فِي الْعُمَرَانِ
لِهَذَا الْعَهْدِ

187 11 • فَضْلٌ، فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ مِنَ التَّفْسِيرِ
وَالْقِرَاءَاتِ

193 12 • عِلْمُ الْحَدِيثِ

206 13 • الْفِقْهُ وَمَا يَتَّبَعُهُ مِنَ الْفَرَائِضِ

218 • [علم الفرائض]

220 14 • أُصُولُ الْفِقْهِ وَمَا يَتَّعَلَّقُ بِهِ مِنَ الْجَدَلِ
وَالْخِلَافِيَّاتِ

226 • [الخلافيات]

228 • [الجدل]

229 15 • عِلْمُ الْكَلَامِ

246 16 • فَضْلٌ، فِي كَشْفِ الْغَطَاءِ عَنِ الْمُتَشَابِهِ مِنَ
الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ، وَمَا حَدَّثَ لِأَجْلِ ذَلِكَ مِنْ
طَوَائِفِ السُّنَنِ وَالْمُبْتَدِعَةِ فِي الْأَعْتِقَادَاتِ

- 261 • 17 • عِلْمُ التَّصَوُّفِ
- 267 • تَفْصِيلٌ وَتَحْقِيقٌ
- 273 • قَاضٍ [في القول بالقطب عند
المتصوفة]
- 275 • تَذْيِيلٌ [من كلام أبي مَهْدِي عيسى
ابن الرِّيَّات]
- 281 • 18 • عِلْمُ تَغْيِيرِ الرُّؤْيَا
- 287 • 19 • الْعُلُومُ الْعَقْلِيَّةُ وَأَصْنَافُهَا
- 294 • 20 • الْعُلُومُ الْعَدَدِيَّةُ
- 294 • [الأرتماطيقى]
- 298 • [الجبرُّ والمُقابَلَةُ]
- 299 • [المعاملات]
- 300 • [الفرائض]
- 301 • 21 • الْعُلُومُ الْهَنْدَسِيَّةُ
- 303 • [الأشكال الكُرِّيَّةُ]
- 303 • [المخروطات]
- 304 • [المِسَاحَةُ]
- 304 • [المناظر]
- 305 • 22 • عِلْمُ الْهَيْئَةِ

- 306 • [علم الأزياج]
- 308 23 • علم المنطق
- [كتب المنطق الثمانية عند المتقدمين] :
- 310 • [كتاب المقولات]
- 310 • [كتاب العبارة]
- 310 • [كتاب القياس]
- 310 • [كتاب البرهان]
- 311 • [كتاب الجدَل]
- 311 • [كتاب السُّفْطَة]
- 311 • [كتاب الخطابة]
- 311 • [كتاب الشَّعر]
- 313 • فائدة [في التَّكرير على انتحال المنطق]
- 316 24 • الطَّبيعيَّات
- 317 25 • علم الطَّبِّ
- 318 • فَضْلٌ [في طبِّ البادية الَّذي لا يقوم
على قانون طبيعي]
- 320 26 • علم الفِلاحة
- 321 27 • علم الإلهيَّات
- 323 28 • علوم السَّخر والطَّلسمات
- 336 • فَضْلٌ [في الإصابة بالغين]

• تحقيق [في السِّمياء وأنها تحصلُ برياضة
شرعية]

• فصل [من فروع السِّمياء استخراج
الأجوبة من الأسئلة]

• [القصيدة المنسوبة للسبتي]

• الكلام على استخراج نسبة الأوزان،
وكيفيتها، ومقادير المقابيل منها، وقوة
الدرجة المميزة بالنسبة إلى موضع
المعلق، من امتزاج طبائع، وعلم طب،
أو صناعة الكيمياء

• الطب الروحاني

• مطالع الشعاعات في مواليد الملوك
وتبليهم

• مقامات الملوك

• الانفعال الروحاني والانتقاد [الزباني]

• اتصال أنوار الكواكب تلقائي (كذا)

• مقام الحجة، وميل النفوس، والمجاهدة،
والطاعة، والعبادة، وحب، وتعشق،
وقناء الفناء، وتوجه، ومراقبة، وخلّة
دائمة الاشتغال الطبيعي

• فصل في المقامات للنهاية

- 357 • الوصية، والتَّخْتُم، والإيمان، والإسلام،
والتَّخْرِيم، والأهْلِيَّةُ
- 359 • الزَّائِرَجَة: الدائرة
- 360 • الزَّائِرَجَة: الجدول
- 362 • كَيْفِيَّةُ الْعَمَلِ فِي اسْتِخْرَاجِ أَجْوِبَةِ
المسائل من زَائِرَجَةِ الْعَالَمِ، بِحَوْلِ اللَّهِ
- 362 • تنبيه
- 375 • المثال في هذا السؤال السابق
- 376 • حُرُوفُ الْأَوْتَارِ
- 380 1. قَاضٍ، فِي الْإِطْلَاعِ عَلَى الْأَسْرَارِ
الْحَقِيقَةِ مِنْ رَهْمَةِ الْإِزْتِبَاطَاتِ الْحَرْفِيَّةِ
- 383 • وَمِنْ طَرَاثِقِهِمْ فِي اسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ
- 385 • قَاضٍ [فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَجْهُولِ مِنْ مَسْأَلَةٍ
مَا]
- 386 2. قَاضٍ، فِي الْإِسْتِزْلَالِ عَلَى مَا فِي
الضَّمَائِرِ الْحَقِيقَةِ بِالقَوَائِنِ الْحَرْفِيَّةِ
- 387 • صِفَةُ اسْتِخْرَاجِ قُوَى الْعُنَاصِرِ
- 390 • صِفَةُ اسْتِخْرَاجِ النَّسَبِ الْعُنْصُرِيَّةِ
- 391 30. عِلْمُ الْكِيمِيَاءِ
- 393 • [رِسَالَةُ ابْنِ بَشْرُونَ لِابْنِ السَّمْحِ]
- 403 • التَّادِيرُ عَلَى بَرَكَاتِ اللَّهِ تَعَالَى
- 409 31. قَاضٍ، فِي إِبْطَالِ الْقُلُوفَةِ وَفَسَادِ مُنْتَجِلِهَا

- 419 • 32 قُضِلَ، في إبطالِ صناعةِ التُّجُومِ وَضَعُفَ
مَدَارِكِهَا وَفَسَادِ غَايَتِهَا
- 424 • [قصيدة لأبي القاسم الرَّحَوِيِّ من
شعراء تونس]
- 427 • 33 قُضِلَ، في إنكارِ ثَمَرَةِ الكيمياءِ واستِحَالَةِ
وُجُودِهَا، وما يَنْشَأُ من المفاسِدِ عن انتحالِهَا
- 438 • 34 قُضِلَ، في المقاصدِ الَّتِي يَتَّبِعِي اعتمادُهَا
بالتأليفِ والغناءِ ما سِوَاهَا
- 444 • 35 قُضِلَ، في أَنَّ كثرةَ التَّوَالِيفِ في العُلُومِ عَائِقَةٌ
عن التَّخْصِيلِ
- 446 • 36 قُضِلَ، في أَنَّ كثرةَ الاختِصاراتِ الموضوعةِ
في العُلُومِ مُخِلَّةٌ بالتَّعْلِيمِ
- 447 • 37 قُضِلَ، في وَجْهِ الصَّوَابِ في تعلِيمِ العُلُومِ
وطَرِيقِ إِفَادَتِهِ
- 450 • قُضِلَ •
- 454 • 38 قُضِلَ، في أَنَّ العُلُومَ الآلِيَّةَ لَا تُوسِّعُ فِيهَا الْأَنْظَارَ
وَلَا تَقَرِّعُ فِيهَا الْمَسَائِلَ
- 456 • 39 قُضِلَ، في تَعْلِيمِ الْوِلْدَانِ، واختِلَافِ مَذَاهِبِ
الْأَمْصَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي طُرُقِهِ

460 • فُضِّلَ، في أَنَّ الشَّدَّةَ على المتعلِّمين مُضِرَّةٌ

بهم

462 • فُضِّلَ، في أَنَّ الرِّحْلَةَ في طَلَبِ العلومِ ولِقَاءِ

المَشِيخَةِ مزيدُ كَمَالٍ في التَّعْلِيمِ

463 • فُضِّلَ، في أَنَّ العُلَمَاءَ من بَيْنِ البَشَرِ أبعَدُ

عن السِّيَاسَةِ ومَذاهِبِهَا

465 • فُضِّلَ، في أَنَّ حَمَلَةَ العِلْمِ في الإِسْلَامِ أَكْثَرُهُمُ

العَجَمُ

469 • فَضِّلَ، في أَنَّ العُجْمَةَ إِذَا سَبَقَتْ إِلَى

اللِّسَانِ، فَصَّرَتْ بِصَاحِبِهَا في تَحْصِيلِ العُلُومِ

عن أَهْلِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ

473 • فَضِّلَ، في عُلُومِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ

474 • النِّخْو

477 • عِلْمُ اللِّغَةِ

482 • فَضِّلَ [في الثَّقَلِ الَّذِي تَتَبَّهُ بِهِ

اللِّغَةِ]

483 • عِلْمُ البَيَانِ

488 • عِلْمُ الأَدَبِ

490 • فَضِّلَ، في أَنَّ اللِّغَةَ مَلَكَةٌ صِنَاعِيَّةٌ

- 492 • 47 فُضِّلَ، فِي أَنَّ لُغَةَ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ، لُغَةٌ
مُسْتَقِيلَةٌ مَغَايِرَةٌ لِلُّغَةِ مُضَرَّ وَلُغَةُ جَمِيرَ
- 498 • 48 فُضِّلَ، فِي أَنَّ لُغَةَ الْحَضَرِ وَالْأَمْصَارِ لُغَةٌ
قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا مُخَالِفَةٌ لِلُّغَةِ مُضَرَّ
- 500 • 49 فُضِّلَ، فِي تَعَلُّمِ اللِّسَانِ الْمُضَرِّيِّ
- 501 • 50 فُضِّلَ، فِي أَنَّ مَلَكَهَ هَذَا اللِّسَانِ غَيْرُ
صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَمُسْتَفِيدَةٌ عَنْهَا فِي التَّعْلِيمِ
- 504 • 51 فُضِّلَ، فِي تَفْسِيرِ لَفْظَةِ الذَّوْقِ فِي مُصْطَلَحِ
أَهْلِ الْبَيَانِ، وَتَحْقِيقِ مَعْنَاهَا، وَيَبَيِّنُ أَنَّهَا لَا
تَحْصُلُ غَالِبًا لِلْمُسْتَعْرِبِينَ مِنَ الْعَجَمِ
- 509 • 52 فُضِّلَ، فِي أَنَّ أَهْلَ الْأَمْصَارِ عَلَى الْإِطْلَاقِ
قَاصِرُونَ فِي تَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكََةِ اللَّسَانِيَّةِ
الَّتِي تُسْتَفَادُ بِالتَّعْلِيمِ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ أَبْعَدَ
عَنِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، كَانَ حُصُولُهَا عَلَيْهِ
أَصْعَبَ
- 512 • 53 فُضِّلَ، فِي انْقِسَامِ الْكَلَامِ إِلَى فَنِّي النُّظْمِ
وَالنَّثْرِ
- 515 • 54 فُضِّلَ، فِي أَنَّهُ لَا تَتَفَقُّ الْإِجَادَةُ فِي فَنِّي
الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ مَعًا إِلَّا لِلْأَقَلِّ

516 55 • فَضْلٌ ، في صِنَاعَةِ الشُّعْرِ وَوَجْهَ تَعْلِيمِهِ

530 و 531 • [قصيدتان للتأشئ في الشعر]

532 56 • فَضْلٌ ، في أَنَّ صِنَاعَةَ النُّظْمِ وَالتَّثَرُّعِ إِنَّمَا هِيَ
في الأَلْفَاظِ لَا في المعاني

534 57 • فَضْلٌ ، في أَنَّ حَصُولَ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِكَثْرَةِ
الحِفْظِ ، وَجُودَتِهَا بِجُودَةِ الحِفْظِ

539 58 • فَضْلٌ ، في بَيَانِ المَطْبُوعِ مِنَ الكَلَامِ
والمُصْنُوعِ ، وَكَيْفَ جُودَةُ المُنْصُوعِ أَوْ قِصُورُهُ

547 59 • فَضْلٌ ، في تَرْفُعِ أَهْلِ المَرَاتِبِ عَنِ انْتِحَالِ
الشُّعْرِ

549 60 • فَضْلٌ ، في أَشْعَارِ العَرَبِ وَأَهْلِ الأَمْصَارِ
لهذا العهد

566 • الموشحات والأزجال للأندلس

604 • [خواتم النسخ المعتمدة ظ، ج، ي]

605 • المستدرك

607 • فصلٌ ، في اتِّسَاعِ نِطاقِ الدُّوْلَةِ أَوَّلًا إلى نِهَائِيَّتِهِ ،
ثُمَّ تَضَايِقِهِ ثَانِيًا طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ إلى فَنَاءِ الدُّوْلَةِ
واضمِحْلالِهَا

- 612 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الرِّياسَةَ لَا تَزَالُ فِي نِصابِها
المُختَصِّصِ مِنْ أَهْلِ العِصْمَةِ
- 615 • المِصادر والمِراجع
- 647 • المحتوى

Kitāb al-‘Ibar wa Dīwān al-Mubtada’ wa-l-Khabar

fī Ayyām al-‘Arab wa-l-‘Ajam wa-l-Barbar wa man
‘Āṣarahum min Dhawī al-Sultān al-Akbar

By

Walī al-Dīn ‘Abd al-Raḥmān b. Muḥammad
IBN KHALDŪN

BOOK ONE: THE PROLEGOMENA

VOL. 2

*Collated with the autograph manuscripts
and prepared with glossaries and indexes by*

Ibrahim Chabbouh

Tunis 2007

